المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

الطبعة الثانية

الموعظة الخالدة

دروسٌ في شرح وصية أمير المؤمنين الإمام علي (ع) لابنه الإمام الحسن المجتبى (ع)

تدوين وتحقيق: علي زينتي

ترجمة: عباس نور الدين



الموعظة الخالدة

دروسٌ في شرح وصية
أمير المؤمنين الإمام علي (ع)
لابنه الإمام الحسن المجتبى (ع)

آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي

تدوين وتحقيق: السيد علي زينتي

ترجمة: السيد عباس نور الدين

الطبعة الثانية

ISBN 978-614-440-154-5

[٢٠١٩م - ١٤٤١هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org

تصميم:
علي بزي

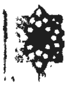
إخراج فني:
ابراهيم شحوري

طباعة




بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس







الدرس الأول

الموعظة السماويّة

- مقدّمة الحديث
- معنى الوصيّة ومفهومها
- ما معنى أن يحتاج الإمام المعصوم إلى وصية
- الموصي
- المخاطَب في الوصيّة
- الدافع من الوصيّة



«مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا، إِلَى الْوَلَدِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وغَرِيمِ الْمَنَايَا وَأَسِيرِ الْمَوْتِ وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَرصيد الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ.. فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هَمِّ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يُرَى معه لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِرًا بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ».

مقدّمة الحديث

نقل هذه الوصيّة المرحوم العلّامة المجلسيّ رضوان الله عليه في كتابه الشريف **بحار الأنوار**[١] وكذلك المرحوم الحرّاني مع اختلافٍ يسير في **تحف العقول**[٢]. وقد

(١) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٧٤، الصفحتان ١٩٨ و١٩٩.

(٢) ابن شعبة الحرّاني، **تحف العقول**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة ٢، ١٤٠٤ - ١٣٦٣ هـ.ش)، الصفحة ٦٨.

أدرجها المرحوم السيّد الرضيّ رضوان الله عليه في **نهج البلاغة**[1]. ولا شكّ أنّ هذا الحديث قد نُقل في كتبٍ أخرى، وفي معظمها عُبِّر عنه بعنوان: «وصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للإمام المجتبى صلوات الله عليه». والمُلفت أنّ بعض هذه المصادر ذكرت أنّ المخاطَب في هذه الوصيّة العلويّة هو محمد بن الحنفيّة، ونحن سوف نبحث في صحّة هذا الاحتمال وسُقمه إن شاء الله.

وعلى أيّ حال، هناك من الخصوصيّات والمميّزات في هذه الوصيّة التي قلّما نجد لها نظيرًا في غيرها من الوصايا. وهذه الوصيّة العظيمة التي احتوت من المضامين ما بلغ شأوًا عظيمًا، وبمقدّمةٍ ومدخلٍ خاصّ، من النادر أن نجد مثلها في مواضع أُخرى. وبالإضافة إلى هذا، فقد رُوعيت تلك الدقائق التربويّة والنفسيّة في كيفيّة تناول النقاط والخروج من المطالب ممّا يمثّل دروسًا فائقة الأهمية.

معنى الوصية ومفهومها

لا يُقصد من «الوصيّة» المستعملة هنا الوصيّة بالاصطلاح الفقهيّ التي تُستعمل لما بعد الموت، بل هو ما يستخدمه خطيب الجمعة مثلًا حين يقول: «أوصيكم بتقوى الله» فهو لا يقصد بكلامه هذا أنّه يوصي الناس بأن يكونوا أتقياء بعد موته. وهذه الوصيّة التي أوصى بها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي تحتوي على مواعظ ووصايا لا تقتصر على أبنائه فحسب، بل تشمل جميع الناس في مختلف العصور.

وفي بداية وصيته، يعرّف الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن نفسه، وبإظهار نفسه كموصٍ يذكر الحالة واللحاظ الذي يوصي على أساسه. ثمّ يعرّفنا على شخصيّة المخاطَب من هو وما هي ظروفه. ثمّ ينهي ذلك ببيان العلاقة بين الموصي والموصَى له. ونرى أنّ مقدّمة الوصيّة احتوت على مختصرٍ للوصايا العديدة التي ذُكرت فيما بعد بشكلٍ مفصّل.

---

(١) خطب الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٣، الصفحة ٣١، الرسالة ٣١.



ما معنى أن يحتاج الإمام المعصوم إلى وصيّة؟

وإن كان كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد تضمّن من حيث الكيفية العديد من المسائل التربويّة التي تبعث على المزيد من التأمُّل، ولكن ذلك النحو الخاصّ من الشروع وختم المطالب، والخصائص المبيَّنة للموصي والموصَى له، قد أدّت إلى حصول بعض الشبهات والاستنتاجات الخاطئة من هذه الوصيّة. وكمثالٍ على ذلك قد ذُكر للموصي، وهو أمير المؤمنين صلوات الله عليه، من الأوصاف ما لا ينسجم للوهلة الأولى مع الإمام المعصوم. والأمر نفسه بالنسبة للمخاطَب، أي الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، حيث وُصف في هذه الوصية بخصائص لا تتناسب مع مقام وشأن إمامٍ معصوم.

لذا، رجّح البعض أنّ المخاطَب في هذه الوصيّة هو محمد بن الحنفيّة، وعدّها أقرب إلى الصواب، ذلك لأنّ العبارات المستخدمة في هذه الوصيّة بشأن الموصي والموصَى له لا تنسجم مع مقام العصمة والإمامة، إلّا إذا اعتبرنا أن المخاطَب شخصٌ غير معصوم. وكان لهذا النحو من التعبير الأثر في حدوث هذا الاستنتاج الخاطئ من هذا الحديث الشريف.

هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإنّ أولئك الذين يعانون من ضعف الإيمان قد اعتبروا هذه الرواية شاهدًا على عدم عصمة الأئمّة الأطهار عليهم السلام وقالوا إنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام لم يعتبروا أنفسهم في مقام العصمة وإنّ هذه المقامات التي نسبها الشيعة للأئمّة المعصومين ليست إلّا من باب الغلوّ والمبالغة. فإنّ الأئمّة أنفسهم لم يعدّوا أنفسهم من أهل علم الغيب والعصمة، وهذه الوصيّة شاهد على أنّهم أشخاص عاديّون خطّاؤون! بل إنّهم في بعض الأحيان من الجاهلين!! وتمسّكت هذه الطائفة بأحد الشواهد لدعم ادّعائها مثل التعبيرات الواردة في بداية هذه الرواية والوصية. كقوله عليه السلام «تاجر الغرور» أو «صريع الشهوات» وهو يستخدم هذه العبارات في وصف مخاطَبه، أي الإمام الحسن عليه السلام، وهذا لا يتناسب أبدًا مع كون الإمام معصومًا! فحين يقول عليّ عليه السلام: إنّني أوصي مَن «صرعته الشهوات» فهو يعني أنّه يخاطب ذلك الذي انهزم في ميدان مجاهدة النفس والشهوات، وهذا التعبير لا ينسجم مع إمامة الإمام الحسن عليه السلام. فالمخاطَب في هذه الوصية إذًا ليس الإمام الحسن، أو أن لا نقول - كما هو رأي البعض - بالعصمة للأئمّة الأطهار عليهم السلام على نحو الضرورة.

ولكن ما سيتبيّن لنا أنّ هذين القولين لا يتمتّعان بالصحّة. ولا شك بأنّني لا أقول إنّ هذه الرواية قطعيّة من حيث الصدور وإنّ كلّ عباراتها قد صدرت كما هي من الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولكن حين ننظر إلى مضمونها ومحتواها، ونشاهد تلك العبارات السامية والعمق الإلهي، وكذلك حين نشاهد عظماءنا ينقلون هذه الرواية، فإنّا نظنّ ظنًّا قويًّا بأنّها صدرت عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ومن جانبٍ آخر، لو تأمّلنا قليلًا في العبارات الواردة في هذه الوصيّة لأدركنا عدم صحّة القولين المذكورين، ذلك لأنّ الإمام عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يريد بهذه الوصيّة أن يبيّن ما ينفع جميع الناس. فلو كان الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يعظ من حيث هو إمامٌ معصوم شخصًا آخرًا على أنّه إمام معصوم، فلا شكّ أنّه كان سيستخدم تلك العبارات التي تتناسب مع مقام العصمة، والتي بالطبع لن نكون قادرين على الاستفادة منها؛ ولاحتوت وصيّته عندئذٍ على نُكاتٍ في غاية الدقّة وعلى مستوىً عالٍ جدًا لا يمكن أن يكون مفيدًا لنا. ولو افترضنا أنّ الأمر كذلك، فكّروا ماذا كان معصومٌ ليقول إلى معصوم آخر إذا أراد أن يوصيه! فمن الواضح جدًّا أنّه لو كان هناك مثل هذه الوصيّة، مع الالتفات إلى ما يحيط به كلّ معصومٍ من العلم الإلهيّ، حيث لا يخفى عليه شيء، لما كان في الكلام ما هو مفيدٌ لغيرهِم، ولقلنا إنّ هذا كلامٌ صدر من معصومٍ إلى معصوم ولا دخل لنا به.. فلا نستفيد منه.

ولكن الحق هو أنّ أمير المؤمنين سلام الله عليه وإن كان قد وجّه الخطاب إلى ابنه المعصوم، ولكنّ هدفه الأساسي هو أن يستفيد عامّة الناس منه. وقد يكون الهدف الأساسي توجيه الكلام للآخرين حيث لم يكن الإمام الحسن صلوات الله عليه بحاجةٍ إلى مثل هذه الوصية.

وعلى أي حال، فإنّ هذا النحو من الخطاب الذي يبدأ بتشخيص منزلة الموصي، ثمّ يبيّن مقام الموصَى له، يفيد هذا المعنى وهو أنّ الإمام لا يوصي من حيث هو إمام، سواءٌ كان الموصَى له معصومًا أو غير ذلك. بل إنني أوصي بعنوان الأب العجوز الذي قضى عمرًا وهو يشرف على الموت. والملفت أنّ في بيان صفات الموصَى دلالة على أنّ المخاطَب في هذه الوصيّة يمكن أن يكون أي شخصٍ يعيش هذه الحالات وإن كنّا نرى أن المخاطَب المباشر هو الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الموصي

والآن إذا أردنا أن نتعرّف إلى المتحدّث بهذه الوصيّة، أيّ شخصٍ هو؟ نقول إنّ الإمام عليه السلام يعرّف نفسه بالأب العجوز الذي شارف على الموت وهو في معرض التوصية إلى شاب قد بلغ أوج شبابه.

وتُصوّر لنا هذه العبارات تلك الجهة التي ينظر فيها الإمام إلى نفسه، حيث يرى نفسه مجرّد أب؛ أب عجوز يوصي انطلاقًا من تجاربه ومعارفه الكثيرة التي استفادها من حياته ومن تاريخ الماضين ويوجّهها لمن لم يدرك مشاكل الحياة بعد، وما زالت المصائب الكثيرة تنتظره والتي يجب عليه مواجهتها بعوده الطريّ ويده الناعمة. وأيّ شابٍّ يرى نفسه يواجه المشاكل الكثيرة في المستقبل وينتظر نصيحة لتكون موجّهًا لحياته، فإنّه يحب أن يستفيد من هذه الوصيّة.

ولو قال الإمام علي عليه السلام: هذِهِ وصيَّةٌ مِنَ الإمام المَعْصُوم عليٍّ أميرِ المُؤمِنينَ إلى وَلَدِهِ المَعْصُوم الحَسَنِ بِنْ عليٍّ؛ لما أوجد في الآخرين الرغبة للاستماع إليها والتفكّر فيها، لأنّهم سيقولون إنّ هذا حديثٌ خاص بين إمامين معصومين ولا علاقة لنا به. لهذا، فإنّ الإمام ينزّل نفسه ويجعلها في موقعٍ خاص ويضعها في قالب الحوار بين والدٍ عجوز وابنه الشاب وهو يخاطبه حتّى يتمكّن جميع الشباب من الاستفادة من هذه الوصيّة. وهذا بذاته يشكّل دافعًا للآخرين لكي يستفيدوا ويعتبروا من هذه الوصيّة. لذا، فإنّه أشار إلى العلاقة التي تربط الأب بابنه بشكلٍ دقيق. وقال: إي بني! كم أنا أحبّك! فأنا أحبّك إلى درجة أنّني لا أقدر على نسيانك حتى حين يكون كلّ ذهني مشغولًا بنفسي!

إنّ الحياة اليوميّة بمسائلها المختلفة تشغل بال الإنسان وتنسيه ما عداها. وبسبب المسؤوليّات المختلفة التي تقع على عاتقه أو بسبب ما يشاهده ويحصل له، فإنّ الكثير من المسائل تستغرق انتباهه. ولكن رغم ذلك، فإنّ الوالد هنا لم ينسَ ابنه وبضعته مطلقًا. ولهذا، كان الإمام يقول: حين أضع الآخرين جانبًا وأكون مع نفسي، فإنّني لا أقدر على نسيانك. أنت يا بني كجزءٍ من وجودي، بل أنت كلّ وجودي. أنت نفسي.

ويبيّن الإمام علي عليه السلام هذا الكلام من جهة أنّ الإنسان يستمع إلى نصيحة الآخرين بقلبه حين يطمئنّ إلى أنّها لخيره، وحين يتحصّل لديه الاعتقاد القلبيّ بأنّ



هذا الكلام إنّما يُقال له بدافع الحبّ والمصلحة. ويمكنكم أن تختبروا هذا الأمر في أنفسكم. فبالمقدار الذي تطمئنّون به لشخصٍ ما، فإنّكم تُقبلون على كلامه وتنصتون إليه. ولهذا، إذا كنتم تحتملون أنّه يقول هذا الكلام بالتوجّه إلى مصالح شخصٍ آخر - كان هذا الكلام جيّدًا أم سيّئًا - لكنّه غير ناظر إلى مصلحتكم ولا ينطلق من الحرص عليكم، فإنّكم بالكاد تنصتون إلى كلامه أو تعتنون به. أمّا إذا كنتم مطمئنين إلى أنّ ما يقوله لكم نابعٌ من الحرص عليكم وطلب صلاحكم، فإنّكم تتأمّلون في كلامه بدقّة لتعرفوا مقصوده ولتعملوا به.

وبعد أن عرّف أمير المؤمنين نفسه في هذه الوصيّة بأبٍ يقضي آخر سنوات عمره، فقد اعتبر أنّ مخاطَبه ابنٌ شاب معرّض للآفات والبلايا والمصائب الكثيرة، ويقول: إنّ حبّي لك بالغٌ إلى درجة أنّي أراك جزءًا منّي لا بل أراك كلّي! لهذا، فإنّ المخاطَب الذي يقرأ هذا الكلام سيلتفت إلى مدى الخير الذي كان يريده المتحدّث للمستمع، وأنّ هذا الكلام نابعٌ من شدّة الحرص والشفقة. فباليقين، حين يخاطب الأب ابنه بمثل هذه الطريقة ويبيّن له مثل هذه الأمور - وهو أب كأمير المؤمنين، ويرى ابنه بمثابة نفسه - فمن الجدير بنا أن نستفيد أيضًا من هذه الوصيّة وأن نتعرّف إلى أيّ سرٍّ فيها، وما هو الشيء الذي يؤدّي إلى السعادة حتّى نسعى إليه ونصبح من أهلها. فأمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوجد في الواقع بهذه الطريقة الدافع بدايةً لكي يُلفت نظر المخاطَب أكثر، ثمّ يبيّن له ما يريده ويُفصح عن مقاصده الدقيقة والجوهريّة.

وكما قيل، قلّما نجد من المواعظ ما راعى مثل هذه الخصوصيات الموجودة في هذه الوصيّة الإلهيّة؛ فإنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورغم الظرف الذي كان فيه، حيث كان قد رجع لتوّه من معركة صفّين وفرغ من مشاكل الحرب ومتاعبها؛ تلك الحرب التي انتهت إلى قضيّة التحكيم وما آلت إليه. فإنّه يقوم بنقل حصيلة تجارب عمره دفعةً واحدة إلى ابنه. ولأنّ العمر قد أشرف على الانتهاء ولا ينبغي تضييع الفرصة، فإنّه ينقل ما اكتسبه في هذا العمر البالغ ستين سنة إلى أفضل إنسانٍ، الذي اعتبره جزءًا من وجوده بل تمام وجوده، ومن هو الأجدر من ذلك الابن الذي يمثّل ثمرة شجرة الستين سنة من العمر لكي يتلقّى تلك النصيحة؟!

على أيّ حال، لقد بُيّن في هذه الوصيّة القيّمة مطالب نفيسة حيث تمّ بيان،



وبمنتهى الحرص، أفضل الذخائر وأكثرها فائدةً وذات تأثير في كمال الإنسان. كلّ ذلك، على أمل أن تبعث هذه البيانات في القائل والمستمع والقارئ المزيد من الاهتمام والعناية بفهم هذه الوصيّة والعمل بها إن شاء الله.

ففي هذه الوصيّة إذًا، يعرّف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه كوالدٍ عجوزٍ أشرف عمره على الانتهاء وبدون أن يأخذ قضيّة الإمامة وعلم الإمام وعصمته في نظر الاعتبار ويوجّه النصيحة لابنه قائلًا:

«**مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدهْر، والذَّامِّ لِلدُّنْيَا...**»؛ هذه وصيّة من والدٍ قد أشرف على الآخرة وهو يضع الدنيا وأيامها وراء ظهره.

والملفت هنا أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقل أنا علي أمير المؤمنين أو أنّ هذه وصيّة من أمير المؤمنين، بل كان يقول إنّها وصيّة أبٍ فانٍ يشرف على الموت ويقرّ بمرور الزمان... كلّ ذلك لأجل أن يعتبر الآخرون أنفسهم مخاطَبين بهذه الوصيّة. بالطبع، إنّ التعبير: «**المُقرّ للزمانِ**»، يبدو غريبًا نوعًا ما بالنسبة لنا. ولعلّنا يمكن أن نفهم منه هذا المعنى: هو أنّ الإنسان يحبّ بطبعه أن يسيطر على تلك العوامل التي تهدّد حياته وتنغّص عليه لذّاته ويكرهها ويريد القضاء عليها. فإحدى الأمور التي تسلب الراحة من الإنسان هي مسألة مرور الزمان الذي يجعل الشاب عجوزًا. فرُغم أنّ الحياة في الشيخوخة تستمرّ لمدّة، لكن في النهاية، سيضعف هذا العجوز ويهزل ثمّ يموت. فلو لم يكن للزمان انقضاءٌ، لكان الإنسان قادرًا على البقاء والخلود إلى الأبد. فالإنسان لا يميل إلى قضاء عمره وختم حياته، بل يريد أن يبقى وأن يكون له عمرٌ مستديمٌ وأبديّ؛ وهذا ميلٌ فطريٌّ في كلّ إنسان. ولكن ما الفائدة من مقاومة مرور الزمان الذي هو حقيقة لا مفرّ منها؟! يجب الإذعان بأنّ الإنسان موجودٌ، له أجلٌ محدود ولا بد أن ينقضي عمره.

لهذا، مهما كان الموت مرًّا والإنسان يفرّ منه، في النهاية لا بدّ أن يقبل به. فالوالد يوصي ابنه بقبول هذا المعنى والتسليم للزمان وهو يعلم يقينًا أنّ الزمان في حالة جريانٍ ولا يمكن الوقوف مقابله. وبعبارةٍ أخرى، إنّ معنى «**المُقِرّ للزمانِ**» هو الذي يستسلم له ولا يقاومه؛ أي إنّني أقبل أنّ العمر محدودٌ وأنّه سوف ينتهي ذات يوم.



وهكذا، فبتبع هذا الأمر المسلَّم يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**المُدْبِرِ العُمُر**»؛ أي إنّه يجعل أيّام حياته يومًا بعد يوم وراءه، فهو زائلٌ عند الدنيا لا رجوع له إليها. وهذا الأب الذي يسلّم للدهر، وقوله: «**المستسلِمِ للدَهْر**» يشبه قوله: «**المقرِّ للزّمانِ**». ولا شكّ بأنّ هذا التعبير أشدّ بلاغةً وقوّةً، وهو يجسّد حالة شخصين يتحاربان في ميدان المعركة، ويدرك أحدهما أنّ خصمه على وشك الانتصار، فيرفع يديه إلى الأعلى ويستسلم. وهكذا، تكون حالة الإنسان مقابل مرور الزمان، فمع أنّه لا يرغب بالتسليم لانقضاء الزمان ويريد البقاء والأبديّة، لكنّه سيرى نفسه في مواجهة الزمان مهزومًا لا محالة ويستسلم، وسيرفع يديه إلى الأعلى ويتقبّل هذا القدر. أجل، ينبغي أن نعبر هذا الزمان ولا مفرّ من انقضائه. لهذا، فالمقصود من «**المستسلم للدهر**» هو الذي يرفع يديه في قباله كعلامةٍ على الاستسلام والإذعان بمرور هذا العمر وانقضائه وعدم القدرة على مواجهته.

وفي تتمّة كلامه، يعرّف الإمام نفسه كموصٍ على هذا النحو: «**الذّامِّ للدّنيا**»، أي إنّ هذه الوصيّة صادرة عن شخصٍ قد أمضى عمرًا وهو ينظر إلى الدنيا نظر الذامّ لها. وكأنّه يقول: لا تتوقعنّ منّي في هذه الوصيّة أن أذكر لك ما يرغّبك بزخارف الدنيا وبهارجها، بل إنّني من البداية وبناءً على هذه النظرة الذّامّة للدنيا سوف أذمّ هذه الدنيا في كلامي. فكيف يمكن لوالدٍ قضى عمرًا وهو لا يرغب في الحياة الدنيا، أن يقول للآخرين أن يقدّروا حياتهم الدنيا، وأن يسعوا مهما أمكنهم لتحصيل لذّاتها؟! هذا غير ممكن. فهذا الوالد يوجّه نصيحته بهذه الطريقة: لا تعتبروا أنّ للدنيا مقامًا ولا تخضعوا لها أو تمدحوها، لا بل إنّه يقول: إنني أذمّ الدنيا، ذلك لأنني حللت مكان مَن قد مضى قبلي؛ أي إنّني أعيش في مكانٍ قد عاش فيه من سبقني، وها هم الآن قد ارتحلوا ولم يبقَ لهم عينٌ ولا أثر وأنا عمّا قريب سأرتحل مثلهم.

لقد كان يعيش في هذه الأرض ومكان سكننا آلاف البشر قبلنا، وها هم قد رحلوا عن هذه الدنيا، فهل سيكون لنا نحن الذين حللنا مكانهم البقاء والحياة الخالدة؟ قطعًا، نحن أيضًا سنموت مثلهم. فهذا الأب هو أبٌ يرى نفسه على مثل هذه الحال؛ إنّه واحدٌ من قافلة الموتى التي عبرت من ذلك المكان. فكلّ واحدٍ منهم قد توقّف مدّةً من الزمن في هذا المنزل ثمّ ظعن عنه وارتحل وأنا أيضًا سألحق بهم. ولهذا، كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمّة كلامه يعرّف الموصي



بقوله: «**الظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً**». أي إنّها وصيّة من سيرتحل ويترك هذا المنزل غدًا أيضًا. وصحيحٌ أنّه توقّف في هذا المنزل، إلّا أنّ استقراره فيه مؤقّتٌ وسوف يلتحق بتلك القوافل السابقة ليصبح واحدًا من الأموات.

وبهذا البيان، تتّضح موقعيّة الموصي. ومن أراد أن يتعرّف على الموصي يكفي أن ينظر في هذه الخصائص والصفات ويتأمّل فيها ليتعرّف عليه، ثمّ يأخذ بعين الاعتبار مفاد هذه الوصيّة، فيما إذا كان نافعًا له أم لا.

المخاطَب في الوصيّة

وفي تتمّة كلامه، يعرّف أمير المؤمنين عليه السلام المخاطَب في وصيّته بقوله: «**إِلَى الْوَلَدِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ...**».

فهذا الوالد يوصي ابنه وينقل إليه حصيلة عمره. وهذا الولد يعيش الأماني حيث شعلة الشباب فيه متّقدة. نحن نعلم أنّ مرحلة الشباب هي مرحلة الآمال والأماني. ولو لم يكن لهذه الآمال من وجود، لما كان لأحدٍ أي نشاطٍ في هذه الدنيا؛ فإنّ حياة الإنسان توأم الآمال. والنشاط الذي يعيشه الشاب في هذه المرحلة إنّما ينشأ من الأمل الزائد فيه. وكلّما اقترب من الشيخوخة والوهن، فإنّ أمله يقلّ ويقلّ معه نشاطه. وقوله عليه السلام: «**السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ**»، يشبه العبارات القرآنيّة من جهةٍ حين يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]؛ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[3]، والتي من الممكن أن تثير في بعض الأذهان هذا السؤال الطفوليّ وهو: هل إنّ هذا الذمّ الموجّه للإنسان يشمل المعصومين أيضًا؟ وهل أنّ كلّ معصوم قد خُلق عجولًا وهلوعًا؟! وهكذا؛ كسائر الصفات المذمومة التي وردت في القرآن الكريم بشأن الإنسان؛ فهل تشمل الأئمّة عليهم السلام؟ وجواب هذا الكلام واضحٌ. فالمخاطَب

(١) سورة **العصر**، الآية ٢.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ١١.

(٣) سورة **المعارج**، الآية ١٩.

في هذه الآيات هو الإنسان العادي، وقد ذُكرت هذه العبارات بغضّ النظر عن الخصائص الإلهيّة الخاصّة والمقامات التربويّة التي كانت لأئمّة أهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ؛ أي إنّ مقتضى الطبيعة الإنسانيّة الهلع والعجالة وغيرها. والنوع الإنسانيّ مخلوقٌ على هذه الشاكلة. وينبغي أن نلتفت إلى أنّ الإمام حين يقول إنّني أوصي ولدي الذي يعيش الآمال والأماني والتي لن يصل إليها، أو تلك الصفات الأخرى التي فيها حالة الطعن أو التقبيح، فلا يعني ذلك أنّ الإمام الحسن عَلَيهِ السَّلَامُ مبتلًى بهذه الصفات، بل إنّه عَلَيهِ السَّلَامُ يقصد بذلك أنّني من هذا المقام أنصح أيَّ شابٍّ يعيش هذه الحالات، وأفترض نفسي كإنسانٍ عادي وكذلك أفترض حال ابني؛ وحيث إنّني من هذه الجهة أُعدّ والدًا عجوزًا وابني شابٌّ، ولديّ الكثير من التجارب التي لم يمرّ بها، فإنّني أريد أن أنقل له حصيلة تجاربي.

فمن الواضح إذًا أنّ التصوّرين السابقين غير صائبين ولا علاقة لهما بما قلنا. لهذا، يقول: «**...السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ وَ...**»، فالمخاطَب في هذه الوصيّة هو من يسلك طريق أولئك الذين ارتحلوا عن هذه الدنيا وهلكوا. ولا شكّ أنّ الهلاك المذكور هنا ليس له ذلك المعنى القيميّ، بل إنّه بمعنى الموت فقط، وقوله «غرض» يعني هدف. ومن الطبيعي أنّ الشباب سيُلاقون في حياتهم المشاكل ويعانون من الأمراض والمصائب ويكونون أهدافًا لها ترميهم بسهامها دومًا. وبعبارةٍ أخرى، إنّهم أهداف الأسقام والأمراض ورهائن الأيّام. فالدهر يأسرهم والمصائب تستهدفهم كما تستهدف السهام ذلك المرمى.

ويبيّن الإمام عَلَيهِ السَّلَامُ في هذا المجال حقيقة الموصَى بعبارتين أخريين من الممكن أن تؤدّيا إلى أن يقع البعض في توّهم أنّ المخاطَب في هذه الوصيّة هو محمّد بن الحنفيّة، وليس الإمام المجتبى عَلَيهِ السَّلَامُ الذي هو أحد المعصومين. وقد ذُكرت تانك العبارتان في كلام أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ حين خاطب ابنه بقوله: «**عَبْدُ الدُّنْيَا**»، «**وَتَاجِرُ الْغُرُورِ**». وهذا التعبير بعيدٌ عمّا هو مألوف ويُعدُّ أمرًا مستهجنًا ويظهر لنا كمفهوم سلبيٍّ جدًا من الناحية القيميّة، هذا في حين أنّ المقصود من هذا البيان الإشارة إلى أحد المعاني والمفاهيم التكوينيّة. فالموجود في هذا العالم سيكون محكومًا لسلسلة من العوامل الطبيعيّة السائدة فيه. وهذه العوامل ستسيطر عليه وتمتلكه، فيكون عبدًا لها وعليه أن يستسلم لقوانينها الحاكمة



على عالم الطبيعة. وبغضّ النظر عن تلك التأييدات الإلهيّة والتعاليم السبحانيّة، فإنّ الإنسان بما هو إنسان - بما يشمل الأنبياء والأولياء وغيرهم من المؤمنين - سيكون بشكلٍ طبيعيّ محكومًا لقوانين الطبيعة. فمثل هذا الموجود تكون تجارته تجارة الغرور، ذلك لأنّنا إذا التفتنا إلى ما سيتبعه وما سيبادله وما سيلاقيه، لوجدنا أنّ حقيقة الحياة الدنيا ليست إلّا متاع الغرور؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]. وحين يكون الوضع العام على هذه الحالة، فإنّ كل من ينشغل بمتاع الدنيا، يكون بحكم عالم التكوين تاجر الغرور. لهذا، فإنّ كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس في مقام ذمّ المخاطَب بحيث يكون المعنى أنّك إذا كنت من تجّار الغرور، إذًا قد ارتكبت عملًا سيّئًا جدًّا! بل المقصود أنّ طبيعة الحياة الدنيا على هذه الشاكلة. وهذا الكلام يبيّن الواقع التكوينيّ للدنيا.

أجل، ففي مقام الموعظة ينبغي أن يكون الحديث على هذا النحو بحيث إذا رجع المخاطَب إلى نفسه يلتفت ويعرف إذا كان من تجّار الغرور، فلا يتعلّق قلبه بمتاع الغرور.

وفي تتمّة حديثه، يصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطَبه، أي الإنسان، بقوله: **«وغَرِيمِ الْمَنَايَا وَأَسِيرِ الْمَوْتِ وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَرصيد الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ».** فالإنسان هنا واقعٌ في الدَّين وهو مديونٌ للموت والبلاء والمصائب وقد أحاط به الموت وصار حليفًا للغموم والآلام وقد أسرته الآفات والبلايا. فهو مديونٌ، وطالبه لا يمكن أن يتركه. فالأجل هو الطالب الذي يطلب كل إنسانٍ، ولا يُعرض عنه حتى يصل إلى مطلوبه. فالإنسان إذًا غريمٌ ومديونٌ، وقد وقع في قبضة دائنه الذي يطالبه، وهو الموت والآفات والبلايا.

والعبارة الأخرى التي لا يراها البعض متناسبة مع مقام الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ بشأن ابنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَرصيد الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ»**؛ فأنت أيّها الشاب! تلازم الهموم وتصاحب الأحزان وستحيط بك الآفات والمصائب وتكون أسيرًا للأهواء النفسانية ومغلوبًا لها. وأولئك الذين لا يرون هذه العبارات متناسبة مع مقام الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ يقولون: إنّ هذا المقام

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٨٥.





يفترض أنّ الإمام الحسن عليه السلام إنسان يواجه الشهوات ثمّ يُهزم في هذه المواجهة ويسقط أرضًا. فالصريع هو الذي يسقط أرضًا أثناء المصارعة. وصريع الشهوات هو الذي غلبته الشهوات. فهل يمكن أن يكون حال الإمام الحسن كمن تغلّبت عليه شهواته؟!

ولكن ينبغي أن نلتفت إلى أنّ هذا الكلام يبيّن إحدى مظاهر الواقع؛ وهي أنّ الله تعالى قد سلّط الغرائز على الإنسان بنحوٍ لا يمكن أن يفرّ منها بشكلٍ تام. ولو لم تكن هذه الغرائز موجودةً فيه لما كان لهذه الحياة الدنيا من استمرار؛ سواءٌ تلك الغرائز التي تؤدّي إلى بقاء الحياة الشخصيّة، كالطعام والشراب، أو تلك التي تكون سببًا لبقاء النوع الإنساني، كالغريزة الجنسيّة وأمثالها. فجميع هذه الغرائز أدواتٌ تستمرّ الحياة الدنيا بواسطتها. هكذا هو الإنسان، شاء أم أبى، مخلوقٌ على النحو الذي لا يمكنه أن يحرّر نفسه من هذه الغرائز كلّيًّا وينجو منها بشكلٍ تام ويتسجيب تجاهها جميعًا بسلبيّة. فالإنسان العادي لا يمكنه أبدًا أن يفعل ذلك. أمّا بالنسبة لغير الإنسان العادي، هل يقدر على ذلك، فهذا حديثٌ آخر لسنا بصدد التعرّض له في هذا المقام. فالحديث والبحث هنا حول ذلك الشاب الذي يعيش الغرائز التي تسلّطت عليه، وهو لا يقدر على الفرار من قبضتها. وينبغي أن نلتفت إلى أن إرضاء كل غريزةٍ ليس مرفوضًا، بل إن إرضاء بعض هذه الغرائز وتلبيتها يُعدّ في بعض الأحيان واجبًا.

والصفة الأخرى للموصَى إليه، الواردة في كلام الإمام عليّ عليه السلام قوله: «**وَخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ**». فالمستمع إلى هذه النصائح والمخاطَب بهذه الوصيّة هو كالموصي بها، قد سكن مساكن الموتى واستقرّ في المكان نفسه الذي سكنوا وعاشوا فيه؛ لذا، فإنّ الذي يستمع إلى هذه الوصيّة هو أيضًا خليفة الموتى. فأنا وأنتم كمخاطَبين في هذه الوصيّة، يجب أن نلتفت إلى أننا حللنا في المكان الذي لا يمكن أن نبقى فيه إلى الأبد.

فكلّ ما ذُكر حتّى الآن يرتبط بتعريف الموصي والموصَى له، وهو يحوي على العديد من النقاط التربوية الخاصّة.



الدافع من الوصيّة

وبعد تعريف الموصي وبيان خصائص المخاطَب في الوصيّة، يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ الدافع من هذه الوصيّة والعلاقة بين الموصي والموصَى له، حيث يقول: **«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي...»**.

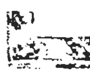
فحين ألتفت إلى أنّ هذه الدنيا صارت ورائي وانقضى عمري وأشرفت على الآخرة، ينبغي أن يكون حالي مانعًا من الالتفات إلى غيري ولا يهمني التفكير بهم، بل عليّ أن أفكر بنفسي ولا أهتمّ بغيرها. ولكن ماذا أفعل فإنني لا أقدر على نسيانك. وحين أتوجّه إلى نفسي وأهتمّ بها وأرى أنها قد أشرفت على الموت - وخاصّة حين ألتفت إلى أن آخرتي قريبةٌ وأنّ الحياة الأبدية وشيكةٌ يجب أن أنسى كل ما عداي ولا أهتمّ بغيري - ففي هذه الحالة التي أكون مشغولًا بنفسي، لا أغفل عنك.

وبعبارةٍ أخرى، حين يكون همّ الناس في قلبي بدل همّ نفسي ولا يبقى من الهموم سوى هذا الهمّ ويحدثني فكري وعقلي بكلّ صدق ويظهر لي ظهورًا صحيحًا ويصرفني عن هوى نفسي ويصبح عملي الخالص زلالًا وناصعًا ويصفو من الكدورات والمنغّصات ففي مثل هذه الحالة أراك نفسي. هكذا يرتبط ويتّصل الإمام بمخاطبه حيث يقول إنّني حين أكون منصرفًا بخلوص وصفاء تامّ لنفسي ويتجلّى فكري تجلّيًا حقيقيًّا وجديًّا وبعيدًا عن أيّ نوع من الهزل واللعب - صدق لا يشوبه كذب - ففي مثل هذه الحالة فإنّني لا أراك بضعة مني بل أراك كلّي.

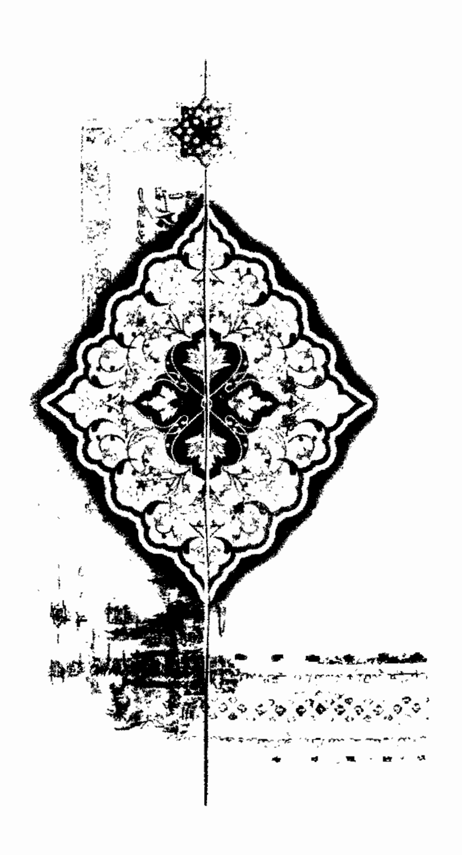
وبغضّ النظر عن أنّ وجود الأئمة صلوات الله عليهم نورٌ واحد وحقيقة واحدة، فمن حيث مخاطبة الوالد لابنه، فإنّه يرى ابنه في البداية بعضًا من وجوده الذي انفصل عنه من حيث التكوين، وحين يلتفت إلى أنّه سيرتحل عن هذه الدنيا ويصبح ابنه خليفةً له، فإنّه يتصوّر كأنّه هو الذي سيبقى بصورة ابنه. ففي هذه الحالة، سيرى ابنه كلّ وجوده وسيرى نفسه باقيًا فيه. ولكنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول ذلك لأجل أن يلفت نظر السامع ويقول له إنني أحبّك وأريد كل الخير لك وأحرص عليك وكلّ ما أريده لنفسي أريده لك أيضًا: **«حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي»**؛ فإنّ أي مشكلة تنزل بك كأنّها نزلت بي وأصابتني. إنني أراك ونفسي شيئًا واحدًا

بحيث لو أن الموت أحاط بك فإنّني أراه موتي. فكلّ شيءٍ أراه مهمًّا لنفسي، أعتبره مهمًّا لك.





وكما تعلمون، فإنّ في الحياة أمورًا يوليها الإنسان أهميّةً فائقةً. وفي الوقت نفسه، لا يكترث للكثير من الأمور الأخرى ويكون وجودها وعدمها بالنسبة له سيّان، وكأنّها لا تتمتّع بأيّ أهميّةٍ. ولهذا، يقول الأميرعَلَيْهِ‌السَّلَامُ: إن ما كان أمرًا مهمًا وحيويًا بالنسبة لي، أعتبره مهمًا لك. وحيث إنّ حالتي هكذا وأجدك على هذه الحالة، **«كَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِرًا بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ»**؛ فهذه الوصيّة قد كتبتها لك وجعلتها عونًا لك لتستفيد منها، سواءٌ بقيت أم رحلت عن هذه الدنيا، هذه الوصيّة هي حصيلة عمري أجعلها بين يديك.



الدرس الثاني
القيم الأساسيّة

- ❖ أفضل القيم
- ❖ التقوى محور القيم
- ❖ ذكر الله
- ❖ الاعتصام بحبل الله
- ❖ الغفلة منشأ الانحراف



«فَأُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ يا بُنَيَّ وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ جلَّ جِلالُهُ إِنْ أَخَذْتَ بِهِ»[١].



كما مرّ، فإنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ قد عرّف مخاطَبه في هذه المواعظ الإلهيّة بخصائص محدّدة وعدّد للموصي والموصَى له جملةً من الأوصاف بحيث يكون هذا النحو من الكلام سببًا ليرى الآخرون أنفسهم مشمولين بهذه الصفات ويعدّوا أنفسهم مخاطَبين في هذه الوصيّة.

فمن هذه الجهة، سيتعرّفون على من يستمعون إليه في هذه الوصيّة، وما هي العلاقة بين الموصي والموصَى له، وما هي الدوافع التي حملت الموصي على كتابة هذه الوصيّة. فبيان هذه العلاقة والنسبة يؤدّي إلى نشوء حالةٍ من الارتباط العاطفيّ والعقلانيّ العميق بين المخاطَب والمستمع إلى هذه الوصية والموصي، ويطمئن المستمع إلى أنّ الموصي يريد خيره. وهذا الأمر يتضمّن بحدّ ذاته نكتةً مؤثّرة جدًا في قبول الموعظة والنصحية. وهكذا، بعد اكتساب ثقة واطمئنان المخاطَب ينوّر أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ قلب وذهن كلِّ صاحب لبٍّ وعقلٍ سليم ببيان القيم الحقيقية.

---

(١) وهذا المقطع من الوصية قد ذكر في بعض المصادر الأخرى باختلاف يسير لهذا أعرضنا عن ذكر الاختلافات حفاظًا على المعنى الكليّ.



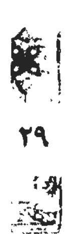
أفضل القيم

في البداية، يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خلاصة من وصاياه بصورةٍ مقتضبة، وهو الأمر الذي يُعدّ أيضًا أحد الميزات الخاصة من بين الميزات الكثيرة لهذه الوصيّة الفريدة، حيث استبطنت كل ميزة فيها مجموعة نُكات تربويّة. وإحدى تلك النُكات هي أنّ الإنسان إذا لم يجد متّسعًا من الوقت لمطالعة كل هذه الوصيّة الطويلة، فيمكنه أن يقرأ خلاصتها التي لا تبلغ الصفحة الواحدة ويطّلع على مفادها. هذا، بالإضافة إلى أنّ الإنسان إذا اطّلع على خلاصة مطالب كتابٍ أو رسالةٍ ما منذ البداية، فإنّه سيسارع إلى إدراك المطالب التفصيليّة باستعداد أكبر وأفضل، وسوف تستقرّ تلك المطالب في ذهنه.

وعلى أيّ حال، فقد تمّ إيراد مجموعة من المواعظ المختصرة في البداية، وجاءت المطالب والكلام بعدها تقريبًا كشرح وتفصيل لهذه المطالب المختصرة. يؤكّد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه المواعظ المختصرة على ثلاث قيم أساسية ومبنائية في حياة الإنسان وهي عبارةٌ عن: التقوى، وذكر الله، والتمسّك بِحبل الله.

ومن الواضح أنّ المخاطَب في هذه الوصية ليس شخصًا غريبًا عن المعارف الإلهيّة والإسلاميّة وليس محرومًا من الإيمان. إنّ المخاطَب في هذه الوصية، وإن لم يكن على سبيل الفرض شخصًا قد وصل إلى الكمال في التربية، ولكنّه مؤمنٌ بالله ويدين بالإسلام ويعتقد بالأصول الأساسيّة والعقائد الضروريّة. لذا، لم تبدأ الوصيّة من وجوب معرفة الله وعبادته؛ ولا شك أنّها ستبيّن لاحقًا مطالب تعود إلى معرفة الله، ولكن لأنّ الخطاب يفترض بأنّ المخاطَب يؤمن بالله ويعتقد بالأصول الأساسية والضرورات الدينية، لهذا لم تتم الإشارة إلى معرفة الله في المواعظ المختصرة، بل ابتدأ الوصية بالتقوى.

فالتقوى، هي المحور الأساس لمطالب ومواعظ جميع الكتب السماويّة ووصايا العظماء والأنبياء والأولياء؛ وإنّ كلّ من عُهد إليه مسؤوليّة الإمامة وتوجّه بالخطاب إلى الناس – وإن كان لمدّة قصيرة – ينبغي له أن يوصي الناس بالتقوى، كما هو مؤكّد في خطب صلاة الجمعة وكلّ صلاة فيها خطبة، حيث ينبغي لإمام الجمعة أن يوصي الحاضرين بالتقوى. لقد اعتُبر التعرّض للتقوى ركنًا أساسيًّا في الخطبة، بحيث أنّه إذا لم يوصَ بالتقوى لعُدّت ناقصةً.



التقوى محور القيم

لقد ورد لفظ «التقوى» أو اشتقاقه في الكثير من آيات القرآن الكريم وبصور مختلفة. إنّ إحدى أعظم القيم في منظومة القيم الإسلامية، أو لنقل إنّ محور جميع القيم هو «التقوى». يقول الله جلّ جلاله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]؛ فملاك الكرامة والاعتبار في محضر الحقّ تعالى هي التقوى التي لا بديل عنها ولا خلَف. لهذا، من الطبيعيّ أن يكون المطلب الأوّل الذي ينبغي أن يتوجّه إليه المخاطَب في هذه الوصيّة، هو الشيء الذي يكون محورًا لجميع الوصايا والمواعظ، وليس ذلك سوى التقوى.

لقد تعرّضنا للتقوى في العديد من المناسبات. لهذا، نكتفي هنا بالإشارة؛ حيث يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فَأُوصِيكَ بِتَقْوَى الله يا بُنَيَّ وَلُزُومِ أَمْرِهِ**». إنّ للتقوى معانٍ مختلفة وإطلاقات متعدّدة. لقد استُعملت التقوى في بعض الموارد بمعنى اجتناب المعاصي. وفي موارد أخرى، فإنّ المقصود من التقوى هو رعاية جميع الأحكام الشرعيّة الواجب منها والمحرّم. فلو كان المقصود من التقوى مجرّد اجتناب المعاصي، لكان الواجب في هذه الحالة أن تكون عبارة «**لُزومِ أَمْرِهِ**» معطوفةً على «**بِتَقْوَى الله**». وتكون كلا العبارتين معطوفتين على بعضهما. وهكذا يكون المعطوف والمعطوف عليه متباينين، لأنّ المقصود في هذه الحالة من التقوى مجرّد ترك المعاصي واجتنابها والمقصود من «**لُزُومِ أَمْرِهِ**» مراعاة الواجبات والتكاليف الإلهيّة التي يجب أن يلتزم بها الإنسان.

وفي الواقع، ستكون «التقوى» بمعنى ترك النواهي، و«لزوم أمره» بمعنى أداء الوظائف والواجبات. أمّا إذا كان المقصود من التقوى المعنى العام - الذي يشمل أداء التكاليف وترك المحرّمات - ففي هذه الحالة تكون عبارة «**لُزُومِ أَمْرِهِ**»، من نوع عطف الخاص على العام. أي إنّه في البداية يوصي بمطلق التقوى، ومن ثمّ يوصي بـ «لزوم أمره» بشكلٍ خاصّ، أي بالالتزام بأوامر الله وتكاليفه، حتّى نراعي ما يمثّل أوامره بدقّة.

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٣.

وهناك أيضًا احتمالٌ ضعيفٌ في أن يكون المقصود من كلمة «**الأمر**» ليس الأمر التشريعيّ، بل الأمر بمعنى العمل؛ فيكون «**أَمْرُ الله**» بمعنى «عمل الله». ولأنّه يكفي في النسبة وجود أقلّ ملازمة وارتباط، فيمكن أن يكون المقصود من «**لُزُومِ أَمْرِهِ**»؛ ملازمة الأعمال الإلهيّة وترك كل عملٍ ليس فيه تلك الصبغة الربّانيّة. وعلى أيّ حال، فإنّ الوصيّة الأولى لأمير المؤمنين هي رعاية التقوى. وهذا كلامٌ جامعٌ شاملٌ لجميع القيم التي اعتُبرت في الإسلام وفي جميع الأديان الإلهيّة.

وعليه، فالإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يوصينا في البداية بالتقوى التي هي محور جميع القيم. فإنّ روحية التقوى والخوف من الله إذا لم تكن موجودةً في كيان الإنسان بحيث لا يراعي أحكام الله ويهتمّ بأداء الواجبات وترك المحرّمات، لن يصل إلى أي شيء. إنّ الإنسان المتحلّل – الذي لا يكترث لما يصدر منه، والذي تسيطر عليه حالة اللامبالاة – يكون في حياته ضالًّا حائرًا لا يهتدي طريق الصواب. وإنّ أوّل شرطٍ في مسير الإنسان التكامليّ هو أن يجعل لأعماله وسلوكه معيارًا وضابطةً ويسيطر على أهوائه النفسانيّة. فمن أراد الرقيّ والرفعة يجب أن يترك الطغيان والعصيان والتحلّل من القيود، وإلّا فما دام تابعًا لأهوائه، ويفعل ما يرغب به قلبه، فإنّه لن يصل إلى الغاية أبدًا. فالخطوة الأولى هي أن يسيطر على نفسه. ولعلّ هذا الأمر هو سبب كون الوصية الأولى لأمير المؤمنين هي رعاية التقوى.

ذكر الله

والوصيّة الأساسيّة الثانية لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أنّ ذكر الله يوجب عمارة القلب، ولهذا قال: «**وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ**»؛ وكما سوف نلاحظ، سوف يأتي في هذه الوصيّة الإلهيّة بعض المسائل والمقاطع التي يكون محورها جميعًا هذا القلب. فيحدّثنا في البداية عن عمارة القلب؛ وكأنّ القلب هنا قد افتُرض كشيءٍ قابلٍ للعمارة والخراب. ويُستفاد من هذه العبارات البليغة أنّ للقلب حياةً وموتًا خاصّين به. إنّه لمن الأمور العجيبة أن يكون للقلب نوعٌ من الحياة ونوعٌ من الموت، مثلما يكون له تلك الطمأنينة أو معايشة بعض المشكلات أو التصديق ببعض الحقائق. ومن الطبيعي أنّه ما من إنسانٍ يريد أن يكون وجوده فاقدًا للثمر وعاطلًا بطّالًا وكأنّه صحراء مقفرة خالية من الماء والزرع. فالإنسان يريد لوجوده أن يكون منشأً للآثار، ويحبّ أن يكون حيًّا، وينمو وينتج ويثمر. وقلب الإنسان أيضًا يشبه الأرض التي

يمكن أن تكون عامرةً، ويمكن أن تكون في المقابل كبلدٍ خربٍ أو صحراءٍ قاحلة.



وبعبارةٍ أخرى، يمكن للقلب أن يظهر بصورة بيتٍ وسيع أو قصرٍ فاره، ويمكن أن يكون مثل البناء الخراب. فالمسألة قد جُعلت بيد اختيار الإنسان، يقدر على تحويل قلبه إلى موجودٍ عامرٍ أو أرضٍ مقفرة. فإمّا أن يكون قصرًا مشيدًا وأرضًا عامرةً مثمرةً تؤتي أُكُلها كلّ حين أو يكون صحراء قاحلة لا زرع فيها. على أيّ حال، إنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يوصي بشكلٍ إجمالي بعمارة القلب! ولا شكّ بأنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الإطلالة المختصرة يشير إلى طريق عمارة القلب الذي يتحقّق من خلال «ذكر الله». فلو لم يتّخذ ذكر الله وطنه في القلب، لخرُب وتحوّل إلى تلك الصحراء المقفرة التي لا تؤتي أي ثمر. لهذا، ينبغي أن نعلم أنّ القلب موجودٌ وله حقيقةٌ وهو يعمُر بذكر الله. وإذا خلا منه الذكر صار خرابًا. ولا شكّ بأنّ البحث عن حقيقة القلب لا يتناسب مع هذا المقال المختصر فلا نستطيع أن نبيّن كيفيّته في هذه العجالة وبيان السبب الذي من أجله يُطلق على روح الإنسان وقواه الروحيّة اسم «القلب»[1]. على أيّ حال، يجب أن نلتفت دومًا إلى ضرورة عمارة قلوبنا ومنع تطرّق الخراب إليها. وطريق ذلك يكون بذكر الله وإحيائه في القلب.

الاعتصام بحبل الله

وفي وصيّته الثالثة يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ**»، فحين يتمسّك الإنسان بشيءٍ ويقبض عليه يكون في حالة الاعتصام. وقد استُعمل بدل كلمة الاعتصام لفظ الاستمساك أو التمسّك، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[2]، وهذا الاستمساك يفيد المعنى نفسه الموجود في مفهوم الاعتصام. إلّا أنّ المسألة التي يجدر التأمّل فيها هي: متى يتمسّك الإنسان بالحبل ويقبض عليه؟ فالإنسان يتمسّك بالحبل إذا كان في حالة صعودٍ وتسلّقٍ، أو إذا كان معلّقًا وهو في حال السقوط ويخشى أن يهوي، فيفعل ذلك لأجل أن لا يسقط. حين يشعر الإنسان بالخطر، سيحتاج إلى شيءٍ كالحبل لكي ينجو من خطر السقوط

---

(١) لمزيد من الإطلاع يمكنكم مراجعة: الشيخ مصباح اليزدي، **الأخلاق في القرآن**، المجلد ١، الصفحات ٢٣٩-٢٦٦.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

بواسطته، وذلك لعلمه أنّه إذا تمسّك بذاك الحبل فلن يسقط. وكذلك إذا أراد أن يتكامل فإنّه يحتاج إلى تلك الوسيلة التي تعينه على طيّ مدارج الكمال.





لهذا، حين نؤمر بالتمسّك بذلك الحبل والقبض عليه فمعنى ذلك أنّنا في معرض الخطر والهلاك وأنّنا في حالةٍ من الانحطاط والسقوط. فإذا أردنا أن ننجو من ذلك الخطر، فيجب أن نتمسّك بشيءٍ محكم، وإذا لم نفعل ذلك سنسقط. لهذا، إذا أُمر الإنسان بالتمسّك بالحبل الإلهيّ، فهذا يعني نوعٌ من التحذير للوهلة الأولى بأنّ هذا الإنسان في حالةٍ من الخطر وعليه أن ينتبه من خطر السقوط، وكأنّه معلّقٌ بين السماء والأرض وهو يهوي وعليه أن يستمع إلى هذا التحذير. إنّ مثل هذا الأمر الذي يحدث للبعض بحيث يسقطون من مكانٍ شاهق ربما لم يحدث لنا من قبل، أو إنّنا لم نتعرّض لخطرٍ مشابه في حياتنا. لكن لو حصل ذلك، فإنّه لأمّرٌ موحشٌ جدًّا أن يجد الإنسان نفسه معلّقًا بين الأرض والسماء أو يرى نفسه في حالة سقوطٍ من مكانٍ شاهقٍ ولا يجد ما يتمسّك به. ففي مثل هذه الحالة، سيُصاب الإنسان برعبٍ شديد ويشعر من أعماقه أنّ عليه أن يتمسّك بأيّ شيء. فإذا كان في السيّارة فإنّه يتمسّك بأيّ شيءٍ يمكن أن يحفظه، وإذا رأى نفسه بحالة سقوطٍ من مكانٍ مرتفع فإنّه يتمنّى وجود أي وسيلةٍ يمسك بها لكي ينجو بنفسه.

الغفلة منشأ الانحراف

يجب أن يكون المؤمن دائمًا في حالةٍ من الإحساس بالخطر، ذلك لأنّ جهنّم وقعرها تحت قدميه ومن الممكن أن يسقط في أي لحظة. فهو كالمعلّق في الفضاء الذي يكون أعلاه الملكوت والرحمة الإلهيّة وأسفله السقوط في العذاب الأبديّ، ولا يوجد أيّ ضامنٍ لعدم سقوطه. فالإنسان يقف على شفير الهاوية التي يتبعها العذاب الأبديّ. فلو أنّ كلّ شيءٍ سينتهي بالموت، لما كان هناك من مشكلةٍ كبرى. ولكنّ الواقع أنّ الإنسان بأدنى زلّةٍ يمكن أن يُبتلى بالعذاب الأبديّ الذي لا نهاية له. وبالنسبة للكثير من الناس حين يُبتلون بالشدائد والضرّاء يتمنّون الموت ويقولون: ليتنا متنا ولم نُبتلَ بهذا! بغضّ النظر عمّا ينتظرهم بعد الموت! وأيّ شيءٍ سيُلاقون! وما الذي سيحدث هناك؟ فبمجرّد أن يشعروا بتلك الآلام الشديدة نراهم يتمنّون الموت. حتى أولئك المعتقدون بالله يقولون: إلهي أمتنا لأنّنا لم نعد قادرين على التحمّل! لأنّهم لا يستطيعون تقبّل هذه الآلام الشديدة

وأن يكونوا راضين بقضاء الله تعالى. فلأنّ تحمّل مثل هذا الألم وقبول مثل هذا الصبر صعبٌ جدًا، فإنّهم يطلبون الموت، ولأنّهم فقدوا استقامتهم مقابل الآلام والمصائب في هذه الدنيا، فإنّهم لم يعودوا قادرين على الصبر على قضاء الله، ويتصوّرون أنّ الموت أسهل، ولهذا يتمنّونه. أو على الأقل يتصوّرون أنّ تحمّل الموت وما يأتي بعده من الأهوال أسهل من هذا الألم وأكثر راحةً.

إنّ القرآن الكريم في مقام بيان الآلام الأبديّة ليوم القيامة والتي لا تنقضي أبدًا، ينقل لنا لسان حال أهل جهنّم والمبتلين بهذه العذابات: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[1]؛ فإنّهم يلاقون من العذاب ما يجعلهم يتوسّلون بمالك جهنّم أن اطلب من الله أن يميتنا لعلّنا نموت وننجو. وبالطبع، يأتيهم الجواب: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[2]؛ فهنا لا يوجد أيّ خير عن الموت وستبقون في جهنّم إلى الأبد وتخلدون في العذاب الإلهيّ. وعلى أيّ حال، يجب أن ننتبه إلى أنّ الكثير من المصاعب الدنيويّة والأخرويّة التي نواجهها، إنّما تنشأ من غفلتنا وعدم انتباهنا. وحين نستغرق في سُبات الغفلة لن نقدر على الشعور بالخطر والألم ونفقد بعدها أيّ درجةٍ من اليقظة.

كان إمامنا الخمينيّ رحمه الله يستعمل بعض الكلمات بشكلٍ كبير في خطاباته؛ ومنها هذه الكلمة: «الالتفات». فلو دقّقتم في كلماته ومواعظه، لوجدتم أنّه رضوان الله عليه كان دائمًا يقول: «أيّها السادة التفتوا، وانتبهوا...». فاستخدامه الزائد لهذه الكلمة يتضمّن سرًّا، ذلك لأنّ الكثير من المشاكل إنّما تنبع من الغفلة وعدم الالتفات. فلو كنّا ملتفتين إلى أنّه من الممكن أن نسقط في أيّ لحظة في قعر العذاب الأبديّ، لسُلب منّا الركون، ولفقدنا القدرة على العيش في طمأنينة في هذه الحياة الدنيا. ولو فكّر الإنسان بدقّةٍ وجسّد هذه الحالة أمام ناظريه، لتحقّق بتلك الحالة الروحيّة التي ستنفعه كثيرًا. فذلك الأنين والبكاء الذي كان يصدر من أولياء الله في دعاء أبي حمزة وسائر المناجات، إنّما كان يصدر من أولئك الذين أوجدوا تلك التوجّهات في أنفسهم. فلو حصلنا على ذرّةٍ من ذلك الانتباه واليقظة، لانبعث منّا مثل ذلك الأنين. وإذا لم نكن نشعر بالألم فذلك لأنّنا

---

(١) سورة **الزخرف**، الآية ٧٧.

(٢) سورة **الزخرف**، الآية ٧٧.

غير ملتفتين إلى ما يحدق بنا من أخطار. ولو انتبه الإنسان وأدرك أنّه في الحياة الدنيا كالمعلّق في الفضاء الذي أسفله تلك النيران المستعرة، والتي تشتعل وتزداد اتّقادًا من خلال شهواته، فإنّ أول شيءٍ سيخطر بباله وينبعث من أعماق قلبه هو أن يعلّق قلبه ويتمسّك بشيءٍ يمنعه من السقوط.

هذا هو الشيء الأهمّ الذي يحصل للإنسان بعد الالتفات واليقظة. فلو تصوّرنا هذه الحالة جيّدًا، لكان أهمّ ما ينبغي أن نقوم به هو «**الاعتصام بحبل الله**». وقد بيّن الكتاب العزيز وكذلك أهل بيت العصمة والطهارة وبأساليب مختلفة هذه الحالة المؤلمة والمحزنة، وكذلك حدّدوا لنا الدواء الناجع، كما في قوله: «**الاعتصام بحبل الله**»، أو بقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[1] أو قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[2].

و«العروة» هي المستمسك الذي يتمسّك به الإنسان فيشدّه بإحكام. وحين يُعبّر عن آذان الأوعية والطناجر بالعروة فذلك لأنّها مكان تناول اليد وإمساكها. ولكي يأمن هذا الإنسان ولا يسقط، يحتاج إلى تلك العروة الوثقى أي العروة التي يمكن الاعتماد عليها أكثر من أيّ شيء. ومن الواضح أنّ الإنسان إنّما يتمسّك في حال السقوط بذلك الحبل أو تلك العروة أو أيّ وسيلةٍ أخرى تكون محكمةً وقابلةً للتمسّك بحيث تنجيه من الاستمرار في السقوط بشكلٍ قطعيّ. فهذا الاحتياج أمرٌ فطريٌ. فكلّ من التفت إلى ذلك، شعر بهذا الاحتياج وسعى لتأمين تلك الوسيلة التي تؤمّن له هذا الاحتياج. وقد نبّه الحقّ تعالى هذا الإنسان وقال له: حتى تتجنّب هذا الخطر عليك أن تتمسّك بحبلٍ محكم الذي يكون وسيلتك للنجاة، وهذا هو حبل الله الذي ينجيك. فالحبال التي تشبه بيت العنكبوت لا يمكن الاعتماد عليها، وإذا أردت الوصول إلى السعادة، فإنّك لن تستطيع ذلك بواسطة بيت العنكبوت. وإذا كنت تخشى السقوط، فإنّك لن تنجو بالتمسّك ببيته، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[3]. إن تأثير الدنيا

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة **لقمان**، الآية ٢٢.

(٣) سورة **العنكبوت**، الآية ٤١.



والأسباب الموجودة فيها لنجاة الإنسان تشبه تأثير بيت العنكبوت. فلا يوجد إلّا وسيلة وعلّة واحدة للنجاة؛ تلك الوسيلة التي لا يمكن أن تفشل، وهي ذلك الحبل الإلهي الذي لا يمكن أن يُقطع أو ينفصم. ففي الحقيقة، إنّ ذلك الحبل المحكم الذي يمكن الاعتماد عليه هو تلك الرابطة للإنسان مع الله.

فمن أدرك تلك الرابطة وعمل على تقويتها، فقد استمسك بذلك الحبل الذي لا ينفصم. يقول الله تعالى في كتابه: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾[١]. أمّا إذا تعلّقتم بحبلٍ آخر، فإنّه عاجلًا أم آجلًا سينفصم ويتقطّع. ولا شكّ بأنّ الحبال الأخرى سريعة الانفصام، ولكنّنا نحن الذين نتوهّم بعض الأمور سريعة الزوال على أنّها طويلة المدّة. هذا في حين أنّ كلّ شيء وفق المعيار الإلهيّ سريع الزوال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[٢]. فلأجل الوصول إلى المبتغيات يوجد الكثير من الأسباب الدنيوية التي نتخيّل أنّها وسيلتنا وسبب نجاتنا، ونحن غافلون عن أنّ السبب الأوحد هو ذلك السبب الإلهي - طريق الله - الذي يحقّق لنا النجاة.

ولا شك أنّ لطريق الله مصاديق متعدّدة. فنجد أنّ كلمة «**حبل الله**» في الآية الشريفة: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[٣] قد فُسّرت بصورٍ مختلفة؛ كلّ صورةٍ في الواقع تمثّل أحد مصاديق «**حبل الله**». فمن مصاديق «**حبل الله**» القرآن الكريم، والإسلام وأيضًا أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ كما ذُكر أنّ ولاية الأئمّة الأطهار من مصاديق «**حبل الله**». فحين يُفسّر حبل الله بتلك الأنوار المقدّسة وبالقرآن الكريم، فالمقصود منها جميعًا بيان المصداق وهو ذلك الارتباط بالله تعالى. فمن أراد النجاة، ينبغي أن يرتبط بالله. وحين يبيّن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شيئًا فإنّ قبوله والتصديق به والاعتناء به يمثّل هذا الارتباط بالله. وحين نسمع شيئًا من القرآن، فإنّ الإذعان له والعمل به هو الاعتصام بالقرآن وهذا هو الارتباط بالله. وخلاصة الأمر أنّ كلّ ما يربطنا به مصداق الارتباط بالله. والحبل استُعمل هنا للإشارة إلى هذه الرابطة. فالحبل هو الذي يربط المبدأ بالمقصد.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦

(٢) سورة **المعارج**، الآيتان ٦ و٧.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٣.

وفي بعض الأحيان، استُخدمت كلمة «السبب» بدلًا من الحبل وهي تؤدّي نفس المعنى. لأنّ «السبب» في اللغة يأتي بمعنى الحبل والرابط، أي تلك الوسيلة التي تصل شيئًا بشيءٍ آخر. وحقيقة معنى «السبب» هي هذا المفهوم. ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[1] له معنىً عام يشمل السبب والحبل. والتوسّل بالأئمّة الأطهار عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يُعدّ أحد مصاديق **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَة**. فمن أجل تحقيق هذه الرابطة بالله يجب أن نبحث عن الطريق. وهذا الطريق هو ما حدّده الله لكي يحصل من خلاله الارتباط الحقيقي. وفي الواقع، يجب أن نبحث عن أفضل وسيلةٍ لتحقيق النجاة.

على هذا الأساس، يقول عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد ذكر «**الاعْتِصامِ بِحَبْلِ الله**»: «**وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وبَيْنَ الله جلَّ جِلالُهُ**»؛ فهل هناك ما هو أشدّ إحكامًا من هذه الوسيلة؟!

أجل، فنحن مضطرّون إلى التوسّل بهذه الوسيلة، والتمسّك بهذا الحبل لكي نهتدي. وأيّ حبلٍ أشدّ إحكامًا وأوثق من ذلك الذي يكون بينك وبين الله؟ فإنّ أساس وجودك هو عين الارتباط بالله. ولو لم تكن إرادة الله والارتباط به تعالى، هل كان لك أو لهذا العالم من وجود؟ فإنّ أصل وجود الأشياء كلّها بلحاظ التكوين مرتبطٌ بالله. وكلّ هذا الوجود تابعٌ لإرادته. فأيّ رابطةٍ أشدّ إحكامًا من هذا الوجود؟ وأيّ شيءٍ له من الاعتبار والارتباط الكامل من ارتباط الإنسان بربّه، حتى يبحث الإنسان عنه ويتمسّك به؟

بناءً على ما تقدّم، يوصي أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالتقوى أولًا، ثمّ بذكر الله، وينهي ذلك بإلفات نظرنا إلى هذه المسألة المهمّة: وهي أنّ الإنسان لا بدّ له من تقوية ارتباطه بالله لكي يُحفظ ويُصان من المخاطر. والله سبحانه وتعالى يحفظه. ولا شكّ بأنّ هذا الحفظ الإلهيّ لا يحصل من خلال الجبر والإكراه. لكن إذا اعتصم الإنسان به، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيصونه ويعصمه عندئذٍ. فهذه هي السنّة الإلهية السارية في كلّ الوجود، لأنّ هذا العالم ليس عالم الجبر. وقد أُسس نظام الوجود على أن يختار كلّ إنسانٍ طريق سعادته بنفسه. فإذا قبلت ذلك وتمسّكت

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٣٥.



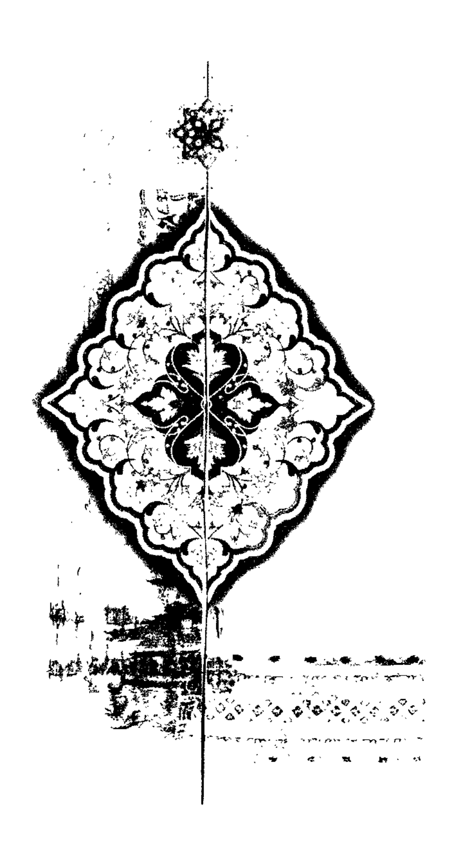
بحبل الله، سيحفظك. أمّا إذا نكصت، فإنّه لن يصرّ عليك ويحملك على الهداية جبرًا. وحين يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، فإنّ لفظ «لو» هو حرف امتناع لامتناع، فإنّ «لو» امتناعية وهي تعني أنّ الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يجبر أحدًا على الهداية. فإذا كنت تريد الهداية يجب أن تمدّ يديك إليه ليأخذ بيدك في طريق الهداية.

وفي هذا العالم، نجد الجميع يمدّون أيديهم إلى هنا وهناك، ولكنّهم ينسون أو يجهلون من ينبغي أن تمتد إليه الأيدي، ومن ينبغي أن يُتعلّق بذيله: «**أَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وبَيْنَ الله إنْ أنت أَخَذْتَ بِهِ**». فمن تمسّك بحبل الله فقد تمسّك بأكثر وسائل النجاة قوّةً. ومن ترك هذا الحبل وقطع هذه الرابطة فهو الذي جنى على نفسه.

ينبغي أن نسأل الله تعالى ليوفّقنا للاعتصام بحبله الأوثق.

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٤٩.

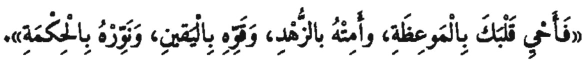


الدرس الثالث

حالات القلب |١|

- أبعاد وجود الإنسان ومراتبه
- القلب السليم
- إحياء القلب وإماتته
- طريقة إحياء القلب
- طريق تقوية القلب
- الحكمة، نور الباطن





«فَأَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوعِظَةِ، وأَمِتْهُ بالزُّهْدِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ».

في مقدّمة هذه الوصيّة، نجد تلك المواعظ المختصرة التي تمثّل خلاصة ما تضمّنته هذه الوصيّة من مطالب. وهكذا، نجد الإمام عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الموضوع كالكاتب الذي يقدّم لكتابه بفصلٍ مختص، يعرض فيه أمّهات المطالب، ثمّ يتوسّع في شرحها في الفصول اللاحقة. وما مرّ معنا كان عبارة عن شرح وتوضيح بعض الفقرات من القسم الأوّل الذي يمثّل خلاصة هذه الوصيّة، وفيما يلي سنقوم بتوضيح الفقرات اللاحقة من هذه الوصيّة الإلهيّة.

لقد جعل الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ محور هذا القسم من المواعظ قلب الإنسان؛ وبيّن جملةً من المسائل المتعلّقة به. ولعل هذا الأسلوب يرجع إلى أنّ طريق صلاح هذا الإنسان وإصلاحه يكمن في إصلاح قلبه؛ بل إنّ حقيقة الإنسان هي بقلبه. فلو أراد الإنسان أن يتقرّب إلى الله، لكان عليه أن يسعى نحو هذا الهدف من خلال طريق القلب. وإذا أراد أن يطهّر نفسه من الكدورات لكان عليه أن يطهّر قلبه منها. وعلى أيّ حال، فإنّ القلب هو الذي يلعب الدور الأساس في حياة الإنسان؛ وبما أنّ القسم الأعظم من هذه الفقرات الواردة في الوصيّة يرتبط بالقلب، فمن المناسب أن نتعرّض لبيان مفهومه ومعناه.

أبعاد وجود الإنسان ومراتبه

لو كان استعمال كلمة الأبعاد صحيحًا، لأمكن القول: إنّ للإنسان أبعادًا وجوديةً مختلفة. فللإنسان بدنٌ وروح. ولروحه صفاتٌ خاصّة أو مراتب متعدّدة مختصّة

بها. فهناك تلك المراتب الطولية، وهناك مجموع المراتب العرضيّة. ولو تأمّلنا قليلًا لوجدنا أنّنا ننسب أشياء مختلفة لهذا الإنسان؛ فننسب له «الإدراك» و«المعرفة» و«المحبة» وغيرها من الميول والحالات الباطنية المتفاوتة. وفي المجموع، يمكن أن نقول إنّ ما ننسبه للإنسان، يمكن تقسيمه إلى ثلاث مقولات:

أ – الأمور التي ترتبط بالبدن، مثلما يحصل في البدن بمعونة العضلات والأعصاب وغيرها. بالطبع، إنّ هذه الأمور من هذه الجهة تُنسب إلى الروح، لأنّها تُصنّف عادة ضمن مقولة تحريك الروح أو عملها. فإذا قلنا إنّ للروح قوّةً عاملةً، فإنّ عملها يظهر في هذه الأمور البدنيّة.

ب – الأمور التي ترتبط بـ «الوعي»، و«المعرفة»، و«الفهم». ولعلّ أفضل كلمةٍ تجمع مثل هذه الأمور هي «العلم»؛ أعمّ من العلم الحضوريّ والشهوديّ القلبيّ أو العلوم الحصوليّة بجميع أقسامها. وعلى أيّ حال، هذه جملة من الأمور التي ننسبها أيضًا إلى روح الإنسان.

ج – وطائفةٌ أخرى هي الميول والتوجّهات. وفي علم النفس، تُقسّم هذه الأمور إلى عدّة مقولات منفصلةٍ مثل العواطف والأحاسيس والانفعالات؛ كـ «الخوف»، و«الرجاء»، و«المحبة»، و«العشق»، و«البغض»، و«الفرح»، و«الحزن»، و«الغمّ». فهذه المجموعة ليست من الأمور التي يمكن القول إنّها عين العلم، ولكنّها لا يمكن أن تتحقّق من دون الإدراك. فالإنسان لا يمكن أن يخاف من دون أن يعلم أنّه خائفٌ أو يفهم ذلك. كلّما خاف الإنسان، يكون خوفه متلازمًا مع العلم والإدراك. وصحيٌح أنّ الخوف ليس بالعلم، ولكنّه لا يمكن أن ينفصل عن الإدراك. وكذلك بالنسبة للمحبّة التي لا نقول إنّها علم، ولكنّها بدون العلم ليست موجودةً. فلا يمكن أن يحبّ الإنسان من دون أن يعلم أنّه يحبّ؛ أو يبغض عدوّه من دون أن يعلم أنّه يعاديه. ولا شكّ بأنّ للعلم والوعي مراتب، ولكن يوجد في جميع مراتبها – بما يشمل اللاوعي، والوعي الناقص أو الوعي التام – نوع إدراكٍ متحقّق.

لهذا، يمكن اختصار ذلك بالقول: إنّ الأمور التي تُنسب إلى الروح، هي عبارة: عن التصوّرات والتوجّهات والتحرّكات. أي إنّ تلك الأعمال والأفعال التي تؤدّيها الروح في البدن تدخل ضمن دائرة التحرّك، ولا ترتبط بالقلب بأي رابطةٍ. فلا يوجد من آيةٍ أو روايةٍ تدلّ على أنّ قلب الإنسان هو الذي ينمّي بدنه، أو أنّ

قلبه يغذّي بدنه تغذيةً ماديّةً. فإنّ تلك الأفعال التي تصدر من البدن وتُنسب إلى الروح لا يمكن أن تُنسب إلى القلب. أمّا المقولتان الأخريان، أي مقولة التصوّر ومقولة الدوافع فإنهما يُنسبان إلى القلب.

وبعبارةٍ أخرى، إنّ العلم الحضوريّ والعلوم والإدراكات الأخرى والأحاسيس والعواطف والانفعالات كلّها تُنسب إلى القلب. ولا شكّ بأنّ القرآن قد استعمل لفظ «القلب»؛ وكذلك لفظ «الفؤاد». وهو مع القلب يشكّل مصداقًا واحدًا. فإذا قال الله سبحانه في القرآن: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[1]؛ فالمقصود من هذه الرؤية تلك الرؤية القلبيّة. فهذا العلم علمٌ شهوديٌّ وحضوريٌّ وباطنيٌّ؛ أي إنّ القلب هو الذي يرى. فللقلب إذًا نوع علم وإدراكٍ من قبيل العلم الحضوريّ والرؤية. أو كما رُوي في موضع آخر عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«لا تراه الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقايِقِ الْإِيمانِ»**[2]؛ فالقلب يرى الله. هذا العلم، هو العلم الحضوريّ وهو أحد أنواع الشهود الذي يُنسب إلى القلب.

أمّا نسبة العواطف والأحاسيس إلى القلب، فهي أمرٌ مسلّمٌ ومقبولٌ وكثير الشيوع بين الناس. لهذا، نجد أنّ القرآن الكريم قد نسب مثل هذه الأمور إلى القلب في العديد من الموارد. ويمكن أن نقول إنّ لكلمة «القلب» حيثيتين متفاوتتين بشكلٍ تام:

١. حيثيّة العلم والإدراك

٢. حيثيّة الميل والاندفاع.

فكما أنّ مقولات من قبيل الوعي والعلم والمعرفة وأمثالها تُنسب إلى القلب، فهناك أمورٌ من قبيل التوجّه والرغبة والميل - سواءٌ الإيجابي منه كالمحبة، أو السلبيّ منه كالعداوة - تُنسب إلى القلب أيضًا.

---

(١) سورة **النجم**، الآية ١١.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٩٩، الخطبة ١٧٨.





القلب السليم

وبالتوجّه التام إلى ما ذُكر، يمكن القول إنّ للقلب حقيقتين متفاوتتين. وبتعبيرٍ آخر، فإنّ القلب موجودٌ خاص يكون مصدر الأفعال وأيضًا منشأ الأحوال. وبعبارةٍ واحدة، كأنّ القلب قد خُلق للتأثير والتأثّر. مثلما أنّ العين قد خُلقت لأجل النظر، وإذا لم ترَ تكون ناقصةً أو مريضةً، فالقلب أيضًا ينبغي أن يرى تلك الأمور ويسمع الأشياء ويتقبّل الأحوال وتنبعث فيه أمورٌ، كأنواع المحبّة والبغض وأمثالها. فيجب أن يكون للقلب ميولٌ، مثلما ينبغي أن يكون له تلك التصوّرات.

وإذا حصل القلب على ما ينبغي أن يحصل عليه لكان سليمًا. وفي القرآن الكريم، سُمّي هذا القلب بـ «**القلب السليم**»[١]. أمّا إذا لم يتمتّع القلب بما ينبغي أن يحصل عليه، وكان جاهلًا بما ينبغي أن يعلمه، أو لا يفهم ما ينبغي أن يُفهم بشكلٍ صحيحٍ، أو اضطرب حينما ينبغي أن يطمئن، أو لم يخف حين ينبغي الخوف؛ وبكلمةٍ واحدةٍ: لم يبرز ما هو متوقَّع منه، فإنّ هذا القلب يكون مريضًا. وقد ذكر القرآن هذه الأحوال في بعض الناس بقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[٢].

فبهذا الاعتبار، يكون القلب نفس الروح الإنسانية، مع ما له من إدراكاتٌ وميولٌ ورغبات. فإذا كان القلب على الحالة التي ينبغي أن يكون عليها عُدّ قلبًا سليمًا وسالمًا. وإذا لم يكن كذلك كان قلبًا مريضًا.

فالحالات والصفات التي تُنسب إلى القلب على نحوين: منها ما يكون مطلوبًا، ومنها ما لا يكون كذلك. فحين يكون القلب سليمًا، فإن هذه هي الحالة القلبية المطلوبة، وينبغي أن يكون كذلك. وفي المقابل، إنّ القلب المريض ليس مقبولًا ولا ينبغي أن يكون كذلك. فإذا قيل إنّ هذا القلب حيٌّ، فهذا يعني أنّ حياة القلب من تلك الحالات والصفات المطلوبة، ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣]...

---

(١) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. سورة **الشعراء**، الآيتان ٨٨ و٨٩.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٠.

(٣) سورة **يس**، الآيتان ٦٩ و٧٠.



فهذا الكتاب السماويّ ليس سوى الذكر والقرآن المبين الذي ينذر الناس الأحياء ويتمّ الحجّة على الكافرين... فإنّ إنذار القرآن ودعوة الأنبياء وتعاليمهم إنّما تؤثّر في القلب الحيّ. وحين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، أي إنّك لا تقدر على إفهام الأموات الذين ماتت قلوبهم ولا يمكنهم أن يفهموا شيئًا، ولن يؤثّر إنذار القرآن والأنبياء فيهم. وهذا التعبير يتناسب مع صحّة القلب ومرضه. فإذا كان القلب سليمًا، كان على الحالة المطلوبة، ذلك لأنّ عاقبة المرض هي الموت والفناء. ولهذا، إذا كان الإنسان مريضًا ولم يُعالَج ينبغي أن يسلِّم للموت، وكذلك القلب إذا كان مريضًا ولم يُعالج واستمرّ مرضه فسوف يموت.

إحياء القلب وإماتته

وقد يُتوقّع أن نقول إنّه ينبغي الحفاظ على حياة القلب، وأنّ القلب إذا مات، فإنّ هذه الحالة تكون وخيمةً جدًّا. ولكنّنا نجد في هذه الوصيّة الإلهية أنّه قد أوصى إلى جانب إحياء القلب بإماتته! وهذا التعبير في غاية الغرابة حيث يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**فَأَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزُّهْدِ!**»، فهل أنّ إماتة القلب أمرٌ مطلوبٌ؟

إنّ هذا الموت لا يقع في مقابل تلك الحياة المطلوبة؛ فقلب الإنسان يشبه العملة ذات الوجهين التي ينبغي الحفاظ على حياة أحد وجهيها وإماتة الوجه الآخر، والميول والرغبات التي تُنسب إلى القلب مختلفةٌ ومتنوّعة. وبعض تلك الميول الإلهيّة كالميل إلى الكمال والاندفاع نحو الكمال المطلق والتوجّه إلى قرب الحقّ تعالى هي من الميول المطلوبة ويجب إحياؤها. وكلّما اشتدّت حياتها وقوي تأثيرها ونفعها، صارت مطلوبةً أكثر. ولكن في المقابل، للقلب مجموعة من الميول التي تسوقه نحو الحيوانيّة والتسافل. فالشهوات والميول الشيطانيّة والحيوانيّة وجميع الدوافع الناشئة من النفس الأمّارة والتي تُنسب إلى القلب هي من تلك الصفات والدوافع القلبيّة التي ينبغي إماتتها لأنّها غير مطلوبة. فلا ينبغي أن نسمح لهذه الميول أن تقوى في الإنسان فتتسلّط النفس الأمّارة عليه. يجب القضاء على هذه الميول، وإلّا لن تترك للإنسان مجالًا للرقيّ والتكامل. ولا شكّ بأنّ قتل وإماتة

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٥٢.

هذه الميول ليس بمعنى أنّه لا ينبغي استخدامها وإعمالها بأي صورةٍ وتحت أي ظرفٍ، بل المقصود هو أنّ إعمالها ينبغي أن يكون من أجل التكامل وكوسيلةٍ للرقيّ وتحقيق طاعة الله. وهذه المسألة بحدّ ذاتها تمثّل بعدًا آخر من الترقّي والحالات القلبية المطلوبة. فلو كانت ميول الإنسان متوجّهةً نحو شهوة الأكل والشراب وسائر الشهوات الحيوانيّة والاستكثار والجمع والحرص الدنيويّ والأطماع والمآرب، لنشأت فيه طائفةٌ أخرى من الميول غير المطلوبة فإذا اشتعلت لأحرقت حياة الإنسان وقضت على آخرته؛ لهذا يجب إطفاء شعلة هذه الميول وإماتتها.

فإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يوصي بإماتة القلب، فليس المقصود ذلك القلب الذي تكون حياته مطلوبةً. بل إنّ الموت المقصود هو موت الشهوة الحيوانيّة في الإنسان. فللحياة والإحياء معنيان: فمن جهةٍ تكون حياة القلب مطلوبةً، ومن جهةٍ أخرى تصبح غير مطلوبة. فالمفهوم الذي نحمله عن الحياة في أذهاننا هو ذلك الشيء الذي يكون منشأً للتحرّك والنشاط. فحين نقول إنّ لهذا الحيوان حياةً، فإنّنا نقصد أنه يتنفّس ويتحرّك. وحين يتوقّف عن الحراك وينقطع نفسه، نقول عنه ميت. فلذلك، نحن نحمل في ذهننا هذا المعنى عن الحياة وهو التحرّك والنشاط. ولكنّنا في هذا المجال نقول إنّ القلب حيٌّ حين يكون فعّالًا في جهةٍ خاصّة. فليس كلّ نشاطٍ علامةً على حياته، بل تلك الأنشطة المرتبطة بجهةٍ خاصّة والتي تدلّ على مثل هذه الحياة. لهذا، يجب أن نتعرّف على جهة نشاطه، وهل أنّه نشيطٌ في الجهة التي ينبغي أم لا؟ وهل يتجّه نحو الكمال ونحو الله ويتحرّك بذلك الاتّجاه أم لا؟ فالقلب الذي ينشط على طريق الخير ينبغي أن يُحيى ويُحافظ على حياته وأن تُقوّى فيه هذه الأنشطة وتلك العوامل. أما ذلك النوع من الأنشطة الشيطانيّة والميول التي تشتعل بنيران الشهوة فلا ينبغي إحياءها بل يجب القضاء عليها.

لهذا، فإنّ حياة القلب، أي تلك الحياة التي تكون مطلوبةً، هي المتعلّقة بالجانب الإلهيّ منه. وفي الجانب الآخر، فإنّ موت القلب المطلوب هو موت ذلك البعد الحيوانيّ والشيطانيّ فيه. وفي النتيجة، تكون حياة القلب مطلوبة من جهة، ومن جهةٍ أخرى يكون موته مطلوبًا.

طريقة إحياء القلب



بعد التوصية بإحياء القلب وإماتته، يظهر هذا الأمر المهم وهو كيف يمكن الاستفادة من إحياء القلب أو إماتته؟ وما هو الطريق الموصل إلى حياة القلب وموته وكيف يتم عبوره؟ وكيف يمكن تحصيل حياة القلب وموته؟ والمجال الذي تدور حوله موعظة أمير المؤمنين عليه السلام هو أنّ لكلّ منّا قلبًا له حياةٌ وموت. وأحد أنواع الحياة مطلوبٌ، وذلك الموت الذي يقف مقابل مثل هذه الحياة مرفوضٌ. ومن جانبٍ آخر، هناك موتٌ للقلب مطلوبٌ، وتكون الحياة المقابلة لهذا الموت مرفوضة. وبعبارةٍ أخرى، إنّ الحياة القلبيّة المطلوبة هي عبارةٌ عن حياة ونشاط الميول الإلهيّة وحكومتها على الإنسان. والموت القلبيّ المرفوض هو عبارة عن القضاء على هذه الميول الإلهيّة في الإنسان.. بينما يكون الموت القلبيّ المطلوب هو عبارة عن القضاء على الميول الحيوانيّة المنحطّة. وأمّا الحياة القلبيّة المرفوضة فهي إحياء الميول الحيوانيّة السافلة وهيمنتها على الإنسان. وإذا كان الأمر كذلك فكيف نصل إلى تلك الحياة القلبيّة المطلوبة وإلى الموت القلبيّ المطلوب؟ ومن جانبٍ آخر، كيف تتجنّب الحياة المرفوضة والموت المرفوض؟

يوصي أمير المؤمنين عليه السلام لأجل إحياء القلب وللحصول على قلبٍ حيّ بإحياء القلب بالموعظة: «**أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوعِظَةِ**». فأفضل طريق لإحياء القلب هو إمّا أن يستمع الإنسان إلى الموعظة أو أن يقرأها عبر الكتب التي تتضمّن المواعظ، أن يستفيد مثلًا من القرآن الكريم ومواعظ الأنبياء وأهل البيت أو أن يعظ نفسه. فالإنسان قادرٌ على أن يعظ نفسه ويلقي عليها المفاهيم ويلقّنها إيّاها وأن يستذكرها. فبالاستماع إلى الموعظة ومطالعتها وتلقينها للنفس، يصبح القلب حيًّا. وتجربة هذا الأمر سهلةٌ جدًّا. فحين يكون توجّه الإنسان معطوفًا على الموعظة، سيشعر أنّ هناك حالةً قد ظهرت في كيانه تبعث القلب والباطن على التحرّك باتّجاهٍ خاص. وقد يكون قبل ذلك كسولًا ولا يرغب بالنوافل، ولكن بعد مطالعة هذه المواعظ أو الاستماع إليها يشعر بالميل الشديد نحو النافلة، أو قد يلتذّ بمشاهدة الأفلام التلفزيونيّة المبتذلة أكثر من قراءة القرآن والأحاديث أو الاستماع إليها. لكنّ حاله بعد الموعظة لا يعود كذلك، بل تصبح ميوله ودوافعه خلاف ذلك. فقبل الموعظة لم يكن يرغب بتلك الأمور التي تشدّ الإنسان نحو الحياة الآخرة، أمّا حين يحضر في مجلس الموعظة، فإنّه بمجرّد الخروج منه يشعر بالميل

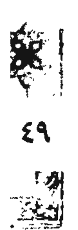


إلى مطالعة مثل هذه الأمور والاستماع إليها. وها قد انبعثت في قلبه تلك الحركة والحياة بعد أن كان ميتًا وكانت الميول فيه خامدةً. وهذا الخمود والجمود كان دليلًا على موت القلب، أمّا بعد ذلك فقد صار قلبه حيًّا وبدأ بالتحرّك.

إذًا، يمكن للموعظة أن تحيي القلب؛ وهي قادرة على أن توجّه القلب بالاتّجاه المطلوب، وتوجد فيه تلك الدوافع وتحرّكه وتبعث فيه الرغبة اللازمة.

ومن جانبٍ آخر، قد يكون لبعض العوامل، كالأسباب الطبيعية ومقتضيات العمر والعوامل الفيزيولوجيا والجينيّة والإفرازات الهرمونيّة الخاصّة وغيرها، من التأثير في إيجاد تلك الميول الشهوانيّة والحيوانيّة في الإنسان وتقويتها ومنعه من الدراسة والمطالعة والعبادة، وتحوّل توجّهاته إلى أمورٍ أخرى. فوجود مثل هذه العوامل في الإنسان تؤدّي إلى جرّه نحو الميول الأخرى. وكذلك قد يكون لبعض العوامل الخارجيّة تأثيرٌ في هذا الأمر، كالنظر إلى بعض المشاهد والاستماع إلى بعض الأمور وأمثالها ممّا يضاعف مثل هذه الأحاسيس. ونحن نعلم أنّ مثل هذه الدوافع غير المطلوبة كثيرًا ما تحصل في وجود الإنسان، والشباب أكثر عرضةً من غيرهم لمخاطر هذه التوجّهات. ففي هذه الحالة، يمكن أن نقول إنّ للقلب حياة بأحد المعاني، ولكنّها حياة وتحرّك نحو الشيطان، يجب القضاء على هذه الحياة وإخماد نيران هذه الميول المستعرة. ولكن كيف؟

في هذا المجال، يبيّن لنا الإمام عليعَلَيهِالسَّلَامُ طريق ذلك بقوله: «**أَمِتْهُ بالزُّهْد**»؛ فطريقه هو أن يقلّل الإنسان من الالتذاذات الماديّة ويزهد فيها. فحين تزداد الملذّات الماديّة ويستهلك الإنسان الكثير من الأطعمة المهيّجة ويشاهد المشاهد المثيرة ويستمع إلى الأصوات المحرّكة، فإنّه يُبتلى بالحالات الشيطانيّة. لهذا، إذا أراد أن يفرّ من مثل هذه الأحوال ولا يُبتلى بهذه الحالات الشيطانيّة أو يرضخ لها، يجب أن يسلك طريق أسبابها، ويعدّل من تلك الميول. ذلك لأنّ العلّة حين تتحقّق فسيتبعها المعلول. وإذا أراد أن لا يحصل هذا المعلول يجب أن لا يسمح لبروز علّته. إنّ هذا الأمر غالبًا ما يحصل للشباب بلحاظ وضعهم الجسديّ والروحيّ، لا سيّما لأولئك الذين يعانون أزمات هذه المرحلة.. والحلّ يكون في التقليل من اللذات الدنيويّة. ولا شكّ بأنّ طرق التقليل من اللذات الدنيويّة كثيرةٌ كالصيام والعبادات والأنشطة الفكريّة والذهنيّة وغيرها من الأمور التي تقلّل من رغبة الإنسان وتوجّهه إلى الدنيا وملذّاتها.



إلى هنا، نكون قد عرفنا أن أحد أنواع الحياة يكون مطلوبًا للقلب وهي تلك الحياة التي تسوق الإنسان إلى الله والمعنويّات والكمال. فإذا تمّ إحياء مثل هذه الأحوال والدوافع والميول في وجوده، يمكننا أن نقول إنّ قلبه حيٌّ. فهذه الحياة هي تلك الحياة المطلوبة، وأفضل طريقٍ لتحصيلها يكون بالموعظة، التي من خلالها ينشأ الشوق إلى الآخرة في قلب الإنسان وإلى فوائدها ومزاياها والنفور الشديد من عذابها وشدائدها. أما الموت المطلوب للقلب - الذي هو موت الشهوات وإخماد شعلتها والقضاء على الميول الشيطانية - إنّما يحصل عن طريق الزهد الذي عبّر عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وأَمِتْـهُ بالزُّهْـدِ**».

فقد اتّضح من خلال البيان أعلاه، كيف أنّ كلًّا من حياة القلب وموته مطلوبان، وكيفيّة تحصيلهما. نعم، تُعدّ الحياة من شؤون القلب وكذلك الموت، ويجب تحصيلهما.

طريق تقوية القلب

وفي تتمّة حديثه، يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ حالتين من الأحوال المطلوبة للقلب مع ذكر طرق تحصيلهما: «**وَقَـوِّهِ بِالْيَقِيـنِ، وَنَـوِّرْهُ بِالْحِكْمَـةِ**»؛ حين يقوم كلّ عضوٍ أو عاملٍ بوظيفته كما ينبغي، ويوجد مستلزماتها، فإنّ هذا العامل أو العضو سيصبح قويًّا. وهذه حقيقةٌ حاكمةٌ على جميع الكائنات الحيّة سواءٌ النباتات أو الحيوانات أو البشر. فلو استطاع الإنسان القيام بالعمل المطلوب، فإنّه يكون موجودًا قويًّا، وإذا لم يفعل فإنّه يكون ضعيفًا. فلو حصل البدن على نموّه اللازم يقوى، وما لم يحصل يضعف. وكذا الحال بالنسبة للقلب، فلو حصل قلب إنسان على قدرة الوصول إلى الأشياء المطلوبة ووصل إليها ونالها بفعل نشاطه الباطني، يكون مثل هذا القلب قويًا. ولكن في بعض الأحيان، مهما سعى هذا القلب وأي بابٍ طرق، فإنّه لا يصل إلى أيّ مكان؛ وفي هذه الحالة يكون القلب ضعيفًا. ومن هذه الجهة، لقد منّ الله تعالى على الإنسان بقلبٍ يقوم بالأعمال المطلوبة، ويصل إلى الكمال اللازم والقدرات اللازمة، من دون أن يُبتلى بالضعف والتلوّث الذي يؤدّي إلى تخلّفه ونقصه وانحطاطه.

ترتبط المسألة المهمّة في هذا المجال بالشيء الذي ينبغي أن نفعله لتقوية





قلوبنا. وكنّا قد ذكرنا أنّه قد تمّ الاعتناء بروح الإنسان من جهتين. وبالرغم من أنّه قد يُطلق على هاتين الجهتين كلمة القلب، لكن، فإنّ كلّ جهةٍ تختلف عن الأخرى. فالأولى ترتبط بالبعد العلميّ والإدراكيّ وبالوعي، والثانية ترتبط بالميول والعواطف. ولقد تمّ الاعتناء هنا بالبعد المرتبط بوعي القلب وإدراكه وشعوره وعلمه.

إنّ البعد العلميّ للقلب إنّما يقوى بواسطة اليقين. فإذا استطاع القلب أن يحصّل تلك الأمور التي ينبغي تحصيلها والتي لها أولوية في حياته، كالعقائد المصيريّة والضروريّة فيفهمها ويدركها في أعلى مراتبها، فإنّ هذا القلب يكون قويًّا، وذلك لأنّه قد أدّى عمله بالشكل المطلوب. أمّا إذا ابتُلي القلب بحالةٍ منعته من الوصول إلى العلم اليقينيّ فأحاط به الشك والوسواس والتزلزل وابتُلي بالتردّد، فإنّ هذا القلب يكون ضعيفًا، ولا يمكنه أن يقوم بوظيفته بشكلٍ صحيح إلّا إذا وصل إلى درجة اليقين وهناك يقوى. فما لم يصل إلى اليقين، كان موجودًا ضعيفًا، وتكون عاقبته الهلاك.

فإذا أراد الإنسان أن يمتلك قلبًا قويًا، أي أن يصل إلى ما هو مطلوبٌ في المجال المعرفي، عليه أن يسعى للوصول إلى اليقين؛ وطالما أنّ الإنسان غير مبالٍ بشأن أموره المعرفيّة، فإنّه لن يتمكّن من الحصول على قلبٍ قويّ. لهذا، على الإنسان أن يكون حسّاسًا تجاه معارفه الاعتقادية وتجاه كل معرفةٍ تكون مؤثّرة في مصيره كمعرفة الله والمعاد وغيرها.. بل حتى بشأن تلك الأمور الدنيويّة البسيطة والأولية. وإذا شعر بأنّ لديه ضعف في عقائده الدينية، فلا ينبغي له أن يهدأ، أو أن يجلس بحريّة واسترخاء ولا مبالاة حتى تحدث الأمور من تلقاء نفسها، بل عليه أن يسعى لنيل كمال المعرفة واليقين؛ وإلّا فلو لم يتحرّك القلب لكسب اليقين، فإنّه سيضعف أكثر فأكثر يومًا بعد يوم ويتّجه نحو الانحطاط إلى أن يوصل صاحبه إلى الهلاك. كلّ ذلك يشبه عمل الأعضاء التي إذا لم تتحرّك التحرّك المطلوب، فإنّها تصبح ضعيفةً وعاجزةً.

فعلى سبيل المثال، إذا أغلق الإنسان عينه لعدّة سنوات فإنّه سيُبتلى بعد ذلك بضعف البصر، لا بل بالعمى. ولهذا، يُطلب من أولئك الذين يعانون من ضعفٍ في إحدى العينين أن يغلقوا عينهم القويّة لمدة أو يضعوا عليها نظارة سوداء لكي يحصل التوازن بين العينين. وهكذا إذا أغلق الإنسان يده لمدة من الزمن ولم يستخدمها أبدًا فإنّه بعد فترة سيفقد الشعور بها، حتى إنّها قد



تُصاب بالشلل. وعلى أيّ حال، إنّ كل عضوٍ من أعضاء الإنسان يقوى باستخدامه ويضعف بإهماله، وحال القلب كذلك. لهذا، إذا أردنا أن نقوّي القلب، يجب أن نستخدمه بالتفكّر الاستدلاليّ والبرهانيّ حتى يصل إلى اليقين. وهناك الكثير من الوسائل الموصلة إلى اليقين ولا مجال للتعرّض لها في هذا المختصر. أحدها طريق الاستدلال العقلي الذي يحصل به اليقين الحصولي؛ فحين نحمل الشك في أذهاننا، أو لا نمتلك اليقين ببعض العقائد الصحيحة، فلا ينبغي أن نكون غير مبالين أو أن نهمل الموضوع، بل ينبغي أن نسعى للوصول إلى اليقين. من الواضح أنّ أولئك الذين لا يقين لهم يعانون من المشاكل في أعمالهم ولهذا تكون قلوبهم في هذا البعد ضعيفةً. أمّا لماذا صارت قلوبهم ضعيفة، فيجب البحث عن أسباب ذلك ومعالجته. وقد عيّن الله تعالى لأمثال هؤلاء طريقًا يصلون بعبوره إلى اليقين. وكذلك حذّرهم من تلك الأمور التي تكون عائقًا أمام الوصول إلى هذه المرحلة الشريفة. فالله تعالى يريد لنا اليقين حيث يقول: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[1]، وحدّد لنا الطريق الذي يجب أن نسلكه. فمن أراد قلبًا قويًّا، يجب أن يسعى للحصول على المعرفة اليقينيّة.

وهكذا، إذا وضعنا المواد الغذائية للنباتات أو الحيوانات أو البشر، فإنّها تزداد كمالًا؛ أي إنّ هناك أمرًا وجوديًّا جديدًا سيتحقّق فيها لم يكن من قبل، وهو الشيء الذي يخلق قوّة جديدة في الأبدان. وهنا، يمكن تشبيه قلب الإنسان بالكائن الحيّ الذي يحتاج إلى الغذاء. فإذا أوصلنا الحقائق اليقينيّة إلى القلب، فإنّه يزداد قوةً. أمّا من بقي في حالة الجهل ولم يصل إلى العلوم اليقينيّة، فإنّه سيبقى في حالةٍ من الضعف وسيزداد عجزه يومًا بعد يوم حتى يُقضى عليه ويزول.

فطريق تقوية القلب هو بتحصيل اليقين والوصول إلى العلوم اليقينيّة. وإحدى مهام القلب تحصيل العلوم اليقينية فإذا استُعمل في هذه الجهة يزداد قوةً. وهكذا، فإنّ كل عضوٍ إنّما يقوى من خلال استخدامه وكذلك القلب يقوى إذا قام بما هو مطلوبٌ منه. ولكن إلى جانب هذا الأمر، يوجد معنًى آخر لتقوية القلب وهو أنّ القلب كالبدن يجب أن يُغذّى بالغذاء الخاص له.. وكما أنّ الغذاء إذا لم يصل إلى البدن فإنّه يضعف، فكذلك هو القلب، يجب تغذيته بالأغذية

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤.



المعنويّة وتقويته بالغذاء المناسب له وهو ذلك الإدراك والعلم والمعرفة اليقينيّة.

ومن جانبٍ آخر، يمكن أن نستفيد من «**وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ**» معنىً آخر وهو ما يحصل بمقارنة هذا المقطع بالمقطع اللاحق حيث يقول عليه السلام: «**وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ**»؛ وذلك لأنّ الحكمة قد استُخدمت في أكثر الآيات والروايات، إن لم نقل فيها جميعًا، في مورد الحكمة العمليّة. ويقصد الإمام علي عليه السلام من اليقين في قوله: «**وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ**» هو تلك المعارف النظرية. أمّا الحكمة في قوله: «**وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ**»، فهي المعارف العمليّة. والحكمة العمليّة هي تلك المعارف اليقينيّة والمحكمة الحقّة التي تظهر آثارها في عمل الإنسان. فالمعارف المحكمة[1] تُستخدم في مورد التعاليم العملية. والعقائد الحقّة، التي يُصطلح عليها بـ «المعارف النظرية» أو «الحكمة النظرية»، تؤدّي إلى قوّة القلب. والقوّة المقصودة هنا هي ما يقابل الضعف؛ فإذا كانت الحالة المسيطرة على قلب الإنسان هي الشك ولم يدرك الحقائق إدراكًا يقينيًّا، فإنّه يكون ضعيفًا، وسوف يكون هذا القلب كريشةٍ في مهبّ رياح الشكوك والشبهات لا يقرّ له قرار. أمّا اليقين، فإنّه عنصر القوّة الذي إذا دخل إلى القلب واتّصف القلب به، فلا يمكن لأيّ عاصفةٍ أن تزلزله. فالشكوك والشبهات والمغالطات التي تُلقى من شياطين الإنس والجن، لا يمكنها أن تزلزل مثل هذا القلب، ذلك لأنّه أدرك المعارف اليقينية وقوي بها. أمّا إذا سيطرت عليه حالة الشكّ فإنّه يصبح متزلزلًا كغصنٍ ضعيفٍ في مهبّ الرياح والعواصف. لهذا، إذا أردنا قلبًا قويًا يقوى على مواجهة تلك الشبهات والمغالطات ويصمد أمامها ولا يضعف ولا يضطرب، فعلينا أن نصل إلى اليقين.

الحكمة نور الباطن

إحدى الصفات الأخرى للقلب هي النورانية أو الظلمانية. فالقلب الذي يخلو من المسائل الحكمية - سواءٌ النظري منها أم العملي - يكون قلبًا مظلمًا ولا يعلم ماذا يصنع ولا يدرك الحقّ من الباطل ولا يعرف ما هو الاعتقاد الصحيح. فإذا أردنا أن ننوّر هذا القلب يجب علينا تحصيل الحكمة. إنّ الحالة القلبيّة الأخرى التي ينبغي أن تسيطر على القلب هي النورانيّة التي تحصل بالحكمة. فالقلب ينبغي أن يكون

---

(١) فإذا أُطلق على هذه المعارف لفظ الحكمة فذلك لأنها معارف محكمة ومتقنة.

محكمًا ومستحكمًا ونورانيًا أيضًا. وكِلا الحالتين المُشار إليهما هنا لازمتان للقلب، ذلك لأنّ طريق القلب قد يكون منوّرًا، وهنا سيتمكّن تبعًا لذلك من الحركة. وأحيانًا قد يحيط به الظلام بحيث يعجز عن الوصول إلى المقصد مهما كان محكمًا لعدم وجود النور فيه.

ونجد أنّ كلمة الحكمة قد استُعلمت في القرآن والروايات في أغلب الأحيان في مورد الحكمة العمليّة وهي التي توضّح الطريق. فالمتحلّي بالحكمة العمليّة يعلم ما هي الأشياء التي ينبغي الحصول عليها، وما هو التصرّف اللائق، وما هي الصفات التي ينبغي أن يحقّقها في نفسه. وفي الواقع، إنّ طريقه يكون منوّرًا. أمّا إذا لم يكن عارفًا بهذا الطريق النورانيّ والحكمة العمليّة، فإنّ عقائده مهما كانت محكمةً وقلبه مهما كان قويًا، ولكن لأنّه لا يعرف ماذا يصنع وماذا ينبغي أن يكتسب من صفات، فإنّه لن يصل إلى شيء.

فالقلب يكتسب القوّة من خلال المعارف الحقّة واليقينيّة «المعارف النظريّة»، وعندها لن يتزعزع مقابل أي شكٍ أو شبهةٍ تعصف به. بل إنّه يدرك طريقه بالحكمة العملية وينوّر مسيره ولا يقع في الظلمات. لهذا، فإنّ قوله: «**قـوّه باليقيـن**»، يشير إلى أنّ تقوية القلب تحصل بالمعارف الحقّة واليقينيّة؛ وقوله: «**نوّره بالحكمة**» يدلّ على أنّ الحكمة العملية تنوّر طريقه لكي يعرف مسيره ويخطو فيه بوعي. والآيات التي ذكرت النور كوسيلةٍ لسلوك الإنسان تؤيّد هذا المعنى. فقوله تعالى في هذه الآية الشريفة: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ...﴾[1]؛ فمن اكتسب المعارف ونور العلم والدين لا يمكن أن يكون كمن يسير في ظلمات الجهل والضلالة. والمقصود بهذا النور الذي يمشي به في الناس هو هذا النور الذي يتحرّك به بين الناس وفي المجتمع. فالإنسان يحتاج في تحرّكه ومشيه إلى النور. وذلك النور إنّما يحصل في ظلّ التقوى. أو قوله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[2]؛ فمن اتّقى الله بعد الإيمان به وبرسوله

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٢٢.

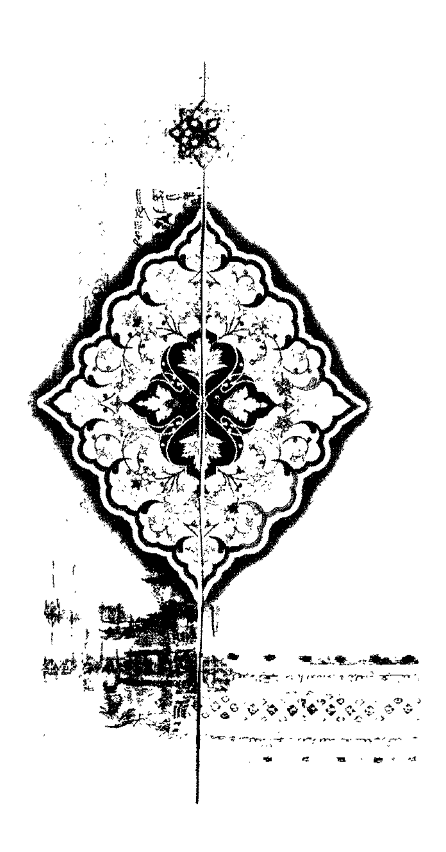
(٢) سورة **الحديد**، الآية ٢٨.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، سيجعل له نورًا يضيئ طريقه.



لهذا، إذا كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يأمرنا بتنوير قلوبنا بالحكمة، حتى يتنوّر القلب بنورها فالمقصود من الحكمة هنا العمليّ منها، لأنّ الحكمة العملية هي التي تصحّح سلوك الإنسان. ولا شك أنّ لأحاديث أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مراتب في العمق اللامتناهي يعجز عقل الإنسان العادي عن إدراكها. ويجب أن نسعى بمقدار ما تحتمله أذهاننا للاستفادة من أنوار كلمات الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.





الدرس الرابع

حالات القلب |٢|

- سكينة القلب
- القلب المطمئن
- الصبر والتصبّر
- متى يكون السماع كالمعاينة؟
- القلب المعتبِر



«وذلِّله بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَناءِ وَأَسْكِنْهُ بِالْخَشْيَةِ، وَأَشْعِرْهُ بِالصَّبْرِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائعَ الدُّنْيا وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِهِ، وَتَقَلُّبَ اللَّيالي وَالأيَّامِ».

لقد مرّ معنا أنّ للقلب وظيفتين مهمّتين: إحداهما المعرفة والإدراك والأخرى الميول والرغبات التي تكون منشأً للتحرّكات. ولا شك بأنّ الميول بدورها تنقسم إلى قسمين؛ فالقسم الأوّل من هذه الميول يتّجه نحو الله والجنّة، بينما يتّجه القسم الآخر نحو جهنّم والشيطان، هذا في حين أنّ جميع هذه الميول بقسميها تنشأ من القلب. فيمكن أن يكون للقلب ميول إلهية، ويمكن أن تكون ميوله شيطانية.

والجدير بالذكر أنّ منشأ حركة الإنسان هو الميول القلبية. لأنّ جميع الحركات الاختيارية تحتاج إلى الدافع، وينبغي أن يكون هناك عاملٌ وراء هذه الدوافع. فقد تُحرّك هذه الميول المختلفة الإنسان أحيانًا، وتوجد الشوق فيه، وتحرّكه باتّجاه معيّن. وهنا، قد يطغى قلب الإنسان على أثر غلبة الغرائز الحيوانية، ويصبح كالفرس الجموح الذي إذا أراد الإنسان أن يمتطيه تمرّد ورفض اللجام؛ وكلّما سعى صاحبه أن يرجعه إليه عصى وتمرّد. فالجياد غير المروّضة، إذا أحسّت بأنّ أحدًا يريد امتطاءها تصبح متوّحشةً وتضطرب بقوّة ولا تسمح له بامتطائها أو توجيهها كما يريد؛ وإذا ركبها أحدٌ بالقوّة فإنّها تسقطه أرضًا. ولقلب الإنسان مثل هذه الحالات والتصرّفات الموجودة عند الجياد غير المروضة. فقد تقوى الشهوات والميول الحيوانية والشيطانية وحبّ الجاه والشهرة والشهوات الجنسية فيصبح التغلّب عليها أمرًا شاقًا وتخرج عن السيطرة.

وبعبارةٍ أخرى، قد يجمح القلب وينتزع اللجام. وكما أنّ راكب الحصان غير



المروّض لا يمكن أن يوجّهه كيف يشاء، بل قد يسقط أرضًا إذا ركبه، فإنّ صاحب القلب الجموح لا يمكنه أن يعيش حياة سليمة ويقوم بالأعمال الصحيحة. فما العمل في مثل هذه الحالة، حتى يتم الإمساك بزمام حصان النفس الجامح وترويضه وإخراجه من حالة الشموس والجموح هذه؟ وكيف يمكن الحصول على الطمأنينة القلبية؟

سكينة القلب

فلو أنّ نفس الإنسان أو قلبه كان جامحًا بسبب ما فيه من ميول حيوانيّة، أي إنّ الغرائز فيه كانت قويّة ومستعرة، لن يكون من السهل ترويضه. ولو أنّ مثل هذه الحالة ظهرت في الإنسان، فإنّ العامل الوحيد الذي يمكن أن ينجيه من خطر النفس الحرون هو «ذكر الموت». فلو لقّن الإنسان قلبه ذكر الموت سيطمئن قلبه ويهدأ. وكلّما استطاع الإنسان أن يجعل قلبه متوجّهًا إلى الموت، فإنّ هذا الحصان الشموس الجموح سيهدأ أكثر؛ أي على الإنسان أن يفهم نفسه ويلقّنها أنّه ميّتٌ في النهاية، وأنّه مهما كان قويًا ونشيطًا الآن، إلا أنّ هذه القوّة ستذوي وتصل إلى نهايتها يومًا ما. فليلقّن نفسه أن لا تغترّ بقوّتها لأنّ هذه القوّة ستزول يومًا ما وأنّه سيموت.

بالطبع، إنّ الإنسان الذي يتمكّن من توجيه القلب إلى الموت بأي نحوٍ كان، سوف ينال مثل هذا الأثر؛ ذلك لأنّ ذكر الموت يهدّئ قلبه. ويوجد الكثير من النماذج في هذا المجال، ولعلّنا جميعًا جرّبنا بعضها في حياتنا كأن يشتدّ فينا ميلٌ خاص في وقتٍ من الأوقات ويقوى، ولكن في الوقت نفسه يمكن أن يحصل نوعٌ من التوجّه إلى أمرٍ ما يصرفنا بشكلٍ تام عن ذلك الموضوع بحيث لا تعجز تلك الغريزة مع كل ما لديها من قوّة عن تهييج هذه النفس، وفجأةً تسكن النفس وتتخلّى عن جموحها وطغيانها. ولا شك بأنّ هذه الحالة موجودةٌ في الأمور الدنيوية أيضًا. على أي حال، فإنّ أفضل وسيلةٍ لترويض القلب هو «ذكر الموت»؛ أن يكون الإنسان في تفكّرٍ دائم بهذه القضية وأن يحفظها حيّة في ذهنه وهي أنّه سيموت عمّا قريب. فالالتفات إلى الموت ينجي الإنسان من حالة الطغيان والعصيان، ويزيل حالة الجموح من القلب. فليجسّد الموت بأي وسيلة، ويتوجّه إليه أكثر، فتسكن النفس وتهدأ بصورة أفضل وأسرع. مع هذا البيان، يتّضح معنى كلام أمير المؤمنين عليه السلام حين يقول: «**وَذَلِّله بِذِكْرِ الْمَوْتِ**».



من المعلوم أنّ لفظ ذلول تُستعمل مقابل جموح وشموس، وتكون بمعنى الترويض، وعادةً ما يُجعل كلاهما وصفًا مركّبًا. فإذا حرن القلب وجمح يمكن ترويضه بذكر الموت.

إذا أردنا تقوية قلوبنا بذكر الموت وترويض أنفسنا، فإنّ أفضل وسيلةٍ هي أن نأخذ منها إقرارًا بأنّك أنتِ لن تبقي على قيد الحياة إلى الأبد، وسيأتي اليوم الذي ستموتين فيه، وأنّك محكومة بالفناء. ولعلّ لهذا السبب أعقب أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: «**ذَلِّله بِذِكرِ المَوْتِ**»، بـ «**وَقَـرِّرْهُ بِالْفَناءِ**»؛ أي خذ منه إقرارًا بـ«إنّك فان»! فالتوجّه إلى محدوديّة العمر واقتراب الأجل وفناء الدنيا يسكّن النفس.

القلب المطمئن

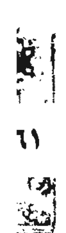
نحن نعلم جيّدًا أنّ الحِصان المروّض أيضًا يسلب الطمأنينة والسكينة من راكبه أثناء سيره؛ أي رغم أنّه مُروّضٌ وراكبه ممسكٌ بزمامه ولا يجمح ليرمي بصاحبه أرضًا، لكنّه لا يتحرّك بهدوءٍ وطمأنينة، بل إنّه يهتزّ براكبه على الدوام. لهذا، من الضروري لكي نستفيد منه استفادة صحيحة ومؤثّرة أن نسكّنه بعد ترويضه، لأنّ الترويض لوحده ليس كافيًا. وهكذا الأمر بالنسبة للإنسان: فإنّ مجرّد ترويض النفس لن يكون كافيًا، بل يجب أن تكون النفس مطمئنّةً ووقورةً وساكنةً. لذا، أوصى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن يقول: روّض قلبك بذكر الموت، فإنّه يكمل بالقول: «**وَأسْكِنْهُ بِالْخَشْيَةِ**»؛ فالإنسان لن يستفيد بشكلٍ كامل من نفسه إلا بعد أن تصبح كالحصان الثابت في خُطاه. لأنّ الحصان المروّض قد يُتعب صاحبه أثناء التحرّك، حتى لو لم يكن جموحًا ولم يرم به أرضًا، ولكن حركته قد تكون فاقدةً للثبات.. لهذا، يجب تسكينه بالإضافة إلى ترويضه. وهكذا إذا أردتم ركوب هذه النفس والاستفادة منها، يجب عليكم أوّلًا ترويضها والإمساك بلجامها ثمّ تسكينها بخشية الله لكي تصل إلى طمأنينة الخاطر. ومن الضروري الالتفات إلى أنّنا بالمقدار الذي نقوّي فيه خشية الله في قلوبنا، فإنّ مركب القلب يصبح أكثر ثباتًا وهكذا نستفيد منه استفادة أفضل. فقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ذَلِّله بِذِكرِ المَوْتِ**» لكي يصبح مستعدًّا للإقرار بالفناء والموت ويكون ذلك مقدمةً للسكينة بالخشية.

الصبر والتصبُّر



وبعد أن يحصل القلب على صفتي القرار والطمأنينة، فمن المهم أن يراقب الإنسان أحواله. وهنا، يوصينا أمير المؤمنينعَلَيْهِ‌السَّلَامُ بالمواظبة على الاعتناء بالقلب ويقول: «**وَأشْعِرْهُ بِالصَّبْرِ**» أي ألبسه لباس الصبر. فقوله «**أشْعِرْهُ**» يعني ألبسه. و«الشعار» في اللغة يأتي بمعنى اللباس الداخليّ ويُطلق على اللباس الخارجيّ لفظ «الدثار». و«المدّثِّر» هو الذي يضع ثيابًا فوق ثيابه كالعباءة وأمثالها. ويُطلق «الشِّعار» على اللباس الداخليّ من جهة أنّه يلتصق بالبدن. والمقصود من قوله عَلَيْهِ‌السَّلَامُ «أشْعِرْهُ» هو أن نجعل للقلب شِعارًا، فنلصق به ذلك اللباس الذي يتّصل به ويغطّيه. وذلك الشعار واللباس هو الصبر الذي يجب أن يلتصق مباشرة بالقلب ويغطّيه.

وقد يكون للفظ معنًى آخر فقوله: «أشْعِرْهُ» يكون بمعنى: «أعلمه»، لأنّ الشعور يأتي بمعنى المعرفة. ولهذا، حين يقولعَلَيْهِ‌السَّلَامُ اجعل الصبر شعار القلب، فهو بمعنًى ما يشبه إطلاق الشعارات في الحرب من أجل الإعلان والاطّلاع. وهنا، يكون للشعار والاطّلاع دور في صبر القلب وثباته مقابل الوساوس الشيطانية حتّى لا يفقد استقامته فينحرف عن سبيل الحقّ. ولا شك بأنّ المعنى الأوّل المتعلّق باللباس أنسب فيكون قوله: «**اجْعَلِ الصَّبْرَ شِعارًا لَهُ**»، أي اجعله لباسًا للقلب. وعلى أساس هذا المعنى، يُصوّر القلب كموجودٍ عارٍ يحتاج إلى اللباس. وقد يكون هذا الثوب لباسًا خارجيًا لا يلتصق بالبدن بشكلٍ تام، ولهذا لا يكون له ذلك التأثير الكبير، بل ينحصر تأثيره بشكلٍ أساسي في التواصل مع الآخرين. وقد يكون المقصود من اللباس الثوب الذي يلتصق بالبدن، ويكون المقصود هنا أن نلصق الصبر بالقلب كما يلتصق اللباس الداخلي بالبدن. وهذا النوع من اللباس هو الذي يتناسب مع القلب، لأنّه مؤثّرٌ فيه ويوجد فيه تلك الحالة الباطنية التي تخلّصه من الجزع والفزع. فحين يكون الإنسان راغبًا بشيءٍ ولا يقدر على الوصول إليه، أو تنزل به مصيبةٌ أو تحيط به المشاكل أو يواجه الأمراض والأسقام والفقر وغيرها من المنغّصات، فإنّه قد يُقابل ذلك بأحد هذين النوعين من ردّات الفعل: فإمّا أن يفزع ويجزع ويبدأ بالصراخ والعويل والشكاية ويعتريه الاضطراب والقلق؛ وإمّا أن يصمد أمام المشاكل والصعاب ولا يهن ويتحمّل كل ما يرد عليه.



وما هو مقصودٌ ومهمٌّ في هذا المجال هو الحصول على المنهج الصحيح في التعامل مع المشكلات والمصائب، لأنّ كيفية التعامل مع الحوادث والمشكلات يقع ضمن دائرة اختيار الإنسان إلى حدٍّ كبير، بحيث إذا استطاع الإنسان أن يروّض نفسه ويمرّنها على الصبر وسعة الصدر، لتمكّن من مضاعفة قدرته على تحمّل المشاكل وتمكّن أيضًا من التغلّب على حوادث الدهر. أما إذا افتقد هذه الروحية، وسقط بسرعة في لجّة المشاكل، وعلا نحيبه وصراخه، وأظهر الجزع فإنّه يفقد ثباته وصموده ويخرج عنان الاختيار من يده.

ولا يخفى أنّ المتصبّر يختلف عن الصبور. ذلك لأنّ الإنسان قد لا يظهر الجزع ولا يشكو أو يصرخ مقابل المشاكل والصعاب، ومع ذلك يكون قلبه مضطربًا غير ساكنٍ وهو على هذه الحال لا يقدر على القيام بما هو مطلوبٌ منه في حياته اليومية. فهو في الظاهر ساكنٌ، لكنّ حاله في الواقع كمثل ذلك الإنسان الضعيف المضطرب الذي امتلأ عمق روحه بعدم الاستقرار. لهذا، فإنّ المطلوب انتقال هذه الحالة الظاهرية إلى الباطن والقلب من أجل أن يتّصف القلب في باطنه بالصبر والتحمّل، وعندها يحقّق الإنسان النجاح المطلوب. ولكن إذا كان متصبّرًا في ظاهره فقط، فإنّ هذا الإنسان لن يتمكّن من تحقيق النجاح، وإذا أراد أن يقوم بأي عملٍ فإنّه لا يوفّق فيه ويضيّع ذخيرة عمره ووجوده في هذه الحياة. إنّما يتمكّن الإنسان من الاستفادة من وقته وإمكاناته استفادة صحيحة حين يكون قلبه مطمئنًا وغير مضطربٍ. ومن المهم أن نلتفت إلى أنّنا لا نقصد من هذا الكلام أن يكون الإنسان في حالة الانتظار الدائم لتلك الحياة الخالية من المشاكل والاضطرابات، ذلك لأنّ المشاكل تحدث للجميع، ولا معنى للحياة الدنيا من دون الصعاب. ففي الأصل، كانت خلقة الإنسان مقرونةً بالألم والمشقّة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[1].

هذا، مع اختلاف المشكلات نوعًا. ولكن لا يمكن أن يعيش الإنسان في هذا العالم من دون صعاب. ولا شك بأنّ الناس يتفاوتون من حيث مدة البلاء وأنواعه، إلّا أنّ الحياة الدنيا قد عُجنت بالمصاعب. فإذا ربّى الإنسان نفسه على الصبر على الشدائد ولم يجزع أو يخضع، فإنّه يصبح إنسانًا ناجحًا. وهذا الأمر هو

---

(١) سورة **البلد**، الآية ٤.

المقصود من التعاليم الإلهية. أمّا إذا كان إنسانًا خنوعًا وبمجرّد مواجهة أي مشكلة أو حادثة يجزع، فإنّه لن يقدر على الثبات أمام مصاعب الدهر وسوف يسقط في الباطن. إنّ سرّ نجاح الإنسان يكمن في قدرته على مواجهة الشدائد بالصبر. وهذا الصبر لا ينبغي أن يقتصر على الحالة الظاهرية فيكون مجرّد دِثار، بل ينبغي أن يكون شعارًا يلتصق بالقلب ويرسخ في أعماقه. فإن كان الجزع حالةً سيئة، فإن التصبّر الظاهري والتظاهر بالتحمّل والتجلّد - مع بقاء الاضطراب الباطني - لا يُعدّ أمرًا جيدًا أيضًا، بل هو مذمومٌ. ينبغي أن يكون الإنسان في باطنه صبورًا. لهذا، لعلّ تفسير قوله عليه‌السلام: «**أَشْعِرْهُ بِالصَّبْر**»، هو أنّ الصبر ينبغي أن يكون كاللباس الذي يلتصق بالقلب. ويجب أن يلتصق الصبر بالقلب ويأنس به ويقارنه حتى لا ينفصل عنه بعدها أبدًا. وبعبارةٍ أخرى، لا ينبغي أن يظهر الصبر فحسب، بل ينبغي أن ينفذ إلى أعماق الروح. فلو تحقّقت هذه الحالة في صقع القلب الإنساني فإنّه سيكون موفّقًا وإلا فلا.

متى كان السماع كالمعاينة؟

ذكرنا أنّ الطريق إلى جعل القلب مطمئنًا يكمن في تذكّر الموت، إلّا أنّ الأمر المهم هنا هو في كيفية تحقيق هذا الأمر؟ ينبغي أن نقول إنّ الناس يتفاوتون في هذا الأمر كما يتفاوتون في غيره. فهناك من يحصل له بمجرّد الالتفات إلى حتمية الموت وأنّ الحياة الدنيا لن تستمر، فيبقى ذكر الموت حيًا في قلبه دائمًا. ولكن هناك بعض الأشخاص الذين يحتاجون لمشاهدة النماذج العينية للموت حتى يلتفتوا إليه ويفكّروا فيه، أي طالما لم تشاهده عيونهم، فإنّه لا يترك فيهم أي أثر. ومن الواضح، أنّ للمشاهدة أثرًا لا يتحقّق بالسماع والعلم. فالإنسان يعرف الكثير من الأشياء، إلّا أنّ المعرفة لا تترك أثرًا في أحوال الإنسان وسلوكه بالنحو الذي تتركه المشاهدة. لهذا، حين يرى الشيء نفسه عيانًا، فإنّه يترك أثرًا مختلفًا في نفسه. لقد سمعتم قصّة موسى عليه‌السلام حين ذهب لميعاد ربّه في جبل طور، وبينما هو هناك أوحى الله تعالى له أنّ قومه قد عبدوا العجل في غيبته؛ فسمع موسى عليه‌السلام ذلك وعلم به، ولأنّه صادر عن الله، لم يكن في قلبه أيّ شكٍ فيه، ومع ذلك، لم يضطرب كثيرًا لسماعه. ولكن حين رجع إلى قومه ورآهم يعبدون العجل اضطرب كثيرًا وغضب غضبًا شديدًا بحيث يذكر القرآن أنّه: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾[1]. فقد كان هذا الغضب بسبب ما شاهده، رغم أنّه كان يعلم أنّهم تحوّلوا إلى عبادة العجل. إنّ الأثر الذي تتركه الرؤية في قلب الإنسان لا يمكن أن يتركه السماع والعلم، ذلك لأنّ الإنسان قد خُلق بحيث يتأثّر بما يراه أكثر بكثير ممّا يسمعه أو يستدلّ عليه.





فالطريق الأفضل لكي يتوجّه الإنسان بقلبه إلى الموت والفناء وإلى ضعة الدنيا – مقابل الآخرة – هو أن يشاهد عن قرب تلك الفجائع التي تحدث في الدنيا ومصائب الدهر وخراب الدول وتضعضع القصور وانهيار الممالك. رغم أنّ لمعرفة التاريخ ومطالعة آثاره فوائد جمّة – مثلما يكون الحديث عنه – إلّا أنّ تأثير هذه المعرفة ليس كالمشاهدة. فلو شاهد الإنسان تلك الآثار عن قرب، فإن أثرها سيكون أكثر بكثير من معرفتها. ولعلّه من هنا كان تأكيد القرآن على السير في الآفاق، وذلك لما في المشاهدة من تأثيرٍ خفيّ ليس موجودًا في السماع والمطالعة. ولهذا، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[2]، أو قوله عزّ وجل: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[3]. ولعلّ هذا هو السبب من دعوة الحقّ للنظر في أحوال الماضين والاعتبار ممّا آل إليه مصيرهم، ولهذا لم يكتفِ بقوله «اعلموا» أو «اسمعوا» بل قال: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾، أي سيروا وشاهدوا الأمور عن كثب.. إنّها دعوة للمشاهدة لا للمعرفة أو السماع. نحن أنفسنا قد سمعنا، ونسمع كثيرًا بأنّه قد حدث فيضان في المكان الفلاني أو وقع زلزال أو بعض الكوارث الطبيعيّة الأخرى، ولكن هذا السماع يختلف عمّا إذا تعرّض بلدنا أو مدينتنا لزلزال أو إلى ساحات دمار ومصائب ومشاكل غريبة وشاهدناها عن كثب، فإنّ تأثيرهما ليس واحدًا.

وهنا، نجد أنّ كلمات أمير المؤمنين عليه السلام تدور حول هذا المحور الذي نستنتج منه ضرورة السعي لمشاهدة المصائب وغدر الزمان وحقارة الدنيا وتقلّباتها عن قرب، من أجل أن نحصل على الأثر اللازم، فتتنفّر قلوبنا من هذه

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٥٠.

(٢) سورة **الروم**، الآية ٤٢.

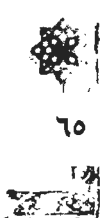
(٣) سورة **النحل**، الآية ٣٦.

الدنيا الدنيّة. فإذا شاهدنا زخارف الدنيا وبهارج قصورها وعماراتها وحدائقها ومشاهدها الجميلة وأدّى ذلك إلى تعلّق قلوبنا بها، علينا أن ننظر بالعين الأخرى إلى مصائبها وخرابها كي نحقّق التوازن ولا نصبح أسرى التعلّق بها. فإنّ هذا التعلّق بالدنيا يؤدّي إلى نسيان الآخرة، ويستتبعه العذاب الأبديّ. ولهذا ذكر لنا أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ هذه المسائل وقال: «**بَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيا**». كل ذلك لأجل أن يطّلع القلب ويستيقظ.

ولا شك أنّه من الممكن أن يكون قوله «**بَصِّرْهُ**» بمعنى البصيرة، والمقصود بذلك هو أن يمتلك الإنسان البصيرة والوعي في قبال فجائع الدنيا وخُدع أهلها حتّى لا ينخدع. وعلى أيّ حال، فإنّ أمير المؤمنين لم يقل لنا فهّم قلبك أو ذكّره، فإنّ مجرّد التذكّر ليس هو المطلوب، بل هناك هدفٌ أعلى وأرقى من التذكّر مطروح؛ أي يجب العمل من أجل إراءة القلب فجائع الدنيا.

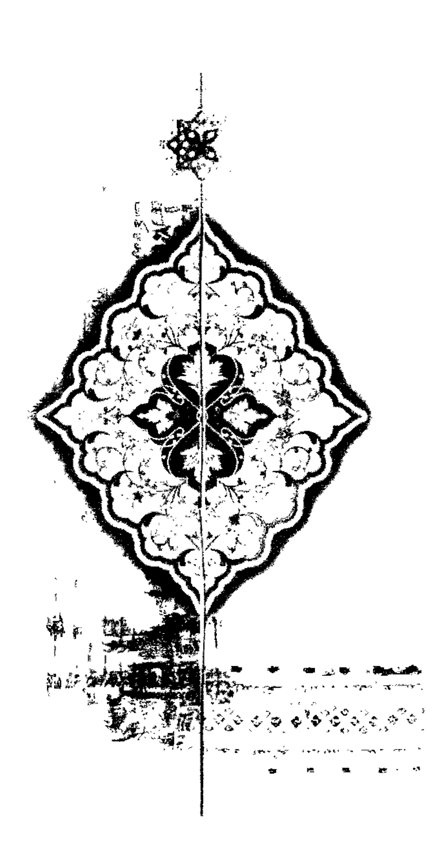
القلب المعتبِر

في تتمة كلامه، يدعونا الإمام عليّ إلى إحياء القلب بالاعتبار من تقّلبات الدنيا وتحوّلاتها: «**وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِهِ وَتَقَلُّبَ اللَّيالي وَالأيَامِ**». فالدهر في حالة هجوم وسعيٍ للتغلّب على الإنسان. ولقلب الإنسان رغباتٌ لا تنتهي ولا يقنع بأي شكلٍ. وما أكثر الذين وصلوا إلى أعلى مراتب السلطة والرئاسة، إلّا أنّ حوادث الدهر قد تحكّمت بهم إلى الدرجة التي حالت بينهم وبين رغباتهم وممتلكاتهم. لهذا، ينبغي تحذير القلب من صولات هذا الدهر التي لا تبقي للإنسان أي مجالٍ للتحرّك والتفكّر. ويجب تحذير القلب من تقلّب الزمان، ذلك لأن تقلّب الدنيا كثير الحدوث وكبير الحجم: «**وَفُحْشَ تَقَلُّبِهِ وَتَقَلُّبَ اللَّيالي وَالأيَامِ**». فهذه الانقلابات الكثيرة التي تحدث في الدنيا ليست مسألةً بسيطة أو قليلة الحجم بحيث نقول إنّ منافعها وأضرارها أمور بسيطة. بل إنّ بعض تقلّبات الدنيا في غاية الغرابة، وقد يسقط الإنسان من أعلى القمم إلى قعر الهاوية مع ما يستتبعه ذلك من الذلّة والانحطاط. فقد يكون اليوم في أوج القدرة والسلطة، وغدًا يصبح في حضيض الذلّة والمهانة. ولا يجري هذا الأمر في الأمور الماديّة فحسب، بل إنّه يتحقّق في العالم المعنويّ أيضًا. وما أكثر الذين وصلوا في العلم والتقوى والمعنويّات إلى أعلى المدارج والمراتب، ولكنّهم سقطوا بعد مدّةٍ من الزّمن، بحيث يصعب علينا



تصديق ذلك. ففي هذا العمر القصير الذي منحنا الله إيّاه، هناك الكثير من الحوادث التي لو سمعنا عنها فقط ولم نشهدها ونراها بأمّ العين لما صدقناها مثل أنّه كيف يمكن لأناس بلغوا أعلى المقامات والمراتب، ثم عادوا وسقطوا في طرفة عين!! وهووا من قصور الجنّة إلى قعر جهنّم. لذا، يجب أن نعلم أنّ كل لحظةٍ قد تحمل معها تلك الحوادث والأحوال التي قد تجتاح وجودنا بأسره. فينبغي أن نكون على حذرٍ من هذه المخاطر الموجودة في طريقنا جميعًا. يجب أن نمتلك البصيرة وأن نأخذ منها العِبرة، وأن لا نغترّ بأنفسنا، وأن لا نغفل عن تلك المخاطر التي تكمن لنا جميعًا، ولن يكون مثل هذا الاعتبار ممكنًا ما لم نرِ قلوبنا تقلّبات الدهر وصولات الزمان حتى يأخذ العبرة ونتمكّن من تحذيره من فحش تقلّب الدهر.





الدرس الخامس

من العبرة إلى الغفلة

- تقلّبات الحياة
- الماضون مصباح طريق اللاحقين
- أيّ دنيا؟
- السير في الآفاق والأنفس
- عبور جادة الحياة
- نقد الآخرة أفضل من سلف الدنيا

«وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبارَ الْماضِينَ وَذَكِّرْهُ بِما أَصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيارِهِمْ، وَاعْتَبِرْ آثارَهُمْ، وَانْظُر ما فَعَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا، وَعَمَّنِ انْتَقَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دارَ الْغُرْبَةِ وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَصْلِحْ مَثْواكَ، وَلا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْياكَ»[1].

لا شك بأنّ التدبّر في عاقبة الغابرين ومن مضى من الشعوب والأقوام يُعدّ مصباح طريق اللاحقين. والشيء الذي يجعل هذا الأمر المهم ميسّرًا هو تلقّي رسالة التاريخ من أجل أن يعتبر بها القلب. ولهذا، نجد أنّ الإمام عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمة وصيّته للإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ يوصي بعرض مصير الأولين والأقوام السابقين على القلب، أنّه كم من أناسٍ عاشوا في هذه الدنيا الحياة الإنسانيّة وحياة الأشراف، ولكن غرقوا في الذلّة والمهانة وكانت عاقبتهم السوء في النهاية؛ وكم من أناسٍ طووا أعلى مدارج الكمال من خلال رعاية آداب الحياة الإنسانية وأسرعوا لينالوا شرف الحضور في محضر الحقّ واختاروا مقام القرب الإلهيّ مستقرًّا لهم.

من هنا، على الإنسان أن يطالع آثار وأعمال الماضين ويدرسها ليرى: ما هي الأشياء التي أدّت إلى أن يعيش قومٌ وشعبٌ بعزّةٍ وإباء؟ وما هي الأمور التي أدّت إلى أن يسقط شعبٌ في الذلّة والمهانة؟ فيعمل عندها على اكتساب كل ما يؤدّي

---

(١) وفي متن بعض الكتب يوجد حذفٌ وتبديل لبعض الكلمات الواردة في هذا النص ويُعدّ هذا المقطع الأكمل من سائر الكتب.

إلى السعادة، ويجتنب كل ما يؤدّي إلى الشقاء؛ وبعبارةٍ وجيزة أن يعتبر ممّا جرى على الماضين، مثلما يوصينا القرآن الكريم مرارًا بهذه النكتة المهمّة، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[1]. وها نحن نقف عند هذا المقطع من الوصيّة الإلهيّة الذي يبيّن فيه إمام المتقّين هذا الأمر المهم ثمّ نقوم بشرحه.

تقلّبات الحياة

من غير المفترض أن يقضي الإنسان كل حياته في المرض والشقاء ويعيش كل عمره في ظلّ الخيبة والفشل؛ بل إنّ لكلّ إنسان – وسيكون له – أفراحٌ وأتراح؛ هكذا هي سنّة الحياة الدنيا. فالتغيّرات التي تحدث ليست مهمّة، وإنّما المهم هو أن ينظر الإنسان ويفكّر كم يحفل الدهر بأنواع التحولات والأحداث وإقبال وإدبار، وكيف تجري هذه التغيُّرات وهذا الإقبال والإدبار، ويؤدّون إلى التغيير في مصير الإنسان. فباليقين، لو فكّر الإنسان جيّدًا لخرج من مجموع هذه التحوّلات والتقلّبات بهاتين النُكتتين ولبقيت دومًا ماثلة أمام ناظريه:

١. إنّ أفراح الدنيا ونجاحاتها وتوفيقاتها أمورٌ مؤقّتة ولا ينبغي الاغترار بها.

٢. وكذلك إنّ مرارات الدنيا ومشقّاتها وإخفاقاتها وخساراتها هي أيضًا مؤقّتة وستزول يومًا ما، لهذا لا ينبغي أن تيأسوا.

بناءً عليه، لا ينبغي للإنسان أن يغترّ بأفراح هذه الدنيا سريعة الزوال، وتوفيقاتها المؤقتة ونجاحاتها الفانية؛ ذلك لأنّه يوجد الكثير من الأشخاص الذين كانوا يعيشون قبلنا ويتمتّعون بنعم أكثر منّا، وحقّقوا نجاحات أكثر منّا، إلّا أنّ هذه النعم والنجاحات لم تدم لهم، لذاً لا ينبغي لنا أن نعلّق قلوبنا بهذه النعم المتوفّرة بين أيدينا ونغترّ بها، والتي هي جميعًا زائلة أيضًا. إنّ للدهر الكثير من التقلّبات والإقبال والإدبار؛ وهذا الإقبال والإدبار صعب كثيرًا وفادح، فإذا غفل الإنسان، فإنه سيسقط من أوج العزّة إلى حضيض الذلّة. أمّا إذا نظر جيدًا إلى هذه التحوّلات

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٤٢.



والتبدّلات وفكّر بها جيّدًا، لا أنّه لن يغترّ بما لديه من النعم الدنيويّة فحسب، بل لن يقلق كثيرًا أو ييأس من عدم امتلاكه لها. من هنا، فإذا واجهه بلاءٌ يومًا ما، فإنّه لن يفكّر بأنّه دائم، وسيعلم يقينًا بأنّ هذا البلاء ليس دائميًّا، ولا تلك الراحة دائميّة، بل إنّ كل هذا إلى زوال. يقول القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[١]. لهذا، لا تفرحوا بما لديكم من نعم، ولا تحزنوا أو تيأسوا ممّا يواجهكم من مصاعب وبلاءات لأنّ إقبال الدنيا وإدبارها كثير وهو سريع الزوال.

الماضون مصباح طريق اللاحقين

باليقين، إن مطالعة آثار وأخبار الماضين والتدقيق فيها يُعدّ أحد أفضل طرق الاعتبار. إنّ لمطالعة الحوادث التاريخية ودراستها أثرًا كبيرًا على روح الإنسان. والنتيجة الأولى لهذه الدراسة هي أن يتعرّف الإنسان بنحوٍ أفضل على ماهية الحياة الدنيا ويدرك أنّ كل ما فيها من أفراحٍ وأتراحٍ وسلطنات وامتيازات وحكومات وقصور، كلّها إلى زوالٍ وخراب، وأنّ أصحابها قد ماتوا، ونحن أيضًا ومن دون استثناء سنصل إلى هذه النقطة، وسوف نرتحل عن هذه الدنيا، وبكلمة وجيزة سنكتشف أنّ هذه الدنيا دار ممرّ، لا دار مقرّ. تأمّلوا مثلًا في أهرامات مصر التي تُعدّ من جملة العجائب التي لم يستطع العلم حتى الآن رُغم كل تقدّمه وتطوّره من اكتشاف من الذي بناها وباستخدام أي معلومات وباعتماد أي معادلات علميّة، وبأي وسيلة أو قدرة استطاعوا أن يضعوا هذه الحجارة الضخمة، بعضها فوق بعض. فأسرار هذه الآثار وآلاف الظواهر العجيبة الأخرى الباقية من الماضين، قد بقيت كذلك مجهولة وغير مكتشفة.

وعلى أيّ حال، سواء الطاقات التي شيّدت القصور في بطون الجبال وأوصلت العلوم والصناعات إلى أوجها، أو غيرها ممّن كانوا عاجزين عن تأمين حاجاتهم الأوليّة وكانت حياتهم مليئة بالمشقة والعناء، جميعهم قد ارتحلوا. فإذا كان الحال أنّ الماضين قد ماتوا بعد أعمار قصيرة ومديدة، فهل سأبقى أنا وأنتم؟! فهل نحن خارجون عن نظام عالم الخلقة، وسيكون لنا الحياة الأبديّة؟! فكم من

---

(١) سورة **الشرح**، الآيتان ٥ و٦.

أشخاص عاشوا حياتهم كلّها ولم يكن لهم قرين سوى الفقر والعوز ولم يكن لهم رفيق ولا ونيس سوى المصائب والمشاكل، وكم من أناسٍ سعوا وهيّئوا لأنفسهم وعوائلهم وسائل العيش الرغيد وعاشوا بجانب أصدقائهم وأحبائهم لوقتٍ طويل، إلا أنّ جميعهم ارتحلوا عن هذه الدنيا وابتُلوا بفراقهم. إنّ جميع هذه الحوادث والوقائع ستجري علينا وستكون نهاية هذه الدنيا الموت. إنّ الحياة الدنيا وظواهر هذا العالم ليست دائمة أو خالدة.

وفي قبال هذه الحياة، هناك حياةٌ أخرى باقيةٌ وليست زائلة. فإذا كانت جميع وسائل وأدوات هذا العالم مؤدّية إلى الموت، فإنّ ذلك العالم مهيّأ بحيث لا يوجد فيه ما يؤدّي إلى الموت، فلا مكان للموت في ذلك العالم. فعلى سبيل المثال، يقضي الاحتراق العادي في هذا العالم على الإنسان ويفنيه، أمّا النار في ذلك العالم والتي هي في جهنّم والتي تعذّب الناس الذين ارتكبوا المعصية، فهي أقوى بآلاف المرّات من النار الموجودة في هذه الدنيا، ولكنّها لا تقضي على الإنسان أبدًا. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[1]. وفي موضعٍ آخر، يقول إنّ أولئك عند تضرّعهم إلى مالك جهنّم وتوسّلهم به يقولون له قل لله ليميتنا، ويسمعون في الجواب أنّ هذا الدعاء لا يُرفع، وإنّكم باقون ها هنا: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[2].

أيّ دنيا؟

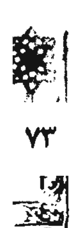
قلنا إنّه من المهم للإنسان أن يقارن الدنيا بالآخرة ويرى أيّ علاقة تربط بينهما. فهل من الجدير صرف النظر عن سعادة الآخرة من أجل لذّات هذه الدنيا؟ لنفرض أنّ الإنسان قد حصل على سلطان الفراعنة، وأنّه يمكنه أن يبني هذه الإهرامات أو كان متاحًا له أن يصل إلى سلطنة مثل سلطنة هارون الرشيد أو أن ينال كنوز قارون التي: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾[3]، فلنفرض أنّ كل هذه قد وُضعت

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٥٦.

(٢) سورة **الزخرف**، الآية ٧٧.

(٣) سورة **القصص**، الآية ٧٦.



تحت تصرّف الإنسان، وأنّه كان مالكًا لكلّ هذه الثروات، وأنّه لم يتعرّض لمكروهٍ واحد إلى آخر عمره، ولم يواجه أي نوع من المغصّات، ولم يُبتلَ بفراق المحبوب، وعاش في غاية الهناء والسعادة، مرّةً أخرى هل سيكون لكل هذا من قيمةٍ بالمقارنة مع سعادة الآخرة حتّى يتخلّى عن لذّة الحياة الآخرة لأجل لذة الحياة الدنيا؛ في الوقت الذي حياة هذا العالم محدودة وإلى زوال، وحياة ذلك العالم أبديّة وخالدة؟!

إنّ سبب ترجيح الحياة الدنيوية المحدودة على الحياة الأخروية الخالدة هو هذا التعلّق القلبي. كلّما كان تعلّق الإنسان بأصدقائه وأحبّائه في هذه الدنيا أكبر، سيكون الأمر أصعب عليه وأشدّ حين ارتحاله منها ومفارقته لها. ومن جانب آخر، لأنّه انتقل إلى عالم ليس لديه أي أنس أو معرفة به، فإنّه سيكون شديد القلق والخوف، فضلًا عن أنّه لم يهيّئ له زادًا. والحال كذلك، هل من الجدير والمنطقيّ أن يكون الإنسان بعيدًا إلى هذه الدرجة عن اللذات والسعادات الأبديّة، حيث يبقى العقل متحيّرًا لدى سماعه عنها، وينتابه الخوف والإحساس بالغربة؟! والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

فهل يُعدّ عملًا عقلائيًا أن يتخلّى الإنسان عن جميع اللذات والسعادات الأبدية لأجل بضعة أيام من اللذّة المؤقتة والعابرة؟ باليقين، لو حصل الإنسان على جميع ملذّات هذه الدنيا، فجميعها كذلك لا تستحق أن يتعلّق القلب بها؛ لأنّها جميعها إلى زوالٍ وانقضاء؛ في حين أنّنا نعلم يقينًا أنّ الملذّات الدنيويّة بتمامها لن تكون من نصيب أحد، وبأنّه يمكن لعدد محدود من الأشخاص فقط أن يحصلوا على ما يشاؤون منها، وهذا أيضًا لن يدوم سوى بضعة أيّام. ومن جانبٍ آخر، نحن مدركون أنّه لا يوجد إنسان في هذه الدنيا حياته خالية من المصاعب، سعيدة وهانئة على الدوام. إنّ هذه قضية مهمة بحيث ينبغي على كل إنسان أن يصدّق بها من صميم قلبه، وأن تسري في ساحة عمله، وتحدّد له تكليفه.

نحن نعلم ونعتقد أنّ عالم الآخرة هو عالمٌ أبديّ وأنّنا جميعًا سننتقل إليه. والمخاطَب في هذه الوصية يعتقد بهذه الأمور، إلّا أنّ الاعتقاد الصرف لن يكون له

---

(١) سورة **السجدة**، الآية ١٧.

ذلك الأثر الحي والدائم. فينبغي العمل من أجل أن يكون هذا الاعتقاد حيًّا وفعّالًا. وطريق إحياء هذا الاعتقاد هو أن ينظر الإنسان في الآثار التي خلّفها الماضون، وأن يسمع عنها ويطالعها ويفكّر فيها. وعندها سوف يصدّق بكل كيانه أنّ هذه الدار ليست دار البقاء، وما كان سريع الزوال، لا يستحق تعليق القلب به. ولهذا، يقول الإمام علي عليه السلام: «**اعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبارَ الماضِينَ**». حتى لا يضلّ القلب وينخدع.

وكما مرّ، فإنّ محور هذا الكلام هو القلب واشتغال الإنسان به. إذا كنتم تريدون الوصول إلى السعادة، ينبغي أن تصلحوا قلوبكم. ومن أراد حلّ مشاكله عليه أن يحلّ مشاكل قلبه. حسنٌ، فلنعلم كيف ولماذا جعل أمير المؤمنين عليه السلام القلب محور خطابه؟ فيقول: «اعرض عليه..»؛ اعرض أخبار الماضين على قلبك؟! لعلّ سبب مثل هذا الطلب هو أنّ الإنسان قد يطالع بعض الأشياء أو يسمعها ولكن ينظر إليها نظرة سطحيّة وعابرة، ولا تستقرّ في قلبه، ولا تجد لها طريقًا إلى باطنه، ولا يفكّر فيها تفكيرًا صحيحًا وعميقًا. على سبيل المثال حين يذهب لزيارة أهل القبور ويرى أنّهم ماتوا، لكنّه ينظر إليهم نظرة سطحية وعابرة. فمن الواضح، أنّ مثل هذه النظرة لا تسري إلى القلب. فعليه أن يرى ويسمع ويفكّر بطريقةٍ تجعلها تصل إلى القلب وتسري إليه. عليه أن يفهم ويدرك ويتأمّل جيّدًا. ولعلّه لأجل هذا قال: «**اعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبارَ الماضِينَ وَذَكِّرْهُ بِما أَصابَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ**»!

السير في الآفاق والأنفس

حتى الآن، كانت وصية الإمام تدعو إلى مطالعة الإنسان لأخبار الماضين أو الاستماع من الآخرين والتعرّف عليهم من خلال السماع. أمّا هنا، فإنّه عليه السلام يؤكّد، علاوة على الوصية السابقة، على الاستعانة بالنظر لاكتشاف غدر الدنيا، وعدم الاكتفاء بالاستماع والمطالعة بل وحتى التفكر في آثار الماضين. بل السير والاطّلاع عن قرب على آمال وآماني السابقين التي ذهبت أدراج الرياح: «**وَسِرْ فِي دِيارِهِمْ وَاعْتَبِرْ آثارَهُمْ وَانْظُرْ ما فَعَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا...**».

بناءً عليه، يجب على الإنسان السعي لاكتساب العقائد الحيّة والإيمان الحيّ، وفي هذا المسير، عليه أن يستفيد من بصره وسمعه وأن يستمع إلى أخبار



الماضين وينظر فيما بقي من آثارهم؛ ولهذا يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**سِرْ فِي دِيارِهِمْ وَاعْتَبِرْ آثارَهُمْ، وَانْظُرْ ما فَعَلُو أَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا وَعَمَّنِ انْتَقَلُوا**»، فسر في ديارهم وشاهد آثارهم وانظر أي مقام بلغوا وماذا بنوا وأيّ أعمالٍ أنجزوا وإلى أي نتائج وصلوا، وماذا حقّقوا، وأين ذهبوا بعد كل هذه الأعمال المليئة بالمشقّة وهذه الحياة المليئة بالتخبّط والإقبال والإدبار، وأين نزلوا وفي أيّ مكانٍ حلّوا؟ لعلّهم فارقوا أحبّةً لم يكونوا يطيقون فراقهم حتّى لساعةٍ واحدة، وها هم الآن بعيدون عنهم إلى الأبد.

وهنا، نرى كم أنّ بيان الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ رائعٌ في جوابه على تلك الأسئلة: «**فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ وَحَلُّوا دارَ الْغُرْبَةِ**». لأنّ كل أنسهم كان بالدنيا وأهلها ولم يكن لديهم أي أنس وألفة بأهل الآخرة. وبما أنّ كامل أنسهم كان بالدنيا، فحين ارتحلوا من هذه الدنيا، هم غرباء ووحيدون في ذلك العالم؛ كالمسافر الذي يصل إلى مكانٍ غريبٍ وأجنبيٍّ عنه، ولا يكون لديه أي معارف هناك، فيُقال لقد وصل إلى دار الغربة.

وإنّك إذ نظرت في أحوال وأوضاع حياة الآخرين واطّلعت على ما آلت عليه حياتهم، تلك الحياة المليئة بالاضطرابات؛ يبرز هذا السؤال المهم وهو نحن أنفسنا ماذا فعلنا وماذا نفعل؟ ألن يكون مصيرنا كمصيرهم؟ فهل أنّ طريق نجاتنا واضحٌ أمامنا؟ وهنا يطلِع عَلَيْهِ السَّلَامُ الإنسان على مصيره الحتميّ، فيقول: «**وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ**»، أي إنكم عمّا قريب ستصبحون من عداد هؤلاء، ولن يطول الوقت حتى تلقون المصير نفسه. إنّها نقطة النهاية، نهاية الحياة الدنيا.

عبور جادّة الحياة

بعد أن يطّلع الإنسان على أحوال وآثار الماضين، ويَخبُر غدر الدنيا ويستشرف مستقبله ومصيره المحتوم، فإنّه بلا شك سيبحث عن المخرج وسيفكّر في الطريق المناسب والجيّد لمستقبله. فبعد أن يطالع الإنسان أحوال الماضين ينبغي أن يصل إلى هذه النتيجة وهي أن الحياة الدنيا عبارة عن طريقٍ والنجاة منها لا يكون سوى بعبورها، فهي ليست مستقرًّا ومُقامًا! فإنّ المسير العام الحاكم على العالم والإنسان منذ اليوم الأوّل الذي ظهر فيه هذا العالم إلى صفحة الوجود، كان وما زال في مسيرٍ واحد، ولم ولن يتوقّف لحظةً واحدةً. فبالنسبة له لا يوجد حتى



لبث وتوقّف، فما بالك بالإقامة! إنّ جريان الأيام ليس تحت تصرّف الإنسان، وشاء أم أبى فإنّ الزمن يمضي. فالإنسان في حالة سير وتحرّك دائم، ولكن أنت، انظر إلى أين أنت ذاهب؟ وأين سيكون مكان إقامتك؟ وفي ذلك المكان، إلى أين ستصل في نهاية المطاف؟ فهل ينفق العاقل زاد الطريق في الطريق قبل الوصول؟؟ كل ذلك من أجل قضاء بضعة أيام من اللذّة والمرح حتى إذا وصل إلى المقصد النهائي لم يجده شيئًا؟ هذا في حين أنّ هذه الطريق لا تحمل للإنسان ذلك الفرح الذي يعتدّ به ولن تكون مسيرة الحياة خالية من الصعاب والشدائد؛ فهي ليست كذلك ولم تكن ولن تكون؛ وإذا حصل فيها الأشخاص على السعادة، فإنّها مؤقّتة ومحدودةً وممزوجةً بآلاف أنواع الآلام والهموم والغصّص. فإذا كان مصير البشر هو على هذه الشاكلة والقضاء الحتمي الشامل لكلّ عالم الوجود وللإنسان هو هكذا. إذًا، «**وَلا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْياكَ.. فَأَصْلِحْ مَثْواكَ**».

نقد الآخرة أفضل من سلف الدنيا

فبعد أن عرفت حقيقة الدنيا وأدركت أنّها ليست سوى سير وسفر وعبور، ولا يمكن اتّخاذها منزلًا، فهل من الجدير أن تبيع آخرتك الباقية الدائمة من أجل هذه الدنيا الزائلة الفانية؟! من الواضح أنّه لو كان للإنسان مثل هذه الأفكار والتأملات، لوصل حتمًا إلى هذه النتيجة بأن هذه المقايضة برمّتها ليست سوى الخسارة. لهذا، لا يمكن أن يرضى بمثل هذه المبادلة والتجارة، حيث يبيع آخرته بدنياه: «**لا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْياكَ**».

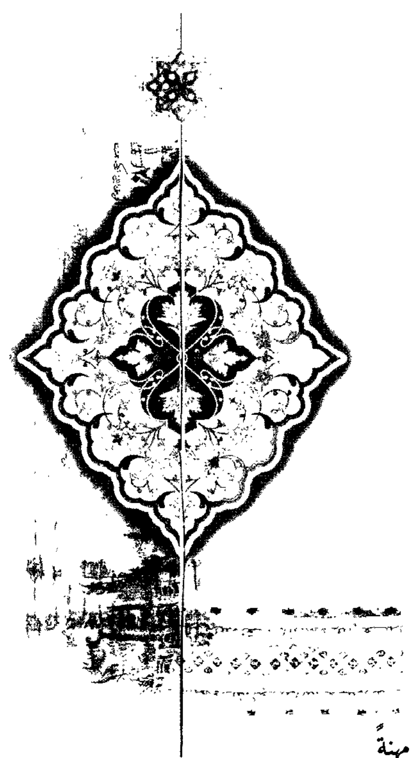
وفي الختام، من الجدير التأمّل في هذه المسألة وهي: ما هو الرابط الموجود بين أحوال القلب وبين النظر والاستماع إلى آثار الماضين، حتى يوصينا أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بالنظر إلى تلك الآثار ومطالعتها لأجل إصلاح قلوبنا؟ وباليقين، في نظر أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ يوجد مثل هذه العلاقة والارتباط. ونحن قمنا بعرض هذه المطالب بحسب فهمنا الناقص والتصوّر الذي نمتلكه حول هذه المباحث، في حين أنّنا نقرّ ونعترف بأنّ عمق هذه الأبحاث والمطالب بعيدة كل البعد عن فهمنا.

ومثلما بيّن عَلَيهِ السَّلَامُ آنفًا: قم بمطالعة أحوال الماضين وتاريخهم وانظر ماذا



كانت نهايتهم. فلعلّ النتيجة لهذا الخطاب والوصية الثمينة التي نستنتجها من كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ، هي حين قال: «**وَلا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ**»؛ وها نحن بعد أن أدركنا وفهمنا أنّ نهاية الماضين كانت الموت والارتحال عن هذه الدنيا، وعلمنا أنّ هذه الحياة ليست سوى معبرٍ وجسرٍ وممر إلى الآخرة، فلا ينبغي أن تصرفوا تمام همّتكم في تعبيد الطريق وتغفلوا عن المقصد، بل ينبغي أن يكون توجّهكم باتّجاه المقصد: «**فأصلح مثواك**»، وقوموا بإصلاح مكان إقامتكم. فأنتم في هذا العالم في حال سفر، وهذا المكان ليس بمثوًى ومُقام. فالمُقام هو الآخرة. لهذا، قوموا بالتفكير بإصلاح المنزل والمأوى والمقصد النهائيّ. «**لا تَبِعْ اخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ**» ولا تبع الحياة الآخرة الأبدية بهذه الحياة الدنيا الفانية وسريعة الانقضاء.

وبالالتفات إلى النُكات أعلاه، ربّما يتّضح ارتباط هذا القسم بالخطاب الذي سبقه، حين يوصي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أصلح قلبك». وهنا، تبرز مشكلةٌ وهي أنّ قلب الإنسان ليس بيده بحيث يقدر على التصرّف فيه كما يحب. فكيف نصلح قلوبنا؟ فلعل الجواب يأتي ها هنا.. إن إصلاحه يتم عن طريق العين والأذن، ذلك لأن ما يؤثّر في القلب هو هذه المشاهدات والمسموعات. من هنا، فلو أعطينا لأبصارنا وأسماعنا التوجه الصحيح، بحيث يسمع القلب ويبصر ما هو مفيد، لصلح القلب؛ فلو أنّه مثلًا سمع ورأى أمرًا فيه عبرة له، فإنّ هذا الأمر سيؤدّي إلى إصلاح القلب. لهذا، ومن باب الاحتمال لعلّ وجه الارتباط بين هذين القسمين من مواعظ أمير المؤمنين هو أنّ توجيه الأسماع والأبصار يؤدي إلى توجيه القلب وإصلاحه، لذا أوصانا عَلَيْهِ السَّلَامُ في مقام إصلاح القلب بإصلاح أسماعنا وأبصارنا.



الدرس السادس
طريق السعادة

- أوّل شروط السعادة
- الخسارة غير المتوقَّعة
- انحطاط الفكر في عصر إشعاع العلم
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مهنةً



«وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ، وَالنَّظَرَ فِيمَا لا تُكَلَّفْ[١]، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالَةِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوالِ. وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِلِسانِكَ وَيَدِكَ، وَبايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ».

وبعد تلك المواعظ المختصرة وبيان أحوال القلب، يشرع الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بذكر الوصايا المفصّلة ويبدأ قوله: «**دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ**». ولعلّ ارتباط الأبحاث السابقة بهذا القسم من الوصية هو على النحو التالي: لو أردنا أن نعمل بهذه الوصية ونفكّر بشأن دنيانا وآخرتنا، فإنّنا سنصل إلى هذه النتيجة وهي أنّ كل من سبقنا قد ارتحل وستكون عاقبتنا الموت مثلهم. وطبقًا لمفاد الوصية، نستنتج أنّه ينبغي لنا أن نفكّر بآخرتنا.

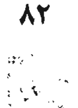
من هنا، يواجهنا مثل هذا السؤال، وهو: ماذا الذي ينبغي أن نفعله وما الذي ينبغي أن نهتم به، بحيث يكون مفيدًا لسعادتنا الأبدية؟! ما هي الأشياء التي ينبغي أن يهتم بها من كان في بداية الطريق وقد وصل إلى سن التكليف حديثًا؟ وبعد إدراك هذه الحقائق ما الذي يقوم به وبأي الأمور ينبغي أن يهتم حتّى لا يُبتلى في المستقبل بالحسرة والندامة، أو بالخسارة التي لا يمكن جبرانها؟ وبعبارةٍ أخرى، ما هي الخطوات الأولى في مسيره من الدنيا إلى الآخرة، من أين عليه أن يبدأ، وكيف عليه أن يطوي هذا الطريق بحيث يصل في النهاية إلى مقام ضيافة الله ورضوانه، ولا يحلّ به غضب الله وعذابه؟ فلعلّه من هذه الجهة بدأ أمير

---

(١) وفي بعض النسخ ورد كلمة «الخطاب فيما لا تُكلّف» بدلاً من «النظر فيما لا تُكلّف» فيكون المعنى بهذه الحالة متعلقًا بعدم الكلام.

المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ببيان هذه الوصايا التي سنتعرّض لها بالشرح.





أوّل شروط السعادة

كما مرّ معنا في بداية هذه الوصيّة، فإنّ المخاطَب بهذه المواعظ هو إنسان مسلم يحمل الاعتقادات الصحيحة ولديه معرفة إجمالية بالواجبات والمحرّمات، وبضروريّات الإسلام؛ ومن يتّصف بمثل هذه الأمور، من الطبيعي أنّ يكون مهتمًا بأداء الواجبات وترك المحرّمات؛ أي أن يكون ملتزمًا التزامًا كاملًا بالوصية الأولى من هذا الخطاب «التقوى»، وأن يجتنب المحرّمات ويؤدّي الواجبات.

ولكن بعد العمل بهذه النصيحة، أي العمل بالأمور التي يعتبرها واجبة، ويترك تلك التي حرّمها الشارع المقدّس، يبرز هذا السؤال وهو: ما الذي ينبغي أن نفعله وكيف نستفيد من الدنيا الاستفادة المثلى لتحصيل الآخرة بحيث لا تصبح الدنيا هدفنا؟ وباختصار، بعد الاطّلاع على أنّ الحياة الدنيا ليست سوى أداة ووسيلة يواجهنا هذا السؤال وهو: ما هو الشيء المهم بالنسبة لنا إذًا؟ ما هو الشيء الذي ينبغي أن نعطيه أهميّة، وما الذي ينبغي أن نقوم به على مستوى العمل؟ فكأن الإمام عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقام يقول إنّ أول خطوةٍ هي أن نحقّق فيما لا نعلم أو فيما نشكّ به لكي نعرف مسؤوليّتنا جيّدًا ولا نتحرّك خبط عشواء.

بالطبع، إنّ هذا الحديث بحدّ ذاته يمثّل مطلبًا أساسيًا في هذا القسم، وسيرد ضمن المطالب الآتية تحت عنوان «التفقّه في الدين» وسيكون مورد البحث. ولكن قبل الوصول إلى ذلك البحث، فإنّ سكوت الإنسان في الموارد التي يكون جاهلًا بها، يُعدّ مطلبًا مستقلًّا يعظنا به حضرة عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقول: «**وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ**».

الخسارة غير المتوقَّعة

علينا أن نلتفت دومًا إلى هذا الأصل وهو أنّ الحياة الدنيا تمثّل رأسمال الإنسان الذي ينبغي أن يكتسب بواسطته السعادة الأبديّة. فالذي ينظر إلى الدنيا بهذه النظرة، ينبغي أن يكون على حذر ألّا يخسر رأس المال هذا. يشبّه القرآن الكريم عمر الإنسان برأس المال، ونلاحظ أنّ هذا التعبير والتشبيه، الذي يعرّف العمر



برأس المال الذي به نتكسّب ونتّجر، قد استُعمل كثيرًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[٢].

في الحقيقة، يألف الإنسان، من خلال حياته اليوميّة، مفاهيم من قبيل «المعاملات» و«التجارة» وأمثالها أكثر من أي مفهوم آخر، ولذلك فقد استخدم الحقّ جلّ جلاله ألفاظًا مثل «المعاملة» و«التجارة»، التي هي مألوفة جدًّا لدينا. فالتعبير: «**لا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْياكَ**» في كلام أمير المؤمنين عليه السلام استُخدم على هذا الأساس أيضًا، أي بسبب أنّنا نألف مفهوم البيع والشراء والتجارة، ومن جانبٍ آخر نعلم أنّه يمكن أن نستبدل الدنيا والآخرة ببعضهما بعضًا، فقد قال لنا: **لا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْياكَ!**

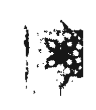
نحن في حياتنا اليوميّة لا غنى لنا عن التجارة، فنحن على الدوام نعطي شيئًا ونأخذ آخر في مقابله. وعمرنا أيضًا هو على هذا النحو، وذلك لأنّ أعمارنا ليست باقيةً ودائمةً، بل هي في حالة انقضاء وتبدّد، سواءٌ أردنا أم لم نرد ذلك، فإنّ العمر ينقضي ويبلغ أجله. لذا، ينبغي أن نسعى لاستبداله بمتاع قيّم، وأن نكتسب لقاء هذا العمر، الذي ينقضي ونخسره، شيئًا قيّمًا وأن نستعيض عنه بمتاعٍ مناسبٍ وذي قيمة.

أمّا إذا صرفنا هذا العمر لقاء شيء أو استبدلناه بشيء لا يوجد له أي قيمة، فإنّنا في الواقع نكون قد ضيّعنا رأس مالنا وأهدرناه؛ ذلك لأنّنا لا نكون قد كسبنا أي شيء لقاء هذا العمر. ومن المسلّم أنّ عملًا كهذا لا يُعدّ عملًا عقلائيًا، ذلك لأنّ هذا الإنسان ينفق رأسمالًا ثمينًا كالعمر، من دون أن يحصل على أي شيءٍ في المقابل. والأسوأ والأكثر حماقة هو أن ينفق عمره في المعاصي، ذلك لأنّه في مثل هذه الحالة، لا أنّه لا يحصل على شيءٍ لقاء هذا العمر فحسب، بل يكون قد اشترى العذاب لنفسه كبديل عنه. أي علاوة على خسارة رأس ماله، يكون

---

(١) سورة **الصف**، الآية ١٠.

(٢) سورة **فاطر**، الآية ٢٩.



قد اشترى العذاب لنفسه. فما هو مهمّ هنا هو أن يسعى الإنسان للحصول على المتاع والفائدة الأكبر لقاء رأس المال الذي يخسره. فقد يجلس الإنسان أحيانًا في محفلٍ ويبدأ بالحديث من هنا وهناك وبالتفاخر ويسعى لإبداء رأيه في كل المسائل، سواء كانت علميّة أو فلسفية أو فقهيّة أو أخلاقيّة أو اجتماعية وصولًا إلى المسائل التي لها علاقة بالهندسة المعمارية والطب؛ لا بل ويعتبر نفسه من أهل الاختصاص ويعبّر عن معتقداته ببيانٍ حاسم وجذّاب، كأن يقول: لا، إنّ الأمر ليس كذلك، بل هو على هذا النحو! في حين أنّه لو وضع نفسه في مقام الحكم والقضاء لرأى أنّه لا يعلم شيئًا في هذ المجال، وأنّه لا ينطق إلا عن الهوى. ومن المسلّم أنّ مثل هذا العمل يستهلك طاقة ووقت الإنسان بصورة كبيرة ويتلف عمره من دون أن يعود عليه بأي نفع.

فعلينا أن نحاكم أنفسنا، أنّه في حال صرفنا عمرنا في مثل هذه الأحاديث، فماذا ستكون الثمرة؟ لقد أبدينا وجهة نظرنا في جميع المسائل، من أصغر قضايا العالم إلى أكبرها، في الوقت الذي لم يكن لدينا أيّ علم بها. لا أنّه لم نكن نمتلك الخبرة في تلك المسائل فحسب، بل لم نكن نمتلك أدنى اطّلاع بشأنها، ولكن لأنّه أثير الكلام حولها قمنا بالإدلاء بدلونا! والملفت هنا أنّ الأمر قد ينجرّ في بعض الحالات إلى النزاع والجدال ويرتفع لهيب البحث والجدال وتتعالى الأصوات وتملأ الآفاق، ولكن من دون حصول أي فائدة تُذكر ومن دون أن يكون لذلك أي ثمرة.

هذا المثال، هو نموذج صغير من بين آلاف المشاغل اليومية التي صنعناها لأنفسنا من أجل تضييع رأسمال العمر، والذي لا يمكن أن يكون له اسم آخر سوى الحماقة. فالذي ينطق بكلام وهو نفسه لا يعلم ما يقول، ولا يعلم إذا كان ما يقوله صحيحًا أم لا، لا بل ومن أجل الإدلاء بهذا الكلام الذي لا معنى له، فإنّه يقحم نفسه في الجدال والنقاش، ورغم جهله يصرّ: إنّ الحقّ هو ما ذكرت وأنت مخطئ، هل يمكن أن ننعت ذلك بغير الحماقة؟

إنّ مثل هذه التصرّفات والسلوكيات كثيرة الرواج بين أهل الدنيا، في الوقت الذي يعلم الجميع أن مثل هذا العمل ناشئ من الجهل وهو عمل قبيح وسفيه. فلو أنّ الإنسان تحدّث فقط بدافع المشاركة في حديث قد طُرح، وكان بصدد إثبات وجوده فقط، لا شك أنّه يكون قد قام بعملٍ خاطئ ولن يكون له أي فائدة



ونتيجة سوى إتلاف رأسمال العمر وفقدان الهيبة في أعين الآخرين، وربما يجلب معه العداوة والكدورة. ولهذا، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في الخطوة الأولى: إذا لم تقم بما هو حسنٌ أو تكتسب ما هو مفيد، ففي الحد الأدنى لا تضيّع رأس مال عمرك وإيمانك ولا تتحدّث بما لا تعلم.

ما تقدّم كان بشأن الكلام. ولكن في مجال العمل ومجالات الأنشطة المختلفة الأخرى، فالأمر على هذا النحو أيضًا. فعلى سبيل المثال، قد ندخل في أعمال لا علاقة لنا بها، لا من قريبٍ ولا من بعيد، ولسنا مكلّفين بها، ولا تعود علينا بالنفع، لا الدنيويّ ولا الأخرويّ، ولربما كان لها أضرار دنيويّة وحتّى أخرويّة كثيرة. ولكن من الواضح، أنّه لا غنى لنا عن التدخّل بفضولية في كل عمل، فكلّما طُرح عمل نحشر أنوفنا فيه. من المسلّم أنّ مثل هذه الروحية تجرّ الإنسان إلى الضلالة، ويكون قد ضيّع وقته وأهدر طاقته من دون أن يكون لديه أي هدف أو يحصل على أي نتيجة. وفي حال رجع إلى نفسه، سيتّضح له أنّه لم يكن له عمل في هذه الأمور، وأنّ هذه الأعمال لا ارتباط لها به.

بالطبع، يكون الأمر أحيانًا متعلّقًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الهداية والإرشاد أو التعاون على البر - كان واجبًا أو مستحبًا - ففي هذه الحالة لا شك بأنّ المشاركة تكون مطلوبةً وممدوحةً، لا سيّما إذا تصاحبت مع الإخلاص. أمّا إذا لم يكن أي من هذه الأمور متحقّق، ولم يكن لتدخّلنا في هذه الأعمال أي تأثيرٍ، ولم نكن مكلّفين بشيءٍ منها، فلا شك أنّ التدخّل في تلك الأعمال يكون غير عقلائيٍ.

حين يضع الإنسان في هذه الحياة هدفًا واضحًا أمامه، ينبغي أن يكون في صدد الوصول إلى ذلك الهدف، وأن يتحرّك على الطريق الصحيح، حتّى لا يضلّ الطريق، فيسلك طريقًا لا ينتهي إلى الهدف، أو يسلك تلك الطرق المجهولة التي لا يُعلم إلى أين تنتهي. فهل من المعقول، إذا كان للإنسان هدفٌ ومقصدٌ يريد الوصول إليه، أن يترك الطريق الصحيح ويختار الطريق المشكوك بأمره وأن يقول: إن شاء الله سوف نصل إلى الهدف؟!

فباليقين، الشخص الذي يختار الطريق المشكوك بأمره، لا يكون دافعه دافعًا إلهيًّا ومرضيًّا عند الله.

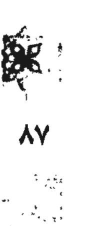
وعلى أي حال، حين يتخلّى الإنسان عن الطريق اليقيني والواضح ويسلك ذلك الطريق الملتبس أو غير الصحيح فيُحرم من الوصول إلى المقصد، فهل يحقّ له أن يلوم أحدًا غير نفسه؟! لهذا، ينبغي أن نصرف رأس مالنا في الطريق الذي لا يحصل منه أي ضررٍ في القول أو الفكر أو العمل. الآن وبالالتفات إلى الكلام السابق، تأمّلوا بدقّة في كلام أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ حين يقول:

١. «**وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ**»، حين يخوض الآخرين في بحث، ليس لديك أي علم أو معرفة به، فلا تتدخّل كيفما كان؛ ذلك لأنّ دخولك في مثل هذا البحث لن يعود عليك بأي نفع وسيكون خسران محض. والمسلّم به أنّ البحث العلمي والتحقيقي الهادف الذي يعرف صاحبه ماذا يفعل، وعمَّ يبحث، هو خارجٌ عن هذه الدائرة. أمّا إبداء الرأي والإفتاء بما لا نعلم - أعمّ في المسائل الفقهية والسياسية والاجتماعية والطبية والمعمارية وغيرها - هو عملٌ مخادع ينبغي اجتنابه. بالإضافة إلى ذلك، من الممكن أن يتسبّب بضرر لا يمكن جبرانه؛ كإبداء الرأي ومن دون مناسبة بالمسائل الطبية، ما يمكن أن يؤدّي إلى أن تصبح حالة المريض أكثر وخامةً، أو ينتهي الأمر بموته، فمثل هذا التدخّل أمر في غير محلّه وشديد الخطورة.

إذًا، هذه نصيحةٌ عقلائية، وعقل الإنسان يدرك جيدًا بأنه لا ينبغي له أن يبدي رأيه بما لا يعرف: «**دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ**». فلو عملنا بهذه النصيحة لوحدها، كم نكون قد حافظنا على عمرنا! وإذا لم نصرف الوقت والعمر ورأس المال في اللغو والأعمال الباطلة، بل صرفناها في طريق تحصيل العلم وأداء العبادة، فكم كنّا لنحقّق من نتائج عظيمة وقيّمة!

٢. «**وَالنَّظَرَ فِيمَا لا تُكَلَّفْ**»، لا تفكّروا بشيء لستم مكلّفون به، وتجنّبوا إبداء رأيكم وإعمال فكركم فيه؛ فلا تشغلوا أذهانكم بأشياء لم تُكلّفوا بها. بالطبع، يشعر الإنسان أحيانًا ويعلم يقينًا أنّه مسؤول عن بعض الأمور - في الحياة الفردية والاجتماعية - ولهذا ينبغي له أن يعمل وفق تكليفه الذي يشخّصه. مثلما يعلم أحيانًا أنه ليس عليه تكليف، أو يعلم قطعًا أنّه لا يملك القدرة - بالفعل وبالقوّة - للقيام ببعض الأمور حتّى يدخل فيها، أو تكون المسألة بنحو لا يكون لها أي ارتباط به ولا يستطيع أن يقوم بأي دور، ففي مثل هذه الحالة لا ينبغي له أن يشغل ذهنه في مثل هذه الأمور. بالطبع، أنتم تعلمون جيدًا أنّه لا يوجد للحدود الجغرافية

ولقرب المكان وبعده أي تأثير على تكليفنا أو عدمه. فربما نكون مكلّفين بأمور لها علاقة بالجهة الأخرى من الكرة الأرضيّة، ويكون القيام بهذا التكليف على عاتقنا، وربّما يكون هناك أمور تحصل في منازلنا ولكنّنا لسنا مكلّفين تجاهها.



على أي حال، إذا علمنا بأنّنا غير مكلّفين بأمرٍ ما، فلا ينبغي لنا أن نشغل أنفسنا به. على سبيل المثال، التفتوا إلى بعض المسائل البسيطة التي يمكن أن تصادفنا: قد يعترض الرجال على ترتيب الأثاث أو الستارة أو السجّادة في الغرفة أنْ لماذا وضعتم هذه هنا ولم تضعوها هناك؟ ولماذا هي هكذا وليست كذلك، وغيرها من الأمور في حين أنّهم ليسوا مكلّفين بهذه الأمور، فلا ينبغي للرجال أن يشغلوا بالهم بمثل هذه الأمور بلا طائل، لأنّها ضمن مسؤوليات النساء، ومن المناسب أن يُعمل وفق ذوقهنّ في هذه الأمور. فلنلتفت إلى أنّنا أحيانًا قد لا نكون مكلّفين بما يرتبط بأمور غرفنا الشخصية، بل ينبغي أن نكون في صدد البحث عن تكليفنا ونشغل بالنا بما يرتبط بما نحن مكلّفون به ومسؤولون عنه. علاوة على ذلك، إنّ التدخّلات غير المناسبة قد تؤدّي أحيانًا إلى الاختلاف والنزاع والقيل والقال والجدال الذي لا طائل منه. من العجيب والمدهش كيف أنّ بال الإنسان يكون فارغًا وخالٍ إلى هذه الدرجة بحيث لا يكون لديه أي تكليف ليفكّر فيه فيجري وراء تلك الأعمال العبثيّة والباطلة. هذا في حين أنّه لو قضى ٢٤ ساعة بتمامها في أداء التكليف الذي هو في رقبته، لما كان ذلك كافيًا، لكنّه مع ذلك يشغل نفسه بالأعمال التي لا طائل منها، ويستهلك وقته الثمين والمحدود فيما لم يُكلّف به. لهذا، كان أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَام يقول: «**دع النَّظَرَ فِيمَا لا تُكَلَّفْ**».

٣. «**أَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إذا خِفْتَ ضَلالَتَهُ**»، يجد الإنسان نفسه أحيانًا بعد تحديد الهدف أمام طريقين: أحدهما ينتهي إلى الهدف حتمًا، والآخر مشكوك فيه، ويُخشى أن ينتهي إلى الضلالة. وفي هذه الحالة، يجب أن يسلك ذلك الطريق الواضح واليقيني، فلو تخلّى الإنسان عن الصراط المستقيم والجليّ واختار الطريق الملتبس، يكون قد قام بعملٍ غير عقلائيّ. لذا، على الإنسان اجتناب الطريق الذي يُخشى ضلالته وأن يتقدّم على الطريق الواضح اليقيني، ولا ينبغي له أن يضع قدمه على الطريق الذي لا يطمئن له. فباليقين، حين لا تأمنون الضلالة والحيرة، فإنّ التوقّف يكون الحل الأفضل: «**فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالَةِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ**». وذلك لأنّ الحد الأدنى من الضّرر لسلوك طريق الضلالة هو

أن يضطر الإنسان لإعادة سلوك الطريق من جديد بعد أن يكون قد وصل إلى نقطة النهاية. علاوة على ذلك، فإنّ في هذا الطريق، الكثير من المخاطر والمزالق والمنعطفات الشديدة والمضائق والموانع التي قد تنتهي بالقضاء على الإنسان وهلاكه. ففي هذه الحال من الذي يمكن أن يُلام؟ فهل هناك من يستحق الملامة غير الإنسان نفسه؟

انحطاط الفكر في عصر إشعاع العلم

حين يُقال لا تشغلوا فكركم بما لا يعنيكم ولا تتدخّلوا بالأمور التي لا تقع ضمن دائرة مسؤوليتكم، ودعوا أعمال الآخرين للآخرين، قد يبرز هذا التوهّم بأنّه لا ينبغي للإنسان عندئذٍ أن يراقب أعمال الآخرين أو يفكّر بهم؛ فليكن عيسى على دينه وموسى على دينه. ولا شك بأنّ هذا التفكّر الواهي قد ظهر في البداية بين الفرق والنحل الإسلامية وغيرها، ولا زال له حضورٌ حتى الآن، وترون له شكل جديد في الثقافة المعاصرة للعالم الغربيّ. وفي صدر الإسلام أيضًا كان هناك فرق حين كانت تسمع عبارة «اهتموّا بشؤونكم»، أو ما يقوله القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[1]، كانت تستنتج من مثل هذه المواعظ أنّ طريق النجاة يكمن في الانزواء والعزلة، وتقول: لذا، لا ينبغي لنا أن نتدّخل في أمور غيرنا، وينبغي لنا نسعى فيما يرتبط بشؤوننا الخاصّة. لهذا، كانوا ينشغلون بالعبادة في زاوية من زوايا المنزل أو المسجد، وقد تركوا الأعمال الاجتماعية بالكامل.

لدى الفرق الصوفية الموجودة اليوم مثل هذا الاتّجاه تقريبًا، يخلتف شدّةً وضعفًا. فإذا كان مثل هذا التصوّر الخاطئ يلقى رواجًا في شرق البلاد، فذلك يعود إلى هذا الفهم المنحرف لتلك المواعظ. وكذلك إذا كان هذا الفكر الباطل حاكمًا في الثقافة الغربية، فإنّ منشأه أفكار باطلة أخرى.

أنتم تعلمون أنّ صنم بلاد الغرب وعالم الكفر والاستكبار هو «الحريّة». وشعارهم هو «افعل ما تشاء ولا تتدخّل بغيرك»، أيّ إنّ كل إنسان هو حرٌّ في أن

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١٠٥.



يعيش كما يحلو له. وقد تتطوّر مثل هذه الأفكار في أيامنا هذه إلى الدرجة التي جعلت الشذوذ الجنسيّ يتّخذ وضعًا قانونيًا، وتُقام أكبر التظاهرات للدفاع عنه! فحتى الدول الراقية والتي يُعبّر عنها بالمتمدّنة تجعل اليوم زواج الرجل من الرجل أمرًا مشروعًا! وتتفاخر بمثل هذا القانون وبوجود مثل هذه الحرية. وفي المقابل، لو أراد شخصٌ أن ينصح غيره لاعتبر ذلك من سوء الأدب. ولا حق لأحد في التدخل في عمل الآخرين. وعلى أي حال، فإنّ التوجه الفكري الخاطئ والاستنتاج غير الصحيح من وصايا الإسلام وتعاليمه الأخلاقية يستتبع هذا التوهّم الباطل حين يُقال «عليكم أنفسكم» نظن أنّ المقصود هو أن لا نتحمّل أي مسؤولية تجاه الآخرين، أو كما في بعض المجتمعات حيث اتّخذت هذه الثقافة الخاطئة لنفسها شكلًا قانونيًا، فيحق لكل شخص أن يفعل ما يحلو له وهو حر في الإقدام على أي عمل يحب، ولا يحق لأحد الاعتراض عليه، إلا إذا كان مزاحمًا لحرية الآخرين.

هذا، في حين أنّ الإسلام لا يقبل بأي من هذين المبنيين الفكريين، ذلك لأنّ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» من الواجبات الإسلامية المؤكّدة، وقد عُدّت هذه الفريضة في بعض الروايات أهم من «الصلاة»، لأنّ ترك «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» سيؤدي إلى ترك الصلاة وغيرها من الواجبات. وفي الواقع، إنّ رواج باقي الفرائض متلازم مع رواج «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وكما قال الإمام الباقر عَلَيهِ السَّلَامُ: «إنّ الأمْرَ بِالْمَعْرُوْفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبيلُ الأنْبِياءِ وَمِنْهاجُ الصُّلَحاءِ فَريضَةٌ عَظيمَةٌ بِها تُقامُ الْفَرائِضُ...»؛ وهو لا ينسجم مع ذلك المسلك الصوفيّ على الإطلاق، حيث نختار زاوية وننشغل بالعبادة والذكر ونصبح غرباء عن الناس الآخرين ونتجنّبهم ولا يكون لنا علاقة بهم. فالإسلام يدعو لتحمّل المسؤولية تجاه الآخرين كما تتحمّلونها تجاه أنفسكم؛ بالطبع، مع مراعاة الشروط والضوابط الخاصة المبيّنة في الكتب التي هي ذات صلة. فمثلما أنّ الصلاة تُعتبر من ضروريات الإسلام ولها شروطها، فإنّ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» هو أيضًا من ضرورات الدين وله شروطه، فإذا تحققت شروطه ينبغي القيام بعنوان العمل الواجب، أعجب ذلك الآخرين والثقافة الماديّة أم لا. يقول أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: **«دع النظر فيما لا تُكلّف»** فباليقين ليس المقصود «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذي يكون واجبًا قطعًا. بل إن مقصوده عَلَيهِ السَّلَامُ هو أن لا نفكر بما لسنا مكلّفين به، أمّا «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فهو واجبٌ

إلهي يجعلنا مسؤولين أمام الآخرين.

وفي الواقع، إنّ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» هو تكليفنا ووظيفتنا. ولعلّه لأجل دفع هذا التوهّم والتصوّر الخاطئ الذي يُفهم منه عدم التدخل بشؤون الآخرين، نجد أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ يتبع كلامه مباشرةً بقوله: **وَأْمُر بِالْمَعْرُوفِ...؛** أي إذا قلت فكّروا بشؤونكم فقط، ولا تتدّخلوا بشؤون الآخرين، فهذا لا يعني أن لا تكونوا بصدد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل: «**وَأْمُر بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِلِسَانِكَ وَيَدِكَ**».



الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مهنةً

علاوة على أنّ الأمر بالمعروف مفيد للآخرين ويصلح المجتمع، الذي بدوره يعود بالفائدة على الشخص نفسه، فإنّ له فائدةٌ أخرى وهي أنّ الإنسان حين يقوم بهذا التكليف ويحثّ الآخرين على عمل الخير، فإنّ ذلك يصبح دافعًا له للقيام بعمل الخير والاهتمام به أكثر. بالطبع، إنّ هذا التأثير للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنّما يكون في حال كان الدافع وراءه هو طلب الخير والقيام به تحت عنوان التكليف الإلهيّ، لا بمعنى المهنة والوظيفة. ذلك لأنّه من الممكن أحيانًا أن تتّخذ هذه الوظيفة الإلهية لنفسها شكل المهنة، مثل الذي يُوظّف لوعظ الناس لقاء أجر يتقضاه، فيحثّهم على المعروف وينهاهم عن المنكر.

فمثل هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد لا يستتبع أي تأثيرٍ على فاعله، لأنه قليلًا ما يعلق بقلب المخاطَب، ولا يتجاوز تأثيره الصوت الذي يخرج من فم صاحبه، من دون أن يترك في قلبه أي نوع من العلاقة أو الرابطة؛ أي من الممكن أن لا يكون ما يقوله نابعًا من الحرص وطلب صلاح الغير ولا يخرج من القلب، لهذا فإنّه لا يستقر في القلب ولا يؤثر بقائله أيضًا. ومن الممكن أيضًا أن يكون الآمر بالمعروف هو نفسه يرتكب المعاصي ويقول للآخرين لا تعصوا. ومن المحتّم أنّ كلام الشخص الذي يقول للآخرين لا تعصوا وأنّ المعصية سيئةٌ، في حين يكون هو نفسه مبتلًى بالمعاصي، فإنّ تأثيره يكاد لا يُذكر، لأنّ دافعه في الواقع لم يكن إلهيًّا، ولعلّه يتوجّه بهذا الكلام إلى الآخرين من موقع مهنته، من أجل كسب الأجر الماديّ المعيّن له، والله تعالى قد ذمّ هؤلاء بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ

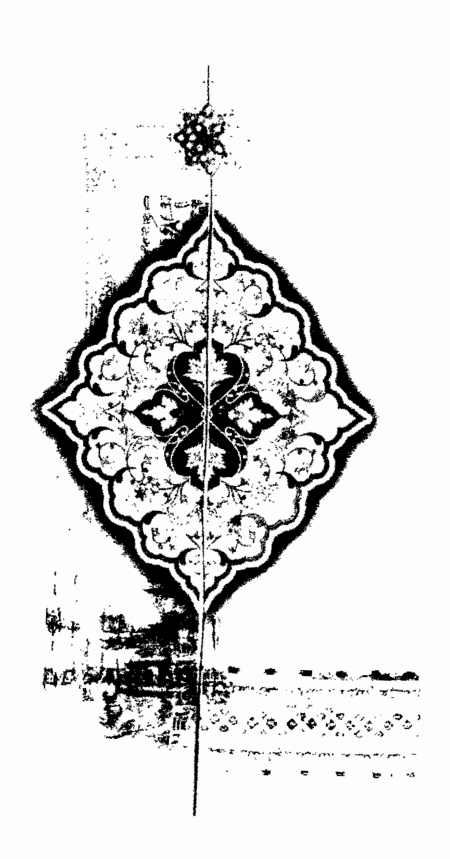
بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].



أمّا إذا قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت عنوان التكليف الشرعيّ، ففي هذه الحالة نجده حريصًا على الناس يخشى أن ينحرفوا في طرق الضلالة، من دون أن يكون لديه أي دافع مادي أو سعيٍ لتحصيل المال، ولعلّه يجعل نفسه في معرض الخطر من أجل القيام بالأمر بالمعروف وتخليص الآخرين، ويصرف كل همّه وطاقته من أجل أداء التكليف الإلهي. وفي هذه الحالة، سيكون عمله أفضل وتأثيره أعمق على الآخرين ولن يكون أبدًا مصداقًا للآية: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾. لهذا، فإنّ إحدى فوائد هذا النوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي أن يصبح الإنسان أكثر جدّية في القيام بأعمال الخير وأداء التكاليف الشرعية، وتزداد درجة التزامه بذلك العمل. فحين يهتمّ بجعل الناس مقبلين على الخير والصلاح، فإنّه سيصبح هو نفسه أكثر جدّيّة في سلوك هذا الطريق.

والمسألة الأخرى هي أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون باللسان فحسب، بل في بعض الأحيان تستلزم الظروف أن يشمّر الإنسان عن ساعد الهمّة وأن ينزل إلى ميدان العمل ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكرات، ويعمل على إنجاح المشاريع الخيرية وأعمال المعروف. بالطبع، مع هذا إنما ينبغي أن يكون مع مراعاة الشروط التي بُيّنت تفاصيلها في الكتب ذات الصلة. أما إذا لم يتمكّن الإنسان من الحؤول دون وقوع المعصية من خلال الموعظة والنصيحة ولم يتمكن من ترويج الأعمال المحمودة ولم يكن قادرًا على ذلك بوسيلةٍ أخرى، فإنّه عندئذٍ يتحمّل مسؤولية أخرى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام في تتمة كلامه حيث قال: «**وَبايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ**». فالمباينة هنا بمعنى الابتعاد عن أهل المنكر. فإذا لم يكن الإنسان قادرًا على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فينبغي أن يبتعد عن أولئك الذين يرتكبون المنكرات والأعمال السيئة، وإلّا فإنّهم سيجرّونه شيئًا فشيئًا إليها؛ ذلك لأنّ عِشرة أمثال هؤلاء تؤدّي إلى أن تقلّل من قبح المنكر في عين الإنسان وقلبه شيئًا فشيئًا، وبالتدريج، فإنّه ينجرّ إلى مثل تلك الأعمال السيّئة ويصبح من خدمة الشيطان ومشاكلًا لمن يعاشر؛ فاجتنبوا أمثال هؤلاء بكامل الجدّ.

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤٤.



الدرس السابع

الجهاد الثقافي

- مكانة التكاليف الاجتماعيّة
- الجهاد الأكبر
- شروط الجهاد الثقافي
- آفات الجهاد الثقافي
- الشيعة الواقعيّون



«وَجاهِدْ في اللهِ حقَّ جِهادِهِ ولا تأْخُذْكَ في اللهِ لَوْمَةُ لائم، وَخُضِ الْغَمَراتِ إِلَى الْحَقِّ حَيْثُ كانَ، وَتَفَقَّهْ في الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْروهِ، فَنِعمَ الْخُلُقُ الصَّبْرُ».

إنّ جوهر مواعظ الإمام علي عليه السلام في المقاطع التي تمّ بيانها حتّى الآن، كان رعاية الإنسان جانب الاحتياط في الحياة، فيتكلّم حيث ينبغي، ويصمت حيث ينبغي، ولا يتدخّل في شؤون الآخرين من دون سبب، ويكون حذرًا من الضلالة والانحراف، ولا يتكلّم سوى بدافع الخير، ولا يبدي رأيه بما يشكّ فيه، حتّى يتّضح له. ولأنّه يمكن للمواعظ أن توجد في بعض الأذهان البسيطة والساذجة مثل هذا التوهّم الخاطئ: بأنّ على الإنسان أن يفكّر بنفسه وبنجاته فقط، وألّا يتحمّل المسؤولية تجاه الآخرين؛ فإنّه عليه السلام يلفت في تتمّة كلامه إلى مسؤوليّات الإنسان الاجتماعية، ويذكّر بهذه المسؤوليات: من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، من أجل دفع مثل هذا التوهّم الباطل، ومنع مثل هذا الاستنتاج الخاطئ، وتأثير هذه المسؤوليات على حياة الإنسان أكثر وأهم من باقي التكاليف الفردية. وهنا نقوم بشرح وبيان هذا المقطع من وصية هذا الحكيم الإلهي.

مكانة التكاليف الاجتماعية

قبل البدء بأي كلام، من الضروري الالتفات إلى هذه المسألة وهي أنّ النفع أو الضرر الناشئ من القيام بالتكاليف الاجتماعية أو إهمالها، هو أهم من أي تكليفٍ فرديّ، وتأثيره على المجتمع وعلى النفس أكبر. وبعبارةٍ أخرى، إنّ هذا النوع من



المسؤوليّات يعود بالنفع أو الضرر على الشخص نفسه وكذلك على المجتمع. وصحيحٌ أنّ الإنسان حين يخدم المجتمع، فإنّ هذا المجتمع يستفيد، إلّا أنّ أوّل منتفع من مثل هذا الخدمة هو الإنسان نفسه؛ فلهذا العمل تأثيرٌ مباشر عليه، ومن جانبٍ آخر فإنّه يُعطى الأجر والثواب على قيامه بهذه المسؤوليّة، وفي حال تخلّى عنها، فإنّ المتضرّر الأوّل والأكثر ضررًا سيكون هو نفسه، حيث سيُحرم من التأثير الإيجابيّ لهذه المسؤوليّة، إضافة إلى ما تجلبه له من عقاب.

والمسألة الجديرة بالالتفات هي: أنّ مسؤوليّة اجتماعيّة واحدة لا تقارن بالكثير من التكاليف الفرديّة، فحتّى لو أدّى الإنسان مئات العبادات والأعمال الفرديّة، لكنّه ترك ذلك العمل الاجتماعي الواجب أو أهمله، فإنّه لن يكون مصانًا من العقاب والآثار السلبية الناجمة عن تركه. وإنّ ثواب تلك العبادات الفردية في مقابل عقاب ترك تلك المسؤوليّة الاجتماعيّة لا يساوي شيئًا. ذلك لأن بعض المسؤوليات الاجتماعية، من قبيل بعض مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الجهاد في سبيل الله، هي من الأهمية والتأثير المصيري بحيث أنّ الضرر الناشئ عن ترك مثل هذه المسؤوليّات أو إهمالها، والذي يطال الفرد نفسه والمجتمع، لا يمكن جبرانه أو مقارنته بالمنفعة الناشئة عن كل العبادات والأعمال المستحبّة الأخرى. فمسؤوليات الإنسان تجاه المجتمع، كانت مالية أو ثقافية أو تربويّة أو علميّة أو من أي نوع آخر من المسؤوليات التي تقع على عاتق الإنسان تجاه الآخرين والمجتمع الإنسانيّ، هي في الواقع من مسؤوليّاته الفرديّة وتعود نتيجتها عليه قبل أي شخص آخر.

بناءً عليه، مثلما أنّنا نهتمّ بمسؤولياتنا الفردية، ينبغي لنا بالقدر نفسه الاهتمام بمسؤولياتنا الاجتماعية، إن لم يكن أكثر؛ ويقع «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» على رأس جميع المسؤوليات الاجتماعية، التي ينبغي أن نوليها اهتمامًا كافيًا. وبشأن قيمة هذه المسؤولية الاجتماعية والعامّة وهذه الرقابة الشعبيّة يكفي أنّه لا يمكن وبأي وجه إهمالها بل يجب السعي لتحقيقها بمختلف الأشكال بدءًا من العبوس وإظهار السخط مرورًا بالوعظ والنصيحة والسعي العمليّ؛ كما أنّه أحيانًا يكون من الضروريّ استخدام القوّة البدنيّة من أجل القيام بهذه الفريضة، لا بل قد يتعدّى هذه المرتبة إلى مستوى التضحية بالنفس وإنفاق رأسمال العمر من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا كلّه يحكي عن أهمية هذه الفريضة الاجتماعية الحسّاسة.



كما أنّه في بعض المراحل، يكون النضال الاجتماعي كمصداق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا؛ مثل ثورة سيد الشهداء صلوات الله عليه، الذي قال في مجال بيان فلسفة قيامه: «إنَّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإِصْلاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أُريدُ أَنْ آمُرَ بالْمَعْرُوفِ وَأَنْهى عَنِ الْمُنْكَر»[١]، أي لقد بيّن عليه السلام أنّ السبب الأوّل لقيامه وفلسفة ذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى أيّ حال، فإن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب متعددة، ولكلّ مرتبة شروطها الخاصّة بها التي ينبغي التعرّف إليها والبحث عنها في محلّها.

الجهاد الأكبر

بينما نحن في صدد تبيان أهميّة المسؤوليات الاجتماعية، من المناسب أن نعدّد بعضها وندرسها. وأحد الوظائف الاجتماعية التي هي بأهميّة الصلاة وواجبة على الإنسان هي «الجهاد في سبيل الله». بالطبع، نحن ملتفتون إلى أنّ المصداق المعروف للجهاد في سبيل الله هو محاربة الكفار، إلّا أنّ الجهاد في سبيل الله لا ينحصر في الحرب والقتال، فيمكن أن يتبيّن له مصاديق مختلفة ويتّخذ أشكالًا مختلفة بحسب الظروف الزمانية والمكانية. غاية الأمر أنّه يكون له في كل زمانٍ ومكان تجلٍّ خاصّ. لهذا، من المناسب أن يُبحث في هذا الموضوع بصورةٍ مستقلة كي تتبين الأنواع والمصاديق المختلفة للجهاد.

ولا شك أنّ المواجهة المسلّحة في ساحة الحرب تُعدّ أحد أنواع الجهاد، وهناك أنواعٌ أُخر من الجهاد التي يحتاجها مجتمعنا اليوم كالجهاد العلمي والثقافي والاقتصادي والسياسي. بالطبع، هذه الأقسام المختلفة من الجهاد بدورها لها شروط، للأسف قلّما يتم البحث بشأنها بصورة واسعة وعميقة. النوع الآخر من الجهاد الذي تمّ التأكيد عليه كثيرًا في الآيات والروايات هو «جهاد النفس» الذي يتحدّث نبيّ الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حول أهميّته وعظمته ببيانٍ جميل، حيث يقول: «مَرْحَبًا بِقَوْمٍ قَضوُا الْجِهادَ الأَصْغَرَ وَبَقِي عَلَيْهِمْ الجِهادُ الأَكْبَرُ؛ فَقيلَ: يا رَسولَ اللّهِ،

(١) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، **موسوعة كلمات الإمام الحسين** عليه السلام (دار المعروف للطباعة والنشر، الطبعة ٣، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، الصفحة ٣٥٤.



مَا الجِهادُ الأكْبَرُ؟ قال: جِهادُ النَّفْس»[١].

ونظرًا لما يحمله لفظ الجهاد والمجاهدة من خصوصيّة في المعنى، فإنّه يُستخدم في موضع يُفترض فيه أن يكون الشخص في مواجهة مع إنسان، ومن خلال السعي وبذل الطاقة يظهر العداوة أو المقاومة تجاهه. لهذا، حين سماع لفظ الجهاد يتبادر إلى أذهاننا الحرب والجبهة وبذل الجهد والطاقة. ولكن قد يكون العدوّ أحيانًا عدوًّا داخليًا أشدّ خطورةً من الخصم الخارجي، كما يقول رسول الله صَلَّاللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «أعْدى عَدُوِّك نَفْسُكَ الَّتي بَيْنَ جَنْبَيْك»[٢].

الجهاد الأكبر (جهاد النفس) هو المقاومة تجاه الأهواء النفسية، أي مقاومة الإنسان لميوله النفسيّة والسيطرة عليها، وإذا أرادت أن تطغى فإنّه يكبحها. الجهاد الأكبر وجهاد النفس هو أحد أنواع بذل الطاقة مقابل العدوّ ولأنّ العدوّ داخليٌّ ومجاهدته ومجاهدة الأهواء النفسيّة جدًّا صعبة سُمّي بالجهاد الأكبر.

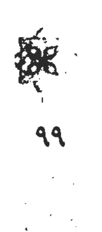
وقد كان لقائد الثورة الإسلامية الكبير، الإمام الخمينيّ (رحمه الله)، أبحاث عديدة في مجال الجهاد الأكبر (جهاد النفس)، وهو نفسه كان قد بدأ من الجهاد الأكبر، وبعد انتصاره في هذا الجهاد استطاع أن يحيي هذا الدين وينجي المجتمع الإسلامي من السقوط الحتمي. وما زالت كلماته كالمشعل الوضّاء الذي يستطيع دائمًا أن ينير دروب حياتنا. لهذا، لا ينبغي أن ننسى تعاليم وكتب ذلك الإنسان المتألّه المحيي للإسلام المحمديّ الأصيل، بل ينبغي لنا أن نتأمّل فيها في جميع الأحوال ونجعلها كالحلقة في آذاننا. نحن، وقبل أي شيء، علينا أن نقوم بمجاهدة النفس وتزكيتها وتهذيبها، حتّى ننتصر في الميادين الأخرى للجهاد بما في ذلك السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي وغيرها.

ومن بين أنواع الجهاد، الذي تتحمّل الحوزة والجامعة تجاهه مسؤولية ثقيلة أكثر من الجميع، هو الجهاد الثقافي. أي إنّ هذا العمل يقع على عاتق تعبويي الحوزة والجامعة وفي حدود مسؤوليّات أولئك الذين يعتبرون أنفسهم جنود إمام

---

(١) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ٥، الصفحة ١٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ٦٤.



الزمان صلوات الله عليه. نحن جميعًا فتات مائدة الوجود المقدّس لولي العصر عجّل الله تعالى فرجه ونعتقد بأنّ الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم واسطة فيض الرحمة الإلهيّة، كما نخاطب هذه الأنوار المقدّسة في الزيارة الجامعة الكبيرة بالقول: بِكُمْ يُنَزِّلُ الغَيْثَ[1]؛ فببركة أنواركم الطيّبة يا أهل البيت، ينزل الغيث. من هنا، فإنّ مسؤولية طلاب العلوم الدينية أثقل. ومن جانبٍ آخر، فإنّ اشتغالهم العلميّ ومعلوماتهم وإمكاناتهم العلمية توجب عليهم أن يكونوا روّاد هذا الطريق، وعلى شباب التعبئة، الجامعيين وغير الجامعيين، أن يكونوا السواعد القويّة التي تؤازرهم. لهذا، فإنّ الجهاد الثقافي هو مسؤولية العلماء والحوزة العلميّة قبل أي أحد، وهو ما نحن في صدد توضيحه.

شروط الجهاد الثقافيّ

١. معرفة العدوّ

يوجد بخصوص هذا النوع من الجهاد مجموعة من الشروط أيضًا، نشير إليها فيما يلي. من جملة هذه الشروط، أنّه يجب في البداية معرفة العدوّ الثقافي، وبعدها تشخيص طرق نفوذه في المجتمع، وبناءً عليه تهيئة السلاح المناسب لمواجهته. فكما أنّه في الميدان العكسري، لا يمكن القتال بالسيف والرمح في مواجهة الأسلحة الحديثة، وينبغي تهيئة الأسلحة المناسبة، كذلك هو الأمر في مواجهة الغزو الثقافي وفي ساحة الجهاد الثقافيّ، ينبغي تهيئة الوسائل المتناسبة مع تجهيزات ومؤامرات العدوّ. ويُعدّ هذا الأمر مسؤوليّة شرعيةً وواجب عينيّ على أهل العلم والمعرفة في المجتمع. فلا ينبغي لهذه المسألة أن تبقى بعيدة عن الأنظار، لأنّنا حتى الآن لا نملك القوّة الكافية للقيام بهذه المسؤولية المهمة؛ وإنّ مسؤوليّة العلماء والمتعلّمين أثقل بدرجات في العمل بكل ما أوتوا من قوّة على إحباط مؤامرات، والوقوف في وجه هذا الغزو.

ففي الجهاد العسكري، تستطيع جميع فئات المجتمع، بما في ذلك الشبان

---

(١) الشيخ القمّي، **مفاتيح الجنان**، الزيارة الجامعة الكبيرة.

والفتيان، المشاركة بنحوٍ أو بآخر، أمّا هذه الجبهة، فهي جبهة تستلزم أن تتحمّل الطبقة المتعلّمة مسؤوليّتها بالدرجة الأولى، العلماء وفضلاء الحوزة العلمية ويتعاملوا معه بجدّية وأن يعتبروا أنّ خطره لا يقل عن خطر العدوّ الخارجيّ وأي عدوٍّ عسكريّ آخر، كما أنّه لا يقلّ خطرًا عن القنبلة النووية؛ ذلك لأنّ هذا الخطر يهدد إيمان شبابنا، حيث ظهرت القليل من آثاره إلى الآن، وللأسف، وإنجازات ثورتنا الإسلاميّة قد أضحت مهدّدة بآفات حقيقيّة. ففي الغزو الثقافي، يستهدف العدوّ بهجومه معتقدات الناس وإيمانهم، ويريد أن يجعلهم غير مكترثين لدينهم ومصيرهم ووطنهم، وفي النتيجة يحقّق أهدافه المشؤومة. بناءً عليه، إنّ مسؤوليّة المتعلّمين وحرّاس عقيدة وإيمان الناس هي توعيتهم تجاه هذا الخطر الذي يتهدّد أغلى ما يمتلكون، وتعريفهم بأعداء الثقافة والحضارة الإسلامية.

٢. إصلاح النية والدافع

ومن الشروط الأخرى للجهاد الثقافي هو وجود الدافع والنية الإلهية. فمن هذه الجهة هو كسائر أنواع الجهاد الإسلامي، ولا يختلف عنها بشيء؛ أي كلّما كانت معرفة الإنسان أكثر وكانت نيّته أكثر خلوصًا، اكتسب عمله قيمةً أعلى، وتكون النتيجة بحسب مرتبة إيمان ومعرفة وخلوص نية مجاهدي هذه الجبهة. إن الأعمال والخدمات التي يؤديها الإنسان تحت عنوان المسؤوليّة الشرعية تجاه المجتمع، تكون مفيدة له أيضًا بنحوٍ من الأنحاء، إذا كانت ناشئة من دافع إلهيّ. من الممكن أن ينفق الإنسان كلّ رأسماله في الأعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية ويستفيد منها الناس استفادة كاملة، ولكن لأنّ نيّته وهدفه لم يكونا خالصين لله، فإنّه لا يكون لإنفاقه هذا أي فائدة لنفسه. فعلى سبيل المثال، الغني الذي يبني المستشفيات والمؤسّسات الخيرية من أجل الشهرة، فرغم أنّ الكثير من المرضى يُعالجون فيها، والكثير من الناس يستفيدون، ومؤسّسو مثل هذه المراكز يصلون إلى هدفهم ويحصلون على الشهرة بين الناس، إلّا أنّهم لا يحصلون على الأجر والثواب المعنوي، لأنّ دافعهم لم يكن سوى المراءاة والتظاهر.

وفي الجهاد العسكري أيضًا، يمكن لشخص أن يكون الأشجع في ساحات الوغى وقد يصل إلى درجة الشهادة، ولكن لا يحصل على الفائدة! وفي الخبر: «أن رجلًا من المسلمين قُتل في سبيل الله بأيدي الكفار، وكان يدعى بين المسلمين



قتيل الحمار، لأنه قاتل رجلًا من الكافرين نيّة أن يأخذ حمارة وسلبه، فقتل على ذلك فأضيف إلى نيّته. وهاجر رجل إلى الجهاد مع أصحاب النبيصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها – وتسمى أم قيس – فاشتهر هذا الرجل عند أصحاب النبي بمهاجر أم قيس»[١].

فالنيّة من هذه الشروط اللازمة في الجهاد السياسي والاقتصادي والثقافي. فالذي يعظ الناس، فإنّ موعظته تعود عليه بالنفع ويحصل على الثواب حين تكون نيّته خالصة لله. أما إذا كانت نيّته أن يُقال له: بارك الله بك! أحسنت! ما أحسن وعظك! فلن يعود عمله الثقافيّ هذا بأيّ فائدة عليه، رغم أنّ الكثيرون يكونون قد استفادوا من درسه ووعظه ووصلوا إلى مقامات علميّة عالية، أمّا هو فلن ينال أي فائدة.

٣.انسجام الأنشطة الثقافية مع الحاجات

بالإضافة إلى ما مرّ، يجب أن نعلم ما هي مسؤوليتنا في الجهاد العلمي والثقافي، وأن نكون بصدد القيام بها، ولا نسير وراء الرغبات والأهواء. فحين يكون أصل الدين في خطر، لا يكون همّنا كيف نصبغ الجدران. وحين تتداعى أعمدة الدين، لا ينبغي أن يكون تفكيرنا مشغولًا بزينته ودوره الظاهريّ. فإذا كنّا نريد حقًّا أن ندرس لله، علينا أن ننظر إلى الدراسة التي يحتاج إليها المجتمع والتي إذا لم ندرسها وتتعلّمها يكون دين الناس في خطر! فإذا كان هناك دروس وأعمال وأمور يتصدّى لها مئات الأشخاص، وعدنا نحن وقمنا بها نفسها أو بأعمال شبيهة بها، فهل يكون هذا العمل عملًا إلهيًّا وخدمةً للإسلام؟! في حين نرى أنّ هناك أعمال وعلوم ومسائل في مجالات أخرى لا يتم العمل عليها بما فيه الكفاية، وتبقى المسؤولية مطروحة على الأرض! فلأي سبب؟ وما هي الضرورة والمسوّغ الشرعيّ للقيام بأعمال تكرارية؟! لهذا، ينبغي في الأعمال الثقافية والعلميّة والدراسيّة أخذ الأولويات بعين الاعتبار، وبعد تحديد المسؤوليّة، يبدأ التحرّك؛ أي ينبغي اختيار العمل والدراسة اللذين هما مورد حاجة وعلى ضوء ذلك تأدية الخدمة الأفضل والأوجب.

---

(١) محمّد مهدي النراقي، **جامع السعادات**، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر (النجف الأشرف: دار النعمان، الطبعة ٤، لا تاريخ)، الجزء ٣، الصفحة ٨٩.



١. الانحراف الذهني (الدوافع الباطلة وغير الإلهية)

إحدى أكبر آفات ومخاطر الأنشطة العلميّة والثقافية هي أن يقع الإنسان، بعد تشخيص التكليف وتحصيل مقدّماته والاستعداد للقيام به، تحت تأثير كلام الآخرين ويضعف في ميدان العمل ويُبتلى بالانحراف على مستوى النيّة والدافع. فعلى سبيل المثال، لو توقّف الإنسان للحظةٍ، ودقّق في أهدافه وفي الدافع من وراء اختيار العمل الفلاني أو اختيار اختصاص معيّن أو الذي أدّى إلى أن يختار الدرس الفلاني، لوصل إلى نتائج عجيبة!! وربّما تكون تلك النتائج غير مرضيةٍ أبدًا بالنسبة له، وحتّى أنه لم يرِد أن يدقّق في هذه الدوافع حتى تتّضح له المسألة على الأقل في سرّه، ويكتفي بالقول: إن شاء الله الدافع صحيح والله يتقبّل، في حين أنّه لو أعاد النظر بدقّة في أهدافه ودوافعه لاتضّح له أيّ أهداف واهية كان يتّبع، وكيف تخلّف مئات الأميال عن الحقيقة، وكيف أنّ فكره وقلبه كانا مشغولين بالأوهام والسراب.

٢. الانحراف العمليّ (التأثير السلبي لكلام الآخرين)

لا شك أنّ من جملة العوامل المؤثّرة في سلوك جميع البشر هي أفكار الناس. فآراء الناس وكلام الآخرين له تأثيرٌ كبير على سلوك الإنسان. فعلى سبيل المثال، حين يقوم الإنسان ببعض الأعمال، يقول له الجميع أحسنت! وهو حين يتلقّى هذا الثناء والتشجيع، يصبح دافعه لذلك العمل أقوى. وفي المقابل، يشخّص الإنسان أحيانًا بمعرفةٍ دقيقةٍ وسعيٍ تام وصحّة، أنّ العمل الفلاني جيّدٌ وينبغي القيام به، ولكن لأنّ الناس لا يتقبّلونه أو لأي سبب آخر، فإنّه يتوقّف عن متابعته ويظهر عدم الرغبة بأدائه. فما هو التكليف في مثل هذه الموارد؟ وإلى أي مدى يستطيع الإنسان مخالفة الرأي العام؟ وهل أنّه يقوم بتكليفه الذي قد شخّصه أو بما يرضي الناس؟ وكنموذجٍ، قد يشخّص الإنسان أحيانًا نتيجة المعرفة الدقيقة، العمل الذي هو تكليفه، ولكن في حال قام بهذا العمل، فإنّ زوجته وأباه وأمه وأخاه وأخته وآخرين يلومونه. فكم يستطيع أن يصمد في ظلّ مثل هذه الظروف، ويتمسّك بتكليفه في مقابل أفكار الآخرين؟ يقول القرآن الكريم اعتناءً بمثل هذه الحالة:



﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[١].

وقد ورد نفس هذا التعبير في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: **«جاهِدْ في الله حقّ جِهادِهِ، ولا تأخُذْكَ في الله لَوْمَةُ لائِم»**. جاهدوا في الله حقّ جهاده، وأدّوا تكليفكم بشكلٍ كامل ولا تتأسّفوا أبدًا على أموالكم وأنفسكم وعزّتكم وماء وجهكم في سبيل القيام بالتكليف، وامتثلوا إلى ما شخّصتموه على أنّه تكليف. فهذا أمرٌ مهم، وإنّما يتجسّد حين لا ينصرف الشخص عن القيام بتكليفه في سبيل الله نتيجة وقوعه تحت تأثير كلام اللائمين وتوبيخ الآخرين: «**لا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِم**».

إن هذه الآفة الكبيرة تصيب كلًّا من الفرد والمجتمع، وآثارها السيّئة تجرّ كلًّا من الفرد والمجتمع إلى الانحراف. فقد يقرر الإنسان أحيانًا بعد الكثير من التأمل والتفكير ويختار طريقه، ويشخّص من خلال إقامة الأدلة المتقنة والمحكمة العمل الواجب والذي يريده الله، ولكن ما إن يخطو إلى ساحة العمل، ويشاهد ردات فعل الناس والكلام الذي يقولونه مثل: «لا تقم بهذا العمل! ولا تقدم عليه أبدًا»، فإنّه يقع في مرمى سهام ملامة الآخرين، ويضعف عن القيام بذلك العمل اليقيني والحسّاس، ويصرف نظره عن القيام به، ويترك تكليفه الذي كان قد شخّصه على أنّه واجب. وهنا يذكّر أمير المؤمنين عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام بهذه الآفة ويقول: عليك أن تجاهد، ولا تدع أفكار الآخرين تضغطك، وتمنعك من القيام بالتكليف الإلهيّ، ولا تترك أبدًا العمل الذي شخّصته كتكليفك تحت تأثير كلام الآخرين.

الشيعة الواقعيّون

إنّ عدم التأثّر بكلام الناس له من الأهمية ما جعله في كلام الأئمة المعصومين عليهم السلام معيارًا لتشيّع الإنسان. ففي حديث الإمام الباقر عليه السلام الذي يخاطب

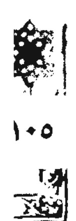
(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٤.

به جابر بن يزيد الجعفي (وهو أحد أصحاب سرّه): «**واعْلَمْ بأنّك لَا تَكونَ لَنا وَلِيًّا حتّى لَو اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا إنّكَ رَجُلُ سُوءٌ لَمْ يَحْزُنْكَ ذلِكَ وَلَو قالوا إنّكَ رَجُلٌ صالِحٌ لَمْ يسُرَّكَ ذلِكَ وَلَكِنْ إعْرِضْ نَفْسَكَ على كِتابِ الله**»[1]؛ أيا جابر! إذا أردت أن تكون من شيعتنا، فإنّ شيعتنا هم على هذا النحو: لو اجتمع جميع سكان المدينة وأطلقوا شعارات: «الموت لجابر! جابر رجلٌ سيّئ! إنّه كافر»، فإنّ ذم النّاس لا يترك في قلبك أي تأثير ولا يخيفك مثقال ذرّة، ومن ناحيةٍ أخرى: «لو قالوا: إنّك رجلٌ صالح لم يسرّك ذلك» ... أي لو أنّ جميع أهل المدينة اجتمعوا وقالوا: «أحسنت! فليعش جابر» فإنّ مدح الناس لك لا يترك أي أثر في قلبك، ولا يجعلك فرحًا مثقال ذرّة. بالطبع، إنّ الوصول إلى هذه الحالة المعنوية أمرٌ صعبٌ جدًا. تصوّروا لو أنّ أحدًا قال لنا: «لماذا قمت بالعمل الفلاني؟!» فإنّنا ننزعج، ويضعف عملنا، فماذا لو حصل أنّ جميع الناس لامونا وقالوا: «عجبًا! لقد قمت بعملٍ سيّء!»

يريد أهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ تربية أشخاص لا يتأسّفون على أموالهم وأرواحهم وعزّتهم وماء وجههم ورأسمالهم وأعزّائهم في سبيل أداء التكليف الإلهيّ، ولا يتزلزلون. ولا شك بأنّ المتربّون في مدرسة أهل البيت يحافظون على روحية الإيثار هذه في الجهاد الثقافي أيضًا، وينفقون العمر كلّه في سبيل تبيين وترويج القيم والعقائد الإسلامية. فلو أضحى مثل هذا الشخص مورد ملامة الآخرين، فإنّه لا يتزلزل ولا يتراجع أبدًا. على سبيل المثال، الشخص الذي ينهض انطلاقًا من الأهداف والدوافع الإلهية لتحصيل العلوم الدينية وتبليغ المعارف الإلهية، أو للقيام بغيرها من الأعمال، فإنّ همّته لا تبرد أبدًا بسبب ملامة الآخرين؛ لهذا كلّما قالوا له: «في حال حصلت على العمل الفلاني، فكم هو الراتب الشهري الذي ستحصل عليه؟! ومع هذه القروض والديون والبيت الحقير وهذا الوضع البائس لن تستطيع أن تدرس وتزوّج للدين»، فإنّ ذلك لا يؤثّر في عقيدته الصحيحة ولا يضعفه. وهذا الكلام يعبّر عن أحد معاني وصية أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ حين يقول: «**ولا تأخُذْكَ في الله لَوْمَةُ لائِمٍ**».

---

(١) ابن شعبة الحرّاني، **تحف العقول**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة ٢، ١٤٠٤ – ١٣٦٣ هـ.ش)، الصفحة ٢٨٤.



لهذا، على الإنسان أن يتأمّل في نفسه، فإذا لم تكن أعماله وسلوكه على أساس التكليف وتحقيق رضا الله تعالى، فعليه أن يعيد النظر فيها ويصحّحها، وبعد تشخيص تكليفه بشكلٍ قطعيّ لا ينبغي له أن يقصّر فيه. فإذا تركت وظيفتك وتكليفك بسبب ما يقوله الناس فعليك أن تشكّك بتشيّعك.

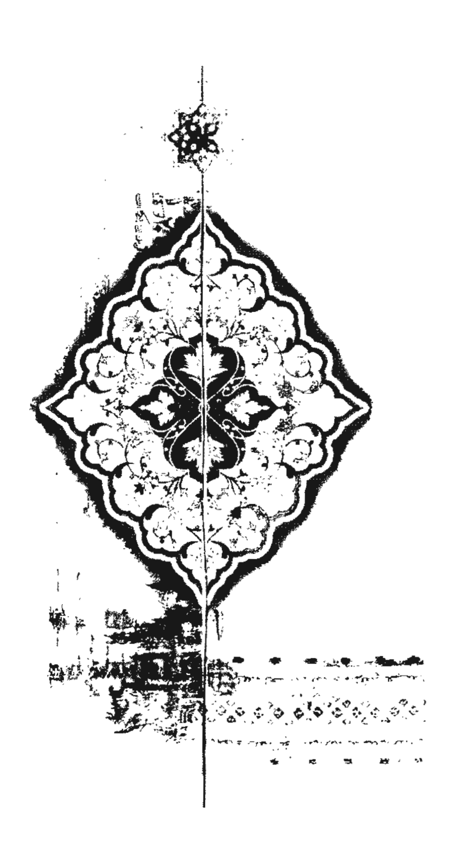
بناءً عليه، علينا أن نجعل القرآن وكلام الله وإرادته ملاكًا لأعمالنا: «**اعْرِضْ نَفسَكَ عَلى [ما في] كِتابِ الله فَإنْ كُنْت سَالِكًا سَبيلَهُ زاهِدًا في تَزْهيدِهِ راغبًا في ترغيبه خائفًا من تخويفه فاثبت وأبشر، فإنّه لا يضرّك ما قيل فيك وإن كنت مبائنًا للقرآن فما الذي يغرّك من نفسك**»[1]. أي علينا الالتفات فقط إلى ما يعدّه القرآن حسنًا وما يعدّه سيّئًا، ونتّبع ذلك.

من الواضح أنّ علينا التدرّب من أجل أن نعدّ أنفسنا على هذا النحو، ونربّيها حتّى لا نقع تحت تأثير كلام الآخرين، ونعمل بما حدّدناه على أنّه تكليفنا. بالطبع، لا ينبغي التقصير في تشخيص التكليف، ولهذا حين يكمل أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ كلامه فإنّه يوصي: «**وَتَفَقَّهْ في الدّينِ**». فلو أراد الإنسان أن يعمل بتكليفه، عليه أن يعرف بدايةً ما هو تكليفه، ومعرفة التكليف ليس ميسّرًا سوى عن طريق التفقّه في الدين وفهم الحقائق الدينيّة والمعارف الإلهيّة.

بناءً عليه، ينبغي أن يمتلك الإنسان البصيرة في دينه قبل أيّ شيء، لكي يعرف الأولويات من خلال العلم والوعي، ويقوم بوظائفه بناءً عليها، وأي كلامٍ أو تجريح باللسان مهما كان مؤلمًا، فإنّه لا يثنيه عن القيام بتكليفه والمضيّ في سبيل الله.

---

(١) المصدر نفسه.



الدرس الثامن
العلم والعمل

- شرائط القيام بالتكليف
- إحباط العمل
- الصبر في فهم الدين
- أقسام الصبر



«وَجاهِدْ فِي اللهِ حقّ جِهادِهِ، ولا تأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، وَخُضِ الْغَمَراتِ إِلَى الْحَقِّ حَيْثُ كانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ فَنِعمَ الْخُلُقُ الصَّبْرَ».

بعد الأمر بالجهاد، يوصي الإمام عليعَلَيْهِالسَّلَامُ قائلًا: **«ولا تأخُذْكَ في الله لَوْمَةُ لائِمٍ»**، حتّى لا يقع الإنسان أثناء القيام بتكليفه تحت تأثير كلام الآخرين، لا سيّما ذلك الكلام الذي لا اعتبار له. أما إذا اعتنى بكلام الناس وبما يقولون، فإنّه في أغلب الحالات - إن لم نقل في جميعها - سوف يحجم عن القيام بتكليفه؛ ذلك لأنّ الإنسان سيجد في جميع أعماله وتحرّكاته أشخاصًا يلومونه ولأسبابٍ عديدة. فإذا اهتمّ الإنسان بلوم الآخرين له، فإنّه لن يُوفّق ولن يتمكّن أن يؤدّي تكليفه كما ينبغي وكما هو لائق. من هنا، عليه أوّلًا السعي لتشخيص تكليفه جيّدًا، وبعدها عليه أن يسعى للقيام به بحيث يكون مرضيًّا عند الله. ولا ينبغي أن يحدث مدح الآخرين أو ذمّهم له أي فرق فس نفسه، أو أن يترك أي تأثير في قلبه.

ووصيّتهعَلَيْهِالسَّلَامُ بهذا الأمر بعد الأمر بالجهاد، هو من أجل أن لا يثني كلام الآخرين الإنسان عن القيام بتكليفه. فالمعنى العام للمجاهدة هو بذل الجهد على طريق أداء التكليف، وإذا كان اللفظ مستعملًا بصيغة المفاعلة فذلك لأنّ إلقاءات شياطين الجنّ والإنس وأهواء النفس ستقف دائمًا في وجه القيام بالتكليف، ما يتطلّب الاستقامة والثبات في مقابلهم. وكأنّ هناك شخصين يقفان في قبال بعضهما البعض؛ أي الأهواء النفسيّة في مقابل عقل الإنسان أو في مقابل الأمر الإلهي، ولهذا عُبّر عن هذه الحالة بالمجاهدة. فحين يُقال إنّ على الإنسان أن

يكون في حالة مواجهة مع نفسه وأن يجاهدها، ففي ذلك إشارة إلى هذا المعنى، والمقصود هو أنّه لا ينبغي الوقوع تحت تأثير الشيطان وأفكار الآخرين، بل ينبغي أن يكون النظر إلى الله فقط والمضيّ على أساس التكليف الإلهيّ. لذلك، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يوصي بعد الأمر بالجهاد: عند القيام بالتكليف والمجاهدة، لا تقع أسير اللائمين حتّى تتمكّن من القيام بالجهاد والتكليف الإلهيّ بالنحو المطلوب.

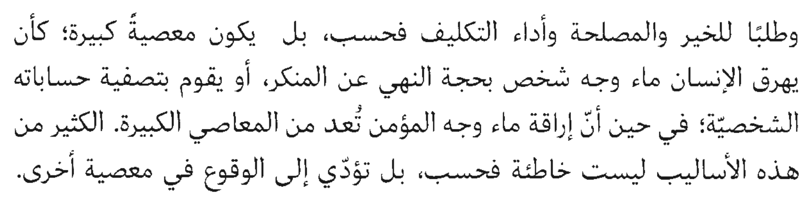


شروط أداء التكليف

أ- الشرط العلمي

إذا أراد الإنسان أن يؤدي تكليفه ويجاهد نفسه، ويقف في وجه الأهواء النفسيّة ولا يقع تحت تأثير كلام الآخرين، يلزم أمرين: الأول أن يعرف الحق جيدًا ولا يخطئ في تشخيص تكليفه، ذلك لأنّ معرفة التكاليف وتطبيق الكليّات على المصاديق هو عملٌ صعبٌ جدًا، والتساهل بشأنه يؤدّي إلى البقاء على الجهل بالحق، والاحتجاب والبقاء على الجهل بالتكليف.

بالطبع، إنّ تطبيق الكليات على المصاديق في بعض الموارد لا يكون صعبًا كثيرًا، ويستطيع كل شخص بامتلاك القاعدة الكلّية تشخيص المصاديق ومعرفة تكليفه بالدقّة. ولكن في الكثير من الموارد يكون الأمر معقّدًا بحيث يصعب تحديد التكليف، كالموارد التي يكون فيها اللفظ العام مورد تخصيص، أو اللفظ المطلق مورد تقييد، أو في مورد وقوع التزاحم في مجال العمل، حيث ينبغي رعاية الأهم والمهم وتشخيص كيفية القيام بالعمل ومصاديق التكليف بدقّة. على سبيل المثال، إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إحدى واجبات الدين ومن ضروريّاته؛ ولكن يظنّ البعض أنّهم لنهي إنسان ما عن المنكر، عليهم أن يتحدثّوا معه بلحن العتاب والملامة، في حين أنّنا نعلم بوجود طرق مختلفة وعديدة لأداء هذه الفريضة؛ وكما يُقال هناك ألف نكتة أدقّ من الشعرة في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فمثلًا يجب أن ننهاه عن المنكر بلهجةٍ مقبولةٍ ومحبّبة حتى يشعر المخاطب باهتمامنا وحرصنا عليه، فيندم على فعلته. لكن للأسف، إنّ تصدّينا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أحيانٍ كثيرة لا يكون دافعًا إلهيًّا



وطلبًا للخير والمصلحة وأداء التكليف فحسب، بل يكون معصيةً كبيرة؛ كأن يهرق الإنسان ماء وجه شخص بحجة النهي عن المنكر، أو يقوم بتصفية حساباته الشخصيّة؛ في حين أنّ إراقة ماء وجه المؤمن تُعد من المعاصي الكبيرة. الكثير من هذه الأساليب ليست خاطئة فحسب، بل تؤدّي إلى الوقوع في معصية أخرى.



للأسف، فأحيانًا ومن أجل القيام بواجبٍ واحد، فإنّنا نرتكب عدّة ذنوب كبيرة، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر بطريقةٍ لا نؤثّر بالطرف الآخر فحسب، بل نجعله يصرّ على معصيته وندفعه لتعمّد ارتكاب أخطاء ومعاصٍ أخرى بطريقةٍ منفّرة جدًّا.

لهذا، يجب عند القيام بهذه الفريضة، التي تُعدّ من ضروريات الدين ومن أهم الفرائض، مراعاة شروطها وضوابطها الخاصّة المحدّدة كي يتحقّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على النحو المطلوب. يجب أن نتعلّم كيف نتحدّث مع كل شخص بحسبه، ونقوم بهذه الوظيفة الحسّاسة بالالتفات إلى شروطها الزمانية والمكانية لكي نحقق الأثر المطلوب ولا نُبتلى نحن أنفسنا بالغرور والتفاخر والكبر. فلو أنّنا أثناء القيام بهذه الفريضة الإلهيّة، تحرّكنا بدافعٍ إلهيّ وراعينا هذه المسائل والتفتنا إلى الحكمة الكامنة فيها، فلن يكون لعملنا هذا نتائج عكسية.

بناءً عليه، يجب الالتفات إلى أنّ مجرّد العلم بالتكليف ومعرفة أنّ القرآن قد أوجبه، أو العلم بأنّه من ضروريات الدين لا يكفي للقيام بهذا الواجب، بل يجب تعلّم شروطه وضوابطه حتى نتمكّن من القيام بهذا التكليف الواجب الضروريّ. فإذا لم يكن الإنسان مراعيًا لشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن الممكن أن يُبتلى أثناء القيام بهذا التكليف، بذنبٍ أكبر وأقبح. فقد يكون هناك شخص، على سبيل المثال، قد ارتكب ذنبًا صغيرًا وربّما يكون قد ارتكبه في الخفاء، ولم يطّلع عليه أحد؛ إلا أنّ الشخص الذي لا يعلم بشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يأتي ويهرق ماء وجهه أمام الآخرين. فهدر ماء وجه المؤمن، هو بذاته معصية كبيرة، ففي الوقت الذي يظن هذا الشخص نفسه أنّه يأمر بالمعروف، فإنّه غافلٌ عن أنّه يرتكب معصية كبيرة.

فحين ينهض إنسان ما لأداء تكليفه، عليه رعاية عدّة نكات مهمّة: عليه أولًا أن يسعى لمعرفة تكليفه بدقة، وأن يكون مدركًا لشروطه وضوابطه إدراكًا كاملًا.

بالطبع، هذه النكتة ترتبط بمقام المعرفة، أي يجب بدايةً أن يكون لديه معرفة صحيحة بالحق ومطابقة للواقع. وكذلك عليه أن يتعلّم الطريقة الصحيحة لأداء هذا التكليف والوظيفة الحساسة، عندها ينزل إلى ميدان التطبيق والعمل. بالطبع، نحن نعلم أنّ هذه المجموعة من الأنشطة تُسمّى بـ «التفقه بالدين». والمقصود بذلك أنّ على الإنسان أن يكون دقيقًا في معرفة دينه وعميق التفكير ويدرك المعارف الإلهية بعمق ويفهم تكليفه جيدًا. وهذا المفهوم، هو من المعاني التي نحملها في ذهننا حول الفقاهة والذي هو أعم، وفي الوقت نفسه أدق، من ذاك الشيء الذي نسمّيه فقه اصطلاحًا.

ب - الشرط العملي

المرحلة الثانية من أداء التكليف هي مرحلة العمل. فبعدما علمنا ما هو العمل الذي ينبغي أن نقوم بهم، يأتي دور الهمّة والكدح لأجل أداء التكليف. وهنا، سيواجه الإنسان مجموعةً من المشاكل التي ينبغي أن يتعامل معها، وعليه أن يلتزم جانب الحقّ في كلّ ما يفعل. لهذا، عليه أن يميّز الحقّ من الباطل في مقام المعرفة وذلك بواسطة العلم والتفقّه في الدين، وفي ميدان العمل يجب أن يسعى ويتعب ويهيّئ المقدّمات للعمل بالحقّ وبمقتضى التكليف وبما يحقّق رضا الله تعالى.

ولعلّه من أجل هذا الأمر يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمّة كلامه: «**خُضِ الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ حَيْثُ كَانَ**»؛ أي تقتضي المرحلة الثانية التأكيد على السعي وتحمّل الشدائد من أجل إحقاق الحقّ في الخارج. ليس الأمر أنّه حين تصلون إلى معرفة الحقّ وتعلمون ما هو، أن تظنّوا أنّه حان وقت الراحة وأنّكم قد وصلتم إلى خط النهاية، وليس لديكم أي تكليف سوى أن تجلسوا في المنزل للراحة والاستجمام وتتحرّروا من أي نوع من التكليف أو الالتزام، بل إنّ مسؤوليتكم في مقام العمل ما زالت حتّى الآن مُلقاة على الأرض، فيجب اقتحام الغمرات وخوض اللجج. خوضوا أمواج البلاءات والمشاكل وتقدّموا إلى أعماق المصائب، واجعلوا الحقّ يتحقّق في الخارج. إنّ إحقاقكم للحقّ لا يعني أن ترتاحوا. إذا أراد الإنسان المؤمن أن يعمل بتكليفه ويعمّر آخرته، يجب أن يكون لديه الاستعداد لتقديم النفس للقيام بهذا التكليف كلّما لزم إحقاق الحقّ، مهما استلزم الدخول في هذه الأعمال من



مصاعب. من الواضح أنّ الإنسان بطبيعته يخشى الصعاب ويفرّ منها. فالكسل وحب الراحة بالنسبة له ظاهرة غرائزيّة وطبعه لا ينسجم مع السعي والكدح وتحمّل المصائب والمصاعب، ويفرّ من الكدّ والقيام بالمسؤوليّات الصعبة. الكثير من الناس يريدون الركون إلى الراحة، ويزعمون أنّهم يقومون بتكليفهم! كأن يحملوا السبّحة ويطلقوا بعض الصلوات أو يقرأوا سورةً من القرآن، أو إذا شعروا بالرغبة يفتحون كتابًا ويطالعون. صحيحٌ أنّ مثل هذه الأعمال جيّدة وذات ثواب، لكن بشرط أن لا يكون هناك مسؤوليةٌ أهم. فالمسلم من شيعة عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يجب أن يكون جاهزًا للتحرّك والعمل. يجب أن يكون حيويًّا ونشيطًا ومستعدًّا للتضحية والفداء؛ ولا ينبغي أن يجعل الركون إلى الراحة والكسل مهنته ويسمّي ذلك تديّنًا وقداسة وزهد وأمثال ذلك؛ فهذه كلّها من خدع النفس، وليست تديّنًا وقداسة.

فإذا كان معلومًا أنّ قيام الليل وتأدية صلاة النوافل هي من وظائف الإنسان التي ينبغي أن يؤديها، فعند الصباح أيضًا ينبغي أن يكون نشيطًا ويقوم بتكليفه. لا أن يقول في وقت العمل، أقرأ القرآن لساعة وبعدها أصلّي عدّة ركعات! إنّ التخطيط الدقيق وتنظيم الأعمال يُعدّ من أهم عوامل النجاح. على الإنسان أن يقرأ القرآن ويناجي ربّه في الوقت المناسب وأثناء السحر، ذلك لأنّه في الليل وفي وقت السحر يحصل الاستعداد الروحي للتهجّد والمناجاة، وكأن الله تعالى بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1]، يريد أن يلفت نظرنا إلى هذه القضية فيقول لنا: إنّ قراءة القرآن عند طلوع الفجر تكون مشهودةً من قبل ملائكة الليل والنهار. فإذا أردتم قراءة القرآن فليكن ذلك بين الطلوعين وقبل آذان الصبح؛ ذلك لأن ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[2].

فإذا كان حقًّا لديكم رغبة في العبادة فليكن ذلك وقت الفراغ. إنّ وقت الخلوة وهدوء الليل هو وقت العبادة. أي حين يأوي الآخرون إلى فراشهم الناعم، ويهجعون، وتغمض العيون جميعها، ولا يبقى من يراقب أحوال الإنسان إلا الله، انهضوا من أسرّتكم المريحة وهيّئوا الروح لتعرض فقرها واحتياجها في محضر

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٧٨.

(٢) سورة **المزّمل**، الآيتان ٦ و٧.

الغنيّ؛ ذلك لأنّ وقت السحر هو وقت العبادة الخالصة والخالية من الرياء، والنهار هو وقت السعي والعمل الذي ينبغي إيلاؤه كامل الانتباه والنشاط والقوة. لا ينبغي الذهاب متأخّرين إلى العمل أو تعطيل الدرس والتحقيق والمطالعة، كما أنّه لا يمكن تعطيل الصلاة وغيرها من الواجبات بحجّة العمل والتجارة. إنّ الدرس والتحصيل العلميّ والتحقيق أيضًا واجبٌ لا شيء يحلّ مكانه. فلا يمكن للعمل المستحبّ أن يحلّ مكان العمل الواجب أبدًا، أو أن يسقط الواجب. وفي الأعمال الأخرى الأمر هو على هذا النحو أيضًا. فعلى سبيل المثال، لا يحق للموظّف الحكومي التأخّر عن موعد الحضور إلى دائرة ومحل العمل بحجة أنّه حتّى الآن لم يقرأ زيارة عاشوراء، ذلك لأن مثل هذه الزيارة، وإن صدرت عن إخلاصٍ ولوجه الله، فإنها لا يمكن أن تجبر ذلك التأخير. إذا كنتم من محبّي الإمام الحسين عليه السلام، فيجب أن تكونوا وراء مكاتبكم في الوقت المحدّد، لأنّ هذا هو تكليفكم وما هو واجب هو هذا العمل، ولا يمكن لهذه الأعمال المستحبة أن تحلّ محل العمل الواجب.

آفة العمل

لعلّ التوصية بأداء التكليف وتحمّل المسؤوليات الفردية والاجتماعية الحسّاسة تحمل بعض الناس على الإفراط في العمل فيعملون قبل أن يفكّروا، ويقدّمون النشاط الجسديّ على النشاط الفكري. لهذا، من المناسب أن نشير من أجل بيان هذا الأمر المهم إلى أنّ الاستعداد الدائم للعمل والسعي بنشاطٍ من دون توجّهٍ، والتحرّك من دون تأمّلٍ، والمغامرة من دون هدف، لا يليق بأي إنسانٍ عاقلٍ مؤمن، بل ينبغي معرفة التكليف وكيفيّة تحقيقه قبل القيام بأي تحرّك، بعدها يتمّ الشروع بالعمل.

وبعبارةٍ أخرى، إنّ روحية حب الراحة والكسل، وإن كانت مذمومةً وينبغي الابتعاد عنها، إلّا أنّ الاستعداد الدائم للتحرّك أمرٌ مرفوض أيضًا، فلا ينبغي التحرّك من دون هدف أو قصد، بل يجب معرفة الحقّ في الفكر والعمل، ومن ثمّ الإقدام. يقول الإمام عليه السلام: «**خُضِ الْغَمَراتِ إِلَى الْحَقِّ حَيْثُ كانَ**»؛ أي ينبغي خوض اللجج من أجل معرفة الحق، من أجل إحقاقه في مجال الفكر والاعتقاد وفي ميدان العمل معًا. عندها يبدأ الشروع بالعمل. ومثل هذا التعبير قد ورد في مكانٍ



آخر في مجال طلب العلم كما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «اطْلُبوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِخَوْضِ اللُّجَجِ وَشَقِّ الْمُهَجِ»[١]؛ فخوض اللجج هو خوض غمار البحار العاتيات حتى لو أدّى ذلك إلى أن يبذل الإنسان دمه ويهرقه في هذا الطريق.

فعلى الإنسان أن يكون مستعدًّا للسعي من أجل معرفة الحقّ في مقام العلم، وكذلك من أجل الوصول إليه في ساحة العمل، وأن يطرد من نفسه روحية الكسل وحب الراحة من كلا المجالين، لأن مثل هذه الروحيّة لا تليق بالإنسان أبدًا، بل تمنعه من الوصول إلى أهدافه. فلنحذر من جعل الكسل والراحة مهنتنا تحت عنوان الزهد والتقوى والإعراض عن الدنيا. إنّ إطلاق الزهد والتقوى وترك الدنيا على الكسل والراحة، لا تكون نتيجتها منع الإنسان من الزهد والتقوى فحسب، بل تجرّه إلى نحوٍ آخر من الانحراف. ومن غير اللائق أن يخدع الإنسان نفسه من خلال هذه الأعمال. باليقين، إن الله تعالى أعلم بما في قلوب الناس، وإذا ما كان دافعهم الزهد حقًّا أو حب الراحة.

إنّ من يريد أن يحارب صفة حبّ الراحة والكسل، يجب أن يتعامل مع المشاكل والصعاب ويواجه الشدائد بمهارة ومن ثم يعمل على تقوية ورفع روحية تحمّل المسؤولية في نفسه وروحية التضحية على طريق أدائها والقيام بها. بالطبع، إنّ تحمّل المشاكل بالنسبة للأشخاص الذين اعتادوا على حياة الدعة وحب الراحة والكسل أمرٌ صعب، ذلك لأنّ مثل هؤلاء في العادة لا يطيقون المصاعب، ويفقدون قدرتهم على المقاومة وينهزمون بسرعة، وفي بعض الأحيان يتركون التكليف لمجرّد شعورهم بوجود المشاكل الشديدة؛ كالشخص الغارق في الراحة في منزله، أو الذي ترعرع في أحضان والديه على الغنج والترف، فإذا اقتضى الأمر أن يتعلّم في مدينة أو مكان بعيدًا عن أهله وفي ديار الغربة، إلى جانب تحمّل مشاكل التعلّم، فإنّه لا يطيق ذلك ولا يتحمّله، ولأنّ هذا العمل صعب فإنّه يتركه. وإذا اقتضت دراسته الابتعاد عن والديه والسفر إلى بلاد الغربة، فإنه يفقد أي قدرةٍ على الاستمرار والتحمّل فيرجع إلى أهله تاركًا مسؤوليته. وكنموذجٍ هو ذاك الذي شخّص أنّ الدراسة هي تكليفه وأنّ هذا التكليف متعيّن عليه، وعليه أن يعدّ نفسه لطلب العلم وتحمّل المشاكل، ولكن لأنه غير معتاد على تحمل

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٧٧، الرواية ١١٣.

الغربة والشدائد والجوع، بل لم يكن لديه خبرة، فإنّه في الأيام الأولى يلتفت إلى أنّ وجوده في مكان الدرس يختلف كثيرًا عن بيته. فهناك كانت أمه تعدّ له أنواع الطعام وتتمنّى عليه أن يأكل، أمّا هنا فعليه أن يعدّ طعامه بيده ويغسل الأوعية والصحون وغير ذلك. كذلك ربّما يعاني بسبب الضائقة الاقتصادية فيضطر إلى الاقتراض، وقد يصادف أن يكون زميله في غرفة المنامة شخصًا غير لائق وسيئ الأخلاق فيُضاعف عليه المشاكل. فمن الطبيعيّ لمثل هذا الشخص الذي كان يعيش حياة الرفاه أن لا يقدر على تحمّل مثل هذه المشاكل، وأن يترك الدرس، وأن يلقي بحمل المسؤولية وتكليفه الشرعيّ عن كاهله.

فهذا مثالٌ بسيطٌ عن المشاكل الشخصية، أمّا القيام بالتكليف في ظلّ المشاكل الاجتماعية فإنّه أصعب بمئات المرّات. فالذي يريد أن يجعل حياته منتظمةً ومطابقةً لإرادة الله سبحانه وسيرة النبيّ الأكرمﷺ عليه تحمّل المواجهات الصعبة والمشاكل الحادّة. ومن الواضح أنّ الشخص الذي تربّى على الدلال سوف يرجّح الفرار من اليوم الأول ويقول نحن لم نُرد مثل هذا التكليف والثواب، أستودعكم الله! ويقول لنفسه الحصول على لقمة الخبز عن طريق التجارة والزراعة و غيرها أريح بكثير، ولا تتطلّب تحمّل هذه المسؤوليات والآلام والصعاب، إلّا إذا كان الذهاب إلى الجنّة ليس ممكنًا إلّا من هذا الطريق! يمكن للإنسان أن يكسب المال ويساعد الفقراء ويذهب إلى الجنّة. هناك آلاف الطرق وأعمال الخير التي يمكن أن توصلنا إلى الجنة، فما الداعي لأن نتحمّل كل هذا العناء؟! ولكن ينبغي الالتفات إلا أنّه «بقدر الكدّ تُكتسب المعالي فمن طلب العلا سهر الليالي»؛ فالأجر والثواب على قدر المشقّة. فمنزلة ومقام أهل الجنّة ليس واحدًا، فإذا أراد الإنسان أن لا يُبتلى بالحسرة في ذلك المحضر، عليه أن يتقبل بالقلب والروح المصاعب والمشاكل التي يواجهها من يكون من أفضل عباد الله.

التصبّر في المفهوم الديني

ينبغي للإنسان أن يتخلّص من روحيّة الكسل والدعة وأن يحاربها، لأنّ مثل هذه الروحية قد تحمله أحيانًا على تبرير أعماله. فعلى سبيل المثال، لأنّ تحمّل أعباء تحصيل العلوم الدينية صعبٌ عليه، يقول إنّ نفسي في خطر، وأنا ضعيف ومريض فينبغي عليّ ترك الدراسة واختيار عمل آخر؛ فإنّه يبرّر ذلك على النحو التالي: إنّ



ترك طلب العلم هو واجبٌ شرعيّ، لا الدراسة! فإذا أراد الإنسان ألّا يُبتلى بمثل هذه الوساوس الشيطانية، يجب أن يتمرّن على تحمّل الصعاب والمشقّات، وعليه أن يلجأ إلى حالة التصبّر ويتمرّن على أن يصبح صبورًا. فالذي يحوز على ملكة الصبر والتحمّل يُقال له «صبور» أو «صبّار». أما التصبّر فيعني التمرّن على الصبر. فالتصبّر يعني أنّ الإنسان حتّى الآن لم يعتد على المصائب والشدائد، وهو يواجهها لأوّل مرة؛ لذا، فإنّ مثل هذا الإنسان يحتاج لأن يتدرّب، ويجبر نفسه على تحمّل المصاعب، حتّى يتخلّص شيئًا فشيئًا من روحية الدلال والغنج التي تربّى عليها، وشيئًا فشيئًا يعتاد على المشاكل والمصاعب. فهذه المرحلة التي هي مرحلة التمرّن على الصبر تُسمّى بمرحلة «التصبّر». وبحسب رأي الأدباء، فإنّ أحد معاني «تفعّل: هو التكلّف». و«**تكلّف الصبر**» هنا يعني حمل النفس عليه.

إنّ «التفقّه في الدين»، وعلى عكس ما يظنّه البعض، ليس عملًا مريحًا، فهو ليس طريقًا لكسب العيش فحسب، بل هو تثبيت وريّ لشجرة الدين؛ ذلك لأنّ التفقّه في الدين أمرٌ صعبٌ جدًا، وتحصيل العلوم الدينية وامتلاك البصيرة في الدين مرهون بتحمّل الصعاب. ولهذا، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد التوصية بالتفقه في الدين: «**عَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى المَكْرُوهِ**».

فإذا أردتم النجاح يجب أن تعوّدوا أنفسكم على التصبّر والتمرّن على الصبر وممارسته. والتمرّن يحتاج إلى مدّة طويلة حتى تظهر ملكة الصبر شيئًا فشيئًا وعندها يصبح الصبر سهلًا. صحيحٌ أنّ الأمر يكون صعبًا في البداية، ولكن ينبغي القيام بهذا العمل خطوة خطوة مصاحبًا بالتلقين حتى يسهل تحمّل الصعاب: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[١]، و﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[٢]. فالله سبحانه وتعالى قد جعل هذه السنّة والقانون في الحياة وهي أنّ على الإنسان أن يواجه المصاعب والشدائد أوّلًا حتّى يصل إلى التوفيق والنجاح؛ أي إنّ الله بعد الصبر يجعل المصاعب سهلة، والإنسان من دون الصبر لن يتمكّن من القيام بتكليفه.

---

(١) سورة **الشرح**، الآية ٦.

(٢) سورة **الطلاق**، الآية ٧.





أقسام الصبر

من المناسب أن نشير هنا إلى أقسام الصبر. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **«الصَّبر ثلاثةٌ: صَبْرٌ على المُصيبَة، وَصَبْرٌ على الطّاعة، وَصَبْرٌ على المعْصِية»**[١]؛ فقد يواجه الإنسان أحيانًا حدثًا مريرًا أو مصيبةً شديدةً كالفقر والمرض ومفارقة الأعزاء أو موت أحدهم، حيث يجب عليه هنا أن يصبر على المصائب. فلهذا يُقال لهذا النوع من الصبر «صَبْرٌ على المُصيبَة». أمّا الصبر على المعصية فيحتاج إليه حين تتغلّب الشهوة والغضب على الإنسان وتجعله يشرف على ارتكاب المعصية. فإذا تمكّن الإنسان من ضبط نفسه وعدم الانجرار إلى تلك المعصية عُدّ ذلك صبرًا على المعصية. فحفظ النفس وعدم التلوّث بالمعصية يُعدّ صبرًا.

القسم الآخر من الصبر، هو الصبر على الطاعة. إنّ القيام بالتكليف الإلهيّ لا يكون سهلًا دائمًا. فالدرس بعنوان التكليف ليس عملًا سهلًا. إن صيرورة الإنسان عالمًا أمرٌ صعبٌ. أحيانًا يريد الشخص أن يحصل على علامة، بالطبع في مثل هذه الحالة سيواجه القليل من المشاكل، أمّا إذا أراد أن يتعلّم شيئًا وأن يصبح عالمًا أو أن يقوم بتكليفه، فلن يكون الأمر سهلًا. بل عليه أن يتحمّل المصاعب والمشقات ولو بخوض اللجج وسفك المهج من أجل الوصول إلى هذا الهدف. ولا شك أنكم قد سمعتم القول المعروف: «ما أسهل أن يكون المرء عالمًا وما أصعب أن يكون إنسانًا»، ولكن المرحوم الحاج الشيخ عبد الكريم رضوان الله عليه كان يقول: «ما أصعب أن يصبح المرء عالمًا، ومن المُحال أن يصبح إنسانًا». إنّ الدراسة وصيرورة الإنسان عالمًا، لا سيّما إذا كان بقصد الطاعة وأداء التكليف، مقرونٌ بتحمّل الحرمان والصعاب. فلو كنا نمتلك البصيرة وعرفنا ما هي موقعيّتنا وأدركنا تكليفنا فإننا لن نستسلم أمام هذه الصعاب أبدًا، ولن نتهّرب من القيام بأي عمل يعيننا على القيام بتلك التكاليف.

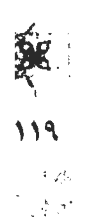
لهذا، نجد أن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمان»[٢]. أو ما رُوي عن الإمام الصادق: «الصّبر رأس الإيمان»[٣]. ومثل هذه العبارات ليست من

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٨، الصفحة ٧٧، الرواية ١٢

(٢) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٥٥٧.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١٥٥٨.

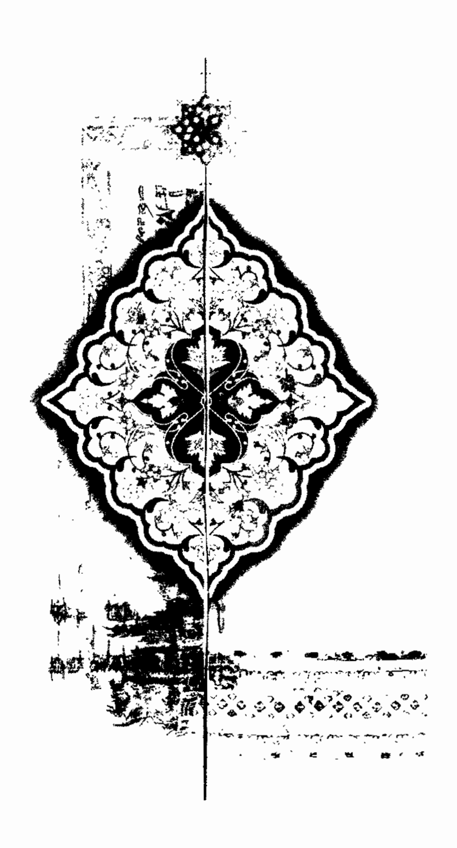


المبالغة في شيء. فلو أراد الإنسان أن يسلك مسلكًا مقبولًا ويصبح من شيعة عليٍّ، فعليه أن يعوّد نفسه على الصعاب. ولن يحدث للإنسان أبدًا أن يصل إلى درجة الصبورية والصبّارية بشكلٍ دفعي وفوري، بل إن ذلك يحصل بالتمرين والممارسة. وإنما يقدر الإنسان على التمرّن حين يخوض في الأعمال الصعبة رغم وجود الأعمال السهلة. فعلى سبيل المثال، فإنّه يمسك نفسه عن الطعام الشهي رغم وجوده أمامه، حتى يسيطر على نفسه. وإذا لم يكن لديه طعامٌ شهي وكان مضطرًا لتناول ما لا يشتهي فليس هذا بالفن. أما إذا جيئ بالطعام وفاحت رائحته الشهية في كل مكان وتحرّكت، فأمسك نفسه عن الطعام أو على الأقل صبر لعدة دقائق، يكون بذلك قد وضع قدمه الأولى على طريق التمرّن على الصبر. أي لو كان الطعام جاهزًا على المائدة، وجلستم إلى المائدة ولكن انتظرتم لبضع دقائق من قبل أن تمدّوا أيديكم إلى الطعام، فهذا تمرينٌ على الصبر. أو إذا أراد شخص أن لا ينظر إلى ما غير المحرم، فعليه أن يجتنب النظر إلى بعض الأمور المحللّة أيضًا لكي لا يقع في فخّ المحرّمات. فعليه أن يجعل للمحرّم حريمًا وحدًّا لا يتجاوزه. فإذا اقترب من الحدّ فإنّه عند أي زلّة سوف يسقط في قعر المعصية: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراعٍ يراعي حول الحمى يوشَك أن يواقعه...»[1]. فإذا أردتم أن لا تسقطوا في الحفرة ينبغي أن تبتعدوا عنها. وكذلك إذا أردتم أن تصونوا أعينكم من النظر الحرام، ينبغي أن تغضّوا النظر عن بعض الأشياء الحلال، وهذا هو التمرين على السيطرة على النفس لئلا تقع في الحرام.

وهكذا، إذا أردتم أن تصونوا أسماعكم عن الحرام يجب أن تجتنبوا بعض الشبهات، لا أن تقتربوا من الحد الذي لا يفصلكم عن الحرام شيء. فإذا أردتم أن لا تبتلوا بالحرام، يجب أن تضعوا لأنفسكم حريمًا وحدًّا. فينبغي أن تجتنبوا بعض الشبهات لكي لا تُبتلوا بالحرام. فهذه مصاديقٌ أخر للصبر الذي يجب رعايتها.

---

(١) المتقي الهندي، **كنز العمّال** (لبنان - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م)، **الجزء ٣**، الصفحة ٤٢٩.



الدرس التاسع
ملجأ الأمن الإلهي

- أنواع الخطر
- تأثير الإيمان في رفع الخطر
- الاستمداد من الله والآخرين
- معنى الاستخارة
- الاستخارة في ثقافة أهل الشريعة
- توأمة العلم والعمل



«أَلْجِئ نَفْسَكَ في الْأُمُورِ كُلِّهَا إلَى إِلَهِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ، وأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي وَلا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا[1]، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ ما نفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، ولا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ».

إنّ الحياة الدنيا لا تخلو آنًا من البلايا والمصائب، وباليقين فإنّ كلّ إنسانٍ سيواجه الحوادث المرّة والظواهر الصعبة. وما هو مهم عند مواجهة الحوادث والبلايا، هو أن يعرف الإنسان موقع هذه المصائب والمصاعب في الحياة؛ بمعنى أنّ على كل إنسان، وقبل وقوع البلايا والحوادث المرّة، أن يستحضرها في ذهنه وفي حياته العمليّة، فإذا وقعت لا يُعرض عن معالجتها ولا يستسلم أمامها ولا يخسر كل شيء بسببها. ومن الجدير التعرّف إلى العوامل التي تكون مؤثرة عند مواجهة الحوادث المرّة والمخاطر، وأن نظهر ردّة الفعل المناسبة وباعتماد التدبير اللازم، وأن نخرج بأرواحٍ سالمة من تحت وطأة المصائب، ولا نمتنع عن القيام بمسؤولياتنا الخطيرة. فمن الضروري إذًا أن نقوم بدراسة أنواع المخاطر والبلايا وبعض العوامل التي تؤثر في مواجهتها، والتي أشير إليها في هذا القسم من الوصية الشريفة.

---

(١) في بعض النسخ ورد بدلًا من «لا تذهبن عنك صفحًا» جملة «لا تذهبن عنها صفحًا» حيث سيتم التعرض للفارق بين التعبيرين في الشرح.

أنواع الخطر



لا شك بأنّ الإنسان سيواجه في حياته الكثير من المخاطر وأصناف الأعداء، التي بعضها يهدّد حياته الماديّة ونفسه وماله ويمكن أن يعرّض بعض أقاربه أو أعزّائه وعرضه وشرفه للخطر؛ والبعض الآخر منها يهدّد روحه وقلبه. كما أنّ هناك أخطارًا أخرى يواجهها الإنسان تنشأ من الوساوس النفسانية ومكائد شياطين الجن والإنس وتجعله يُبتلى بالشك والتردّد في أفكاره وعقائده، أو تجعله يُبتلى بالميول والصفات الأخلاقية المذمومة وتجرّه إلى سلوكيّات تضرّ بآخرته وكماله وسعادته الأبدية. بالطبع، إنّ تحديد أيّ من هذه المخاطر هو الأهمّ والأخطر يرتبط بمعرفة الشخص نفسه. بالطبع، الأهم بالنسبة للمؤمن هي الأخطار المعنوية. فالمؤمن يخاف من الوقوع في المعصية أكثر من أي مصيبةٍ أخرى، أي إنّ خوفه من الوقوع في المعصية هو أكثر من أي خوف آخر، لأنّه يعلم أنّ للوقوع في المعصية ضررٌ عظيم لا يمكن جبرانه بسهولة.

إنّ خوف الإنسان المؤمن من الخسائر المادية أقلّ، لأنّه من ناحية يعلم أنّ الخسائر الماديّة قابلة للجبران، ومن ناحية أخرى، يعلم أنّ مثل هذه الخسائر توجب تكفير الذنوب وترفع من المقامات المعنويّة، وحتّى تلك الخسائر التي لها جنبة دنيويّة، من الممكن أن تشكّل أرضيّةً للسعادة الأخروية ووسيلةً للكمال والرقي الإنساني. لهذا ،لا يقلق المؤمن كثيرًا من مثل هذه الأضرار والخسائر. إنّ الأضرار المعنويّة والأخرويّة بالنسبة للمؤمن هي أهمّ بكثير من تلك الأضرار المادية والدنيوية، بل ليست قابلة للمقارنة بها. ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ درجات الإيمان ليست بالمقدار نفسه عند كل الناس، من هنا يكون خوف بعض الأشخاص من الأضرار الدنيوية أكثر، كأن يكون خوف الإنسان من الابتلاء بالأمراض، لا سيّما الأمراض التي يصعب علاجها، أكثر من خوف الابتلاء بالمعصية. وهذا الأمر ناشئ من نقص معرفة الإنسان وضعف إيمانه؛ ولكن مع ذلك، هناك مسألة مسلّمة وهي أن إيمان المؤمن مهما كان ضعيفًا، فإنّ قلقه من أن يتعرّض أصل إيمانه واعتقاده للخطر يكون أكثر من قلقه من أي خطر آخر. وإلى جانب مخاوفه الأخرى، فإنّ خوفه من تعرّض إيمانه واعتقاده للخطر هو أكبر.

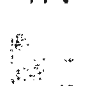
تأثير الإيمان في رفع الخطر

المسألة المهمّة هي هذه: ما هو التدبير الذي ينبغي أن نفكّر فيه حتّى نتمكّن من الخروج من هذه المخاطر بسلامةٍ؟ بالطبع، نحن لنا دور في ظهور وبروز الكثير من هذه المخاطر أو حصول مقدّماتها. وعلى كل حال، إنّ أكثرنا حين نتعرّض لأخطار جديّة، فإنّنا نشعر بالضعف، ولا نرى أنفسنا قادرين على حلّها. على سبيل المثال، حين يحدث زلزالٌ ما، أو ينتشر مرضٌ ما، أو تواجهنا مشكلة لأي سببٍ كان ولا يكون الخروج منها سهلًا، ونرى أنفسنا عاجزين، فإنّنا نعتمد على شيءٍ ما أو نلتجئ إلى شخصٍ ما ونطلب مساعدته. بناءً عليه، إذا شعر الإنسان بتوجّه خطر ما إليه أو أنّه يشرف على الهلاك، يصبح وجود معتمَد وملجأ أمرًا ضروريًا أكثر من أي شيءٍ آخر. فلأنّه لا يرى نفسه قادرًا على رفع هذا الخطر، فإنه يطلب المعونة والمساعدة. بالطبع، إنّ مثل هذه الحالة تحدث للجميع في الحياة، ويكون الإنسان دائمًا مكبّلًا بها، وإن كان غافلًا عن ذلك أحيانًا.

على أي حال، إنّ الإنسان يواجه الخطر دومًا، وكلّما واجه خطرًا فإنّه يشعر بأنّ عليه اللجوء إلى مكانٍ ما، وأن يسعى لإيجاد وسيلةٍ لحفظ نفسه وصونها من هذه المخاطر.

ومن الجدير الالتفات إلى أنّ الإنسان يبحث عن الحلّ الذي يتناسب مع اعتقاداته وروحيّته ونوع الخطر الذي يتهدّده وعن الملجأ الذي يتناسب مع تلك الاعتقادات وذلك الخطر ليصون نفسه منه؛ لأجل ذلك نجد أنّ بعض الناس حين يشعرون بالخطر، يتوجّهون إلى الله قبل أي شيء، لاعتقادهم بأنّ قدرته هي فوق كل قدرة، وبناءً على هذا فإنّهم يؤمنون بأنّ كل موجود مهما بلغ من القدرة، فإنّه قد اكتسب قدرته من الله، ويعتقدون أنّ الإنسان إذا لجأ إلى كهفٍ، فإن الله أيضًا هو من صنع ذاك الكهف، وجعله ملجأً للإنسان والحيوان. أو إذا أراد أن يحول دون المرض فإنّه يلجأ إلى التلقيح ضدّه أو إلى سائر الوسائل الوقائيّة الأخرى، من جهة أنّ الله المنّان هو الذي قد جعلها وسيلة أيضًا. أصحاب الإيمان القوي حين يواجهون خطرًا، فإنهم يتوكلون على الله قبل أي شيء ويجعلون أنفسهم في حصن الله؛ فمثلما أنّ الفرخ الصغير يحتمي تحت جناح أمّه والطفل يرمي بنفسه في حضن أمّه، فإنّ المؤمنين كذلك يجعلون أنفسهم في كهف الله وحصنه.





أما أصحاب الإيمان الضعيف، فإنّهم في البداية يذهبون بحثًا عن الأسباب الطبيعية؛ على سبيل المثال، إذا مرضوا فإنّهم يذهبون بحثًا عن الطبيب والدواء ويتمسّكون بهما، أو إذا صادفوا مشكلة أخرى فإنّهم في البداية يذهبون بحثًا عن الأسباب الطبيعية المتناسبة معها. وفي النهاية، إذا أصبحوا عاجزين وضعفاء ولم يجدوا وسيلة طبيعية ويئسوا من كل الأسباب، حينها يتوجّهون إلى النذر والتوسّل بالأئمة المعصومين لحلّ مشكلتهم؛ فهؤلاء يتوجّهون إلى الله وأوليائه في نهاية المطاف. من الواضح أنّ التعامل مع المشكلة على هذا النحو والنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية يدلّ على ضعف الإيمان.

حين يستشعر المؤمن الواقعيّ الخطر، يجب عليه للوهلة الأولى أن يتوجّه إلى الله الذي خلق سبيل حلّ تلك المشكلة أيضًا؛ لأنّه يعلم أنّ قدرة الله أعلى من كل قدرة، وهو الملجأ الذي يستطيع أن يحفظ الإنسان، والحارس الذي يستطيع أن يبعد كلّ عدوّ عن الإنسان. إنّ جميع الأسباب والوسائل الأخرى تنهزم أمام القوّة الأعلى، وفي هذا المجال، فإن الموجود الأوحد الذي لا تعرف الهزيمة طريقًا إليه هو الله القادر المتعال لا غير.

بالطبع، وفق الأمر والقانون الإلهيّين، ينبغي التوسّل بالأسباب الطبيعيّة؛ أي ليست المسألة بعدم مراجعة الإنسان للطبيب أو تناول الدواء إذا مرض، أو أن يبقى مكانه يتوسّل بالله والأئمّة ولا يخرج في حال صادف خطرًا أو وقوع زلزال أو فيضان؛ بل في الوقت نفسه الذي يكون قلبه متوجّهًا إلى الله، عليه التوسّل بالأسباب الطبيعية التي أوجدها الله والاستفادة منها تحت عنوان التكليف الإلهيّ؛ ذلك لأنّ الله تعالى جعل هناك حِكم في الاستفادة من هذه الأسباب، وقد طلب من الإنسان معالجة أمراضه ومشكلاته عن طريق الأسباب الطبيعيّة.

عند الإحساس بالخطر، يلجأ الإنسان إلى الحصن ويتوجّه إليه بحسب درجة إيمانه ومعرفته. بالطبع، إنّ توجّهه هذا يؤدّي إلى تقوية إيمانه؛ ذلك لأنّ تكامل الإيمان والمعرفة يظهر بمعونة هذه التوجّهات والتفكّر وباتّباع الحالات القلبيّة، وبالقيام بالسلوك المناسب يصبح الإيمان أقوى. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«أَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ وأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ»**؛ في أي حالة ووقت تقع فيها في مواجهة العدوّ أو خطر

وتحتاج إلى قوةٍ عظيمةٍ إلجأ إلى ربك فإنّك إذا اعتمدت على مثل هذا الكهف سبتقى مصونًا من الخطر، ولن تنهزم أمام العدوّ والخطر أبدًا.







الاستمداد من الله وغيره

يجدر الالتفات إلى أنّ الالتجاء إلى الملجأ والكهف الإلهيّين لا ينحصر بدفع العدوّ والخطر، بل ينبغي الاستمداد من الله من أجل جلب المنافع أيضًا؛ ذلك لأنّ كلّ الأمور بيد الله المتعال؛ وكل الأشياء، أعمّ من دفع البلاءات ومنح العطايا والنعم، ينبغي أن تُطلب من محضر ربوبيّته.

كذلك ينبغي الالتفات إلى أنّ الاعتماد والتوكل على الله والتوجّه إلى محضر الحقّ أمرٌ ضروريٌ في مجال العمل وكذلك في مقام الاعتقاد وساحة القلب. بالطبع، ما هو مهمٌ في هذا المجال هو الحالة القلبية. فحين يشعر الإنسان بالحاجة أو الخطر ينبغي عليه في كلتا الحالتين أن يتوجّه بجوارحه وجوانحه إلى الله، فعلى سبيل المثال، إذا كان يحتاج إلى الهواء من أجل التنفّس، يجب أن يتوجّه من أعماق قلبه إلى أنّ الله هو الذي يوصل هذا الهواء إلى رئتيه؛ أو إذا كان يستطيع تحريك جفنيه، ينبغي عليه أن يتوجّه إلى أنّ الله هو الذي أعطاه هذه القدرة، وإذا كان يستطيع المطالعة وفهم هذه المطالب بعقله، ينبغي أن يكون معتقدًا من أعماق قلبه بأن الله هو الذي أمدّه بهذه القدرة على الفهم.

على أي حال، إنّ مثل هذه الروحية هي روحية العبد الخالص. والإخلاص يعني أن يخلص الإنسان نفسه لله بحيث لا يكون في وجوده شائبة غير الله. فإذا كان لديه رجاء، فهو بالله، وإذا كان لديه خوف، فهو من الله، وإذا كان يطلب العون فإنّه يطلبه من الله، وهو قوله: «**أَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ**»، ففي مقام السؤال وطلب الحوائج، اجعل سؤالك وطلبك خالصًا لله، واعتقد من أعماق قلبك بأنّه هو من يجب أن يحقّقه لك؛ لذا، لا تجعل رجاءك بغيره. بناءً عليه، إذا كنّا نرى بأنّ الأوامر الإلهيّة تأمرنا بأن نتوسّل بالأسباب الطبيعيّة بحسب الظروف، فلا ينبغي أن يكون القيام بهذه التكاليف بطريقة تؤدي إلى تعلّق القلب بتلك الأسباب والوسائل، بل ينبغي أن ننظر إليها على أنها مجرّد وسيلة وأداة نطلبها من أجل القيام بالتكليف فقط، أمّا الاعتماد فينبغي أن يكون على الله والتوجّه القلبي



فينبغي أن يكون إلى الله، وأن نطلب كل شيء منه: «**فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءُ وَالْحِرْمَانُ**».

إنّ العديد من الحالات التي نمرّ بها في حياتنا أو المعاملات التي نجريها مع الآخرين هي على هذا الأساس. فإذا اعتمد الإنسان على شخصٍ ما، أو تعلّق قلبه به فذلك لأنّه يأمل بأن يحلّ له مشكلته حين الشدّة؛ لهذا، حين يصادف مشكلة أو تخرب علاقاته بالآخرين، فإنّه ييأس ويشعر بأنّه وحيد وبلا نصير. كذلك الأمر من أجل أن يستفيد من المنافع؛ فإنّه يتّجه نحو التملّق، والتواضع، والتذلّل، حتّى يتمكّن عن طريق ذلك من الاستفادة من تلك المنافع، ذلك لأنّه يعتقد من أعماق القلب بأنّه: يجب أن أرضي ذلك الشخص عنّي حتّى أصل إلى المنافع التي أرغب بها. وهكذا يقول لنفسه: إذا احترمته وانحنيت أمامه وقبّلت يده فإنّه سيساعدني، وإذا لم أراعِ هذه الآداب فإنّني لن أصل إلى مصالحي.

أمّا لو اعتقد بأنّ جميع هذه النعم هي من الله وأنّ القلوب أيضًا هي بيد الله، فبدلًا من أن يخضع للآخرين، فإنّه يخضع لربّه، ولا يكون ذليلًا أمام أي عبد، ولا يشعر بالذلّة، بل يخضع وينحني فقط وفقط لله وقوانينه، وإذا تواضع وخضع لبعض الأشخاص، فذلك يكون أيضًا بدافع الامتثال لأمر الله وهو في الواقع خضوع لأمر الله سبحانه، أي لأنّ الله قد أمر بذلك فإنّه يخضع لبعض الأفراد كالأب والأم: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾[١]، ويتواضع أمامهما، وفي هذا المورد أيضًا فإنّ هذا الخضوع هو خضوع لأمر الله. فمثل هذا الخضوع لا يجلب الشعور بالذلّة أبدًا، لأنّ هذا التذلل هو تذللٌ في محضر الله ولأوامره. أمّا إذا كان يعتقد بأنّه من دون هذا التملّق والتواضع فإنّه لن يصل إلى مبتغياته، في مثل هذه الصورة يكون قد استسلم للذلّ، ويكون في الواقع قد ابتُلي بنوع من الشرك، ذلك لأنّه يعتبر بأنّ للآخرين تأثير في مُلك الله. ومن جانبٍ آخر، فإنّ اعتقاده وإيمانه الضعيفين والشعور بالهزيمة والحقارة والضعة والذلّة تسيطر على روحه وتنفذ إلى ساحة عمله؛ هذا في حين أنّ الله سبحانه وتعالى لا يرضى لعبيده أبدًا أن يكونوا كذلك. إنّ الله يريد أن يكون قلب عبده متوجّهًا إليه وأن تكون عينه ناظرة إلى يده، وألّا يتذلل لأي شخص، إلا في الموارد التي يكون فيها الخضوع والخشوع

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٢٤.



للآخرين فيه حكمة وقد أمر الله بهما، كالخضوع للأب والأم والأستاذ والمؤمنين، ولكنّ ذلك يكون من جهة أنّهم عباد الله اللائقون والمقرّبون من الله لأنّهم يتمتّعون بمنزلةٌ خاصة عند الله واحترامهم هو في الواقع تذلل لله.

بناءً عليه، إذا خضع الإنسان لشخصٍ ما من أجل الوصول إلى النعم الدنيوية فإنّه يكون قد ارتكب نوعًا من الشرك؛ بالإضافة إلى ذلك، إنّ الله لا يحبّ أن يكون عبده خاضعًا لإرادة الآخرين. بل يريده أن يكون له خالصًا. كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]. وعلى هذا الأساس، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ**». فبالمقدار الذي يكون فيه الإنسان غير مخلصٍ، ولغير الله نفوذ في وجوده وأعماله تنقص قيمته. ومثلما أنّ عدم الصفاء في الذهب يكون سببًا لانخفاض عياره وتدنّي قيمته، هكذا تصبح مكانة الإنسان من الضعف وعدم الخلوص بحيث لا يعد يُرى في وجوده أيّ ذهب! إنّ قيمة الإنسان أيضًا كالذهب ترتبط بأصالته وإخلاصه. والله تعالى يريد أن يكون عبده أصيلًا وخالصًا ولا يكون لموجودٍ غيره نصيب فيه. بالطبع، هذا لا يدلّ على بخل الله، إنّما يريد الله بذلك كمال عبوديّة عبده، لأنّه إذا أصبح كذلك فإنّه سيصبح قريبًا من الله وسيتكامل. ولأنّ الله يريد كمال وسعادة عبده، فإنّه يحذّره من الابتلاء بالشرك، ويقول له: اخلص نفسك لي.

لو كان الإنسان معتقدًا بأنّ إدراك النعم أو الحرمان منها بيد الله، لما كان ليخضع ويخشع ويظهر التذلّل أمام أي شخص، ولو خضع أمام الآخرين شيئًا ما فذلك من باب أنّ الله قد أمر بذلك، من هنا فإنّ تذلّله في الواقع هو تجاه المحضر الإلهيّ. في مقام تبيان هذا المعنى، يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[3]. رغم أنّ المخاطب في هذه الآية هو النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ولكن المقصود بذلك هو تنبيهنا، وإلّا فإنّه من الواضح بأنّ معرفته صلّى الله عليه أعظم

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣.

(٢) سورة **البيّنة**، الآية ٥.

(٣) سورة **يونس**، الآية ١٠٧.

بكثير من حدّ إدراكنا. وعلى أي حال، إنّ الله تعالى يقول إذا أراد أن يصبك بضرّ لا يمكن لأي شخص أن يحول بينك وبينه، وإذا أراد أن يوصل النفع إلى شخصٍ ما، لا يمكن لأي شخص منع ذلك، فلماذا يتوجّه قلبك إذًا لغير الله، ولماذا ترجو سواه؟ إلا إذا كان الآخرون يملكون شيئًا لا يملكه الله! فما الذي قد يمنحه الآخرون ولا يمنحه الله؟! فهل من اللائق أن يتوجّه العبد العارف بربّه إلى غير الله، ويذهب إلى منزل كل أجنبيّ ويستجدي؟ ولا يذهب إلى بيت المحبوب! فإنّه يطرق أبواب المحتاجين ولكنه لا يطرق باب من هو غنيّ! إن كل ما لدى الإنسان إنما هو من استجدائه على باب الغنيّ المطلق، ورغم أنّ ذلك بمتناوله ولكن جميعه على نحو الاستعارة. إذا كان الحال هكذا، فكيف يمكن للعبد العارف بالله أن يتعلّق قلبه بأموالٍ مُعارة للآخرين، ولا يتوجّه إلى صاحب مال وثروات العالم ومالك الوجود؟! أليس ذلك سوى محض الجهل والحمق؟ إذًا ما هو عقلائي: «**أَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءُ وَالْحِرْمَانُ**».

معنى الاستخارة

الآن حيث إنّ الطلب من المحتاج قبيحٌ ومذموم، ينبغي الطلب من حضرة الحقّ والحقّ فقط. ينبغي أن نعلم ماذا نطلب من ذلك المحضر وما هو الشيء الذي نريده منه. يوصينا الإمام علي عليه السلام قائلًا: «**وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ**»، أي اطلب من الله خيره على الدوام. وفي مقام توضيح هذا المقطع من الوصيّة السماوية، يجب أن نبحث في مفهوم الاستخارة.

يمكن أن نجد ثلاثة معان لكلمة الاستخارة:

١. الاستخارة بمعنى البحث عن الخير؛ أي حين تريدون أن تقوموا بعملٍ ما عليكم في البداية أن تفكرّوا به جيدًا وتجدوا أفضل الطرق، وعندها تقدمون عليه. فطبق هذا المعنى تكون الاستخارة بمعنى البحث عن الخير، واختيار الوجه الأفضل والأصّح من بين الطرق والوجوه المختلفة الموجودة للتفكير والعمل. ولا شكّ بأنّ الإنسان بفطرته أيضًا باحثٌ عن الكمال وطالبٌ للأفضل على الدوام.

٢. الاستخارة بمعنى «طلب الخير من الله». حيث إن الإنسان هو في سعيٍ دائم وراء الخير لنفسه، فإنّه يطلب الخير لنفسه على الدوام من الله.



٣. الاستخارة بمعنى الكشف عن المصلحة الواقعية من خلال إحدى الطرق التي تمّ تحديدها، بمعنى أن يتحرّك الإنسان بالاستعانة بإحدى الطرق التي تمّ تحديدها من خلال بعض الآيات والروايات للكشف عن المصلحة الواقعية والوصول إليها، فيكشف عنها ويعمل بها. وفي الواقع، فإنّه في ظل هذا الأسلوب يصل إلى مصلحته؛ مثلما يكشف الشخص عن مصلحته ويعمل بها عن طريق القرآن أو السبّحة أو غيرها من الوسائل التي أشير إليها في بعض الروايات.

ومن بين هذه المعاني الثلاث، فإن المناسب ها هنا هو المعنى الثاني «طَلَبُ الْخَيْرِ مِنَ الله»، الذي جاء عقيب «**أَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ**».

الاستخارة في ثقافة أهل الشريعة

من المناسب هنا أن نتعرّض إلى بعض النكات المتعلّقة بخصوص الاستخارة المعروفة والرائجة من أجل الإجابة عن بعض الأسئلة والشبهات وتوضيح بعض النكات المجهولة والمبهمة التي تشغل الأذهان:

١. مورد الاستخارة وموقعها

إنّ موقع إعمال الاستخارة المصطلح عليها والاستفادة منها هو حين لا يقدر الإنسان بمعونة عقله ومشورة الآخرين أن يشخّص مصلحته وخيره؛ أي حين يكون الإنسان في حالةٍ من الحيرة والتردّد ولا يعرف طريقه. وكأنّ البيان العقلي والروايات التي تجوّز الاستخارة ترشده على هذا النحو أنّه لأجل رفع تحيّرك وتشخيص مصلحتك وخيرك عليك أن تجد طريقًا وتبحث عن مخرج، أو إنّ الروايات تقول له اعمل من خلال هذا الطريق واطلب خيرك من الله العليم والحكيم! ومن المسلّم أنّ الله تعالى لا يوحي له ما هو الخير الواقعيّ، بل إنه قد جعل الاستخارة وسيلةً بينه وبين الله وكأنه يقول: يا ربّي إنني أقوم بهذا العمل كتعبير عن رضاك، وسآخذ بعين الاعتبار ما تعتبره أنت خيرًا، إذًا، فامنن عليّ بهدايتي إلى طريق الصواب. لهذا يجب القيام بالاستخارة من أجل رفع الحيرة، لا أن نستخير لأجل كلّ عملٍ سهلٍ وبسيط أو أن نضع عقولنا جانبًا ونستعيض عنها بالاستخارة أو أن نستخير ونترك الاستشارة. فلو بحثتم في جميع الكتب الروائية فإنّكم لن تجدوا في أي مكان بأنّ الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد قالوا: ضعوا عقولكم جانبًا، ولا تستشيروا، واستخيروا. بل إن الاستخارة إنما تُستخدم



من بعد أن تكونوا قد استنفذتم جميع الطرق والوسائل المعقولة والمتداولة لأجل تشخيص خيركم وصلاحكم، وفي حال لم تصلوا إلى نتيجةٍ وبقيتم مصابين بالحيرة، ففي هذه الحالة تستخيرون من أجل الخروج من الحيرة.

٢. دليل الاستخارة

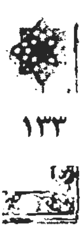
والنقطة الأخرى التي ينبغي أن نعتني بها هو البحث عن دليل الاستخارة.

فبناءً على أي دليل على الإنسان أن يتّبع الاستخارة لرفع تحيّره، وما هو دليله على اختيار الاستخارة؟ إنّ اعتماد الاستخارة كوسيلة لرفع الحيرة لا يحتاج إلى دليل تعبدي خاص، ذلك لأنّ عمله هذا يُعدّ طريقًا للخروج من الحيرة. فحيث إنّ العقل يعتبر الحيرة مضرّة بالإنسان، ينبغي أن يعتمد وسيلة تُخلّصه من تلك الحيرة. وحيث إنّ رفع الحيرة أمرٌ لازم، فإنّ استخدام أي وسيلةٍ مشروعةٍ تؤدّي إلى القضاء عليها يُعدّ أمرًا حسنًا وملائمًا. ففي هذه الحالة، إذا كانت الاستخارة من أجل رفع الحيرة، تصبح مطلوبةً. والاستخارة في الواقع شكلٌ من أشكال الدعاء، وكأن الإنسان بهذه الطريقة يخاطب الله: إلهيّ! أنا متحيرٌ في أمري، وأنت الأعلم والأرحم، فأرني الطريق الذي يكون خيري فيه! وببيانٍ آخر، إنّ الإنسان من خلال الاستخارة، يجعل آيات القرآن وسيلته ليعلم ما هو خيره بنظر الله تعالى. وفي الواقع، طالما أنّ الإنسان المؤمن يعتمد على الله ويحسن الظنّ به ويعلم أن الله عليمٌ وقادرٌ، فإنّه سيخاطبه: إلهي! أنا أدعو، فتفضل باستجابة دعائي، وعرّفني طريق الخير! ولأنّ هذا الشخص المؤمن يحسن ظنّه بالله، فإنه حين يطلب هدايته سيكون واثقًا بأن الله سيهديه لما فيه مصلحته.

بناءً عليه، إذا لم نكن نمتلك دليلًا شرعيًا خاصًا على الاستخارة، إلّا أنّها ليست خلاف الشرع؛ وذلك لأنّنا في الواقع، من خلال الاستخارة نجعل شيئًا معيّنًا كعلامةٍ ونقول: إلهي! عرّفني بواسطة هذه العلامة طريق الخير من الشرّ! بالطبع، هناك أدلّةٌ شرعيّةٌ خاصّة وروايات كثيرة بشأن الاستخارة ولكن بيانها خارج عن موضوع هذه المقالة[١].

---

(١) من أجل المزيد من التوضيح يمكن الرجوع إلى كتاب **بحار الأنوار**، الجزء ٧٧، والجزء ٩١، وكتاب **إرشاد المستبصر في الاستخارات**.



٣. البعد التربوي للاستخارة

من الواضح أنّ السنّة الإلهيّة والقانون الإلهيّ لا يبغيان من الاستخارة الكشف عن الوقائع والعلم بها والاطّلاع عليها، على الإنسان أن يبحث من خلال طرق غير عاديّة؛ مثلما أنّ الرزق والمعيشة لا يتأمّنا من طريقٍ غيبيّ، ويوجد هناك آلاف الأسباب والوسائل التي جُعلت لأجل كسب الرزق، والتي في كلٍّ منها آلاف الحكم. فالله تعالى غير عاجزٍ عن إنزال سلّة من الطعام والزاد وغير ذلك من السماء أمام باب منزل كل شخص، وأن يوصل لكلّ شخص رزقه؛ إلّا أنّه جعل هناك وسائل في هذه الدنيا حتّى ينال الإنسان رزقه من بطن الجبال وعمق البحار بالسعي والجهد، وكل ذلك يستبطن آلاف الحكم. من جملة (هذه الحكم) أنّ مثل هذا النوع من الأعمال والأنشطة يؤدّي إلى إيجاد العلاقات الاجتماعية، وكلّ واحدةٍ منها يؤمّن الأرضية لآلاف التكاليف؛ أو أن هذه المساعي والجهود تحقّق نوع من ساحة امتحان للإنسان لكي يحقّق تكامله بهذه الوسيلة. وهنا، تُعدّ الاستخارة أحد المساعي التي يقوم بها الإنسان عند حيرته وتردّده لكي يميّز خيره من شرّه. فحين يكون عقله ناقصًا وتجربته محدودة، فإنّه لا يستسلم لحيرته ولا يتوقّف عن نشاطه ويسعى لمعرفة الخير من الشر، ما يدلّ على سعيه المستمر.

وفي الواقع، على الإنسان في البداية أن يوظّف قدراته، وأن يستفيد من فكره وتجاربه لحلّ مشاكله، وحين يرى نفسه عاجزًا وأنّ عقله وتجربته قاصرين، فإنّه يستعين بأهل الاختصاص وبمن لديهم تجربة أفضل، ويستشيرهم. وفي النهاية، وبعد هاتين المرحلتين، إذا وجد أنّ طريق الوصول إلى الحق مسدودًا، أو أنّه عاجزٌ عن إدراكه، فلا ينبغي له أن يستسلم للحيرة والتردّد، بل عليه أن يطلب ما فيه خيره من الله لكي ينجيه بأسرع ما يمكن ممّا علق فيه من الحيرة والضياع. فالخاصيّة البارزة للمؤمن هي أنه لا ييأس أبدًا، ويطلب الخير من الله دومًا. فلو وجد نفسه عاجزًا في صحراءٍ لامتناهية، فإنّ المؤمن لا ييأس بل يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1]؛ من هنا يمكننا القول إنّ المؤمن لا يصل في حياته إلى طريقٍ مسدودٍ أبدًا؛ لأنّه إذا واجهته حالة عليه فيها أن يحدّد مصلحته، ويطلب خيره ومصلحته من الله ويقول: يا الله! مُنّ عليّ بالهداية! لهذا فإنه يستفيد من

(١) سورة القصص، الآية ٢٤.



القرآن أو السبّحة ويطلب ما فيه مصلحته من الله.

إذًا، بعد أن يستعمل الإنسان المؤمن كافة الوسائل ولا يصل إلى شيء، فإنّه ينتقل إلى الاستخارة حينها، لا أنّه يستخير دائمًا ومن أجل كل عملٍ صغيرٍ أو كبير، كالشرب مثلًا والدراسة وما إلى هنالك. فإن مثل هذا العمل مخالفٌ للأهداف الإلهية والحكمة الربانية وسيرة النبيّ والأئمة الأطهار عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. فإنّكم لن تجدوا أبدًا أنّ النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد قال لأصحابه: استخيروا لكل عمل؛ أو أنّ الأئمّة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ قد قالوا لأصحابهم: لا تعملوا عقولكم ولا تستشيروا واستخيروا دومًا لكلّ عمل. فإذا تأمّلنا جيدًا لوجدنا أنّ عدم إعمال العقل وترك الاستشارة يُعدّ من كفران نعم الله. ولم يأمرنا الله تعالى ولا أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أبدًا بكفران نعمة العقل والاستشارة. لقد وهبنا الله العقل لكي نستعمله، فلا ينبغي تعطيله. وكذلك، فإنّ الله المنّان قد فتح أمامنا بمعونة قوّة العقل ووجود أُناس أصحاب فكر وتعقّل طريق الاستشارة، حتى إذا لم يتمكّنا من إعانتنا، عندها نتحرّك للبحث عن أسبابٍ أخر.

فالقاعدة والقانون هما أن يقوم الإنسان بأعماله من خلال عقله أو الطرق المعقولة أو بالاستفادة من تجارب الآخرين، لهذا لا ينبغي له اللجوء إلى الاستخارة من أجل تحديد الأحكام الشرعية، بل ينبغي له معرفة الأحكام الشرعيّة من خلال الاجتهاد أو التقليد والالتزام بها؛ وكذلك الأمر لا ينبغي له الاعتماد على الاستخارة لتشخيص مصالح الحياة العادية، بل عليه استخدام عقله أو استشارة الآخرين. بالطبع، إذا تيقّن بأنّه عاجز عن كشف الحقيقة والاطّلاع على الواقع والوصول إليه، فلا ينبغي له أن ييأس ويستسلم على مستوى العمل للحيرة ويبقى من دون تكليف، بل عليه أن يطلب من الله ويدعوه أن يهديه. إذًا، فلنلتفت إلى أنّه لا مكان للاستخارة في مورد الفكر، وإنّ الاستخارة إنّما تساعدنا فقط عند التحيّر في مجال العمل، كأن نحدّد في أي اتّجاه نسير وماذا نفعل، لا أن نحلّ بواسطة الاستخارة المطالب العلميّة والمسائل الفكريّة.

توأمة العلم والعمل

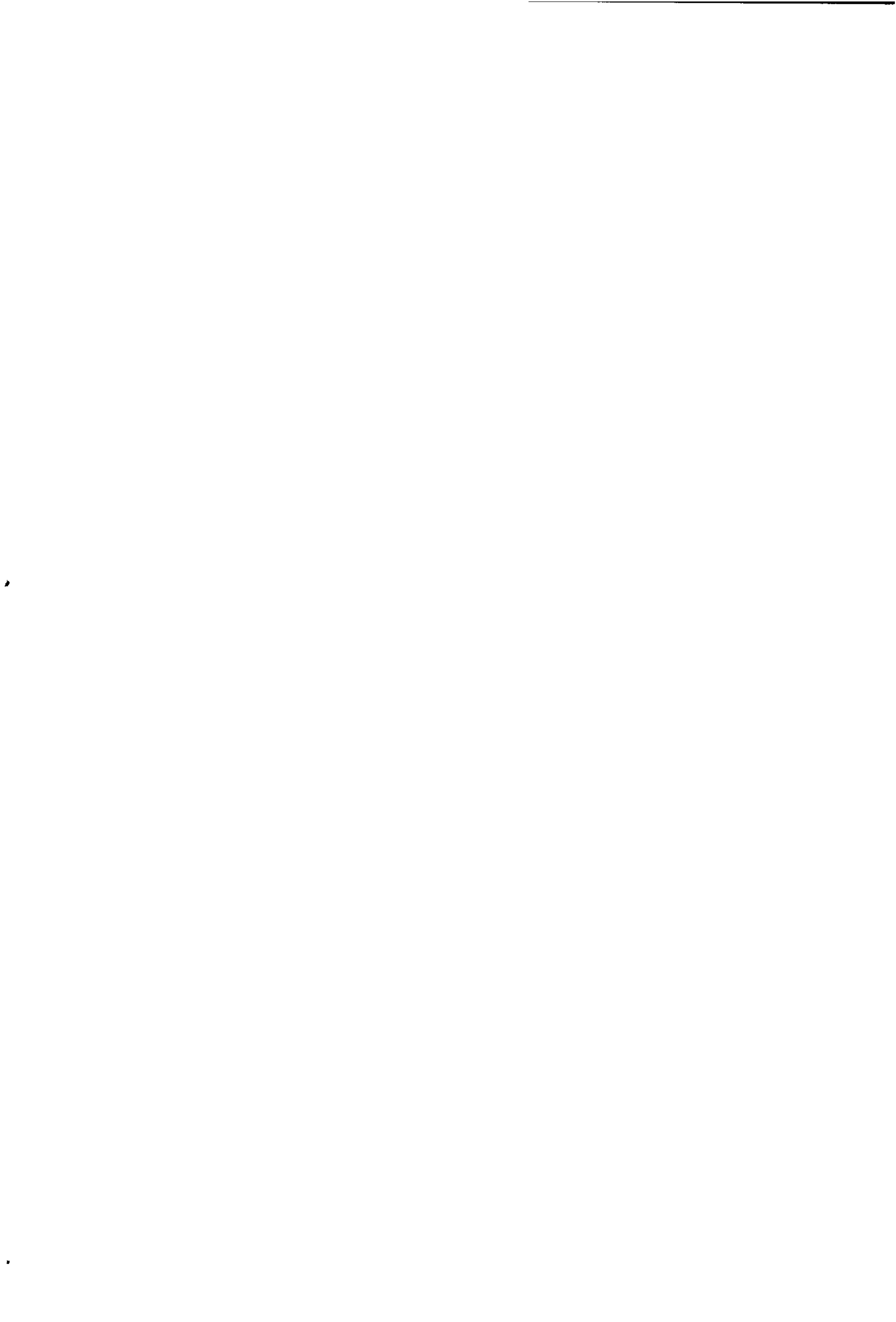
بعد بيان هذه المطالب المهمّة والحسّاسة، ينبغي الإشارة إلى تنبيهٍ عام ووصيةٍ جامعة لتهيئة المخاطب للعمل بتلك المسائل وترغيبه برعايتها وإلّا يبقى بيانها من

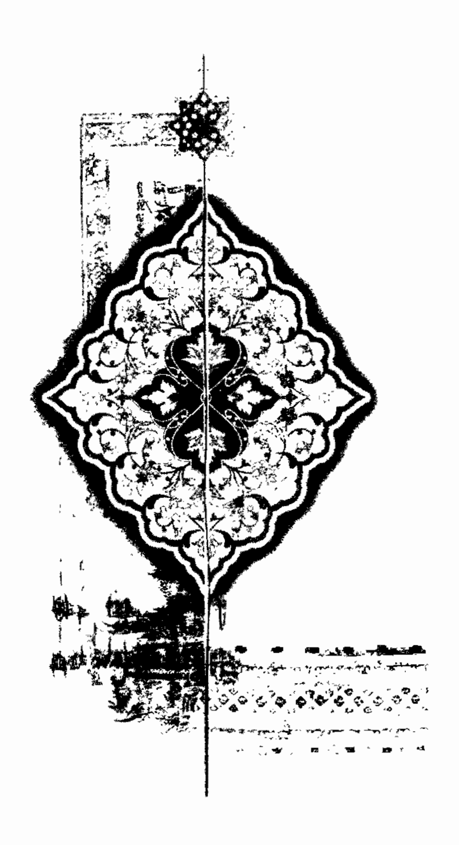
دون أثر. لهذا، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد تلك الوصايا العامّة: «**وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي وَلا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا**»؛ تأمّل جيّدًا حتى تفهم وصاياي وإرشاداتي ولا تنظر إليها نظرة سطحيّة ولا تتعامل معها باللامبالاة، بل تأمّل فيها جيّدًا حتى تصل إلى عمقها!

يوجد هنا اختلافٌ بسيط بين النُسخ المختلفة التي نقلت هذه الوصية. ففي إحدى النسخ، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَلا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا**». أما في نُسخة **نهج البلاغة**، فقد جاء: «**لا تَذْهَبَنَّ عَنْها صَفْحًا**». فعلى نُسخة نهج البلاغة يكون المخاطَب بقوله **لا تَذْهَبَنَّ** نفس الشخص، أي لا تمرّ على هذه الوصية من دون اعتناء واهتمام بها. أي أن «**لا تذهب أنت**» و«**عنها**» تشير إلى هذه الوصية، و«**صَفْحًا**» بمعنى الإعراض وعدم الاهتمام.

أمّا وفق النسخة الأخرى فهو يقول «**لا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا**». فمن الممكن في قوله «**لا تَذْهَبَنَّ**» أن يكون الفاعل هو المؤنّث الغائب الذي يكون بحسب هذه الصورة أي لا «**تذهب وصيتي عنك صفحًا**». فالتفت ألّا تتركك هذه الوصية وترتحل عنك من دون أن تترك فيك أثرًا.

وعلى أي حال، فإنه يؤكّد على التأمّل الدقيق في هذه الوصايا والعمل بها. «**فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ ما نفَعَ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لا يَنْفَعُ**». فالكلام إنّما يكون خيرًا إذا نفعك واستطعت أن تعمل به. واعلم أنّه إذا حصلت على علم ولم تستفد منه، إنّ هذا العلم سيكون لغوًا؛ ذلك لأنّ تحصيل العلم هو من أجَل الاستفادة منه بالعمل. فإذا حصّلت علمًا ولم تعمل به، فمثل ذلك مثل الوصفة التي تأخذها من الطبيب، ولكن لا تعمل بها. فمن المسلّم أنّ مثل هذا العمل يُعدّ لغوًا. فإذا أخذ الإنسان وصفة من الطبيب، ووضعها في أرشيف ما، فهذا عملٌ عبثيّ ليس إلّا، لأنّ الوصفة هي من أجل العمل بها. ثمّ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمّة كلامه: «**ولا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لا يَحِقّ تَعَلُّمُه**»، هنا يبيّن عَلَيْهِ السَّلَامُ التلازم بين الطرفين، أي إنّ العلم المطلوب وذو القيمة هو ذاك الذي تتعلّمه ويكون نافعًا لك. من هنا، إذا رأيت علمًا غير نافع، فاعلم أنّه لا خير في مثل هذا العلم، ولا ينبغي لك أن تسعى في تحصيله لأنّ هذا التلازم هو تلازمٌ من جهتين.

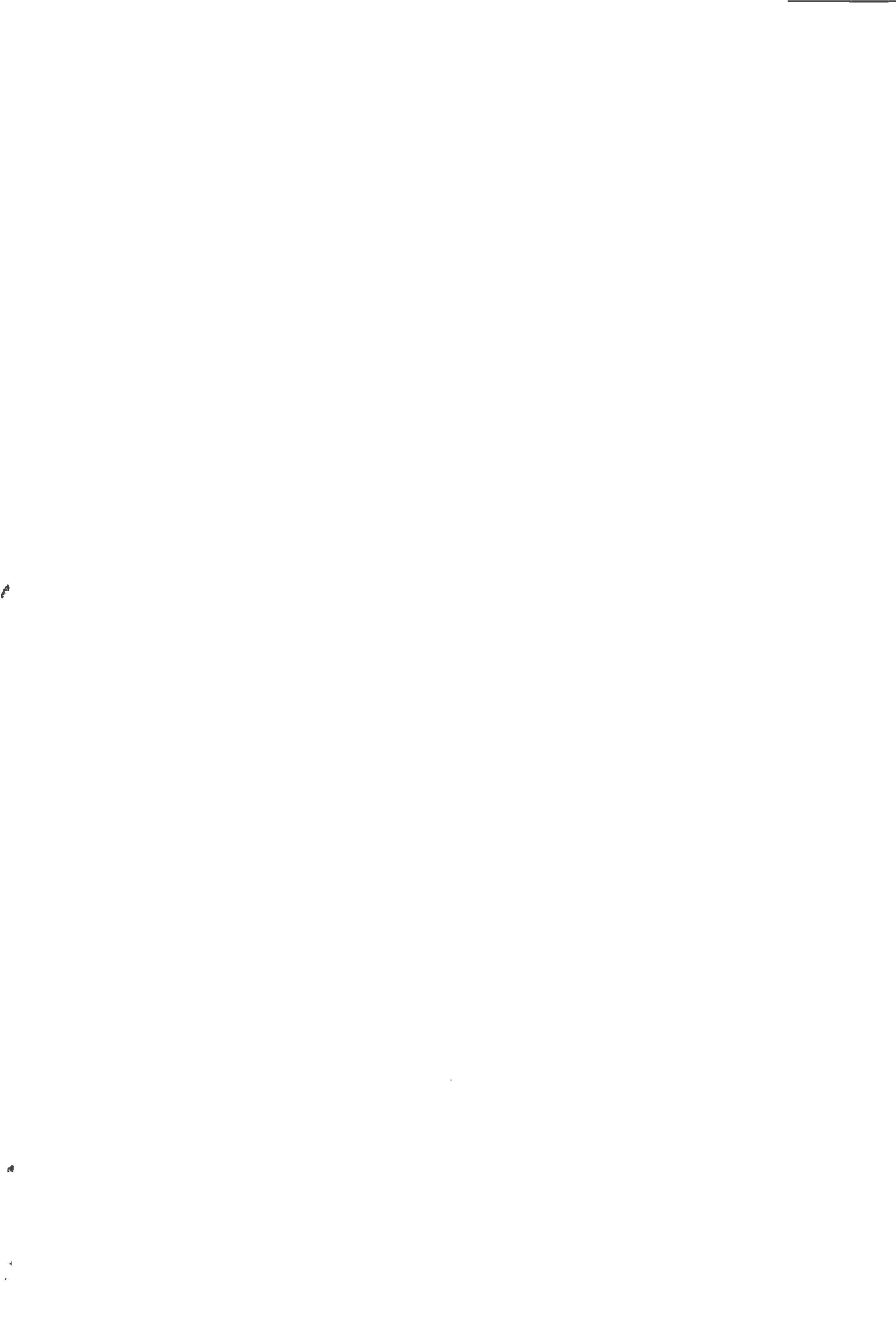




الدرس العاشر

التربية

- المواعظ غير المكتوبة
- الالتفات إلى استعداد المخاطب
- اغتنام الفرصة
- الإصلاح قبل ظهور الانحراف
- أبعاد تربية القلب
- خصائص القلب الملوّث
- القلب الصافي، وعاء المعرفة
- الاستفادة من دون تعب







«يا بُنَيَّ إِنِّي لمّا رأَيْتُكَ[١] قَدْ بَلَغْتَ سِنًّا وَرَأَيْتُنِي أَزْدادُ وَهْنًا بادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ لِخِصالٍ، مِنْها أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِما فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَما نَقَصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ أَنْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوى وَفِتَنِ الدُّنْيَا وَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ، ما أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ إِلّا قَبِلَتْهُ، فَبادِرْ[٢] بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَن يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ ما قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَه وَتَجْرِبَتَهُ فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مِنْهَا مَا رُبَّما أَظْلَمَ عَلَيْنا فِيهِ».

كان القسم الأول من هذه الوصيّة جامعًا للمواعظ الأساسية والعامّة التي ذكرها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بشكلٍ إجماليٍّ ومختصر. ويبدو أنّ هذا القسم هو بداية تفصيل هذه الوصيّة. وكما مرّ معنا في بداية هذه الوصيّة، فإن كيفيّة بيان مطالبها هي أنّ أبًا عجوزًا يبيّن جملة من الوصايا لابنه حبيبه الشاب، ويضع بين يديه كل تجارب عمره دفُعةً واحدة وينقلها إليه؛ لذلك فهي ليست ناظرة إلى كون الموصي والموصى إليه معصومين وإلى مقام عصمتهما، حتى نسأل: هل هناك حاجة إلى هذه الوصيّة وهذه النصائح أم لا؟ لأنّ الهدف الأصلي والمقصد

---

(١) وفي بعض النسخ بدلاً من قوله «لمّا رأيْتُكَ قَدْ بَلَغْتَ» ورد «لَمّا رَأَيْتَنِي قَدْ بَلَغْتُ» مما يعني أن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يبين حاله ولا يشير إلى الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) وفي بعض النسخ ورد «فَبادَرْتُكَ» بدلاً من «فبَادِرْ».

الأساسي هو أن يستفيد الآخرون من هذه الوصية؛ وإن كان الأمر في الظاهر وبالنظرة الأولى يبدو أنّ الموصي إمام معصوم ومُخاطبه أيضًا هو ابنه المعصوم، إلّا أنّ كيفيّة الخطاب جاءت على نحو بحيث يستطيع كل أب وابن الاستفادة من هذه الوصيّة.

لهذا، فإنّ إيراد تعابير لا تتناسب كثيرًا مع مقام العصمة، لا يتنافى مع صدور هذا الكلام من المعصوم ولمخاطَبٍ معصوم. إنّ المسألة في الواقع هي أنّ موصٍ مثاليّ يوصي إلى موصَى إليه مثاليّ. ففي الحقيقة، يقوم هنا أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بدور الأب العجوز الذي يقدم النصائح إلى ابنه اليافع، ويقول له: «**يا بُنَيَّ إنِّي لمّا رأيْتُكَ قَدْ بَلَغْتَ سِنًّا...**»؛ فإنّي إن كنت أقدم على موعظتك، فلأنّني من جهة رأيت أنّك قد وصلت إلى سنٍّ تحتاج فيه إلى مثل هذه المواعظ وقد حان الوقت لأن أبيّن لك هذه المطالب، ومن جهةٍ أخرى، فأنا أيضًا قد اقتربت من نهاية العمر وقد وصلت إلى سنٍّ كما يُقال أصبحت على حافّة قبري، لهذا فإنني أغتنم الفرصة وأبيّن لك هذه الوصايا.

المواعظ غير المكتوبة

قبل شرح وتفسير مفاد هذا القسم من الوصيّة السماويّة لا بدّ من توضيح وتبيان بعض النُكات المخفيّة في كيفيّة بيان هذه الوصيّة. فبالإضافة إلى محتوى الألفاظ ومعاني الكلمات، نجد العديد من النُكات الدقيقة وفائقة الأهمية مخفيةً في كيفية بيان هذه الوصية العظيمة، وخصوصًا في هذا القسم منها، إلى الدرجة التي نجد فيها أن بعض أصحاب النظر الثاقب والأفكار الوقّادة، قد عجزوا عن الالتفات إليها والاطلاع عليها. ولا يقدر على الالتفات إليها إلا أولئك الذين نالوا التأييدات الإلهية والعلوم السماوية. وها نحن نشير إلى بعض هذه النُكات الدقيقة والعميقة على حدّ قدرتنا والفرصة المتاحة لنا.

الالتفات إلى استعداد المخاطَب

رغم أنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ حتّى الآن لم يبدأ بالبيان التفصيلي لوصيّته ولا ببيان نصائحه، لكنّه ينبّه إلى نكات مهمّة ومواعظ بطريقة غير مباشرة على ضوء هذه



الكيفيّة الخاصّة التي يقدّم بها خطابه، ويلفت مخاطبه إلى نكات لطيفة تكون عادة مورد غفلة؛ ومن هذه النكات أنّ على المتحدّث أن يراعي، عند بيان المسائل، موقعيّة المخاطَب ومدى استعداده للاستماع إلى الكلام وفهم المطالب والاستفادة منها؛ فإنّه يأخذ ذلك دومًا بنظر الاعتبار. فعلى سبيل المثال، من الطبيعي أن لا يكون لدى الطفل، البالغ من العمر خمس سنوات، الاستعداد للاستماع إلى بعض المطالب وفهمها، ولا يأخذها على محمل الجد، ولكن يمكن لشاب أن يستفيد من هذه المطالب نفسها أفضل استفادة. من هنا على المدرّسين والمربّين أن يراعوا مستوى فهم وإدراك مخاطَبهم ومستوى المعارف والاستعدادات الحسّيّة والإدراكية والعاطفية والمعرفية التي لديه، حتّى يحدّدوا إذا ما كان مفاد خطابهم مفيد بالنسبة للمستمع أم لا! فمثلًا، بعض المواعظ التي تكون مفيدةً للشباب، لا يكون لها مثل هذه الفائدة بالنسبة للأطفال أو العجائز، بل على العكس؛ لذا ينبغي الأخذ بعين الاعتبار استعداد المستمع بجميع أبعاده.

فكأنّ الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ في مجال رعاية هذه النكتة الدقيقة واللطيفة، حين يقول: «**قَدْ بَلَغْتَ سِنًّا...**»، يقصد أنّه بما أنّك قد عبرت مرحلة الطفولة، وقد وصلت إلى سنٍّ، قد امتلكت فيه الاستعداد لفهم هذه المسائل، فها أنا أبيّنها لك. نعم، إنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ يأخذ بعين الاعتبار موقعيّة المستمع، فهو يقدّم وصيّته بنحوٍ دقيق وفي الوقت المناسب تمامًا والمتوافق مع استعداد المخاطَب، لكي تكون قابلةً للفهم والاستفادة، وإلّا لو لم تُراعَ هذه النكتة، فإنّ أي كلام سيكون لغوًا ومن دون فائدة.

اغتنام الفرصة

حين ننظر من جانبٍ آخر إلى هذا الكلام البليغ، نرى أنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ قد قام ببيان حاله وموقعه فيقول: «**وَرَأَيْتُنِي أَزْدادُ وَهْنًا بادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ لِخِصالٍ**»؛ أي من ناحيةٍ أخرى، حين أتأمّل في نفسي، أرى أنّني أضعف يومًا بعد يوم، ويزداد ضعفي ووهني الجسماني؛ لذا بادرت إلى بيان هذه الوصية لئلّا يأتي أجلي من قبل أن أبيّن لك هذه المطالب، فتبقى هذه المطالب غير مذكورة. إنّ هذا الكلام الذي هو أمير الكلام، يعلّمنا درسًا آخر في غاية الأهمية وهو أنّه إذا توفّر مجال عمل الخير لشخص، وجاء وقت القيام به، لا ينبغي له التساهل به؛ ذلك لأنّ: «**في**

التأخير آفات». فمن أين لنا أن نعلم أنّنا سنبقى على قيد الحياة، وأنّه سيكون بالإمكان القيام بهذا العمل، حتى نقوم به؟! فإذا كانت فرصة عمل الخير متوفّرة الآن، ويمكن القيام به، فلا ينبغي لنا تأخيره والتساهل بشأنه وإهماله. فلعلّنا غدًا لن نكون أحياء، أو إذا كنا أحياء، لعلّه لن يكون لدينا القدرة للقيام بهذا العمل. فمثلًا، من الممكن أن نكون أحياء، ولكن نتعرّض للمرض والوهن أو لآلاف الموانع والآفات في الحياة بحيث لا نكون قادرين على القيام بعمل الخير ذاك أو العمل الصالح والحسن، وبتلك المسؤولية الخطيرة.

فحين تتوفّر أرضيّة القيام بالعمل الصالح والمحمود، يجب أن نغتنم الفرصة، ونقوم به بأسرع ما يمكن. لهذا، يقول عَلَيهِ السَّلَامُ: لقد بادرت بوصيّتي إليك، لأنّني كنت قلقًا أن يأتيني الأجل، فتبقى هذه المطالب في طيّ الكتمان. بناءً عليه، فإنّ أحد أسباب المبادرة إلى هذه الوصية هو هذا القلق: **«أنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي من دونَ أنْ أُفْضِيَ إلَيْكَ بما فِي نَفْسِي»**. فسارعت لئلا أخرج من هذه الدنيا من قبل أن أقوم بهذا العمل. وكذلك أقدم على هذه الوصيّة، لأنني شاهدت أنّ فكري يكاد يصبح كبدني في حالة من الشيخوخة والهرم: **«أوْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَما نَقَصْتُ فِي جِسْمِي»**. فإنّ الهرم يصيب الفكر والذهن كما يصيب البدن. فلعلّ هذه المطالب الموجودة في ذهني اليوم بهذه الصورة وأستطيع بيانها، لن أتمكّن غدًا من بيانها بهذه الصورة، ويمكن لرأيي وفكري أن يضعفا مثلما ضعف بدني.

نحن ملتفتون إلى أنّ الكلام الذي ذكرناه سابقًا كافٍ لردّ الإشكال القائل بأنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ إمامٌ معصومٌ والهرم لا يضعف الإمام المعصوم، حيث ذكرنا أنّ الإمام لم يبيّن هذه الوصيّة تحت عنوان إمام معصوم، بل انطلاقًا من موقع الأب الذي وصل إلى عمر الشيخوخة وهو يحمل على ظهره جُعبةً مليئةً بالتجارب، ويبيّن لنا هذه المطالب. والنكتة المهمّة والدرس الآخر الذي يعلّمنا إيّاه هو أنّكم إذا كنتم اليوم تتمتّعون بالصحّة والسلامة الفكريّة والبدنيّة، ويمكنكم القيام بالأعمال العلميّة والعمليّة، فلتقوموا بها الآن ولا تؤخّروها. فلا تظنّوا أنّ مثل هذه القدرة ستبقى محفوظة دائمًا وحتى آخر العمر. فحين يشيخ الإنسان، فإنّه لا يستطيع القيام بالكثير من الأعمال العملية والعلمية؛ مثلًا، فإنّه لا يتمكّن من المطالعة وإجراء الأبحاث والعبادات بشكل صحيح وكامل. إذًا، إنّ كلامه عَلَيهِ السَّلَامُ هذا، هو موعظةٌ غير مباشرة بأنّه إذا أتتكم الفرصة للقيام بعمل الخير، فاغتنموها؛ لأنّه من غير المعلوم إذا ما



كانت مثل هذه الفرصة ستأتي في الغد.

وبعبارةٍ أخرى، إنّ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا القسم من كلامه ينبّهنا إلى وجود عدّة موانع أساسيّة في طريق القيام بأعمال الخير. وهذه الموانع عبارة عن:

١. مجيء الأجل ونهاية الحياة.

٢. فقدان الصحّة وقوّة الفكر والرأي.

٣. انقضاء الفرصة المناسبة.

فقبل بروز مثل هذه الموانع، ينبغي القيام بعمل الخير وعدم تأجيله إلى الغد. ولعلّه من هذه الجهة بادر أمير المؤمنين عليه السلام إلى بيان هذه الوصيّة الثمينة والقيّمة؛ لذلك فإنّه يقول: إنّني أبيّن لك هذه الوصيّة من قبل أن يأتيني الموت ويطرأ النقص على جسدي وفكري، وقبل غلبة الميول الشيطانية عليك وفقدانك للاستعداد اللازم.

الإصلاح قبل ظهور الانحراف

لو نظرنا جيّدًا لوجدنا أنّ هذا الكلام يتضمّن موعظة أخرى غير مباشرة وهذه التوصية هي: أيّها الناس! حتى لا تتلوّثوا، اعرفوا أنفسكم؛ وإذا كان تلوّثكم قليلًا التفتوا لئلا يزداد ويتّسع، وإلّا فإنّ الموعظة لن تؤثّر في قلوبكم، ولن تستفيدوا منها. فاعتنموا الفرصة، وحتّى لا تستولي القذارات على قلوبكم، اجلوها بالموعظة. مثلما ينبغي على الوعّاظ أن يغتنموا الفرصة وينوّروا القلب ويحيوه من قبل تكدّره.

والنكتة الأخرى الملفتة في هذه الوصية هي رعاية الأدب والاهتمام الكبير في كسب ثقة المخاطَب. لذا، لم يقل عليه السلام: إنّني أبيّن لك هذه الوصيّة، لأنّني أخشى ألّا تبقى على قيد الحياة؛ لا لأنّ هذا النحو من الخطاب غير جذّاب وغير محفّز بالنسبة للمخاطب فحسب، بل إنّ هذا النوع من التعبير بالنسبة للشخص، لا سيّما بالنسبة للشاب الذي نسعى لجذبه وكسب قلبه حتّى يستمع إلى كلامنا، هو أمرٌ منبوذ، لا أنّه غير جيّد وخلاف الأدب فحسب، بل يؤدي إلى نفور المخاطَب وإعراضه. وحين يكون الخطاب باعثًا على نفور المخاطب وإعراضه، فإنّه لن يعود يؤثّر فيه فحسب، بل قد يؤدّي إلى ردة فعل عكسية من قبل المخاطب.

لذا، لا يكتفي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الخطاب بالحديث عن نفسه حيث يقول: «لعلّ الأجل يدركني...»، بل يلتفت إلى أنّ المخاطَب سيدرك بنفسه أنّه لعلّ الموت سيدركه هو أيضًا عمّا قريب، لأنه لم يُكتب على جبين أحد إلى متى سيبقى على قيد الحياة. فكم من الشباب قد ارتحلوا عن هذه الدنيا من قبل أن يبلغوا سن الشيخوخة، وهم لم يكونوا يتصوّرون أبدًا بأن الموت سيدركهم في مثل هذا العمر.

إذًا، السبب الآخر للمبادرة إلى هذه الوصية، هو أن نغتنم الفرصة من قبل سيطرة جنود الشيطان على قلب المستمع وعدم تأثير الموعظة فيه، وزوال شروط انفعال القلب وتأثّره وغلبة هوى النفس عليه وتلوّثه، وأن نسعى إلى إحياء قلبه وتنويره بالموعظة. إنّ القلب الذي لا يكون مستعدًّا للاستماع إلى الوصيّة والموعظة هو كالدابة الحرون التي تفرّ دائمًا وتهرب. وبالإضافة إلى هذا الأمر، فإنّه يحذّر عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ابتعدوا عن ارتكاب بالمعاصي واتّباع هوى النفس، لأنّ المعصية واتّباع هوى النفس، يضلّان الإنسان بحيث لا يعود يؤثّر فيه كلام الحقّ أبدًا، وتصعب هدايته. من هنا، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَوْ أَنْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوى وَفِتَنِ الدُّنْيَا وَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ**»؛ أي لأجل هذا قمت ببيان هذه الوصيّة لك، لئلا تسيطر عليك الأهواء النفسيّة وتقبل عليك فتن الدنيا فتصبح كالدابة الحرون تهرب من الاستماع إلى المواعظ.

هذا التعبير الذي استخدمه أمير المؤمنين في غاية البلاغة والجاذبية والحلاوة، حيث يبيّن أنّ السبب الآخر لمبادرته إلى هذه الوصيّة كان: إنّنيَ أخاف أن «يسبقني إليك غلبات الهوى». فحين تُصاب بهوى النفس وتحيط بك فتن الدنيا، عندها لن تفقد الاستعداد للاستماع إلى المواعظ فحسب، بل ستنفر من المواعظ كالدابة الصعبة التي لا تنقاد لراكبها ويصعب ركوبها: «**لا تكن كالصعب النفور**». لذا، فقد بادرت إلى هذه الوصيّة من قبل أن يقبل عليك هوى النفس ويتغلّب عليك، ومن قبل أن تُسلب الاستعداد لتقبّل الموعظة، وقد كتبتها لك، لأنّ: «**قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ ما أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيءٍ إلّا قَبِلَتْهُ...**»؛ فقلب الشباب مثل الأرض البكر التي لم تُزرع بعد، والتي تتقبّل كل ما أُلقي فيها. فإذا لم أربِّ قلبك بأنوار الموعظة والنصائح، فإنّه سيُبتلى بالانحراف النفسي والاعوجاج الفكري.

الأبعاد التربويّة للقلب



إنّ سنّ الشباب هو الوقت المناسب للموعظة؛ لأنّ قلب الشاب يكون كالأرض الجرداء الخالية التي لم تُزرع والتي لم تُنثر فيها البذور بعد، وهي جاهزة للزراعة. فالأرض المستعدّة للزراعة، إذا نُثر فيها أيّ بذر فإنّه يخضر وينمو. أمّا إذا نمت فيها تلك الحشائش والنباتات الفاسدة أو كانت مزروعةً من قبل ببذورٍ أخرى، فإنّ زراعة البذور الجديدة فيها هو أمرٌ صعبٌ جدًا، ولا تنمو كما في الحالة السابقة بنحوٍ سريع ومن دون عناء. قلب الشاب كذلك هو على هذا النحو، فهو صافٍ ونظيف، لا تكون قد ترسّخت فيه الأفكار والعقائد الفاسدة بعد. ولا تكون الملكات النفسانية المذمومة قد نمت في قلبه، وإذا كان قد تلوّث فإنّ تلوّثه يكون سطحيًّا جدًّا، يأتي ويذهب بسرعة؛ والمعاصي والأفكار المغلوطة لا تكون قد تحوّلت إلى ملكةٍ راسخةٍ في نفسه بعد. لذا، يكون قلبه مستعدًا للتعليم والتربية، وبذور العلم والتربية التي تُزرع فيه فإنّها تنمو بأدنى مشقّة وفي أقصر مدّة زمنيّة ممكنة.

أمّا حين يهرم الإنسان، تكون الأحوال النفسانية فيه قد تحوّلت إلى ملكةٍ راسخة في نفسه وروحه، فإن إحداث التغيير فيه يكون في غاية الصعوبة. كالأرض التي نبتت فيها الحشائش والنباتات المختلفة، فحين نريد أن ننثر فيها بذور الورد فإنّها لا تنمو بسرعة وقد تكون تلك الحشائش والنباتات السابقة مانعًا أمام نموّها المطلوب. لهذا، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لأنّ قلب الحدث صافٍ ونظيف من أي قذارة، ويبقى مستعدًّا، ولا يكون حتّى الآن قد زُرع فيه أي شيء، ويكون مستعدًّا لاستقبال أي بذر، وأي نبتة تُغرس فيه فإنّها تنمو وتكبر بسرعة، لهذا **«فَبادِرْ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أن يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ»**. وكأن قوله: **«قَبْلَ أن يَقْسُوَ قَلْبُكَ»**، يشير إلى الجهة العملية للقلب وقوله: **«يَشْتَغِلَ لُبُّكَ»** يشير إلى الجهة العلميّة. لهذا، يمكن القول إنّ قلب الشاب يكون مستعدًا من هاتين الجهتين للتعليم والتربية.

حين يشتغل قلب الإنسان بالأفكار المشتّتة ويتلوّث بالمسائل المتناقضة والباطلة، فإنّه يكون قد وقع من الناحية النظريّة في الانحراف الذي يخرجه شيئًا فشيئًا عن حالة الاستقامة إلى الدرجة التي يشكّك بعدها بأبسط الأمور وأوضحها. ومن الواضح أنّ قلب الإنسان إذا ابتُلي بالاعوجاج العلميّ، فإنّه سينظر إلى كلّ

شيءٍ بمنظار الشك والترديد. هذا، بالإضافة إلى أنّ المفاهيم المختلفة والمطالب المشتتة حين تملأ ذهنه، فإنّها تجعله لا يتقبّل المفاهيم الجديدة والحقّانية بسهولةٍ، بل قد يمتنع عن ذلك أحيانًا. وفي المقابل، حين يكون وعاء الذهن خاليًا، فإنّه يتقبّل أي شيءٍ يُصبّ فيه ويجعل له مكانًا مناسبًا. فالمشكلة الأساسية هنا هي أنّ الإنسان حين يتقدّم في السن، فإنّ ذهنه يمتلئ بالمفاهيم والأفكار المختلفة والتي تكون متناقضةً أحيانًا، بحيث يسلبه ذلك الاستعداد تقبّل المسائل الحقانية والجديدة.

وأمّا البعد العمليّ للقلب، فإنّه يكون على هذا المنوال أيضًا. فحين يتلوّث القلب بالأخلاق الرذيلة والمنحطّة، فإنّه يقسو ولا يتأثّر بعدها بالمواعظ، وتصبح تربيته صعبةً. ومن باب تشبيه المعقول بالمحسوس يمكن أن نبيّن الأمر بهذا المثال: فإذا أخذتم كوبًا قد اتّسخ بالدهن أو الزيت، وأردتم أن تنظفّوه كي تستعملوه. فمن الواضح، أنّكم ستتعبون في تنظيفه وتلميعه. أمّا إذا لم يكن متّسخًا، فإنّه سيصبح نظيفًا ولامعًا بسرعة ولا يكون هناك أيّ عائق أمام الاستفادة منه، وستستفيدون منه بغاية السهولة؛ وهكذا هو حال قلب الإنسان. فما دام بعيدًا عن رسوخ الرذائل الأخلاقية أو استقرارها فيه، يكون صافيًا وشفّافًا، وتكون تربيته بمنتهى السهولة. أمّا حين يُبتلى بالمعاصي وترسخ فيه الصفات المذمومة، فإنّ تنظيفه يصبح صعبًا ويجعل التربية شاقةً، وكم يصبح تأدبّه بالآداب الفاضلة وتنظيفه من أجل تحليته بالخصال الحميدة مستحيلًا!

لذا، فإنّ هذه النكتة في غاية الأهمية، وينبغي الوقوف عندها جيدًا وهي أنّه إذا تلوّث القلب بالأفكار الخاطئة والأخلاق والأفعال الذميمة، يجب في البداية بذل الكثير من الجهد من أجل تخليته وتنظيفه، حتّى يصبح بعدها مستعدًّا لتقبّل المعارف الصحيحة والحقّة والصفات الفاضلة المحمودة. فالقلب الملوّث بالمعاصي والرذائل والانحرافات والشبهات يشبه الوعاء المتّسخ فلا يكون مستعدًا لقبول المعرفة والحقائق والآداب.

خصائص القلب الملوّث

وبهذا البيان الذي أوصى به أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد حذّره



ولفت نظره إلى ضرورة معرفة قدر نفسه والالتفات إلى أي مرحلة هو فيها وأي ظرفٍ هو فيه. ينبغي تقدير عمر الشباب وصفاء القلب والباطن اللذين لم يتلوّثا بعد ولم تترسّخ فيهما القذارات. فيجب اغتنام هذه الفرصة والعلم بأنّ مثل هذا الاستعداد لا يتوفّر دائمًا. فمن الممكن أن يقسو هذا القلب بعد مدة بحيث تصبح هذه القساوة سدًا أمام تحصيل مراتب الكمال والرفعة، لأنّه لن يتأثر بعدها بأي شيءٍ، والقلب القاسي الذي لا يتأثّر يسدّ طريق السعادة أمام صاحبه. فمن الطبيعيّ أن يكون قلب الإنسان متأثرًا ورقيقًا وأن تدمع عيناه، والحالة غير الطبيعيّة حين يصبح غير مبالٍ ولا يتأثّر بالمواعظ البالغة والمسائل المؤثّرة. وقد أكّد القرآن الكريم على هذا الأمر كثيرًا وذمّ أهل الكتاب واليهود منهم خاصة بسبب هذه الصفة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ..﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2].

حين يسمع الإنسان الحقّ، ولكنّه لا يصغي إليه ولا يعتني به فإنّه بعد مدّة سيفقد شيئًا فشيئًا الاستعداد للتأثّر بشكلٍ كامل. بينما لو اعتنى بالأمر منذ البداية، فإنّه سيتأثّر بالحقيقة ولن يفقد الاستعداد لقبول الحقّ، ولكن للأسف: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾، فقد مرّ عليهم زمنٌ طويل وقد ارتكبوا الكثير من المعاصي، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وهنا، أيضًا ينبّهنا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن نكون كالذين يسمعون الموعظة ويمرّون عليها وهم مُعرضون. فإذا كنّا كذلك، فإنّ الضرر الحاصل هو أسوأ من عدم العمل بتلك الموعظة. ذلك لأنّ عدم الاكتراث يؤدّي إلى زوال روحيّة قبول الحقّ بالتدريج. فتأملوا جيدًا والتفتوا إلى هذا الأمر قبل أن تقسو قلوبكم وتنشغل أذهانكم بأمورٍ أخرى، وقوموا بإصلاح أنفسكم وتهذيب أخلاقكم.

وباليقين، حين يقسو قلب الإنسان، فإنّه لن ينفعل بعدها بأي من هذه

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٧٤.

(٢) سورة **الحديد**، الآية ١٦.

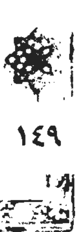
الأمور، ولن يتأثّر بها، ولن يرقّ ويلين. وهكذا الأمر بالنسبة لذهن الإنسان: فحين يمتلئ بالمفاهيم المختلفة ويشتغل بالأفكار المنحطّة، فإنّه لن يعتني بعدها بالمطالب الحقّة والأفكار الصائبة، ولن يبقى فيه محلٌّ للمطالب الصحيحة، والقلب كذلك.

وهذا الكلام يشير إلى حقيقةٍ يمكن لكلّ واحدٍ منّا أن يجرّبها بنفسه ويمتحنها. فمثلًا، إذا شغلتم أنفسكم بالدردشة من الصباح إلى المساء وقضيتم وقتكم كلّه بتجاذب أطراف الحديث فإنّكم تكونون بذلك قد أشغلتم ذهنكم، ولن تتمكّنوا بعدها من تركيز حواسكم وذهنكم على المطالعة وتلقّي الكلام المفيد. ذلك لأنّ قلبكم المشغول أدّى إلى امتلاء ذهنكم بالأفكار المختلفة، ولن يبقى بعدها المجال لتقبّل أفكارٍ جديدة. وباليقين أنّكم قد جرّبتم مثل هذه الحالة المتعلّقة بالقلب ومحتوياته مرّاتٍ عديدة. فحين يشتغل قلب الإنسان بالمسائل الدنيوية إلى درجةٍ كبيرة، فإنّ حضور القلب في الصلاة يصبح صعبًا أو يقلّ، لأنّ القلب أضحى مشغولًا بالدنيا ومشحونًا بانفعالاتها.

القلب الصافي وعاء المعرفة

لا يزال قلب الإنسان هدفًا لسهام الأفكار المنحطّة والميول النفسانية والفتن، وعلى الإنسان أن يفكّر بالمخرج لكي يصونه من هجمات هذه السهام المتكرّرة التي تريد حرفه وتلويثه. لهذا، وقبل أن تهجم هذه الأفكار المشتّتة والخاطئة على الذهن وتستولي عليه، وقبل أن تعشعش تلك الرذائل في القلب بحيث لا تبقي محلًّا للفكر والمعرفة المفيدة: ينبغي الاستماع دومًا إلى المواعظ الحقّة والأفكار الصحيحة والمبادرة إلى إصلاح النفس. فلو اغتنمتم مثل هذه الفرصة وقمتم بإصلاح أنفسكم من قبل أن يقسو القلب وينشغل الذهن، فإنّكم ستتمكّنون من تربية أنفسكم فكريًّا وقلبيًّا تربيةً أفضل. ومن جانبٍ آخر، ستصلون إلى أهدافكم بصورة أسرع. ذلك لأنّ التلوّث لم يظهر بعد في الذهن والقلب لكي يمنع من تكامله؛ ومن جانبٍ آخر، لأنّه لم يخسر الاستعداد بعد، فيمكنه أن يستفيد من تجارب الآخرين، ويتعلّم من حياتهم المليئة بالعبر، ويأخذ حصيلة ما وصلوا إليه بالجهد والمشقة. وهكذا قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: إنّ هذه المواعظ التي

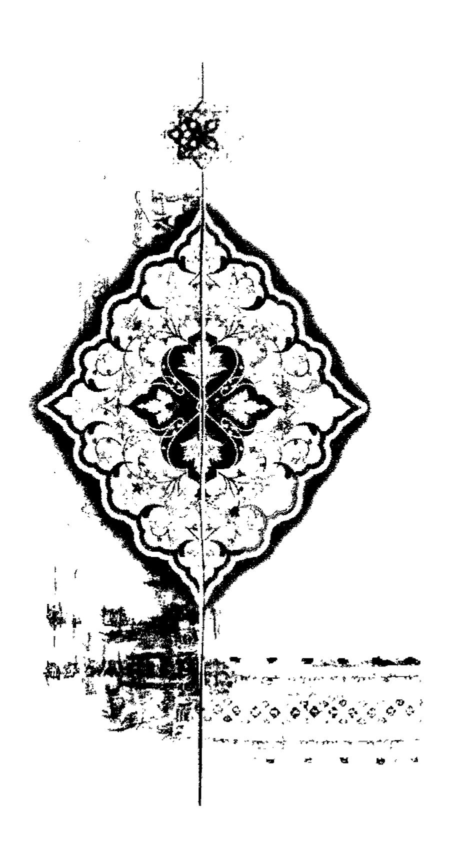
أبيّنها لك هي حصيلة عمرٍ مليئٍ بالتجارب والمشقّات. لقد شهدتُ ٦٠ عامًا حتى حصلت عليها، وها أنا ذا أضع بين يديك دفعةً واحدة حصيلة هذه التجربة، التي كان ثمنها عمر من الكدح والسعي. فعليك إذًا أن تسعى لصيانة نفسك قبل هجمات الأفكار المنحطة والوساوس الشيطانية، لكي تحلّ فيها الحكمة، وتنزل المعرفة في قلبك الصافي ولا يسمح لغيرها بذلك.



الاستفادة من دون تعب

إنّ مدرسة الحياة تقدّم لنا دروس التجارب، فمن فهمها وتعلّمها جيّدًا سيحقق نوعين من الفوائد والأرباح. أحدهما يكون نقدًا والآخر يتطلّب سعيًا واعيًا. أمّا النقد فهو عبارةٌ عن تجارب التلامذة السابقين في هذه المدرسة، والتي ستُقدّم للإنسان من دون مشقةٍ أو تعب، حيث يمكنه أن يستفيد من تجارب جميع البشر الذين سبقوه في ميدان الحياة. ولهذا، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ ما قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَه وَتَجْرِبَتَهُ**»؛ فأنت لا تحتاج ها هنا إلى أن تجرّب ما جرّبه الآخرون وتحمّلوا المشقّات من أجل الحصول عليه: «**فَتَكُونَ قَدْ كُفيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ وَعُوفيتَ مِنْ عِلاجِ التَّجْرِبَةِ**»؛ فهم الذين تحمّلوا المشقّات وها هم ينقلون إليك تجاربهم مجّانًا. «**فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ**»؛ أي إنّك ستحصل على ما كنّا نتعب من أجل الحصول عليه من دون أن تتعب نفسك وتسعى نحوه. «**وَاسْتَبَانَ لَكَ مِنْهَا مَا رُبَّما أَظْلَمَ عَلَيْنا فِيهِ**»؛ والاستفادة الأخرى هي أنّ ما يمكن أن يكون قد خفي علينا وبقي مبهمًا بالنسبة لنا، فحين توضع تلك التجارب بين يديك، فإنّك ستستطيع رفع الإبهام عنها بفكرك، ذلك لأنّك ستقرن تلك التجارب بفكرك، فتتمكّن من توضيح تلك النقاط المبهمة وأن تستفيد من تلك التجارب بصورة أفضل. إذًا إلى جانب تلك التجارب، علينا نحن أيضًا أن نسعى لاكتساب تجارب جديدة وبلورة التجارب القديمة.





الدرس الحادي عشر
عصارة التجارب

- الموعظة الأبويّة
- أوّل الخطوات في تربية الشباب
- هجران القرآن والعترة







«يا بُنَيَّ! إنّي وَإِنْ لَمْ أُكنْ قَدْ عُمِّرتُ عُمْرَ مَنْ كانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَارِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِما انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، وَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَه، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، ورأيْتُ حَيْثُ عَنانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذو نيّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عزَّ وَجلَّ وَتَأْوِيلِهُ وَشَرائِعِ الإِسْلامِ وَأَحْكامَهُ وَحَلالَهُ وَحَرامَهُ، لا أُجَاوِزُ بِكَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، ثمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ ما اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيه مِنْ أَهْوائِهِمْ وَآرائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ وَكانَ إِحْكامُ ذَلِكَ لَكَ عَلَى ما كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلامِكَ إِلَى أَمْرٍ لا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ الْهَلَكَةَ وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ»».

كما مرّ معنا فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يبيّن في هذا القسم من الوصية وبشكلٍ غير مباشر مجموعةً من المسائل التربوية. فهو عليه السلام يقدم مجموعةٍ من النُكات من قبل أن يبيّن تلك المواعظ والنصائح بصورةٍ مباشرةٍ، وهذه المسائل تحوز على أهميةٍ خاصة بلحاظ البعد التعليمي والتربوي. فالإمام عليه السلام ينبّهنا في الواقع إلى أهمية رعاية هذه النُكات.

الموعظة الأبويّة

إنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام لا ينحصر في بيان مجموعةٍ من الألفاظ الحاكية عن

عمق الفصاحة والبلاغة، بل إنّه يبيّن كيفيّة وشكل الكلام مع المخاطَب. من هنا، فإنّه من الضروري من أجل إدراك مواعظ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ التي لا مثيل لها - والتي بيّنها بصورةٍ غير مباشرة - أن نتأمّل بدايةً في كلامه حيث يقول: «**يا بُنَيّ! إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عُمِّرْتُ عُمْرَ مَنْ كانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَارِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِما انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، وَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَه، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهولَهُ**».

أراد أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بهذا البيان أن يقول بشكلٍ ضمني: إنّكم إذا أردتم أن تربّوا أحدًا، عليكم في البداية أن تكسبوا ثقته العلميّة بكم؛ حتّى يعلم المتربّي في محضر أيّ شخصٍ هو، وهل أنّ المتكلّم له قدرة على التربية أم لا. فإذا وصل المستمع والمتربّي إلى هذه الحالة من الثقة بالمربّي والمتكلّم، فإنّه سيصغي بشكلٍ جيّد إلى كلماته. أمّا إذا لم يعلم مع أيّ شخصٍ يتعامل وبين يدي أي شخص هو لتربيته، فإنّه لن يصغي جيدًا ولن يتوجّه بقلبه إلى نصائحه وبهذا لن تحصل الاستفادة المطلوبة، وهكذا لن يدرك الأمور إدراكًا صحيحًا، كما أنّه لن يعمل بها كما ينبغي.

فإذا كان أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ يقول في بداية كلامه: «إنني أضع بتصرّفك حصيلة عمر آلاف وملايين البشر السابقين دفعةً واحدة»، فهذا يجعل المتربّي والمخاطَب يستمع بثقة أكبر إلى المربّي، فيستطيع أن ينجح في تربيته. ولأجل أن تتّضح أهميّة هذه المسألة في التعليم والتربية نضرب هذا المثال: خذوا مثلًا حالةً من الحالات التي تريدون فيها تقديم هدية لشخصٍ ما. فإنّ هذا الشخص سيهتمّ بالهديّة على قدر قيمتها بالنسبة له. فإذا كانت الهدية مثلًا مئة فلس - بغضّ النظر عن قيمتها المعنويّة - فإنّه لن يعطيها قيمةً، وإذا ضاعت فلن يسأل عنها، كما أنّه لن يهتمّ كثيرًا بالمحافظة عليها. أما إذا كانت تلك الهدية قطعة ألماس لا نظير لها في العالم ولا تُقدّر بثمن، فإنّه سيلتفت إليها أكثر ويحافظ عليها بكل وجوده.

وكأنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في هذه الوصيّة يبدأ بالتعريف بنفسه وموقعيّته بشكلٍ مفصّل وينبّه إلى قيمة وصاياه وقيمة المطالب التي يعرضها لكي لا ينظر



المخاطَب إليه كإنسانٍ عادي، بل يعلم أنّ من نهض إلى إرشاده وهدايته قد جعل حصيلة عمر الماضين بين يديه. فها هو إنسانٌ حكيم وعالمٌ ربّانيّ قد نهض لإرشادكم ويقدّم لكم ثروة لا نظير لها ودررًا فريدة تختصر عمر البشرية جمعاء كهديّة. إن هذه الهدية فائقة الأهمية وغالية الثمن قد تراكمت قيمتها مع مرور الأيّام وارتفع سعرها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، وها هي تُقدّم لكم دفعةً واحدة، لهذا ينبغي أن تعتبروها عزيزةً كأرواحكم وتحافظوا عليها. فهي لم تأتِ بالمجّان حتّى تذهب جُفاء. ومن جانبٍ آخر، عليكم أن تستخدموا هذه الهدية في الوقت المناسب، وتستفيدوا من وجودها النفيس بشكلٍ كامل واحذروا أن تدعوها جانبًا بحجة المحافظة عليها.

التعبير الآخر الذي استعمله أمير المؤمنين عليه السلام من أجل النفوذ إلى عمق قلب المخاطَب وجلب انتباهه وثقته، هو قوله: «**يا بُنَـيّ**»، الذي له صيغةٌ جماليةٌ ذات جاذبية خاصّة. فهذا اللفظ يحكي عن منتهى العطف والرأفة. فهو عليه السلام لم يقل «يا ابني»، «يا ولدي» بل يقول «يا بُني». ومثل هذا التعبير في اللغة العربية الذي يُستعمل لأجل إظهار المحبّة والعطف الكثير جدًّا، وها هو أمير المؤمنين عليه السلام يستعمله أيضًا ويبدأ وصيته به. والنقطة الأخرى التي نستنبطها من هذا التعبير هو أنّ الإنسان إذا طالع أحوال الآخرين واطّلع على كل ما جرى عليهم من حوادث وبلاءات ووقائع فإنّه يكون كمن أخذ حصيلة أعمارهم وعاش حياتهم واطّلع على علومهم، وكأنّه كان منذ البداية حتى النهاية معهم.

لهذا، ينبغي أن نقدّر هذه الوصية لأنّ الإمام علي عليه السلام قد أعطى عمره في مقابلها، وهي تمثّل لحظات عمره وأيّام حياته، وها هي تُقدّم لنا.

وقد يطرأ على الذهن مثل هذا الإشكال وهو أنّ التصديق المطلق ونقل حوادث تاريخ الماضين وتشريحها والسير في التاريخ وتجارب الشعوب الماضية ليس سوى نسخ لتجاربهم، والتسليم بها من دون تحقيق وتفحّص هو عملٌ غير منطقيّ، وعلى فرض صحّته فإنّه لا يحوز على تلك الأهميّة! هذا بالإضافة إلى أنّ الماضين لم يكونوا على مستوًى من العلم والثقافة لكي يؤثّروا في حياتنا بشكلٍ كبير. فالمهم أن يُضاف إلى ذلك البناء العلمي أمر جديد ويساهم في تطويره! لذا نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكتفِ بجمع المعلومات، بل قام بنقدها ودراستها

وتمييز غثّها من سمينها، ثمّ عرضها على الحقائق الإلهية الأصيلة ليميّز الصحيح من السقيم فيها وليحدّد الضار من النافع.

وكم من الناس كانوا يظنّون أنهم استفادوا من أعمارهم، والناس يتصوّرونهم قد عاشوا حياةً مثالية، ولكن عند التحقيق نكتشف أنهم لم يصلوا إلا إلى الخسران المبين. فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أعاد النظر في جميع المعلومات التي حصل عليها وحدّد النافع منها من الضار، ثمّ اختار ذلك النافع من بين حشد المعارف الكثيرة حول الماضين وقدّمه للمخاطَب. كما يبيّن عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قد غضّ النظر عن تلك الأمور التي توقع السامع في الشكّ والترديد، أو التي لا يقدر المخاطَب على الاستفادة منها وتمييز غثّها من سمينها ونافعها من ضارّها والتي يمكن أن تسبّب له الحيرة. فهو يأخذ منها ما يكون نافعًا بشكلٍ يقيني لا يسبب للسامع أي ضرر، لأنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ يتحدّث من موقع الأب العطوف الذي لا يريد إلّا الخير والعزّة لابنه وهو يسعى ليعلّمه أفضل الآداب. فما يكون مهمًّا لكلّ أبٍ عطوف، يكون مهمًّا له. فسعى من هذا الموقع أن يبيّن أفضل الآداب لابنه.

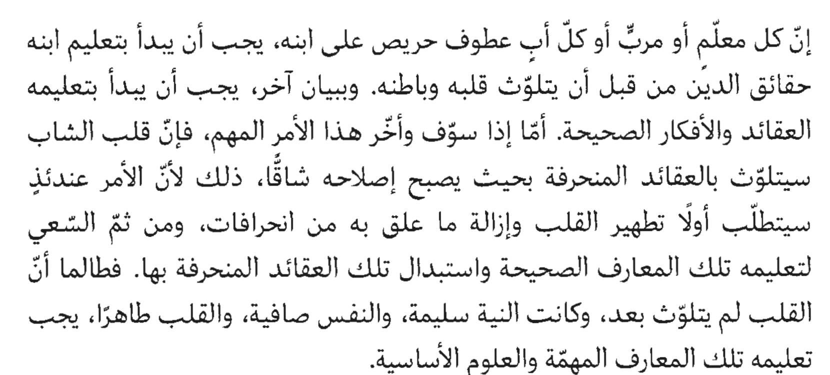
بالطبع، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ ناظرٌ إلى أنّ ابنه ما زال يتمتع بعمر الشباب، لهذا فقد أقدم على نصحه، لأنّه سيأتي سيواجه زمانًا لا يعلم عنه شيئًا، فهل هناك شيءٌ أفضل من أن يبتدئه منذ بداية عمره بمثل هذه النصائح ليستفيد منها على مدى الحياة. وعندها سيحصل الانتفاع بشكلٍ كامل. ومن جانبٍ آخر، يرى ابنه في هذا العمر الذي يتمتّع فيه بهذه الذخيرة المعنويّة من النيّة السليمة والقصد الصافي والقلب الطاهر. فيقرّر في مثل هذه المرحلة الحسّاسة والخطيرة، وقبل أي شيءٍ، أن يقدم على تعليمه القرآن وحقائقه وحلال الله وحرامه وأحكام دينه، ذلك لأنّ هذه العلوم هي أهم المعارف التي ينبغي تعلّمها.

الخطوات الأولى في تربية الشباب

التفتوا إلى أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن كان يبيّن هذه النصائح على شكل تقرير، لكنّه ينبّه إلى مجموعة من النكات التي يجدر التوجّه إليها. وكل واحدةٍ منها تمثّل مجموعةً من الحكم. وها نحن نشير إلى عدّة نماذجٍ منها:



١. أوّل المعارف



إنّ كل معلّم أو مربٍّ أو كلّ أبٍ عطوف حريص على ابنه، يجب أن يبدأ بتعليم ابنه حقائق الدين من قبل أن يتلوّث قلبه وباطنه. وببيان آخر، يجب أن يبدأ بتعليمه العقائد والأفكار الصحيحة. أمّا إذا سوّف وأخّر هذا الأمر المهم، فإنّ قلب الشاب سيتلوّث بالعقائد المنحرفة بحيث يصبح إصلاحه شاقًّا، ذلك لأنّ الأمر عندئذٍ سيتطلّب أولًا تطهير القلب وإزالة ما علق به من انحرافات، ومن ثمّ السّعي لتعليمه تلك المعارف الصحيحة واستبدال تلك العقائد المنحرفة بها. فطالما أنّ القلب لم يتلوّث بعد، وكانت النية سليمة، والنفس صافية، والقلب طاهرًا، يجب تعليمه تلك المعارف المهمّة والعلوم الأساسية.

وفي الخطوة الأولى، يجب تعليمه تلك الأمور التي إذا لم يعرفها وستوقعه في الضرر، لا بل ستجعل طريق أي إصلاحٍ وتكاملٍ مسدودًا أمامه؛ لأنّ الأمور التي يمكن تعليمها على أنواع: فهناك طائفةٌ من العلوم تكون معرفتها نافعةً، وفي المقابل، هناك معارف لا تضرّ من جهلها، ولهذا تقع في الدرجة الثانية من الأهميّة. والنوع الثالث هي تلك العلوم التي يؤدّي الجهل بها إلى سدّ طريق السعادة وخسران أهم الأمور. والفئة الرابعة هي تلك العلوم التي تكون معرفتها سببًا لسد طريق السعادة وفتح باب الشقاء. لهذا، يمكن أن نقسّم العلوم من هذه الجهة إلى أربع فئات:

أ - العلوم التي تكون معرفتها مضرّة؛

ب - العلوم التي تكون معرفتها نافعة؛

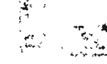
ج - العلوم التي يكون جهلها مضرًا؛

د - العلوم التي لا يكون جهلها مضرًا؛

وهكذا، فإنّنا لا نجد من بين هذه الفئات الأربع من علم ومعرفةٍ أهم من معرفة ما جاء في القرآن الكريم، لأنّ الجهل به يؤدّي إلى سدِّ طريق السعادة. وعليه، فإنّ معرفة القرآن تكون في الدرجة الأولى من الأهمية.

فباليقين، لو كان هناك علمٌ أو معرفةٌ غير معارف القرآن ممّا يؤثر في سعادة البشر أو يؤدّي دورًا أهمّ منه، لما كان الله ليبخل في إفاضته وتقديمه للناس.



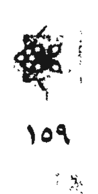


إنّ جميع المقدّمات قد أُعدّت لنزول القرآن الكريم، ومنها اصطفاء أفضل عباد الله لأجل حمل رسالته الخالدة. ومن جانبٍ آخر، فقد قام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بالتمهيد والإعداد والقيام بعباداتٍ خاصّة لكي يؤمّن الأرضية المناسبة لنزول هذه التحفة الإلهية وأعدّ نفسه بالشكل اللازم، كل ذلك يدلّ على شدّة اهتمام الله بسعادة عباده، وقد أثبت لهم قيمة هذه الهديّة الإلهية وأنّه لم يُقدّم للبشر طوال التاريخ مثلها. فهل يمكن لهذه الهديّة الإلهيّة أن تهمل بيان ما هو ضروريّ للبشر؟ أي هل يمكن أن تهمل الاحتياجات الضروريّة للإنسان، ولا تهتمّ بما هو ضروري ومورد حاجة للبشر؟ فهل هذا عملٌ حكيم أن ينزل إله العالم - مع كل ما يملكه من محبةٍ ورحمةٍ تجاه عباده، وأن يختار لهم أفضل عباده كنبيّ - كتابًا، لا يلبّي الاحتياجات الأساسية للبشر، بل على العكس يبيّن لهم ما لا ينفعهم؟! فمن المؤكّد أن أفضل المطالب وأكثرها ضرورةً لما يحتاج إليه الناس موجودة في القرآن الكريم.

فإذا أراد الأب العطوف مصلحة ابنه، يجب أن يسعى قبل أي شيءٍ لتعليمه معارف القرآن وحلال الدين وحرامه، لأنّه إذا لم يطّلع الإنسان على هذه الأمور فإنّه سيُصاب بالضّرر وسيوجّه ضربةً قاصمةً لسعادته في الدنيا والآخرة. من هنا، كان أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يقول: لقد ابتدأتك بتعليم كتاب الله سبحانه وبتفسيره وبتعليمك آياته وألفاظه وحقائقه، وطلما أنّك لم تحصّل هذه المعارف، فلا تسعَ وراء اكتساب المعارف الأخرى؛ وأنا كذلك فقد نصحتك أن تتعلّم هذه المعارف قبل أي شيء آخر، أي إنّ الأولويّة هي لمعرفة الله ومعرفة دينه ولمعارف القرآن، وطالما أنّك لم تتعلّمها فلا تسعى وراء العلوم والمعارف الأخرى.

٢. انسجام المطالب مع استعداد المخاطَب

ومن هذا الكلام الحكميّ لأمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نستنبط أصلًا تعليميًا وتربويًا آخر. حيث ينبغي للمربّين والمعلّمين الحريصين والذين يهمّهم مستقبل أبنائهم أن يلتفتوا إليه. فبناءً على هذا الأصل يجب الالتفات عند بيان أي مسألةٍ علمية إلى استعداد المخاطَب، بمعنى أنّه بعد تحديد المعارف الضروريّة، ينبغي أن تتناسب تلك المعارف مع مستوى فهم المخاطَب وإدراكه. فإذا كان المطلوب تعليمه المعارف الإلهيّة قبل أي شيء، فيجب الأخذ بعين الاعتبار إمكاناته والظروف التي تحيط به كمتعلّم. فقد يحدث أن يكون هناك أشخاص قد بلغوا سنّ الرشد لتوّهم، لكنّهم لا



يمتلكون الاستيعاب الكافي للكثير من المعارف. لهذا، لا ينبغي أن تُلقى عليه تلك المعارف التي لا يمكنه استيعابها. ورغم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد عرض هذه الوصايا لمن قارب عمره الثلاثين، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ نلقي بالمعارف العالية والعميقة، التي لا يفهمها الأشخاص البالغون بشكلٍ صحيح، على السامع لمجرّد أنّه مستعدٌّ للاستماع والتعلّم، بل ينبغي أن نقدّم له ما يتناسب مع إدراكه.

لهذا، فمن بين الأمور القابلة للتعليم، يعطي أمير المؤمنين عليه السلام الأولويّة للمعارف الدينية، التي يؤدّي عدم تعلّمها إلى الضرر. وكذلك ينبغي أن تكون المعارف الدينية وغيرها متناسبةً في التعليم مع مستوى فهم المتعلّم وإدراكه. فلا ينبغي أن يكون مستواها أقل بكثير من مستوى المتعلّم بحيث تكون بالنسبة له في غاية السهولة، وكذلك لا ينبغي أن تكون أعلى من مستواه إلى الدرجة التي يعجز عن فهمها ويراها بلا فائدة.

٣. بيان الانحرافات الكامنة

ما بيّناه لحدّ الآن من الوصيّة، أخذ بعين الاعتبار الجهات الإيجابية للأمور والمعارف التي يقوم بها المربّي تجاه المتربّي أو ما تعليمه يُعدّ ضروريًّا. ولكن هل يكفي هذا المقدار؟ هل إنّ بيان أصول الدين والأدلة عليها يُعدّ أمرًا كافيًا؟ فهل إنّ مجرّد بيان التوحيد والنبوّة والمعاد والصفات الإلهية والإمامة وغيرها مع أدلّتها يكفي؟ وهل تنحصر مسألة تعليم الأحكام الدينية ببيان الحلال والحرام، أم أنّه يلزم أكثر من ذلك؟

مرةً أخرى، نجد أنّ هذا الرجل الإلهيّ قد اعتنى بهذه المسألة المهمّة. وهو عليه السلام يقول في هذا المجال: «**ثـمّ أشْـفَقْتُ أنْ يَلْتَبِـسَ مـا اخْتَلَـفَ النّاسُ فِيـه مِـنْ أَهْوائِهِـمْ وَآرائِهِـمْ مِثْـلَ الّـذي الْتَبَـسَ عَلَيْهِـمْ وَكانَ إحْـكامُ ذَلِـكَ لَـكَ عَلَـى مـا كَرِهْـتُ مِـنْ تَنْبيهِـكَ لَـهُ أَحَـبُّ إِلَـيّ مِـنْ إِسْـلامِكَ إِلَـى أَمْـرٍ لا آمَـنُ عَلَيْـكَ فِيـهِ الْهَلَكَـةَ**»؛ أي بالإضافة إلى تعليم المطالب المهمّة والضرورية، يجب التنبيه إلى المزالق واللوابس لكي نمنع من حدوث الانحراف ونبيّن ما يؤدّي إلى حدوث الاختلاف، أو إلى ما اختُلف بشأنه ممّا يوجب ظهور الشبهات والشكوك لكي لا يضل الناس. ولا شكّ بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول إنّه لا يحبّ ولا يرغب ببيان مثل هذه الأمور، كما أنّه لا يرى مصلحةً في التعرّض لتلك الأبحاث التي تحيط بها الشبهات والشكوك

الفكرية الناشئة من الأفكار المتناقضة والأذهان المعوجّة، حتى لا يشوّش ذهن المستمع بذكر الشبهات والتناقضات إلى جانب المعارف الإيجابيّة. ولكن بما أنّه قلقٌ من تحرّك المنحرفين وإلقاءاتهم، فهو يخشى على السامع من الوقوع في شباك ضلالتهم، ويقوم بالتعرّض لتلك الشبهات والإجابة عليها بعد بيان المعارف والأحكام الإلهية، كل ذلك لكي تكون جعبته مليئةً وفكره مسلّحًا لمواجهة أهل الشبهات.

لهذا، فإنّه لا يتركه بعد تعليمه تلك المعارف من دون دعم ومددٍ فيسقط في فخّ تلك الشبهات والإلقاءات الباطلة، بل يسلّحه بالأجوبة عن تلك الشبهات من أجل نجاته ووصوله إلى شاطئ الأمان. فإنّ مجرّد بيان المعارف والأحكام لا يكفي في الهداية، بل يجب أن نقوم ببيان الشبهات والانحرافات والحفظ من إلقاءات الشياطين. ولا ينبغي لكم أن ترتاحوا لمجرّد الاطّلاع على الحقّ، بل يجب أن تكون لديكم القدرة على الدفاع عن المعارف والأحكام مقابل الشبهات والإلقاءات الباطلة كي لا تنزلقوا في ورطة الهلكة.

وبهذا الكلام، ندرك بوضوح أنّ للتعليم والتربية جانبًا إيجابيًا ولهما أيضًا جهةٌ سلبية. فبالإضافة إلى بيان المعارف الحقّة، لا بدّ من الإلفات إلى الانحرافات والمزالق. فالإنسان لا ينبغي أن يكتفي بإثبات توحيد الحقّ، بل عليه أن يتعلّم كيفية إبطال التثليث أيضًا. وفي الوقت الذي يجب عليه بيان المعارف الحقّة وإثباتها، عليه أن يجيب عن تلك الإشكالات والشبهات التي تُطرح بشأنها لتجنّب الوقوع في فخّ الشياطين.

إنّ تشخيص الحقيقة في الأحكام والمعارف الإيجابية ليس أمرًا صعبًا. ولكن حين يكون الإنسان معرّضًا للإلقاءات الباطلة وسهام الشبهات المتنوّعة، فإنّ معرفة الحقّ تصبح أمرًا صعبًا جدًّا، ذلك لأنّ الباطل يظهر نفسه بلباس الحقّ. ويكون الاهتداء إلى طريق الحقّ في لجّة الإعوجاجات الفكريّة أمرًا شديد الصعوبة. ولعلّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ من هذه الجهة يكمل كلامه بهذا الدعاء: «**وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ بِوَصِيَّتِي هَذِهِ**». فإنّ الطريق الصحيح والموصل، هو ذلك الطريق الذي يكون محفوفًا بطريقي الإفراط والتفريط.

وبالالتفات إلى هجوم الأفكار الباطلة والعقائد المنحرفة، فلا شك بأنّ إدراك



الحقيقة والعمل بها يصبح صعبًا على الإنسان، وقليلًا ما يوفّق لإدراك طريق الهداية والصواب. وغالبًا ما ينحرف نحو جهة الإفراط أو التفريط.

إنّ هدف إرسال الرسل وإنزال الكتب إنّما كان لأجل هداية الناس في أودية الحيرة هذه. ولقد سمّى الله سبحانه المهتدين أمّته المختارة قائلًا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1]؛ وفي موضع آخر، يقول تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]. فالله تعالى يبيّن الطريق القاصد والجادة الوسطى والصراط الصحيح لعباده، ولكن البعض يختارون الطرق المنحرفة. أو كما ورد في سورة **النحل** من قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[3]؛ وقد جعل الله تعالى النجوم التي من جملة منافعها أن يهتدي الناس بها في ظلمات الليالي الحالكة ليعرفوا طريقهم في الصحاري القفار ولا يضلّوا. فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعبّر عنه بالمعنى المتعارف بالمخرج والانتقال الوحيد، فحين يبيّن لنا الطريق الصحيح بمعونة نور النجوم، فباليقين سيبيّن لنا طريق النجاة في أمورنا المعنويّة.

ومن الواضح جدًا أنّ الحيرة والضلالة ليست منحصرة في الصحاري، بل موجودةٌ في الأمور المعنويّة، وهناك الكثير من الطرق المنحرفة التي تُفتح أمامنا لتكون سدًا أمام الطريق الحقيقيّ. وباليقين، فإنّ الانحراف في العقائد والأفكار هو الأقبح، وقد لا يكون قابلًا للجبران، وضرره أعظم من الضياع في الصحاري. فهل قد أهملنا الإله، الذي جعل النجوم لهداية الناس في الطرق المقفرة وظلمات الليالي الحالكة ، فيما يتعلّق في مسيرة حياتنا المعنوية، وتركنا من دون هدايةٍ؟ أو أعرض عن تأمين ما يفيد سعادتكم وكمالكم النهائي ولم يعيّن لكم الطريق الموصل؟! فمن المحتّم أنّ الأمر ليس كذلك بل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ إنّ الله تعالى يبيّن الطريق، وقد هيّأ الطرق الكثيرة لهداية الإنسان المعنويّة. ولهذا، نجده يصرّح بوجود الطرق المنحرفة، ويتمّ كلامه قائلًا: «**وَمِنْهَا جَائِرٌ**»: فالكثير من

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ٣٢.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٩.

(٣) سورة **النحل**، الآية ١٦.

الطرق منحرفٌ وكل انحراف جور ويؤدّي إلى الانحراف عن المسير الصحيح. ولا تظنّوا أنّه كلما خُطّ طريقٌ ووُضع مصباحٌ، فهذا يعني أنّه سيكون طريق الصواب وطريق القصد، بل إنّ بعض هذه الطرق تضلّ الإنسان وتحرفه. إنّه الله تعالى الذي يدلّ الإنسان على الطريق الحقيقيّ. ولو كنتم تشكرون، ومن نعم الله وهدايته المبيّنة في كتابه تستفيدون، لحصلتم على الهداية. ولكن إذا لم تستفيدوا منها، فقد كفرتم بنعمه، وتصرّفتم بطريقةٍ كأنّ الله تعالى قد أهمل هدايتكم، ولهذا سوف تُبتلون بالانحراف والضلالة. فالله تعالى وأئمّة الهدى عليهم السلام قد بيّنوا نهج تشخيص الانحرافات من طريق الصواب ببيان المعارف الحقّة، كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته الإلهية حينما بيّن لنا المنهج الصحيح للحياة.

مهجورية القرآن والعترة

لا شك بأنّ القرآن العظيم والعترة الطاهرة هما الأركان الأساسيّة للهداية ومعرفة الحقّ، وقد منّ الله تعالى بهما على البشرية. وبالإضافة إلى الهداية، فقد بيّن الله أهمّ ما يحتاج إليه الإنسان طوال عمره من منبعي الفيض اللامتناهي هذين. وفي مقابل هذه النعمة، التي لا بديل عنها، نجد تقصيرنا الذي لا نظير له، فإذا سُئلنا عن مقدار ما نفعله للاهتداء بالقرآن وأهل البيت عليهم السلام لحرنا جوابًا. ويا ليت عمق الفاجعة يقف عند هذا الحدّ، ولكن للأسف فإننا من أعماق ذواتنا لا نشعر بالحاجة إلى القرآن وهداية أهل البيت عليهم السلام! لهذا لا يوجد لدينا الدافع للرجوع إلى القرآن. فإذا لم يشعر الفرد أو الجماعة أو المجتمع بالحاجة إلى القرآن في حياتهم، ولم يبحثوا فيه عن مشعل الهداية ثم ضلّوا، فمن الذي يستحقّ اللوم؟ إن الله تعالى قد ميّز الطريق عن الحُفر، وجعل للطريق الصحيح علامات وأرسل المربّين والهداة. فإن لم تستفيدوا، فمن المستحقّ للملامة والتوبيخ؟ ومن الواضح أنّه لا ينبغي أن لا تلوموا إلّا أنفسكم، ويجب الاستفادة من كتاب الله..

وما ذُكر بشأن كتاب الله في كلمات الأئمة الأطهار عليهم السلام هو في الواقع تفاسير وتفاصيل القرآن. ذلك لأنّ القرآن والعترة هما طريق الهداية الأوحد، وهما الهادي الأوّل ولهما القيمة الأكبر والأفضلية على كلّ شيء. فإذا استفدنا من هذين المصدرين الإلهيّين، فإنّنا لن نعيش الاضطراب والضياع والشك في الحياة الدنيا. ولكن إذا جعلناهما وراء ظهورنا وهجرنا القرآن، فلا ينبغي أن نأمل بالحصول على

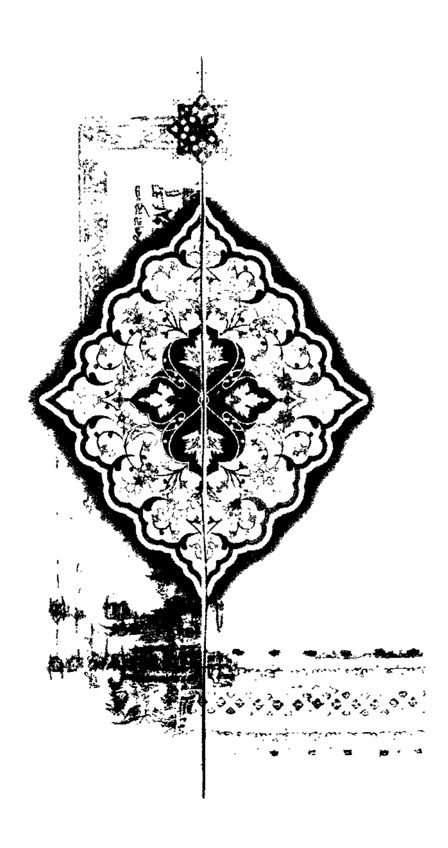


نور الهداية وإشعاعه على أرواحنا: ﴿قَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[1]؛ فإذا حصلنا على الفائدة المطلوبة من القرآن والعترة، فمن الممكن عندئذٍ أن يفتح الله علينا طرقًا أخرى للمعرفة ويزيدنا هدىً. أمّا إذا لم نستفد من هذه الهداية، فلا ينبغي أن نطمع بالحصول على الطريق المستقيم في الحياة، من دون انحراف.

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٣٠.





الدرس الثاني عشر
تجميع العلم

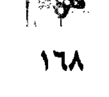
- طرق تحصيل العلم
- شروط تحصيل العلم:
  ١. النيّة الصافية
  ٢. الاستعانة بالله والتوكّل عليه
  ٣. اجتناب الأدلّة المضلّة
  ٤. الهمّة العالية والتصميم القاطع



«وَاعْلَمْ مع ذلكَ يا بُنَيّ أنّ أحبَّ ما أنتَ آخِذٌ بِهِ مِنْ وَصِيّتِي إلَيْكَ تَقْوَى اللهُ والاقْتِصارُ عَلَى ما فَرَضَهُ اللهُ عليك، والأخْذُ بِما مَضَى عَلَيْهِ الأوّلون مِنْ آبائِك والصّالِحُون مِنْ أهْلِ بَيْتِكَ فَإنّهم لَنْ يَدَعُوا أنْ يَنْظُرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَما أنْتَ ناظِرٌ، وفكّروا كما أنتَ مُفكِّرٌ، ثُمّ رَدّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إلى الأخْذِ بما عَرَفُوا، والإمْساكِ عمّا لَمْ يُكَلَّفوا فإنْ أبَتْ نَفْسُكَ عَنْ أنْ تَقْبَلَ ذلك دون أن تَعْلَمَ كما عَلِمُوا فلْيَكن طَلَبُكَ لِذَلكَ بِتَفَهُّمٍ وتَعَلُّمٍ لا بِتَوَرّطِ الشّبهاتِ وعُلَوّ الْخُصوماتِ، وابدأ قبل نَظَرِكَ في ذلك بالإسْتِعانَةِ بإلهك عليه والرّغْبَةِ إليه في توْفيقكَ ونَبْذِ كلِّ شائبةٍ أدْخَلَتْ عليك كل شُبهةٍ، أو أسْلَمَتْكَ إلى ضلالةٍ فإنْ أيْقَنْتَ أنْ قدْ صَفا لك قَلبكَ فَخَشَعَ وتمّ رأْيُك فاجْتَمَع، وكان همُّك في ذلك همًّا واحدًا، فانْظر فيما فسّرتُ لك، وإن لم يجتمعْ لك رأيُكَ على ما تُحبُّ مِنْ نَفْسِك وفراغِ نَظَرِكَ وفكْرِكَ، فاعْلَمْ أنّكَ إنّما تَخْبِطُ خَبْطَ الْعَشْواءِ [وتتورّط الظّلماءَ] وليس طالبُ الْدّين من خَبَطَ ولا خَلَطَ، والإمْساكُ عند ذلك أمثلُ وإنّ أوّل ما أبدؤك به في ذلك وآخِرَهُ أنّي أحْمَدُ إليك الله إلهي وإله الأوّلينَ والآخرينَ وربُّ من في السماواتِ والأرضينَ بما هو أهلُهُ، وكما يجِبُ وينبغي لهُ، ونسألُهُ أن يصلّي على سيّدنا مُحمّدٍ النبيّ صلى الله عليه وآله، وعلى أنبياءِ اللهِ بجميع صلاةِ من صلّى عليهِ مِن خَلقهِ، وأن يُتِمّ نِعْمَتَهُ علينا بما وفّقَنا لهُ مِنْ مَسْألَتِه بالاستِجابَةِ لنا فإن بِنِعْمَتِهِ تُتِمُّ الْصّالِحاتِ .

بعد القسم الأوّل من الوصية والذي تضمّن الوصايا الوجيزة والمختصرة، يقوم أمير المؤمنين عليه السلام بالبحث التفصيليّ في هذه الوصية ويقول لابنه: يا بُني! إنّ أهمّ شيءٍ ينبغي لك الالتفات إليه، وهو الأحبّ إليّ، هي التقوى الإلهية والاكتفاء بالواجبات الإلهيّة والعمل بسيرة السلف الصالح. وقوله عليه السلام: «**أنّ أحبّ ما أنت آخذٌ به**» يؤدّي إلى جذب انتباه السامع وجلب المزيد من اهتمامه وحرصه.

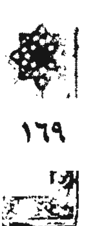
فمثل هذا النحو من البيان علامةٌ على رعاية القواعد البلاغية في كلماته عليه السلام.
إنّ هذا الكلام الإكسيري يوصي بالإضافة إلى التزوّد بالتقوى، بالاكتفاء بالواجبات الإلهية. وأمّا سبب الوصية بالتقوى فهو واضحٌ، ولكن ما هو المقصود من الاكتفاء بالواجبات؟ فلأجل اتّضاح هذا المطلب ينبغي أن ننهض لتوضيح هذا المقطع من هذه الموعظة الخالدة.



طرق تحصيل المعارف الدينية

وفي مقام بيان تلك الوصيّة العظيمة، يجب القول إنّ أمام الإنسان طريقان لكسب المعارف الإلهية. أحدهما أن يكتفي بتعلّم ضروريات الدين بشكلٍ مفصّل ومستند إلى الأدلة المحكمة ويثبتها بالبراهين، ولكن يعتمد في تحصيل المعارف الجزئية والأحكام الفرعية على تحقيقات الآخرين ويقلّدهم. وبعد أن يثبت بالبرهان المتقن وبالاستدلال المحكم التوحيد والنبوة، فإنّه يرجع في فروع التوحيد والنبوّة إلى معارف الغير، أو بعد الاعتماد على دليلٍ محكم يثبت أنّ القرآن كتاب الله ويجب العمل به وكل ما بيّنه هذا الكتاب حقٌّ، فإنّه لا يسعى لتحصيل البراهين فيما يرتبط بالاعتقادات الجزئية: كالاعتقاد بالملائكة وعالم البرزخ والاعتقاد بالقيامة ومواقفها لتحصيل البراهين، بل يكتفي بما جاء في القرآن ويسلّم لكل فروعه. وكما فعل في الاعتقادات، يفعل في مجال الأحكام العملية؛ أي بعد أن يكون قد تعلّم ضروريات الدين عن طريق الاستدلال وأثبت وجوب الصلاة والصيام وغيرها فإنّه يقلّد الفقهاء والمراجع والمتخصّصين في أحكامها التفصيلية، فلا يتعب نفسه بإثبات تفاصيل الأحكام من الكتاب والسنة والدليل القطعي.

وببيانٍ أوضح، لعلّ المقصود من هذا المقطع من الوصيّة وجوب الاهتمام بترسيخ أصول الأحكام الاعتقادية والعملية وإثبات العقائد الأساسية والأعمال الضرورية لكي لا يكون عندنا فيها أي شكٍ، وأن نتعلّم ضروريات الدين بشكلٍ استدلاليّ فنبرهن على ما هو موجودٌ وما هو معدومٌ. أمّا في الأمور الفرعية والاعتقادات الجزئية، فنكتفي بالبيان الإجمالي ونقول إنّ كل ما ذكره الله سبحانه والنبيّ صلى الله عليه وآله صحيح وحقٌ. ونقلّد غيرنا من المتخصّصين والمراجع في مجال الأحكام الجزئية والصغرى. وكنموذجٍ، إذا سُئلنا ما هو اعتقادكم بخصوص سؤال الليلة الأولى من القبر، نقول إنّ كل ما قاله الله تعالى وذكره نبيّه صلى الله عليه وآله



صحيحٌ. وفي الأحكام العملية أيضًا، نعمل على هذا المنوال. فنثبت ضروريات الدين من خلال البرهان الدقيق والمحكم، ولكن في مجال الأعمال الجزئية والفروع نعمل بأقوال الفقهاء والمتخصّصين في هذا الفن، ولا نتحمّل ما هو أكبر من هذه المسؤولية. ومن الواضح أنّ هذا الطريق في التحصيل والمعرفة يمثّل منهج الاحتياط، وهو بالمقارنة مع المنهج التفصيلي قليل الخطر.

والمنهج الثاني هو أن نسعى لتحصيل الدليل والبرهان في جميع الأمور الاعتقادية والأحكام العملية بالإضافة إلى العقائد الأساسية والأحكام الضرورية، فلا نتخطى مفاد الأدلة ونتيجة البراهين أبدًا، ونغضّ النظر عن قول غيرنا من المتخصّصين ولا نقلّد إلا الدليل، لا صاحب الدليل. وهنا نكتة جديرةٌ بالتأمل حيث إنّ هذا المنهج باليقين يقلّ سلّاكه وقليلًا ما يتحقق. لأنّنا إذا أردنا أن نتعرّف على جميع المسائل الأساسية والعقائد التفصيلية واحدةً بعد أخرى ونثبتها ونجيب عن إشكالاتها ونميّز الصحيح من السقيم فيها، فإنّ هذا عملٌ في غاية الصعوبة ولا يتيسّر للجميع؛ ولا شك بأنّه منهجٌ مثاليٌ وحسنٌ، ولكنّه غير متيسّر لكلّ أحد كما أنّه لا يقدر عليه كل أحد. إنه متيسّر لأصحاب الاستعداد والوقت الكافي.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّه يحتاج إلى الدقة الكافية والضرورية المقترنة بالدوافع الإلهية الصافية والقوية.. فبذلك يمكن للإنسان أن يسلك هذا الطريق. فإنّ هذا المنهج مفيدٌ وضروريٌ جدًا، لكن إذا لم تتهيّأ ظروفه، فلا ينبغي أن نسلكه. بل من الأفضل والضروريّ عند فقدان الشروط اللازمة أن نكتفي بالمنهاج الأوّل وأن نقنع في إثبات العقائد التفصيلية والجزئية بما قاله الله تعالى وذكره نبيّه وأولياء دينه، وأن نتّبع أهل الاختصاص في الأحكام العملية والمسائل الجزئية والدقيقة. وإذا سُئلنا ما هو دليلكم على هذا العمل نقول إنّنا لا نعرف دليله ولكن أهل الاختصاص ذكروه ونحن نعمل به كما في سائر مسائل الحياة عند الرجوع إلى الطبيب والاستعانة بالمهندس والميكانيكي وغيرهم. فحين نعرف طبيبًا حاذقًا لا نحتاج بعدها لتحصيل الدليل على أخذ هذا الدواء أو استعمال ذلك العلاج، فلأنّه متخصّص يتحمّل مسؤولية الأمر وكل ما يقوله نعمل به ونتّبعه.

من هنا، إذا لم تتوفّر لنا شروط سلوك المسير وفق المنهج الثاني يجب أن نعتمد على المنهج الأوّل لكي نحفظ أنفسنا من مخاطر هذا المسير الذي يهدد

حياة الإنسان. فمن لم يقدر على السير، لا ينبغي له أن يغفل عن المخاطر التي تهدّده أثناء مسيره وتجعله عرضةً للضلالة والضياع، وخصوصًا في الزمان الذي تكثر فيه الشبهات وهو لا يقدر على دفعها أو فهم حقيقتها. وعلى أي حال، يمكن أن تعرض على الإنسان مخاطر عديدة في مسير حياته العلمية والعملية، في مجال الاعتقاد والأخلاق، وتسلبه السكينة والقرار. أمّا من كان له الهمّة العالية والنيّة الخالصة والوقت الكافي والاستعداد اللازم وتحرّك على أساس الدوافع الإلهية، فلا إشكال أن يسلك الطريق الثاني ويسعى لدراسة المسائل التفصيلية بحثًا عن أدلّتها لإثباتها ورد شبهاتها.

وهذا ما يحبّه أمير المؤمنين كثيرًا، وهو يقول إنّني أحبّ أن تعمل بما ذكرته لك في وصيّتي وهو تلك التقوى في العلم والعمل والاكتفاء بالواجبات. وأنتم تلاحظون كم لهذه القضية في عالم اليوم من أهمية. فإذا عمل الإنسان بها، فإنه يُصان من الكثير من الانحرافات. وأولئك الذين ابتلوا بالانحرافات وما زالوا، إنّما حدث لهم ما حدث لأنّهم لم يعملوا بهذه الوصية ولا يعملون؛ أو إنّهم يعملون ولكن لا على أساس دوافع إلهية بل يتبعون مناهج خاطئة؛ أو يتسرّعون في طي مراحل تحصيل العلم ويفرطون في ذلك. وفي بعض الأحيان، فإنّهم لا يحصّلون المقدّمات العلمية الضرورية، أو يدخلون إلى ميدان العمل من دون إرشاد وهداية الأستاذ والمتخصّص؛ فكلّ واحدٍ من هذه الأسباب يكفي لوحده لانحراف الإنسان.

لهذا، يجب أن نحدّد منذ البداية تكليفنا بشكلٍ واضحٍ ودقيق، ثم نؤمّن الاستعداد والهمة والوقت الكافي والتفرّغ اللازم للتحصيل التفصيلي للعلوم، والأهم من الجميع تلك النيّة الخالصة والدافع الإلهيّ بعيدًا عن الأهواء والهوس، ونطلب العون من الله جلّ جلاله والهداية. وإلّا فمن الأفضل أن لا نخطو خطوةً واحدة.

وفي الخلاصة: «**واعلم مع ذلك يا بنيّ أن أحبّ...**»، ففي الدرجة الأولى، التقوى الإلهية وإطاعة الله سبحانه التي هي وصية جميع الأنبياء والأولياء، وفي المرحلة اللاحقة الاكتفاء بما أوجبه الله تعالى: «**والاقتصار على ما فرضه الله عليك...** ». إنّ معنى هذه الجملة - بالالتفات إلى ما سيأتي بالوصية - هو أنّك إذا لم تكن صاحب همّةٍ مناسبة ونية صافية ووقتٍ كافٍ للتحقيق، أو لم تتوفّر لك وسائل التحقيق وإمكانات الدراسة على يدي الأستاذ وأمثاله، فلا ينبغي أن

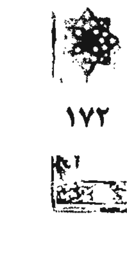


تعمل في مجال دراسة هذه الأمور التفصيلية والتحقيق فيها، بل عليك أن تكتفي بتلك الاعتقادات الإجمالية وتقلّد في مجال العمل. وبعبارةٍ أخرى، يجب أن تحدّد وظيفتك وتعلم ما يريده الله منك وما أوجبه عليك فتعمل به وتتّبعه. فالواجب هنا هو أن تتعلّم تلك العقائد الأساسية وضروريات الدين بشكلٍ جيد، وتعلم أنّ ما زاد عن ذلك مما ليس لك القدرة عليه أو لم تتوفّر الظروف والشروط فيه ليس واجبًا عليك ولا ينبغي أن تسعى نحوه، لأنّه يؤدّي إلى الخسران والانحراف.

وفي النهاية، فإنّ المطلب الثالث الذي يحبّه أمير المؤمنين عليه السلام ويحبّ أن نعمل به هو اتّباع ما وصل إليه السلف الصالح: «**والأخذ بما مضى عليه الأوّلون من آبائك والصالحون من أهل بيتك**». فهم لم يغفلوا عمّا أنت تفكّر به من شؤون حياتك الأساسية. فقد فكّروا في حياتهم وعملوا بعد الفحص والتحقيق الكامل ما ينبغي أن يُعمل ووصلوا إلى ما ينبغي الاعتقاد به. فآباؤك ومن مضى من الصالحين من أهل بيتك ممّن تعتمد عليه وتثق به، قد وصلوا إلى هذه النتائج بعد التحقيق وعملوا بما عرفوه وتركوا ما لم يفهموه أو يدركوه. وعلى أيّ حال، فإنّ نهج السلف الصالح قابلٌ للاعتماد وهو طريقٌ موثوقٌ يوصي أمير المؤمنين عليه السلام بالأخذ به.

شروط تحصيل العلم

طُرح إلى الآن ثلاثة طرق للحياة السليمة: الأول تحصيل العلم في الأصول العقائدية والمعارف العملية الأساسية والتقليد في المسائل الجزئية، الثاني الاعتماد على سيرة السلف الصالح، والثالث تحصيل العلم والمعرفة في جميع الأصول والفروع. فمن لم يقنع بالطريق الأوّل والثاني ولم يقبل باتّباع السلف الصالح وسعى من أجل التعرّف على جميع المسائل من خلال التحقيق ودراسة العقائد بالبرهان والدليل ونيل الأحكام والأفكار من خلال الاجتهاد، فعليه أن يلتفت إلى ما أوصى به أمير المؤمنين بشكلٍ تام وذلك بما بيّنه من شروط تحصيل المعرفة حيث قال: «**فليكن طلبك ذلك بتفهّمٍ وتعلّمٍ لا بتورّط الشبهات وعلوّ الخصومات**». لهذا، ينبغي أن نفسّر الكلام في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال ونستمع إلى ما ذكره من شروط تحصيل العلم.



١. النيّة الصافية

إنّ أول خطوةٍ وشرطٍ على طريق تحصيل العلم هو النيّة الصافية. ففي البداية، يجب أن تُصلحوا نواياكم ولتكن غايتكم من تحصيل العلم مجرّد الفهم. واحذروا أن تصبح نيّتكم الدخول في البحث والجدال والخصومة. فالتفتوا جيدًا إلى نواياكم وتفحّصوا فيما إذا كنتم تتعلّمون من أجل الفهم أو من أجل الدخول في النزاعات والمباهاة. وحين تحرزون هذا الشرط على النحو التام والكامل ولا يعود همّكم سوى فهم الحقيقة، من دون أي أغراض أو أمراض؛ عندها انتقلوا إلى تحصيل الشروط الأخرى. وفي غير هذه الحالة، فإنّكم ستسقطون في الخطوة الأولى ولن تتقدّموا نحو الأمام. فإنّ تحصيل المعرفة لأغراضٍ فاسدة لا يُعدّ تحصيلًا للعلم بل هو حشو المعرفة.

٢. الاستعانة بالله والتوكّل عليه

الشرط الثاني لتحصيل العلم هو الاستعانة بالله والتوكّل عليه في بداية التحصيل وأثنائه: «**وابدأ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك عليه والرغبة إليه في توفيقك**»؛ فحيث إنّ المخاطر التي تحيط بمسلك تحصيل العلم التفصيليّ والتحقيقيّ في جميع العقائد والأحكام العمليّة كثيرة، فينبغي أن نستعين بالله ونخلص نيّاتنا لكي نميّز الحقّ من الباطل في المعارف، وندرك الأحكام الواقعيّة ونعمل بها. لهذا، فإنّ الشرط الثاني هو الاستعانة بالله والاعتماد على عنايته، فمن دونها لن يصل أحد إلى الغاية المنشودة. ولا شك بأنّه كلّما أصبح الهدف أكثر قداسةٍ، أصبح الاعتماد على مقام الربوبية الأقدس أكثر لزومًا وأعمق تأثيرًا. ولنلتفت إلى أنّ الأمر لا ينحصر في بداية التحصيل، بل ينبغي أن تستمرّ الاستعانة بالله على طول الخطّ وعلى امتداد فترة التحصيل. ففي كل لحظة من لحظات التحصيل، وفي كلّ مطلبٍ من مطالب البحث والتحقيق، لا ينبغي أن نغفل عن الاستعانة الله والتوكّل على الحقّ تعالى.

٣. اجتناب الأدلّة المضلّة

الشرط الثالث لتحصيل العلم هو اجتناب الشبهات والابتعاد عن الأساليب والأدلّة



والمناهج المليئة بالشبهات: «**وترك كلّ شائبةٍ أدخلت عليك شبهةً أو أسلمتك إلى ضلالةٍ**». فلا ينبغي الدخول في الطرق المنحرفة، التي ترمي بكم في وادي الشبهات والضلالة. لهذا، ينبغي لكم التمسّك بالأدلّة والشواهد التي لا تؤدّي إلى ضلالتكم. بالطبع، إنّ الدخول إلى ميدان طلب العلم يتطلّب إحراز هذه الشروط؛ مثلًا عليكم أن تكونوا مطمئنّين ومتيقّنين بأنّ قلوبكم حقًّا صافية ونيّتكم طاهرة، وأن تكونوا على يقين بأنه لا يوجد في نيّتهكم أيّ شائبةٍ، وبأنّ هدفكم هو فهم المسائل. فإذا كان القلب حقًّا صافيًا ونيّته خالصة وخاليًا من الشوائب وكان هدفكم الوحيد هو الفهم، واعتمدتم في كل خطوة تخطونها على عناية الله وتوفيقه، وسلكتم الطريق الصحيح واعتمدتم الدليل السليم والبرهان المحكم، فاعلموا أنّ هذا النمط من التحصيل سيرفع حجب الجهل بالواقع ويوصلكم إلى الحقيقة. وهذا العلم هو نورٌ إلهيّ.

٤. الهمّة العالية والتصميم االقاطع

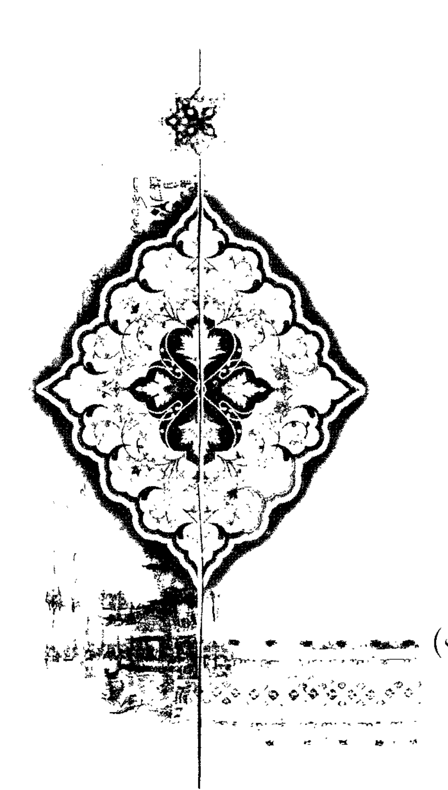
وبعد تحقّق الشروط السابقة، يجب أن تتّخذوا قراركم بحزم وتصميمٍ قاطع، وأن تنهضوا لتوحيد قواكم وتركيزها باتّجاه تحصيل العلم. فحين تقرّرون السَير في طريق تحصيل العلم، لا ينبغي أن تهدروا قواكم في الأعمال الأخرى، بل ينبغي أن يكون كل همّكم وغمّكم في إدراك الحقائق وتحصيل العلم. فينبغي أن تنحصر الهمّة في سلوك حلّ المسائل وإدراك الحقائق واجتناب كل ما يشتّت الخاطر ويصرفه عن ذلك. والمقصود من هذه التعابير «**تمّ رأيه**»، أو «**أجمع عزمه**»، أو «**اجتمع رأيه**»، هو الوصول إلى القرار الحازم وتقوية العزم.

لهذا، «**فانظر فيما فسّرت لك وإذا لم يجتمع لك رأيك على ما تحبّ من نفسك وفراغ نظرك وفكرك فاعلم أنك إنّما تخبط خبط العشواء وتتورط الظلماء**»؛ فعليك أن تفكّر وتتأمّل في الشروط التي ذكرناها فيما يتعلّق بتحصيل العلم والتحقيق مفصّلًا لتطّلع على الحقائق. فإذا لم تجتمع فيك هذه الشروط، ولم تتمكّن من تأمينها، فلا تتقدّم نحو ميدان التحصيل والتحقيق. وإذا لم تمتلك التفرّغ اللازم أو الهمّة المطلوبة أو الشروط الضرورية للتحقيق والدراسة، فلا تسعى في هذا الطريق المليء المخاطر. ومع عدم توفّر هذه الشروط الضرورية، تكون كمن دخل في صحراءٍ مقفرة لا يقدر على الاهتداء إلى الطريق الموصل وتمييز الجادة عن



الحفرة. واعلم يقينًا أنّه في حال عدم تحقّق هذه الشروط، ستكون من أهل المذلّة. وبدلًا من إدراك الحقائق، ستبتعد عنها كثيرًا. وعليك أن تجتنب الدخول في هذا الطريق لأنّ تحصيل العلم الديني لا ينسجم مع الشبهة والزلّة: «**ليس طالب الدين في خبطٍ ولا خلطٍ [ليس طالب الدين من خبط ولا خلط]**».

فالذي يقع في الخبط والخطأ، أو يلوّث نيّته ويتحرّك بالدوافع الشيطانية والأهواء النفسانية، لا يمكنه أن يسلك طريق تحصيل المعارف الدينية ويكون طالبًا للدين، لأنه سيضلّ حتمًا. وفي هذه الصورة: «**الإمساك عند ذلك أمثل**». ولعلّه بسبب أهمية هذه المطالب، يكمل أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحمد والشكر الإلهيّ ويختم هذا القسم من وصيته بالدعاء: «**وإنّ أول ما أبدؤك به بذلك وآخره أني أحمد إليك الله إلهي وإله الأولين والآخرين و....**»، وفي الواقع، فإنّ أمير المؤمنين بهذا الحمد والثناء يشرع في القسم المفصّل من هذه الوصيّة. وينبغي الإشارة إلى أنّ بعض النسخ كنسخ **نهج البلاغة** لم تدرِج هذه الجمل، بل أُدرجت في كتاب **بحار الأنوار**.

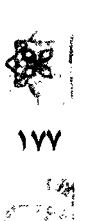


الدرس الثالث عشر

حقيقة الدنيا

- الدنيا في نظر الناس
  ١. النظرة الحيوانيّة (الدنيا هي الهدف)
  ٢. الدنيا دار ممرّ (معبر الدنيا)
- النظرة الحقّانيّة إلى الدنيا
- الدنيا في نظر علي عليه السلام
- نتائج النظرة الحقّانيّة







«يا بُنَي قد أنبأْتُكَ عَنْ الْدنيا وحالِها وانْتِقالِها وزوالِها بِأَهْلِها، وأنبأْتُكَ عَنْ الْآخرة وما أعدَّ الله فيها لأهلِها، وضَربْتُ لكَ أَمْثالًا لتعْتَبِرَ وتحْذوَ عليها الْأمْثالَ إنّما مَثَلُ مَنْ أبْصَرَ الْدنْيا كَمَثَلِ قَوْمٍ سفْرٍ نَبا بِهِمْ مَنْزِلٌ جدْبٌ فَأمّوا مَنْزِلًا خَصيبًا فاحْتَمَلُوا وَعْثاءَ الْطريقِ وفِراقَ الْصديقِ، وخُشونَةَ الْسفَرِ فِي الْطّعامِ والْمَنامِ ليأتوا سِعَةَ دارِهِمْ ومَنْزِلَ قَرارِهِمْ فلَيْسَ يَجِدونَ لِشيءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَمًا ولا يَرَوْنَ لِنَفَقَتِهِ مَغْرَما وَلا شَيْءُ أَحَبُّ إِلَيْهِم مِمّا يُقَرِّبُهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَمَثَلُ مَنْ اغْتَرّ بها كقَوْمٍ كانوا فِي مَنْزِلٍ خَصِيبٍ فنبا بِهِمْ إلى مَنْزِلٍ جَدْبٍ فلَيْسَ شَيءُ أكْرَهَ إلَيْهِم، ولا أهْوَلَ لَدَيْهِم مِنْ مُفارَقَةِ ما هُمْ فيه إلى ما يهْجُمون عليه، ويصيرونَ إليه»».

كان القسم الأوّل من وصيّة مولانا أمير المؤمنين عليه‌السلام لابنه الإمام الحسن عبارةً عن مواعظ مختصرة حيث قمنا بتفسيرها وشرحها بمقدار ما وفّقنا الله تبارك وتعالى. والقسم الثاني منها هو تلك المواعظ التفصيلية وفي بعضها يبسط الكلام والشرح فيما يتعلّق بما ورد في القسم الأوّل. وكما أشير سابقًا، فإنّ النسخ التي أُدرجت هذه الوصيّة تختلف فيما بينها كثيرًا. وطبق نسخة **بحار الأنوار** التي نعتمد عليها هنا، فإنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام بعد الحمد والثناء على الله يلفت الجميع إلى موقع الإنسان في الحياة الدنيا وارتباط ذلك بالحياة الأخروية.

الدنيا في نظر الناس

إذا أراد الإنسان أن يتّخذ قرارًا واعيًا ويتّخذ الطريق الصحيح، عليه أن يكون ملمًّا ببعض الأمور إلمامًا كافيًا، بالإضافة إلى ذلك عليه مراعاة بعض الشروط. ففي هذا

المجال، الشرط الأوّل هو أن يعرف قدره. فإذا لم يدرك الإنسان ذلك ولم يعرف من أين جاء وإلى أين سيذهب، وما هو الهدف الذي خُلق لأجله، وما هي العوائق التي ستعترضه، فإنّه لن يقدر على اتّخاذ القرار المناسب والدقيق. فمن دون الوعي والمعرفة التامّة والعناية الكاملة بالأمور المذكورة، فإنّ قراره سيكون أعمى ولن يوصله إلّا إلى الضلالة. فالإنسان إنّما يقدر على اختيار الطريق الصحيح واختيار القرار العاقل والدقيق حين يفهم أين هو وما هي موقعيّته وما هي الدنيا وكيف ينبغي أن ينظر إليها، لأنّ جميع هذه الأمور لها تأثيرٌ واضحٌ على كيفيّة حياته. وخصوصًا طبيعة نظرته إلى الدنيا وكيفية التعامل معها كونها محلًا لعيشه؛ فإنّ هذه المعرفة تؤثّر تأثيرًا كبيرًا على عمله ومساره. لهذا، لا بأس بأن نشير ها هنا إلى أهمّ الاعتقادات المتعلّقة بالدنيا ونقوم بدراسة تأثيرها على سلوك الإنسان.

١. النظرة الحيوانيّة (الدنيا هي الهدف)

لا شك بأنّ نظرة الناس إلى طبيعة حياتهم وموقع وجودهم في هذه الدنيا متفاوتة. فكأنّ البعض لا ينظرون إلى الدنيا بأعينٍ مفتوحة، لهذا لا يمكنهم أبدًا أن يبيّنوا نظرتهم للدنيا وموقعهم فيها.. فإنّهم أشبه بالنيام أو السكرة لا يتوجّهون أساسًا إلى منشأ وجودهم وطبيعة مسارهم. فأحيانًا يشعرون بالجوع، فيسعون لإشباع بطونهم؛ وأحيانًا يفكّرون في إرواء عطشهم. وفي بعض الأيام، يكون همهم الوصول إلى ذلك الكرسيّ أو المقام من دون أن يلتفتوا إطلاقًا إلى موقعهم وما سيأتي عليهم في الغد وأين كانوا في الأمس وأمثال ذلك. فواقع حياة بعض الأفراد لا يتجاوز مثل هذه الأمور التي تدور حول التنعّم بمتاع الدنيا كما هو حال الأنعام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1]. فمثل هؤلاء ينبغي تسريحهم ليأكلوا كما تأكل الأنعام، لأنّهم لا يفهمون من الحياة شيئًا، فكيف باتّخاذ القرارات العاقلة والمدروسة. فعيشهم عيش الحيوانات، إذا شعروا بالجوع ذهبوا إلى المعلف، وإذا شعروا بالعطش ذهبوا إلى الماء، وإذا تعبوا استغرقوا في النّوم، حتّى إذا شعروا مجدّدًا بالجوع والعطش تحرّكوا لإشباع حاجاتهم؛ وهكذا

(١) سورة **محمّد**، الآية ١٢.



يأتي اليوم الآخر وما بعده وتدور عليهم دائرة الحياة. فبالهم خالٍ من التفكّر في المبدأ والمعاد والهدف والمصير وما الذي ينبغي أن يفعلونه، فلا يوجد مكان لهذه المسائل في حياتهم. فحال أمثال هؤلاء جليّ وحسابهم واضح. ولا يُتوقع أي شيء من أمثال هؤلاء النيام والسكرة والمتّصفين بصفات الحيوانات الذين لا يمتلكون الشعور والإحساس، لأنّهم لا يعقلون ولا يتفكّرون: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]؛ فهؤلاء ليسوا أسوأ البشر فحسب، بل هم أسوأ الكائنات الحيّة، وتوقّع أي شيء منهم يُعدّ عبثًا.

٢. الدنيا دار ممر (معبر الدنيا)

إذا تجاوزنا الطائفة الأولى فإنّنا نشاهد طائفةً أخرى يفكّرون نوعًا ما بشأن أنفسهم وأوضاعهم والعالم المحيط بهم. فهؤلاء يدركون للوهلة الأولى أنّ هذا العالم في حالة حركةٍ وعبور. ولأجل بيان حال هؤلاء نفترض شخصًا كان نائمًا في الطائرة، فاستيقظ فجأةً ونظر من حوله فوجد أنّ قسمًا من المسافرين يأكلون وآخرين يشربون وبعضهم يطالع وغير ذلك...ثمّ نظر من النافذة إلى الخارج فعرف أنّه قد ركب طائرةً وهي تحلّق فوق المحيطات من دون اختياره وإرادته، لأنّ قبطان الطائرة هو شخصٌ غيره ولا يُتوقّع من الآخرين أن يقوموا بشيء. الطائرة تتحرّك وفق إرادة قائدها وتخرق عنان السماء وتحلّق فوق البحار، وشاء أم أبى هو أحد المسافرين في هذه القافلة. فإذا أراد هذا الشخص أن يرجع إلى نفسه ويتفكّر من أين جاء وإلى أين يذهب وكيف تتحرّك الطائرة فإنّ الوقت يمرّ؛ فهو مثلًا لا يقدر على إيقاف الطائرة في الجو من أجل أن يتفكّر، وحتى لو تفوّه بمثل هذا الكلام، فإنّ الجميع سيسخرون منه، لأنّهم شاؤوا أم أبوا يعلمون أنّ الطائرة تتحرّك بسرعةٍ كبيرة. لهذا، فإنّ هذه الطائفة تدرك في الدرجة الأولى أنّها قد ركبت مركبًا سريع الحركة من دون اختيارها ولا يمكنها إيقافه. وبعد أن يدركوا هذه الحركة يسعون لمعرفة المقصد والموقع الذي هم فيه وإلى أين سيصلون.

هذا التشبيه والتنظير يجري على الدنيا وواقع الحياة الدنيا، وينطبق انطباقًا

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢٢.

كاملًا على ماهيّة الدنيا والحياة الدنيويّة. فهناك من الناس من أدرك جيدًا أنّه في هذه الدنيا كالراكب الذي لا يقدر على إبطاء مركبه أو إيقافه كي يتفكّر فيما ينبغي أن يفعل! فإنّه لا يستطيع مثلًا أن يأمر يوم الأربعاء بالتوقّف والسكون ليتفكّر قليلًا ويتّخذ القرار المناسب! فإنّ مركب الزمان يتحرّك بسرعةٍ من دون أي توقّف ولو للحظةٍ واحدة. فأنتم لا تستطيعون أن تأمروا الصباح أن لا يصير ظهرًا والظهر ألّا يصير مساءً. فشئتم أم أبيتم إنّ الزمان ينقضي وهكذا هو عمر الإنسان في انقضاءٍ دائم. إنّ أي إنسانٍ يمكنه من النظرة الأولى أن يدرك أنّ طبيعة العالم والدنيا التي يعيش فيها هي طبيعةٌ متحرّكة لا تعرف السكون.

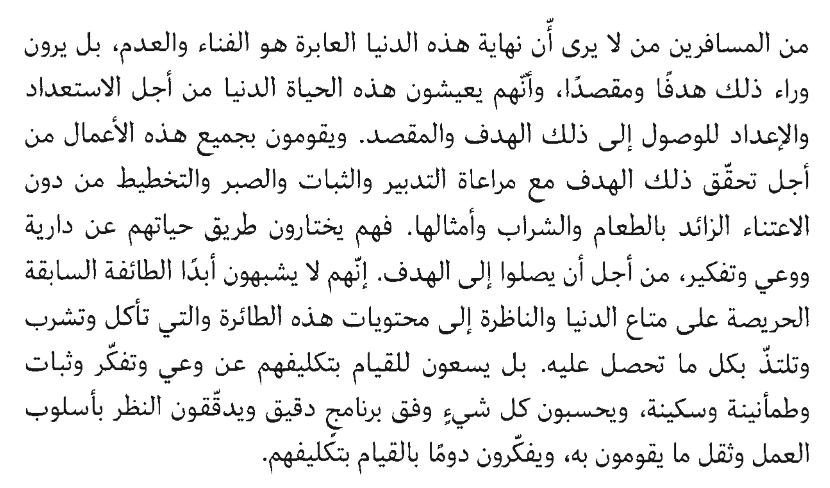
وبعد إدراك هذا التحوّل والعبور يبرز هذا السّؤال: فمن أين جاء هذا الوجود وإلى أين هو صائر؟ فإلى أين تسير بنا طائرة الوجود ومن أين انطلقت؟ وببيانٍ آخر، علينا أن نفكّر أين نحن وإلى أين نذهب؟ وما هي عاقبة أعمالنا ومصيرنا؟ «رحم الله امرئٍ علم من أين وفي أين وإلى أين»؛ ولكن بعد معرفة أولى الحقائق الوجودية وإدراك عبور وانقضاء هذا العالم، فإنّ إدراك الناس لمراتب الوجود الأخرى يتفاوت كثيرًا. ونشير ها هنا إلى بعض هذه النظريات والرؤى.

أ- العبور من عالمٍ عامر إلى عالمٍ خرِب بلا عاقبة

من المهم أن نرجع إلى المثال السابق من أجل بيان عقائد الناس فيما يتعلّق بالدنيا العابرة. فلو دقّقتم في ذلك المثال بعناية، لالتفتم إلى أنّ المسافرين المتواجدين في الطائرة على نوعين: منهم من يعتقد أنّ هذه الدنيا العابرة ستصل إلى النهاية وتفنى، ولهذا فإنّهم لا يفكّرون إلا بتحصيل المتاع والطعام اللذيذ والشراب الممتع، لأنّهم يتصوّرون أنّ هذه الدنيا ستنتهي يومًا، وأنّ شرابها وطعامها محدودٌ، لهذا ينبغي أن نسبق الآخرين في الاستمتاع بها والحرص عليها. علينا أن نتزوّد مهما أمكننا من لذائذها، لأنّها ستنتهي ولن يبقى فيها شيء. ولا شك بأنّ عاقبة مثل هذه الأفكار والأعمال واضحةٌ منذ البداية، لأنّها لن تكون سوى البطلان. فهي ترى كل الأشياء محدودةً، وأنّ نهاية العالم الفناء والعدم. فعند هؤلاء، الوجود ليس سوى هذه الأيّام المعدودة للدنيا، وعليهم اغتنامها وحصر تفكيرهم في كيفيّة تحصيل لذّاتها، لأنّهم لا يتصوّرون وراء هذه الدنيا إلّا العدم، وهو ما سينتقلون إليه حتمًا.



ب - عبور الدنيا إلى دار القرار



من المسافرين من لا يرى أنّ نهاية هذه الدنيا العابرة هو الفناء والعدم، بل يرون وراء ذلك هدفًا ومقصدًا، وأنّهم يعيشون هذه الحياة الدنيا من أجل الاستعداد والإعداد للوصول إلى ذلك الهدف والمقصد. ويقومون بجميع هذه الأعمال من أجل تحقّق ذلك الهدف مع مراعاة التدبير والثبات والصبر والتخطيط من دون الاعتناء الزائد بالطعام والشراب وأمثالها. فهم يختارون طريق حياتهم عن دارية ووعي وتفكير، من أجل أن يصلوا إلى الهدف. إنّهم لا يشبهون أبدًا الطائفة السابقة الحريصة على متاع الدنيا والناظرة إلى محتويات هذه الطائرة والتي تأكل وتشرب وتلتذّ بكل ما تحصل عليه. بل يسعون للقيام بتكليفهم عن وعي وتفكّر وثبات وطمأنينة وسكينة، ويحسبون كل شيءٍ وفق برنامجٍ دقيق ويدقّقون النظر بأسلوب العمل وثقل ما يقومون به، ويفكّرون دومًا بالقيام بتكليفهم.

وفي بعض الأحيان، يخطّئون الطائفة الأولى ويلومونها رغم أنّ جواب تلك الطائفة واضحٌ حيث ستقول طالما أنّنا بعد أيام عدّة سنفنى، فلنغتنم على الأقلّ هذه الفرصة لنستفيد قدر الإمكان من متاع هذه الدنيا ولذاتها! أمّا الطائفة الثانية فتعرّف نفسها على هذا النحو: نحن لدينا هدف في هذه الحياة الدنيا ونريد أن نصل إليه بأسرع ما يكون، فعلينا أن نعدّ أنفسنا للوصول إلى ذلك الهدف، وها نحن نعدّ اللحظات وننتظر ذلك المقصد ونريد الوصول إلى أهلنا وعيالنا، ونحن في شوقٍ لرؤيتهم؛ لكن الانشغال بالمأكل والمشرب يمنعنا من القيام بما ينبغي أن نقوم به ويحرفنا عن مسارنا.

النظرة الحقّانيّة للدنيا

لقد مرّ معنا سابقًا أنّه يمكننا الإشارة إلى ثلاثة تصوراتٍ ونظريات بخصوص حقيقة الدنيا. فكل إنسانٍ يختار واحدةً من هذه الرؤى ويمشي على أساسها وينظر إلى حياته وفقها. فإمّا أن يقبل بالرؤية الأولى والتي هي في الواقع خارج إطار التفكير والرؤية بل هي عبارة عن الحياة الحيوانية، وإمّا أن يختار الرؤية الثانية حيث تكون الدنيا معبرًا إلا أنّها أرض العمران وسوف ينتقل منها إلى العدم والفناء، لهذا ينبغي أن يشبع نفسه قدر الإمكان من هذه الدنيا. وإمّا أن يختار الرؤية الثالثة وهي

أن الدنيا عبارة عن دار الحركة إلى دار القرار. فما لم يدرس الإنسان هذه الاعتقادات واحدةً واحدة، لا يمكنه أن يتّخذ القرار الصحيح. لهذا، من الطبيعيّ أن يضع الطريق الأول جانبًا، لأنه لا يُعّد عقيدةً ورؤية بقدر ما هو حركة حيوانية لا أكثر، فيبقى عالقًا بين الطريقين الآخرين وعليه أن يختار بينهما. فإمّا أن يختار فناء الدنيا وانعدام الحياة وفناء كلّ الأشياء. وإمّا أن يختار الرؤية الثالثة التي تعني أنّ هناك هدفًا في غاية الأهمية ينبغي أن نصل إليه. فالمقصد هو منزلٌ عامر حيث ينتظر الأخلاء الأوفياء قدومنا إليه بمنتهى العشق والمحبة، ونحن كذلك في حال انتظار لتلك اللحظة التي نصل فيها إلى ذلك المقصد.

ومن المؤكد أنّ على الإنسان أن يتفحّص الأدلّة التي تقدّمها كلّ طائفةٍ بدقّة، وعلى أساس ذلك يختار ما ينبغي. ولا شك بأنّ الأمر سينتهي شئنا أم أبينا باختيار إحداهما، فإمّا أن نكون مع الطائفة الثانية أو مع الطائفة الثالثة. فالجدير بنا أن نتعرّف على خصائص هاتين الطائفتين:

أولئك الذين يتصوّرون أنّ كل ما هو موجود في هذا الوجود هو الحياة الدنيا بأيامها المعدودة ولا شيء آخر، وأنّهم بعد نهاية هذه الحياة ينتقلون إلى العدم المحض، وأنّ البشر ينبغي أن يحرصوا على تحصيل لذائذ هذه الحياة دون الاهتمام بسواها ودون أن يتفكروا بما سيأتي، لا شك أنّهم سيسعون دائمًا لإرضاء غرائزهم ولن يتفكروا إلا بمأكلهم ومشربهم ولذائذهم الحيوانية الموجودة في هذا العالم. فتصوّرهم هو أنّ هذه الدنيا ستفنى وسيفنى معها كل شيء.

وفي المقابل، هناك من يعتقد أنّ هذه الحياة عبارة عن سفرٍ ينتهي عند مقصدٍ موجودٍ. فهذه الدنيا هي دار الحركة ودار السير ودار السفر وسوف تنتهي هذه الحركة عند دار القرار، وهو محل السكون والطمأنينة، وهو المقصد النهائي والهدف الأساسي. وبالمقارنة بهذه الدنيا فإنّه الهدف النهائي والحياة الخالدة وما هو موجودٌ في هذا العالم من حياةٍ إنّما هو الموت والفناء. فهذه الرؤية تقف مقابل الرؤية الأخرى وتواجه أفكار الذين يتصوّرون أنّ الحياة تنحصر بهذه الحياة الحالية وأنّ هذا العالم سيزول بعد مدّة ليحلّ محلّه الموت والفناء.

وعلى أي حال، هناك من يتصوّر أنّنا بعد هذه الحياة الدنيا سنتّجه نحو الموت والعدم. وفي المقابل، هناك من يعتقد أنّ هذه الحياة هي معبرٌ نحو



الحياة الخالدة. لهذا يقولون إنّنا الآن في قبضة الموت وعمّا قريب سيطبق علينا فنصل بعدها إلى المقصد حيث هناك دار الحياة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]؛ فالحياة الحقيقية هناك: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[2]. وهذه الآية النورانية تصرّح بشكلٍ واضح أن الحياة الحقيقية ليست سوى تلك الحياة.

وكما مرّ، فإنّ هذين النوعين من الرؤى يؤدّيان إلى ظهور نوعين من السلوك يختلفان بشكلٍ تام. فالرؤية الأولى تجعل أصحابها حريصين وطمّاعين لا يفكّرون إلا باللذات المادّية. والرؤية الأخرى تجعل أهلها من أهل المعنويّات الذين لا يهمّهم الأكل والشرب، ولا يشغلهم ذلك.

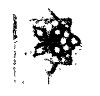
ويبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا القسم من كلامه مثالًا يشبه ما ذكرناه، حيث يقسّم الناس في هذه الدنيا إلى فئتين: الفئة الأولى من عرفت الدنيا معرفة جيّدة وأدركت حقيقتها؛ فهؤلاء مثلهم كمثل سُفرٍ يرون أنفسهم كأنهم يسافرون في صحراءٍ مقفرة خاليةٍ من الماء والكلأ ليصلوا عما قريب إلى الأرض المليئة بالثمار والعامرة. فكل همّهم هو أن يؤمّنوا الوسيلة الأفضل للسفر ليصلوا سالمين وبصورة أسرع إلى المقصد. وإذا أنفقوا شيئًا لا يكون ذلك ثقيلًا عليهم، لأنّ هدفهم هو المقصد ولا غير. فإذا علموا أنّ هناك مركبًا أسرع، سعوا جهدهم للحصول عليه. وإذا وجدوا أنّ الحصول على هذا المركب يحتاج إلى وسيلةٍ أخرى فإنّهم يسعون جهدهم لتأمين تلك الوسيلة. كل ذلك بسبب ما يعيشونه من حالة المسارعة وهم يترقّبون الوصول إلى المقصد. فإذا تطلّب الأمر أن ينفقوا ويبذلوا الغالي والرخيص فإنّهم لا يتوانون أو يقلقون. كل ذلك يفعلونه وهم سعداء، لأنّهم لا يرون هدفًا آخر غير الوصول إلى ذلك المقصد الأعلى.

وفي المقابل، هناك من يرى الدنيا عبارة عن ذلك المكان العامر الذي سينتهي بالموت وكأنّهم سينتقلون بعدها إلى أرضٍ مقفرةٍ، لهذا فإنّهم لا يريدون أن يتعبوا أنفسهم ولا يهمّهم سوى الالتذاذ، وما داموا في سفرٍ فإنّهم يريدون أن

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٤.

(٢) سورة **الفجر**، الآية ٢٤.





يستمتعوا. ذلك لأنّهم يرون الموت عبارة عن الفناء المحض والعدم الكامل وبعده لا يوجد شيء ولا يبقى شيء. ومثل هؤلاء يرون الدنيا فرصة لا بدّ من اغتنامها من أجل الاستفادة القصوى من مائها وعلفها.

الدنيا في نظر عليّ (ع)

وهنا، يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه تلك الرؤية الحقيقية من بين تلك الآراء المتضادّة بشأن الدنيا: «**يا بني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها وزوالها وانتقالها بأهلها...**»؛ فالدنيا لا يمكن أن تبقى. وفي المقابل، هناك عالم الآخرة المليئ بالنعم واللذات والبهجة التي أعدّها الله لأوليائه. وإذا أردتم أن تقارنوا عالم الدنيا بالآخرة، فإنّا نبيّن لكم أمثلةً تستفيدون منها. ومن بين هذه الأمثلة المعبّرة، فكّروا واختاروا القدوة لكم، وبعدها عيشوا حياتكم كما تريدون. فبالإدراك الصحيح اختاروا النموذج الذي تريدون واعملوا على أساسه. فما هو هذا المثل؟ «**إنّما مثل من أبصر الدنيا كمثل قومٍ سفر نبا بهم منزلٌ جدْبٌ فأمّوا منزلًا خصيبًا...**»؛ أولئك الذين ينظرون إلى الدنيا ببصيرتهم ويعرفون حقيقتها هم الذين يرون أنفسهم في حالة سفرٍ كأنّهم في قافلةٍ تعبر بهم الأراضي المقفرة والصحاري القاحلة إلى الوطن الأخضر والمليئ بالنعم وسوف يصلون إليه عمّا قريب. فلأنّهم يرون ذلك المقصد مثاليًا، فإنهم يتحمّلون جميع الصعاب ويتقبّلونها براحةٍ وبصدرٍ رحب. فبالنسبة لأمثال هؤلاء، لن يكون فراق الأحبة صعبًا لأنّ أحبابهم الواقعيّين هم في ذلك الوطن الذي سيرتحلون إليه. فإن كان يفصلهم عنهم عدة أيام، فهم ليسوا قلقين، لأنّهم يؤمنون بضرورة أن يقدّموا ويفعلوا كل ما ينفع في ذلك المنزل الأبدي.

«**وخشونة السفر في الطعام والمنام**»؛ ومن الطبيعي أنّ السفر لا يشبه الحضر والإقامة في المنزل من حيث التعب والراحة. وكذلك لا يُتوقّع في السفر أن يكون نوم الإنسان وغذاؤه واستقراره كالحضر. ولكن هذه الفئة تتحمّل كل هذه المشقّات، لأنّهم يعلمون أنّهم عما قريب سينتقلون إلى ذلك المنزل الواسع والدار الأبدية: «**ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم فليس يجدون لشيء من ذلك ألمًا ولا يرون لنفقته مغرمًا ولا شيء أحب إليهم مما يقرّبهم من منزلهم**»؛ لذا فإنّهم لا يتألّمون ولا ينزعجون من هذه الصعاب. كحال من يريد أن يلاقي محبوبه؛ هل يشعر بالتعب؟! وإذا تعب بدنه فإنّه لا يشعر بذلك. وإذا أنفقوا في هذا المسير



فإنّهم لا يرونه غرامًا. لا يتخيّلون أنّهم يخسرون، بل يشعرون بالفخر والراحة، وهم في طريق الوصول إلى محبوبهم مستعدّون لبذل أي شيءٍ. فقد اجتمعت هممهم على همّة واحدة وأفكارهم على فكرة واحدة وهي الوصول إلى المنزل والمقصد. وبالنسبة إليهم لا يوجد شيءٍ أحب إليهم مما يقرّبهم إلى منزل المحبوب. هذا بيان حال أولئك الذين عرفوا حقيقة الدنيا.

وفي المقابل، عقيدة أولئك الذين نظروا إلى ظاهر الدنيا وخُدعوا بها وتعلّقت قلوبهم بظاهرها وأعجبتهم، كالذين خُدعوا بتلك المادة المرّة التي يغلّفها الطعم الحلو واللذيذ، حتى إذا أكلوها علموا كم هي مرّة. هكذا هم أهل الدنيا بفكرهم القاصر وحماقتهم يعلّقون قلوبهم بظاهرها ويظنّون أنّها هي المقصد الواقعيّ، غافلين عن أنّ هذا الظاهر الجذّاب والطعم اللذيذ، ليس في الحقيقة إلا السمّ الزعاف. فقد نظروا إلى ظاهر الدنيا وذاقوا لعابها، ولكنّهم لم يدركوا باطنها فخدعتهم وأبعدتهم عن الحقيقة.

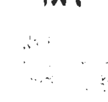
وإحدى العبارات التي استُعملت في القرآن الكريم في مورد الدنيا هو قوله تعالى «متاع الغرور»: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]؛ فالغرور المذكور هنا هو الخداع. أي إنّ الدنيا هي أداة الخداع. مثل تلك المصّاصة التي تُعطى للطفل لكي تلهيه عن ثدي أمّه. أو مثل ذلك الطعم الذي يوضع في السم لكي يضفي عليه مذاقًا طيبًا أو لونًا خاصًا ليخدع الغافلين.

ولنلتفت إلى أنّ المنخدعين بالدنيا عدّة فئات: الفئة الأولى هم الذين ينظرون إلى الدنيا نظرةً حيوانية. ومن بين الفئتين اللتين تريان الدنيا على أنّها ممر، هناك من يتصوّرها كلا شيء، وهؤلاء أيضًا من المخدوعين. أي سواءٌ الذين غفلوا عن حقيقة الدنيا أم أولئك الذين توجّهوا إليها وعلموا أنّها معبر، لكنّهم تصوّروا أنّ عاقبة هذا التحرّك والسفر هو الفناء، فإنّ هاتين الفئتين من الغافلين المخدوعين. غاية الأمر أنّ غفلة هؤلاء على صورة، وغفلة أولئك على صورةٍ أخرى. فالفئة الأولى تتصرّف بصورةٍ، والفئة الثانية من الغافلين لها نوعٌ آخر من السلوك. وإن كانت الفئة الثانية من الغافلين والمخدوعين تشترك مع غير المخدوعين في أنّهم يرون

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٨٥.





الدنيا معبرًا، لكنّ الاختلاف السلوكيّ بينهما أمرٌ واضحٌ.. وكما ذكرنا سابقًا، فالفئة الأولى تكون تائهةً وحائرة تمامًا، وأصلًا ليست ملتفتة إذا ما كان هناك حركة أم لا، أو أنّ هناك سفر أم لا. من هنا، فإنّ نظرتها وسلوكها يختلف بشكلٍ كامل عن سلوك ورؤية تلك الفئة.

بناءً عليه، نجد أنّ الناس ينظرون إلى الدنيا من ثلاث زوايا: هناك من لا يرى من الدنيا إلا هذه الحياة المحدودة بأيامٍ قليلة، وغافلين تمامًا وتائهين ويعتبرون الموت فناءً. الفئة الثانية ترى الدنيا عبارةً عن سفر من البلاءات والآلام إلى ذلك المقصد المثالي والنهائي. وهناك الفئة الثالثة التي تظنّ أنّ الحياة الدنيا عبارة عن سفر من الطمأنينة والتنعّم إلى الألم والبلاء والفناء. هذا وإن كانت الفئة الثانية تشترك مع هذه الفئة في اعتبار الدنيا معبرًا، ولكن جهة الحركة تختلف بينهما. فالفئة الثالثة – على عكس الفئة الثانية – تتخيّل أنّها تتحرّك من الحياة المثالية إلى ذلك السجن المجهول والمظلم، وهنا يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رؤيتهم: **«فلَيْسَ شَيءٌ أَكْرَهَ إليْهِم، ولا أَهْوَلَ لَدَيْهِم مِنْ مُفارَقَةِ ما هُمْ فيه إلى ما يهْجُمون عليه، ويصيرونَ إليه»**. فبالنسبة لهؤلاء فإنّ كل لحظة هي عبارة عن اقتراب من تلك البلاءات والمشقات ومن الفقر والقحط والقفاري والعدم. ولهذا، فإنّ كل لحظةٍ تمر من حياتهم تكون في غاية الشدة والصعوبة، وتتمنى قلوبهم أن يبقوا في هذه الأرض التي يتخيلون أنها هي النعيم، وهم يخشون الانفصال عنها ولا يريدون أن يفقدوها. ومثل هذه الرؤية تكون سببًا لأن يشعروا بالغمّ والغصص اللامتناهية. وفي العمل تسيطر عليهم حالات الحرص والطمع والحيوانية، ويسعون لجمع كل ما يمكن أن تصل أيديهم إليه والالتذاذ به. على هذا الأساس، يعدّون كل ما يحصلون عليه غنيمةً ويسعون للحصول على أي لذةٍ ممكنة، لأنهم يتخيّلون أنّ كل لذّةٍ إنّما تنحصر بهذه الدنيا. وإذا ما ماتوا انقطعت عنهم تلك اللذائذ والنعم.

لهذا، ليس أمام الإنسان سوى اعتناق إحدى هاتين الرؤيتين بعد التحقيق والبصيرة:

١. الحياة هي عبارةٌ عن هذه الأيام القليلة. فوفق هذه الرؤية تنحصر الحياة بسنيّ العمر المحدودة التي تنتهي بالموت فيفنى عندها كل شيء. فليس هناك من حياةٍ بعد هذه الدنيا لكي يكون هناك لذّة أو نعمة. بل إن كل نعمة أو لذّة تنحصر بهذه الدنيا دون سواها.



٢. الحياة هي حياة ذلك العالم. وأن الحياة الدنيا ليست بشيءٍ إذا ما قورنت بالحياة التي تكون بعد الموت. فالحياة الحقيقية والهدف النهائي متحقق هناك، وليست الدنيا سوى معبرٍ ينقلنا إلى الحياة الأبدية.

نتائج الرؤية الحقانية

وبعد هذه الرؤى المختلفة ينبغي أن نفكر جيدًا في هذا الأمر من أجل اتّخاذ القرار الصحيح، ثمّ السعي لتحقيقه عمليًا. فمن الواضح أنّ مجرّد القبول والاعتقاد بالآخرة والمعاد لا يُعدّ كافيًا. فإذا صدّقنا بالمعاد والآخرة واعتقدنا أنّ الحياة الواقعية موجودة هناك، يجب أن ننظر إلى هذا الأمر الذي قد يكون ٥٠ أو ٦٠ سنة على أنّه سفرٌ وعلى أنّنا نمشي على الطريق، فنتصرّف كمسافرين. ولنعلم يقينًا أنّنا كلّما خفّفنا الحمل أصبحنا أكثر راحة. وحين نثقل حملنا فإنّنا سنتعب أكثر، ويزداد احتمال أن نصل متأخّرين إلى المقصد. لهذا، يجب أن نسعى للتخفّف كي نتحرّك بسهولة. ويجب أن نقطع القلب عمّا هو موجودٌ هنا، وأن نعلم أنّ هذه الأمور ينبغي أن تزول ولا يمكن أن تبقى، وأنّ تلك الأرض المخضرّة عمّا قريب ستصبح يابسةً وتفنى، فلا ينبغي أن يتعلّق القلب بها.

فلو كان اعتقادنا في الواقع كذلك، لأثّر ذلك على سلوكنا، ولما كنا نكذب أو نتملّق بشتّى الطرق من أجل إشباع بطوننا ولما كنا نسلك طريق الحرام والمعصية من أجل قضاء هذه الحياة الفانية، ولما كنا نسلّم ونخضع لأي إنسانٍ؛ بل كنا نحفظ عزّتنا ونصون أنفسنا ولا نظهر فقرنا مهما حدث. وبتعبير القرآن الكريم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1]؛ فعزّة النفس لا تسمح أن يطّلع أحٌد على فقرهم. وهمّتهم لا تنحصر في إطار تأمين حاجاته المادية، بل همّهم الأكبر هو الوصول إلى الكمال المعنوي. وحين يسعى أحدهم لتأمين لوازم الحياة، فذلك بناءً على أداء التكليف، ولكي لا يكون عالةً على غيره. فلو نظرنا إلى الدنيا بهذا المنظار، فإنّ جميع أعمالنا ونشاطاتنا ستكون عبادةً، وتكون مفيدةً لحياتنا الدنيا وسعادتنا الأخروية. ولكن إذا أضحت هذه الأمور الدنيوية مطلبنا وهدفنا وصارت الدنيا غايتنا، نكون قد أسّسنا قاعدة الانحراف في بناء حياتنا. ففي هذه الحالة، ستكون

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٣.



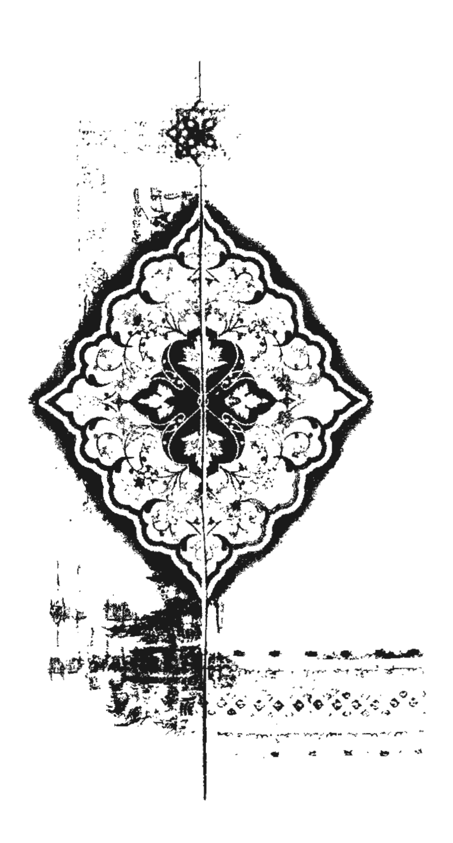


علّة جميع أعمالنا وتحرّكاتنا حبّ الدنيا. والذي سيحملنا على التحرّك ليس سوى تحصيل لذائذ الدنيا وإشباع البطن والحصول على الأثاث والمركب واللباس، ذلك لأنّ من كانت رؤيته إلى الحياة تنحصر بهدفية الدنيا، لا يتوقع في سلوكه سوى ذلك. فمثل هذا السلوك ينسجم مع مثل هذه الرؤية حيث يعتقد بأنّ هذه الحياة الدنيا هي الحياة الوحيدة، ولا يوجد بعدها إلا العذاب.

أمّا الذي آمن أنّ الهدف هناك والطريق هنا، فإنّ سلوكه سيختلف، وتكون جميع أعماله عبارة عن أداء التكليف. فلا تنبت في قلبه الأهواء الدنيوية ولا تنمو الأطماع المتعلقة بالجاه والمال. وليس في قلبه سوى رجاء لقاء المحبوب، وهو يسعى دومًا لكي لا تمنعه هذه الدنيا ومتاعها من الوصول إليه. لهذا، فإنه ينظر إلى الدنيا نظرة التحقير والنفور.

وما أجمل وصف أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للدنيا حيث قال: مثل الحياة الدنيا ومتاعها مثل عظم الخنزير البالي بيد مجذوم. ولكي نقترب أكثر من هذا التمثيل تصوّروا كيف يكون الخنزير وهو حي، وكم هو منفّر. فكيف إذا كان ميتًا، بل كيف إذا كان عظامًا نخرة. إنّ رؤية عظم ذلك الحيوان القذر الذي يكون متعفنًا وهو الذي يأكل العلف المتعفّن، له ذلك القبح العجيب الذي يعجز اللسان عن تصويره والذهن عن تخيّله. وعلى أي حال، فإنّ الخنزير وهو حيٌّ يكون في غاية القبح والبشاعة فكيف إذا كان جيفةً والأسوأ منه عظمه الذي يصعب وصف بشاعته. فإذا كان هذا الأمر المنفّر الذي صعب تصوّره بيد شخصٍ مصاب بالجذام. فالذي يُصاب بالجذام يصبح وجهه قبيحًا جدًا، بحيث أنّه لو حمل وردةً، لا يرغب الإنسان بالنظر إليه، فكيف إذا كان يحمل عظم خنزيرٍ ميّت! والآن أجيبوا أنتم: هل يتوجّه الإنسان العاقل إلى هذا العظم ويرغب به؟!

أولئك الذين عرفوا الدنيا جيدًا هكذا ينظرون إليها. ويجب أن ننظر إليها هكذا. ومع هذا الوصف فكروا بأنفسكم هل أنتم من هذه الفئة أو من تلك.



الدرس الرابع عشر

الغرور

- الفطرة، متعطّشة للعلم
- الغرور، آفة العلم
- علّة الغرور
- أرضيّة نمو بذر الغرور
- تأثير الغرور في سلوك الإنسان



«ثمّ فرّعْتُكَ بأنْواعِ الْجهالاتِ لئلّا تَعُدّ نفْسَكَ عالِمًا فإنّ الْعالِمَ مَنْ عَرَفَ أنّ ما يَعْلَمُ فيما لا يعلَمُ قليلٌ فَعَدّ نَفسَهُ بذلك جاهِلًا وازْدادَ بما عَرَفَ من ذلك في طلبِ الْعِلْمِ اجْتهادًا فما يزالُ للْعِلْمِ طالبًا وفيه راغبًا، وله مُستفيدًا، ولأهْلِهِ خاشعًا، ولرأيِهِ متّهِمًا، وللصّمت لازمًا، وللخطأ جاحدًا، ومنه مستحييًا وإن وردَ عليه ما لا يعرِفُ لا يُنكِرُ ذلك لما قَدْ قَدّرَ به نَفْسَه من الْجَهالةِ، وأن الْجاهلَ من عدّ نفسَهُ بما جَهِلَ من معرفة الْعِلْمِ عالمًا وبرأيه مكتفيًا فما يزالُ من الْعُلماءِ مباعدًا، وعليهم زاريًا، ولمن خالفَهُ مُخَطّيًا، ولما لم يعرفْ من الْأمور مضَلّلًا، وإذا وَرَدَ عليه من الْأمْرِ ما لا يعرفُهُ أنْكَرَهُ وكذّبَ به، وقال بجَهالَتِهِ ما أعرفُ هذا، وما أراهُ كان، وما أظنُّ أن يكون وأنّى كان، ولا أعرفُ ذلك لثِقَتِه برأيه، وقلّةِ معرفَتِهِ بجهالتِهِ فما ينفكُّ ممّا يرى فيما يلتبسُ عليه رأيُه ، ومما لا يعرفُ للجَهْلِ مستفيدًا، وللحقّ منكرًا، وفي اللّجاجةِ مُتجَرّيًا، وعن طلبِ الْعِلْمِ مستكبِرًا»[١].

اطّلعنا ممّا مرّ على أهمية الآخرة وأنّ الحياة الدنيا هي الطريق الذي يُختتم بالآخرة. وعلمنا جيّدًا ضرورة طيّ هذا المسير للوصول إلى المقصد والهدف والمنزل الأصلي الذي هو الحياة الأبدية. وعليه، إذا تصوّرنا أنّ الهدف والمقصد هو هذه الدنيا فقد ارتكبنا خطًا فادحًا، وبدل أن ننفق أو نبذل قوانا من أجل الوصول إلى الهدف سنضيّعها على الطريق.

فلو التفت الإنسان قليلًا لأدرك هذه الجوهرة الأصيلة وهي أنّ كل ما يتصوّرد حياةً واقعية إنّما هو بالنسبة للحياة الأبدية كالموت والعدم. فالحياة الحقيقية

---

(١) هذا المقطع لم يرد إلا في كتابي **تحف العقول وبحار الأنوار**.



هناك، والحياة الدنيوية ليست سوى ممر نحو المقصد والهدف. أمّا الهدف النهائي فهو أعلى وأرقى من هذه الدنيا الفانية.

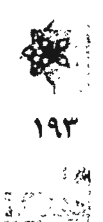
وهكذا، فإذا صدّقنا هذا الكلام المتعلّق بحقيقة الدنيا والآخرة، سيبرز هذا السؤال - الذي من المؤكّد أنّه يتضمّن آلاف الأسئلة - وهو كيف ينبغي أن نعيش في هذا العالم وضمن هذا المسير لكي نصل إلى السعادة الأخروية؟ فنحن نعلم أنّ مسير الحياة الدنيا القصير يتضمّن من المشاكل والعوائق ما عجزت عن حلّه مساعي قرون متواصلة لعلماءٍ كثيرين، فكيف بالحياة الأبدية الأخروية التي هي بعيدةٌ عن متناول العقول؟!. فإذا كنّا نعتقد أنّ الحياة الحقيقيّة أبعد من هذه الحياة الدنيا، سيبرز هذا السؤال المتعلّق بالمشاكل الموجودة في هذا العالم، والطريق الذي ينبغي أن نسلكه للوصول إلى الهدف النهائي والسعادة الأبدية؟ وهو سؤالٌ عام.

أمّا حين نقوم بالتحليل النهائي لكلّ لحظةٍ من لحظات الحياة، ولكلّ عضوٍ من أعضاء البدن ولكلّ فردٍ نعاشره سيتولّد سؤال جزئي، مثلًا: ما هو دور العين والأذن واليد والرجل والقلب في هذا المسير، وما هي مسؤوليتنا تجاه الأم والأب وأعضاء الأسرة والأبناء والأفراد الذين نعيش معهم في المجتمع بل بالنسبة لجميع البشر؟ وكيف ينبغي أن نتصرّف لكي نصل إلى ذلك المقصد الأعلى؟ فهذه مسائلٌ معقّدة أدّى كل واحدٍ منها إلى نشوء فرعٍ من العلوم. وإذا أراد الإنسان أن يصل إلى السعادة الأبدية ينبغي أن يدرك طرق حلّها والإجابة عنها، وعليه أن يعلم كيف يعيش في هذه الدنيا لكي يحافظ على سلامة نفسه، وينال السعادة الأبدية.

في الصفحات الآتية، سنعرض هذه المسائل انطلاقًا من إحدى الرؤى الأصيلة.

الفطرة متعطّشة للعلم

أول خطوةٍ بعد التعامل مع المسائل المعقّدة وفيض الأسئلة اللامتناهية هي الحصول على أجوبة هذه الأسئلة: كيف يمكننا أن نجد مخرجًا من تلك المسائل؟ من الواضح أنّ الإنسان إذا أراد أن يمتلك الإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن يحصّل العلم ولكن هذا التحصيل يختلف عن أنواع التحصيل الأخرى. فالكثير من أنواع



التحصيل الأخرى تنشأ من الهوى والهوس أو من أجل الحصول على الوظيفة والدخل أو الحصول على الاحترام والمنزلة في المجتمع؛ في حين أنّ تحصيل العلم في مثل هذه الأمور ينبغي أن يتحقّق انطلاقًا من الدافع الإلهيّ والهدف الصافي؛ فتزول المجهولات وتتحوّل إلى معلومات لكي ندرك طريق السعادة ونعلم كيف نتحرّك في كل لحظةٍ، وكيف نتصرّف مع كلّ إنسانٍ. فإذا طلبنا العلم بهذا الدافع سيكون لدرسنا قيمة عالية.

ولعلّ أمير المؤمنين عليه السلام من هذه الجهة يقوم في هذا الموضع بالتأكيد على تحصيل العلم منبّهًا إلى الأخطار الموجودة على طريقه، لأنّ الوصول إلى السعادة يتطلّب الإجابة عن هذه الاسئلة والتعرّف على طريق الحلّ العمليّ، ولا يمكن أن يتحقّق هذا الأمر المهم إلّا من خلال تحصيل العلم. هذا، ومن جانبٍ آخر، نحن نعلم أن تحصيل العلم أمرٌ تطلبه فطرة الإنسان. فإنّ الإنسان قبل أن يصل إلى البلوغ العقلاني، يوجد في أعماق وجوده الدافع الفطري لأجل تبديل مجهولاته إلى معلومات.

فإذا تأمّلتم جيدًا، لوجدتم الأطفال الصغار، الذين لم يبلغوا من العمر السنوات الخمس، كثيرو الأسئلة، وليس هذا إلا بسبب العطش الفطري الذي يدفعهم لتبديل جهلهم إلى علم. فحين نقول إنّ تحصيل العلم أمرٌ فطريّ وأنّه ينبع من دوافع ذاتية، فهذا يعني أنّه لا تشكيك أبدًا بقيمة العلم، ولأجل تحصيله لا نحتاج إلى إثبات فائدته. فإنّنا لا نحتاج إلى التفكّر في فائدة السؤال والبحث وحلّ المجهولات وتبديلها إلى معلومات. فإنّ الدافع التلقائي الذي ينبع من الداخل يسوق الإنسان لتحصيل هذه الأجوبة. ولهذا، فإنّ شعلة هذا الدافع تبدأ من مرحلة الطفولة في أعماق الإنسان وتسوقه نحو تحصيل العلم. ولا شك بأنّ هذا الدافع الفطريّ قد يزداد قوةً في بعض الأحيان بسبب تدخّل عوامل خارجية. فالإنسان بعد الوصول إلى البلوغ العقلي يفهم مثلًا أنّ عليه أن يحلّ مشاكل حياته بالاعتماد على العلم والمعرفة، وعليه أن يتعلّم طرق وأساليب العيش، وأنّه من دون مصباح العلم لن يصل إلى المطلوب، فعندها تتضاعف أهمية تحصيل العلم ويقوى فيه الدافع للسعي.

كما ينبغي أن نلتفت إلى أنّ هذه العوامل الخارجية لا تكون دائمًا لمصلحة

هذا الدافع، فإنّها أحيانًا قد تلعب دورًا معاكسًا، وبدلًا من أن تقوّي هذا الدافع الفطريّ تؤدّي إلى إضعافه، كما هو حال تلك الخواطر والآفات التي تقف عقبةً على طريق تحصيل العلم وتضعف الحماس، حتى إنّ صاحبها إذا لم يلتفت إلى مخاطرها فقد ينتهي الأمر به إلى فقدان هذه الشعلة وخمود هذا الدافع. ففي الوقت الذي يمكن لهذا الدافع أن يؤدّي إلى تقرّبه من الله وتكامله ومعرفته لطريق السعادة، فإنّه بسبب ضعفه، يجعل صاحبه يسلك مسير الجهالة ويقع في شراك إبليس المتنوّعة؛ وبدلًا من تعاليه وترقّيه يخلق له أسباب الانحطاط وقد يهدّد في بعض الأحيان حياته. وقد تكون هذه المصائب في بعض الأحيان من العمق بحيث يصبح ما تعلّمه مضرًا له بدلًا من أن يكون نافعًا ويؤدّي إلى حسرته. فهو يتعب ويكدح في الدرس، ويترك الراحة والهناء، ولكنّه يُبتلى في مسير تحصيل العلم بالشبهات والآفات فلا يكون الدرس غير نافعٍ فحسب، بل يجلب معه الخسائر والأضرار الكثيرة ويبدّل سعادته إلى حسرةٍ لا توصف.

لهذا، نجد أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلق عنان الكلام بعد التوجّه إلى أصل الهدف ونشوء الرؤية تجاه الحياة الدنيا والآخرة لبيان المزلّات والآفات والمخاطر التي تقع على طريق تحصيل العلم بالنسبة لطلّابه ولكل الذين يريدون الاستفادة منه، ويقول: «**ثمَّ فزَّعَتْكَ بأنواعِ الجَهالاتِ**...»؛ فإنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن بيّن أهمية الآخرة ومقام الدنيا بالمقارنة مع الآخرة يحذّر من تلك الجهالات التي توجد في هذا الطريق والتي يمكن أن يُبتلى بها الإنسان في حياته. فاحذر أن تظن أنّك بعيدٌ عن هذه الجهالات كونك عالمًا، فإنّ الكثير من الشبهات والخدع الشيطانية قد كمنت لك وهي تهدّدك في هذه الأزمات أكثر من الآخرين.

الغرور آفة العلم

إنّ الاطّلاع على الآفات والمزلّات الموجودة على طريق تحصيل العلم له من الأهمية ما لبيان العوامل المقوّية لهذا الطلب من أهمية، بل أكثر من ذلك. يذكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المطالب التي يمكن أن تُعدّ في الواقع دورة مختصرة في آداب التعليم والتربية ويتعرّض لتلك القواعد التي ينبغي لكل بصيرٍ وواعٍ يسلك طريق تحصيل العلم أن يلتزم بها، ومن دونها لن تكون عاقبته سوى الخسران.



فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يصرّ في التحذير الأوّل على أنّ محور جميع الآفات التي تهدّد العلم والعالم هو الغرور. ولا شك بأنّ جميع الآفات لا تنحصر في هذه الآفة، ولكن يمكن القول إنّها المحور الأساسيّ للآفات كلّها. فالإنسان الجاهل الذي لا يعرف شيئًا عن هذا المطلب أو ذاك، ليس لديه سوى السؤال، ولذلك فإنّ هذا الاحتياج والفقر يجعله مطّلعًا على جهله. فهذه الحالة لا تسمح له بالاعتداد بنفسه والإعجاب بها، لأنّه يدرك مدى نقصه وأنّ عليه أن يزيل عيوبه. فهو يتواضع من أجل أن يرتفع نقصه الذهنيّ. وإنّ حالة الاحتياج والعوز لا تكون سببًا لمثل هذه الآفة. فالإنسان لا يتفاخر أبدًا بجهله ولا يقول: «بما أنّني لا أعلم فإنّني شخصٌ مهم وصاحب مقام رفيع»! ففي هذه الحالة، لا يكون مصابًا بهذه الآفة المسمّاة بالغرور. وما دام أسير الجهل البسيط لن يكون للغرور نفوذًا إليه. ولكن حين يتبدّل مقدار من مجهولاته إلى معلومات، ويكون قد حصل على بعض العلم، فإنّه عندئذٍ يصبح عرضةً لآفة الغرور، لأنّه يتصوّر أنّه يعلم شيئًا، وهذا التصوّر يصبح قاطع طريقه، والحجر الذي يوضع في بناء انحرافه، وبذرة الآفة التي يغرسها.

علّة الغرور

من الممكن أن تسألوا أنّه كيف يمكن للإنسان الذي يجهل آلاف المسائل وهو لا يعلم منها إلا القليل، أن يُبتلى بالغرور؟ أمّا الذي لا يعرف أي شيء وليس لديه إلا الجهل لا يُبتلى بهذه الآفة؟! ويمكن أن نبيّن لهذا السؤال جوابين:

١. من المعلوم أنّ الإنسان المبتدئ في مسير تحصيل العلم لا يعلم حجم مجهولاته، وإنّما يعلم فقط أنّه لا يعلم. ويعلم أنّه جاهل وغير مطّلع على الكثير من المسائل أو العلوم المختلفة، حتى إنّه لا يعلم أنّ هذا العلم موجودٌ أم لا. وكمثالٍ: إذا نظرنا إلى طالبٍ في المرحلة المتوسّطة، فإنّه يعلم فقط أنّ هناك مسائل تُطرح في الرياضيات لا بدّ من حلّها، ولكنّه لا يعلم في الأساس ما هي المسألة أو صورة المسألة التي لا تُطرح عليه. فهو لا يعلم معنى المعادلة التي تتضمّن مجهولين، وما هي المسائل الهندسيّة. وفي الأساس، فإنّه لا يخطر بباله أي سؤالٍ، ولا يوجد في ذهنه أي إبهام، وليس هناك من شيء ليلتفت أنّه يعلمه أم لا، وهل يمكنه أن يحلّ المسألة أم لا. فلا يعلم سوى أنّ هناك أمورًا موجودة يتحدّث عنها علماء الرياضيات والكيمياء والفيزياء، لكنّه لا يعلم ما هي. فهو جاهلٌ تمامًا بصورة المسائل. ولهذا،

فإنّ الجهل المحض لا يترك مجالًا للغرور والعجب. أمّا ذاك الذي تعلّم عدّة مسائل، وصار مطّلعًا على ما ذكره الأستاذ من أسئلةٍ وأجوبة، فإنّه يتخيّل أنّه يعرف أشياء كثيرة، لأنّه يظن أنّ العلم هو هذا المقدار، فيتصوّر مثلًا أنّ علم الطب يُختصر بمثل هذه المسائل المحدودة. وبهذه الرؤية يقول إنّه قد تعلّم كثيرًا من مسائل الطب، غافلًا عن أنّه ما زال هناك الكثير ممّا لا يعلمه. وكم يحدث أنّ يظنّ الطالب المبتدئ الذي تعلّم عدّة مسائل في الصرف والنحو وصار يميّز صيغة الماضي والمضارع والمستقبل، أنّه قد حلّ جميع الأشياء. ولأنّ جميع الآيات القرآنية وأحاديث الأئمّة تنحصر في الفعل الماضي والمضارع وغيره فلم يبقَ شيء يجب تعلّمه!!

إنّ أحد أسباب الابتلاء بالغرور هو عدم الالتفات إلى أنّ هناك الكثير من الأمور التي نجهلها، ونحن نظن أنّ المجهولات هي فقط تلك المسائل التي استطعنا أن نجد الجواب عليها ولم يبقّ فيها أي إجمالٍ أو إبهام.

٢. العامل الآخر للغرور هو حبّ النفس الذي يؤدّي إلى أن يرى الإنسان حسناته دون عيوبه. فهذا العالم يبيّن مسألة تحصيل العلم على هذا النحو أنّه حتّى الآن لا يملك معلومات ويعلم أنّه خالي الوفاض وأنّه ليس من أهل هذا الفن، ولكن حين يتعلّم عدّة كلماتٍ من هنا وهناك فإنّه يرى معلوماته كثيرةً ويظن أنّه قد تعلّم كل ما ينبغي أن يعلمه. لهذا، فهو ينسى مجهولاته أو إنّه لا يلتفت إلى جهالته ويغفل عنها. وفي الواقع، إنّ حبّ الذات والعجب يمنع الإنسان من أن يرى ما يجهله. وإذا أردنا أن نضرب مثالًا في الأمور المادية، فهذا الشخص المعدم الذي لا يعرف شيئًا عن المال والثروة، ولا يعلم ما هو موجودٌ في الأصل، وكل ما يعلمه هو أنّه لا يملك شيئًا. هذا الرجل إذا اكتسب ثروةً أو قام بتجارةٍ مربحة أو ورث كنزًا وامتلأت حياته بالنعم، فإنّه سينحرف عن جادة الحقّ بسرعة. فهو يرى أنّ ما حصل عليه عظيمًا ومهمًا، ويتخيّل أنّه صار في غاية الثراء، ولكنّه لا يلتفت إلى ما لا يملكه. هذا نموذجٌ بسيطٌ في الأمور المادية. ولكن لهذا الأمر عمقٌ أكبر في المسائل المعنوية وقد يصل الانحراف فيه إلى درجة يحرم الإنسان من الحياة الطيبة تمامًا. فحين يعظُم ما يملكه أو يعلمه بنظره، ويتصوّر أنّه يعرف الأمور المهمّة ويمتلك الأشياء الكثيرة، فإنّ طريق الوصول إلى المراحل اللاحقة من الترقّي والكمال سوف ينسدّ أمامه، لأنّه يظنّ أنّه يعلم كلّ شيء وأنّه قد حصل على كلّ شيء ولم يبقَ من شيءٍ لكي يسعى لمعرفته.



ولا شك بأنّكم قد سمعتم قصّة ذلك العالم النحويّ الذي ركب سفينةً ولم يجد من يتحدّث معه سوى ذلك التاجر العادي. فسأله مستعرضًا علمه: ماذا تعرف عن النحو؟ فأجابه التاجر: لا أعرف شيئًا. فقال له العالم: عجيب! لا تعرف شيئًا! قال له: لا، لا شيء. فقال له العالم: لقد أضعت نصف عمرك هباءً. فاغتمّ التاجر وهو يفكّر في كيفية جبران ما أضاع من حياته، ولكن لم تمضِ بضعة دقائق حتى هبّت عاصفة شديدة وأشرفت السفينة على الغرق فبدأ القبطان ومساعدوه بإقناع الركّاب بالسباحة إلى الشاطئ ولما وصلوا إلى ذلك الأديب قالوا له: هل تعرف السباحة؟ قال: لا، أنا لا أعرف شيئًا عن السباحة. فالتفت إليه التاجر وقال له: ها قد أضعت كلّ عمرك. فأنت الذي قلت لي إذا لم أعرف النحو قد أضعت نصف عمري، ها قد أضعت كلّ عمرك وليس لك من مناصٍ سوى أن تصارع الأمواج العاتية. ففي هذه القصة كان ذلك النحويّ يظنّ أنّه بمعرفة بعض المسائل الأدبيّة سيكون علّامة زمانه وأنّه قد تحرّر من كل قيدٍ، غافلًا عن أنّه لم يستطع أن ينجو من الأمواج المتلاطمة.

أرضية نموّ بذرة الغرور

إذا أردنا أن نعمّم الحديث بشأن أسباب الغرور ينبغي أن نلتفت إلى خلقة الإنسان الذي يُعدّ موجودًا ضعيفًا. وأحد مظاهر ضعفه هو قلّة استعداده. فذلك الذي يعرف الطب يتصوّر أنّ جميع العلوم تنحصر في هذا العلم، وأنّ العلوم الأخرى ليست بشيءٍ أمام علم الطبّ. أو ذاك الذي له معرفةٌ بالأدب، فهو يتصوّر أنّ العلوم كلّها تنحصر في الأدب فلو لم نعرف عنه شيئًا كنّا خالين تمامًا من العلم والمعرفة. وهذه الحالة لا تختصّ بأمثال هؤلاء العلماء؛ فمن الممكن أن يُبتلى بها الفقيه أو الفيلسوف، لأنّ الإنسان عادةً يتجّه إلى تعظيم ما لديه، ولا يفكّر أبدًا بأنّ هناك أشياء أخرى ينبغي أن يتعلّمها أو يكتسبها. فمن حيث إنّ هذه المعارف التي اكتسبها أضحت تظلّل كل حياته، فإنّه لا يفكّر أو ينظر إلى غيرها من فروع العلم، بل يحدّث نفسه قائلًا: «لو كان هناك شيءٌ مهمٌ لكنّا عرفناه»، وبما أنّه ليس موجودًا عندنا فإنّه فاقدٌ للأهمية!! ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[1]. حتى يقول: «لو كان هناك شيءٌ ليس موجودًا عندنا، فمعلوم إذًا أنّه غير مفيد! فهذا العلم

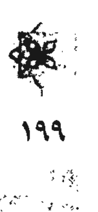
---

(١) سورة **الأحقاف**، الآية ١١.

الذي تعلّمناه هو المهم، وغيره من المسائل ليس من الأبحاث المهمّة. وكل من عرف ما عرفته يكون كافيًا له!! فإنّ المسائل المهمّة موجودة عندي، وغيرها فاقدٌ للأهمية». جميع هذه التبعات السلبية تنبع من ضعف خلقة الإنسان الذي يعظّم ما لديه ويستصغر ما لدى الآخرين.

وعلى أيّ حال، إنّ هذه آفةٌ كبرى يظنّ فيها الإنسان أنّ ما يعلمه هو المهم ولا يعطي قيمةً لما يعلمه الآخرون، أو يعدّ ما يعرفه مهمًا ولا يعتني بما يعرفه غيره. والملفت هنا أنّه لو دقّقنا جيّدًا لوجدنا أنّ أكثر المسائل التي يعلمها هي من باب الظنون، وأنّ ما يعلمه من الأمور البرهانيّة واليقينيّة التي لا يتطرّق إليها احتمال الخطأ قليلٌ جدًا. حين تكون أغلب العلوم والمعارف ظنيّةً فلماذا نكون مغرورين من دون سبب؟ ففي العلوم الظنيّة، يحدث الكثير من الاختلاف في وجهات النظر وهذا الاختلاف يدلّ على أنّ هذه الأبحاث لم تُحلّ بعد وأنّه ما زال هناك الكثير ممّا يمكن أن يُقال. ولكن بالرغم من ذلك ما زلنا نُبتلى بمثل هذا الترفّع والاستعلاء! هذا في حين أنّ ماهيّة أغلب العلوم هي على النحو الذي يفسح المجال لإظهار العقائد والآراء المختلفة، فلماذا نخطّئ الآراء المخالفة ونعدّ رأينا عين الصواب. فحين يحقّق أحد العلماء في قضيّة خاصّة أو يتعب نفسه في أحد الفروع العلميّة حتّى يصل إلى نظريّة معيّنة، فمع كلّ الذي بذله لا يكون قد وصل إلّا إلى الظنِ القويّ الشخصيِّ وهذا ما يحصل في جميع العلوم؛ لهذا يجب أن ندرك من أعماق وجودنا أنّ هناك من يفكّر ويتعب غيرنا، وأنّه إذا وصل إلى ما هو مخالفٌ لرأينا لا ينبغي أن نخطّئه.

فمن أين نعلم أنّ ظنّنا أقرب إلى الواقع من ظنّ الآخرين؟ وإن كان من الممكن في هذه المسألة الخاصّة أن يكون اطمئنان الشخص أقوى، ولكن لعلّ الشخص الآخر يعيش نفس هذه الحالة ويقول إنّ اطمئناني أقوى من الآخرين. فهنا تظهر آفة الغرور بعض آثارها الأخرى وتكون سببًا لأن يطمئن الإنسان برأيه ويعتدّ به، ثمّ يخطّئ كلام الآخرين. وإذا حقّق ووصل إلى نظريّة خاصّة، فإنّه عندئذٍ لن يأخذ بعين الاعتبار آراء سائر العلماء والمحقّقين، ويقول إنّ ما أقوله هو الصحيح دون غيره. وقد يحدث أن يغيّر هذا الشخص رأيه بعد مدّة، ولكنّنا نجده أيضًا على نفس الحال بالنسبة لاعتقاده الثاني. ولو دقّقنا النظر جيّدًا لوجدنا أنّ أكثر هذه العلوم ظنيّة وأنّ القرائن الظنّيّة الخاصّة هي التي توصلنا إلى هذا الرأي أو ذاك



الاعتقاد، وكذلك حال الشخص الآخر الذي يصل إلى رأي مخالف. لهذا، فكما أنّه من الممكن أن يكون رأيكم صائبًا، من المحتمل أن يكون رأيه صائبًا أيضًا. ولا يوجد أي ضمانة على أنّ رأيكم واعتقادكم أهمّ وأقرب إلى الصواب، سوى هذا العجب والغرور الذي يدفعنا للتمسّك بآرائنا واعتبار الآخرين عديمي الفهم! ولو لم يكن هذا الغرور لكنّا نقول بمنتهى التواضع إنّ ظنّنا هو الذي أوصلنا إلى هذه النتيجة، ونحن نرجو أن نكون قد استعملنا الدليل المناسب والصحيح، فلعلّ غيرنا يفهم أكثر.

ولكن للأسف فإنّ عدد أولئك الذين يبرزون آراءهم بصورة متواضعة قليلٌ جدًا، والكثير من الأشخاص مبتلون بالغرور والعجب ويصرّون على صحّة آرائهم ويخطّئون الآخرين. وقد يصل بهم الأمر أحيانًا إلى استخدام ألفاظٍ نابية - كما وصفهم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ - ويطعنون بالآخرين ولو من طرفٍ خفيّ؛ كأن يقول أحدهم أنا لم أسمع العلماء الكبار يطرحون هذا الأمر. مع أنّه لا يعلم يقينًا ما هو الرأي الصحيح. وإنّما يقول ذلك من أجل أن يطعن بصاحب الرأي ويفهمه أنّ من هو أهمّ منك لم يظهر هذا الرأي فمن أين لك هذا؟! فمعلومٌ إذًا أنّ مقولتك ليست صحيحة، وخالية من الدليل! فقد يصل الطعن والتجرّي وقلّة الاحترام إلى الحدّ الذي لا يراعي فيه حقوق الآخرين. ولا ينبع ذلك إلا من العجب.

تأثير الغرور في سلوك الإنسان

بعد أن شاهدنا في مرآة كلام مولى الموحّدين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ العلّة التي تتسبّب في نشوء الغرور العلميّ، من المناسب أن نتعرّف على وصفه للعلماء. فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يقسّم العلماء إلى طائفتين. أي إنّ للذين أحاطوا ببعض من المسائل العلمية نوعين من الخُلق والسلوك. الفئة الأولى هم أولئك الذين وصفهم أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنّهم يرون علومهم قليلةً أمام مجهولاتهم: «**فإنّ العَالِمَ مَنْ عَرَفَ أنّ ما يَعْلَمُ فيما لا يعلَمُ قليلٌ**»؛ هم يؤمنون بالفكرة القرآنية بشأن علمهم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١]؛ أي ما تعلّمونه إذا قورن بما تجهلونه لن يكون سوى بضعة كلمات؛ وهو أمرٌ لا يُحسب له حساب، فلن يكون شيئًا مهمًّا في أعينهم. وبعبارةٍ أخرى، حين

---

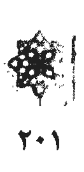
(١) سورة **الإسراء**، الآية ٨٥.

يرون أنّ ظلماتهم كبيرة وأن خيوط النور في مقابل الظلام الحالك في غاية الضعف، فإنّ أعينهم لا تتعلّق بهذه الأضواء الخافتة لكي يغترّوا. هذا بالإضافة إلى أنّ من ينظر إلى جهالته ويرى أنّه جاهل، سيسلك مسلكًا خاصًا في تصرّفاته وحياته. ومن مظاهر هذا السلوك السعي الدائم للتزوّد بالعلم وطلبه، وهؤلاء لن يروا أنفسهم أبدًا في غنىً عن تحصيله، ذلك لأنّهم يرون أنفسهم دائمًا في حالة الجهل. أمثال هؤلاء يتصفّحون دائمًا كتاب مجهولاتهم ويقولون لأنفسهم لقد بقي الكثير ممّا نجهله والذي ينبغي أن نتعلّمه وعلينا أن نسعى دائمًا لرفع جهلنا. فإنّهم بسبب هذه المعرفة التي يرون فيها معلوماتهم شيئًا قليلًا أمام مجهولاتهم، يسعون دائمًا لتحصيل العلم ويرغبون به ويزداد ذلك فيهم كل يوم بحيث لا يتوقّفون لحظةً واحدة عن الطلب: «**فما يزالُ للعِلْمِ طالِبًا وفيه راغبًا، وله مُستفيدًا**»؛ وبسبب شعورهم بالجهل وإحساسهم بعطش العلم، فإنّهم مقبلون دومًا على العلم ولا يشعرون بالارتواء مهما شربوا من النبع الجاري للمعرفة.

والأثر الآخر لهذه النظرة هو أنّ أمثال هؤلاء إذا قابلوا أهل العلم تصرّفوا إزاءهم بمنتهى الخضوع والتواضع ولم يُظهروا أمامهم أي علوٍّ أو تكبّر. فحين يرى الإنسان نفسه جاهلًا، فإنّه سيظهر التواضع والخضوع للعلماء. لأنّه سيقول لنفسه إنّ هؤلاء يعرفون ما لا أعرف، وعليّ أن أخضع لهم. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام إنّ أمثال هؤلاء يخشعون لأهل العلم: «**ولأهْلِهِ خاشعًا**». وينبغي أن نلتفت إلى أنّ الخشوع أعلى من الخضوع. فالخضوع يظهر أكثر ما يظهر في مورد الحركات البدنية كالانحناء والاحترام الظاهريّ، في حين أنّ الخشوع هو حالة انكسارٍ قلبيٍ حيث يرى الإنسان نفسه من باطنه أنّه صغيرٌ وهو يتواضع بقلبه للعلماء.

والأثر الثالث لهذا النمط من التفكير هو أنّ هؤلاء لا يعتمدون أبدًا على آرائهم ولا يستبدّون برأيهم ولا يجعلون آراءهم الظنية مستندًا بل: «**ولرأيِهِ متّهِمًا**»؛ فلعلّ رأينا خاطئٌ. وما أجمل أن لا يقول الإنسان إذا وصل إلى كشف ما بعد آلاف الجهود والأتعاب وسلوك الطرق الطويلة في مسيرة كسب العلم والمعرفة: «إن الحق ما وصلت إليه»!، بل يعتقد أنّه ربما أصاب وربما أخطأ.

النموذج الأبرز لأمثال هؤلاء هو العلّامة الطباطبائي رحمه الله الذي كان غالبًا ما يقول «لا أعلم» في الجواب عن الأسئلة التي تُطرح عليه. هذا مع أنّ الأستاذ كان عالمًا كبيرًا وقد قضى أكثر من خمسين سنة في ذلك العلم، وكان صاحب رأيٍ،



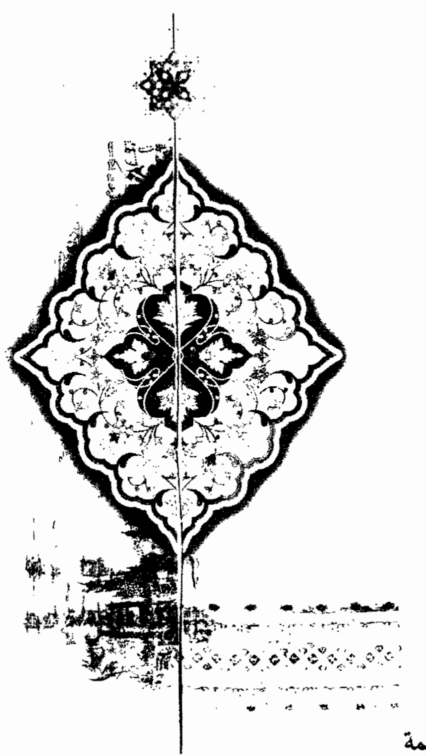
ولكن كان يجيب للوهلة الأولى وبدون أي تردّد «لا أعلم» ثم يتأمّل وبعدها يقول: «يمكن القول هكذا» أو «لعلكم تظنون أنّ الجواب يكون كذلك». فقارنوا روحية العلامة وقلبه الخاشع مع ذلك الذي لا يذكر كلمة لا أعلم أبدًا أو ذاك الذي ليس لديه أي علمٍ ولكن يظهر رأيه بشكلٍ قاطع، لتعرفوا قيمة هذا الخلق الحميد.

إنّ العالِم الحقيقي هو الذي يلتفت إلى أنّ أكثر مسائله العلميّة من الظنّيات، ومن الممكن أنّ ما وصل إليه من آراءٍ أن يكون خاطئًا. لهذا، يتّهم نفسه دومًا. ومن السلوك الحسن والجميل لأمثال هؤلاء هو أنّهم يديمون الصمت. لا أنّهم يكتفون بعدم إظهار الرأي الحاسم، بل يسعون دائمًا للتقليل من إبداء وجهات نظرهم ويسعون أكثر للاطّلاع على أخطائهم: «**وللصّمت لازمًا، وللخطأ جاحِدًا، ومنه مستحييًا**». فهؤلاء حين يخطئون يخجلون ويعترفون بالخطأ، ولكن أولئك الذين لم يشمّوا رائحة المعرفة، يكثرون من الادّعاء والكلام، ويظهرون آراءهم في كلّ مكانٍ، ويجيبون عن كلّ سؤال. وإذا اطّلعوا على خطإ رأيهم يقولون لقد كان رأينا في الأمس كذلك واليوم تغيّر وصار كذا دون أي خجلٍ. أمّا الإنسان الذي يحسب حساب كلامه، فإنّه يخجل كثيرًا حين يدرك خطأه، وإذا ظهر له رأيٌ جديد لا ينكر، وإذا لم يعلم الجواب عن سؤالٍ ما فإنّه لا يسرع إلى القول ليس كذلك وهذا كلامٌ خطأ بل يصرّح قائلًا لا أعلم. فالعالم الحقيقي الذي يدرك جهله جيدًا ويعترف به فإنّه لا يرى في نفسه ما يستحق أن يقدّمه أو يعرضه على الآخرين ولا يُسارع إلى إنكار ما يُعرَض عليه.

وفي المقابل، إنّ الذي يتصوّر علمه كثيرًا، فهو شخص جاهل يمتلك أفكارًا مغايرة تمامًا. فأمير المؤمنين عليه السلام يصف أولئك الذين يغترّون بعلمهم بالجهل ويقول: «**وأن الجاهلَ من عدّ نفسَهُ بما جَهِلَ من معرفة العلمِ عالمًا**»؛ فأمثال هؤلاء إذا وصلوا إلى رأيٍ ما يتمسّكون به ويكتفون، ولا يشعرون بالحاجة إلى البحث والتحقيق. بل يقولون إنّ الأمر ما فهمناه وذكرناه!! فالذي يرى نفسه عالمًا لا يشعر بعدها بالحاجة إلى أن يسأل العلماء الآخرين، بل يبتعد عنهم وهو يطعن بهم عند أدنى اشتباه أو خطأ: «**ولمن خالفَهُ مُخَطِّيًا**». ومن جانبٍ آخر، ولأنّه يتصوّر نفسه مطّلعًا على الكثير من الأمور التي ليس لديه علمٌ أو معرفةٌ بها، يجعل نفسه وسيلةً لإضلال نفسه ويكذّب فيما لا يعلم ويقول طاعنًا عن جهلٍ: «وما هذه الأمور؟ فإنّني مع كل تحقيقاتي وأبحاثي لم أرَ مثل هذه الأشياء ولا أعلم ولا أظنّ أنّها هكذا»!



فلأنّه لا يدقّق في كلامه يتفّوه بمثل هذه الأجوبة العبثية. بل إنّه قد يتجرّأ أكثر ويقول: «لو كان الأمر صحيحًا لكنت علمت به، فبما أنّني لا أعلم عنه شيئًا، فمن الواضح أنّه ليس صحيحًا»!! فمثل هذا الكلام يدلّ على أنّه غير مطّلعٍ على جهله. ولهذا، فإنّه يتجرّأ في إبداء رأيه ولا يحترم غيره ولا يسعى للاستزادة من المعرفة، وحين يُعرض عليه أمرٌ حقانيٌ فإنّه ينكره عن جهلٍ.



الدرس الخامس عشر
أدب العشرة

- معيار العشرة الحسنة
- ثمرة العشرة الحسنة
- طريقة العمل بمعيار العشرة الحسنة
- الإعجاب آفة العشرة الاجتماعيّة السليمة
- السعي هباءً





«يا بُنَيّ تَفَهَّمْ وَصِيَّتِي وَاجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزانًا فِيما بَيْنَك وبَيْنَ غَيْرِك، فَأَحْبِبْ [وأَحِبْ] لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَه لها، لا تَظْلِمْ كما لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَما تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ! واسْتَقْبِحْ لِنَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ ما تَرْضى لَهُمْ مِنْكَ! ولا تَقُلْ بما لا تَعْلَمُ، بَلْ لا تَقُلْ كُلّ ما تَعْلَمُ ولا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أن يُقالَ لَكَ![1] وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجابَ ضِدُّ الصَّوابِ وآفَةُ الأَلْبابِ[2] [وَاسْعَ فِي كَدْحِكَ ولا تَكُنْ خازنًا لِغَيْرِكَ!] وإذا هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ ما تَكونُ لِرَبِّكَ!».

إنّ الأمر الذي تمّ التأكيد والتنبيه عليه في هذه الوصية القيّمة هو ما يتعلّق بأهميّة الحياة الأبدية مقارنةً بالحياة الدنيا وضرورة عدم نسيان موقع الحياة الدنيا وضعتها وحقارتها مقابل الحياة الأخروية أو الغفلة عنها. وقد تمّ التأكيد على هذا الموضوع أثناء الحديث عن تلك المسائل المتعلّقة بالأخلاق الفردية والاجتماعية والعلاقات الإنسانية بأساليب مختلفةٍ.

وكما لاحظنا سابقًا، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يبيّن في قسم من هذه الوصية الإلهية ما يتعلّق بالدنيا والحياة فيها، ويقول إنّ أهل الدنيا يشبّهون تلك القافلة المسافرة التي تسعى للوصول إلى مقصدٍ خاص لكي تستقرّ فيه وتنال الراحة

---

(١) في بعض النسخ وردت هذه الجملة «ولا تقل ما لا تعلم» بل «لا تقل كل ما علمت مما لا تحب أن يُقال لك».

(٢) وقد ورد في بعض النسخ بعد قوله آفة الألباب: «فاسع في كدحك ولا تكن خازنًا لغيرك».



الكاملة وتحقّق جميع أمانيها. ولا شك بأنّ هذا السفر ممزوجٌ بالتعب والمشقّة وعلى الإنسان أن يتحمّل هذه الصعاب أثناء سفره ليصل سالمًا إلى المنزل ويحقّق أهدافه. وإذا لم يتحمّل هذه المشقّات ويتلقّفها بروحه فإنّه لن يصل إلى الهدف، ذلك لأنّ عليه في هذه الحال أن يبقى مكانه ويثبت لكي لا يتعرّض لتلك المخاطر والمصاعب التي يلاقيها المسافر عادةً، وهذا أيضًا غير ممكن.

ولو علم الإنسان أنّ هذه الرحلة، التي تتمثّل في الحياة الدنيا، وإن كانت مقرونةً بالصعاب والتعب لكنّها قصيرةٌ، لكنّها إذا وُضعت مقابل الحياة الأبدية وزمانها فإنّها لا تساوي شيئًا، حتى لو عمّرنا فيها لآلاف السنين فإنّها لن تكون إلا كارتداد الطرف بالنسبة للحياة الأبدية الخالدة؛ فلو علم الإنسان ذلك لما أُعجب بهذه الدنيا ولما باع سعادته الأبدية بأيّام معدودات يلتذ فيها في الدنيا. أمّا إذا أخطأ في معرفة هذه الدنيا وظنّ أنّها المَقصد، فإنّ جميع القيم والمبادئ التي يحملها ستتغيّر وستكون حساباته شيئًا مختلفًا وسيتعامل مع الحياة بصورةٍ مختلفةٍ. وسيكون بحثه عن السعادة منصبًّا على هذه الدنيا ليُحرم بعد ذلك من السعادة الأبدية. وعلى أي حال، فإن هذه المضامين العالية تمثّل قسمًا من هذه الوصية الإلهية التي بيّنها هذا الإنسان الكامل. ونقوم الآن بناءً على هذه الرؤية الإلهية بذكر العلاقات الاجتماعية المطلوبة.

معيار العشرة الحسنة

في هذا القسم من الوصية، يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فصلًا آخر من الأصول والمبادئ القيمية والمسائل الفائقة الأهمية المتعلقة بالعلاقات والروابط بين البشر. وسوف نلاحظ أنّ هذا المطلب سيتكرّر في موضع آخر من هذه الوصية الإلهية. وقد تعرّض له في هذا المقطع بأفضل تعبيرٍ وأحكَمه، حيث قال: «**وأيّ كلمة حِكَمٍ [أحسنُ كلمة حِكَمٍ] جامعةٍ أن تحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك وتكرَهُ لهم ما تَكْرَهُ لها**»؛ فالكلمة الحكيمة الجامعة التي يمكن أن تشير إلى العشرة وكيفية التعامل مع الآخرين هي: «أن معيار الأخلاق الحميدة هو أنت» فكأن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لابنه إنك تحتاج في تعاملك وتصرّفك وعشرتك مع الآخرين إلى معيارٍ وملاكٍ تشخّص وتقيس من خلاله السلوك الحسن والتصرّف اللائق. وبعبارةٍ أخرى، يصوّر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لنا الأمر بأنّ ابنه العزيز سيتعامل مع الكثير من



الناس خلال حياته، ولأجل أن تكون تصرّفاته صحيحةً، فإنّه يحتاج إلى المعيار الكامل والصحيح في المواقف المختلفة. وباختصار، إنّ هذا المعيار يقوم على أساس الرجوع إلى النفس. فعليه أن يعلم أصول التعامل مع الناس في رعاية حقوقهم ومخاطبتهم. ذلك لأنّ الإنسان يتساءل دومًا عن الأسلوب الأفضل في التصرّف الصحيح والمطلوب والملاك اللازم في العلاقات مع كل الناس من ابنه وزوجته وأمه وأبيه وصديقه وجاره إلى جميع الناس.

وقد حدّد الشرع الإسلامي المقدّس وذكر من الواجبات والمستحبات الجزئية للعشرة وما يقابلها من محرّمات ومكروهات ما هو مفصّل في محلّه. ولكن محور الحديث ها هنا هو معرفة المعيار الكلي مقابل الدخول في الجزئيات. فهل يمكن أن نبين معيارًا كليًا وجامعًا بحيث نرجع إليه عند كل موقفٍ وتصرّفٍ لنعرف الصحيح من الخطأ ونصوّب جميع أعمالنا بناءً عليه؟ فلو كان مثل هذا الميزان موجودًا، فما هو؟ وكيف يمكن أن نستعين به لنميّز الصحيح من الخطأ في تصرّفاتنا ومسلكيّاتنا؟

هنا، نجد أنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ في مقام التعريف بهذا المعيار يبيّن أنه أعظم حكمة لا نجد نظيرًا لها أو شبيه فيقول: «**أحسن كلمة حِكَمٍ**». وهو الذي يشير إلى المعيار الكلّي المنحصر بنفس الإنسان، وذلك بأن يتصرّف الإنسان ويعامل الآخرين كما يحبّ أن يعاملوه. وهكذا يجعل الإنسان نفسه مكان الطرف المقابل ويقول لو كنت مكانه كيف أحب أن يُتعامل معي وعلى أساسه يتصرّف. فلو حصل الإنسان على هذا الميزان لاستطاع أن يحلّ الكثير من مشاكل العشرة والمعاملة. ومن الممكن أن يتطلب مثل هذا العمل في الأيام الأولى مقدارًا من التفكر والتأمل والتحمّل، ولكن بعد التمرين المتواصل يصبح ملكةً راسخةً ويكون منطلقًا لتعامله، على أساس أن يعامل الطرف الآخر كما يحبّ أن يعامله.

ثمرة العشرة الحسنة

عند التأمّل المجدّد في هذا المعيار الجامع، نصل إلى عدة نُكاتٍ مهمّة وقيّمة. النكتة الأولى تتعلّق بسعة دائرة إعمال هذه القاعدة. هذا الأمر يعني أنّنا بلحاظ إعمال هذا المعيار سنكون قد حصلنا على ملاكٍ تام لأعلى القيم وبفعالية واسعة، يحدّد لنا مسؤوليّتنا في جميع نطاقات السلوك. والنُكتة الأخرى تتعلّق بعلّة بيان

هذا المعيار ولماذا ينبغي أن نضع أنفسنا مكان الآخرين؟ ومن الواضح جدًّا أنّ كيفيّة التعامل مع الآخرين ترتوي من نبع الرؤية الكونية المتعلّقة بمعرفة الوجود والإنسان وهي: أنّ جميع البشر متساوون في الإنسانية والكرامة. فطبق ما بيّنه جميع الأنبياء والكتب السماوية، فإنّ كل البشر قد وُلدوا من أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة.





هذا بالإضافة إلى أنّه لو أشكل أحدٌ واعترض على اشتراك جميع الناس في الإنسانية والكرامة، أو شكّك في ذلك، فإنّه لا يستطيع أن ينكر التوقّعات المتقابلة الموجودة عند الناس. فلا يصحّ أن يتوقّع من الآخرين أن يتصرّفوا معه بشكلٍ خاص، ولكنّه مع ذلك لا يفعل في المقابل. بل إنّه يذعن ويسلّم بأنّه إذا كان لدينا توقّعات من الغير، فهم بدورهم لديهم توقّعات منّا. من هنا، إذا أردنا أن نفهم ما يتوقّعه كلٌّ من الآخر، ونعرف كيف نتصرّف مع الآخرين، يجب علينا أن نضع أنفسنا مكان الطرف الآخر ونسأل ما الذي نتوقّعه منه، فيكون هذا ما يتوقّعه هو منّا أيضًا. والذي يُعدّ حجر الأساس لمثل هذه الرؤية الكونية ويمثّل البنية التحتيّة لهذه القيمة العمليّة هو هذا التوجّه إلى الكرامة الإنسانيّة والاهتمام بالحقوق والواجبات المتقابلة.

فينبغي الالتفات إلى أنّ جميع الناس لهم حقوقٌ وعليهم واجباتٌ مقابل بعضهم البعض، وأنّنا جميعًا بشر نشترك في الإنسانية والكرامة ويجب أن نعيش وسط الحياة الاجتماعية، ومن دون رعاية وحفظ هذه العلاقات الاجتماعية السليمة، لا تنتظم حياتنا ولا نتمكّن من تحقيق أهدافنا الماديّة والمعنويّة. لهذا، يجب أن نتحمّل مسؤولياتنا تجاه بعضنا ونراعي هذه الحقوق المتبادلة بغضّ النظر عن تلك الخصوصيات الشخصيّة والعرقيّة والمستويات الاجتماعية. فبالمقدار الذي نتوجّه فيه إلى إنسانيّتنا ونحن في مجتمعٍ واحد لا نستغني عن الحياة الاجتماعية ونحتاج إلى هذه العلاقات المتبادلة، يكفي لكي نلزم أنفسنا برعاية العلاقات الاجتماعية المتبادلة أن يكون لدينا مثل هذا التصرّف اللائق الذي سيتحقّق ويحصل من خلال هذا المعيار الذي نجعل أنفسنا فيه محلّ الآخرين.

وهذا الكلام الحكيم لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقدّم لنا معيارًا جامعًا من أجل تحديد نوع التصرّف وكيفية العلاقات المتبادلة والسلوكيات الاجتماعية بحيث لو بذلنا كل جهدنا لما تمكّنّا من تبيان ملاك أو معيار أفضل وأرقى منه. فلو جعلنا هذا المعيار ميزانًا لجميع أعمالنا، فإنّنا سوف نعيد النظر في كل ما نحبّ ونبغض وفي جميع توقّعاتنا وأحكامنا ونضفي على سلوكياتنا الصبغة الصحيحة.



إنّ هذه القاعدة تتمتّع بالشمولية والجامعية والكلية فهي فوق جميع المؤثّرات الثقافيّة والعقائديّة والحقوقيّة وغيرها. فيكفي أخذ الإنسانية لنخلص إلى شمولية هذا المعيار الجامع. وهو شاملٌ لجميع أنواع السلوكيات، وفي جميع الثقافات والقوميات وغيرها. ففي الأسرة الواحدة، وبغضّ النظر عن الخصائص السلوكية للزوجين والصفات الأخلاقية التي يمتلكانها، سيكون هذا المعيار مفيدًا وفاعلًا. حتى لو كان لكلٍّ من الزوجين أحكام وتكاليف خاصة به، ولكن في العلاقات المتبادلة يتوقّع كل منهما شيئًا من الآخر. وهما يتساويان في هذه التوقّعات. وفي ظلّ هذا المعيار، يمكنهما أن يضفيا الشكل المناسب على تلك التوقّعات، ذلك لأنّ أي إنسانٍ من حيث إنّه إنسان ينتظر من الآخرين ما ينتظرونه منه. ففي العلاقات الأسريّة المتبادلة، لو أراد أحد الزوجين أن يفرض شيئًا على الآخر، فمعنى ذلك أنّه قبل بأن يعامله الطرف الآخر بالمثل. فإذا كان الإكراه بالنسبة لي تصرّفًا سيّئًا فهو سيّئٌ عنده؛ ولو كان الشيء حسنًا بالنسبة لي فهو كذلك بالنسبة له. وهذا الأمر نفسه يجري على العلاقة بين الأب وابنه من حيث إنّهما إنسانان يعيشان معًا ويشتركان في العلاقات، ومسؤولية كلّ واحدٍ تتّخذ شكلًا معيّنًا وخاصًا به بغض النظر عن خصوصية الأبوّة والبنوّة، حيث يكون للأب مجموعة من الحقوق تختلف عن حقوق ابنه وبالعكس. فمن أجل أن تتحقّق العلاقة الصحيحة بينهما يجب على الأب أن يفترض نفسه ابنًا وعلى الابن أن يفترض نفسه أبًا، ومن ثمّ يتصرّف كلٌّ منهما على أساس ما يحبّ من تعامل الأب مع ابنه والابن مع أبيه. وكمثالٍ: كل واحدٍ منّا يستحضر شيئًا من طفولته ويتذكّر كيف أنّه لم يكن أحيانًا يحبّ تصرّف أبيه أو أمّه حتى أنّ الأمر كان يصل إلى الشجار أحيانًا.

وها قد صرت أبًا، فيجب أن تترك ذلك التصرّف الشائن مع ابنك ولا تتصرّف معه كما كان يتصرّف أبوك معك، ممّا لم تكن تحبّ وترضى. فإذا كنا نحب أن يتصرّف آباؤنا معنا في ظروفٍ معيّنة بنحوٍ خاص، فعلينا أن نعامل أبناءنا كذلك: فحين كنا نخطئ، كنا نحب أن يطلعنا آباؤنا على أخطائنا بصورةٍ محبّبة وليس من خلال الاستبداد والتسلّط. ونحن الآن علينا أن نتصرّف مع أبنائنا مثلما كنّا نحبّ أن يتصرّف آباؤنا معنا. فليفترض كل واحدٍ منّا نفسه ابنًا ويتصوّر ابنه أباه: فكما أنّنا كنّا نحب أن يتصرّف آباؤنا معنا بطريقةٍ مناسبة وهادئة فلنتصرّف الآن بهذه الطريقة. وهكذا ينبغي أن تنتشر هذه الروحية وهذا النمط من التعامل بين جميع الناس. ولو

وضع كلّ واحدٍ منّا نفسه محل الآخر لانحلّت أكثر مشاكلنا الاجتماعية.

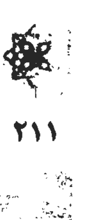


طريقة العمل بمعيار العشرة

وحيث إنّ هذا القسم من الوصية يتمتّع بأهمية خاصة ويحتوي على مطلبٍ جديدٍ وبديهي، فإنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ يكمل وصيّته بمثل هذه العبارات: «**يا بُنَيّ تَفَهَّم وَصِيَّتِي**»، لكي يلفت نظر مخاطبه بشكلٍ كامل ويجعل كلامه مستقرًا في أعماق نفسه ثم يقول: «**اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزانًا فِيما بيَنَك وبيْنَ غَيْرِكَ**»؛ كل ذلك لكي لا نواجه المشاكل. ولكن كيف ذلك؟ إنّه كما قال: «**أَحْبِب لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**»؛ فإذا كنت تحبذ أن يقوم الناس بهذا العمل لك، فضع نفسك مكانهم وقم أنت بهذا العمل. فما تريده لنفسك، أرده لغيرك، لأن الناس بشرٌ مثلك. ومن جانبٍ آخر: «**وَاكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَه لنفسك**»؛ فما تعتبره سيّئًا وتعدّه قبيحًا، اعتبره كذلك بالنسبة للآخرين. ولا شك بأنّ إعمال هذا المعيار في دائرة الأعمال والأفعال له نتائج جميلة، ويبيّن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ عدّة نماذج منها في تتمة كلامه: فلو تمسّكنا بهذا المعيار بدقّة وعلى الدوام، لما ظُلم أحد. ذلك لأنّكم لا تحبّون أبدًا أن تُظلموا أو يُعتدى عليكم، إذًا لا تظلموا أحدًا: «**لا تَظْلِمْ كما لا تُحِبُّ أنْ تُظْلَمَ**».

فالآخر هو إنسانٌ مثلك وله توقعاتٌ مشابهة لتوقّعاتك. ولو جعل كلّ إنسانٍ نفسه ميزان أعماله، لما ظلم غيره. ولو حكمت هذه العقيدة في المجتمع، لما وقع ظلمٌ على أحد ولاختفت نسبةٌ مهمّة من المشاكل. والوجه الآخر للعملة يتضّح بقوله عَلَيهِ السَّلَامُ: «**أَحْسِنْ كَما تُحِبُّ أنْ يُحْسَنَ إليكَ**». فإذا كنت تعدّ شيئًا كالإهانة وقلّة الأدب والاستهزاء والبحث عن عيوب الآخرين والطعن بهم قبيحًا، فعليك أن تعتبر ذلك بحق الآخرين قبيحًا أيضًا وعليك اجتنابه. فكيف تُعدّ عدم احترام الآخرين لك هو عملٌ قبيح، بينما لا تعتبر عدم احترامك للآخرين كذلك؟ لذلك، «**واسْتَقْبِحْ لِنَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النّاسِ ما تَرْضى لَهُمْ مِنْكَ**». فما يجعلك راضيًا عن الآخرين، يجعلهم راضين عنك أيضًا. كما أنّك إذا كنت تحبّ أن يفعل غيرك شيئًا ما فعليك أن تقوم به لإرضائهم.

وهكذا، وبالالتفات إلى ما ذُكر، يقوم أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ ببيان أحد المصاديق البارزة لكيفية التعامل مع الآخرين في مجال سلوك العالم والمتعلّم،



والذي ينبغي أن تتمسّك به بشدّة. وهذا المصداق المهم يمكن أن يتضح من خلال هذه الجملة: إذا لم تكونوا تحبون أن تُصابوا بمشاعر الأسى والانزعاج من عمل الآخرين، فلا تفعلوا ما يؤدي إلى انزعاجهم. فعلى سبيل المثال، إذا كنتم لا تعلمون ما تُسألون عنه، فقولوا بصراحةٍ إنّنا لا نعلم. فكما أنّكم تتوقّعون من الذي لا يعلم أن يقول لا أعلم، لئلا يوقعكم بالضلالة والحيرة ويؤدي إلى انزعاجكم، فإنّ غيركم يتوقّع منكم أن تقولوا بكل صراحة إنّنا لا نعلم، حين يسألونكم عن شيءٍ لا تعلمونه. فلا توقعوا الآخرين بالانزعاج والضيق.

ففي مجال الجواب عن أسئلة الآخرين، تصرّفوا كما تتوقّعون أن يُتصرّف معكم. فإذا كنتم تعلمون أجيبوا، وأمّا إذا كنتم تشكّون، فلا توقعوا السائل بالحيرة والضياع. فأولئك الذين لا يعلمون، ولا يقولون بصريح العبارة لا نعلم، ويبدون رأيهم بالرغم من جهلهم، فإنّهم لا يتصرّفون تصرّفًا صحيحًا، ذلك لأنّ ما نتوقّعه من الآخرين هو أن لا يجيبوا عن جهلٍ فيوقعونا في الضياع. وما نتوقّعه هو أن يقولوا لا نعلم عند جهلهم. لهذا إذا كنتم لا تعلمون لا تجيبوا. والمرحلة التالية هي الصمت عن الكلام حتى مع العلم: «**ولا تَقُلْ بما لا تَعْلَمُ، بَلْ لا تَقُلْ كُلّ ما تَعْلَمُ ولا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أن يُقالَ لَكَ**». فعليكم أن تحلّلوا كلامكم إذا كان فيه نفعٌ ومصلحةٌ، وإذا أدّى إلى فسادٍ وهدّد العلاقات الاجتماعية، فلا ينبغي أن تتفوّهوا به أو تعلنوه. فافترضوا أنّكم شاهدتم شخصًا يتحدّث عن رفيقه بصورةٍ قبيحةٍ وأنتم تعرفون هذا الرفيق. فإذا ذهبتم إليه وأخبرتموه بما سمعتم - حتى لو كان كلامكم حقًا وكان ذلك القائل متعمّدًا - فإنّ ذلك لا يكون لصالحهما وسوف يزلزل صداقتهما. لهذا، لا ينبغي أن تقولوا كل ما تعلمون.. وإذا كنتم تشكّون في فائدة الكلام ضعوا أنفسكم مكان السامع، وصحّحوا عملكم بناءً عليه.

الإعجاب آفة العلاقات الاجتماعيّة السليمة

رغم وجود هذا المعيار المتقن لآداب العشرة، فإنّنا نجد أنّ الكثير من الناس لا يراعونه. فهناك الكثير من الأشخاص ليسوا مستعدّين للتصرف كما يتوقع الآخرون منهم. وهؤلاء لا يضعون أنفسهم مكان غيرهم، بل يظنون أنهم نسيجٌ من قماشٍ آخر. ولكن ما يهمّنا هنا هو أن نتعرّف على السبب الكامن وراء مثل هذا السلوك. وأن نعرف جذور هذا المرض، ومن أين ينشأ ومن أي ساقية يُروى؟ وما هي أسباب

هذا الانحراف. فيقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهاية هذا الفصل: «**وَاعْلَمْ أنّ الإعْجابَ ضِدُّ الصّوابِ»؛** فإن أساس المشكلة هنا هو هذا الإعجاب بالنفس. فحين يرى المرء نفسه متميّزًا عن الآخرين وكأنه من كوكبٍ آخر، فإنه لا يكون مستعدًا للتعامل معهم على أساس المساواة، والتصرّف بحسب ما يتوقّعون. فهو في نفسه يتوقع ذلك منهم، ولا يحب أن يتوقعوا منه الأمر نفسه. ولا شك بأن العوامل الأساسية لمثل هذا التبرير الذي يتفوّه به البعض متفاوتة. وأحدها أن يرى الإنسان نفسه أفضل من الآخرين فيتكبّر عليهم، كأن يظنّ نفسه عالمًا وغيره من الجهّال، فيقول: «لأنني عالمٌ ينبغي أن يحترمني الناس، ولا يجب عليّ ذلك». أو ذلك الغني الذي يقول: «لأنني ثريٌّ، يجب أن يحترمني الناس». أو ذلك الذي يظنّ نفسه مؤمنًا وغيره من أهل المعاصي، ويفرض عليهم أن يحترموه من دون أن يحترمهم. فمثل هذه التصورات المغلوطة تؤدي إلى الوقوع في هذا الخطأ، وتكون سببًا لأن يدوس الإنسان على المعيار الحكيم للعشرة، ويسلك طريق الضلالة. فأول خطوةٍ في انحراف الضالين تبدأ حين يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، ويتصورون لأنفسهم تلك الامتيازات المفقودة عند غيرهم. وهذا أسوأ مرضٍ يمكن أن يُبتلى به الإنسان، لأنه يؤدي إلى هلاكه في الدنيا والآخرة.

ولهذا، يجب التعامل مع هذا المرض بشكلٍ جدّي. وعلى الإنسان أن يسعى ليكون دومًا ممن يرى نفسه أقلّ من الآخرين. وإذا كان في الواقع متنعمًا ببعض المزايا مقارنةً مع غيره، فعليه أن يعدّها أمانةً إلهية أودعها الله عنده وليست ذاتية له. فهل يمكن شراء الفخر بالمال المستعار؟! أضف إلى ذلك، كيف وبأي دليلٍ يضمن هذا الإنسان أنه سيبقى محتفظًا بتلك الأمور إلى آخر عمره؟ فقد يخسرها أو تنتهي عاقبته بالشرّ، وإذ بذلك الذي كان يعدّه جاهلًا وعاصيًا يهتدي ويصبح من أهل الجنة. أما هو فيضلّ ويهوي في جهنّم! وبحسب المثل الشائع: يجب عدّ الدجاجات في آخر الشتاء. فمن يدري ماذا ستكون عاقبة حياته؟ هناك نماذج كثيرة لأشخاص قد شاهدناهم في حياتنا، كانوا في أوج المجد وإذ بهم يسقطون في قعر الهاوية. من هو الذي يستطيع أن يطمئنّ لمصيره؟ يجب أن يسعى الإنسان دومًا أن يعدّ نفسه أقلّ من الآخرين، لكي يصبح التواضع عليه سهلًا، ويسهل بذلك عليه رعاية حقوق الآخرين، ويقلّ انتظاره منهم وينجو من فخّ العجب والغرور.

فالسرّ إذًا في أن البعض لا يتقيّدون بهذا المعيار التربوي والاجتماعي



والأخلاقي الجامع، ولا يكونون مستعدّين لوضع أنفسهم مكان الآخرين، هو أنّهم يرون أنفسهم أفضل وأميز من غيرهم. ويقولون في أنفسهم يجب أن أميّز نفسي عن غيري. لهذا، فإنهم يضعون لسلوك الآخرين قواعد ومعايير، ولكنّهم ليسوا حاضرين أبدًا للخضوع لها، ذلك لأنهم في الواقع قد وقعوا أسرى الفخر والعجب وغرقوا في محورية الذات والرضا عن النفس. فلو رأى الإنسان نفسه كغيره، فإنه لن ينتظر منهم ما يكون في غير محله. ولكن الذي يظنّ نفسه متميّزًا وليس من نسيج الناس فإنّه لن يعمل أبدًا بهذه الحكمة العملية. كالذي يقول: «يجب على الآخرين أن يبدأوني بالسلام؛ ويجب على الآخرين أن يحترموني؛ ويجب أن لا يقفوا عند مواقفي؛ ويجب عليهم أن يؤمّنوا ما أحتاج إليه وليس عليّ ذلك، ويجب عليهم أن يخضعوا لي وليس عليّ ذلك وغير ذلك كثير»، فمثل هذا الشخص يعدّ نفسه من صنفٍ آخر. وإذا لم يذكر ذلك بصريح العبارة، لكنه قد عمّق هذه الروحية في وجوده ونمّاها. لهذا، لا يمكنه أن يترك مثل هذا السلوك والإحساس. فلو فكّرنا جيدًا، ووضعنا أنفسنا مكان الطرف المقابل، وزنّا أنفسنا بالمعيار والميزان نفسه الذي نضعه لسلوك الآخرين، وعملنا وفقه، فإنّ مشاكل الحياة ستُحلّ. وبواسطة هذه الحكمة وهذه الجوهرة الفريدة التي لم ولن ينطق بها أحد، تصلح العلاقات الإنسانية وتنتظم.

فهذا أحد وجوه العملة، وأحد أنواع الأضرار الاجتماعية والعملية للعجب؛ وأمّا الوجه الآخر لها فهو ما يتعلّق بالآفات الفكرية والعلمية والعقلية. فكما أنّ العجب يجعل سلوك الإنسان منحرفًا، فإنّه يضرب عقل الإنسان وفكره. فالعقل الذي ابتُلي بالعجب لا يعمل جيدًا، وإنّما يهتدي إذا تحرّر من قيد العجب وصار تحت حماية الرسول الباطن والظاهر في الطريق المعتدل والمستقيم. فإذا نجا الإنسان من العجب والغرور، سيدرك طريق العبودية وسيتقدّم في محضر الله مع كمال الخشوع، ولن يرى نفسه شيئًا مذكورًا أمام الله. وعلامة نجاة الإنسان من العجب والغرور والضلالات هو أن يظهر بين يدي الله في مقام العبادة نهاية الخضوع والخشوع. وما دام العجب والغرور مسيطرًا على كيان الإنسان، فلن يقدر على جعل قلبه خاشعًا كما ينبغي. فما دامت الأنانية، لا يمكن حصول الخضوع والخشوع. وحين تنهزم «الأنا»، يظهر الخشوع. فإذا كنتم تريدون الحصول على الخشوع، يجب بالإضافة إلى تحصيل اللطف الإلهي أن تؤمّنوا أرضيّته، وتزيلوا

موانعه وتقضوا على العجب، وتدركوا ضعفكم ولاشيئيّتكم في محضر الله. هناك ستدركون حالة الخشوع، ويبدأ التحرّك نحو المقاصد العليا.

السعي هباءً

وقد أُضيفت على بعض نُسخ هذه الوصية جملتان، فرُوي أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**وَاسْعَ (فاسعَ) (واسعَ)**[1] **في كَدْحِكَ ولا تَكُنْ خازنًا لِغَيْرِكَ**»؛ وقد فسّر البعض هذه الجملة بأنها في مجال تحذير الإنسان من الكسل وحبّ الدعة من أجل تأمين سبل نجاته، وتحذيره من عواقب الحياة الشخصية الواهنة والكسولة. وقد قرأنا في «مواعظ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لأبي ذر»[2] أنّ الكسل والوهن يمنعان الإنسان من إدراك السعادة الواقعية. فمن كان في حياته الدنيوية كسولًا فإنه سيُبتلى أكثر بالوهن والكسل فيما يتعلّق بأمور آخرته. لهذا، ينبغي أن يكون المرء جدّيًّا ونشيطًا وكادحًا. فالإنسان الكسول والخامل يخسر دنياه كما يخرّب آخرته، ذلك لأنّ الدنيا ميدان التحرّك والسعي من أجل تحصيل النعم والامتيازات الأخروية.

وبعبارةٍ أفضل، إن هذه الدنيا هي أرض السير والسفر، فمثلما أن الإنسان حين يكون مسافرًا وتكون سيارته أسرع فإنه يفرح إذا سبق الآخرين، فإن سفر الآخرة هو كذلك، ولا ينبغي تضييعه عبثًا. فهذا العالم محلّ السعي ولا ينسجم مع الكسل. وهذا أحد المعاني المُستفادة من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَاسْعَ فِي كَدْحِكَ...**»؛ ولكن يوجد معنىً ألطف قد ذكره بعض الشرّاح والمفسّرين، لعلّنا نستطيع أن نبيّنه. ففي قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[3]؛ هناك مسألةٌ في غاية الأهمية تبيّن موقع الإنسان في حركته نحو الآخرة وتأثير الحياة الدنيا على الحياة الأخروية.

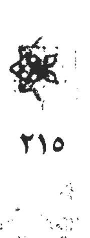
فحقيقة هذه الحياة هي السعي والتحرّك نحو الله: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وهو ما يُقال للذي يتحرّك ويبذل قصارى جهده على ذلك الطريق الذي ينتهي

---

(١) اختلاف النسخ

(٢) شرح وتفسير هذه المواعظ قد ذُكر في كتاب **زاد المسير** للمؤلّف نفسه الشيخ مصباح اليزدي (بيروت: دار المعارف الحكمية، الطبعة ١، ٢٠١٧).

(٣) سورة **الانشقاق**، الآية ٦.



إلى الله. وببيانٍ أدقّ، إن الحياة هي في الواقع سعيٌ لأجل ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[١]؛ أي إنّ الحياة سعيٌ لأجل الرجوع إلى الله ولقائه الذي يتحدّد في نهاية هذا السفر. فالمقصود من قوله تعالى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٢] هو أن الحياة عبارة عن كدحٍ وتحرّك دائم. ولا شك بأن هذه الحركة هادفةٌ وغايتها الله. لهذا، ما أجمل أن نسعى لكي نستفيد من هذه الحركة، ويكون سعينا إلى الله. وفي مجال توضيح هذا المقطع، من المناسب أن نعلم أن للإنسان نوعين من التحرّك والعمل: أحدهما تلك الأعمال التكوينية، وشاء أم أبى فهو في حركةٍ وهذه الأعمال ستُنجز وهذه الحركة ستتحقق، وإن كانت نهاية هذا العمل وذلك التحرّك ليس في صالح كل فرد؛ ذلك لأن الآخرة ليست هدفًا واحدًا متساويًا بالنسبة للجميع مع أنهم راحلون إليها من دون استثناء.

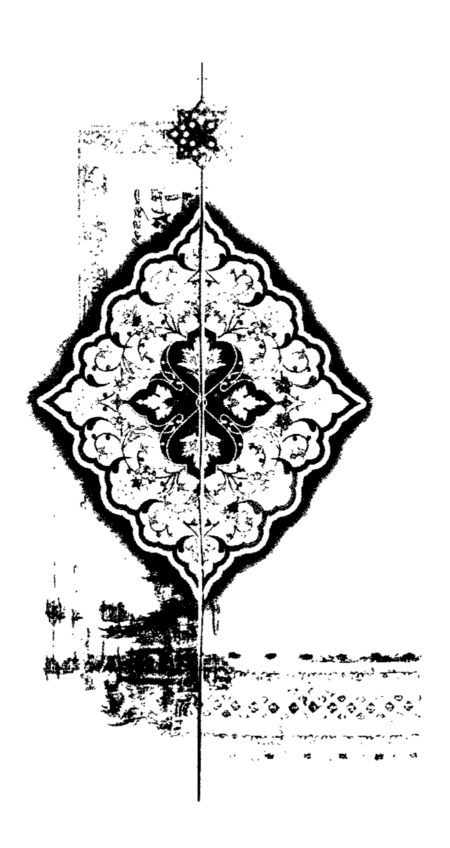
فالآخرة منزلان لا منزل واحد. وما يحدّد نوع المقصد في الآخرة هو الأعمال الاختيارية للإنسان حيث يذهب البعض إلى الجنة، ويؤخذ بالبعض إلى جهنّم. فهذا الكدح طبيعيٌ وتكوينيٌ بالنسبة للجميع. ولكن هناك من يستفيدون بشكلٍ صحيحٍ من هذا السير والتحرّك من خلال كدحهم الإرادي حيث يحققون سعادتهم. فلعلّ «**واسْعَ في كدْحِك**» هو أن يكون الإنسان كادحًا وجادًا في تحرّكه نحو الله، لكي يتمكّن من الاستفادة الصحيحة من هذه الحركة ويجني تلك الثمار الطيبة في المقصد والعاقبة. لهذا، يقول عليه السلام، مكمّلًا وصيته النورانية: «**ولا تَكُنْ خازنًا لِغَيْرِكَ**...»؛ وهذه الجملة أيضًا في غاية الإحكام لأنّها تأمر الإنسان بالتفكر في هذا السعي الطبيعي نحو الربح الأخروي لأن المقصد هناك، فلا ينبغي للإنسان أن يسعى لغيره! فإذا كنت تسعى فانظر ماذا جنيت لسعادتك الأخروية. ولماذا تسعى وتكدح بطريقةٍ يعود نفعها لغيرك ولا تجني منها شيئًا؟ لماذا تجمع المال والثروة في هذا العالم وتفتح حسابًا في هذا المصرف وحسابًا في ذاك المصرف حتى تبلغ رقم ثروتك عشرات الأصفار من دون أن تستفيد منها، وغدًا يأتي شخصٌ آخر يتنعّم بثروتك؟! فالإنسان العاقل لا يفعل ما لا يثمر في آخرته، بل هو في سعيٍ دائم لجني ثمار سعيه، والاستفادة منه في آخرته وإلا ذهب سعيه هباءً.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٥٦.

(٢) سورة **الانشقاق**، الآية ٦.





الدرس السادس عشر
أسوة الحياة

- لماذا ذمّ الدنيا؟
- مسيرة الحياة
- كيف نطوي مسير الحياة؟
- كيف نعيش خفافًا؟
- اختيار مسير الحياة



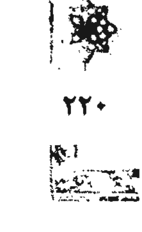


«وَاعْلَمْ يا بُنَيَّ أنّ أمامَكَ طَرِيقًا ذا مَسافَةٍ بَعيدةٍ، وأهْوالٍ شَديدةٍ، وأنّهُ لا غِنَى بِكَ عَنْ حُسْنِ الْارْتِيادِ، وَقَدِّرْ بلاغَكَ مِنَ الزّادِ مَعَ خِفّةِ الظّهْرِ، فَلا تَحْمِلَنّ على ظَهْرِكَ فَوْقَ بَلاغِكَ [طاقَتِكَ] فَيكونَ ثَقيلًا وَوَبالًا عَلَيْكَ، وإذا وَجَدْتَ مِنْ أهلِ الحاجَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زادَكَ [إلى يوم القيامةِ] فَيُوافيكَ بِهِ [غدًا] حَيْثُ تَحْتاجُ إليه فاغْتَنِمْهُ، واغْتَنِمْ مَنْ اسْتَقْرَضَكَ في حالِ غِناكَ وجَعَلَ قَضاءَهُ لَكَ في يَوْمِ عُسْرَتِكَ [وحَمِّلْهُ إيّاهُ، وأكْثِرْ مِنْ تَزويدِهِ وأنْتَ قادِرٌ عَلَيْهِ فَلَعَلّكَ تَطْلُبُهُ فلا تَجِدُهُ] وَاعْلَمْ أنّ أمامَكَ عَقَبَةً كَؤودًا [المُخِفُّ فيها أحْسَنُ حالًا مِنَ الْمُثْقِلِ وَالْمُبْطِئُ عَلَيْها أَقْبَحُ حالًا مِنَ الْمُسْرِعِ] لا مُحالَةَ أنّ مَهْبِطَها بك على جَنّةٍ، أو نارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ [وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلولِكَ فَلَيْسَ بَعْدَ الْموتِ مُسْتَعْتَبٌ وَلا إلى الدُّنيا مُنْصَرَفٌ»[1].

قد أشرنا إلى أن القسم الأكبر من وصية الإمام علي عليه السلام يدور حول بيان موقع حياة الإنسان في الدنيا وعلاقتها بالحياة الآخرة. ولا شك بأنّ هذا الأمر المهم يُلاحَظ بشكلٍ واضح في الكثير من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وفي أحاديث أولياء الدين وأئمة الهدى عليهم السلام. وقلّما نجد خطبةً واحدةً من **نهج البلاغة** لا يُشار فيها إلى هذا الموضوع. وما هو مهمٌ في هذا المجال هو الالتفات إلى سرّ مثل هذا التأكيد. وهذا ما سنقوم به هنا.

(١) وهذه العبارات قد أُضيفت في بعض النسخ.

لماذا ذمّ الدنيا؟



توجّه الإنسان ورغبته بالدنيا واهتمامه الشديد بها والسعي لتحصيل مقامها ومالها يؤدّي إلى نسيان الآخرة أو إنكارها من الناحية العمليّة، ولعلّ هذا هو السبب في تأكيد أئمّة الهدى على ذمّ الدنيا. في الواقع، إنّ الدنيا إنّما ذُمّت من ناحية أنّها تؤدي إلى غفلة الإنسان عن الآخرة، ذلك لأنّ مشاهدها ومسموعاتها الخدّاعة والجذّابة تستعرض نفسها دائمًا أمام الإنسان، وتجعل وجوده تحت تأثيرٍ يشبه الصاعقة وتحرك فيه الرغبة الشديدة لنيلها والحصول عليها. هذا في حين أن الآخرة لا تلامس الشعور الحسّي للإنسان بل هي بعيدةٌ عن إدراكاته الحسيّة، ما يجعلها بشكل طبيعيّ وشيئًا فشيئًا تبتعد عن مورد اهتمام الإنسان. لهذا، اهتمّ أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كثيرًا بذمّ الدنيا لئلا تُنسى الآخرة ويصبح الإنسان فريسة خُدع مظاهر الدنيا.

وبعبارةٍ أخرى، قلّما يفكّر الإنسان بالعالم الآخر الذي يكون بعيدًا عن حواسه. وإذا توجّه إلى الآخرة، فإمّا أن يقيم عليها البرهان العقلي، أو يطّلع على وجودها من خلال كلمات الأنبياء والأولياء، وهو مستوى من الوعي والتعقّل يكون ذات تأثير ضعيف جدًا على أهل الظاهر، ولا تأثير له على عملهم وسلوكهم وغالبًا ما يتمّ نسيانه. هذا في حين أنّ الظهور الدائم للدنيا أمام الإنسان يجعله منجذبًا إليها بشدة.

ومن النادر أن نجد مسلمًا يجهل الآخرة وعلاقة الدنيا بها أو يشكّ بذلك، ولكن بما أنّ هذه المعرفة لا تتجدّد كل يوم ولا تكون بالعمق المطلوب عند بعض الأفراد، فإنهم قليلًا ما يتوجهون إلى الآخرة في مقام العمل، وفي معظم أيام الحياة هم غافلون ويظنون أن ما هو مهم وما ينبغي أن يشتغلوا به هو هذه الأيام القليلة للدنيا وأن الحياة الواقعية والحقيقية هي الحياة الدنيا. وهم في الأساس غير ملتفتين إلى أن للآخرة حضورًا، بل ينسون أن الهدف والمقصد هناك. وأنبياء الله وأولياؤه هم فقط الذين لا يغفلون أبدًا عن هذه المسائل، ولكن عامة الناس عنها غافلون.

لهذا، يجب تذكير الإنسان بالحياة الأخروية وأهميتها لكي يعلم أن الحياة المحدودة في هذه الدنيا التي يسعى من أجلها ويخطط لها ويكدح من أجل



الوصول إلى مقامها ورئاستها، ليست سوى سفر عابر، بينما يكون المقصد والهدف في مكانٍ آخر. من هنا، كان التأكيد في **نهج البلاغة** وكلمات الأئمّة الأطهار والقرآن الكريم على ذمّ الدنيا والمفتونين بها مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ...﴾[١]؛ أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾[٣]؛ فهذا الأمر قد تكرر ذكره، والسبب هو أن للدنيا مظاهر خداع وجاذبيّة بينما قلّما تتجلّى الآخرة لأهل الظاهر. إن الإنسان، وبحسب الحياة الطبيعية، يدرك الدنيا من خلال الحواس الظاهرة، وتتجلّى مظاهرها دائمًا أمام ناظريه، ولكن إدراكه للآخرة ينبع من طريقٍ ليس له مثل هذا الظهور والتجلّي ولهذا لا تتجسّم الآخرة دومًا أمام أعين الناس وظاهرهم. لهذا، سيكون توجّه الإنسان إلى الدنيا وجاذبيتها أكثر، وسوف يقع بسببها في الغفلة عن الهدف والمقصد النهائي. لهذا يحتاج مثل هذا الإنسان إلى من يذكّره ويوقظه من هذا السُبات.

ونجد أن أمير المؤمنين عَلَيهِالسَّلَامُ يبيّن للإمام الحسن عَلَيهِالسَّلَامُ في العديد من المقاطع، ولعدّة مرّات، علاقة الحياة الدنيا بالآخرة وأهمية الآخرة. وها هنا قسمٌ آخر من تلك المقاطع: «**وَاعْلَمْ أنَّ أمامَكَ طَرِيقًا ذا مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ وأهْوالٍ شَدِيدَةٍ**».

لهذا، فإن الهدف من هذا التكرار طرد الغفلة من فضاء ذهن الإنسان وقلبه لكي يستيقظ من تنويم زخارف الدنيا الجاذبة التي لا تزال تعمل على إبقائه في سُبات الغفلة.

مسير الحياة

وكما مرّ، إنّ الحياة الدنيا عبارةٌ عن جسرٍ يعبره الإنسان إلى الآخرة. فهي طريقٌ

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٣٢.

(٢) سورة **يونس**، الآيتان ٧ و٨.

(٣) سورة **إبراهيم**، الآيتان ٢ و٣.



طويل مليئٌ بالمخاوف والمخاطر ولا بد للإنسان من أن يعبره. ولا شك بأن المسافة المذكورة هنا ليست مكانية جغرافية بحيث يتحرّك الإنسان من نقطةٍ ويصل إلى نقطة أخرى فيقطع من هذه المسافة عدة كيلومترات. بل إن هذه المسافة عبارة عن هذا العمر الذي يقطعه الإنسان.

ولهذا السفر خصوصيتان: إحداهما أنه طويلٌ جدًا وامتداده يفوق تصوّرنا وقدرتنا، وليس معلومًا متى ينتهي وأين. ولو بذل العقل تمام جهده وأسرع في حركته لما وصل إلى نهايته، ولبقي عاجزًا عن إدراكه. والخاصية الثانية لهذا السفر هي أنه مليئٌ بالمخاطر وهو مسيرٌ مهول، تكمن الانحرافات والمزلّات للإنسان لحظةً بلحظة وتسلبه القرار والهدوء. فإحدى تلك المزلات هي الغفلة التي يستتبعها عمرٌ من الندم ومئات الفراسخ من البعد عن الحق تعالى. فهذه الحساسية الفائقة تتطلب منا المزيد من الدقة وعلى الإنسان أن يكون شديد المراقبة لأعماله وسلوكه طوال عمره، ذلك لأن دقيقةً واحدةً من البطالة يعقبها خسرانٌ غير متصوّر. ويجب القول إن الأنبياء والأوصياء والأولياء هم الوحيدون الذين خبروا هذا السفر جيدًا. فأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده المكرّمون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يعلمون أين المقصد وكم يبعد وما هو الطريق الذي يوصل إليه. أمّا نحن فكلّما فكّرنا أكثر فهمنا أقلّ. وكأنه بسبب هذا الإدراك العميق، عجز الصديق والعدوّ عن فهم حياة عليٍّ والعيش على طريقته.

فها هو عَلَيْهِ السَّلَامُ يعمل في الأرض بالزراعة وحفر الآبار ولا يغيب عن ميادين الحرب والجهاد وقتال أعداء الله، وحين تولّى الحكم كان يتابع شؤون الناس. فما خلا أوقات العبادات الخاصّة والواجبة وبعض المستحبات المختصة، فقد كانت بقيّة أوقاته حافلة بالأعمال والنشاطات اليوميّة؛ وفي الليالي، كانت نشاطاته تتخذ شكلًا آخر، فكان يقضي قسمًا منها في متابعة أمور الفقراء والأيتام والمساكين والقسم الآخر في العبادة. ولم يكن ينام ويستريح سوى لبضع ساعاتٍ ثم بعد ذلك يقضي كل الليل في العبادة. تلك العبادة التي كانت ممتزجةً بالأنين والبكاء والنحيب من طول السفر وقلة الزاد، لأنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم أن الطريق طويلٌ والزاد قليلٌ. كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يدرك جيدًا أن لهذا المقصد الذي ينبغي أن يصل إليه مسيرًا طويلًا. أما أنا وأنت فمهما فكرنا لن ندرك إلا القليل.



وعلى أي حال، نستنتج من كلمات الأئمة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنّ بُعد هذه المسافة بالنسبة لنا غير قابلٍ للإدراك، وأنّهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا يعلمون ما لا نقدر على فهمه. فهل أن الذي يعلم أن الطريق الذي ينبغي أن يعبره طويلٌ سيتمكن من الاستقرار وقضاء وقته بالبطالة واللهو والثرثرة وغير ذلك؟! فمثل هذا الإنسان ينبغي أن يكون عاطلًا عابثًا حتى يشتغل بمثل هذه الأمور! وبالالتفات إلى نموذجٍ بسيطٍ من عشرات الموارد التي نشتغل بها يوميًا يمكننا أن نمتحن سلوكنا. فإذا كنتم ملزمين أن تقطعوا مسافةً قصيرةً كالطريق الذي يفصل مدينة قم عن طهران فباليقين إذا لم تصلوا إلى المقصد لن يقرّ لكم قرار، وستسعون قدر الإمكان مع رعاية الاحتياط من أجل الوصول إلى المقصد والمنزل. وإذا كنتم تقطعون هذه المسافة بسيارتكم الخاصة فإنكم ستراعون المزيد من الاحتياط. لهذا، ستتوقفون كل عدة كيلومترات لتفحصوا السيارة وتقوموا بكل ما هو لازم من مراعاة الاحتياطات اللازمة. وعلى أي حال، إن طبع الإنسان وعقله قد رُكّب بطريقةٍ إذا كان يعبر طريقًا ويقصد هدفًا، فإنه لا يغفل عن مراعاة الاحتياط المتعلّق بمسيره والوسيلة التي توصله إلى المقصد. وما لم يصل إلى هدفه لن يقرّ له قرار.

وهكذا مع هذا الوصف، فإذا كان الطريق غير معلوم النهاية، كيف يمكن أن نستقرّ عليه أو نرتاح من دون أن نعيش هواجس التأخر والانفصال عن القافلة!!

وما ذكرناه لحدّ الآن إنّما يشير إلى أحد أبعاد الموضوع والقضية. ولكن المشكلة الثانية ما زالت من دون حل. فليست المشكلة في طول المسير، بل إنّ هذا الطريق محفوفٌ بالمخاطر، ونحن معرّضون في كلّ لحظةٍ فيه للانزلاق في تلك الحفر المهولة والمنزلقات الصعبة، حيث إنّ أدنى غفلةٍ يستتبعها السقوط في قعر الوادي.

وباختصار، إن الطريق المطلوب قطعه بعيد المسافة ومحفوفٌ بالمخاطر دومًا حيث تتربص بنا في كل لحظةٍ آلاف المخاطر. ولو نظرتم حولكم جيدًا ودقّقتم في زوايا المسير لشاهدتم أولئك الذين انزلقوا، وعن الحق انحرفوا. أولئك الذين زلّت أقدامهم وما كان يخطر ببال أحد أبدًا أن يحصل لهم ما حصل، لقد انحرفوا عن مسير الحق ووقعوا في الشكوك والوساوس التي أوصلتهم إلى درجة الإنكار. ولا شك بأن هذا هو المقدار الذي نفهمه ونطلع عليه، في حين أن هناك الكثير من

المزالق التي حُجبت عن الآخرين فلا يطلعون عليها وبقيت أمورهم مستورة وقد وضع الحق تعالى الستر على أسرارهم. فلنحذر الغفلة عن المخاطر التي تحدق بنا في الطريق. وهكذا، فإن لمسير الحياة خصوصية: إحداهما أنه بعيد المسافة. والثانية أنه محفوفٌ بالمخاطر والأهوال: «**وَاعْلَمْ يا بُنَيَّ أنّ أمامَكَ طَريقًا ذا مَسافَةٍ بَعيدةٍ وأهْوالٍ شَديدةٍ**».

كيف نطوي مسير الحياة؟

حيث إنّ هذا الطريق بعيد المسافة ومليئٌ بالمخاطر، فماذا نفعل؟ هل يمكن أن نتوقف فنصون أنفسنا من الأخطار؟ والجواب واضحٌ ولا يحتاج إلى شرح وتفصيل، لأن الإنسان مضطر للسير في فلك الزمان الذي يسير به، شئنا أم أبينا نحن في حركةٍ نحو الآخرة، ويجب أن نفكر في المخرج لكي نصل إلى المقصد بسلامة. لهذا، يجب أن نخطّط للمسير من جميع جوانبه ونتحرّك بناءً على أساس التخطيط. يجب أن نتعلّم كيف نطوي المسير وما هي الوسيلة التي نستعملها للحركة، وما هو الزاد المناسب لمسافة الطريق؛ ذلك لأنّ الطريق الوعرة تحتاج إلى نوعٍ خاص من الزاد والراحلة، بخلاف الطريق البحرية مثلًا التي تتطلب نوعًا خاصًا من الزاد والاستعداد، وخصوصًا إذا كان الطريق طويلًا. فعلينا أن نتحرّك وفق تخطيط مسبق: «**وأنَّهُ لا غِنَى بِكَ عَنْ حُسْنِ الارْتِيادِ**».

والمعنى الدقيق لكلمة الارتياد بحسب المصطلح الرائج اليوم هو التخطيط. أي إنك لا تستغني عن التفكير الصحيح في هذا المسير، وعليك أن تمتلك هذا المنهج الصحيح في التفكير، وتتحرّك على أساسه مستفيدًا من الدليل والتحليل. لا بد لك أن تختار طريقك على أساس التخطيط والحسابات الدقيقة وتحمل معك الزاد المطلوب. ومن المناسب أن نذكر هذا المثال لأجل بيان المقصود: افرضوا أنكم تريدون السفر، وهذا السفر يحتاج إلى عشرة أيام وطوال المسير لا يوجد طعام. فلكي تصلوا إلى المقصد بسلامةٍ، يجب بالحد الأدنى أن تأخذوا معكم الزاد اللازم للأيام العشرة. فما يُعدّ «بلاغًا» يجب أن تحملوه معكم. وبعبارةٍ أخرى، يجب أن تأخذوا من الزاد ما يبلغ بكم المقصد، فلا يكون زائدًا عن الحد إلى الدرجة التي يجعل حملكم ثقيلًا ولا يكون أقلّ من الحدّ بحيث لا يكفي. فإذا كان الطريق قصيرًا نأخذ الغذاء المناسب له، وإذا كان بعيد المسافة نحتاج إلى





المزيد من الزاد. وبما أنّ مسير الحياة الدنيا غير محدودٍ كأنه طريقٌ بعيد المسافة، ينبغي أن يكون الزاد مناسبًا لهذا الطريق الطويل. فإذا كان الزاد أقلّ من المقدار الضروري، أدّى ذلك إلى التوقف في الطريق والهلاك، أما إذا كان زائدًا عن الحد المطلوب فإنه يجعل السفر صعبًا وشاقًا والتحرك بطيئًا.

لهذا، يجب أن نحسب بدقة وبتخطيطٍ مناسب ما نحتاج إليه من الزاد فلا يكون هناك إفراطٌ أو تفريط، لأن كلًا منهما موجبٌ للوقوع في الضرر مخالفٌ للتدبير ومقتضى العقل. وعمق الجهالة يكمن في أنّ بعض الناس يحملون من المتاع ما لا يحتاجون إليه، فلا يشكّل ذلك لهم سوى المزيد من المشقة ويمنعهم من الاستمرار في السير مع ما يصحبه من تعبٍ وأوجاعٍ للرأس. فحين يكون زاد السفر ثقيلًا، فإنه يبطّئ الحركة ويمنع من التقدّم السريع، بل إنه أحيانًا يؤدي إلى منع الإنسان من المسير. لهذا، يجب أن نلتفت وأن نحمل من المتاع ما يكون لازمًا للسفر لأنّنا من دونه لا نستطيع الاستمرار، وعلينا أن ندقق في مقداره فلا يكون زائدًا أو ناقصًا عن الحد المطلوب، لأن كلتا الحالتين تمنعان من الاستمرار في السير. وكلما كان الزاد أخفّ كان السفر أكثر راحة.

لهذا، يجب على الإنسان أن يراعي الاعتدال في هذا السفر الطويل المحفوف بالمخاطر. ففي الدرجة الأولى، يحمل ما يكفيه ممّا هو ضروريٌ، لأنّ القليل كالكثير يؤدّي إلى الخسارة. وفي الدرجة الثانية، يكتفي بما هو لازمٌ ويدع جانبًا ما لا يلزمه لكي لا يعيق سفره. فكما أنّه يحتاج إلى الزاد، عليه أن يكون خفيفًا لأن الحمل إذا ثقُل، يصل إلى المقصد متأخرًا ويستهلك الكثير من الطاقة، وقد يمنعه ذلك من السير: «**فَلا تَحْمِلَنّ على ظَهْرِكَ فَوْقَ بَلاغِكَ فَيكونَ ثَقيلًا وَوَبالًا عَلَيْكَ**».

كيف نعيش خفافًا؟

قد وصل بنا الحديث إلى هذه النتيجة وهي أنّ الحياة الدنيا سفرٌ طويلٌ مليئٌ بالمخاطر وأنّ التخفف في السفر أمرٌ مطلوبٌ وممدوح. لهذا من الضروري أن نعلم كيف يمكننا أن نعيش خفافًا، وكيف يمكننا أن نسلك هذا المسير براحةٍ. وهنا، يرشدنا أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ من خلال مثالٍ جميلٍ ويعلّمنا كيف نعدّ مثل هذا

السفر المريح فيقول إن عادة الناس إذا سافروا أن يفكّروا في وضع حملهم على عاتق غيرهم، ويعدّون ذلك ذكاءً وحنكةً. فأمنية المسافر الذي يحمل الزاد الكثير هو أن يضع حمله على عاتق رفيق سفره، وذلك من دون أن يدفع أجرةً أو يخسر شيئًا أو يمنّ عليه بمنّةٍ ويصل إلى مقصده سالمًا. فالعقل يمتدح مثل هذا العمل ويقول إنه لا يوجد أفضل من السير براحةٍ وبلوغ المقصد مع حملنا وزادنا. فلا يوجد من عاقلٍ لا يتمنّى ذلك، وإذا اقترح عليه هذا العمل يقبل به ويعجبه. فتدبير العقلاء ومقتضى حكم العقل هو أن نضع أحمالنا على عاتق غيرنا في أسفارنا، ونتحرّك بخفةٍ. ولكن للأسف فإنّ القليل من الناس من يفكّر بسفر الدنيا بهذه الطريقة أو يعمل بها. فقلّما نجد من يعطي من ثروته وماله في هذه الدنيا ما لا يحتاج إليه إلى المساكين والمحتاجين، ويسترجعها في ذلك اليوم الآخر الذي يكون فيه بأمس الحاجة إليها. ولا شك أنّ مثل هؤلاء الناس هم الأذكى والأوعى لأنّهم قبلوا أن يستودعوا زادهم عند من يحتاج إليه على أن يستردّوه حين الحاجة إليه من دون تحمل مشقّات السفر ومتاعبه.

هذا في حين أنّ الكثير من الناس يمتنعون عن أداء الحقوق الواجبة والوجوهات الشرعية المفروضة عليهم ولا يرون لغير هذه الدنيا وجودًا. أما تلك الطائفة فكأنها ترى يوم القيامة وخسران الدنيا والآخرة وتقارن كلًّا منهما بالآخر، لتصل إلى هذه النتيجة الطيبة وهي أن الدنيا سفرٌ والتخفف في السفر حذاقة.

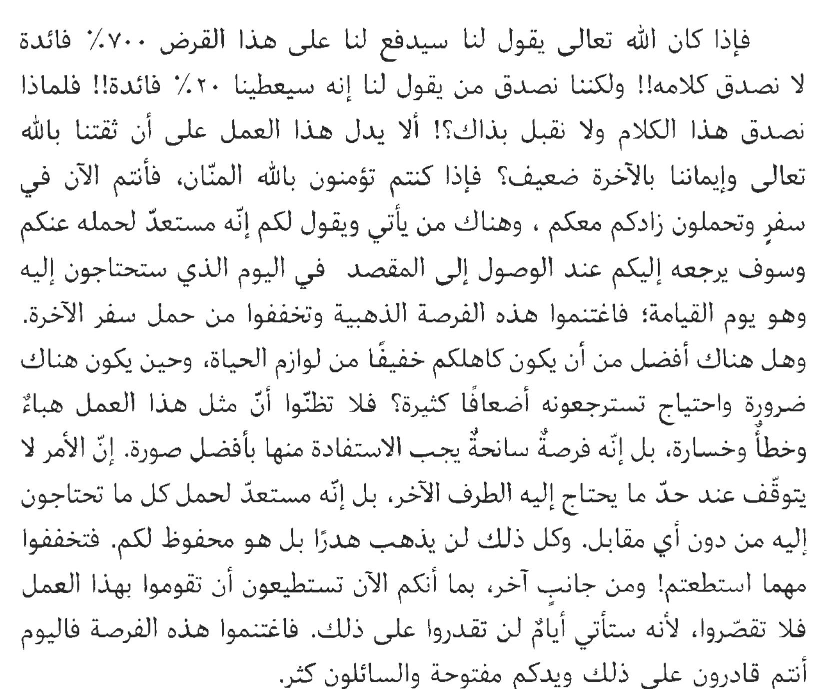
وما أجمل ما يبيّنه أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقام حيث يلفت أنظارنا إلى أنّ الدنيا سفرٌ ولا يوجد سفرٌ من دون زادٍ. فإذا عرض أحدهم علينا أن يحمل زادنا ويرجعه إلينا عند الحاجة لسارعنا إلى القبول وجعلنا حملنا خفيفًا. ذلك لأنّه بالإضافة إلى أنكم أصبحتم خفافًا فإنكم لن تضطروا أن تدفعوا أجرة هذا الحمل وهناك حين تحتاجون إليه ستنالون أضعافه. فالعاقل إذًا من وضع متاع الدنيا في هذا السفر على كاهل غيره. ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1]؛ وهل من لسانٍ أعذب من هذا اللسان وهل من مثلٍ أحلى منه؟! فالله الذي يملك كل شيء وبيده حياتنا ومماتنا وأرزاقنا وهو الذي وهبنا

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٤٥.

كل شيء يقول لنا أقرضوني، أي أعطوا الفقراء هذا المال الذي وهبتكم إياه لكي أرجعه إليكم أضعافًا كثيرًا. فإذا كنتم تؤمنون بأنّ هذا الوعد من الله جلّ جلاله، فلماذا لا تعملون به؟! فإذا لم تعملوا به فلا يعني ذلك سوى أنكم لا تؤمنون بكلام الله سبحانه ولا تثقون به.





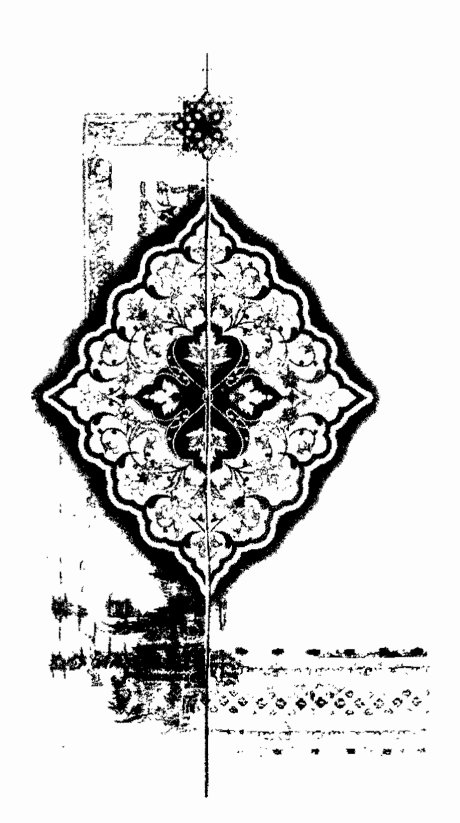
فإذا كان الله تعالى يقول لنا سيدفع لنا على هذا القرض ٧٠٠٪ فائدة لا نصدق كلامه!! ولكننا نصدق من يقول لنا إنه سيعطينا ٢٠٪ فائدة!! فلماذا نصدق هذا الكلام ولا نقبل بذاك؟! ألا يدل هذا العمل على أن ثقتنا بالله تعالى وإيماننا بالآخرة ضعيف؟ فإذا كنتم تؤمنون بالله المنّان، فأنتم الآن في سفرٍ وتحملون زادكم معكم ، وهناك من يأتي ويقول لكم إنّه مستعدّ لحمله عنكم وسوف يرجعه إليكم عند الوصول إلى المقصد في اليوم الذي ستحتاجون إليه وهو يوم القيامة؛ فاغتنموا هذه الفرصة الذهبية وتخففوا من حمل سفر الآخرة. وهل هناك أفضل من أن يكون كاهلكم خفيفًا من لوازم الحياة، وحين يكون هناك ضرورة واحتياج تسترجعونه أضعافًا كثيرة؟ فلا تظنّوا أنّ مثل هذا العمل هباءٌ وخطأٌ وخسارة، بل إنّه فرصةٌ سانحةٌ يجب الاستفادة منها بأفضل صورة. إنّ الأمر لا يتوقّف عند حدّ ما يحتاج إليه الطرف الآخر، بل إنّه مستعدّ لحمل كل ما تحتاجون إليه من دون أي مقابل. وكل ذلك لن يذهب هدرًا بل هو محفوظ لكم. فتخففوا مهما استطعتم! ومن جانبٍ آخر، بما أنكم الآن تستطيعون أن تقوموا بهذا العمل فلا تقصّروا، لأنه ستأتي أيامٌ لن تقدروا على ذلك. فاغتنموا هذه الفرصة فاليوم أنتم قادرون على ذلك ويدكم مفتوحة والسائلون كثر.

اختيار مسير الحياة

المقطع الآخر من كلامه عليه‌السلام يشير إلى أنّ هذا الطريق بعيد المسافة ومليئٌ بالمنعطفات والتقلّبات، وسوف ينتهي إلى تلك النقطة المهولة. تلك المنطقة التي يجب أن تصلوا إليها بعد كل هذه المنعطفات والمشقّات. فهناك في الطرف الآخر نهاية كل من الطريقين، وهي حتمية خارجة عن اختياركم. أحد هذين الطريقين ينتهي إلى الجنة والطريق الآخر ينتهي إلى جهنّم. ولهذا يجب أن تعملوا كل قواكم قبل الوصول إليها. أي ما دام هناك نفسٌ وما دمتم في هذه الدنيا

فعليكم أن تفكّروا بأنفسكم وبالحل وتختاروا مسيركم من هنا. أمّا إذا وصلتم إلى تلك النقطة ، فلن يكون عنان التحرّك بيدكم، وستفقدون القدرة على الاختيار، فنهاية هذا الطريق الطويل عند تلك النقطة، وقبل الوصول إليها يجب أن تدبّروا الأمر جيدًا، وأن تعملوا كل ما لديكم من قدرة من أجل الاختيار الصحيح والسير المطلوب لكي تعبروا تلك النقطة براحةٍ لأنكم إذا وصلتم إليها وأدركتم النفس الأخير لن تتمكنوا من الاختيار عندها. ولو قلتم ألف مرة: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۞ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾[1]، فإنّكم ستسمعون جوابًا واحدًا وهو أنّه قد قُضي الأمر ولا مجال للرجوع. وحيث إنّنا لن نعلم متى نصل إلى تلك النقطة، فيجب أن نختار طوال هذه المدة وفي كل لحظة من لحظات المسير الطريق الصحيح ونتحرّك عليه. لأننا إذا سلكنا الطريق الخطأ فلا يمكننا أن نرجع. وقبل الوصول إلى تلك النقطة والانتقال إلى العالم الآخر، يجب أن تخططوا لأنفسكم وتحددوا مسيركم. والاختيار الصحيح لهذا المسير هو هذا التخفف في التحرّك الذي أوصانا به أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ٩٩ و١٠٠.



الدرس السابع عشر
الارتباط بالله |١|

- الغفلة المطلقة عن النعم غير المحسوبة
- نعمة معرفة الله والإيمان به
- نعمة الارتباط بالله
- النعمة المطلقة بقدر القدرة المطلقة





«واعْلَمْ أنَ الْذي بِيَدِهِ خَزائِنُ مَلَكُوتِ الْدُّنيا وَالآخِرَةِ قَدْ أَذِن لِدُعائِكَ[١]، وَتَكَفَّل لإجابَتِكَ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطيكَ وَهوَ رَحيمٌ كَريمٌ، لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إلى مَنْ يَشْفَعُ لكَ إليه، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أَسَأْتَ مِنَ الْتَوْبَةِ وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالإنابَةِ، ولَم يُعاجِلْكَ بالنَقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ للفَضيحةِ وَلَمْ يُناقِشْكَ بالجَريمَةِ، وَلَمْ يؤْيِسْكَ مِنَ الْرَّحْمَةِ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في الْتوبَةِ، فَجَعَلَ تَوْبَتَكَ الْتَوَرُّعَ عَنِ الْذّنْبِ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ واحدةً وحَسَنَتكَ عشرًا، وفَتَحَ لَكَ بابَ الْمَتابِ والاسْتِعْتابِ، فَمَتى شِئْتَ سَمِعَ نِداءَكَ وَنَجْواكَ فأَفْضَيْتَ إليهِ بِحاجَتِكَ وأَبْثَثْتَهُ ذاتَ نَفْسِكَ وَشَكَوْتَ إليهِ هُمومَكَ، واسْتَعَنْتَهُ على أمورِكَ، ثمّ جَعَلَ في يَدِكَ مَفاتيحَ خَزائِنِهِ بما أَذِنَ فيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدّعاءِ أبوابَ خَزائِنِهِ».

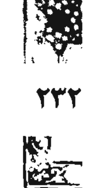
ويتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع من الوصية عن الدعاء وارتباط الإنسان بالله سبحانه وعن التوبة والطلب من الله، وفي حزمةٍ من النور والجمال يبيّن عليه السلام بعض النكات والجواهر النفيسة ويقدّمها للناس. ومن أجل أن نتمكّن من الاستفادة المُثلى من وصاياه، نقدّم للمطالب ببعض التوضيحات من أجل تحصيل المزيد من الاستعداد.

الغفلة المطلقة عن النعم غير المحسوبة

لكي يتحقق الإدراك العميق والكامل للنعمة والأمور القيّمة، يوجد طرقٌ متعدّدة.

---

(١) وفي هذا القسم من الوصية يوجد بعض الاختلاف في الألفاظ وتبديل العبارات في بعض النسخ.



وأحد هذه المناهج هو أن نقارن ما بين الحال الذي نتمتع فيه بهذه النعمة وحال فقدانها، ونرى كم هو الفارق بين هاتين الحالتين؛ عندها سندرك قيمة وجود تلك النعمة، لا بل لعلّنا سنحسّ بها بكلّ وجودنا ونتلمّسها. فجميع النعم الدنيوية، سواء المادي منها أو المعنوي، هي على هذا الشكل وإنما يمكن تقييمها بواسطة هذا المحكّ. وبحسب القول المعروف: لا يدرك قيمة النعمة إلا الذي حُرم منها. إنّ جميع النعم التي نتمتّع بواحدةٍ من كل منها هي بحدّ ذاتها قيّمة، وإحدى طرق الاطلاع على مستوى قيمتها هو مقارنة زمان وجود هذه النعمة بزمان عدمها.

وإنّ من أكبر النعم التي لا نعدّها نحن في الأساس نعمة هي نعمة الحياة الدنيا. أجل، إنّ العيش في هذا العالم من أكبر النعم التي منّ الله بها تعالى علينا، إلّا أنّ هناك الكثير من الناس، من شدة غفلتهم، يتساءلون عمّا إذا كانت هذه الحياة نعمة! فالإنسان، إنّما يفهم أن هذه الحياة نعمة عظيمة حين يُبتلى بمصيبةٍ ويشرف فيها على الموت ويرى نفسه في حالة نزع أو يشعر أنّ روحه في خطر، عندها سيفهم أنّ هناك شيئًا - اسمه الحياة - ذو قيمة فائقة. لا شك بأنّ المقصود من الحياة هنا غير الصحّة التي نتعرّف على قيمتها حين المرض. إنّ الصحة بحدّ ذاتها نعمة أخرى من جملة النعم الإلهية الكثيرة التي نغفل أحيانًا كثيرة عن وجودها، فكيف بإدراك قيمتها وأهمّيتها، فهذا ما لا نلتفت إليه أبدًا. نادرًا ما نتمكّن من إدراك أنّ كل عضوٍ من أعضاء البدن الظاهرية كالعين والأذن واليد والرجل وغيرها من الأعضاء الباطنية كالدماغ والكلية والقلب وغيره له قيمة. والأكثر إلفاتًا هو أننا نغفل أحيانًا عن وجودها، ولا نشعر بذلك إلا حين يحدق بها الخطر ونُحرم من صحّتها وكمالها وعندها ندرك مثل هذه النعمة الكبرى. فإذا ابتُلي الإنسان بمرض العين أو العمى سيدرك حينها نعمة العين والبصر وقدر هذه النعمة التي نحن عنها غافلون؛ وسيكون مستعدًا لبذل كل ثروته من أجل أن يستعيد نعمة البصر وصحّة العين.

في هذه الحالة، يُعلم كم لهاتين الحدقتين من أهمية! وهكذا بالنسبة لسائر النعم كاللسان والأذن وغيرها. فحين تكون معرفتنا وتقديرنا لهذه النعم الظاهرية والمادية بهذا المستوى، فماذا نقول بشأن النعم المعنوية؛ رغم أنّ للنعم المعنوية قيمة أكبر. ولو حُرمنا منها لا سمح الله لابتلينا بالأمراض التي لا يمكن علاجها، ذلك لأنّ معالجة النعم الظاهرية ممكنةٌ، ولكن علاج النعم المعنوية صعبٌ وأحيانًا يصبح



مستحيلًا. وإحدى أؤلى هذه النعم نعمة الذاكرة. فإذا فقد الإنسان ذاكرته يومًا ما، فإنه سيعلم أهمية وجودها وقيمتها التي لا حدّ لها، لأنه ينسى كل شيءٍ ولا يتعرّف بعدها على أمه وأبيه وابنه وزوجته، وتصبح حياته في شللٍ تام ولن يتجرّأ على الخروج من منزله أو الابتعاد عن وسائله الضرورية؛ ذلك لأنّه في مثل هذه الحالة لن يتمكّن من استحضار أي شيءٍ في ذهنه، ولن يعلم أين هو وماذا يفعل وماذا ينبغي أن يفعل. فإذا حصلت مثل هذه الحالة، نفهم عندها أن هناك نعمة باسم الذاكرة ومدى قيمتها. أو إذا أخذ الله تعالى من الإنسان ذرّة من عقله وعرضت عليه حالة الجنون، فعندها يكون الموت بالنسبة له أسهل من هذه الحياة وأعذب، ذلك لأنه سيرى الناس يتعاملون معه على أنه أحطّ من الحيوان.

نعمة معرفة الله والإيمان به

إنّ وجود الإنسان وذهنه مركّبٌ بطريقةٍ كأنّه ما دام يعيش في ظلّ نعمة من نعم الله تعالى ولم تتعرّض للخطر أو تُسلب منه، فإنّه لا يدرك أهميتها أو وجودها وربما لا يرى لها من قيمة. حتى إذا ابتُلي بفقدانها علم ما كان يجهل. فهذه هي حالة الإنسان وروحيّته تجاه جميع النعم الإلهية. ومن بين جميع النعم وأعظمها وأوّلها هناك نعمة معرفة الله تعالى. نحن لا نقدر على إدراك قيمة معرفة الله تعالى. فمع هذا القدر من الإيمان الضعيف - الذي نعترف به جميعًا - فإنّنا ندرك قيمته وضرورته حين نُبتلى بالشك والشبهات. فلو انطفأت شعلة الإيمان فينا لعرفنا ما الذي سيشتعل مقابلها ويحرق وجودنا ويسلبنا طريق النجاة. ولو انقطع ارتباطنا بالله تعالى لا سمح الله، بحيث لم يبقَ فينا ذرّة من الإيمان ولم نعد نشعر بقلوبنا بالارتباط بمن يمكن أن يسمع كلامنا ويشفي أمراضنا، فلن نعيش سوى الحيرة والضياع والخزي. وبقول ذلك الحكيم: لم تكن من دون ربّ لتعلم أي ألم ستعاني. فلأننا لا نعلم عن أولئك الذين سُلبوا نعمة الإيمان في أي وضعيّة من الشقاء والضلال يرتعون، فلذلك لا نقدّر قيمة إيماننا الضعيف ولا نعرف قدره، ونحن غافلون عن مدى تأثيره في الحياة الدنيا؛ ولا شك بأنّ تأثيره في الآخرة وفي السعادة الأبدية مما لا يمكننا إدراكه أو قياسه، فإنّه يفوق مستوى عقولنا.

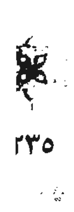
نعمة الارتباط بالله





بعد نعمة الارتباط بالله جلّ جلاله، هناك نعمة معرفته والايمان به، التي تُعد أعظم النعم الإلهية. من الجدير أن نقف عند هذا المثال وإجراء مقارنة حتّى ندرك هذه النعمة ونطّلع على قيمتها العظيمة. تصوّروا مثلًا أنّنا نريد لقاء الله تعالى باعتماد الإجراءات المتعارفة في عصرنا هذا عند لقاء الشخصيات الكبيرة، فكم سنصرف من الوقت والجهد؟! فأنتم لو أردتم أن تقابلوا رئيس دائرةٍ معينة، فإنكم لن تتمكّنوا من القيام بذلك بسرعةٍ وراحةٍ ومن دون مشقة، بل تحتاجون للقاء بعدّة مسؤولين ووسطاء كرئيس المكتب ومسؤول العلاقات والمسؤول الأمني والحراسة وغيرهم، والذين لا يأذنون لكم بمثل هذا اللقاء بسهولة. وحتى لو كان هذا المسؤول شخصًا صادقًا وشعبيًا ومنصفًا وعادلًا ويحب الناس ومتواضعًا وصاحب إدارةٍ وتدبير بحيث إنه يراعي المواعيد بدقة ولا يضيّع حق أحدٍ، فإنّكم مع ذلك وبسبب كثرة المراجعين ومحدودية الوقت لن تتمكنوا بسهولة من ملاقاته وفي الوقت الذي تريدون. فالمراجعون كثر والمطالب كبيرة. وهو في الوقت نفسه إنسانٌ ووقته محدودٌ.

ومن جانبٍ آخر، فإنّ دائرة صلاحياته تحدّد وقته، فكلّما ازدادت سلطته وعلت مسؤوليته، ازدادت دائرة نفوذه واتّسعت، وبالتالي ازداد عدد الذين يريدون التواصل معه، فيضيق وقته أكثر. فلو كان مالكًا للأرض والسموات وهي كلّها تحت حيطته، فإنّ طلبات اللقاءات والمراجعات ستزداد بالقدر نفسه، وسيكون وقته أكثر محدوديّة وإمكانيّة اللقاء به أقل. هذا حال من كانت مسؤوليته وسلطته وعظمته محدودةً، والتي كلما ازدادت واتّسعت أدت الى المزيد من المحدودية في الوقت والفرصة وجعلت لقاءه شبه مستحيل. وهكذا، إذا نظرتم إلى من كانت عظمته لا حدّ لها ومسؤوليته كذلك، وأراد أن يعطي لكلّ من يبتغي لقاءه وقتًا محددًا فلو كان عمره مئة سنة ربما لن تسنح له دقيقة واحدة لكل المراجعين والمطالبين.. فلو انتقلنا بهذا الترتيب من رئيس الدائرة إلى المحافظ إلى قائد البلاد ومن ثم إلى ملك الأرض والسماء والكواكب، فإننا كلما تقدّمنا في الرتبة ازدادت المراجعات وضاق الوقت وقلّت حصة كل واحد من المراجعين. وباليقين، إذا كانت عظمته وسلطته غير متناهية، فإنّ حصة كل فردٍ ستكون ما يقارب الصفر من الوقت. هذا الكلام هو وفق الفكر البشري المتداول. أما إذا كان مرتبطًا بلقاء الله سبحانه، فإن



الوضع سيكون مختلفًا تمامًا.

فبالرغم من تلك العظمة اللامتناهية فإن إمكانية الوصول إليه في غاية السهولة، ولا يوجد أي حدٍّ وتحديد. فأينما كنتم وفي أي زمانٍ وعلى أي حال يمكنكم أن تتّصلوا به. ولا يحتاج الأمر لأكثر من ضغطة زرٍّ واحدة مشفوعةً بالتوجّه القلبيّ. فلا وجود للمسؤول أو الوسيط أو الحاجب ولا حاجة إلى موعدٍ مسبق ولا إلى تسجيل الاسم ورعاية الدور. فاحكموا بأنفسكم هل يمكن لنا إدراك قيمة هذه السهولة في الاتّصال بالمحبوب السرمدي؟! إنّ من يقدر على إدراك جمال هذا المعنى وقيمة هذه النعمة هو الذي بقي ينتظر لقاء محبوبه لسنواتٍ طوال والصبر يكاد ينفد منه؛ فمثل هذا الشخص سيفهم باليقين كم لهذه الإمكانية المريحة والسهلة للقاء من قيمة. فلو لم تكن كل النعم الإلهيّة موجودة، وكانت هذه النعمة فقط لكان ذلك كافيًا لاستيقاظنا. ولكن، واحسرتاه نحن الذين غرقنا في نعمه - وبينما قيمة كلٍّ منها فوق إدراك عقولنا - لا ندرك قيمتها ونكفر بها.

والمسألة الأخرى التي من الجدير الاعتناء بها هي أنّ الله تعالى لا يترك أي طالب لقاء بلا استجابة، ولا يردّه خائبًا، في حين أنّ الأمر ليس على هذا النحو مع الآخرين، فمع كلّ لقاء وتواصل يتحقّق المطلوب، وعلى فرض حصول الإذن باللقاء لا تتأمّن كل الحوائج. فهل هناك من قدرته وسلطانه غير محدودينِ وهو يجيب كل السائلين؟! فمن البديهي أنّ كل واحدٍ منّا له قدرةٌ محدودة، ولو أُعطي مفاتيح جميع خزائن الأرض، فإنّ رزقه سينفد، أمّا خزائن الله تعالى لا تنفد. وبحسب كلام مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام، لو منح كل إنسانٍ مقدار ما يتمنّاه، فإنّ رحمته لا تنتهي. وكم يمكن للإنسان أن يتمنّى؟ وهناك ستة مليارات نسمة يعيشون على الأرض فإلى أي مدى يمكنهم أن يتمنّوا؟ فلو عددنا أولئك الذين عاشوا سابقًا والذين سيأتون وبلغوا المليارات مع ما لهم من طلباتٍ وكان الله تعالى يمنّ على كل إنسانٍ ما يريد فإن خزائنه لا تنقص مقدار رأس إبرةٍ.

أين تجدون مثل هذه العظمة والرحمة والكرم اللامتناهي وهذه الكيفية السهلة للاتّصال والارتباط؟!! وبعبارةٍ أخرى، إن باب رحمة الله مفتوحٌ دائمًا وهو يسمع كل حاجةٍ وطلبٍ، وليس حاضرًا فحسب بل إنّه يدعونا بإلحاحٍ لنقبل عليه. ولكن واأسفاه! فإنّنا نقابله بالجهل والكفران ونتدلل عليه بسوء الظن وقبح السريرة.

فلو كان الإنسان صاحب إحسانٍ وتدلل لكان الأمر سهلًا، ولكن من كان لا يملك شيئًا كأمثالنا، فبأي شيءٍ يتدلل؟! فضلًا عن أن أي كمالٍ حصلنا عليه ليس ذاتيًّا لنا، لأننا فاقدون لأي كمالٍ بالأصل. ثم نحصل على هذه الدعوة الكبرى من أعظم العظماء مع ما فيها من تكريم. فما أقبح موقف الجاحد! فمن جهة هناك العظيم اللامتناهي صاحب القدرة المطلقة والنعم التي لا تُحصى يدعوننا، لكنّنا لا ندرك معنى دعوته بل نردّها بوقاحةٍ. ذاك الذي لا حدّ لقدرته ولا نهاية - ولا يمكننا أن نصل بفكرنا إلى ذرّةٍ من قدرته - يسمح لنا أن ندعوه متى ما شئنا ونطلب لقاءه متى ما أردنا، ولكننا نكفر، رغم أنّه قد أعطى الإذن العام: «**قد أذن بدعائك**». ولم يجعل من واسطةٍ بيننا وبينه ولم يطلب منا شرطًا مسبقًا أو تسجيل اسم أو أخذ موعد بل تكفّل بإجابتنا، ورغم ذلك كلّه ما زلنا محرومين من نبع فيضه[١]. فلو فكّر الإنسان في عظمة هذه النعمة وتصوّر قيمتها وفارقت روحه جسده لشدة عظمتها لكان غير ملومٍ.

النعم المطلقة بقدر القدرة المطلقة

وكما مرّ، فإن الله تعالى يقول لنا اطلبوا وادعوا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[٢]. وفي هذه الآية، دعوة عامّة لله تعالى إليه من دون واسطة أو حاجبٍ أو مسؤول مكتبٍ أو حارسٍ. فإنّه لم يرسلنا إلى غيره ولم يضطرنا إلى الطلب وسؤال من سواه، بل جعل بيننا وبينه رابطةً مباشرةً لا نحتاج معها إلى وسيط. والملفت أكثر أن عظمة هذه النعمة لا حدّ لها. فلم يضمن لنا إجابة دعائنا فحسب، بل لو حرمنا أنفسنا من هذا الفيض الإلهي وارتكبنا المعاصي، فإنه تعالى سيجيب دعوتنا أيضًا. ومن هنا، لو ذهبتم مع هذه السوابق المظلمة والملف الأسود إلى باب بيته تعالى وأعلنتم الندم، فإن الله تعالى سيجبر ماضيكم وسيقضي حوائجكم من نعمه اللامتناهية. وفي الواقع، إنّ هذه نعمة أخرى وهي أنه بالإضافة إلى تأمين الحاضر والمستقبل، يفتح لنا باب جبران الماضي. فمن قضى عمره معرضًا عن الله، وارتكب آلاف المعاصي ومسخ فطرته، لو أراد أن يكفّر عما مضى، فإن الطريق

(١) سيتبيّن لنا في الفصول اللاحقة سبب عدم إجابة بعض الأدعية.

(٢) سورة **غافر**، الآية ٦٠.



معلوم والباب مفتوح.

فبالإضافة إلى أنه أمر بالدعاء وفتح لنا باب الإجابة في أي وقتٍ بحيث نحقق التواصل متى ما شئنا، فقد فتح لنا طريق إصلاح الماضي. فهذه النعمة تفوق جميع النعم الأخرى بل هي نعمةٍ لامتناهية بقدرٍ لامتناهٍ. فمن التفت بعد قضاء سبعين سنة من عمره في الكفر والعصيان، وتوجّه إلى عتبة داره تعالى طالبًا جبران تلك السنوات المظلمة من حياته، بالإضافة إلى الدعاء لأجل حاضره ومستقبله وطلب الحوائج منه، مرّةً أخرى فإن الله سيفتح له الباب ويجبر له ذلك بعملٍ لا يتجاوز الساعة الواحدة.

فالله تعالى يقول لنا حين تندمون على أعمالكم أقبلوا عليّ لكي أفتح لكم الباب ولن يستغرق الأمر أكثر من ساعةٍ لإصلاح كل شيءٍ وجبر ما مضى وإطفاء تلك النيران التي أشعلتموها ورميتم أنفسكم فيها. بل إنّه تعالى سيبدّل تلك النار إلى بردٍ وسلام: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾[١]. فلو كانت سيرتكم قبيحةً مليئةً بالمعاصي، فإن باب التوبة لا زال مفتوحًا أمامكم.

من الممكن أن يسمح لنا الناس بالتوبة ويفتحوا لنا باب إصلاح ما مضى بيننا وبينهم، ولكن حين نأتي إليهم ونظهر الندم، فإنّهم يوبخوننا ويلوموننا. أما الذي يتوب توبةً حقيقيةً ويرجع إلى الله فلن يوبّخ أبدًا، بل لن يُقال له «لماذا عصيت». وفي هذا المجال، يقول الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ: «**من عمل سيئةً أجّل الله فيها سبع ساعاتٍ من النهار فإن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيّوم - ثلاث مرات - لم تُكتب له عليه**»[٢]؛ فبالإضافة إلى عدم معاقبته عند المعصية، فإنّ الله سيقول لملائكته الموكلين بتسجيل أعماله أن لا يسجّلوا ما فعل ليعطوه فرصة سبع ساعات لعلّه يتوب. فلا يُعاقب مباشرةً، بل يُعطى المهلة لمحو ما فعل. فإذا قام الإنسان بما يجلب عليه الخزي، فإن باب الإصلاح سيكون مفتوحًا أمامه. وكلّ

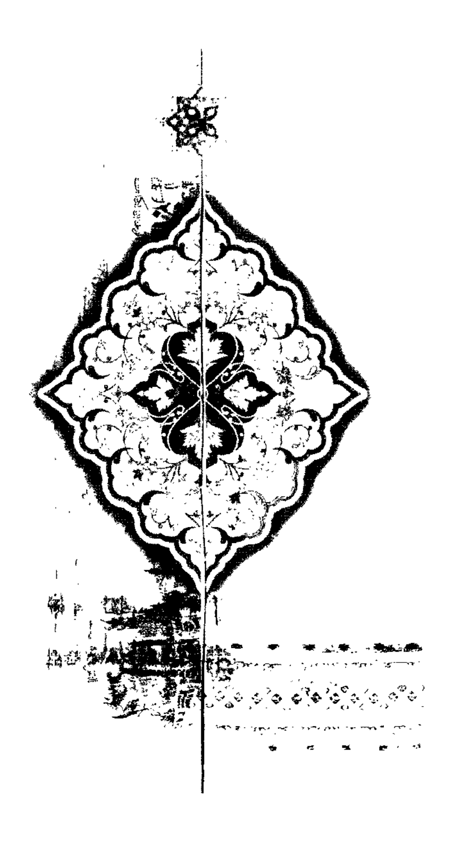
---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.

(٢) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ٢، الصفحة ٤٣٧



واحدٍ منّا يعلم ما فعل في الماضي بحيث أنّه لو فُضح أمام أسرته وقومه وزملائه وأصدقائه لأُهرق ماء وجهه. ولكن تسهيلًا للتوبة، فإنّ الله تعالى بفضله وكرمه يحفظ ماء وجه الإنسان. وهنا، يبيّن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه الإمام الحسن أنّ لك ربًّا قد فتح لك باب الدعاء والتوبة والإصلاح فاعلم قدره واسأله متى شئت لأنّك إن لم تفعل ذلك ستضيّع الفرصة، ولن تتمكن من جبران ما فات!!



الدرس الثامن عشر
الارتباط بالله |٢|

- مفهوم الشفاعة
  ١. الشفاعة في المسيحيّة
  ٢. الشفاعة في الإسلام
- **تجلّيات سبق رحمة الله على عدله**
  أ . سهولة التوبة
  ب. الثواب الجزيل والعقاب غير المحدود
  ج . سهولة الاستفادة من الخزائن الإلهيّة على الدوام

«واعْلَمْ أنَ الْذي بِيَدِهِ خَزائِنُ مَلَكُوتِ الْدُّنْيا وَالآخِرَةِ قَدْ أَذِنَ لِدُعائِكَ[١]، وَتَكَفَّل لإجابَتِكَ، وَأَمَرَكَ أنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطيكَ وَهوَ رَحيمٌ كَريمٌ، لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إلى مَنْ يَشْفَعُ لكَ إليه، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أَسأْتَ مِنَ الْتَّوْبَةِ وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالإنابَةِ، ولَمْ يُعاجِلْكَ بالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ للفَضيحةِ وَلَمْ يُناقِشْكَ بالجَريمَةِ، وَلَمْ يؤْيِسْكَ مِنَ الْرَّحْمَةِ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في الْتَّوبَةِ، فَجَعَلَ تَوْبَتَكَ الْتَوَرُّعَ عَنِ الْذَّنْبِ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ واحدةً وحَسَنَتَكَ عشرًا، وفَتَحَ لَكَ بابَ الْمتابِ والاسْتِعْتابِ، فَمَتى شِئْتَ سَمِعَ نِداءَكَ وَنَجْواكَ فأَفْضَيْتَ إليهِ بِحاجَتِكَ وأَبْثَثْتَهُ ذاتَ نَفْسِكَ وَشَكَوْتَ إليهِ هُمومَكَ، واسْتَعَنْتَهُ على أمورِكَ، ثمّ جَعَلَ في يَدِكَ مَفاتيحَ خَزائِنِهِ بما أذِنَ فيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدُّعاءِ أبوابَ خَزائِنِهِ».

ها نحن نتابع السير في هذه الوصية الإلهية لأمير المؤمنين علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن المجتبى حيث سيدور محور هذا المقطع حول الارتباط بالله.

إنّ الارتباط بالله تعالى نعمةٌ عظيمةٌ جدًا أُفيضت على الإنسان ليكون قادرًا في أي زمانٍ شاء ومن دون الحاجة إلى وسيطٍ أن يتحدّث مع خالقه ويتّصل به. وهنا، يشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى سعة الرحمة الإلهية المطلقة وشروطها كي يرغّب الإنسان بالاستفادة منها. وينبغي الالتفات إلى أنّ نعمة الارتباط بالله تعالى هي أعظم شرفٍ للإنسان يقدر من خلاله أن يعرض على ربّه جميع حوائجه، ويطلب منه الرحمة والفيض. ولو علم الإنسان أنّه يستطيع التنعّم برحمة الله بهذه

---

(١) وهذا القسم من الوصية قد ذُكر في بعض النسخ مع تفاوتٍ وتبديلٍ في موضع بعض العبارات.



الوسيلة لرغب بها حتمًا. وانطلاقًا من أصل وجود الارتباط بين الخالق والمخلوق وأهميته الخاصّة وتبيين مفهومه وبيان خصائصه وكيفيّاته، يتّضح ما بقي من نقاط مبهمة، لهذا سنقوم بشرح هذا المطلب المهم في ظلّ كلمات أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

مفهوم الشفاعة

١. الشفاعة في المسيحيّة

لقد مرّ معنا أنّ الحديث عن الارتباط بالله وأصله ممّا تقبله بعض الأديان دون البعض. والاختلاف لا يتوقف عند الاعتقاد وعدمه بل يمتد الى كيفية حصول هذا الارتباط. ولا بأس من دراسة كيفية هذا الارتباط لنرى هل يمكن للإنسان أن يحقّق هذا الارتباط بربّه من دون واسطة أم لا. وفي أي زمانٍ وبأي شكلٍ يمكن تحقّق هذا الارتباط وما هو دور الوسائط فيه؟

ويبيّن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، في الجملة الأولى من هذا المقطع أصل الارتباط المباشر بين الإنسان وربّه، وأنّ الله تعالى لم يضطر الإنسان للتوسّل بأحدٍ لكي يشفع له، بل إنّ الإنسان بنفسه ومن دون وساطةٍ يمكنه أن يسأل ربه قضاء حاجته: «**لَمْ يُلْجِئْكَ إلى مَنْ يَشْفَعُ لكَ إليه**». فلا يوجد من يمكن أن يحول بينك وبين الله.

وانطلاقًا من هذا الحديث، فإنّ كل إنسانٍ يمكنه أن يتوجّه مباشرةً إلى جناب قدسه ويطلب منه الفيض والعطية. ولكن ينبغي تحليل الأمر لنرَ كيف ينسجم هذا الكلام مع قضية الشفاعة؟ فنحن نعتقد أنّ لله تعالى شفعاء يشفعون لنا وهم وسائط فيضه إلينا، في حين أنّ الكلام في هذه الوصية يبيّن أنّ الإنسان يمكنه أن يتوجّه إلى الله من دون شفيعٍ أو وسيط!! كما رُوي عن الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**والحمد لله الذي أناديه كلّما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسرّي بغير شفيعٍ فيقضي لي حاجتي**»[1]. وكأن هناك بين هذا الحديث وقضية الشفاعة التي هي من المعارف المسلّم بها، شيء من عدم الانسجام.

(١) **الصحيفة السجادية ومفاتيح الجنان**، دعاء أبو حمزة الثمالي.

فيجب حلّ هذا التعارض والإجابة على الإشكال.

وفي مقام رفع هذا التوهّم يمكن القول: إنه قد يكون المقصود من الشفاعة أحيانًا ذلك المفهوم المطروح في المسيحية والذي يقول بأنّه لا يستطيع للإنسان بأي وجه أن يتقدّم أي خطوة بنفسه تجاه الله، أو أن ينشئ أي علاقة مع الله، وعليه أن يجعل شخصًا آخر واسطة بينه وبين الله ليقوم بالأمر عنه. ومثل هذا التصوّر والاعتقاد مرفوضٌ تمامًا، والإسلام لا يقبل أبدًا بمثل هذه الوساطة. فمثل هذا المفهوم يشبه إلى حدٍّ ما مفهوم الاحتكار في المسيحية. وكما تعلمون يُقال إنّ إحدى وظائف البابا والقساوسة هي التوسّط بين الله والناس لجلب المغفرة الإلهية لهم! أي إذا أراد الإنسان أن تُغفر ذنوبه فيجب أن يذهب إلى القس ويعترف بذنبه أمامه لكي يدعو له وعندها يغفر الله له ذنوبه. لقد كان مثل هذا المفهوم رائجًا بين المشركين وعبدة الأوثان، حين اعتقدوا بأنّ الملائكة بنات الله، وأنّهم وسائط بين الإنسان وربّه ولهذا أوجبوا عبادتهم ليشفعوا لهم عند الله، واعتقدوا أيضًا أن لا طريق للتقرّب إلى الله إلا هذا الطريق. ومثل هذا الاعتقاد لا شك أنه مخلوطٌ بالشرك ومخالفٌ للإسلام ولا يوجد في الإسلام مثل هذه الشفاعة.

٢. الشفاعة في الإسلام

أ- الشفاعة في الدنيا

وإلى جانب هذا المفهوم المردود، يوجد معنيان آخران للشفاعة، يمكن في الواقع أن نعتبرهما مصداقين للشفاعة. أحدهما الشفاعة في الدنيا: وهي تلك التوسّلات التي نقوم بها تجاه أئمتنا الأطهار لكي يسألوا الله لنا استجابة الدعاء. ولكن ينبغي أن نلتفت إلى أنّ مثل هذا العمل لا يعني أنه لو لم تكن هناك شفاعةٌ أو توسّل لانسّد الطريق ولم يُستجب الدعاء ولا يتحقق الوصول إلى الله، بل إنّ هذا الأمر نعمةٌ أخرى وبابٌ آخر من رحمة الله فتحه الله تعالى لعباده لكي يقبلوا على الدعاء والتوجّه إلى الله فيستحقون بذلك المزيد من رحمته. وهو يُعدّ عاملًا مقويًا لكي ننال ما يفوق الاستحقاق وليُستجاب دعاؤنا بشكلٍ أسرع وأفضل وأكمل، وليحصل ما نريده بشكلٍ كامل. فتأثير الشفاعة هنا في التقوية. ولا ينبغي أن نتصور أنّ

الدعاء غير ممكن من دون التوسل. إن كل إنسان، بأي حالٍ كان، وفي أي مكان، يمكنه أن يتصل بالله ويستغفره ويسأله حاجته. ولكنّ التوسل والاستشفاع بالغير يقوّي هذا الفعل. ولا شك بأن هذا الطريق قد جعله الله تعالى مضافًا إلى الدعاء حيث نستمدّ من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لكي يُستجاب الدعاء بشكلٍ أفضل.

والنموذج والمصداق البارز لهذا المفهوم في الآية الشريفة حيث يقول الله جلّ جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1]؛ فطبقًا لهذا المعنى تكون الشفاعة عامل تقويةٍ، وعاملًا يضمن استجابة الدعاء بشكلٍ أسرع وأكمل. فالباب مفتوح للدعاء في جميع الأحوال والأوضاع ولا ينحصر الاتّصال بالله سبحانه بالشفاعة والتوسل. وبهذا المعنى، يصحّ الاستمداد من أولياء الله والتوسل والاستشفاع بهم، ولا يعني ذلك أنّه لو لم يكن هذا النوع من الشفاعة من قبل الله تعالى فإن الارتباط بالله يصبح مستحيلًا، بل إنّ هذا الإمكان موجودٌ دائمًا، ولكن الذين يستفيدون من الشفاعة فإنّهم سيستفيدون بشكلٍ أفضل؛ لأن كل إنسانٍ يرتبط بالله بمقدار معرفته وإيمانه، ولأنّ إيماننا ومعرفتنا ضعيفين، فإنّ ارتباطنا يكون ضعيفًا جدًا، ولهذا يحصل في نطاقٍ محدودٍ جدًا.

أمّا حين نحقق هذا الارتباط عن طريقٍ أكثر استحكامًا وأوسع وأقوى، ثمّ نقرن ذلك بالسعي والدعاء ونعلّق آمالنا بذلك الباب الوسيع للرحمة الإلهية، فإنّ استحقاقنا للرحمة يزداد. لا أنّ الأمر يعني أنّه من دون الشفاعة لا يمكن الوصول إلى رحمة الله. وهنا، مسألةٌ لا ينبغي أن تُنسى أو يُغفل عنها وهي أنّ الله تعالى إنّما جعل هذه النعمة وحثّنا على أن نذهب إلى نبيّه الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأهل بيته (كما في عقيدتنا) والتوسّل بهم لأنّ هذا الطريق أشدّ تأثيرًا في نيل الرحمة الإلهيّة. ولكن إذا أعرض الإنسان وتكبّر وقال إنّني أريد الاتّصال بالله بنفسي ومن دون وسيطٍ أو من دون شفاعة أحد، فإنّ هذا العمل يؤدّي إلى حرمانه من هذا اللطف الإلهي. أي إنه حين يُعرض عن هذه النعمة التي جعلها الله ويستكبر، فإنّه سيُحرم من لطف الحقّ تعالى ورحمته.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٦٤.



وبعبارةٍ أخرى، حين يقول إنني لا أريد أن يمنّ عليّ النبيّ والأئمة، وأنا بنفسي سأدعو فإن هذا الإعراض يؤدّي إلى الحرمان من الشفاعة. لهذا، إنّ الذين يرتكبون مثل هذا العمل، سيُحرمون من رحمة الله. يقول الله تعالى بشأن المنافقين الذين عاشوا في زمن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ولم يكونوا مستعدّين للاستفادة من النبيّ الأكرم وطلب المغفرة منه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ﴾[1]؛ فلأنّهم استنكفوا وتكبّروا وقالوا لا دخل لنا بالنبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لكي يتوسّط لنا، فإنّهم حُرموا من الشفاعة.

وعلى أيّ حال، إنّ عدم فتح باب الشفاعة الدنيوية لا يعني أن لا يكون هناك طريقٌ للارتباط بالله أو انعدام إمكانية الارتباط به. فيمكن إقامة هذا الاتّصال من دون الوساطة، ولكن لو كان لنا شفيعٌ يشفع فإن هذا الارتباط يصبح أكثر استحكامًا ويزداد استحقاق الرحمة ونصل إلى النتيجة بشكلٍ أسرع وأفضل.

ب - الشفاعة في الآخرة

ما تقدّم إنّما يرتبط بالشفاعة في هذا العالم، لكنّ الشفاعة موجودة في الآخرة أيضًا حيث إنّ الله تعالى ينجي بفضل شفاعة أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الناس من يستحقّ عذاب الحريق. فالذين آمنوا بالله وحُشروا مؤمنين سينالون شفاعة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ويدخلون الجنة. فهذه الشفاعة تشمل حال أولئك الذين آمنوا، لا الذين سُلب الإيمان منهم على أثر المعاصي. فالذين يرتحلون عن هذا العالم مؤمنين، ولو كانوا قد ارتكبوا المعاصي فإنهم بسبب اجتناب الكبائر أو بسبب بعض الأعمال الحسنة في هذه الدنيا يُغفر لهم وينتقلون مؤمنين طاهرين إلى ذلك العالم، فتشملهم الشفاعة. ولا شك بأنّ طرق مغفرة الذنوب عديدةٌ، وأحدها من خلال اجتناب الكبائر: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾[2]؛ فالذين كانوا ملتزمين بعدم ارتكاب الكبائر، قد هيّأوا لأنفسهم موجبات المغفرة. ولأن أحد الذنوب الكبيرة هي الإصرار على الصغيرة. فهؤلاء

(١) سورة **المنافقون**، الآية ٦.

(٢) سورة **النجم**، الآية ٣٢.

بالإضافة إلى عدم ارتكاب الكبائر لم يصرّوا على الصغائر، ولهذا فإن الله تعالى يعفو عن سيئاتهم الصغيرة. وحتى لو لم يتوبوا، فإن اجتناب المعصية يُعدّ أحد طرق المغفرة. مثلما أن التوبة تكون وسيلةً للمغفرة والذي سيُشار إليها في هذا المقطع من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ. والطريق الثالث هو الشفاعة. وهذا الطريق يشمل أولئك الذين لم يُغفر لهم من خلال التوبة، أو أنهم لم يتوبوا من بعض المعاصي، أو أن توبتهم لم تُقبل. لهذا، سيُعذّبون لمدّةٍ معيّنةٍ في البرزخ ولكنهم في النهاية سيحصلون على النجاة بواسطة الشفاعة. وفي الواقع، إن ما أدّى إلى نجاتهم هو إيمانهم. فالسبب للنجاة هو الإيمان، ولو لم يكونوا مؤمنين أو أنهم استخفّوا بالأحكام الإلهية، وخصوصًا بالصلاة، لما كانت نالتهم الشفاعة أبدًا. ويُروى أن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ حين حضرته الوفاة جمع أقاربه وأرحامه وقال: **إن شفاعتنا لا تنال مستخفًّا بالصلاة**[1].

لهذا المعنى من الشفاعة - كما أشرنا - شرطٌ. وهو أنّ على الإنسان أن يكون مؤمنًا وأن يحافظ على إيمانه إلى حين الموت، وفي الآخرة يُحشر مؤمنًا فإذا ضيّع إيمانه بكثرة ذنوبه، فإنّه لن يكون مشمولًا بالشفاعة. وفي الواقع، إن الشفاعة تعين على المغفرة. ولا شك بأن العامل الأساسي للمغفرة هو إيمان الإنسان. وحيث إن الله رحيمٌ، فإنه قد جعل عاملًا مقويًا من أجل غفران الذنوب والعفو عن الأخطاء، وهو شفاعة الأولياء والأنبياء والعباد الصالحين. أي إنّ الجزء الأخير للعلّة التامّة للمغفرة والعفو في ذلك العالم هو الشفاعة. ومن هنا، لا ينبغي تلقّي مفهوم الشفاعة على أنّه نوع من الرشوة، لأنّ الإنسان لا يمكن أبدًا أن ينال الشفاعة من دون استحقاق. وعليه أن يهيّئ لها الشرائط والمقدّمات في الدنيا والآخرة. فمن أجل الشفاعة في هذه الدنيا يجب أن يكون من أهل الاستغفار والتوسل: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾[2]. أمّا الشفاعة في الآخرة، فإنّها تحتاج إلى الإيمان الذي ينبغي أن يُحفظ وينتقل مع الإنسان من الدنيا، وأن لا تكون الذنوب من الكثرة بحيث تؤدي إلى زواله؛ فينتقل به إلى عالم الآخرة ليعبر من خلال الشفاعة ويدخل الجنة ودار الرحمة الإلهية.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٠، الصفحة ١٩.

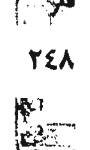
(٢) سورة **النساء**، الآية ٦٤.

تجليّات سبق رحمة الله عدله

أ- سهولة التوبة

يتضمّن كلام أمير الكلام في ألفاظه وأسلوبه وجوه تلك المعاني العميقة والسامية التي تعجز العين من فرط نور تجلياتها عن مشاهدة أبعاد جمالها وجلالها، إلا إذا قام عدة أشخاصٍ ونظروا معًا بعين البصيرة وبيّن كل واحد منهم بعدًا من هذه التجليات. وهذا القسم من كلامه عليه السلام في الوقت نفسه الذي يرغّبنا ويدعونا إلى الارتباط بالله تعالى، يصوّر لنا تجلّيات رحمة الله وسبق الرحمة والمغفرة للسخط والعقاب: «**وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالإنابَةِ، ولَم يُعاجِلْكَ بالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ للفَضيحةِ وَلَمْ يُناقِشْكَ بالجَريمَةِ**». فهذا الكلام بالإضافة إلى أنه يدلّ على أن الله تعالى فتح علينا باب الدعاء، فإنه يبيّن الرحمة الإلهية لترغيب الإنسان بالاستفادة من هذا الباب الذي فُتح عليه ولينال هذه النعمة الإلهية. فإنه عليه السلام يذكّر الغافلين ويقول لهم إن الله تعالى كان بإمكانه أن يعذّب كل من يعصي ويعاجله بالعقوبة، ولو فعل وأجرى هذه السنّة لما كان ذلك مخالفًا للعقل ومناقضًا له، لأنّ من ارتكب القبيح يجب أن يُجازى ويدرك قبح عمله مهما كان صغيرًا.

ولكن بما أنّ الله جلّ جلاله بسط رحمته للناس، فإنّه فتح عليهم باب التوبة ولم يعاجلهم بالعقوبة لعلّ ذنوبهم تُغفر. ومثل هذه النعمة العظيمة التي لا حدّ لها توجب للإنسان الذي قضى عمرًا طويلًا بالمعاصي والتفت في أواخر عمره واستبصر، أن يُغفر له كلّ ذنوبه بالتوبة الحقيقية والواقعية. إنّ العدل الإلهيّ يقتضي أنّ كل من يفعل القبيح يجب أن يُجازى، ولكن حيث إن رحمة الله سبقت عدله، فإنه قد وفّر للإنسان النجاة من العقاب بالرغم من ارتكاب المعصية واستحقاق الجزاء لكي يتمكّن من خلال التوبة من جبران ذنوبه. والمسألة الأكثر دقةً هي أنّ الله تعالى لم يُصعّب علينا التوبة ولم يجعل لها شروطًا صعبةً وشديدةً بحيث تكون غير مقدورةٍ. فإنه تعالى لم يأمرنا بتلك الأعمال الشاقة من أجل التوبة أو القيام بالرياضات الصعبة لكي تُغفر ذنوبنا: «**وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ في التوبَةِ**»؛ فيكفي فقط الندامة والعزم على عدم ارتكاب المعصية. فنفس هذا الترك والندم يؤدّي إلى غفران الذنوب السابقة. ولا شك بأنّ هذا مشروط بالعزم الأكيد والالتزام بهذا



العزم. ولا شك أيضًا بأنّه إذا ترك عبادةً ما أو أخذ مال إنسانٍ ظلمًا، (لأنّ لحقّ الناس معيارًا آخر)، فعليه طبق ذلك المعيار أن يجبر الأمر بردّه إلى صاحبه أو التسامح منه وقضاء تلك العبادة إذا كان فيها القضاء لكي تتحقّق التوبة.

وعلى أيّ حال، فإنّ مجرّد الندم والعزم الأكيد على ترك المعصية يكون كافيًا للتوبة وغفران الذنوب. ولهذا، قال أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ: «**فَجَعَلَ تَوْبَتَكَ التَّوَرُّعَ عَنِ الذَّنْبِ**»؛ فمن اجتنب المعصية بعد العزم وحافظ على نفسه يكون ذلك كافيًا لجبران ذنوبه الفائتة.

ب - الثواب الجزيل والعقاب غير المحدود

والتجلّي الآخر لصدق رحمة الله هو سعة رحمة الحقّ اللامتناهية. ولأجل اتّضاح هذا التجلّي وتبيينه نشرح ذلك بمثالٍ. فافرضوا أنّكم تحملون مِقياسًا لقياس الأعمال الحسنة والسيئة، كأن يكون هناك جملة مثلًا مؤلفة من ثلاث كلمات، فإذا ذُكرت بنحوٍ خاص تصبح معصيةً وتوجب العقاب، وإذا قيلت بنحوٍ آخر تُعدّ عبادةً وتستتبع الثواب. فبناءً على هذا المقياس، فإنّ الجملة المؤلفة من ثلاث كلمات يمكن أن تكون حسنةً، ويمكن أن تكون معصيةً وسيّئةً. والآن، وفق هذا المقياس لو ارتُكبت معصية، فينبغي أن يجري العقاب بمقدار ما تستلزمه هذه المعصية، أي أن يكون العقاب متناسبًا مع هذه الجملة المؤلفة من ثلاث كلمات، وهكذا يكون الثواب أيضًا.

ولكن الأمر عند الله تعالى مختلف: فإنّ هذه الجملة المؤلفة من ثلاث كلمات لو كانت معصيةً لاستتبعت عقابًا واحدًا، ولو كانت عبادةً لكان ثوابها عشر أضعاف. هذا في حين أنّ العدل يقتضي أن يكون العقاب مساويًا للثواب. ولكن الله تعالى بمقتضى رحمته بعباده يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[1]؛ فبالنظر العقلي وبمقتضى العدل فإنّ تلك الوحدة الثوابية ينبغي أن تكون معتمَدة في العقاب أيضًا. ولكن الله تعالى يعطي في مقام الثواب عشرة أضعاف أي عشر وحدات؛ وهذه رحمةٌ استثنائية تشير إلى سبق رحمة الله لعدله. إنّ العدل يقتضي

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٠.

أن يكون هناك عقابٌ واحد على المعصية وأن يكون هناك ثوابٌ واحدٌ على الطاعة. ولكن في جهاز القضاء الإلهيّ يكون للمعصية عقابٌ واحد وللثواب عشر أمثاله. وهو يشير إلى رحمة الله لترغيب البشر للاتّصال بالله والاستفادة من هذه الرحمة. فإنّ الله تعالى: «**وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ واحدةً وحَسَنَتكَ عشرًا**».



ج - سهولة الاستفادة الدائمة من الخزائن الإلهية

إنّ النعم المطلقة للحقّ تعالى شاملة دومًا لحال الجميع، ولو عصوا ولم يمتثلوا فإنّ باب رحمة الله لا ينسدّ أمامهم. حتى حين يعصي الإنسان ويستحقّ العقاب فإنّه بالتوبة يستحقّ نعمة الله. ولا يفيض الله تعالى عليه النعم العامة فحسب، بل إنه يستمع إلى دعائه ومسألته لكي يقضي حاجته الخاصة، «**فَمتى شِئْتَ سَمِعَ نِداءكَ وَنَجْواكَ فأفْضَيْتَ إليهِ بحاجَتِكَ**»، إنّ هذا يمثّل باب رحمة الله الذي فُتح أمام الإنسان ليجعل الارتباط به ميسّرًا في كل مكانٍ وفي جميع الأحوال بحيث إذا أردنا أن نطرق بابه في أي وقتٍ أمكننا ذلك واستطعنا أن نفتح أبواب رحمة الله ونحقق الوصال ونزيل الحجاب بيننا وبين الله ونسأل الله حاجاتنا من دون أن نشعر للحظةٍ واحدة باليأس بين يدي حضرته.

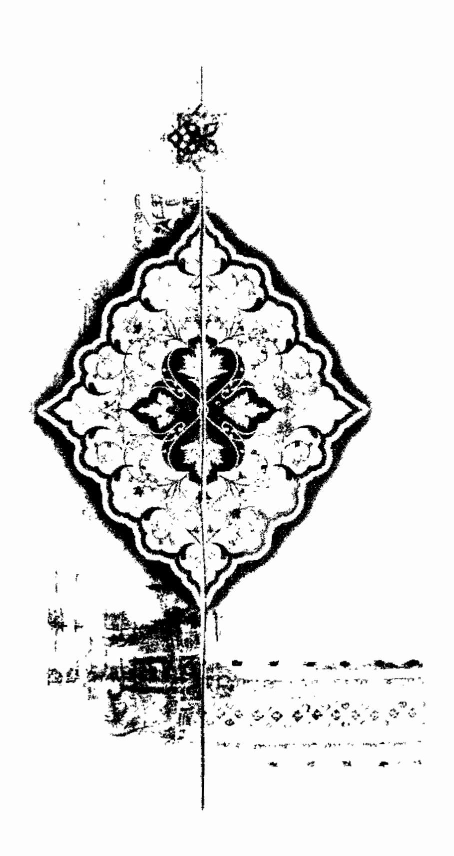
ففي أي زمانٍ أردت أن تدعو الله سواءٌ بالنداء أو النجوى فاطرق بابه لأنه سيسمع نجواك. لهذا، اغتنموا الفرصة واعرضوا عليه حوائجكم في جميع الأحوال والأزمان وبثوا إليه شجونكم. فإذا كنتم متعبين أو كنتم بحاجةٍ إلى شيء ما وأظهرتم له حوائجكم مهما كانت فإنه تعالى سيزيل همومكم وغمومكم ويحلّ مشاكلكم. لقد أعطاكم بالدعاء مفاتيح خزائنه لكي تتنعّموا من خزائن رحمته ونعمه. ولم يقل لكم أبدًا أنه سيعطيكم بمقدار حاجاتكم بل بمقدار همّتكم وبمقدار عقولكم. فبالدعاء امتلكتم مفاتيح الخزائن لتتنعموا منها: «**فَمَتى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بالدعاءِ أبوابَ خَزائِنِهِ**».

لو كنا نمتلك ثروةً فإننا نحفظها في صندوقٍ محكم، ونجعل له قفلًا سريًا ورمزًا خاصًا لكي لا يتمكّن أحد من فتحه، ولكنّ الله تعالى قد أعطانا مفاتيح خزائن رحمته المطلقة لكي نتمكّن من فتحها سهولة، ولم يجعل لها رمزًا سريًّا ولم يجعل عليها حرّاسًا وحجّابًا.





ولكن للأسف وآلاف الآهات! فرغم وجود هذه الرحمة الإلهية واتّساع المنّة الربّانية ورغم أنّنا أُعطينا مفتاح خزائن هذه الرحمة الإلهية الواسعة وفُتحت لنا طرق التكامل ووسائل جبران الذنوب، فإنّنا لم نستفد من هذه الوسائل والإمكانات. فماذا يحتاج هذا العمل من مؤونة حتى غفلنا عنه بهذا الشكل وجهلناه وكسلنا عنه، فلا نستفيد من جميع هذه الوسائل المتاحة لنيل رحمة الله ولا نفتح بالدعاء أبواب خزائنه المطلقة؟!



الدرس التاسع عشر
الدعاء |١|

- التأخير في إجابة الدعاء
- الدعاء، اعتراف عملي بالعبودية
- معيار الإجابة
- تغيير الطلبات
- الإلحاح في الدعاء
- سبب تأخير الإجابة
- ماذا نطلب في الدعاء؟







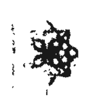
«فَالْحِحْ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ يَفْتَحْ لكَ أبوابَ الرَّحْمَةِ، لا يَقْنُطْكَ إنْ أبطَأتْ عَلَيْكَ الْإجابةِ فإنّ الْعطيّةَ على قدْرِ الْمسألةِ، وَرُبّما أُخِرَتْ عنك الْإجابةُ ليكونَ أطولَ للمسألةِ وأجْزَلَ للعطيّةِ، وربّما سألتَ الْشيءَ فلَمْ تؤْتَهُ وأوُتِيتَ خيْرًا منهُ عاجلًا أو آجلًا أو صُرِفَ عنك لما هو خيرٌ لك[1]، فلرُبّ أمرٍ قدْ طلبْتَهُ وفيهِ هلاكُ دينِكَ ودُنياكَ لوْ أوتيتَهُ، ولْتكُنْ مَسْألتَكَ فيما يعنيكَ ممّا يبقى لكَ جَمالُهُ ويُنْفَى عنك وَبالُهُ، والمالُ لا يبْقى لكَ ولا تبقى له، فإنّهُ يوشَكُ أن ترى عاقبةَ أمْرِكَ حسنًا أو سيّئًا أو يعفوَ الْعفوُّ الْكريمُ».

لا شك بأنّ مدّعي العبودية ليسوا قلّة. فنسمع أصواتهم تصدح هنا وهناك بادّعاء العبودية، وتترنّم ألسنتهم بهذا المعنى لتشقّ كلماتهم عنان السماء. ولكن هناك من اشترى العبوديّة بروحه حتى ظهرت في كلّ مظهرٍ من مظاهر حياته العملية. وباليقين، لو ارتبط القلب بالغني برابطة العبودية، لما احتاج إلى التوجّه لغيره. ولهذا، لو مدّ عين الرجاء إلى الأجنبيّ وتوجّه إليه بالطلب، فسينظر إليه الجميع على أنّه خارج من محفل عباد الله، ذلك لأنّ العبودية لله لا تنسجم مع التوجّه بالدعاء والطلب إلى غيره. ولعلّه من هذه الجهة قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «الدعاء مخُّ العبادة»[2].

وفي هذا المقطع من الوصية الإلهية، نجد مولى الموحّدين أمير المؤمنين

(١) وفي بعض النسخ ذكر «أو صرت إلى ما هو خير لك» بدلًا من هذه الجملة.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ٣٠٠، الرواية ٣٧





يتحدّث عن الدعاء وأهميّته وفوائده ويرغّب به. وفي نهاية المطاف، يبيّن أنّ الدعاء يمثّل مفتاح خزائن رحمة الله. وبناءً على كلام أمير الكلام، فإن لرحمة الله خزائن لا تنفد. ولأجل الاستفادة من هذه الخزائن نحتاج إلى المفتاح. وذلك المفتاح المبين في كلامه عَلَيهِ السَّلَامُ هو الدعاء. وأي إنسانٍ يمكنه استعمال هذا المفتاح في أي وقتٍ شاء فيفتح به أبواب رحمة الله على نفسه ويتنعّم بها. ومن المسلّم أن كل من آمن بالله تعالى وكلمات أمير المؤمنين عليٍّ عَلَيهِ السَّلَامُ سوف يعزم بعد الاستماع إلى هذه الكلمات على استعمال الدعاء. فأين نجد عملًا كالدعاء يمكن أن يعيننا ويوصلنا بأسرع وقت إلى خزائن رحمة الله لكي نستفيد منها في الدنيا والآخرة؟!

ويظهر مثل هذا المعنى الذي يشير إلى التأثير الواسع للدعاء في كلام أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ على النحو الذي لا يترك مجالًا للشك أو التوقّف، وهو يدعو من يستمع إليه إلى المسارعة نحو الدعاء مهما كان حاله.

ولكن قد يحدث أن يبرز في هذا المجال عند بعض النفوس غير المطّلعة نوعٌ من الانتظار السلبيّ الذي لا يكون في محلّه، وتبرز أسئلة تحتاج إلى إجابة. وهنا يبيّن أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بعض النقاط للإجابة عن تلك الاسئلة.

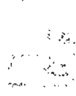
التأخير في إجابة الدعاء

قد يبرز هذا السؤال عند البعض فيقولون إنّنا ندعو كثيرًا ولكن لا يُستجاب لنا. فلو كان الدعاء مفتاح رحمة الله وقفل خزائنه، لكان ينبغي أن يتمكّن كل إنسانٍ من استعماله من دون أن يرجع بالخيبة أبدًا!!. فلماذا لم يؤثّر دعاؤنا رُغم أنّنا سعينا واستعملنا هذا المفتاح ولم نحصل على أي نتيجة؟!

وهنا، يقوم أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بكلامه القيّم بدفع هذه الشبهة عن الأذهان، فيقول لنا عليكم أن تلحّوا في الدعاء. ولا ينبغي أن نترك الدعاء لمجرد أنّنا دعونا في المرّة الأولى ولم يُستجب لنا. ومن جانبٍ آخر، يجب أن نلتفت إلى أنّ لتأخير الإجابة حكمٌ عديدة. فإن لم يُستجب دعاؤكم في المرّة الأولى لا ينبغي أن تيأسوا، لأنّ الله تعالى قد يؤخّر إجابة دعائكم لسببٍ أو حكمةٍ تخفى عليكم. ولا شك أنّ الهدف والسبب الكامن وراء هذه الحكمة من الممكن أن يكون متعلّقًا بشخص الداعي أو بأمور أخرى. فمثلًا قد يحب الله تعالى لهذا الشّخص أن يكرّر

دعاءه لتشمله الرحمة الإلهيّة مرّة أخرى، لأنّ الإنسان كلّما دعا استحقّ درجة من الرحمة أو حصّةً خاصة منها تتناسب مع دعائه. فإذا كرّر الدعاء استحقّ الرحمة المضاعفة. ولو استجاب الله تعالى دعاءه في المرّة الأولى وأنزل عليه رحمته التي يستحقّها لتوقّف عن الدعاء. وحين يتوقّف عن الدعاء لن ينال المزيد من الرّحمة التي يحبّها الله ويريدها له.





من هنا، يؤخّر الله إجابة الدعاء لأجل أن يكرّر الداعي الطلب والمسألة فينال المزيد من الرحمة. فإنّ العبد يتقرّب إلى مولاه المنّان بواسطة الدعاء ويستحقّ مزيد رحمته. والله تعالى يحبّ لعبده أن ينال المزيد من الرحمة. ولا شكّ بأنّ سعة عباد الله واستعداداتهم تتفاوت، فقد يدعو أحدهم عدّة مرّات ولا يُستجاب له حتى يوشك أن يفقد الاستعداد للدعاء، وعندها يُستجاب له. وعلى أي حال، فإنّ أحد أسباب تأخير الإجابة هو أن يكرّر الإنسان دعاءه فينال بذلك المزيد من الرحمة.

الدعاء اعترافٌ عمليٌّ بالعبودية

إنّ الدعاء بجوهره عبادةٌ. فالذي يرفع يده إلى الله المنّان، سواء رفع يده بالظاهر أو توجّه بقلبه إلى الله وسأله واستجداه، يكون في حالة عبادةٍ، لأنّ مثل هذا الأمر يُعدّ اعترافًا عمليًا بالعبودية لله وبالربوبية الإلهية. وليست العبادة في روحها سوى هذا الأمر. فماذا تعرفون عن عبادة الله؟!

إنّ الذي يصلّي أو يؤدّي أي عبادة أخرى، إنّما يقول لربّه في الواقع أنت مولاي وأنا عبدك. والعبادة عبارةٌ عن إظهار العبودية في محضر الربّ وليست شيئًا آخر. ويحمل الدعاء هذا المضمون أيضًا فالذي يرفع يديه إلى الله ويسأله، فإنّه في الواقع يعدّ نفسه عبدًا لربّه وإنّما رفع يديه إليه لأنّه يرى نفسه عبدًا له. وهذه هي العبادة. فلو لم يترتّب على الدعاء أي أثرٍ سوى أن يقترب الإنسان إلى الله سبحانه ويحصل على ثوابه لكفى ذلك في أن لا يُعرض عن هذه العبادة. وباليقين، إنّ لهذا الأمر من القيمة ما يفوق كثيرًا نيل الحاجات من الله. هذا في حين أنّ الإنسان لا يقدر على إدراك قيمة هذا العمل ولا يعلم مدى فائدته، ذلك لأنّه بالإضافة إلى أنّ الدعاء يُعدّ تقرّبًا إلى الله وعبادةً يستتبعها الثواب الجزيل،

فإنّه طريق قضاء الحوائج وأنتم تعلمون جيدًا أنّ لطف الله تعالى وفضله لا ينحصر بهذا.



معيار الإجابة

ينبغي الالتفات إلى أنّ إحدى حكم تأخير إجابة الدعاء هو الحثّ على تكراره لاستحقاق المزيد من الرحمة. لكن الحكمة في تأخير الإجابة لا تنحصر في استحقاق الرحمة المضاعفة. فيمكن أن تكون الحكمة في تأخير الإجابة أنّ الله لو استجاب دعاء الإنسان في الوقت الذي يريده هذا الإنسان وعجّل له حاجته لاستتبع ذلك آثارًا سيئةً لا يريدها الداعي لنفسه. هناك الكثير من الأمور التي تكون مطلوبةً في زمنٍ ما وفي زمنٍ آخر لا تكون كذلك. ففي بعض الأوقات، قد تنتهي لمصلحة الإنسان، وفي وقتٍ آخر قد تؤدّي إلى ضرره. من هنا، قد تكون استجابة الدعاء في زمنٍ ما، في غير مصلحة الداعي. وبعبارةٍ أخرى، قد يطلب الإنسان شيئًا من الله وهو لا يعلم متى يكون هذا الشيء لمصلحته وخيره ومتى يكون مضرًا له، ولكن بما أنّ الإنسان عجولٌ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾[1]، فإنّه يحبّ أن يُستجاب دعاؤه بسرعة. هذا في حين أنّ الله تعالى يرى خيره ومصلحته في التأخير. ولو استجاب دعاءه سريعًا وأعطاه ما يريد لما كان الأمر لمصلحته الواقعية. وكانت ظروفه ومصالحه تقتضي أن يُعطى ما يريد في زمنٍ آخر. وقد يطلب الإنسان في بعض الأحيان من ربّه ما لا يكون لمصلحته، وهنا قد لا يستجيب الله له أو يؤخّر الإجابة.

ففي الواقع، إنّ هذا النوع من الدعاء مثل طلب الطفل المريض الذي يصرّ على أمّه أن تعطيه ذلك الطعام الخاصّ الذي يضرّه، ولو تناوله لاشتدّ مرضه بسببه. ولأنّ هذا الطفل غير مطّلع على المضار فإنّه يصر على أمّه أن تعطيه ما يريد لأنّه لا يرى إلّا الطعام أمامه. ولكن هذه الأم العطوف التي تعرف ما يضرّ ابنها لن تعطيه ذلك. وهكذا فإذا لم يقضِ الله حاجة إنسانٍ وبقي دعاؤه بلا أثر فذلك بسبب أنّ هذا الشيء لم يكن لمصلحته. ولأنّ الله تعالى يريد مصلحة الإنسان وخيره فلا يعطيه إياه.

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ١١.

تغيير الطلبات





كما مرّ معنا، قد تكون الحاجات التي يطلبها الإنسان في بعض الأدعية، على نحو لا يرى الباري فيها مصلحة له. وبناءً على ما يعلمه من الخير والصلاح فإنّه يبدّل ما في الدعاء ويغيّره. ولا شك بأنّ هذا الكلام لا يعني أنّ الله تعالى يترك الدعاء بلا أثر. بل إنّ الدعاء قد أثّر، وبسبب هذا التأثير يعطيه الله سبحانه وتعالى ما فيه خيره ورحمته. فقد يتصوّر الإنسان أنّ الخير فيما يريد، ولكن بما أنّ الله تعالى أعلم بمصالح عباده، فإنّ ما يفيضه في مقام الإجابة سيكون في الواقع لمصلحته وخيره. ولأجل شرح هذا الكلام بصورةٍ أفضل نفترض أنّ إنسانًا دعا وسأل ربّه سبحانه أن يهبه المال الفلاني أو الزوجة الفلانية ولكن لأنّ الله سبحانه جلّ جلاله يعلم أنّ هذا المال أو تلك المرأة لن تكون لمصلحته، فإنّه في مقام الإجابة يعطيه مالًا آخر أفضل من هذا المال أو امرأةً أخرى أفضل من تلك. وهذه العطايا إنّما كانت أثرًا لاستجابة ذلك الدعاء. أي ذلك الدعاء الذي كان يطلب فيه المال أو الزوجة المعيّنة، فإنّ الله تعالى استجاب له بصورةٍ أفضل ومنحه شيئًا آخر بدلًا منه. ففي مثل هذه الموارد، لا ينبغي أن نتصوّر أنّ الدعاء لم يُستجب، بل إنّ ما أُعطيه كان في مقام إجابة الدعاء نفسه.

وبعبارةٍ أخرى، إنّ الله تعالى قد أعمل ولايته في هذا المورد وأعطى عبده ما فيه خيره. فالإنسان قد يطلب من ربّه ما ليس فيه خيره وصلاحه بسبب جهله وتفكيره الواهي، ولكنّ الله سبحانه يعطيه ما فيه خيره الواقعيّ ويفيض عليه ما هو أفضل منه. فإذا لم يُستجب الدّعاء، فهذا لا يعني التنافي مع الوعد الإلهيّ، حيث يقول تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]، أو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[٢]، ذلك لأنّ تلك الوعود ستتحقّق حتمًا. ولا شك بأنّها في بعض الأحيان تؤخّر، وفي بعض الأحيان تُستبدل بما هو أحسن. ومقتضى العبودية لله هي أن يثق العبد بربّه دائمًا ويحسن ظنّه بالله المنّان ولا يتخيّل أبدًا أنّ الله يبخل ولا يعطي ما يُطلب منه، بل يعطيه أفضل ممّا يطلب.

---

(١) سورة **غافر**، الآية ٦٠.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٨٦.

فبالإضافة إلى نيل طلبته بصورةٍ أفضل ممّا قصد فإنّ دعاءه يكون سببًا للمزيد من القرب.



الإلحاح في الدعاء

وبتبع هذه الدرّة البديعة التي ذكرها أمير المؤمنين بشأن الدعاء الذي هو مفتاح خزائن رحمة الله، يكمل عَلَيهِ السَّلَام حديثه ويؤكد على ضرورة الإصرار والإلحاح في الدعاء ويحذّر من الاكتفاء بالدعاء مرّة واحدة إذا لم يُستجب، أو ترك هذا المفتاح. لهذا، لا ينبغي الاكتفاء بالمرّة والمرّتين والعشرة والمئة، بل يجب الإلحاح في الدعاء لأنّ الله تعالى يحبّ الإلحاح في الدعاء. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ مطلوبية الدعاء لا تنحصر في الدعاء نفسه، بل إنّ الإلحاح فيه أيضًا مطلوبٌ عند الله سبحانه. أمّا ما يتعلّق بعدم استجابة الدعاء من المرّة الأولى، ففي ذلك حكمٌ مخفية. وفي الوهلة الأولى، يقول عَلَيهِ السَّلَام: «**لا يَقْنُطْكَ إنْ أبطَأتْ عَلَيْكَ الإجابةِ**»؛ يجب أن يكون اعتقادك راسخًا بالله تعالى بأنّه سيعطيك ما تسأل. وبمقابل كل مرّة تدعو وتسأل فيها ستستحق نفس المقدار من الرحمة الإلهية. فلا يوجد دعاءٌ بلا أثر. وإذا لم يستجب الله سبحانه الدعاء فادعُ مرّة أخرى لكي تتنعّم برحمة الله. لقد اقتضت إرادة الله ومشيئته جلّ جلاله أن يعطيك المزيد من الرحمة. إنّ رحمة الله وإن كانت غير متناهية، لكنّها لا تكون من دون حسابٍ وضابطةٍ، وينبغي أن يكون الإنسان مستحقًّا لتشمله هذه الرحمة الإلهيّة. وهذا الاستحقاق يمكن تحصيله من عدّة طرق، وأحدها هو الدعاء. فإذا لم يستجب الله دعاءكم في المرّة الأولى، يجب أن تكرّروا حتى تستحقّوا هذه الرحمة. وإذا كان لديكم الاستعداد فعليكم أن تكرّروا هذا مرّة ثالثة ورابعة وهكذا. وإذا لم يستجب الله وأخّر الإجابة فذلك لأجل أن تستحقّوا المزيد من الرحمة. فأكثروا الدعاء لتكون الثمرة نيل المزيد والمزيد. فبالإكثار من الدعاء يزداد الاستحقاق، ولا ينبغي أن نتعب من الدعاء لأنّ: «**وَربّما أُخِّرَتْ عنك الإجابةُ ليكونَ أطولَ للمسألةِ وأجْزَلَ للعطيّةِ**».

سبب تأخير الإجابة

وفي مجال سبب تأخير إجابة الدعاء يوجد رواياتٌ كثيرة تحتوي على مضامين في



غاية الدقّة واللطف يؤنس الاستماع إليها أولئك السالكين في وادي المحبّة. وكنموذجٍ ما ورد في حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العبد ليدعو فيقول الله عزّ وجلّ للملكين: قد استجبت له ولكن احبسوه بحاجته فإنّي أحبّ أن أسمع صوته...**»[1]؛ فإذا استجبتم دعاءه وأعطيتموه طلبته فإنّه لن يدعو مرّةً أخرى وأنا أريد أن أسمع صوته أكثر. أمّا بالنسبة للذي تلوّث قلبه بالنفاق، والله تعالى لا يحب أن يسمع صوته، فإنّه عزّ وجل يقول اقضوا حاجته بسرعة. فالتأخير في الإجابة ليس علامةً على عدم اللطف وقلّة المحبّة الإلهيّة، بل إنّه أحيانًا يكون على العكس، فكلّما تأخّرت الإجابة كان دليلًا على المزيد من عناية الله ومحبّته لاستماع صوت عبده، ولكي يزداد استحقاقه للرحمة.

وبالالتفات إلى ما ذُكر، فكأنّ هذا المقطع من كلمات الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «**وربّما سألتَ الشيءَ فلَمْ تؤْتَهُ وأُوتيتَ خَيْرًا منهُ عاجلًا أو آجلًا**»، ناظرٌ إلى هذا المطلب حتى إنّ البعض يُعطَون في الآخرة ما سألوا. ولكن لأنّ مخاطبة المحبوب بالنسبة لهؤلاء أنسٌ فإنّهم لا يتعبون. وفي الواقع، لقد استأنسوا بالعبور من مرحلة الدعاء إلى الحضور بين يدي الله إلى الدرجة التي أضحت فيها استجابة الدعاء مجرّد وسيلة للوصول إلى هذا الهدف السامي. لقد نسوا إجابة الدعاء وصار الدعاء عندهم محضر الأنس بالله.

وفي هذا المقطع من الوصيّة، يقول عليه السلام: قد تطلبون في بعض الأوقات أو تدعون الله لنيل شيءٍ، ولكنّ الله سبحانه لا يستجيب لكم بل يعطيكم ما هو أفضل منه. وأنتم تظنّون أنّه لم يستجب لكم ولم يعطكم، في حين أنّ تلك العطية إنّما كانت إجابةً لدعائكم حين سألتم الله جلّ جلاله، فأعطاكم ما هو أفضل. وهناك من يمتلك الاستعداد الزائد حيث إنّ الله تعالى لا يستجيب دعاءه في الدنيا بل يكِل ذلك إلى الآخرة، فهو من هذه الجهة يلتذّ بالحديث مع الله في هذه الدنيا ويعتبر هذه العطية أفضل شيء يحصل عليه؛ ومن جانبٍ آخر، حيث يكون أحوج إلى هذه العطيّة، فإنّه يستفيد منها. ولأنه يعلم أن النعم الأخروية أفضل بكثير من النعم الدنيوية فإنه يرجّح الحصول عليها في الآخرة.

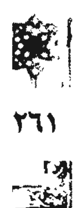
---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٤٨٩، الرواية ٣.

وعلى أيّ حال، فإنّ الله تعالى سيعطي الأفضل دومًا. فإمّا أن يكون هذا الأفضل في الدنيا أو في ذلك العالم. وفي بعض الأوقات، يكون الأفضل أن لا يجيب الله سبحانه هذا الدعاء أصلًا، لأنّ ما تطلبونه يكون مضرًّا وليس فيه أي نفع، ولو أعطاكم الله سؤلكم لندمتم على ذلك. وهناك الكثير من الحالات حيث يصرّ الإنسان كثيرًا على الدعاء ويتعب نفسه ويقدّم النذور الكبيرة من أجل الوصول إلى ما يريد ثم يفهم بعد ذلك أن ما يطلبه سيسبّب له الكثير من المشاكل. وهناك الكثير من النماذج في هذا المجال، ولعلّ كل واحدٍ منا قد جرّب في حياته شيئًا منها أو شاهد ذلك في حياة الآخرين حيث يحرص البعض ويلحّون ويسعون كثيرًا ويقدّمون النذور الكبيرة سائلين المولى تعالى أن يعطيهم هذا الشيء، وحين يحصلون عليه يدركوا أن الأفضل لهم كان أن لا يطلبوه أو ينالوه. كما يحدث أن لا يهب الله سبحانه وتعالى لفلان أي ولد، ولكن هذا الإنسان يدعو وينذر حتى يصل إلى مطلوبه في النهاية ويستجيب الله دعاءه. ثم يكبر هذا الولد ويتسبب في النهاية بإراقة ماء وجه أبيه ويرتكب المعاصي ويدخل الغمّ والهمّ على قلب والديه إلى الدرجة التي قد يتمنّى الوالدان مراتٍ عديدة لو لم يُرزقوا هذا الولد.

ولكنّ الله جلّ جلاله إنّما قضى لهذا الإنسان حاجته مع ما يستتبعه ذلك من ندم لأنّه تعالى لو لم يفعل، لأدّى إلى أن يسيئ العبد الظنّ بربّه ويفقد إيمانه، لأنّه سيقول في نفسه إنّني عبدت الله ودعوته ونذرت ما نذرت ولكنّ الله لم يقضِ لي حاجتي!! فربما كان من الأفضل أن لا نكون مؤمنين فلعلّ حاجتنا تُقضى في الدنيا!! ففي هذه الحالة، يجيب الله جلّ جلاله دعاءه لكي لا يفقد الإيمان. وهذا نموذجٌ من آلاف الأدعية وكم المطالب الدنيوية الهائلة التي تكون إجابتها في غير مصلحة العبد المؤمن ولكنه مع ذلك يصرّ كثيرًا حتى يكاد يتجاوز حد الإيمان. إنّ أحوال عباد الله في مطالبهم وأدعيتهم وتوجّههم إلى محضر الحق تعالى متفاوتة. فبعضهم قد يضيّع إيمانه إذا لم تُقضَ حوائجه، ومن أجل الحؤول دون هذه الخسارة فإنّ الله تعالى يقوم بنوعٍ من التدبير، والبعض الآخر إذا قُضيت حاجتهم يصبحون في معرض سهام إبليس، فإنّ الله يستخدم معهم تدبيرًا آخر.

ولعلّكم سمعتم قصة ذلك الرجل الذي كان يعيش في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله في وضعٍ معيشيٍ صعب وقدّم له النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله معونة فاشترى خروفًا وهذا الخروف أولد خروفًا آخر وهكذا، حتى تكاثر قطيعه وأضحى



قطيعًا كبيرًا. وازداد هذا القطيع وكبر حتى صار إيواؤه في المدينة صعبًا جدًا فخرج من المدينة من أجل رعايته. وبعدها لم يعد قادرًا على المشاركة في صلاة الجماعة التي كان يؤمّها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وحُرم من هذه النعمة المعنوية اللامتناهية وصار بعيدًا عن هذا العالم المعنوي بشكلٍ كبير حتى إن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أرسل إليه ذات يوم رجلًا من أجل أخذ الزكاة منه، لكنّ هذا الرجل لم يقبل أن يدفع الزكاة واتّهم عامل رسول الله أنّه يريد أن يعتدي عليه!! وقال له إنّني تعبت كثيرًا حتى صار عندي هذا القطيع والآن أنت تريد أن تأخذه مني بالمجّان! وهكذا أوصله ضعف إيمانه إلى هذا الحد فقرّر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أن يسترجع ما أعطاه إياه في البداية. وحين رأى هذا الرجل أنّ ما يطلبه منه رسول الله ليس بشيء أمام ما وصلت إليه ثروته أرجع ذلك المبلغ القليل؛ لكنّه كان غافلًا عن أنّ رأس ماله وثروته كلّها إنّما كانت بفضل عطية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وبمجرّد أن استرجع النبيّ ماله ضربت الآفات قطيعه وقضت عليه بالكامل. وكان ذلك الرجل يلحّ على الله تعالى ويدعوه حتى يصبح ثريًا ولكن هذا الغنى قد حرمه من الإيمان. فكلّما كان يتقدّم نحو الثروة كان يتراجع في العبادة والحضور في مجالس النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حتى وصل به الأمر إلى اعتبار إيتاء الزكاة ظلمًا. وفي النهاية، لم يجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بدًا من إنقاذه من هذا الشقاء والانحطاط استرجع عطيّته لعلّه يسترجع إيمانه ودينه. لهذا، قد تتسبب الحاجات الدنيوية للإنسان بالوقوع في أضرارٍ كبيرة، والله تعالى الذي يعلم كل شيء ويعلم خير عبده لا يعطيه كل ما يسأل لكي لا يُصاب دينه بالخطر ويؤدّي ذلك إلى الخسران في الدنيا والآخرة.

ولا شك بأّن علينا أن نلتفت لئلّا تتسبّب هذه المسائل التي ذكرناها بنشوء بعض الوساوس فنتوقّف نتيجة ذلك عن الدعاء ونقول: «سواء علينا أدعونا أم لم ندعوا فإنّ الأمر بيد الذي يعرف مصالح العباد وما يضرّهم، وأنّه إذا أراد أن يعطي فإنه يعطي من دون دعاء. فما هي الحاجة إذًا إلى الدعاء وخاصةً حين لا يُستجاب»!؟ وربما نضيف قائلين إنّ كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يدلّ على أنّه لا فائدة من الدعاء!

والجواب هو أنّ الدعاء عبادةٌ لله ويترتّب عليه الثواب وإن لم يُستجب. أضف إلى هذا أنّه لا يوجد دعاءٌ من دون إجابة، فإمّا أن يُستجاب ونُعطى نفس ما سألنا وفي الوقت الذي نتوقّعه، أو في وقتٍ آخر، أو نُعطى ما هو أفضل.

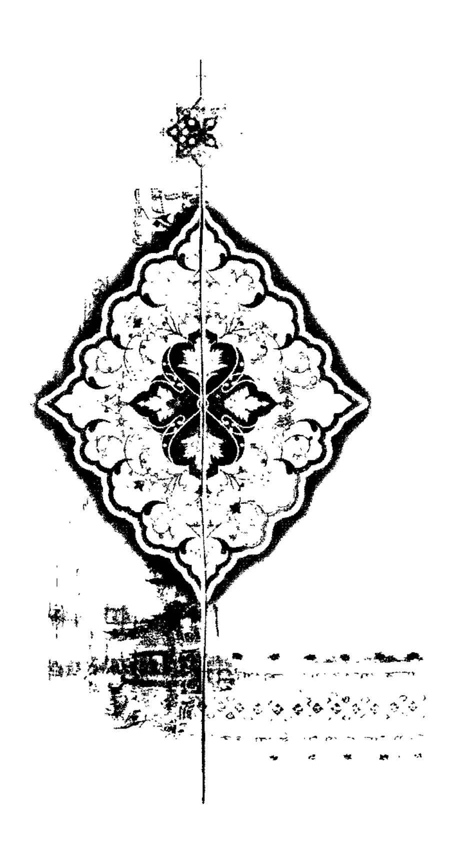


وبالإضافة إلى جميع الآثار المذكورة يجب أن نلتفت إلى أن الدعاء وإن لم يؤثّر مطلقًا في هذه الدنيا، فإنّه سيكون ذخرًا مناسبًا للآخرة. فالدعاء لا يمكن أن يكون بلا أثر. ولا تتصوّروا أبدًا أنكم ستدعون ولا يُستجاب لكم ويبقى دعاؤكم بلا أثر، فبالتوجّه إلى تنوّع آثار الدعاء، لا يبقى دعاءٌ من دون أثر.

ماذا نطلب في الدعاء؟

ذكرنا أنّه لا يوجد دعاءٌ بلا أثر، وكلّ دعاءٍ في الدنيا والآخرة له أثرٌ مناسبٌ له، فمن اللازم أن نعرف ما الذي ينبغي أن نطلبه من الله في أدعيتنا. ومن الواضح أنّ الإنسان العاقل الذي يفتح أبواب خزائن الله، يجب أن يفتح الباب الذي له قيمةٌ أكبر. فإذا أراد أن يفتح بمفتاح الدعاء باب خزانةٍ من الخزائن ويكون دعاء واحد مُستجابًا له، يجب أن يفتح صندوقًا يحتوي على تلك الذخائر العظيمة. فلو كان أحد الصناديق يحتوي على عدة دراهم، والصندوق الآخر يحوي بعض الدنانير الذهبية، والصندوق الثالث قد وُضعت فيه حبّة ألماس، فإنّ الشخص العاقل الذي يمكنه الحصول على مفتاح أحد هذه الصناديق سيختار ذلك الصندوق الذي سيكون أكثر نفعًا ومحتواه أكثر دوامًا وقيمةً.

لهذا، يجب أن نسأل الله تعالى في دعائنا ما يكون كماله وقيمته ودوامه أكثر. فمتاع الدنيا ليس معروفًا بالوفاء والبقاء والقيمة. وإذا بقي لمدّة ما فإنه لا يبقى دائمًا وفي النهاية سينفصل عنّا. فلا ينبغي أن نتوجّه في أدعيتنا إلى الأمور الدنيوية، لأن كل ما نطلبه من الأمور الدنيوية زائلٌ. والأفضل أن نطلب في أدعيتنا من الله ما لا يزول أو يفنى ونسأله ما لا ينفصل عنا أو ننفصل عنه. يجب أن نطلب ما يبقى في الآخرة: «**ولْتَكُنْ مَسْألَتُكَ فيما يعنيكَ**». إن الدعاء من أجل الحصول على ما لا يُشفي العليل بل يجلب الحسرة المحرقة إلى القلب ليس مفيدًا. ومن هنا، يجب أن نطلب ما يعالج أمراضنا ويجلب لنا النفع الدائم، لا الذي يدوم لبعض الوقت ثم يعقبه الحسرة والوبال. فلنسأل ربنا تعالى ما لا يعقبه الندم، ولا يتسبب بالألم. لهذا، يجب أن نطلب ما لا يفنى وتكون لذته دائمةً ويوجب السعادة الأبدية. وليس من العقل أن يطلب الإنسان من ربّه تعالى ما لا يدوم سوى بضعة أيام.



الدرس العشرون

الدعاء |٢|

- لا يمكن للدعاء ألّا يُستجاب
- الدعاء والتكليف الشرعيّ
- سعة تكامل الإنسان واستعداداته
- سفر الآخرة



«ولْتكُنْ مَسْألتُكَ فيما يعنيكَ مِمّا يبقى لكَ جَمالُهُ ويُنْفَى عنك وَبالُهُ، والمالُ لا يبْقى لكَ ولا تبقى له، فإنّهُ يوشَكُ أن ترى عاقبةَ أمْرِكَ حسنًا أو سيِّئًا أو يعفوَ الْعفوُّ الْكريمُ.

واعْلَمْ يا بُنَيّ أنّكَ خُلِقْتَ للآخرةِ لا للدنيا، ولِلْفناء لا لِلْبقاء، ولِلْموتِ لا لِلْحياةِ، وأنّك في منزلِ قُلْعَةٍ، ودارِ بُلْغَةٍ وطريقٍ إلى الْآخرةِ، وأنّك طريدُ الْموتِ الّذي لا ينجو هاربُهُ، ولا بدّ أنّه مدرِكُكَ يومًا، فَكُنْ مِنْهُ على حَذَرٍ أنْ يُدْرِكَكَ على حالٍ سيِّئةٍ قدْ كنتَ تُحدِّثُ نفسكَ منها بالتوبةِ فيحولُ بينكَ وبينَ ذلكَ، فإذا أنتَ قد أهْلَكْتَ نفسكَ».

في دراستنا لوصيّة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ للإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصل بنا الحديث إلى هذا القسم الذي يدور محور تعاليمه حول الدعاء وفيه يبيّن عَلَيْهِ السَّلَامُ أهميّة الدعاء وتأثيره في سعادة الإنسان وفي التكفير عن خطاياه. وفي ظلّ كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ، أدركنا أنّ الدعاء قد يُستجاب في بعض الأحيان، وفي موارد أخرى ينعم الله تعالى بدلًا من استجابة الدعاء على الداعي بأفضل ممّا سأله، ذلك لأنّ الله عزّ وجل يعلم أنّ في هذه النعمة مصلحة واقعيّة تمسّ الحاجة الحقيقيّة وأنّه لو أعطاه ما سأل لأدّى ذلك إلى ضرره وإن كان العبد لا يعلم. فعطاؤه سبحانه موافقٌ للمصلحة. وعلى أيّ حال، إنّ علم الله ورأفته قد جعلت الدعاء وإجابته وفق ما تقتضيه مصلحة الداعي، حتى لو كان موقع تحقّق هذه المصلحة في الآخرة، لأنّ الدعاء هناك سيكون أكثر تأثيرًا. وهنا، نقوم بالاستنارة من الكلام السبحاني لمولى الموحّدين عَلَيْهِ السَّلَامُ بعرض بعض الأبحاث المتعلّقة بالدعاء لكي ننوّر فضاء أذهاننا ببركة كلامه ونضيف إلى ما مرّ ما يتعلّق بقيمة الدعاء وتأثيره في الدنيا والعقبى.

لا يمكن للدّعاء ألّا يُستجاب

أحد الأبحاث الأساسية المتعلّقة بالدعاء يدور حول استجابته. لقد جرّبتم الدعاء كثيرًا وكنتم تدعون فيُستجاب لكم أحيانًا بحسب ما طلبتم، وفي بعض الأحيان بشكلٍ آخر. ولهذا، يمكن أن نقول إنّ جميع الأدعية بمعنىً من المعاني تصل إلى مرتبة الإجابة الإلهية. هذا بالطبع إذا كان الدعاء حقيقيًّا أو مراعيًا لشروطه. فإذا دعا الإنسان بحضور القلب ورقّته وبالمعرفة وقصد القربة، فلا يمكن أن لا يُستجاب له. وأمّا إذا قصد الرياء والتظاهر في دعائه فلا يُضمن له الجواب. لهذا، إذا كان الدعاء صحيحًا لا يمكن أن يُترك من دون جوابٍ. وبهذا المعنى، فإنّ جميع الأدعية تكون مستجابةً. فإمّا أن يُعطى الإنسان ما سأل أو يتفضّل الله عليه بشيءٍ أفضل. ولكن إذا نظرنا إلى المعنى الآخر والبيان المختلف يمكن أن نقول إنّ الأدعية كلّها لا تصل إلى درجة الإجابة، بل إنّ بعضها يُستجاب وبعضها يبقى من دون إجابة.

ففي بعض الأدعية، يستجيب الله لعبده ما سأل، وفي بعضها الآخر لا يتحقّق ذلك. وبالالتفات إلى هذا المعنى، نجد في بعض الروايات ذكر هذا الشرط لاستجابة الدعاء كما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «احفظ آداب الدُّعاء... فإن لم تأتِ بشرط الدُّعاء فلا تنتظر الإجابة»[1]. أو ما ورد في بعض الروايات حين يُسأل أمير المؤمنين عليه السلام لماذا لا تُستجاب بعض الأدعية؟ يقول إنّ سبب ذلك هو العيب والنقص الموجود في عملكم. فلإجابة الدعاء شروطٌ، فإذا لم تتحقّق لا يُستجاب الدعاء. ولهذا، حين يُقال إنّ لكلّ دعاءٍ جواب ولا يمكن أن يُترك أي دعاءٍ من دون جواب، فالمقصود هو هذا الدعاء الذي يراعي الشروط اللازمة والضرورية. وفي هذه الحالة، يمكن أن نقول إنّه لا يوجد دعاء من دون إجابةٍ؛ فإمّا أن يُعطى الإنسان ما سأل في دعائه أو ما هو أفضل منه. فإذا قلنا إنّ لاستجابة الدعاء شروطٌ ومن دونها لا يُستجاب، فالمقصود هو أنّنا إذا أردنا أن يستجيب الله لنا ما سألنا يجب أن نراعي تلك الشروط الخاصّة المطلوبة في الدعاء.

فمن جملة شروط إجابة الدعاء مثلًا هو أن يقول الداعي: يا ربّي أعطني ما

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٨٧٣.



فيه صلاحي. فمن المؤكّد أنّ هذا الداعي لو علم أنّ في ذلك الشيء ما يخالف مصلحته لما طلبه من الله سبحانه. ذلك لأنّه ملتفتٌ إلى أنّه لا يعرف جميع مصالحه، لهذا فإنّه يدعو مع هذا الشرط ويقول: يا ربّي استجب لي هذا الدعاء إذا كان فيه صلاحي. فمن دعا مراعيًا هذه الشروط، فإنّه لن يطلب أي شيءٍ من الله المنّان ممّا هو خلاف الحكمة الإلهيّة، لأنّه يعلم أنّه يطلب من الحكيم الذي جعل نظام العالم على أساس الحكمة والعدالة،

من هنا، فإنّه لا معنى للدعاء الذي يخالف الحكمة الإلهيّة في فكره. ولا شك بأنّ هناك شروطًا أخرى لاستجابة الدعاء إلّا أّن بيان كل واحدةٍ منها لا يتّسع له المقام . فمثلًا لا ينبغي المراءاة في الدعاء. ومن الواضح أنّ الله لن يعطي شيئًا مقابل مثل هذا الدعاء. أمّا إذا خلا الدعاء من التظاهر والرياء، فإنّ الله تعالى لن يردّ عبده المخلص خائبًا. فإمّا أن يعطيه ما سأل أو يفيض عليه بنعم دنيويةٍ أو أخرويةٍ أخرى. فقد عُلم أنّنا إذا قلنا إنّه لا يوجد دعاءٌ بلا إجابة، فلا يعنيً ذلك أن يعطينا الله تعالى عين ما نسأل في جميع أدعيتنا.

الدعاء والتكليف الشرعي

حيث إنّ الإنسان يمكن أن يُبتلى بالإفراط أو التفريط على أثر التشجيع أو التوبيخ، فمن المتوقّع أن يحصل مثل هذا الانحراف أيضًا في مورد الدعاء. ولهذا، فمن المناسب بل ينبغي أن نقوم ببيان هذه المسألة المتعلّقة بهذا المقام من أجل دفع هذا الخطر، ذلك لأنّه حين يتمّ التشجيع الكثير على الدعاء – كما لاحظنا فيما سبق من كلام أمير المؤمنين عليه السلام – فقد يحصل نوعٌ من الإفراط في الدعاء في حين أنّ الترغيب والحثّ على الدعاء لا يعني أن ندع جميع الأعمال جانبًا ونحمل كتاب الدعاء ونشغل به والمسألة ونطلب من الله سبحانه وتعالى أن يتولّى أعمالنا.

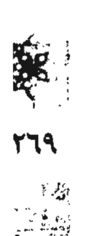
فالدعاء لا يمكن أن يحلّ محل التكليف الواجب أو يكفي عنه. فحيث وُجد التكليف الواجب يجب أن نؤدّيه بكامل الهمّة والدقّة وبرعاية جميع شروطه. وهكذا، فإنّه لا يوجد من دعاءٍ أو ذكرٍ أو وردٍ يكون كافيًا عن الصلاة أو يؤثّر تأثيرها وهكذا بالنسبة لأي تكليفٍ واجبٍ آخر. فحين يكون الجهاد واجبًا، لن

يكون الدعاء بديلًا عنه. وفي صدر الإسلام وفي عصر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان الكثير من الأشخاص يتخلّفون عن الجهاد وحين كانوا يُسألون لماذا لا تنصرون مجاهدي الإسلام وتشاركونهم في الجبهات كانوا يقولون: نحن نحبّ أن نتعبّد! ولا يعجبنا المشاركة في مثل هذه المعارك! وليس من الجيّد أن نشارك في إراقة دماء الناس! وبعضهم كان يقول: نحن نجلس في المسجد وندعو لكي ينصر الله المجاهدين! فدعاؤنا هو أحد طرق نصر ودعم الأبطال المجاهدين في الحرب!! وهم غافلون أنّ لكلّ مقام مقالًا.

هذا، بالإضافة إلى أنّه قد لا يُستجاب لهم أي دعاء يدعونه. فما دام التكليف متعينًا، فيجب الامتثال والقيام به، لأنّ الدعاء لا يمكن أن يحلّ محلّه. والنموذج الآخر والمصداق الثاني لهذا الحديث هو المطالعة والسعي الفكري. فنحن نغفل عن أنّ الدرس في هذا الزمان يُعدّ تكليفًا حسّاسًا وكبيرًا للغاية. فاليوم يُعدّ الجهاد العلمي كالجهاد في جبهات القتال وهو واجبٌ بل إن ضرورة الجهاد في الجبهات العلمية أكبر من الجهاد العسكري ذلك لأنه لم يُنجز من المشاريع والأعمال سوى المقدار القليل غير الكافي في دائرة العلوم الإسلامية. وعدد الذين يعملون في هذا الميدان ليس بالكبير. ولا زالت البلاد الإسلامية بحاجة إلى العلماء العارفين بالإسلام الأصيل القادرين على بيانه وتفسير تعاليمه. وحيث إنه لم يتمّ إعداد العدد الكافي من العلماء في مجال المعارف الإسلامية ومن جانبٍ آخر إن هذه الحاجة تزداد وتشتدّ كل يوم، فإن هذا الواجب الكفائي متعيّن علينا جميعًا وحكمه حكم الوجوب العيني.

فما لم تؤمّن حاجة المجتمع إلى علماء الدين، فسيبقى هذا التكليف بعنوان التكليف والواجب العيني. ويجب علينا أن نبذل كل جهدنا في هذا المجال، وإذا قصّرنا في أدائه واستعضنا عن الدرس بالمسألة والدعاء والطلب من الله أن ينصر الإسلام والمسلمين وينجي الناس من الجهالة فإننا بالإضافة إلى عدم الوصول إلى النتيجة نكون قد ارتكبنا معصيةً. لأننا لم نمتثل للتكليف الواجب فنكون عصاة. فإذا أردنا للناس النجاة من الجهالة يجب أن ندرس وأن نحرر أنفسنا من الجهل، وعندها نقوم بهداية الناس من خلال ما تعلّمناه. فالدعاء يُعدّ عملًا مستحبًّا لا يحلّ محل التكليف الواجب. ولا شك بأننا نعلم أنه لا يمكن لأي مستحبٍّ أن يزاحم

الواجب لأن المستحب ليس من سنخ الواجب أو بمستواه. فمع وجود الواجب لا مكان للمستحب.



وما ذكرناه يتعلّق بمقارنة الواجبات مع الدعاء. وإذا تقدّمنا خطوةً إلى الأمام وقمنا بمقارنة الدعاء مع غيره من المستحبات فإننا نخلص إلى هذه النتيجة: وهي أنه لا يصحّ الاكتفاء بالدعاء بدلاً من العمل المستحب، فعلينا أن نعرف أولًا أن الأعمال المستحبة ليست سواء في درجة المطلوبية. والدعاء مستحبٌ، لكن مطلوبيته ليست بأشد من جميع الأعمال المستحبة لكي نكتفي به بدلًا عنها. بل قد تكون مطلوبية الدعاء مقارنةً مع بعض الأعمال أضعف. ولو كان الدعاء مسانخًا لبعض الأعمال الأخرى ومساويًا لها لا يصحّ أن نكتفي به بدلًا منها أيضًا.

كل شيءٍ في مكانه حسنٌ

ليس الإنسان موجودًا ذا بعدٍ واحد. فلروح الإنسان أبعادٌ مختلفة. وكل بعد من الأبعاد الوجودية للإنسان إنما يتكامل وفق برنامجٍ عمليٍ وسلوكيٍ خاص. لهذا، لو اكتفى الإنسان بدلًا من الاستفادة من جميع وسائل تكامل الروح بوسيلةٍ واحدةٍ كالعبادة أو المستحبات الفردية أو الاقتصادية أو غيرها، فإن روحه تصبح غير متوازنةٍ وتخرج عن حد الاعتدال اللازم وينسدّ أمامها طريق التكامل.

ومن باب تشبيه المعقول بالمحسوس، يمكننا أن نعرف المقصود من خلال النظر إلى جسم الإنسان فاللازم أن تنمو جميع أعضائه بشكلٍ متوازن. فإذا نما بعضها دون البعض يختلّ توازن البدن بشكل كبير. فإذا نما رأس الإنسان دون بقية بدنه فإن هذا الإنسان يصبح فاقدًا للتوازن. هذا بالإضافة إلى أنه سيفقد جماله. ذلك لأن الجمال لا معنى له بدون التوازن والانسجام. وهكذا هي روح الإنسان. وقد قلنا إن للروح أبعادًا مختلفةً إذا تكامل بعضها دون البعض الآخر يصبح الإنسان فاقدًا للتوازن الروحي كما يفقد التوازن الجسماني ويكون ذلك مانعًا له من التكامل الواقعي. فإذا تكامل الإنسان في باب الدعاء فقط وبقي ناقصًا في الأبواب العلمية والعملية الأخرى، فإنه ينمو بشكلٍ غير متوازن. فمن دعا ولم يصل رحمه أو يهتمّ بجاره الفقير أو لم يكن من المنفقين والذين يخدمون الناس، فإنه لن يصل أبدًا إلى الرشد والكمال الإنساني. وهكذا إذا كان من أهل الدعاء ولا

ينفق من ماله في سبيل الله فيزداد حبه للمال. فمثل هذا الإنسان لن يجد طريقه للوصول إلى المطلوب من الرشد والكمال. والأمر بالعكس أيضًا، فمن كان على سبيل المثال سابقًا لغيره في العمل وخدمة الناس، ولكنه لا يدعو لهم أو لنفسه أبدًا، فإنه سيُصاب بالنقص الروحي والخلل في الرشد المعنوي.

إن جميع تعاليم الشرع المقدّس يجب أخذها كمجموعةٍ واحدةٍ منسجمةٍ، فيوضع كل جزءٍ منها في مكانه الصحيح لكي يُستفاد منه بالشكل المطلوب. فحين يوصينا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالاستفادة من الدعاء ويقول لنا إننا نستطيع متى ما شئنا أن نفتح بالدعاء خزائن رحمة الله فلا يعني ذلك أبدًا أن نكتفي بالدعاء ولا نقرأ القرآن ولا نقوم بالأعمال المستحبة الأخرى ولا نطالع أو نحقق أو ننفق أو نصل أرحامنا أو نخدم الناس أو أن نهمل الأعمال والتكاليف الواجبة. بل إن كل شيءٍ في مكانه جميل. فالدعاء لا ينبغي أن يكون مانعًا من أداء التكاليف الإلهية أو حتى الأعمال المستحبة كقراءة القرآن وأمثاله. يجب أن تكون البرامج العبادية منسجمةً فيما بنيها وتؤمّن حظّ الروح بالمقدار المتناسب. وبكلامٍ مختصر، لا ينبغي أن ننسى ضرورة رعاية العدالة والتوازن في كل شيء. وفي هذا المجال، إنما يحصل التوازن حين نتعامل مع مجموع التعاليم الدينية بشكلٍ منسجم وكمجموعةٍ متكاملةٍ ونأخذ من الجميع بالمقدار المتناسب من العبادات والأعمال، ولا نرضي قلوبنا بالتفريط أو نسوقها نحو الإفراط.

المسؤولية على قدر الوسع

وحين نقول بوجوب الاستفادة من جميع العبادات والتعاليم الدينية من أجل التكامل، قد يبرز هذا التوهم ويشغل الأذهان: فما هو المقدار الذي ينبغي أن يقوم به كل إنسانٍ من العبادات والتعاليم؟ وهل عيّنه الشرع المقدّس؟ وهل أن حصّة الجميع واحدة؟

والجواب الأوّلي هو أن لجميع الناس في أية طبقةٍ كانوا أو فئةٍ أو عمرٍ تكاليف معيّنة. ولا يعني ذلك أن على كل واحد منا نفس المقدار المعيّن من هذه الأحكام من قراءة القرآن مثلًا أو صلاة النافلة أو الأعمال المستحبة؛ أو إنه يجب على الجميع الدعاء بنفس المستوى وهكذا بالنسبة للإنفاق وغيرها، بل إن الاختلاف



موجودٌ ومعيار هذا التفاوت بالإضافة إلى القدرة والوسع: تحمّل المسؤولية أيضًا. وكمثالٍ: فإن الذي أعدّ نفسه لتحصيل العلم، ستكون مسؤوليته أكبر في هذا المجال، وسوف تختلف مع وظيفة غيره. فلأنه نهض بهذا التكليف، فمن المتوقّع أن لا يتحرك الآخرون نحوه لأنه يقوم به. ولهذا تكون مسؤوليته في هذا المجال أكبر وتكليفه أخطر. بل قد أضحى تكليفه الأساسي هو هذا الأمر. وفي هذا المقام، لا ينبغي أن ننسى أنّ أحد أبعاد التكامل الروحي للإنسان في مسير الارتباط بالله يحصل في ظلّ الدعاء، ولكنّ الأمر لا ينبغي أن يكون بحيث نبذل كل جهدنا في الدعاء ونترك ساعات الدرس والمطالعة والمباحثة اللازمة. بل يجب الاستفادة من جميع التعاليم والأحكام الإلهية كلٌّ في موقعه المناسب له.

ففي أوقات الفراغ وأيام العطل وبعض الأوقات المليئة بالفضيلة ينبغي أن ندعو. وليس هذا من باب ترك الدرس والاهتمام بالدعاء لأنّه أمرٌ ممدوح وحسن. أمّا من لا يتمكّن من المشاركة في الأنشطة الاجتماعية ولا يتحمّل شيئًا من هذه المسؤوليات، فلو جلس في بيته ودعا وقضى معظم أوقاته بالدعاء وقراءة القرآن، فلا حرج عليه. لهذا، لو قلنا إنّه ينبغي تقسيم الأعمال والاستفادة من جميع التعاليم والتكاليف الإلهية، فلا يعني ذلك إنّ حصة الجميع في أداء الأعمال متساوية بل إنّ لكلّ شخصٍ مسؤولية ووظيفة خاصة به كما هو حاصلٌ في جميع الأنشطة والأعمال الاجتماعية الواجبة. فالذي يمتلك الثروة تكون مسؤوليته في الإنفاق أكبر ممن يكدح لتأمين عيشه. فيجب عليه أن ينفق بما يتناسب مع ثروته وذلك العامل ينفق بما يتناسب مع دخله. فالكم ليس مطروحًا هنا بل نسبة الدخل والإمكانية. وعلى أيّ حال، إنّ على كل إنسانٍ بحسب معرفته بهذا الدين، وبالالتفات إلى الشروط الذهنية الخاصّة والموقعيّة الاجتماعيّة التي يحتلّها، أن يستفيد من أنواع العبادات في مسير تكامله. ولا شك بأنّ تنظيم مثل هذا البرنامج أمرٌ صعبٌ، ولهذا يوصي علماء الأخلاق بالرجوع إلى الأستاذ.

وفي الواقع، إنّ أحد أسرار الحاجة إلى الأستاذ في المسائل الأخلاقية والتربوية يكمن في هذه القضية، لأن أساتذة الأخلاق مطّلعون على جميع المسائل ويمكنهم أن يحدّدوا السليم فيها من السقيم ويعيّنوا لكل شخصٍ البرنامج الذي يتناسب مع معرفته وحدود مسؤوليته وقدرته وموقعه الاجتماعيّ. ومن هنا من

المستحسن أن نشاور في هذا المجال أصحاب التجارب.

سعة تكامل الإنسان واستعداداته

علمنا أنّ الإنسان موجودٌ ذو أبعادٍ مختلفة. وفي تكامله، يجب الالتفات إلى جميع الأبعاد. ولأجل تحقّق هذا الأمر يجب العمل بجميع تعاليم الإسلام وأحكامه التي تتوجّه إلى جميع أبعاد الإنسان الوجودية. علينا أن نأخذ هذا الأصل بعين الاعتبار لأنّ أرواحنا تحتاج إلى جميع التعاليم الدينية، ونطبقّها بحيث تحصل الاستفادة منها جميعًا. يجب أن نعلم أنّ إهمال أحد التعاليم أو الأحكام يؤدّي إلى النقص في أحد أبعاد الروح، ومن عمل ببعض الأحكام من دون البعض لن يتكامل وسوف ينسدّ عليه طريق الرشد والتعالي الروحي. ولهذا، نجد أنّ أساتذة الأخلاق وأئمّة طريق الكمال يدقّقون النظر في طريق الكمال بعناية تامّة لئلا تحصل الغفلة عن أحد الأحكام أو يُترك العمل به.

ومن المناسب هنا أن نذكّر ببعض مزايا تقيّد المرحوم العلّامة الطباطبائي رحمه الله وتعبّده في جميع أحكام الإسلام. يقول العلّامة: «أمرني أستاذي في الأخلاق ذات يوم أن أستخرج من مجموع أجزاء كتاب بحار الأنوار الغنيّ، تلك الروايات التي ترتبط بسيرة النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، حتى أستفيد منها في أمور الحياة ويستفيد الآخرون من هذه المجموعة القيّمة للسنن الإلهية». وكان أمر الأستاذ هذا سببًا لأن يؤلّف العلّامة الطباطبائي كتابًا تحت عنوان سنن النبيّ من كتاب بحار الأنوار الشريف ويعرض جميع سنن النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ويرجع إليها كل حين ويعمل بها. وعلى أيّ حال، وأثناء جمع الروايات المذكورة اصطدم العلّامة بروايةٍ تبيّن أنّ النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ كان يأكل سمك الروبيان (القريدس) ويحبّ تناوله. وحيث إن العلّامة الطباطبائي كان قد صمّم على أن يعمل بسنن النبيّ فقد بدأ بالبحث عن القريدس حتى وجده ثمّ أعدّ وجبةً غذائيةً منه وأكلها حتى يحصل له الاستنان ولو لمرّةٍ واحدة بسنّة النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، ذلك لأنّ الذي يريد أن يسلك طريق الكمال والسمّو ويدرك أعلى درجات الكمال ويتّبع النبيّ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ يجب أن يسعى أن يطبّق أدقّ التفاصيل المذكورة في سيرة النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وأئمّة الهدى عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى



﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]؛ فيجب الاعتناء الكامل بكل ما ورد من سيرة النبيّ الخاتم والأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. والحذر من إهمال بعض تعاليم هؤلاء العظماء لأنّ ذلك يؤدّي إلى عدم تكامل الإنسان في البعد المتعلق به.

وفي ختام هذا المقطع من الوصية والبحث المتعلّق بالدعاء، ينبغي أن نذكّر بأنّ الدعاء، وإن كان من الممكن أن يكون وسيلةً لتحقّق الحاجات وتأمين بعض الطلبات، لكنّ الحثّ عليه لم يكن من أجل تعطيل عملية الاستفادة من الوسائل الطبيعيّة واستخدامها. فالذي يعرف الله ويدرك حكمته يعلم جيدًا أنّه تعالى جعل هذا العالم قائمًا على أساس الأسباب والوسائل وفق نظام حكيم، وأنّ الأفعال فيه مبنيّة على هذا الأساس أيضًا. فإذا كان الواجب أن نسعى لتأمين لقمة العيش، فهذا لا يدلّ على بخل الله المنّان. فإنّ الله تعالى قادرٌ على تأمين حاجات عباده وأرزاقهم كل صباح؛ كأن يبعث إليهم بملائكته يحملون إليهم كل ما يحتاجون إليه في يومهم كلّه. كما يحدث في الجنّة حيث ينال العبد كل ما يشتهيه؛ فإذا رغب بفاكهةٍ ما اقتربت منه شجرتها وتدلّت عليه غصونها. فالله تعالى قادر على ذلك في الدنيا، لكنّ حكمته تعالى اقتضت أن يكون تكامل الإنسان في الدنيا من خلال سعيه واختياره. وهذا العالم هو عالم الامتحان وتكامل الاستعدادات بعد تفتّحها وبروزها. وفي هذه الدنيا، يجب أن يتحرّك الإنسان باختياره وإرادته لكي يصل إلى الكمال المطلوب. ولا تظنّوا أنّ الإنسان الذي يُجبر على عملٍ ما سيحصل على نفس النتيجة فيما لو قام به باختياره وإرادته. فمن الواضح جيّدًا، أنّ الذي يقوم بالعمل الاختياري، سيتكامل أكثر. وكلّما كان العمل المؤدّى صادرًا عن الإرادة الحرّة والاختيار، فإنّ تأثيره في روح الإنسان سيكون أكبر وسيوصل إلى المزيد من الكمال.

ولا شك بأنّ بعض الأعمال في الحياة الاجتماعية تتطلّب أحيانًا الترهيب والعقاب لكي تُنجز إذا كانت مطلوبة أو ينتهى عنها إذا كانت منكرًا، لكن هذه القضية لا ترتبط بالأعمال الفردية، بل من أجل تحقيق المنافع والمصالح الاجتماعية. وعلى أيّ حال، إنّ رشد الإنسان وتكامله يكون في ظلّ الأعمال التي يقوم بها عن

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.





اختيارٍ وإرادة. فإنّ الله تعالى جعل جميع هذه الوسائل والوسائط، كضرورة السعي لتحصيل لقمة العيش، وحفّ طرقها بآلاف الامتحانات لكي تتحقّق من خلالها أرضيّة تكاملنا. وفي مسير الامتحان، يوجد أنواعٌ عديدة من التكاليف التي إذا قام بها الإنسان بالشكل الصحيح وخرج منها مرفوع الرأس فإنّه سينال الرشد المعنويّ. وأمّا إذا سقط في الامتحان، فإنّ سقوطه في الحقيقة سيكون إلى قعر مجاهل الضلالة. فمن يراعي في حياته وأعماله الصدق والأمانة يتكامل، ومن يغشّ يسقط. وبالالتفات إلى أنّ الإنسان سيكون دائمًا في معرض التكاليف فبتبعها ستتوفّر أرضية تكامله الدائم.

إنّ الله سبحانه مثلما أعطى بعض أنبيائه العلم اللدني وخلق بعض الكائنات منزّهةً عن المعاصي من دون اختيارٍ منها لا تميل أبدًا إلى مخالفته سبحانه، فقد كان قادرًا أن يجعلنا كذلك، ولكنّنا في هذه الحالة لن نسلك طريق التكامل.

والملفت هنا، إنّ الإنسان رغم علمه بأنّ الله تعالى قد جعل هذه الوسائل قائمة على أساس الحكمة، لكنّه حين يصبح محتاجًا يعتبر أنّه يحب أن تُقضى حاجته مباشرةً ومن دون أي تعب ويرغب بنيل مراده القلبيّ من دون مشقّة. لهذا، إذا دعا ولم يُستجب له، يبدأ بالشكاية ويتساءل لماذا لم يستجب الله تعالى دعائي؟! هو غافلٌ عن أنّ هذا المسير مليئٌ بالحكم المخفيّة، وما لم يحصل تعبٌ وكدحٌ وامتحاناتٌ لن يتمكّن من الوصول إلى الرشد اللازم. فلا ينبغي أن نتوقّع أن تُحلّ مشاكلنا وتؤمّن حاجاتنا من دون تعبٍ وبمجرّد الدعاء. ويجب أن نستمرّ في العمل والسعي، ونعلم أثناء قيامنا بأعمالنا الطبيعية والفيزيائية، أنّه لو اقتضت المصلحة بأن يُستجاب دعاءنا لاستُجيب.. ذلك لأنّ كل ما يراه الله لصالحنا يفعله. ولو لم يكن المطلوب لمصلحتنا، فإنّه سيعوّضنا بما هو أفضل منه. ولا شك بأنّ المؤمن حين يدعو يراعي بقلبه أو على لسانه هذه القيود والشروط. فإذا دعا فإنّه يقيّد دعاءه بلسانه أو بقلبه بوجود المصلحة فيما يطلب، أو الحصول على ما هو أفضل عند انتفائها. وإذا تجاوزنا جميع هذه المسائل، فإنّ الدعاء عند المؤمن يُعدّ مبررًا لكي يتحدّث مع الله ويظهر عبوديته له. فإذا حصل على مراده فما أحسن. وإلّا فإنّه يعلم أنّ الله تعالى سيعطيه ما فيه صلاحه ومصلحته.

سفر الآخرة



وفي تتمة هذا المقطع من الوصية، يرجع أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك الموضوع الذي تعرّض لبيانه وهو العلاقة بين الدنيا والآخرة والمقارنة بين هاتين المرتبتين من الوجود وكون الدنيا معبرًا ومحلًّا لتأمين المقدمّات، ويقول إن هذه الدنيا ممرٌّ وليست هدفًا ومقصدًا نهائيًا. وفي الواقع، ينبغي أن نقول إن البحث عن الدعاء كان يشبه الجملة الاعتراضية داخل البحث عن الدنيا والآخرة. وها هو عليه السلام يرجع بنا إلى الموضوع السابق والحديث الأساسي في هذه الوصية القيّمة التي تتعلّق بالآخرة ومقارنتها بالدنيا وضرورة الاهتمام بالحياة الأخروية ويقول: «**واعْلَمْ يا بُنَيّ أنّكَ خُلِقْتَ للآخرةِ لا للدنيا، ولِلْفناءِ لا لِلْبقاءِ، ولِلْموتِ لا لِلْحياةِ، وأنّك في منزلِ قُلْعَةٍ، ودارِ بُلْغَةٍ وطريقٍ إلى الآخرةِ**»؛ فيجب عبور هذا الطريق للوصول إلى المقصد. ولهذا، خُلق الإنسان، أمّا هذه الحياة الدنيا فسوف تنقضي وتزول مع كل مشاكلها.

وبالتوجّه إلى معنى «لام الغاية»، يمكن أن نقول إنّ عاقبة الحياة الدنيا هي الفناء والموت. لهذا، يكون الفناء مختصًا بالحياة الدنيا، وليس هناك من فناءٍ مطلق. فلا يمكن للإنسان أن يفنى، بل سيخلد في الحياة الآخرة ويبقى أبدًا. فالفناء من شؤون الحياة الدنيوية وخصائصها. ولهذا، كانت نهاية هذه الحياة الفناء: «**خُلِقْتَ لِلْفناءِ لا لِلْبقاءِ**». وفي بعض الروايات، نجد الأمر على العكس حيث يقول: «**خُلِقْتَ لِلْبقاءِ لا لِلْفناءِ**». وهذا الكلام يرتبط بعالم الآخرة والبقاء فيها. فأنتم لم تُخلقوا لكي تموتوا في الآخرة وتصبحوا لا شيء، بل خُلقتم للبقاء في ذلك العالم. فكلا التعبيرين صحيحٌ. «**خُلِقْتَ لِلْبقاءِ**»؛ أي إنّ الحياة الأبدية هي الهدف.. و«**خُلِقْتَ لِلْفناءِ**»؛ أي إنك جئت إلى هذا العالم وسوف ترحل عنه، لأنك لم تُخلق لهذا العالم. فلو قال: «**خُلِقْتَ لِلْفناءِ، وللموت لا للحياة**»، فمقصوده الحياة الدنيا التي خُلقت لأجل الموت والفناء. ونحن جميعًا سنرتحل عن هذا العالم ونموت. والمقصود من الموت هو نهاية هذه الحياة وغايتها. ولو قال في موضع آخر: «**خُلقت للحياة لا للموت**»، فالمقصود هو الحياة الأخروية، ما يعني إنّكم لم تُخلقوا للعدم والفناء، بل خُلقتم للبقاء في ذلك العالم الأبدي.

ففي هذه الدنيا الموت يقينٌ، ولهذا كانت الحياة فيها ليست سوى منزلٍ



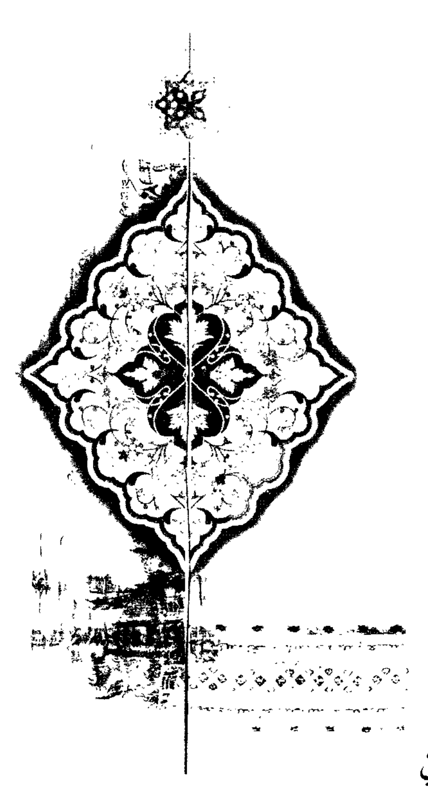
مؤقّت. إنّ هذه الدنيا منزلٌ لا غير. والأفضل أن نقول إنّها تشبه المقهى الذي يتوقّف فيه الإنسان عدّة لحظات من أجل التزوّد ببعض الحاجات. وليس هذا المكان محلّ البقاء وعمارة القصور. فالإنسان حين يجلس في المقهى إنّما يفعل ذلك للاستراحة عدة لحظات ولا يأتي إليه حاملًا أثاثه ووسائله ويجلب معه زاده ووسائل عيشه الدائم. إنّه مكان تجديد القوّة من أجل التحرّك نحو المقصد والمقصود. ولمثل هذا المكان يُقال «**منزلُ قُلعة**» أي المكان الذي نُقتلع منه ولا نبقى فيه. فهو محطّةٌ مؤقتّةٌ. وحقيقة الحياة الدنيا ليست للبقاء والتمتّع والانبساط لأنّها «**دار بُلْغَةٍ وطريقٍ إلى الآخرةِ**». فهنا محلٌّ ينبغي الشروع في تأمين الزاد للاستمرار بالتحرّك نحو الآخرة، بمجرّد الوصول إليه. «**إنّك طريدُ الموتِ الذي لا ينجو هاربُهُ**». فالمقصد في الآخرة والموت يسعى نحونا ويطلبنا ولا مفرّ لنا منه.

ومن الناحية اللغوية يُقال للولد الذي فرّ من أسرته «طريدٌ». وقد يلتفت أهله بسرعة إلى فراره ويلحقون به، لكنّه في بعض الأحيان قد يكون أسرع منهم بحيث لن يتمكنوا من القبض عليه وعندها سيُسمّى «فرارًا». وهنا، نجد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول إنّ الموت يلحق بكم بحيث إنكم لو أسرعتم أو استعملتم أي وسيلةٍ للفرار منه، فإنّ عاقبتكم ستكون الوقوع في قبضته. فلا تظنّوا أنّكم إذا قمتم بجميع الإجراءات الصحية والوقائية وراعيتم شروط الحفاظ على الصحّة واتّخذتم جميع الاحتياطات اللازمة، فإنّكم ستحيون إلى الأبد. بل إنّكم وعلى اليقين أسرى قبضة الموت يومًا ما. «**لا بدَّ أنّه مدرِكُكَ يومًا**».

وهنا، نجد إنّ البعض قد يكون مستعدًا للموت، فلا يكون الموت بالنسبة إليه مشكلةً، فيؤدّي ما هو مطلوبٌ للآخرة ويصفّي حسابه، إلّا أنّ المشكلة تبرز حين لا يكون الإنسان مستعدًا للموت، أو أنّه لا يحبّ أبدًا أن يموت. لهذا، ما دمنا غير مطّلعين على وقت مجيئه وزمن قدومه، فلنسعَ أن نكون ونتصرّف بحيث إذا عاجلنا الموت لن نجزع. فنصفّي حساباتنا ونؤدّي ما علينا لله سبحانه والناس، ونقضي ما فاتنا من صلاةٍ وصوم، ولا ندع أي شيء ممّا علينا باقيًا إلى أن يحين أجلنا ولا نُمهل لحظةً واحدة. فكُونوا مستعدّين دومًا للموت لئلّا يعاجلكم حين المعصية أو حين لا تكونوا مستعدّين أو أثناء الغفلة عن التوبة من المعاصي. فاحذروا أن يدرككم الموت في الوقت الذي لا تحبّون. وبما أنّكم لا تعلمون متى

يأتي، فكونوا دائمًا على استعدادٍ: «**فَكُنْ مِنْهُ على حَذَرٍ أنْ يُدْرِكَكَ على حالٍ سيِّئةٍ قدْ كنتَ تُحدِّثُ نفسَك منها بالتّوبةِ فيحولُ بينكَ وبينَ ذلكَ**». فالبعض يؤجّل التوبة، ثمّ يعاجله الموت، والبعض يقول ها قد ابتُليت بالمعاصي وغلبني الشيطان فسوف أتوب في المستقبل! ولكن من أين لكم أن تعلموا أنّه لن يأتي أجلكم حين المعصية، وعندها لن تُعطوا فرصةً للتوبة؟! فلو حصل هذا الأمر وغفلتم عن التوبة أو أخّرتموها ولم تقضوا ما فاتكم أو تؤدّوا حقوق الآخرين أو تصفّوا حساباتكم ثمّ جاء أجلكم ولم تُعطوا أي فرصةٍ للتوبة وجبران الفائت فمن ستلومون غير أنفسكم؟ فباليقين، لا ينبغي أن يلوم الإنسان سوى نفسه لأنّه هو الذي أهلك نفسه بنفسه: «**فإذا أنتَ قد أهْلَكْتَ نفسكَ**». ولا ينبغي أن تلوم سواك.





الدرس الواحد والعشرون
ذكر الموت

- الاعتقاد بالمعاد وإصلاح السلوك
- مفاجأة الموت
- لماذا لا نعدّ لذّة الدنيا لذّة؟
- تأثير السلوك الجمعيّ على السّلوك الفرديّ
- الكسل أم الزهد





«يا بُنيّ أكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْموتِ وَذِكْرِ ما تَهْجُمُ عَلَيْهِ وَتُفْضي بَعْدَ الْمَوْتِ إليهِ واجْعَلْهُ أمَامَكَ حتى يأتيكَ وقدْ أخذْتَ منهُ حِذْرَكَ وشَدَدْتَ لَهُ أزْرَكَ وَلا يأتيكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ، ولا يَأخُذُكَ على غُرّتِكَ، وأكْثِرْ ذِكْرِ الْآخرةِ وما فيها مِنَ النّعيمِ والعذابِ الْأليمِ، فإنّ ذلِكَ يُزَهّدُكَ في الدُّنيا ويُصَغّرُها عِنْدَكَ.

وإيّاكَ أن تَغْتَرّ بما تَرى من إخْلادِ أهْلِها وَتكالُبِهِمْ عليها وقدْ نبّأكَ اللهُ جلّ جلاله عَنْها ونَعَتْ إليكَ نفْسَها وتَكَشّفَتْ لكَ عنْ مساوِيها».

وصلنا في شرح وتفسير وصيّة مولانا أمير المؤمنين عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ للإمام المجتبىعَلَيهِ‌السَّلَامُ إلى هذا المقطع والذي يكون محوره التوجّه إلى الآخرة والحياة الأبدية وإحياء ذكر الموت. ولا شك بأنّ كل موجودٍ حيّ ستكون عاقبته الموت، لأنّ نهاية الدنيا ليست سوى الموت. ولكن الأمر الآخر الذي اهتمّ به أولياء الدين هو التذكّر الدائم لهذه الواقعة الخطيرة، والتي تولّد آثارًا تربويةً وأخلاقيةً في سلوك الإنسان وفكره بشكلٍ كبير. فبعد إدراك هذه الحقيقة، يجب على كلّ مسلم أن يحافظ على ذكر الموت دائمًا في نفسه، ولا يكتفي بالعلم والتصديق صرفًا. وفي الواقع، إنّ عمق الاعتقاد ومنتهى تأثير العلم بالموت والمعاد مخفيٌّ في بقاء ذكراه حيّةً في الأذهان وعدم الانقطاع عن استحضاره لحظةً واحدةً. ففي هذا المقطع، يوصينا الإمام عليّعَلَيهِ‌السَّلَامُ بهذا الأمر الخطير، ويبيّن لنا تأثيره في حياتنا، على أمل أن يكون سببًا لهداية سالكي طريق الحقّ.





الاعتقاد بالمعاد وإصلاح السلوك

إذا دقّقنا النظر في القرآن الكريم لشاهدنا أنّ إحدى المسائل التي أوليت من الاهتمام ما يفوق ما عداها من المسائل هي قضية الحياة الأخروية وذكر الموت. وسبب ذلك أنّ الاعتقاد بالآخرة والتوجّه إلى الحياة الأبدية له أكبر الأثر ويلعب دورًا كبيرًا في سلوك الإنسان. حتى إنّنا نستطيع القول إنّ الاعتقاد بالله تعالى والتوحيد ليس له نفس التأثير الموجود في الاعتقاد بالآخرة على مستوى تغيير وإصلاح أعمال الإنسان وسلوكه. وقد يؤمن البعض بالله تعالى من دون الاعتقاد بالقيامة، ويقولون في أنفسهم إننا نفعل في هذه الدنيا ما نشتهي وغاية الأمر أنّ الله تعالى لن يرضى، هذا ليس مهمًّا ولا عيب فيه!! أمّا إذا تحقق الاعتقاد بالمعاد والتصديق بأنّ الأمر لا ينحصر بمجرّد عدم رضا الله، بل هناك الشقاء الأبديّ والعذاب اللامتناهي، عندها لن يفعل أمثال هؤلاء ما يشتهون، لأنّهم لا يستطيعون أن يمرّوا بسهولة على العذاب والألم الأبديّ في الآخرة، إلّا إذا كانوا يعيشون في غفلةٍ تامّة وجهلٍ مطبق. ذلك لأنّ من كان له أدنى عقل وقارن الحياة الدنيا بالحياة الأخروية الأبدية، أي قارن المتناهي باللامتناهي - ولا شك بأنّه لا يمكن ذلك أبدًا - فمن المستبعد جدًا أن يشتري الحياة القليلة العابرة ويدفع ثمنها تلك الحياة الأبدية الخالدة. ولا شك بأنّ هناك من عرف الله تعالى وأحبّه حتى استقرّت محبّته في قلبه بحيث يمكنه أن يتحمّل جميع عذابات الدنيا والآخرة بشرط تحصيل رضى الله تعالى. ولكن للأسف الشديد فإنّ أمثال هؤلاء في غاية الندرة. إنّ أكثر الناس يرغبون بالجنّة والحور والقصور بدلًا من رضوان الله.

هذا في حين أنّه ينبغي أن نعشق هذه الروحيّة ونقدّم رضوان الله على كل شيءٍ، ونوجّه كل همّنا وغمّنا نحو الحصول على ذرّةٍ من رضاه، فلعلّنا نبلغه. ﴿رِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ...﴾[1]؛

وعلى أيّ حال، فالواقع يحكي أنّ النوع البشريّ وعموم الناس بعيدون كلّ البعد عن هذا الأمر. وما أقلّ وأندر أولئك الذين يشبهون عليًا عليه السلام في حاله ومقاله: «**وعزّتك وجلالك لو كان رضاك في أن أُقطّع إرْبًا إرْبًا وأُقتل سبعين قتلة بأشدّ**

(١) سورة **التوبة**، الآية ٧٢.

ما يُقتل به الناس لكان رضاك أحبُّ إلي»[١]؛ فلو كان رضاك أن أحترق في عذاب جهنّم فهو أحبّ إلي. ومثل هذا الكلام لا يخطر مجرّد خطورٍ في ذهن الأفراد العاديين، فكيف بأن يجري على ألسنتهم أو يكون مقصدًا لتوجّهاتهم. وها نحن نكرّر هذه الألفاظ ولكنّنا لا نجد في وجودنا كلّه ذرّة من تلك المعرفة وذلك العشق والمحبة الذين كانوا في قلب المعصوم تجاه الله تعالى.

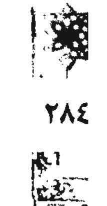
وفي الواقع، إنّ العذاب والخوف منه والطمع في الثواب له التأثير الأكبر في واقع عامّة الناس، فأكثرهم يقعون تحت تأثير عاملي الإنذار والتبشير والخوف والرجاء. وإنّ عدد أولئك، الذين يسعون لنيل رضا الحقّ جلّ جلاله من دون أن يكون لهذين العاملين من أثرٍ فيهما، قليلٌ جدًا وفي غاية الندرة. لهذا، إذا آمن الناس بالآخرة وعلموا أنّ نتيجة أعمالهم الحسنة والسيئة أو ما يفعلونه من خيرٍ أو شرّ محفوظٌ لهم إلى الأبد فإنهم سيستيقظون ويتنبّهون. أمّا إذا غفلوا عن الآخرة ونسوا ذكرها، فكأن أهواء النفس ستتغلّب عليهم فيرجّحون لذّات الدنيا العابرة وتتلوّث أيديهم بكل معصيّة. فالشيء الذي يكون مانعًا من ارتكاب المعاصي والجنايات أكثر من سواه هو الخوف من الشقاء الأبدي والعذاب اللامتناهي. ولعلّنا نستطيع أن نقول إنّ الطمع في الثواب ونيل السعادة ليس له ذلك التأثير الموجود في الفرار من العذاب وغيره.

وبهذا البيان، يتّضح لماذا كان القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام ومنها **نهج البلاغة** تجعل أساس المطالب محور الدنيا والآخرة، والإعراض عن هذه الحياة ولذائذها وإيجاد الشوق والمحبة والتوجّه إلى الحياة الأخروية. ومن الواضح أن المقصود مما ذُكر ليس أن يفرّ الإنسان من الحياة وينفر منها. ذلك لأن الحياة الدنيا نعمةٌ عظيمةٌ جدًا وهي التي تحدد نوع الحياة الأخروية للإنسان. فما يتمّ الإلفات إليه في الآيات والروايات هو ذلك التعلّق بلذّات الدنيا، الذي يؤدّي إلى الغفلة عن الآخرة ونسيانها؛ وهو أمرٌ مذمومٌ جدًا. فإذا شاهدنا هذه التعاليم والوصايا تتكرّر في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، فذلك لأنّ تكرار هذه النكات مقصودٌ ومطلوبٌ، نظرًا للدور الذي تؤدّيه في الحؤول دون نسيان الآخرة

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٢٧، الرواية ٦.

والإعراض عنها.



ومن جانبٍ آخر، فإنّها تقلّل من تأثير مظاهر الدنيا الخدّاعة وتضعف الدوافع نحو لذّاتها العابرة. ولهذا، كان الإنسان بحاجةٍ دومًا إلى المذكّر لكي لا ينخدع بهذه اللذائذ، ومن أجل أن يقبل على الآخرة. وبعبارةٍ أخرى، إنّ السبب الآخر وراء كل هذا التأكيد والتكرار هو أن لا ينسى الإنسان أنّ هذه الحياة ستنتهي بالموت، فإذا نسي الآخرة صار طعمةً سهلة للشيطان، وعندها ينسى الهدف الأساسي من الحياة ولا يعلم شيئًا عن عاقبة عمله.

فهذا النسيان سيكون سببًا لاعتبار مثل هذه اللذائذ والمسرّات دائمةً. وبالرغم من مشاهدة المصائب والحوادث المرّة والمؤلمة والموت الفجائي، فسيستمرّ بتخيّل هذه الحياة على أنّها دائمةٌ وأن لذّاتها السطحيّة والعابرة مستمرّةٌ. فلو التفت الإنسان إلى أنّ هذه الحياة منتهية، لعرف قدره ومنزلته. ولو علمنا والتفتنا إلى أنّ هذا العمر مؤقّتٌ لا يستمر، لقدّرنا قيمة هذه اللحظات ولأنفقنا أعمارنا على الطريق الصحيح. فبالمقدار الذي نلتفت إلى انقضاء هذا العمر نسعى للاستفادة القصوى منه. أمّا إذا غفلنا عن محدودية هذا العمر القصير والحياة التي هي فرصةٌ لنا، فإنّنا سنتوجّه إلى لذّات اليوم والغد وننسى شيئًا فشيئًا هذا الموت. وحين يُنسى الموت تستولي الغفلة على الإنسان. ومع حصول الغفلة يسهل كلّ انحرافٍ ومعصية. وطريق النجاة من الابتلاء بوساوس الشيطان ودسائسه وأهواء النفس هو أن نلتفت إلى وجود الموت وأنّنا عمّا قريب سنرتحل عن خرابات هذه الدنيا الدنيّة.

مفاجأة الموت

بالإضافة إلى ما مرّ ما يحوز على أهمية كبيرة وهي نُكتةٌ دقيقةٌ أدقّ من الشعرة توقظ الأذهان الحادّة: أنّ مجهولية زمان الموت لها نفس التأثير للموت والاعتقاد به وبالآخرة على مستوى تغيير سلوك الإنسان وتصحيحه. وفي الواقع، إنّ هذه القضية التي هي أدقّ من الشعرة، تُعدّ نعمةً إلهيةً كبرى، لأنّ الالتفات إلى مجهولية زمان الموت يجعل كل إنسانٍ يحتمل مجيئ أجله في أي لحظة. وعليه، سيكون ملتفتًا دومًا إلى أعماله وتصرّفاته. وحيث إنّ أجل كلّ إنسانٍ مجهولٌ ولا يُعلم متى



يتحقّق، فإنّ خفاء هذه الحقيقة يؤدّي إلى حضور ذكر الموت دائمًا في قلب الإنسان وازدياد التوجّه إليه وتقدير قيمة العمر ومراقبة الأعمال. فإذا كانت إحدى وصايا الأئمّة عليهم‌السلام هي الإكثار من ذكر الموت فذلك من جهة التأثير الفائق لهذا الأمر في تربية الإنسان.

وهنا، يقول الإمام علي عليه‌السلام: «**يا بُنيّ أكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الموتِ وَذِكْرِ ما تَهْجُمُ عَلَيْهِ وَتُفْضِي بَعْدَ المَوْتِ إليهِ واجْعَلْهُ أمَامَكَ**»؛ ومن الواضح جدًّا أنّك إذا عشت هكذا فحين يأتي أجلك ستكون مستعدًّا له. وفي المقابل، إذا نسيت الموت ولم تستعدّ لسفر الآخرة وأخّرت أداء الواجبات وقضاء ما فات منها وأداء حقوق الناس واستسهلت ما سيأتي وكنت تسوّف أمورك وتقول إنّك ما زلت شابًا ويوجد متّسع من الوقت أمامك وتساهلت بأعمال الخير حتى أدركك الموت، فإنه سيسقط عليك كالصاعقة وأنت مستغرق في سُبات الغفلة ليرمي بك في ذلك البحر الهائج الذي لا قعر له. وهناك لن تتمكّن إلّا من الاستسلام للعذاب الأخروّي. ففكّر قبل أن تُسلّم للعذاب الأليم. وهذا التفكير يتطلّب أن تستحضر الموت أمامك دائمًا وتلتفت إلى ضرورة القيام بمسؤوليّاتك لئلا يفاجئك الموت غدًا أو بعد ساعة ويغلبك. فاجعل الموت نصب عينيك لكي لا تغفل حتى إذا أدركك ستكون بانتظاره كمن ينتظر ضيفه.

لماذا لا نعدّ لذّة الدنيا لذّةً؟

ها قد وقف الإنسان وسط ميدان تجاذب قوّتي اللذات الدنيويّة والنعم الباقية الأخرويّة ولا بّد أن يتصرّف بناءً على تأثير إحداهما. والمطلوب هو التوجّه إلى الآخرة لكي لا تصبح الدنيا ولذائذها قاطع لطريقنا وتغرقنا في مستنقعها وتحجبنا عن الآخرة.

يوجد طرقٌ عديدة للوصول الى هذا المقام؛ إحداها هو أن نستحضر الموت دائمًا ونحيي ذكر عالم الآخرة ونعمه الأبدية وعذاباته المهولة في أذهاننا ونجسّمها أمام أعيننا. فهذه الأمور تؤدّي إلى التقليل من رغبتنا في الدنيا وتجعل هذه الدنيا صغيرةً في أعيننا فلا يتعلّق القلب بها ولا يعشقها: «**وأكْثِرْ ذِكْرِ الآخرةِ وما فيها مِنَ النعيمِ والعذابِ الأليمِ، فإنّ ذلكَ يُزهِّدُكَ في الدُّنيا ويُصَغِّرُها عِنْدكَ**».

يجب أن نعلم أنّ الدنيا صغيرةٌ جدًا إذا ما قورنت بالآخرة. وإذا كنّا نتصوّر بأنّها كبيرة فذلك لأنّنا نقيس مظاهرها وشؤونها بالمقاييس الدنيويّة. وكنموذج على ذلك، لو نظرنا إلى أحد الكائنات المجهريّة، الذي يتحرّك من أوّل طرف الشعرة إلى آخرها. فإذا أراد أن يعبر هذه الشعرة فإنّه يحتاج إلى مدّةٍ طويلة، ذلك لأنّ حجمه في غاية الصغر. ولأنّه يقيس المسافة بحسب حجمه فإنّه يتصوّر أنّ هذه المسافة التي يقطعها طويلةٌ جدًا وتحتاج إلى عدّة سنواتٍ. في حين أنّ الشعرة في نظر الإنسان في غاية الصغر إلى الدرجة التي لا تُعدّ عنده من المسافات، ولا يُحسب لها حسابًا من الأساس. وكما تُلاحظون فإنّ هذا الاختلاف في الحكم يرتبط بمستوى الإدراك والفهم. وبهذه النسبة، نحن لا نقدر على تصوّر مقدار مدّة العمر في هذه الحياة، لأنّ نظرتنا محدودةٌ مثل ذلك الكائن المجهري الذي يرى تلك الشعرة بعيدة المسافة ونحن نرى هذه الدنيا الصغيرة بمدتها القصيرة طويلةً، ولا يمكننا أن نفهم في أي سنة وفي أي زمانٍ تنتهي وكيف تنتهي. هذا في حين أنّ العقل يعلم أنّ هذا العالم بالرغم من سعته الزمانيّة غير المحسوبة محدودٌ وزائلٌ وله نهايةٌ وحدّ. أما عمر الآخرة فلا نهاية له، ولا يمكن مقارنة شيء به. فهذا العالم مهما كان كبيرًا لا يمكن أن يكون لا متناهٍ، ولا نسبة بينه وبين اللامتناهي. وبالإضافة إلى المحدودية في البعد الزماني، هناك المحدودية المكانية لهذا العالم بخلاف ذلك العالم أيضًا.

وحين يقول الله تعالى إنّه يعطي كلّ مؤمنٍ جنّةَ سعتها سعة الأرض والسماء الموجودة في هذا العالم: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[١]، ففي الواقع يبيّن تعالى أنّ سعة ذلك العالم غير متناهية وهكذا بالنسبة لبعده المكاني ولا حدّ لمقداره. ولكن لماذا نقبل على مثل هذا العالم؟ لعلّ ذلك من جهة ظهور الرحمة الإلهية فيه لأنّ رحمة الله غير متناهية. فهل يمكن تحديد رحمة الله جلّ جلاله؟ ففي كل عالم ونشأةٍ ستظهر الرحمة الإلهية وبحسب استعداد كل إنسانٍ وفهمه ستتجلّى حتىً يدركها، وفي ذلك العالم بالتحديد سيتحقّق إدراك الرحمة المطلقة. فإنّ هذا الأمر يرجع في الواقع إلى عظمة روح الإنسان ووجوده. وهذه العظمة والسعة إنّما تحصل على أثر تلك الأعمال التي يقوم بها الإنسان طوال الخمسين

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٣.



أو المئة سنة. لكن هذه الأعمال كلّها مقابل ذلك العالم والثواب الموجود فيه لا تساوي طرفة عينٍ. وهكذا لا حساب للذّات الدنيا إذا ما قورنت بلذّات الآخرة ونعيمها الباقي، لأنّها أقلّ قدرًا من الشعرة التي تقتلعونها من رأسكم وترمونها جانبًا. فذلك العالم غير متناهٍ وهذا العالم متناهٍ ولا يمكن مقارنة المتناهي بغير المتناهي لكي نكتشف النسبة بينهما ونذكرها. إنّ أولئك الذين حصلوا على هذه الرؤية الإلهية هم القادرون على معرفة قدر ذلك العالم الأبدي ومنزلته ومستواه. ولهذا، كانت الدنيا في نظر أمير المؤمنين عليعَلَيهِ السَّلَامُ أقلّ من الورق المتساقط عن الأشجار وكان عليّعَلَيهِ السَّلَامُ يرى ذلك رأي العين ويعرف الآخرة وحقيقتها وموقعها.

وفي المقابل، كان يعلم قدر هذه الدنيا ومنزلتها. فهو الذي أدرك حقيقة الدنيا وقال إنّ هذه الدنيا لا تساوي ذلك السائل الذي يترشّح من أنف العنزة المزكومة إذا عطست. بل هي أقلّ من العظم الفاسد للخنزير الميت الذي يحمله المجذوم. فما هي قيمة عظم الخنزير الميت في يد إنسانٍ مجذوم؟! هكذا، كان أمير المؤمنينعَلَيهِ السَّلَامُ يقول لأنّه يعلم ما قيمة هذه الدنيا إذا ما قورنت بذلك العالم. فإن الرحمة والنعم اللامتناهية في ذلك العالم كانت بالنسبة لعليّعَلَيهِ السَّلَامُ من الوضوح والبرهان واليقين ما لو كُشف له عنها الغطاء ورآها رأي العين لما ازداد يقينه ذرّةً: «**لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينًا**»[١]. أمّا نحن أبناء الدنيا الذين لا نمتلك بصيرة أئمّة الهدىعَلَيهِمُ السَّلَامُ وتعاني قلوبنا من ضعف الإيمان، لو أخبرنا أمير المؤمنينعَلَيهِ السَّلَامُ عشرات المرّات أنّ هذه الدنيا لا قيمة لها فلا تعلّقوا القلب بها، لما آمنّا. وحين يرانا الأئمّة الأطهارعَلَيهِمُ السَّلَامُ مستغرقين في الجهل المحض والعصيان التام، فإنّهم يسعون من أجل تقريب أذهاننا البعيدة عن الحقيقة إلى الواقع بمختلف الأساليب من أجل إظهار حسن الحقيقة أمام أنظارنا. لأنّ أهواءنا النفسانية قد أسدلت على قلوبنا الغطاء وأحاطت بها الوساوس الشيطانية وأعماها حبّ الدنيا ولم تعد قادرةً على فهم الحقائق وإدراكها. ولأنّ أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ يحبّ إخوانه وعموم الناس والبشر وكل عباد الله، فإنّه يريد أن يوضّح لنا هذه الحقيقة بمختلف الأساليب لكي لا نتعلّق بعظم الخنزير الميت ونوجّه القلب

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٠، الصفحة ١٥٣.

نحو النعم العظيمة التي ادّخرها الله لنا؛ فلو تعلّقنا بهذه الدنيا سنُحرم منها. يجب أن نعمل بوظيفتنا والله تعالى سينعم علينا من حلال الدنيا ما لا يزاحم تلك النعم الأخروية. فاستفيدوا من الدنيا ولكن لا تعلّقوا القلب بها لكي لا تُخدعوا: «**وإيّاكَ أن تَغْتَرّ بما تَرى من إخْلادِ أهْلِها إليها**».

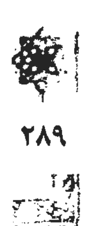




تأثير السلوك الجمعي على السلوك الفردي

يتأثّر الإنسان عادةً بمحيطه وبسلوك الناس ويسعى دائمًا أن يتصرّف بما لا يُخالف الآخرين حتى لا يتعرّض للتضييق والتهم. وفي بعض الأحيان، قد ينفعل بشكلٍ سريعٍ وواسع ويتحرّك وفق ذلك لئلّا يتأخّر لحظةً واحدةً عن الركب العام. وبعبارةٍ أخرى، حين يرى الإنسان أنّ الناس يولون شيئًا ما الاهتمام، ولأنّه لا يجد متّسعًا لدراسته أو تجربته أو تحديد مستوى أهميّته ومدى صوابيّته، وهو لا يحبّ أن يتخلّف عن الآخرين يتأثر بسرعة بالبيئة والرأي العام ويتّبع الأغلبية. ولا شك بأنّ المجتمع والسلوك الجمعيّ له تأثيرٌ قويّ في سلوك الأفراد. فإذا شاهد هذا الإنسان أنّ الناس يحبّون شيئًا ما، ويسعون جهدهم من أجل الحصول عليه، فإنّه يميل إليه ويحبّ أن يناله، أو إنّه إذا رأى الناس مصطفّين ومجتمعين حول شيءٍ ما فإنّه يلتحق بهم عند أوّل فرصة. ومن الممكن أحيانًا أن يقاوم بشدّة ولا يعتني في المرّة الأولى أو الثانية أو الثالثة لأنّه قد لا يرى للجوّ العام من قيمةٍ، ولكنّه في النهاية حين يرى هذا السلوك العام والميل الاجتماعيّ فإنّه يعيد النظر في تقييمه، ويجد نفسه منساقًا شيئًا فشيئًا إلى ذلك الجمع. فسواءٌ أحبّ أم لا، يقع الإنسان تحت تأثير أعمال الآخرين وتقييماتهم. والمسألة التي يجب الالتفات إليها هي أنّ مستوى التأثّر على صعيد الأنشطة الدنيويّة والأعمال التي تهدف إلى تحصيل اللذات الدنيوية سيكون أشدّ وأقوى بمراتب.

فحين نفتح أعيننا وننظر إلى الساحة الاجتماعية سنجد أناسًا يتحاربون ويتصارعون من أجل تحصيل اللذات الدنيوية.. حين تذهبون إلى السوق تشاهدون أولئك الذين يخادعون ويغشّون ويرفعون الأسعار من أجل كسب متاع الدنيا ومن أجل أن لا يبقوا متخلّفين عن الركب. وبكلمةٍ واحدة، تشاهدون الناس وهم يسعون للمزيد من متاع الدنيا، كلّ واحدٍ يقلّد الآخر من دون أن يقف قليلًا ويفكّر لماذا.



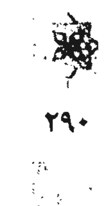
فلو تجسّدت الدنيا وأبناؤها أمامنا، لشاهدناهم كالطيور الجارحة التي أخرجت مخالبها وهي تقف أمام بعضها البعض وكلّ واحدٍ منها يسعى للحصول على المزيد من هذه الفريسة. وقد ينجرّ الأمر إلى العراك والشجار، كلّ ذلك من أجل هذا المتاع الدنيويّ الزائل. وهذا البيان ليس مظهرًا واقعيًا لحياة عامة البشر، فإنّنا نجد هذا الأمر عند الكثير من المسلمين. فإذا شاهدنا الناس يتصارعون على هذه الدنيا، لا ينبغي أن ننخدع وندخل معهم في هذا الصراع والمعركة على هذا متاع الدنيا الزائل كالسباع. إنّ متاع الدنيا يشبه تلك الجيفة التي تتنازع عليها الضباع والسباع. وعلى المسلم أن يفكّر جيدًا وينتبه لكي لا يدخل في سلك هذه الوحوش والحيوانات المفترسة، بل يكسب رزقه كما أراد الله وحدّد ويرضى بالمقدار الذي رزقه الله إياه وليحذر من أن يصبح همّه السعي للاستكثار من هذه الدنيا وجمعها.

الكسل أم الزهد

في البحث السابق، لم نهمل الإشارة إلى أنّ المنع عن الاستكثار لا يعني الكسل. فالمذموم هو الجمع والاستكثار لا السعي المتواصل والزائد. فيجب العمل كثيرًا والإنفاق من عوائد هذا العمل، من دون أن نجعل أكبر همّنا تكديس الثروة. فما هو مطلوبٌ طاعة الله التي تُعدّ مثل هذه الأعمال من أفضل أشكالها. وباليقين، إنّ تعلّق القلب بالدنيا والاهتمام بالحصول على آخر طرازٍ للسيارات وتغيير أثاث البيت كل سنة وأمثال ذلك تُعدّ أمورًا مذمومة وهي أفضل مصداقٍ للانخداع بالدنيا. فمثل هذه الروحية التي تدفع الإنسان للاستكثار من الدنيا هي التي توصله إلى الشقاء. يجب على الإنسان دائمًا أن يفكر في تحديد مسؤوليته والعمل وفقها..

وفيما يتعلّق بتدبير هذه الحياة الدنيا عليه أن يكون مطمئنًا أنّ الله سبحانه لا يريد لعبده الصالح الذل والشقاء في هذا العالم. يجب أن يكون توجّهنا منصبًّا على النعم التي أعدّها الله تعالى لأوليائه. أمّا هذه المتع الدنيوية فهي أمورٌ يشترك فيها الصديق والعدوّ والكافر والمؤمن وهي التي يمكن أن يتنازع عليها السباع والضباع فاحذروا أن تكونوا أمثالها. فإذا رأيتم الناس قد تعلّقوا بهذه الدنيا وتولّعوا بها واشتدّ حرصهم عليها فاحذروا أن تنخدعوا بمظهرهم وتتحوّلوا إلى

أمثالهم!

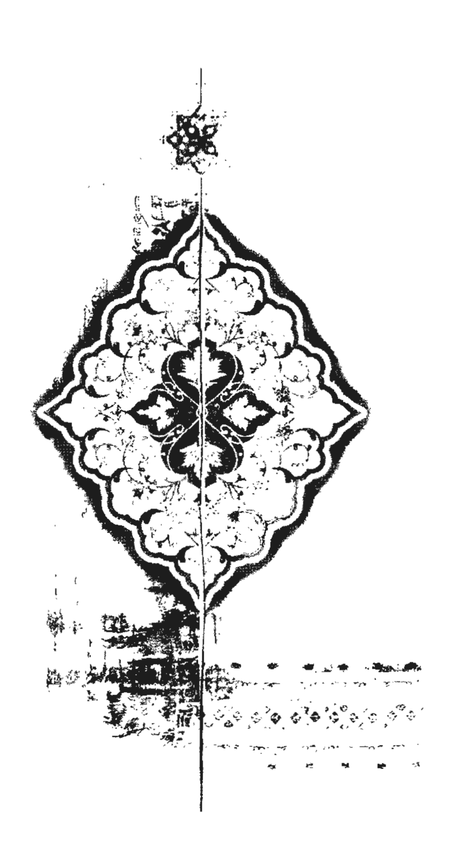


لقد بيّن الله تعالى حقيقة هذه الدنيا في نفس هذه الدنيا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[2]. ومثل هذه الكلمات الإلهية المتعلّقة بحقيقة الدنيا تفهمنا أنّ هذه الدنيا لا تعدو كونها لعبة وملهاة. ومن جانبٍ آخر، تحدّث الدنيا عن نفسها وتقول إنّني مليئةٌ بالمصائب والظلم والمذابح والأمراض والفراق والمرارة: «**نَعَتْ إليكَ نفْسَها**». فإذا كانت الدنيا تعرّف نفسها بهذا الشكل، فلماذا يتعلّق القلب بها؟ وإذا كانت الدنيا تنعي نفسها وتقول إنّني زائلةٌ والله تعالى يقول إنّ هذه الدنيا لا تبقى وإنّما هي لهوٌ ولعب، فهل يصحّ أن يتعلّق القلب بها؟؟ لا بل ينبغي أن نقتلع القلب منها.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٨٥.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ٣٢.



الدرس الثاني والعشرون
الدنيا والآخرة

- عوامل حبّ الدنيا
- طرق مواجهة حبّ الدنيا
- أنواع حب الدنيا
- قافلة الدنيا
- اختلاف أعمال الدنيا والآخرة



«وإيّاكَ أن تَغْتَرّ بما تَرى من إخْلادِ أهْلِها وَتكالُبِهِمْ عليها وقدْ نبّأكَ اللهُ جلّ جلاله عَنْها ونَعَتْ إليكَ نفْسَها وتَكَشّفَتْ لكَ عنْ مساوِيها فإنّما أهْلُها كِلابٌ عاويةٌ وسِباعٌ ضارِيةٌ، يَهِرُّ بعضُها بعْضًا وَيأكُلُ عَزيزُها ذليلَها [ويقهر كبيرُها صغيرَها] قد أضلّتْ أهْلَها عن قَصْدِ السبيل، وسَلَكَتْ بِهِمْ طَريقَ العَمى وَأخَذَتْ بِأبْصارِهم عنْ مَنْهَجِ الصوابِ، فَتاهُوا في حَيْرَتِها وغَرِقوا في فِتْنَتِها، واتّخَذوها رَبًّا، فلَعِبَتْ بهم، ولَعِبوا بها ونسوا ما وراءها.

فإيّاك يا بنيّ أن تكونَ قدْ شانَتْهُ كَثْرةُ عيوبِها نَعَمٌ مُعَقّلَةٌ وأُخرى مُهْمَلَةٌ قد أضَلّتْ عُقُولَها، ورَكِبَتْ مَجْهولَها، سُروحُ عاهَةٍ بِوادٍ وعْثٍ، ليس لها راعٍ يُقيمُها، رُويدًا حتى يُسْفِرَ الظّلامُ، كأنْ ورَدَتِ الظّعينةُ يوشِكُ من أسْرَعَ أن يَلْحَقَ».

إنّ حبّ الدنيا وحبّ الله لا يجتمعان في قلب واحد[١]. لهذا، سيكون قلب الإنسان من جهة أنّه مركز الحبّ والبغض محلًّا لأحدهما. ولا يمكن أن يسيطر عليه حبّ الدنيا وحبّ الآخرة معًا. ووفق المعارف الإسلامية والإلهية، يجب أن يكون قلب المؤمن معدن الآخرة. ولهذا، كان بيان العوامل القاطعة لطريق الإنسان والمؤدية لميله نحو الدنيا ونسيان الآخرة التي تمثّل المقصد المطلوب والمثاليّ مورد اهتمام دائم. وفي هذا القسم من البحث، سوف نتناول هذه العوامل بشيء من الشرح والتفصيل. وذلك لأن قلب الإنسان موقع الحبّ والبغض ومنشأ جميع الكمالات والانحرافات؛ فإصلاحه وتربيته تؤدي إلى صلاح الإنسان.

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٥١١.

عوامل حبّ الدنيا





يقوم الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا القسم من وصيّته بذكر تلك الإرشادات المتعلّقة بعوامل نشوء حبّ الدنيا، والتحذير من الوقوع في شراكها.

ونشير في البداية إلى أحد العوامل الدنيوية الجذّابة الذي يفوق غيره من العوامل. وهذا العامل يكون منشأً لتأثير العوامل الأخرى ويهيئ الأرضية لنفوذها؛ وهو عدم الرشد المعرفيّ والأخلاقيّ. فإنّ الإنسان نتيجة عدم المعرفة والتكامل المعنويّ المطلوب يصبح سريع الانجذاب إلى الدنيا وينسى آخرته، ذلك لأنّنا نعلم أنّ للذّات الدنيا جاذبيّة طبيعيّة تسوق الإنسان نحوها. ومن هنا، فإنّ أولئك الذين لم يحصلوا على النضج المعنويّ وخلت قلوبهم من المعارف الإلهيّة والمسائل الغيبيّة، يقعون بسرعة تحت تأثير هذه الجاذبية، وتشدّهم هذه الدنيا وحبّها وعبادتها، وتترعرع في كيانهم. وبالإضافة إلى عدم النضج والتكامل، فإنّ خداع الدنيا يُعدّ عاملًا آخر يجذب الإنسان. الجاذبية الطبيعية للذائذ الدنيا تسوق الإنسان نحوها. وإنّ هذه الجاذبية من القوّة بحيث تسلب الإنسان القدرة على التفكير. ولا شك بأنّ هناك عوامل أخرى بالإضافة إلى هذه الأسباب التي تضاعف من قوّة الجذب والشدّ. وأحد هذه العوامل اجتماعيٌ. فمن المعروف أنّ أكثر الناس في كلّ مجتمعٍ يحبّون الدنيا ويتعلّقون بها تعلقًا شديدًا ويفعلون أي شيءٍ من أجل الحصول على متاعها. وحين ينظر الإنسان حوله ويرى أنّ همّ الأغلبية منصبٌّ على تحصيل لذائذ الدنيا، فإنّه ينصبغ بصبغة الجماعة بسرعةٍ وينجذب إلى الدنيا تحت تأثير تلك المحرّكات الاجتماعية.

حين يشاهد الإنسان أكثر الناس يتحرّكون باتّجاهٍ ما ويتخبّطون من أجل متاع الدنيا إلى درجة تكاد أنفسهم تزهق من أجله، فإنّ هذا التيار الجمعيّ يشدّه نحو تلك الأمور ويجعل توجّهه وهمّه منصبًّا عليها. فهو يتصوّر أنّ هناك أمرًا مهمًا حتمًا قد جعل الناس يقبلون عليه الى هذا الحد. أضف إلى ذلك إذا شاهد الإنسان هذه الحالة والاهتمام في بعض الأشخاص المهمّين وأصحاب المواقع الاجتماعية، فإنّه يصبح أسرع تأثّرًا وأشدّ؛ وستجرّه أمواج طلب الدنيا العاتية وتسحبه إليها من دون أن يقدر على الوقوف لحظة تأمّل وتفكّر. وبتشكيل استدلالٍ سطحيٍ من مقدّماتٍ ذهنيّة اعتباطية ينجذب بسرعة إلى تلك الأمور فيقول مثلًا وهو يستدل:

إن أكثر الناس بل وحتى المشهور منهم وصاحب النفوذ مشغولٌ بمتاع الدنيا. وما يهتمّ به أكثر الناس وخصوصًا المشاهير في المجتمع لا بد وأن يكون عملًا مطلوبًا ومهمًا، فيجب إذًا أن أقوم بهذا العمل.

وبعبارةٍ أخرى، قد يقول في نفسه: إنّ هناك الكثير من الوجهاء والمعروفين مشهورين بهذا العمل (صغرى القياس)، وكل ما يهتم به أكثر الناس والمشاهير فهو مطلوبٌ وحسنٌ (كبرى القياس)، فيجب أن لا أتخلّف عنهم وأغفل عن هذا الأمر المطلوب (نتيجة القياس). ومن الواضح أن لهذا العامل الاجتماعي من الجاذبية ما يفوق سائر العوامل الاجتماعية والطبيعية الموجودة في الدنيا والتي تلعب دورًا أساسيا في سوق الإنسان نحوها. ولا شك بأنّ هناك عوامل اجتماعية أخرى كتقليد الآخرين أو الفرار من الذمّ والتوبيخ وغيرها. وكمثالٍ: فإنّ بعض الناس يسارعون بشكلٍ عجيب إلى الدنيا ويغفلون عن الآخرة من أجل الفرار من توبيخ الناس لهم أو ملامة عيالهم وأبنائهم ومطالبتهم المستمرّة بأن يسعوا نحو المقام والشهرة والمال، وعدم الاكتفاء بهذا المستوى من الدخل المحدود.

والعامل الآخر الذي ينبغي أن يُضاف إلى هذه العوامل هو الوساوس الشيطانية التي لها حضورٌ كبير في ميدان الأعمال وتتغذى من سائر العوامل وتستغلها وتؤدّي إلى إقبال الإنسان على الدنيا وظهورها أمام عينيه بمظهرٍ محببٍ وحسن.

طرق مواجهة حبّ الدنيا

وفي مقابل العوامل المؤثّرة في ظهور ونموّ غرسة حبّ الدنيا في كيان الإنسان، يوجد عوامل أخرى يمكن أن تؤدّي إلى اقتلاع أسباب الجذب نحو الدنيا وإضعاف الوساوس الشيطانيّة والتقليل من جاذبية الدوافع وزيادة عمل العقل. وأحد هذه العوامل المؤثّرة في مواجهة حبّ الدنيا هو الاهتمام والتوجّه الذهنيّ والقلبيّ إلى الآيات القرآنيّة والأحاديث السماويّة للأنبياء والأولياء والمواعظ النورانيّة الصادرة منهم والتي يمكن أن تشكّل عاملًا مهمًّا يحول أمام الوساوس الشيطانيّة والمظاهر الدنيويّة الخدّاعة ويمنعها من النفوذ إلى القلب. فهذه الأمور قادرة على التغلّب على جحافل جنود الشيطان. وما نقوم به هنا في دراسة كلمات هذا الإمام الهُمام

يمثّل قسطًا من هذا الجانب على طريق الاستمداد من جنود الرحمن في مواجهة جنود الشيطان والاستفادة من تلك العوامل التي تسوقنا نحو الحق تعالى وعالم المعنويات وتضعف عوامل الشيطان.

وهنا، يلفت أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنظارنا إلى هذا العامل الاجتماعيّ الذي يحرّك الإنسان نحو ما يتحرّك إليه أكثر الناس أو أولئك المشاهير. ولأنّه يرى أكثر الناس يتوجّهون إلى الدنيا تحت تأثير هذا العامل بدوافع قويّة وزائدة عن الدافع الطبيعي، فلا بدّ من إحباطه بذكر بعض الإرشادات. ففي منظار أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقبل الناس على الدنيا تحت حجّة أنّ معظم الناس والأشخاص المشهورين منهم يهتمّون بها فلا شك أنه عملٌ حسنٌ وجيد إذًا، وينبغي أن نهتم به.

ثمّ نجد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يردّ على هذه الحجّة ويبطلها من أجل تصفية ذهن المخاطب. وكأنّ هذه القاعدة العامّة والحجّة المشهورة - بحسب اعتقاد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ - موجودة في ذهن أكثر الناس، وتحملهم على أن يقولوا إنّ ما يقوم به أكثر الناس والمشهورون والمعروفون منهم على وجه الخصوص هو أمرٌ مطلوبٌ وصحيحٌ فينبغي أن نفعله لكي لا نتخلّف عن المشهورين والمتميّزين وبقية الناس في المجتمع!! فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ ينفي هذه القاعدة الكلية ويؤكد لنا أن ما يقوم به أكثر الناس أو يتبعونه أو يقوم به المشاهير ليس بالضرورة أن يكون حسنًا ومطلوبًا. فهذا الأمر ليس عامًا وكليًا. فيجب أن تنظروا إلى هؤلاء الناس: من هم ولأي سببٍ يقومون بهذا العمل. فكونوا في الأعمال أتباع الدليل وأعملوا عقولكم. ومجرّد قيام الناس أو جميعهم بهذا الفعل لا يجعله صحيحًا أو مطلوبًا راجحًا، بل يجب أن ترجعوا إلى عقولكم. فإذا وجدتم عقلكم لا يعتبر هذا العمل صحيحًا، اتّبعوا العقل.

ولا ينبغي أبدًا أن نجعل اتّباع الأكثرية منهجًا للحياة. ونحن لم ننسَ الرواية المعروفة عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ لجابر بن يزيد الجعفي حين قال له: «ولو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا إنّك رجلٌ سوءٌ لم يحزنك ذلك»[1]؛ «ولو اجتمع عليك

---

(١) هذه الرواية قد مرّت معنا في الأبحاث السابقة تحت عنوان من هو الشيعي الواقعي.



أهل مصرك وقالوا إنك رجلٌ صالحٌ لم يسرّك ذلك». فمن هتف الناس باسمه أو قبّلوا يديه ورجليه، وكان شيعيًا واقعيًا لا يفرح. فالمؤمن ينبغي أن يكون قويًا في دينه وراسخًا ولا يعتمد في سلوكه إلا على الدليل والبرهان ولا يجعل لكلام الناس فيه تأثيرًا. وهنا، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إنّك لو شاهدت أهل الدنيا وأبناءها يتنازعون على متاعها ويهجمون عليها فلا تكن مثلهم تابعًا لهم وتقول في نفسك لا شك بأنّ هذا الأمر مهمٌ حتى يتصارع الناس بسببه، بل دقّق واعرفهم جيدًا وحدّد من هم هؤلاء.

ومن هنا، يدعونا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى العمل العقلائي المعتمد على الدليل، ومن أجل ذلك يعرّفنا على هذه الفئة من طلاب الدنيا فيقول: «**فإنّ أهْلها كِلابٌ عاويـةٌ وسِـباعٌ ضارِيـةٌ**»، أهل الدنيا يتناطحون ويتكالبون ويأكل القويّ منهم الضعيف ويذلّه. فإذا كنتم تشاهدون السباع والكلاب تتصارع على شيءٍ، فهل تشتركون في صراعهم ومهارشتهم. وهل تفعلون ذلك فقط لأنّ هؤلاء من الناس المعروفين أو لأنّ عددهم كبير؟ فإذا شاهدتم جماعةً من الناس منهمكين بعملٍ ما يجب أن تتفحّصوا وتتعرّفوا عليهم وعلى أهدافهم والأسباب التي تدفعهم لذلك. ولا يؤثّر بكم العدد والكميّة. فإذا كانوا يفعلون شيئًا يمدحه الشرع والعقل فقوموا به. أمّا إذا لم يكن عملهم ممدوحًا من العقل أو من الله والنبيّ والإمام والعلماء فابتعدوا عنه. حتى لو كان أبناء الدنيا يفعلونه ويدعونكم إلى فعله فلا تكونوا كأغلب الناس الذين هم أبناء الدنيا وقد باعوا عقولهم بثمنٍ بخسٍ أو أضاعوها ونسوا الله والآخرة وصاروا كالكلاب العاوية والسباع الضارية التي تتكالب وتتصارع! فلا تكوننّ الأغلبية سببًا لكم للقيام بأي عمل!

وها هنا، يصدح كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بنداء الحق قائلًا: «**إيّـاكَ أن تَغْتَـرّ بمـا تَـرى مِـن إخْـلادِ أهْلِها وَتكالُبِهِـمْ عليهـا**»؛ هذا، في حين أنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، فهل من الصحيح أن تنهمكوا بما يتصارع الناس عليه من الدنيا وتصبحوا كالسباع المتصارعة على الجيف والحطام؟! وهل من العقل في الوقت الذي بيّنت لكم الدنيا

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٨٥.

مساوءها ورمتكم بسهام بلاءاتها ومصائبها وأسقامها أن تقبلوا عليها وتنجذبوا إليها وتغفلوا عن الآخرة الخالية من كل الأسقام والأحزان والحروب والدمار والأمراض والجوع؟! هذه الدنيا تعرّف نفسها دائمًا بهذه الخصائص القبيحة وتظهر نفسها لكم. فلا تنخدعوا بالدنيا وأبنائها: «**فإنّما أهْلُها كِلابٌ عاويةٌ وسِباعٌ ضارِيةٌ، يَهِرُّ بعضُها بعضًا وَيأكُلُ عَزيزُها ذليلَها [ويقهر كبيرُها صغيرَها]**». فهل ترضون أن تعيشوا ضمن شريعة الغاب التي يأكل القويّ فيها الضعيف ويفترس الكبير الصغير! وهل يتناسب مع العقل أن تتّبعوا هذه الكلاب العاوية وتعيشوا مثلها.

وفي تتمّة حديثه، يشبّه عَلَيْهِ‌السَّلَامُ من زاوية أخرى أبناء الدنيا بالأنعام المريضة التي يئس راعيها من شفائها وتركها في الصحراء المقفرة. فأبناء الدنيا أقلّ قيمةً من تلك النعجة التي يعتني بها الراعي. لأنّ هذه النعجة حين تصبح في وضع ميؤوسٍ منه ولا يمكن الاستفادة منها ستُطرد من القطيع، لأنّها أصبحت مريضةً ويمكن أن يسري مرضها إلى القطيع كلّه. فأيّ أملٍ أو رجاء منها سيكون مخالفًا للعقل. فالأفضل إذًا أن تُترك للذئاب. وبهذا الوصف هل يصحّ أن تتّبعوا أكثر الناس الذين يشبهون الأنعام المتروكة في الصحراء وتقولوا بما أنّ عددهم كبير فينبغي أن أكون معهم؟!

لو كان حيوانًا سليمًا وكانت الاستفادة منه ممكنة لاعتنى به الراعي وسهر عليه كالنعجة التي يأمل الراعي الاستفادة من حليبها ولحمها. أمّا إذا كان حيوانًا مريضًا لا ينفع معه العلاج ولا رجاء فيه، فلا بد من تركه في الصحراء ليموت. من هنا، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: إنّ أبناء الدنيا قد تركهم راعيهم. وإذا تجاوزنا هذا التشبيه والتنزيل يجب أن نقول في تطبيق هذا المعنى على المعارف الإلهية إنّ الله سبحانه قد أهمل أهل الدنيا لأنّهم أُناسٌ لا يؤمل بأن يصدر منهم العمل الصالح والمفيد ولا نفع فيهم. ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في مورد هؤلاء: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٨٢.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٦.



وفي وصف أحوال هذه الطائفة، يقول الله سبحانه وتعالى لنبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[1]. فبالرغم من عظيم رحمة الله المطلقة، يأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه أن يجتنب الذين لا يهمّهم سوى هذه الحياة الدنيا، والذين لم يبلغ علمهم مستوى أعلى من علم الأنعام، ولم يعد همّهم إلا إشباع بطونهم. بل صاروا أضلّ من بعض الحيوانات وأسوأ. فهل يصحّ مع وجود هذه الصفات أن تكون مثل هذه الأنعام المريضة – التي لا تؤدّي إلّا إلى انتقال المرض إلى الناس وغيرهم ولا تعطي أي فائدةٍ ولا تتوجّه إلى أي قيمةٍ وراء هذه الدنيا – أسوةً لنا وقدوة ونعلّق أنظارنا بها أو نتبعها؟!

أنواع حبّ الدنيا

وفي تتمّة هذا التشبيه والتنزيل البليغ، يقسّم أمير المؤمنين عليه السلام أبناء الدنيا إلى فئتين ويقول: «**نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ وأُخرى مُهْمَلَةٌ**»؛ فمنهم أنعامٌ قد رُبِطت رُكبها ومنها ما تُرك وأهمل بشكلٍ كامل. ولكن لماذا يقسّم أمير المؤمنين عليه السلام أبناء الدنيا؛ هؤلاء الأنعام المريضة؛ إلى فئتين؟! لمفسّري **نهج البلاغة** وكلمات أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال شروحات متفاوتة. بعض المفسّرين يقولون إنّ الطائفة المعقّلة في هذا التقسيم هم الذين تكون قدرتهم على التحرّك ضعيفة ونشاطهم في المجتمع ومناورتهم أقلّ، فلا يستطيعون القيام بالكثير من التحرّك والأنشطة، فهم كالحيوانات المعقّلة أو إنّهم يتحرّكون كتلك الأنعام التي رُبطت من رُكبها. وهناك فئةٌ أخرى سائبة تسرح في كل مكان وتقوم بالكثير من التحرّكات، فهم متحرّرون وأشدّ قوّة. وعليه، يكون مقصود أمير المؤمنين عليه السلام هو أنّ بعض أبناء الدنيا بما أنّهم أقوى وأكثر تحرّكًا في طلب الدنيا فإنّهم يبذلون كل جهدهم ولا يتعبون أو يكلّون. ولكن يوجد فئة أخرى لا تجد فرصةً للتحرّك بسبب ضعفها وقلّة حيلتها ولا يمكنها أن تغشل كل أوقاتها في تحصيل الدنيا وجمعها.

وفي تفسير هذا المقطع من وصية مولى الموحّدين عليه السلام، ذكر بعض المفسّرين أنّ هذا التقسيم ناظرٌ إلى أنواع حبّ الدنيا لأنّ الناس متفاوتون بلحاظ

---

(١) سورة **النجم**، الآية ٢٩.

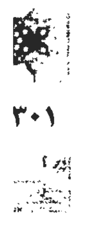
حبّ الدنيا وعبادتها. فبعضٌ قد صرعتهم الدنيا وذابوا فيها ولكن بما أنّهم يرون لأنفسهم قيمةً وشرفًا من حيث إنسانيتهم، فإنّهم وضعوا لأنفسهم حدودًا لا يتجرّأون على تجاوزها وفعل ما يحلو لهم. وفي مقابل هؤلاء هناك من داسوا على جميع المعايير والقيم الإنسانية والإسلامية وهم مندفعون من دون قيدٍ أو حدٍ من أجل الوصول إلى هدفهم وهو متاع الدنيا.

وأنتم تعلمون حتمًا أنّ مثل هذا الفكر المتعلّق بتحرّر الإنسان من جميع القيود والحدود أضحى في يومنا هذا من القيم المهمّة! هناك قسمٌ كبير من الناس يعتقدون بأنّ قيمة الإنسان في أن لا يتقيّد ولا يُمنع عمّا يحبّ، كالليبرالية التي جعلت الديمقراطية والحرية المطلقة أساس جميع برامجها، ولا تقبل بأي قيدٍ. وإنّ الوثن الأكبر في عصرنا هذا هو هذه الأيديولوجية. فهؤلاء يقولون إنّ الإنسان حرٌّ فيما يحب أن يفعل إلّا إذا أدّى إلى مضايقة غيره أو تسبّب بالفوضى والهرج والمرج. وجميع أعمال الإنسان وأفعاله ما دامت لا تضايق الآخرين فهي مشروعةٌ وجائزةٌ ويمكنه أن يفعل ما يحلو له من دون حدٍّ أو قيدٍ. فمثل هذه الفئة التي لا تتقيّد في حياتها بشيءٍ تشبه الأنعام التي وصفها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلامه بأنّها مهملةٌ بالكامل تتحرّك خبط عشواء من دون الالتزام بشيء فيما تفعل أو تترك.

وفي بعض النسخ، ورد: «**قد أضلّت عقولها**»، بدلًا من «**قد أضلّت عقلها**». فإذا كانت «**عقولها**» فذلك باعتبار تشبيه الناس من أبناء الدنيا بالحيوانات؛ أي إنّ أبناء الدنيا كالأنعام التي فقدت عقولها وتُركت وهي لا تتّبع العقل والشرع. وعلى أيّ حال، «**سُروحُ عاهَةٍ بِوادٍ وعْثٍ، ليس لها راعٍ يُقيمُها [يثيمها] ألعبتهم الدنيا فلَعِبوا بها ونسوا ما وراءها**»[1]؛ فأبناء الدنيا كالأنعام المريضة المتروكة في الصحراء القاحلة لا راعي لها ليهتمّ بتغذيتها. فالدنيا تدعوهم إلى اللعب وهم يستجيبون لها: **ألعبتهم الدنيا فلَعِبوا بها**. وحين شغلتهم الدنيا بلعبها نسوا ما وراءها. وحين يكون أبناء الدنيا هكذا فهل من العقل أن يُتّبعوا أو يُفعل ما يفعلوا.

---

(١) هذا المقطع مطابق لما ورد في كتاب **أصول الكافي**.



قافلة الدنيا

وبما أنّ التعلّق القلبي بالدنيا مذمومٌ في كلام أمير المؤمنين ويُعدّ منشأ انحراف الإنسان، فإن بيان حقيقة الدنيا وموقعها مقابل الآخرة يشكّل أحد المحاور الأساسية في كلماته عَلَيهِ السَّلَامُ. وهنا، يصوّر لنا الإمام بأسلوبٍ أدبي عذبٍ، وكأنّه يقف على تلٍّ مرتفعٍ بعيدٍ عن غبارها وغوغائها، حال الدنيا وكأنّها قافلة أو قطيع يتحرّك باتّجاه نقطةٍ معيّنة، وهو ينظر إليهم من بعيد ويقول: «**رويدًا حتى يسفر الظلام**»، وكأنّه عَلَيهِ السَّلَامُ يقول: آه لقد وصلت القافلة وبدأ الظلام ينجلي. فاصبروا لتروا من هم أبناء هذه القافلة! ويبدو أنّ البعض منهم تقدّموا وسبقوا غيرهم ووصلوا سريعًا. وأولئك الذين تخلّفوا ما زالوا على الطريق وسوف يصلون تباعًا ويلتحقون بهم...

ويقصد أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ بهذا البيان التمثيليّ أنّه قد وقف في محل من فضاء الآخرة وهو ينظر إلى قافلة أهل الدنيا المتّجهة نحوها. فلو صبرتم طرفة عينٍ سترون أنّ الظلام انجلى وأسفر وقافلة أهل الدنيا وصلت. غاية الأمر أنّ البعض قد وصلوا والبعض الآخر سيصلون تباعًا إلى أن يلتحق الجميع بالركب. إنّ الحياة الدنيا كالقافلة التي تأخذ المسافرين إلى منزل الآخرة. فلا تعلّقوا القلب بهذه الساعات القلائل من هذا السفر العابر. فليست إلا برهةٌ وعمّا قليل يزول الظلام ويظهر أفق صباح الآخرة. يكفي أن تصبروا قليلًا لكي ينجلي ظلام الليل ويظهر أفق الآخرة ويصل أبناء قافلة الدنيا واحدًا بعد الآخر إلى الآخرة.

اطمئنّوا وثقوا بأنّه لا يمكن لأحدٍ أن يتخلّف أو ينسحب من هذه القافلة. فحتى أولئك الذين تأخّروا عما قريب هم لاحقون: «**واعلم أن كلّ من كانت مطيّته الليل والنهار، فإنّه يُسار به وإن كان يُسار لا يسير؛ أبى الله إلّا خراب الدنيا و...**»، ولا شك بأنّ هذا الأمر له أهميةٌ فائقة ومحتوًى بليغ سنشير إليه في المستقبل إن شاء الله[1]. وفي هذا المقام، نقتبس ما يشير إلى حال الإنسان؛ فحين يكون في سفرٍ ويسجّل اسمه ضمن قافلةٍ ويتصوّر بأنّه قادر على الانسحاب من القافلة ويعلن بأنّه لا يريد الالتحاق بها بعد ذلك، فإنّ الدنيا كما ينبّه الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ وبالرغم من

(١) سيأتي شرح هذا المقطع في الدروس اللاحقة.

أنّها ليست سوى قافلة، لكن لا يمكن لأحد أن يجتنبها. فمثل هذه القافلة لا تسمح لأحد أن يمحو اسمه منها وينسحب. فهي قافلةٌ، شئتم أم أبيتم، تقلّكم وتجبركم على السير وإن لم تقصدوه. فشئتم أم أبيتم ستسلك بكم هذا الطريق وتوصلكم إلى الآخرة.

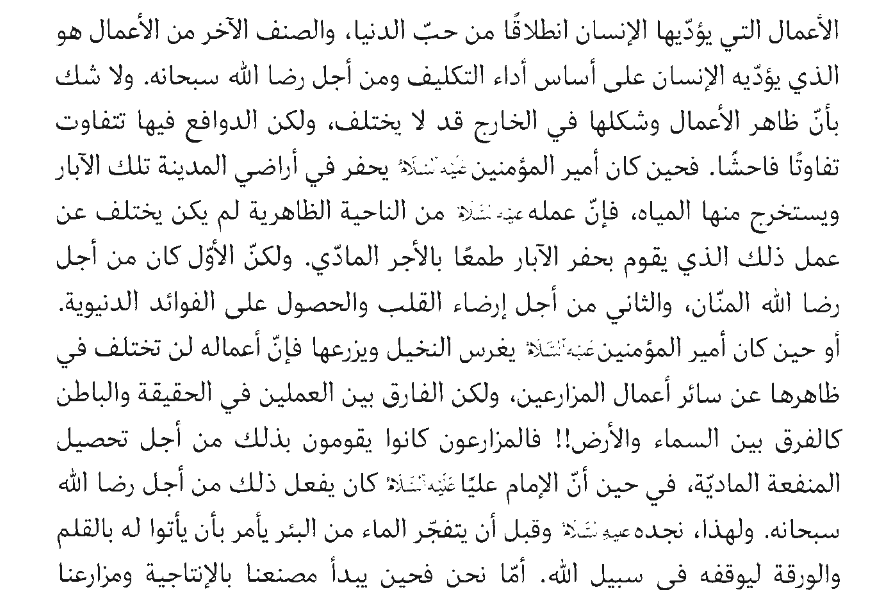
ولعلّكم تسألون ما هو مركب هذه القافلة الذي يجعل الإنسان مسلوب الاختيار بل يسلبه أيضًا السرعة أو الإبطاء في الحركة وينتزع منه عنان السفر ولا يسمع توسّلاته أو مطالبه أو يعطيها أية قيمة؟ من الواضح أن مركب هذا السفر هو جريان الليل والنهار الذي يخرج عن إرادتنا وتحكّمنا. فإذا أردتم أن تبطّئوا حركة الليل والنهار لما استطعتم، وإذا أردتم أن تسرّعوا منها لن تكونوا قادرين على ذلك. فإنّ هذا المركب الذي أقلّكم سيسير بكم شئتم أم أبيتم إلى منزل الآخرة: «**واعلم أن من كانت مطيّته الليل والنهار، فإنّه يُسار به وإن كان يُسار لا يسير؛ أبى الله إلّا خراب الدنيا و...**»، فقد ركبنا جميعًا متن هذه الطائرة، ومن الأصحّ أن نقول إنّنا ركبنا الزمان وها هو يقطع مسافاته نحو الآخرة من دون أن يعطينا أي اختيارٍ في قيادته أو الانفصال عنه. فلا شك بأنّ هذا قانونٌ إلهيّ حتميّ يحكي عن أنّ الدنيا ستكون خرابًا والآخرة مقرًّا. وكأنّ الإنسان واقعٌ بين منزلين؛ أحدهما سقفه يتداعى وهو يسمع أصوات تصدّعه وخرابه؛ والآخر قصرٌ عظيمٌ محكمٌ وثابتٌ لا يمكن أن يهزّه شيء. وفي هذا المجال، يكون الإنسان مخيّرًا بين أن يعيش تحت سقف المنزل المتداعي أو في ظلّ القصر المحكم القويّ. فماذا يختار العاقل؟ هل يختار تلك الدنيا التي قد وهن سقفها المتصدّع وهو في حال الخراب والزوال أم قصر الآخرة الفاره المتين ؟

اختلاف أعمال الدنيا والآخرة

وفي الختام، أجد من الضروريّ أن أذكّر بأنّ المقصود من ذكر مثل هذه المطالب ليس أن نكسل في هذه الدنيا ولا نبالي ونترك العمل والسعي ونقول في أنفسنا سواء شئنا أم أبينا فغدًا سنموت وهذه الدنيا ستزول يومًا ما، بل المقصود هو أن لا نعلّق القلب بهذه الدنيا.

ففي هذه الدنيا، تنقسم الأعمال إلى قسمين وتؤدّى بدافعين: الأول تلك





الأعمال التي يؤدّيها الإنسان انطلاقًا من حبّ الدنيا، والصنف الآخر من الأعمال هو الذي يؤدّيه الإنسان على أساس أداء التكليف ومن أجل رضا الله سبحانه. ولا شك بأنّ ظاهر الأعمال وشكلها في الخارج قد لا يختلف، ولكن الدوافع فيها تتفاوت تفاوتًا فاحشًا. فحين كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يحفر في أراضي المدينة تلك الآبار ويستخرج منها المياه، فإنّ عمله عَلَيْهِ السَّلَامُ من الناحية الظاهرية لم يكن يختلف عن عمل ذلك الذي يقوم بحفر الآبار طمعًا بالأجر المادّي. ولكنّ الأوّل كان من أجل رضا الله المنّان، والثاني من أجل إرضاء القلب والحصول على الفوائد الدنيوية. أو حين كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يغرس النخيل ويزرعها فإنّ أعماله لن تختلف في ظاهرها عن سائر أعمال المزارعين، ولكن الفارق بين العملين في الحقيقة والباطن كالفرق بين السماء والأرض!! فالمزارعون كانوا يقومون بذلك من أجل تحصيل المنفعة المادّيّة، في حين أنّ الإمام عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يفعل ذلك من أجل رضا الله سبحانه. ولهذا، نجده عَلَيْهِ السَّلَامُ وقبل أن يتفجّر الماء من البئر يأمر بأن يأتوا له بالقلم والورقة ليوقفه في سبيل الله. أمّا نحن فحين يبدأ مصنعنا بالإنتاجية ومزارعنا بالمحصول وأشجارنا بالثمر نصبح حريصين ونبدأ بالتفكير في تحصيل المزيد.

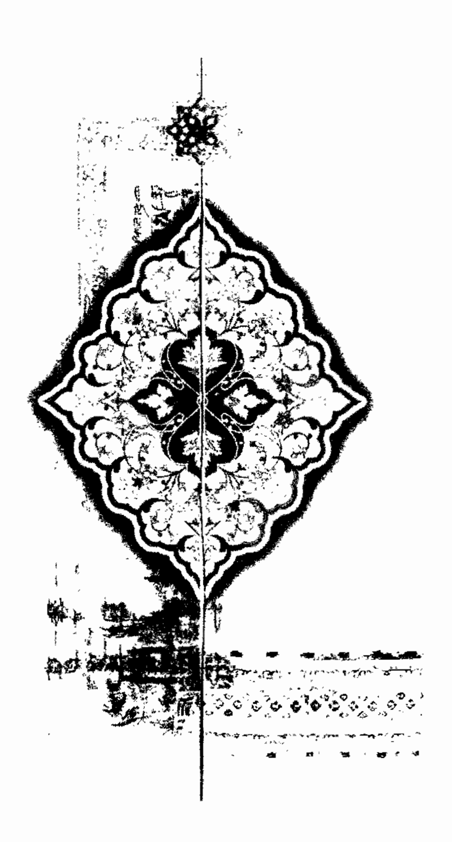
فاقضوا واحكموا بأنفسكم ما هو الفارق بين هذين النوعين من الأعمال وإلى أية درجة؟!

فإذا كانت هذه المساعي من أجل رضا الله جلّ جلاله فإنّها تُعد عبادةً، سواء كانت عملًا في المصنع أو في الزراعة أو في الدرس أو في القتال في ميادين الجهاد أو في المختبرات. فكل عملٍ أو صناعةٍ أو سعيٍ علمي إذا كان في سبيل الله وتحصيل الرزق وعدم التبعية للآخرين أو رفعة المجتمع الإسلامي سيكون عبادةً وما أكثر ما تكون أمثال هذه الأعمال واجبةً في الواقع. فإذا كان الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يذمّ مثل هذه الدنيا فذلك من أجل أن لا نعلّق القلب بها ولا تكون غايتنا. ف

من كان تحصيل متاع الدنيا هدفًا له، فإنه لن يعتني بعد ذلك بحلالها وحرامها، بل سيفكّر أكثر ما يفكّر في المزيد من المال والكسب. ومن هنا، سيعدّ متاعها مغنمًا ويسعى للمزيد. وباليقين، فإنّ تحصيل رضا الله جلّ جلاله وأداء التكليف الشرعي وتحمّل المسؤولية الاجتماعية سيُنسى أو سيؤجّل، إلى أن يزول شيئًا فشيئًا معنى الله من صفحة قلبه وذهنه. أمّا من كان هدفه من هذه الأعمال



رضا الله سبحانه وامتثال الأوامر الإلهية، كما في تأمين رزق عياله وخدمة الناس وغير ذلك، فإنّها لن تكون أعمالًا دنيويةً حتى لو كانت خدمات مادية محضة كالإنفاق على الفقراء، بل ستُعدّ عملًا إلهيًا مطلوبًا. وهكذا الأمر فيما يتعلق بالخدمات المعنوية والإرشاد والهداية والتعليم والنشاطات العلمية والاختراعات التي تُعدّ خدمات غير ماديّة وتؤدّي إلى ارتقاء مستوى معارف الناس وثقافتهم، فجميع هذه الأمور عبادةٌ ولا يُعدّ القيام بها من حبّ الدنيا أبدًا، بل هي نوع تحصيلٍ للآخرة. فحبّ الدنيا إنّما يكون حين يقوم الإنسان بهذه الأعمال من أجل المنفعة المادية الشخصية. وأمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ أراد لنا أن لا نعلّق القلب بالدنيا بل نقوم بكلّ عملٍ في سبيل الله جلّ جلاله مع رعاية الحلال والحرام ونيّة القربى، لكي يكون نافعًا لآخرتنا.



الدرس الثالث والعشرون
نمط العيش

- انقضاء الحياة وزوالها
- الزهد، منهج الحياة
- نيل متاع الدنيا





«وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَسِيرُ، أَبَى اللهُ إِلَّا خَرَابَ الدُّنْيَا وعِمَارَةَ الْآخِرَةِ.

أَيْ بُنَيَّ! فَإِنْ تَزْهَدْ فِيمَا زَهَّدَكَ اللهُ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا وَتَعْزِفْ نَفْسَكَ عَنْهَا فَهِيَ أَهْلُ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ نَصِيحَتِي إِيَّاكَ فِيهَا فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَاخْفِضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلى حَرَبٍ وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِنَاجٍ وَكُلُّ مُجْمِلٍ بِمُحْتَاجٍ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلى رَغْبَةٍ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا»(١).

باليقين، إنّ الطريق الأفضل وأحيانًا الأوحد للأمان والسلام من ذاك الكمّ الكبير من الانحرافات ونفاذ الوساوس الشيطانيّة هو الاستنارة بأنوار علوم أهل البيت عليهم السلام وإرشاداتهم. ففي هذا المجال، وكتتمة للأبحاث التي عرضناها في الدروس السابقة، ينهض الإمام علي عليه السلام في هذا القسم لإجراء مقارنةٍ بين الدنيا والآخرة ومن خلال التأكيد على انقضاء الحياة الدنيا، يؤسّس البنية التحتيّة لإحدى الأفكار الإلهية التي تتعهّد بتحقيق الرؤية الصحيحة حول الحياة الدنيا وارتباطها بالحياة الآخرة. ولعلّ ما جاء في هذه الوصيّة الشريفة هو أفضل بيانٍ يمكن أن نعثر عليه يبيّن حقيقة الحياة الدنيا، حيث عرّفها بالمعبر والممر، وبهذه الطريقة يحقّق أرضيّة تبيان مسائل القسم النهائي للوصية.

ثمّ يبيّن النصائح والإرشادات العمليّة التي مهّد لها في الدروس السابقة من

---

(١) **تحف العقول**، مصدر سابق، الصفحة ٧٧.





وصيّته وهيّأ الأرضيّة لتقبّلها. في الواقع، إنّ العمل الصحيح والخالص، وبناء الذات والإصلاح المعنوي للنفس إنّما يتحقّق حين يمتلك الإنسان الرؤية الصحيحة حول نفسه وحول عالم الوجود. من هنا، لم يبيّن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ تلك الوصايا العملية أوّلًا، بل بعد تحقيق الأرضيّة المناسبة، دخل إلى القسم المهمّ من الوصيّة، التي بيّنها بعباراتٍ مختصرة وكلمات قصيرة، يُعدّ كلّ منها كنزًا نفيسًا يختزن عالمًا من المعاني.

وهنا، نحن نقوم بشرح ودراسة هذا القسم من هذه الوصية الإلهية المتعلّقة بالإرشادات العملية الواردة في قالب العبارات المختصرة والكلمات القصيرة. بالطبع، رغم أنّ هذا الكلام مختصر، لكنّه ممّا لا يتناهى من العمق، وتقصر أيدي أذهان المتعمّقين في الحقيقة عن إدراك قعره. وقد كانت هذه القضية المسلّمة حجةً بيد فئة من المفكرين للمرور بجانب هذا البحر الفيّاض للحكمة العملية، مكتفين بعرض تفاسير مختصرة وعدم الغوص كثيرًا في عمق هذا البحر. بينما دعت هذه الحقيقة البعض إلى توضيح هذه التوصيات وتقديم شرح مفصّل ومسهب حولها. وإلى جانب هذين الأسلوبين، نختار أسلوبًا آخرًا كحدّ وسط بينهما، فلا نستغرق ونسهب في تفسير وشرح عبارات هذه الوصايا ومقدّماتها ومؤخراتها، ولا نكتفي بالبيان البسيط والترجمة البدائيّة والعابرة، بل نختار أسلوب الوسط بين هذين الأسلوبين وننهض لتفسير وتوضيح هذه الدرر الثمينة بصورةٍ لائقة.

انقضاء الحياة وزوالها

إنّ أحد أفضل أساليب عرض أي مسألة – والتي يبدو أنّها ممتزجة بالطبيعة الإنسانية أيضًا – هو الاستفادة من التشبيه والتمثيل، وفي هذا القسم من الوصيّة يستفيد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا من هذا الأسلوب، ويشبّه حياة الإنسان في هذه الدنيا بالمسافر الذي هو في حال سفر، في قالب من التشبيه والتمثيل الضمنيّ، وعلى ضوء هذا التشبيه البديع يعرض لمجموعة من النكات في غاية الدقّة؛ بمعنى أنّ الإنسان، على أساس الشهود والتعبّد والعلم والمشاهدة وغيرها، قد صدّق بأنّه سيرتحل يومًا ما عن منزل الدنيا الخرِب هذا، وأنّ حياته في هذه الدنيا هي



في الحقيقة أشبه بسفر، لكنّه يختلف عن الأسفار المتعارفة. فنحن في الأسفار العاديّة غالبًا ما نكون أحرارًا في اتّخاذ قرار السفر وكيفيّته وزمانه ومحطّاته ومسيره وأوقات الاستراحة فيه، ونعمل وفق اختيارنا وإرادتنا. ولا شكّ بأنّنا نرى بوضوح هذه الحرية وهذا الاختيار، حين نسافر بالوسائل الشخصيّة التي نختارها، حتى لو كان ذلك سفرًا واجبًا وشرعيًّا كالحج.

لكنّنا في الأسفار الأخرى، التي من الممكن أن تُسمّى بسفر الدنيا وانقضاء أيام العمر، فنحن لسنا بأحرار ولا يمكننا أن نقرّر ما إذا كنّا سنسافر أم لا. شئنا أم أبينا، نحن في سفرٍ ويُسار بنا؛ ولا نمتلك زمام الأمر في هذا السفر بحيث نختار أن لا نسافر، بل إنّه يُسار بنا وإن كنّا لا نريد، وهذا هو الفارق الأساسيّ بين السفر الأخرويّ والأسفار الدنيويّة. ففي الأسفار الدنيوية، يختار الإنسان بنفسه تلك الوسائط والوسائل ويتحكّم بسرعته وكيفيّة تحرّكه، فعلى سبيل المثال، قد يقرّر ما إذا كان سيسافر بسيّارته الخاصّة أو بواسطة وسائل النقل العام أو بالسفينة أو بالطائرة، والتي يكون لكلٍّ منها سرعة معيّنة.

أمّا في السفر نحو الآخرة، فالسفر قهريّ، ونحن في حال سير شئنا أم أبينا، يُسار بنا ولا بدّ أن نذهب. فلسنا مختارين في القيام بهذا السفر، ولا يحقّ لنا إبداء الرأي بتركه، ولا خيار لنا في زمان شروعه، ولا تأثير لنا في تأخيره أو الإسراع به، فلا يمكن التحكم بسرعة هذا السفر. فالإبطاء فيه أو المسارعة أو التوقّف كل هذه خارجةٌ عن أيدينا. وباختصار، نحن لا نملك في هذا السفر الحقّ أيّ نوع من القرارات وإبداء الرأي، ولهذا فنحن عاجزون تمامًا عن إظهار أي نوع من ردّة الفعل، فهذا السفر هو سفرٌ قهريّ، قد عُيّن وحُدّد لنا ويسير بنا قهرًا، ومركبه مركبٌ سريع لا يمكن بأي شكل السيطرة عليه. لقد أركبونا مركب الزمان ومرور الأيام، وها هم يسيرون بنا بالسرعة التي يريدونها لا يمكننا التحكّم بسرعته ولا أن نمسك بزمامه، فهو يسوقنا معه إلى الهدف الذي تحدّده أعمالنا وسلوكياتنا. بناءً عليه، يجب أن نتعرّف على حقيقة هذا السفر وأن نعرف أهميّته وأن نكون ملتفتين إلى أعمالنا وتصرّفاتنا لحظةً بلحظة لئلّا نخرج عن هذا المسير بسبب تصرّفٍ غير مدروس، أو أن نبتعد عن الهدف المنظور فنهلك. يجب علينا أن نكون ملتفتين إلى ما تتطلّبه السرعة الفائقة والحساسية الاستثنائية لهذا المركب العابر للزمان.

وهنا، نشير مجدّدًا إلى أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كان بهذا العرض الإلهيّ والسماويّ وبحسب الظاهر يخاطب ولده الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنّه في الواقع، يتوجّه إلى جميع الشباب ويخاطبهم، ويريد بذلك أن يطلعهم على حقيقة الحياة الدنيا؛ أي وإن كان في الظاهر يوصي ولده الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنّه في الواقع يتوجّه بالخطاب إلى كلّ من كان غلامًا ويتمتّع بخصائص الشاب العادي كالإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ. من هنا، فإنّ كل الناس سيكونون كالولد العزيز، مورد اللطف العميم لهذا الإمام، يستفيدون من هذه الوصايا، ومُخاطبين من قبله عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكأنّ عليه السلام يُسمع جميع الشباب الباحثين عن الكمال أنّه إذا أردتم أن تجدوا طريق الخير والكمال فلا تظنّوا أنّكم ستجدون طريقًا أفضل ممّا ذكرته لولدي الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ. فهل يوجد أبٌ أكثر حرصًا من الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وهل تعرفون ولدًا أكثر لياقةً من الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وها أنتم قد أصبحتم مورد عناية ومحبّة علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الأبوية وقد جعلكم مع ولده الإمام المعصوم فاعرفوا قدر أنفسكم وبأي خطابٍ يخاطبكم!

والآن، مع الالتفات إلى هذا التمثيل الغنيّ والبليغ يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: «**وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَسِيرُ**»[١]، فمن الذي يمتطي مركب الزمان؟ من الواضح أنّه لا يوجد شخصٌ معيّن قد امتطى مركب الليل والنهار، بل جميعنا وكل من يعيش في هذه الحياة الدنيا قد امتطى مركب الزمان وهو يتقدّم بسرعة ولا يوجد أي توقّف أو تباطؤ في حركته، فجميع أبناء الدنيا قد امتطوا مركب الزمان، وشاؤوا أم أبوا، فإنّ الليل والنهار يسيران بهم، ولا يوجد في هذا المسير لحظة توقّف واحدة؛ فهو يمضي مع كلّ طرفة عين، واللحظة التي تنقضي لا تعود. ولا شك أنّ مع هذا الوصف، ينبغي أن تستفيدوا من هذا السير والسفر وتهيّئوا الهدايا والتُحف التي لا مثيل لها وأسباب العيش المريح والهنيئ للمقرّ، ذلك لأنّه يومًا ما ستطوون هذا المسير وسوف تصلون إلى المقصد. وهناك ستحتاجون إلى أسباب الراحة والاستقرار.

من هنا، عليكم أن تُؤمّنوا أسباب راحتكم من قبل وصولكم إلى المقصد.

---

(١) المصدر نفسه.

وحيث إنّ هذه الحياة هي وسيلة وطريق التحرّك إلى الآخرة، وإنكم في حال حركةٍ مستمرّةٍ نحوها، فلا ينبغي إذًا أن تتصوّروا أنّ هذه الدار هي دار البقاء والقرار والراحة والاستجمام؛ بل ينبغي أن تعلموا أنّ دار الإقامة هو في مكانٍ آخر، وعليكم أن تفكّروا من الآن بتلك العاقبة وتعتنوا بالحياة الهنيّة والهادئة في المقصد والمقرّ النهائي لكم. فلا تظنّوا أنّ هذا المنزل سيبقى عامرًا على الدوام، وأنّ هذا البناء سيبقى قائمًا وثابتًا، وأنّكم ستعيشون فيه دائمًا؛ بل يجب أن تلتفتوا إلى أنّ أساس هذه الدنيا قد قام على الخراب، وأنّ هذا المنزل سينهدم: «**أَبَى الله إِلَّا خَرَابَ الدُّنْيَا وعِمَارَةَ الْآخِرَةِ**»[1]، إنّ القضاء الإلهي الحتميّ قد قُدّر على أساس خراب هذه الحياة، ولا يوجد هناك أي حكم أو تدبير غير هذا، حيث إنّ الدنيا هي الخراب والآخرة هي العمران، وإنّ منزل الآخرة هو الذي يكون محل الحياة الواقعية ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[2]، فالحياة لا تكون إلّا فيها، أما هنا فهو المعبر لنيل الحياة الأخروية الأبدية. لا إنّ هذه الدنيا ليست بدار قرارٍ وبقاءٍ فحسب، بل في الأساس هي ليست منزلًا ومقرًّا ومحلًّا للاستراحة والاستجمام. فهذه الدنيا هي معبرٌ وممرٌ أو طريق. من هنا، فهي بذاتها غير مستقرّة، وفي حال انقضاء وأفول، ولا يوجد إمكانيّة للتوقّف لحظةً واحدة. فإذا لم يكن للحياة الدنيا من حقيقة سوى أنّها ممرّ، فهل تستحقّ أن يتعلّق القلب بها؟ بهذا العرض التمثيلي، اتّضح بصورة كاملة موقعيّة الحياة الدنيا بالنسبة للحياة كلها، وقد اتّضح جيّدًا أنّ الحياة الدنيا بالنسبة للحياة الآخرة ليست سوى محطة تنقلنا إلى حياةٍ أبديةٍ خالدة.

الزهد منهج الحياة

حيث إنّنا اطّلعنا على موقعيّة الدنيا في عالم الوجود وأدركنا أين نحن وإلى أين نتّجه...، فإننا نكون قد امتلكنا كيفيّة ومقياس ومعيار العمل للدنيا والآخرة. وهكذا نعلم جيّدًا كيفية السعي للآخرة والدنيا؛ يقول الإمام علي عَلَيهِالسَّلَامُ بهذا الخصوص: «**أَيْ بُنَيَّ! فَإِنْ تَزْهَدْ فِيمَا زَهَّدَكَ الله فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا وَتَعْزِفْ نَفْسَكَ عَنْهَا فَهِيَ أَهْلُ ذَلِكَ**».

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٤.



حين نسعى لشرح هذا المقطع من الوصية، يقوى ما ادّعيناه سابقًا بأنّ المخاطب الواقعيّ لهذه الوصيّة الإلهيّة يشمل كلّ الناس ولا ينحصر بالإمام الحسنعَلَيْهِالسَّلَامُ. أي إنّ هذا القسم من الوصية هو شاهدٌ ودليلٌ على الادّعاء المذكور وذلك لأنّه من الواضح جدًّا أنّ شخصًا كالإمام الحسنعَلَيْهِالسَّلَامُ وهو الإمام المعصوم، لا يمكن أن يكون متوجّهًا إلى هذه الدنيا حتى يُطلَب منه الإعراض عنها والزهد فيها. فقولهعَلَيْهِالسَّلَامُ: إذا اعتبرت من كلامي وقبلته وزهدت في هذه الحياة الدنيا فسوف تدرك بأنّ حق الدنيا هو ما ذكرته لك، وأنّ الدنيا لا تستحقّ هذا التعلّق القلبي...، فالمسألة هنا لا تدور حول شخصٍ مثل الإمام الحسنعَلَيْهِالسَّلَامُ، فلا معنى أن يُقال إنّ الإمام الحسنعَلَيْهِالسَّلَامُ لا يعتبر من كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ ولا يعمل به أو لا يصغي إليه ويمرّ عليه مرور الكرام. فمن الواضح أنّ كون الإمام الحسنعَلَيْهِالسَّلَامُ مخاطبًا هو في الواقع نوع من الخطاب الصوريّ الشكليّ، والمخاطب الواقعيّ هم عامّة الناس. فهذا الأسلوب في الخطاب هو مصداقٌ للمقولة المعروفة: «إيّاك أعني واسمعي يا جارة»، أي إنّ الكلام يجد مخاطَبه بنفسه. فالمخاطَب الظاهري للإمام عليعَلَيْهِالسَّلَامُ هو الإمام الحسن المجتبى عَلَيْهِالسَّلَامُ، إلّا أنّ مفاد هذه الوصايا يوافق عامّة الناس، وقد بيّنها لهم.

إنّ الهدف الأساس للإمامعَلَيْهِالسَّلَامُ من بيان حقيقة الدنيا والآخرة وتحديد موقعيّة الدنيا ونسبتها إلى الآخرة، تبيان كيفية السلوك الإنسانيّ في الحياة الدنيويّة، وهو يقول: لو أنّك تقبّلت نصحي وقطعت رغبتك وطمعك بالحياة الدنيا ومتاعها وزهدت فيها ولم تعلّق القلب بها، فإنّك تكون قد عملت بما يليق بها. وكأنّه لا يوجد سوى عمل واحد يليق بهذه الدنيا وهو عدم الرغبة بها وبمتاعها ولا غير.

من الواضح أن ليس المقصود من الزهد في الدنيا أن يعيش الإنسان في المغارات أو الغابات والصحاري، أو أن يعتزل الناس، إنّما المقصود هنا أن لا يُعلّق القلب بها، وإلّا فإنّ الحياة في هذه الدنيا تُعدّ تكليفًا وعملًا واجبًا، وأنّ التقصير في تحمّل المسؤوليّات الدنيويّة سواء كانت على الصعيد الفرديّ أو الاجتماعيّ أو كانت على الصعيد الماديّ أو المعنويّ هو أمرٌ مذمومٌ ويؤدّي إلى الهلاك الأبديّ للإنسان المقصّر.



بناءً عليه، ليس المقصود ترك هذه الدنيا والاعتزال واجتناب الآخرين، بل عدم تعليق القلب بها وغسله من حبّها فهذا هو الهدف والأمر المطلوب. ومثلما أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه لم يعتزل الناس أبدًا في الحياة، فإنّه لم يوصِ أحدًا بذلك أيضًا. فمعنى الزهد الواقعيّ هو عدم الرغبة بالدنيا وعدم جعلها هدفًا للحياة وتطهير القلب من التعلّق بها. فالزهد لا يعني أبدًا أن نعتزل الدنيا ونجتنبها، بل يجب أن نعمل ونسعى فيها لكن لا لأجلها. فلأجل عمارة الآخرة وتحصيل رضا الحقّ سبحانه يجب السعي بمنتهى العزم والهمّة والجدّ، مثلما كان يسعى مولى الموحّدين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ فيتعرّق جبينه وهو يحيي المزارع والأرض الميتة، ويقوم بعد ذلك بوقفها. فالزهد وكون الإنسان زاهدًا لا يعني الكسل أبدًا، وذاك الزهد المطلوب والممدوح في الآيات والروايات يختلف تمامًا عن الكسل والبطالة. فيجب علينا في هذه الدنيا أن نبذل منتهى الجدّ والسعي من أجل تحقيق رضا الله المتعال، ومن أجل عمارة الحياة الآخرة لا لأجل زخارف هذه الدنيا الخدّاعة.

فالإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم جيّدًا أنّ اكتساب روحيّة الزهد أمرٌ شاقٌ جدًّا، وإنّ الكثير من الناس لا يمكنهم أن يتقبّلوا نصائحه وإن تقبّلوها لن يتمكّنوا من العمل بها. ولهذا، فإنه بعد أن يرسم ما يحتاجه الذهن ويبيّن كيفية الحياة والوضع الروحيّ لمثل هؤلاء الأفراد، فإنّه يسعى لإرشادهم وهدايتهم على هذا النحو حيث يقول: إن لم تقبلوا نصحيتي قبولًا تامًّا أو وجدتم أنفسكم عاجزين عن العمل بها وقلتم إنّنا لا نستطيع أن نطهّر القلب تطهيرًا كاملًا من هذه الدنيا كما فعل سلمان وأبو ذرّ وغيرهم، ونحن نعيش في هذه الدنيا ولا بدّ من وجود مثل هذه الميول والرغبات الدنيوية لدينا، ولا نملك الهمّة لإخراج التعلّق بالدنيا ولذائذها من القلب والوصول إلى حالة انعدام الرغبة بها، إذًا فاسعوا بقدر الإمكان إلى الزهد فيها وتخلية القلب من حبّها والتعلّق بمتاعها، فإذا لم تقدروا على الزهد الكامل، فلا ينبغي لكم أن تُهملوا أنفسكم بصورة مطلقة. بل يجب عليكم أن تعملوا قدر المستطاع وتبذلوا ما أمكن من همّةٍ وسعي من أجل تحقيق هذا المبدأ والسعي والتمرّن على الحدّ الأدنى من الزهد، خشية أن تنسوا حقيقة هذه الدنيا الفانية وتغفلوا عنها، وتطردوا الفكر الحقّ من أذهانكم.

وعلى هذا الأساس، نجد أنّ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يهمل الضعفاء

وأصحاب الهمم الدانية والعاجزين، ولا يحرمهم من محبّته وهدايته، بل يقدّم لهم في المراحل اللاحقة التوجيهات لهدايتهم. في الواقع، إنّ ما يهدف إليه الإمام عليه‌السلام هو أن يصل الإنسان إلى القمّة الشامخة للزهد وإلى المرتبة المثاليّة للإعراض عن الدنيا، وإلى تخلية القلب بصورةٍ كاملة من هذه الدنيا، ولكن إذا شعر الإنسان بشيءٍ من العجز على هذا الطريق فلا ينبغي أن يسمح لهذا القلب بالرغبة في الدنيا وجعله محلًّا لرغباتها ومتاعها. صحيح أنّه ليس للإنسان في هذه الدنيا سوى السعي، فهو يسعى ليل نهار ليمضي حياته، ولكنّه لا ينبغي أن يعلّق القلب بلذائذ هذه الدنيا ولو بمقدار ذرّة، ولا ينبغي أن يجعلها مقصدًا وهدفًا لحياته.

إنّ المرتبة المثاليّة للزهد هي أن لا يقوم الإنسان بأي عملٍ في هذه الدنيا من أجل تحصيل لذائذها، وأن يكون بصدد القيام بكلّ عمل يرضي الله سبحانه فيؤدّي هذه الأعمال لمحض تأثيرها في سعادته الأبديّة.

أمّا فيما يتعلّق بمن لا يمتلك مثل هذه الهمّة ولا يقدر على تخلية القلب منها تخليةً كاملةً فمن الضروريّ أن يلتزم بالإرشادات الأكثر اعتدالًا، وعلى هذا الأساس لن يكون معافًى من السعي للزهد مئة بالمئة. يقول: «**وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ نَصِيحَتِي إِيَّاكَ فِيهَا فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ...**»، فإن لم تقبل نصيحتي، أو إن لم تَطَلِّق هذه الدنيا طلاقًا لا رجعة فيه على مستوى العمل، ولم تخلّص قلبك منها وبقي فيه تلك الميول والرغبات الدنيويّة، ولم تتمكّن منها غضّ البصر عنها غضًّا كاملًا وبقيت بصدد تحصيل الآمال الدنيوية ونيلها، فاعلم أنّه لا يوجد أي شخص في هذه الدنيا يبلغ آماله كلّها أو يصل إليها. فراقب نفسك وكن في أمنياتك وآمالك معتدلًا ولا تجمح فيها، فإذا نزحت تلك المرتبة المثاليّة للزهد والتي هي عبارة عن التوجّه إلى الله وإلى الآخرة، ولم تتمكّن من الوصول إلى حالة عدم الرغبة بالدنيا، وكنت في هذه الدنيا ساعيًا نحو رغباتك وآمالك فعليك أن تلتفت لئلّا يتعلّق قلبك بتلك الآمال الطويلة، فتصبح ساعيًا وراء كلّ ما يرغب به قلبك وتكون ممّن يعشعش فيه تلك الأطماع البعيدة، فتنفق كلّ عمرك سعيًا للوصول إلى تلك الأماني والآمال وتملأ كلّ فكرك وذهنك بها!! ذلك لأنّ أولئك الذين أنفقوا كل أعمارهم من أجل هذه الدنيا، فإنّ هذه الدنيا لم تؤمّن لهم ما يرغبون ولم توصلهم إلى ما يحلمون.



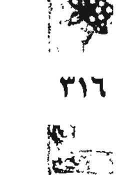
إنّ الدنيا هي محل التزاحم، ولا يتحقّق فيها كلّ ما يتمنّاه الإنسان أو يرغب به، فما أكثر ما يكون ما ترغب به أنت هو محلّ رغبة الآخرين أيضًا، ولا يكون الأمر بحيث يستطيع الجميع أن يصلوا إلى مطلوبهم ورغباتهم الخاصّة، أو أن ينالوا ما يطمعون به. وقد يرغب الإنسان بشيء يتطلّب آلاف الأسباب والوسائل التي لا تكون بمتناول يده أو تحت اختياره، لهذا فإنّنا لا نستطيع بطبيعة الحال أن نصل إلى كل ما نبتغيه أو نطلبه. ومن جانبٍ آخر، فإنّ التجربة والاستقراء يدلّان على أنّه ما من أحد قد بلغ جميع آماله ومبتغياته، فطالما أنّك لم تغلق عين الطمع عن هذه الدنيا، ولم تقطع القلب عن الرغبة بها، فعليك أن تعلم وتلتفت إلى أنّ آمال الدنيا لا تنتهي، ولا تتحقّق جميعها. ولا شكّ أنّه مثلما أنّ جميع الآمال الدنيويّة غير قابلة للتحقّق، فإنّ آمالك، كما آمال الآخرين، لن تتأمّن جميعها ولن تصل إليها كلّها؛ فقد يتحقّق بعضها ولا يتحقّق بعضها الآخر. لذا، في الحدّ الأدنى، قلّل من آمالك. وإذا كان قطع تعلّق القلب بالدنيا صعبًا وشاقًا ولا تقدر عليه، ففي الحدّ الأدنى تحكم بهذه الآمال من ناحية الكمّ والعدد. وكذلك من ناحية الزمان، فلا تجعل نفسك منقادةً لها انقيادًا تامًّا وعلى الدوام، فتصرف عمرك كلّه وأنت تحوم حوم تلك الآمال التافهة والرخيصة.

التفت إلى أنّ لكلّ إنسان أجلٌ، لئلا تسيطر عليك الآمال الطويلة التي لا تصل إليها إلا بعد ألف سنة. يقول الله سبحانه حاكيًا عن هذا النوع من الآمال التي سيطرت على بني اليهود وبني إسرائيل قائلًا: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ...﴾[1]. فلو أنّهم بلغوا هذه الآمال بعد عيش ألف سنة، فإنّهم سيتمنّون مجدّدًا لو أنّهم يعيشون ألف سنة أخرى. لقد هيمنت هذه الآمال الدنيوية المستمرّة على قلوبهم وشغلتها بها. لعلّ هذا البيان لا يبدو واقعيًّا كثيرًا وهو أن يكون للإنسان آمالٌ تمتدّ لألف سنة. فهل أنّ الإنسان يعيش ألف سنة، حتّى يكون له مثل هذه الآمال الطويلة؟!

فلعلّ المقصود تبيان كيف أنّ آمال الإنسان تكون أبعد من عمره وتمتدّ إلى ما بعد الحياة الدنيا. لذا، فإنّ الحقّ جلّ جلاله يريد أن يُفهمنا أنّ مثل هذه الآمال لا

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٩٦.



تتحقّق وأنّ أعماركم ستنتهي قبل وصولكم إليها. بالطبع، شاهدنا في التاريخ عددًا قليلًا من الأشخاص يعيشون لألف سنة، لكنّنا الآن لا نجد من يعيش لأكثر من مئة وعشرين سنة، وبحسب المثل المعروف فإنّ المئة وعشرين سنة هي نهاية السباق في الحياة الدنيا. فعمر الإنسان لا يمتدّ إلى أكثر من ألف سنة حتى ينشغل قلبه بآمال ألف سنة. مع وجود مثل هذه الحقيقة المسلّمة، كيف نشاهد بعض الناس يسعون وراء أمنيات ورغبات لا تتحقّق في هذه السنوات؟

إنّ من أكثر الحماقات المنتشرة هي ما نشاهده من السعي المحموم لذاك الذي يمتلك المليارات، ورغم أنّه يعلم عدم امتلاك فرصة إنفاقها، تجده يحرص عليها بجنون. ولو عاش لمئة سنة أخرى فإنّ ما لديه سيكفيه ويكفي أولاده وأحفاده ويجعله يعيش على أفضل حال؛ إلّا أنّه مع ذلك يستمرّ في جمع المال وتكديس المزيد من الثروة. فما هي حصيلة مثل هذا الحرص؟ وأين هو حدّ النهاية لهذا الحرص والتكديس؟ وما الذي دهاه في عقله، وهو يعيش آخر سنوات عمره؟ فهل يمكننا أن نطلق على مثل هذا العمل عنوانًا سوى جنون تجميع المال؟ وذلك لأنّه حريص على جمع المال والثروة، رغم أنّه يعلم بأنّه لن يستمتع بهما. وكأنّ امتلاك المال هي أمنتيه الوحيدة، وأن يوسم بالمال (يعني متموّل) هو منتهى لذّته.

وباختصار، لو كان لا بدّ لنا أن نستمتع إلى حدٍّ ما بشؤون الدنيا، وأن يكون لدينا آمالٌ دنيويّة، فعلينا أن نلتفت إلى مُدد أعمارنا فلا نغفل عن قصر أعمارنا. وأن نسعى في هذا العمر القصير وراء الآمال المتناسبة معه، فلا ندع الآمال الدنيويّة اللامحدودة، والتي لا يتّسع لها العمر، تجتاح عقولنا وننفق أعمارنا في سبيلها. فهل تعلمون كم ستعمّرون وكم بقي لكم من العمر، حتّى تكونوا حريصين على السعي على هذا النحو وراء متاع الدنيا؟ ففي هذا الزمن، يتراوح متوسّط عمر الإنسان ما بين ستين وسبعين سنة. فما الذي جرى حتى شغلتم القلب بهذه الآمال التي لا تتحقق إلّا بعد مئة سنة؟! فإذا كان لا بدّ من وجود آمال دنيوية، ففي الحد الأدنى، ينبغي أن تكون محدودةً بلحاظ الزمان والكمية، وأن تكون بحيث يتّسع لها عمرنا في هذه الدنيا، فلا بدّ من أن نصبغ آمالنا بالصبغة المنطقية والعقلانية لتكون متناسبة مع هذا العمر الدنيويّ القصير وما يمكن أن يتحقّق فيه.

«إِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ نَصِيحَتِي إِيَّاكَ فِيهَا، فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَاخْفِضْ فِي الطَّلَبِ». أي إن لم تقدر على



أن تكون قابلًا لنصيحتي بخصوص الدنيا، فالتفت إلى هذه النقطة وهي أنك لن تبلغ أملك أبدًا ولا يمكنك الفرار من أجلك! فاعلم أنّك قد سلكت طريق من كان قبلك، فأجمل في طلب الدنيا! فكم عاش من كان قبلك في هذه الدنيا؟ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[١]، فهل سيكون لك الخلد من بعدهم؟ فالكل قد رحل عن هذه الدنيا، وأنت سوف ترحل عنها أيضًا. فإذا أدركت أنّ الجميع قد رحلوا وأنك أنت أيضًا راحل؛ وإلى أن يأتي وقت الرحيل، فإنّك لن تنال جميع أمانيك، إذًا لا تنفق كل قوّتك لأجل لذائذ الدنيا! وإذا كنت تسعى وراء الدنيا، فعلى الأقلّ ليكن ذلك بهدوء! فلا تكن مستهترًا إلى هذا الحدّ، بل اختر طريق الاحتياط! فإن لم تتمكّن من ترك التعلّق بالدنيا بالكامل، فاذهب بالحدّ الأدنى وراء الرغبات المحدودة، وليكن سعيك وراءها من دون أي حرص أو عجلة بل بهدوء وتروٍّ ولين.

طريق نيل متاع الدنيا

وحيث إنّ الزهد يعني عدم الرغبة بالدنيا ولا يعني ترك الدنيا، كما يقتضي العقل الذي هو الرسول الباطن، فإنّ الشرع المقدّس أيضًا، الذي هو الرسول الظاهر، يفتح أمام الإنسان مجالًا للاستفادة من الدنيا ويجوّز له ذلك. إلّا أنّ السؤال هو حول مقدار هذه الاستفادة وحدودها، فما هو الحدّ الطبيعي للاستفادة من الدنيا؟ فإذا كان الإنسان مضطرًا للاستفادة من متاع الدنيا لكي يبقى حيًّا ويؤدّي حقّ العبودية لله، فكيف ينبغي أن يتعامل مع الدنيا بحيث لا تسيطر عليه محبّتها ولا تعشعش في قلبه أو تأسره؟

بمقتضى هذه الضرورة العقلية والشرعية، فإنّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعد الوصيّة بالزهد يحدّد المنهج الصحيح للاستفادة من متاع الدنيا لكي يتّجه مخاطبه نحو تحصيل هذا المتاع بصورة جميلة وصحيحة ويحقّق الاستفادة اللازمة منها: «**فَاخْفِضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ**». وهذا، يشير إلى التروّي والهدوء والمداراة والعمل بصورة صالحة!

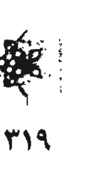
---

(١) سورة **الأنبياء**، الصفحة ٣٤.

لقد استُعمل هذا التعبير كثيرًا في الثقافة الإسلامية وفي روايات أهل البيت عَلَيْهِ‌السَّلَامُ. ففي الكتب الفقهية والروائية[١]، ورد في بحث المكاسب، وفي ذيل مبحث «الإجمال في الطلب» تعبير قريب من هذا المصطلح والمقصود منه هو اختيار الطريق الحسن من أجل تحصيل متاع الدنيا. إنّ مجال استخدام مثل هذا النحو من التعابير هو حيث يغامر الإنسان بنفسه من أجل الحصول على متاع الدنيا من أجل أن يستولي عليها؛ من أيّ طريقٍ كان، صحيحًا كان أو غير صحيح، مشروعًا كان أو غير مشروع. فإذا كان مثلًا يريد تحصيل المال أو نيل المقام والمنصب أو تأمين المنزل والسيارة أو اختيار الزوج أو غير ذلك تجده يتحرّك بسرعة وعجلة ويتخبّط يمينًا وشمالًا وينسى حدود الحلال والحرام، ويتخطّى حدّ العزة والشرف والكرامة الإنسانية ويدوس على هذه القيم، كل ذلك من أجل الوصول إلى متاع الدنيا؛ في حين أنّه كان عليه أن يسلك الطريق الصحيح والحسن لأجل نيل مطالبه، من أجل أن تبقى القيم الإنسانية مصونةً ويتمكّن من رعاية حدود الحلال والحرام الإلهيين ولا ينفق من كرامته الإنسانية وعزّته الإسلامية ويتحرّك على طريق الدناءة والخسّة. وباختصار، ينبغي أن يطلب الدنيا بواسطة سلوك الطريق الصحيح والجميل.

فحيث إنّكم لا تستطيعون أن تُخرجوا القلب من حالة التعلّق بالدنيا وزخارفها وبهارجها وأن تغضّوا البصر عنها، وحيث إنكم مضطرون لاستخدام متاعها، ففي الحدّ الأدنى، لا تعجلوا وتتسرّعوا لتحصيل مثل هذه الاستفادة، واختاروا الطريق الصحيح والشرعيّ الذي يحفظ عزّتكم، ولا تلوّثوا أنفسكم بالحرام، ولا تتمسّكوا بكل أمرٍ وضيع لأجل الاستفادة من الدنيا، ولا تبيعوا عزّتكم. فما أكثر أولئك الذين سعوا كثيرًا لكنّهم وبدل أن يستفيدوا أو يربحوا خسروا رأس مالهم. لقد كان هناك الكثير من التجار الذين طمعوا وحرصوا، لكنّهم بدل أن يحقّقوا الأرباح، فقد أضاعوا رأس مالهم وأفلسوا. فليس الأمر على هذا المنوال بحيث إنّ كل من يسعى أكثر ويتخبّط أكثر ويعمل أكثر، يحقّق المزيد: «**فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلى حَرَبٍ وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِنَاجٍ وَكُلُّ مُجْمِلٍ بِمُحْتَاجٍ**»، فما أكثر المساعي الدنيوية التي انتهت إلى

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٣، الباب ١٢٢، الصفحة ٩٢ والجزء ٨٧، الباب ١٢، الصفحة ٢٥٧ والجزء ١٠٣، الباب ١، الصفحة ١٠٣. **ومستدرك الوسائل**، الجزء ٨، الباب ٤٧ والجزء ١٣، الباب ١٠.



خسارة وتضييع الرساميل الأوليّة. وليس الأمر أنّ كل من يطلب الدنيا أكثر سيجدها أسرع، وأنّ كل من يسعى أكثر يفوز أكثر. فما أكثر تلك المساعي التي انتهت بتضييع الأموال والذخائر.

وعلى العكس، فما أكثر أولئك الذين نالوا الكثير من الأرباح مع القليل من المساعي في هذه الدنيا. هناك الكثير من الأشخاص الذين استفادوا وربحوا كثيرًا في الحياة الدنيا بسلوكهم الدقيق والمؤدّب والمحترم والمتلازم مع عزّة النفس، والعفّة، وحفظ الدين، ورعاية الأصول الأخلاقيّة والإنسانيّة والدينيّة، ومن دون أدنى قلق أو اضطراب. إنّ الأمر لا يجري هكذا بحيث إنّ من يسلك طريق تحصيل متاع الدنيا عن طريق الإجمال والمنهاج الحسن والجميل واجتناب التخبّط والاضطراب سيبقى محتاجًا ومحرومًا!

بناءً عليه، عليك أن تختار طريقًا عقلانيًّا يحفظ دينك وكرامتك وعزتك وسمعتك، فلا تتخلّى عن عزّتك وشرفك من أجل نيل متاع الدنيا الزائل، ولا تتخلّى عن دينك لأجل ذلك: «**وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلى رَغْبَةٍ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ دينك وعرضك ونَفْسِكَ عِوَضًا**». أي ارفع نفسك عن الدنايا واحفظ كرامتك وعزّتك واجتنب كل ما يشينك، وابتعد عن كل تملّق وحرام بحجّة الوصول إلى ما تريد، واعرض لحاجتك، ذلك لأنّه لن تنال عوضًا عمّا تبذله من دينك وشرفك وعزّتك. يجب على المؤمن أن يحفظ عزّة نفسه ويحترمها ولا يعرض حاجته على أي إنسان. وما أجمل ما يذكره **القرآن الكريم** عن مدح أمثال هؤلاء المحتاجين الذين لا يقدر الإنسان الجاهل أن يميّزهم عن الأغنياء رغم شدّة حاجتهم، لكنّك تعرفهم من سيماهم ووجوههم بأنّهم لا يمكن أن يسألوا الناس إلحافًا أو يصرّوا عليهم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾![1]

فالذين تربّوا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وبالرغم من حاجتهم الملحّة والشديدة، فإنّهم لا يمكن أن يسألوا أحدًا، وإذا أحسن إليهم أحد وقدّم إليهم هدية في الخفاء، فإنّ وجوههم تحمرّ ولا يكونوا مستعدّين لقبول ذلك. في حين

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٣.





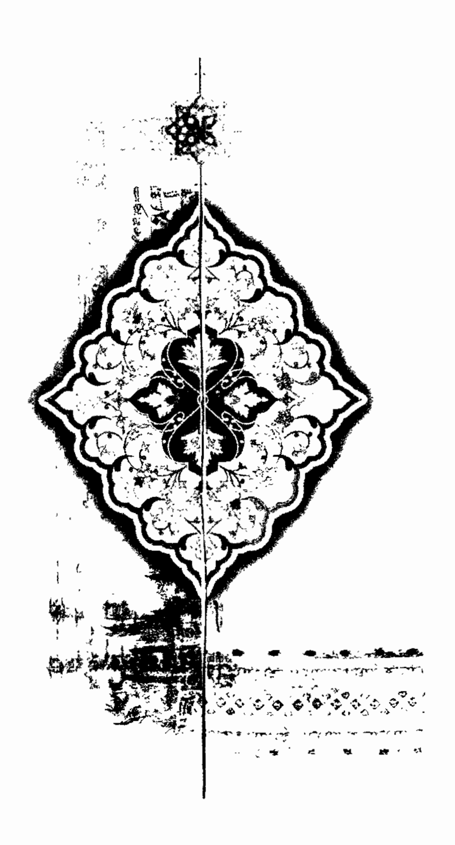
أنّ هناك من يكون على استعداد لتقديم كرامته وعزّته من أجل الوصول إلى هذا المتاع الزائل الفاقد للقيمة، وتجدهم يعرضون حاجتهم أمام أيّ أحد. أمّا المؤمن الحقيقيّ فلا يمكن أن يرتكب مثل هذه الأعمال الدنيئة من أجل الوصول إلى أهدافة الدنيويّة الزائلة، ولا يمكن أن يفعل أي شيءٍ قبيح، وذلك لأنّه قد سمع من مولاه أنّه قال: «**وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ**»[1].

من الممكن أن يختار الإنسان طريقًا يوصله إلى مطالبه الدنيوية، لكن لقاء ثمنٍ باهظ، وهو العزّة والشأنيّة والشرف، فيكون قد وصل إلى رغباته عن طريق الذلّ والهوان. فقد وصل إلى رغباته هذه لقاء بذل ماء وجهه وعزّته، فلا يوجد أحمق من هكذا صفقة. فلو أنّك فقدت من سمعتك وشرفك وعزّة نفسك ودينك ما يعادل مقدار رأس إبرة، وأعطوك كلّ هذه الدنيا وما فيها لما كان ذلك عوضًا. فعلى ماذا تظن أنّك قد حصلت، مقابل عزّة نفسك وشرفك وكرامتك التي أضعتها؟! فما حصلت عليه لا قيمة له على الإطلاق مقابل ما خسرته، وإن كان كبيرًا جدًّا؛ أي إنّك قد حصلت على أمرٍ لا قيمة له، على حساب الدين والكرامة والعزّة.

بناءً عليه، إذا لم تقدروا على رفع اليد بالكامل عن هذه الدنيا، فعلى الأقلّ، اسعوا لتحصيلها عن طريق الحلال ولا تسعوا لتحصيلها على حساب عزّة أنفسكم، وسمعتكم وشرفكم. إنّ قيمة العزّة والدين أعظم بكثير من كل هذه الدنيا ومتاعها ومن آلاف أمثالها. فاحذر أن تجعل هذين الأمرين في كفّتي ميزانٍ واحد ومن أن تقايضهما، لأنّك بذلك تكون قد خسرت رأسمالك لا بل خسرت من يمتلك رأس المال.

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٥١.



الدرس الرابع والعشرون
القرين الصالح

- الميل الفطري للعشرة
- الاعتدال في إشباع الميول
- معيار العشرة الصالحة
- معيار اختيار الصديق
- كيفية اختيار الصديق





«وَمِنْ خَيْرِ حَظِّ امْرِئٍ قَرِينٌ صَالِحٌ، فَقَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُم»[١].

يعدّ الارتباط بالآخرين أمرًا ضروريًّا بالنسبة للبشر، ومن الممكن أن تكون كيفيّة هذه الروابط وأشكالها مفيدةً أو مضرّة. فإذا كانت هذه الروابط والمعاشرات مع الآخرين قائمةً على أساسٍ صحيح وكان التواصل والترابط بينهم قائمًا على أساس العقائد الإلهيّة واحترام القيم الإنسانيّة، فلن يكون هناك سوى الرقيّ والتكامل الذي سيعود على المترابطين، وليست هذه الثمرة بأمرٍ قليل، ذلك لأنّ هدف جميع الخلق هو الرقيّ والكمال. من هنا، يمكن القول إنّ العشرة قد تكون إحدى سبل تقدّم الإنسان وفتح طريق الوصول إلى الأهداف العليا. وفي هذا الخصوص، وبفضل عناية الله سنتحدّث عن هذا الأمر بقدر الاستطاعة.

الميل الفطري للعشرة

لا بّد للإنسان في حياته الدنيا من معاشرة الآخرين. وحيث إنّ العشرة تُعدّ قضاءً محتومًا على الحياة الإنسانيّة، ويكون التخلّي عنها مطلقًا غير ممكنٍ أو بعيد عن الصحّة في بعض الموارد، ولكن باليقين ليست كل عشرة مطلوبة ومستحسنة. وحيث إنّه لا بدّ للإنسان من العشرة فينبغي أن يجعلها قائمةً على أساسٍ صحيح ومعيارٍ سليم، ويجعل ذلك وفق مِلاك حسن وصالح يُقيّم بواسطته كل أشكال

---

(١) لقد تمّ بيان هذا في **نهج البلاغة** مع اختلاف بسيط وبكلمات أخرى.



الارتباط والعشرة مع الآخرين، ويجعل ذلك أساس اختيار أي رفيق أو صديق أو قرين، ويعمل وفق رعاية آداب العشرة وطبق المعيار المحدد. فلو اختار صديقه على أساس ذلك المعيار والتزم بالعشرة الحسنة معه، فإنّه سوف ينال أفضل الأرباح والاستفادات من هذه العشرة. وفي الواقع، إنّ من الميول الفطرية للإنسان والتي تبرز فيه من دون أي تعليم من الآخرين أو تلقين ويشعر كل واحدٍ فينا بها في نفسه، هو الميل إلى عشرة الآخرين. ومثل هذا الميل الفطريّ مقبولٌ وشديد الرسوخ بحيث قيل إنّ الإنسان مدنيّ بالطبع، وإنّ الحياة الاجتماعيّة هي جزءٌ من الطبيعة والفطرة الإنسانيّة.

وبالطبع، نحن لسنا الآن بصدد إثبات هذه العبارة أو ردّها ونُحيل دراستها وتحليلها إلى مجال آخر، لكن جميعنا يدرك بالوجدان أنّ الميل إلى العشرة والارتباط بالآخرين موجودٌ في جبلّة الإنسان، ولعلّه من هذه الجهة يتألم كثيرًا من الوحدة. فلو تواجد الإنسان لمدةٍ، ولو قصيرة، في مكانٍ لوحده، ولم يقدر على رؤية أحد فسوف يكون ذلك صعبًا وشاقًّا عليه، وخصوصًا إذا كانت هذه الوحدة إجبارية وغير اختيارية فيصبح تحمّلها أشدّ وأصعب. إنّ الميل إلى العشرة بين الناس هو أمرٌ شديدٌ وقويّ إلى حدّ أنّ هذه العشرة لا تنحصر بالصديق أو القريب أو ابن المحلّة، بل بمجرّد أن يشاهد الإنسان إنسانًا آخر فإنّه يميل إليه وإلى الارتباط والاستيناس به. فلو صادف أن تاه الإنسان مثلًا في الصحراء أو الغابة ولم يتمكّن من التواصل مع أحد لمدّة ما أو أن يلتقي بأحد، فبمجرد أن يشاهد إنسانًا آخر فإنّه يفرح ويُسرّ وكأنّه وجد ضالّته، حتى لو كان ذلك الشخص الذي يلتقي به لأوّل مرّة غريبًا وغير معروف عنده، وحتى لو كان يتكلم بلغةٍ لا يفهمها ولم يتمكن من التواصل الشفهي معه، ومع ذلك فإنّه بمجرد أن يشاهده يفرح ويرغب بأن يصاحبه ويأنس به. ومثل هذا السلوك يُعدّ بحدّ ذاته دليلًا على أنّ الميل إلى العشرة والارتباط بالآخرين هو ميلٌ فطريّ. كما ينبغي أن نلتفت إلى أنّ هذا الميل يختلف من حيث الشدة والقوّة بحسب مراحل العمر، فعلى سبيل المثال يكون في مرحلة الحداثة والشباب قويًّا جدًا، ثمّ بعد ذلك يخفت مع التقدّم بالعمر.

ومن الواضح أنّ الله تعالى قد أودع مثل هذا الميل في وجود الإنسان لحكمةٍ ما، ولعلّ إحدى الحكم التي يمكن أن نكتشفها كنموذج ومثال هي أنّ العشرة والارتباط بالآخرين، وخصوصًا إذا كانوا من الأشخاص الكاملين، تعدّ أفضل وسيلةٍ



للوصول إلى السعادة وبلوغ المقصد الأعلى للإنسانيّة. وبالطبع، حيث إنّ إرضاء الميول الفطريّة وإشباعها قد يحصل بصورةٍ متعادلة وغير متعادلة فمن الممكن لهذا الميل الفطريّ أن يقع تحت تأثير الإفراط والتفريط أيضًا، ويجعل حياة الإنسان بأسرها في هذه الحياة الدنيا تحت هذا النوع من التأثير أو ذاك. فعلى سبيل المثال، يميل الإنسان بفطرته إلى الطعام في حين أنّ هذا الميل هو ميلٌ فطريّ، لكنّنا لا نقول إنّ كل طعامٍ أو غذاء هو أمرٌ مطلوب أو مستحسن. ففطريّة أي ميل لا تعني أن نتركه على حاله ونشبعه من دون أي قيد أو شرط وبأي وسيلة، بل لأنّ إيداع مثل هذه الميول من جانب الله المنان يستند إلى الحكمة، وتكون هذه الميول سببًا لسوق الإنسان نحو أهدافٍ، يجب أن نُشبع هذه الميول ونؤمّنها بالالتفات والتوجّه إلى تلك الأهداف.

بمعنى آخر، يوجد أمام هذه الميول مسيران: مسيرٌ مطلوب ومستحسن يكون عبوره سببًا لخير الإنسان ومنفعته وموجبًا لتكامله، والسبيل الآخر الذي هو سبيلٌ منحرفٌ وغير صحيح سينتهي بضرر الإنسان ويكون عبوره موجبًا لانحطاطه وتسافله. ولا شك بأنّ الإنسان الطالب للكمال والرقيّ سيختار الطريق الأول الذي هو الاعتدال في إشباع الميول وإرضائها. بالطبع، إنّ هذا القانون حاكمٌ على جميع الميول الفطريّة مثل الميول الجنسيّة والميل إلى الطعام والعشرة وغيرها.

الاعتدال في إشباع الميول

يُعدّ الاعتدال في إشباع الميول وتأمينها أحد مقتضيات الشريعة، ويؤيّده حكم العقل أيضًا، وما هو مهمٌّ في هذا المقام هو البيان العمليّ والواقعيّ للاعتدال ورسم ملامح الشكل السليم لإشباع تلك الميول، مثل أن يكون في الإنسان ميلٌ إلى العشرة، ويكون في ذاته مائلًا وراغبًا بهذا الأمر المطلوب وهذه النعمة، فلا شك أنّ هناك حكمةٌ كامنةٌ من وراء جعل هذا الأمر، ولكن ذلك بشرط أن يستفيد بصورة صحيحة من هذه النعمة، كأن يختار هذا الإنسان شخصًا عالمًا ومتخلقًا بالأخلاق الحسنة ليعاشره ويصاحبه، ففي هذه الحالة سيحقق الكثير من الفوائد وتكون عشرة أمثال هؤلاء الناس مؤثرةً جدًا في تكامله. أمّا إذا لم يلتزم بشروط الصحبة والعشرة وانفتح على شخصٍ بعيدٍ عن الأخلاق الحسنة وغريبٍ عن الطباع الفاضلة، فلا شكّ بأنّه لن ينال من جرّاء هذه العشرة سوى الخسران والسقوط في

قعر المفاسد والمصائب. فما لم نقل إنّ جميع الميول الفطريّة تشبه السيف ذا الحدّين، فتكون وسيلةً لنيل الخير ووسيلةً للوقوع في الشر، وتكون وسيلةً للتكامل ووسيلةً للسقوط، ولكن ممّا لا شكّ فيه هو أنّ معظم الميول الفطريّة ينطبق عليها مثل هذا التشبيه ومنها الميل إلى العشرة.

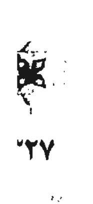
ولأجل رفع هذا التردّد والإبهام حول إذا ما كان ينبغي بناء الحياة على أساس العشرة والارتباط بجميع الناس، أو الانزواء والاعتزال واجتناب الآخرين، يجب القول إنّ بناء الحياة الإنسانيّة قائمٌ على المعاشرة، ولكن مع الالتفات إلى أنّه ليس المقصود بالعشرة، عشرة وصحبة أي إنسان، بل يجب اجتناب التفلّت والتحرّر من القيود وملاحظة الحدود والمستويات. فمثلما أنّه لا يوجد أي قاعدة أو قانون يقتضيان بأن يترك الإنسان العشرة تركًا كاملًا والفرار من الناس، فكذلك لا يُجيز له أن ينفتح على معاشرة الآخرين بأي شكل ومع أي إنسان وبأي نحوٍ، فكلا المنهجين من الإفراط والتفريط بعيدان عن الصحة ويجب اختيار منهج الاعتدال ورعاية شروطه.

هناك قانونٌ معروف بين علماء الأخلاق وقد قبله حكماء الإسلام، وهذا القانون هو أصل الاعتدال. فصحيح، أنّه لم يتّضح بشكلٍ كامل ما هو فهمهم وقصدهم من معيار الاعتدال ومِلاكه، ولكن يمكن القول بشكلٍ إجمالي إنّ هذا المعيار هو أصلٌ صحيحٌ ومقبول. وهناك من علماء الأخلاق من ذهب إلى أبعد من ذلك، وبتبع حكماء اليونان القدماء، وخصوصًا الأرسطويين، من اعتبر أنّ الاعتدال مِلاك الحسن والخير في أي عمل، بمعنى أنّ العمل الحسن هو الذي يُجتنب فيه الإفراط والتفريط، وهو الذي تُرعى فيه الوسطيّة والاعتدال. بالطبع، لعلّه لا يمكن قبول مثل هذا القول بكلّه لكن بالرغم من ذلك إذا لم نعتبر الاعتدال معيارًا يمكن القول إنّه مؤشرٌ جيّدٌ جدًّا لتشخيص بعض الأعمال الحسنة والفاضلة والتي يكون الاستثناء فيها نادرًا. ولعلّ رعاية الاعتدال في جميع الأمور هو عاملٌ لتحديد الحسن والفضيلة بحدّ ذاته.

ومن المناسب أن نذكّر بوجود عبارات كثيرة في روايات أهل البيت عليهم السلام تؤيّد هذا المطلب مثل الحديث المعروف عن الإمام الكاظم عليه السلام حيث يقول: «وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا»[1]، أو مثل ما ورد أيضًا: «أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ١٦٦.



الْحَق»[1]، و«وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوه»[2]. ومثلما تبيّن سابقًا يمكن النظر إلى هذه الروايات من باب أنّها دليل على رعاية الاعتدال كأحد المعايير، لكنّها لا تكفي لتكون دليلًا قطعيًا.

وعلى أيّ حال، فإنّه بعد تحديد هدف الحياة يجب الاستفادة من الميول من أجل الوصول إلى هذا الهدف، واستخدامها في حدّ الاعتدال وبالشكل الصحيح لكي يتحقّق الهدف المنظور ويتحصّل، وإلّا حملتنا على غير الجادّة المحمودة.

معيار العشرة الحسنة

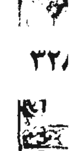
لقد علمنا أنّ مجرد الاعتماد على الاعتدال لا يحقّق السعادة. ولإثبات هذا الكلام يكفي أن نقول إنّ الإنسان الفاقد للهدف أو الذي يسعى نحو أهدافٍ باطلة لو سلك طريق الاعتدال لما وصل أبدًا إلى الحقّ والمقصد الصحيح. ولهذا، فإنّ هذه الحركة المعتدلة يجب أن تكون نابعة من وجود هدفٍ صحيح. فإذا حدّد الإنسان هدف الحياة بصورةٍ صحيحة، واستفاد من الميول المودعة في سيره المعتدل لظفر وأفلح، وفي غير هذه الحالة لن يكفيه الاعتدال للوصول إلى السعادة مثلما أنّ مجرد تشخيص الهدف الصحيح لا يوصلنا إليه. وبعد أن ظهر منهج التحرّك والسير نحو الهدف الذي هو عبارة عن السير المعتدل نقوم ببيان وتحليل هدف الحياة الإنسانية.

يوجد فيما يتعلّق بالإنسان وهدفه رؤيتان أساسيّتان: الأولى ترى الإنسان عبارة عن مجموعة من الأمور المتفرقة والأبعاد المختلفة، والمعتقدون بهذه الرؤية يقولون: إنّ للإنسان أبعاد مختلفة مثل الغذاء واللباس والعشرة مع الزوجة والأبناء والدراسة والعمل والسعي أي مجموعة من الأمور المختلفة التي يكون لكلّ واحدٍ منها مقصدٌ خاص وهدفٌ محدد. بالطبع، إنّ هذه الأمور المختلفة لا يوجد بينها أي نوع من الارتباط والعلقة. وكأن الإنسان بحسب هذه الرؤية ليس موجودًا واحدًا بل هو موجودات متعددة رُكّبت فيما بينها، وجُمعت أو أُلصقت ليخرج

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٨٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢، الخطبة ١٢٧، الصفحة ٨.



منها هذا الموجود المسمّى إنسانًا الذي له هذه الشؤون المتعددة، في حين أنّ هذه الشوؤن (الغذاء، اللباس، الزواج، الأبوة، الدراسة، العمل وغيرها) لا ترابط بينها. على أيّ حال، فإنّ هذه أمور مختلفة يجب على الإنسان أن يراعي فيها حدّ الاعتدال. وكأنّ الهدف الأساس هو رعاية الاعتدال في إشباع هذه الشوؤن والأبعاد.

أمّا وفق الرؤية الثانية، فالإنسان هو موجود قد خُلق من أجل الوصول إلى نقطة محدّدة، وكل ما ذُكر يُعدّ أداة لأجل أن يستعملها الإنسان في الوصول إلى ذاك الهدف المحدد، فلا يكون مثل هذا الإنسان صاحب أهداف متعددة يتحرك نحوها على طرقٍ مختلفة.

ولكي نتصوّر هاتين الرؤيتين بصورةٍ أفضل، انظروا إلى ذاك الكابل المعدنيّ الذي يوجد فيه مجموعة من الأسلاك المنضمّة. ففي هذا الكابل، نجد أنّ كلّ سلكٍ يبدأ من محل وينتهي إلى محل ولا يوجد أي نوع من الارتباط بين هذه الأسلاك وإن كانت متقاربة ومتقارنة وموجودة في إطارٍ واحد. وحيث إنّ هذه المجموعة من الأسلاك غير مترابطة، فأحدها يضيء مصباحًا وآخر يشغّل جهازًا وثالث لأجل الكيّ ورابع لأجل تشغيل التلفاز. فالشخص الذي ينظر إلى هذا الكابل يظن أنّه شيء واحد لكنّه من الداخل عبارة عن أشياء متباعدة ومتباينة، ذلك لأنّ لكلّ سلكٍ هدفٍ محدّد وهو يبدأ من نقطة خاصّة وينتهي بنقطةٍ محددة. والآن يجب أن نحدّد هل أنّ هذا الإنسان يشبه مثل هذا الكابل الذي يوجد في قالب بدنه أو روحه فروعٌ مختلفة منضمّة ذات مناشئ وغايات مختلفة لا يوجد بينها أي ارتباط أو اتّصال، أم أنّها جميعًا، وإن كانت أدوات مختلفة، لكنّها منضمّة مجتمعة توصل هذا المخلوق إلى نقطة محددة وهدفٍ مشخّص؟ فهل إنّ هذه القنوات المختلفة تصبّ جميعًا في بحرٍ واحد أم إنّ كل واحدةٍ منها تبدأ من نقطةٍ وتنتهي إلى بحرٍ خاص؟ وهل إنّ روح الإنسان موجودٌ واحدٌ يتغذى من كل هذه القنوات المختلفة ويستفيد من كل هذه الأدوات المتنوّعة لكي يصل إلى مقصدٍ نهائيّ ويتّصل بذلك الكمال الأعلى، الذي هو هدف واحد لا غير ويكون الإنسان موجودًا واحدًا؟ أم إنّ روح الإنسان هي عبارة عن مجموعة من هذه الأبعاد المستقلّة المنفصلة التي جُعل لكلّ واحدٍ منها هدفٌ خاصّ ومحدّد؟ يُستفاد من الآيات والروايات أنّ نظرة الإسلام إلى حقيقة الإنسان هي تلك الروح الإلهيّة التي نُفخت في قالبه، وأنّ هذا البدن عبارة عن أداة لأجل ارتقاء الروح وتكاملها ووصولها إلى



ذاك الهدف المحدّد حيث تتنعم بصورةٍ كاملةٍ من النعم الماديّة والمعنويّة.

لكنّ السؤال: ما هو ذاك الهدف وأين يكمن؟ في البداية، يجب القول إنّنا طالما لم نصل إلى ذاك الهدف فإنّ حقيقته ستبقى مجهولةً عندنا، لأنّ ذاك الهدف هو من مقولة المدركات لا المعلومات، فمن لم يدركه لا يمكنه أن يعرف حقيقته ويعرّفها. إنّ المعرفة بحدّ ذاتها لا يمكن أن ترشدنا إلى حقيقة ذلك الهدف العالي، وحتى إنّنا لا نستطيع أن نضع له اسمًا خاصًّا. نحن نعلم أنّ عنوانه هو القرب من الله تعالى، أي إنّه ذاك المحل الذي إذا وصل إليه الإنسان يكون قريبًا من الله سبحانه. ما نعلمه هو فقط أنّ هناك نقطة، أو مقصد أو مقصود أو مطلوب، وهو القرب من الله جلّ جلاله ولا يوجد مكانٌ آخر. فإذا قلنا إنّ الهدف هو القرب الإلهيّ، فإنّ قولنا هذا يكون صرفًا على أساس الأصول والرؤية الإسلامية الصحيحة التي تعتبر الحياة الحقيقية هي تلك الحياة الأبديّة الخالدة في جوار رحمة الحقّ تعالى. إذا قلنا إنّ الهدف هو القرب الإلهي فذلك لأنّنا استلهمنا هذا المعنى من النصوص الإسلامية مثلما يذكر الله سبحانه دعاء آسيا امرأة فرعون ومطلبها حيث يقول: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾[١]، ومثلما ورد في التعبير الإلهيّ في العديد من الآيات القرآنية: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[٢]، و﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾[٣]، و﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[٤]، و﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾[٥]. هناك مفردات مثل «جوار رحمة الحقّ» التي هي تعابير عرفانيّة تُشير إلى هذا المعنى أيضًا. فما هو برأيكم ذاك التعبير الذي يمكن أن يؤدي معنى ذلك المقصد الأعلى والأكمل؟ لا شكّ بأنّ الألفاظ عاجزةٌ عن بيان تلك الحقيقة التي تُشير إلى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان وإلى تلك المرتبة الوجودية والكمال النهائي له. والتعبيرات العرفية التي تُشير إلى هذا المقصد هي من قبيل: «قرب الله»، «عند الله»، «في جوار الله». على أيّ حال، إنّ كل هذه

---

(١) سورة **التحريم**، الآية ١١.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٤.

(٣) سورة **القمر**، الآية ٥٥.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٩.

(٥) سورة **الأنعام**، الآية ١٢٧.

الألفاظ تُشير إلى ذلك المقام الإلهي الذي لا يمكننا فهم حقيقته، وإن شاء الله إذا وصلنا إلى ذلك المقام فسوف نفهم تلك الحقيقة.



فإذا استفدنا من النعم الإلهيّة المتنوّعة واللامتناهية، يجب أن يكون ذلك على طريق الوصول إلى هذا الهدف المقدّس، ويجب أن نقيس حركتنا وتقدّمنا على أساس هذا الهدف ونطبقها عليه. يجب أن نرى أي من هذه الأعمال يقرّبنا من هذا الهدف فنؤديه وننجزه، وبهذه الطريقة نستفيد من الميول الكامنة في وجودنا.

بناءً عليه، فإنّ معيارنا في اختيار الأسلوب الصحيح للاستفادة من الميول والغرائز، هو بحسب تأثيره في إيصالنا إلى ذاك الهدف. وعلى هذا الأساس، فإنّ الاعتدال ليس لوحده مِلاكًا صحيحًا وكاملًا بل يكون مؤثّرًا كأمارة وعلامة ومؤشر وليس كبرهان، وذلك لأنّه لا يمكن أن يكون دقيقًا في الدلالة على كيفية الاستفادة من هذه الميول والنعم. فنحن لا ندري مقدار حدّ الاعتدال في كل نعمة وفي كل غريزة وميل، ولا نعلم بأي كيفية يكون؟ فإذا حصلنا على المعيار الدقيق فإنّنا نستطيع بمقدار معرفتنا أن ندرك مقدار ما ينبغي أن نستفيد فيه من الميول والغرائز لكي نصل إلى الهدف النهائي، لكنّ الاعتدال لا يعطينا مثل هذا المِلاك والمعيار ولا يمكن أن يعدّ معيارًا قابلًا للاعتماد عليه للوصول إلى الأهداف.

معيار اختيار الصديق

حيث إنّ الإنسان لا بدّ له من العشرة والرفقة، وعليه أن يطوي مسير حياته المثالية في الوصول إلى الأهداف العالية من خلال حياته الاجتماعيّة، فعليه السعي لاكتشاف البوصلة لأجل تحديد مسار الحياة المطلوبة الذي يدلّنا على الطريق ويحدّد لنا الحركة. وبالطبع، من خلال طريقة عمل هذه البوصلة نعلم أنّه لا بدّ من أن نكون حاصلين عليها في البداية، لكي تدلّ عقاربها على الجهة التي ينبغي أن نتحرّك على أساسها للوصول إلى تلك الأهداف العالية، وما هي الأمور التي ينبغي أن نقوم بها من أجل أن تدلّ عقاربها على جهة الهدف المطلوب فتهدينا إليه، وإلى الله، وفي سبيل الله الذي هو الصراط المستقيم.

وقد عُلم أنّ هدف الحياة هو سلوك الطريق المستقيم الذي هو صراط

عبادة الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١]، أي نجعل الهدف «هو» والتحرك نحو «هو» وننفي استقلال ذواتنا وكل موجود غير الحقّ جلّ جلاله، ونضع طوق العبودية «له» في رقبتنا ونجعله «هو» المعبود والمحبوب. فهذا المنهاج والصراط هو الصراط المستقيم وهدف الحياة. ويجب أن تنتهي كلّ الطرق والسبل عند هذا المسير. فالسبل والطرق الفرعية التي تُعدّ فروعًا جانبية للمسير إلى الله يجب أن تنتهي إلى الصراط المستقيم، والتي يكون منها العشرة والتواصل مع الآخرين، هذه العشرة التي تنبع من الميل الفطري والإلهي والتي إذا روعيت فيها الشروط اللازمة لإشباع الميول والغرائز ولوحظ فيها تلك الآداب الخاصّة، فيمكنها أن تكون طريقًا يؤدّي إلى الله المنّان ووسيلة لسوق الإنسان نحو الحقيقة.

ومن خلال هذا البيان، يُعلم لماذا جرى الحثّ على عشرة الناس الطيّبين. وذلك في الواقع لأنّ مثل هذه العشرة تذكّر الإنسان بالله تعالى وتقرّبه من الحقّ سبحانه، لأجل ذلك تمّ الترغيب بها، فهي معين ومساعد له للسير والحركة. فلا شكّ بأنّ أولئك الذين يبعدون الإنسان عن الحقّ ويجعلون قلبه غافلًا عن ذكره لا يستحقّون العشرة والرفقة ومثل هذا المعيار هو الملاك الأساسي والوحيد لاختيار الرفيق والصحبة. وما أجمل كلام الإمام الصادق عليه السلام الذي يرويه عن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله عن المسيح عليه السلام وهو يخاطب الحواريين قائلًا: «قَالَتِ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسى: يَا رُوحَ اللهِ مَنْ نُجَالِسُ؟ قَالَ: مَنْ يُذَكِّرُكُمُ اللهَ رُؤْيَتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَيُرَغِّبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلُهُ»[٢]. فهكذا نستفيد من هذا الحديث ثلاث صفات أساسيّة:

١. أنّ رؤية هذا الإنسان تذكّر بالله.

٢. أنّ محادثته تزيد من علمنا.

٣. أنّ عمله يرغّبنا بالآخرة.

بعد أن علمنا أنّ هدف الحياة والكمال النهائي للإنسان هو هذا القرب الإلهي، ينبغي أن يكون مطلوبنا من وراء جميع الأعمال، البغض، الحب، هو ما

---

(١) سورة **يس**، الآية ٦١.

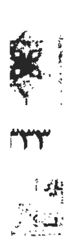
(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٩، الرواية ٣.

يوجّهنا إلى القرب الإلهي. وهنا، فإنّ اختيار القرين إذا رُوعيت فيه الشروط الثلاثة المذكورة، فسوف يكون عاملًا لهدايتنا في طريق القرب الإلهي. فالصفة الأولى للقرين الصالح هو أنّ ملاقاته ومجالسته تذكّر الإنسان بالله، فينبغي أن تصاحبوا وتعاشروا ذاك الذي كلّما نظرتم إليه أحيى ذكر الله في قلوبكم. فالخاصيّة الأولى للقرين الصالح والرفيق الحسن في الرؤية الإسلامية إذًا هي أنّ معاشرته تذّكر القلب بالله وتحييه، وهو الذي يخلص لله في كلامه وعمله وسلوكه ويراعي التقوى ويكون دقيقًا في تحمّل مسؤولياته، والذي حين ترونه يتجلّى ذكر الله في قلوكم. والخاصية الثانية للقرين الصالح هي أنّه إذا تحدثتم معه عدّة كلمات فسوف تزدادون علمًا ومعرفةً، وذلك لأنّه لا يتفوّه بالترّهات ولا ينشغل باللغو وهو يجتنب كل كلامٍ عبثي لا فائدة منه، ولهذا فإنّ كل كلام يجري على لسانه سيكون مرشدًا للحكمةً ويكون دواءً لدائكم ورافعًا لحاجاتكم أو سببًا لزيادة علومكم ومعارفكم. وباختصار، فإنّ ما يقوله مثل هذا الإنسان سينفعكم ويزيد من علمكم.

ومن الواضح أنّه يجب أن نتعلّم منه ما يقرّبنا إلى الهدف ويكون مؤثّرًا في سيرنا وتحرّكنا نحو الله. فالصديق المثالي هو الذي يحيي ذكر الله تعالى في القلب بالنظر إلى سيمائه ويكون كلامه سببًا لزيادة علومكم.

وبعبارةٍ أخرى، إنّ الإنسان يتواصل مع الآخرين من خلال ثلاثة طرق: من خلال الكلام، ومن خلال الوجه، ومن خلال السلوك والأفعال. ويقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بشأن تأثير السلوك والعمل: إنّ القرين الصالح هو الذي ينبغي أن يكون سلوكه وفعله بحيث يرغّبكم بالأعمال الأخرويّة. فإذا كان الإنسان بصدد التفكير الدائم بالآخرة، فإنّ هذا النمط من التفكير سيؤدّي إلى جعل سلوكه متّجهًا نحو الآخرة والسعادة الأبديّة.

ولهذا، سيشاهد الآخرون عقائده متجلّية في سلوكه وأفعاله وتكون مرافقته باعثةً على سوق الآخرين نحو ذلك الهدف. وعلى أيّ حال، فإنّ أعماله ستكون عامًلا مهمًّا لبعث التفكير والاهتمام بالآخرة والعمل لأجل تحصيل السعادة الأخروية. أما ذاك الذي ينطق مظهره بآثار المعصية ويظهر الشرّ في وجهه ولباسه، لا يمكن أن يكون أبدًا قرينًا صالحًا ومناسبًا، وإنّ عشرته لا تنسي الإنسان ذكر الله فحسب، بل إذا تذكّرتموه فإنّه لا يذكّركم سوى بالشيطان؛ وإذا تحدّث فإنّه لا يتحدّث عن كل شيء سوى الأشياء النافعة، فيقول مثلًا: إنّ ذاك الشيء باهظ



الثمن، وتلك البضاعة رخيصة، وفلانٌ قام بالعمل الفلاني، وفلانٌ إذا تصرف بهذه الطريقة سيرتكب الأخطاء الفلانية، فأحيانًا يستغيب وأحيانًا يتجسّس عيوب الآخرين... فأفضل ما يخرج من لسانه هو الحديث عن غلاء الأسعار ورخصها، وأنّه لا يمكن للإنسان أن يعيش في هذا الزمن، وأنّ الحياة أصبحت صعبة جدًّا، وأنّ الأجارات ارتفعت وأمثال ذلك، لكنّه لن يتفوّه بأيّ كلام يمكن أن يذكّرنا بالله أو ينعش القلب به، وسوف يكون سلوكه على هذا المنوالَ بل ما هو أسوأ، فيكون في سعيٍ دائم نحو تلك الأعمال التي لها مدخول أكثر وتحسّن من زخرف حياته وتزيد منٍ لذائذه الماديّة، ولو كان عبر ارتكاب المعاصي والأعمال غير المشروعة. ولا يكون اهتمامه منصبًّا إلا على تحسين أثاث بيته وتغيير طراز سيّارته وهاتفه وغير ذلك فسلوكه خبيثٌ مثل أفكاره. ومثل هذا الشخص حتى إذا ما لم يصل إلى تحقيق تلك الآمال الدنيوية، ولكن بما أنّ فكره منصب على تلك الآمال فإنّ هذه الأفكار والاهتمامات ستنعكس شيئًا فشيئًا في سلوكه وتؤثر في أفعاله. فإذا أردنا أن نختار الرفيق فيجب علينا أن نختاره على أساس هذا المعيار، أي نختار من يقرّبنا إلى الهدف الإلهي ويعيننا على سلوك طريق الله والصراط المستقيم بعيدًا عن الضلالة والانحطاط.

وقد جرى في كلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يشبه هذا البيان، ولكن بلهجةٍ مختلفة حيث يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في التأكيد على الرفيق الصالح أنّه من أفضل ما يغتنمه الإنسان في الحياة هو الرفيق الصالح. ويوجد روايةٌ بمثل هذا المضمون عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَه»[1]. فمثل هذا الكلام يبعث فينا الرغبة في الحصول على الرفيق الصالح، فإذا حصلنا على مثل هذا القرين والصديق المناسب علينا أن نعرف قيمته وقدره ونحافظ عليه، لا أن نضيّعه بهذه البساطة، ذلك لأنّ الرفيق الصالح هو كالدرّ النادر والجوهر النفيس. فيجب أن نسعى كثيرًا ونبذل الكثير من أجل أن نجد مثل هذا الرفيق الصالح والذي باليقين يكون الحفاظ عليه أصعب (من إيجاده). فلا يوجد مجال للإنكار بأنّ الرفيق والقرين الصالح والعشير المناسب له أهمية استثنائية في حياة الإنسان ويعدّ نعمة كبرى، ويجب علينا جميعًا أن نؤمن بهذا.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ١٦٤، الرواية ٢.



أولئك الذين يظنّون بأنّ عليهم أن يبتعدوا عن الناس بنحوٍ مطلق ويعيشوا في هذه الحياة لوحدهم، لا يتمتّعون بالمعرفة الصحيحة للرؤية الإسلامية، وهم يتحرّكون في هذه الحياة خلافًا للفطرة، ويعملون خلافًا للتعاليم الإسلامية. لقد جعل الله المنّان وجود الناس بالنسبة لبعضهم نعمة، لكنّنا في بعض الأحيان نبدّل هذه النعمة إلى نقمة، فنحن البشر يجب أن نستفيد من بعضنا بأفضل صورة. وفي هذا المجال، فإنّ العشرة والرفقة هي من أكثر الوسائل المؤثّرة للوصول إلى الخير الذي فتحه الله سبحانه وتعالى على عباده. فالرفيق الواحد يمكن أن يكون مؤثّرًا في حياة الإنسان إلى درجة لا يوجد أي عامل آخر يمكن أن يضاهيه. وهنا، نجد أنّ الشباب هم الفئة الأكثر تأثّرًا بالصداقة والرفقة، ولا شك بأنّه إلى جانب هذا العامل، يوجد عوامل أخرى لها دور مؤثّر، في حين أنّنا لا نلتفت إلى تأثير هذه العوامل الصحيحة. إنّ تأثير الصديق في حياة الإنسان هو من العمق والحتمية بحيث إنّه يجعل جميع أبعاد الحياة تحت تأثيره من دون التفات وإرادة، وهذا التأثير سيكون نافذًا وغير ملموس وقد يشبّهه بعض الأعاظم بلقمة الطعام التي يضعها الإنسان في فمه ويمضغها فيلتذّ الإنسان من مضغها وهو غير ملتفت إلى أنّ هذه اللقمة بواسطة هذا المضغ ستنزل عبر المريء، فيتوجّه فجأة إلى أنّه لم يبقَ في فمه أي شيء.

يمكن للرفيق أن يبتلع حسنات الإنسان بهذا النحو فلا يكون هذا الإنسان ملتفتًا. فكل الذخائر الماديّة والمعنويّة قد تضمحل وتتلاشى في العشرة السيّئة؛ أو على العكس، من الممكن أن يكون للرفيق الصالح دورٌ كبير في زيادة الذخائر الماديّة والمعنويّة للإنسان. إنّ الرفيق الصالح يمكن أن ينتزع مساوئ الإنسان من دون أي تعب ويطهّره منها بكل بساطة. هذا في حين أنّه لو أراد هذا الإنسان أن يسعى للتخلّص من هذه المساوئ لكان عليه أن يشتغل مدّة طويلة ويجهد كثيرًا حتى يكتشف عيوبه أوّلًا، ويزيلها ثانيًا، ولعلّ هذا يحتاج إلى الكثير من التفكير والمطالعة وبذل الجهد والرياضة والتخطيط من أجل أن يتخلّص من صفةٍ سيئةٍ واحدة، لكنّه إذا وُفّق لمعاشرة رفيقٍ صالح فإنّه، ومن دون أي تعب ومشقّة، سوف يتأثّر بأخلاق رفيقه الفاضلة، والتي ستكون عاملًا أساسيًّا في تخليصه من تلك الصفات السيّئة، هذا من دون أن يبذل أي جهدٍ مذكور. وبعكس هذه الحالة، من الممكن أن تؤدّي عشرة الأشخاص السيّئين إلى انتقال الصفات السيّئة ورسوخها

في نفس المعاشر من دون أي التفات منه لذلك. إنّ دور الصديق والرفيق في تبديل روحيّة الإنسان وتغيير صفاته أمرٌ مؤثّرٌ جدًّا وشديد النفوذ في الوقت الذي يكون هادئًا جدًّا وغير ملموس. يكفي للإنسان أن يختار رفيقًا صالحًا، ويفتح باب معاشرته لكي يقوم بتصحيح سلوكه وإزالة عيوبه. ومثل هذا التأثير الإيجابيّ في الصفات والروحيّة، التي لها ظهورٌ أكثر وبروز، يُعدّ أمرًا ملفتًا جدًا. كما أنّ اختيار الرفيق السيئ ومعاشرته يؤدّي إلى إحداث تغييرٍ سريع في السلوك، وما أكثر ما يؤدّي أيضًا إلى هلاك الإنسان. لهذا، حذّرَنا الأئمّة عَلَيهِمُ السَّلَامُ من صحبة ومجالسة رفيق السوء. ففي روايةٍ عن الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ يقول: «احْذَرْ مُجَالَسَةَ قَرِينِ السَّوْءِ فَإِنَّه يَهْلِكُ مُقَارِنَهُ [قَرِينَهُ] وَيُرْدِي مُصَاحِبَهُ [صَاحِبَهُ]»[1].

وعلى أيّ حال، لا توجد نعمةٌ تصل إلى مستوى الرفيق والقرين الصالح، فهي نعمةٌ لطيفةٌ وعذبة، ففيها الأثر الجميل والإيجابيّ على الإنسان، وهي تنشئ الصفات الفاضلة فيه وتنتزع عيوبه وتزيلها وتطهّر وجود الإنسان من الصفات السيّئة والأخلاق الرذيلة، وهي خير عونٍ للإنسان في مسير حياته الدنيا، وتمدّه في حركته وسيره نحو الآخرة وتبثّ فيه الشوق والاندفاع. فلا شك بأنّه لا يوجد من عاملٍ أكثر تأثيرًا من الرفيق الصالح: «وَمِنْ خَيْرِ حَظِّ امْرِئٍ قَرِينٌ صَالِحٌ»[2]. فلو عرف الإنسان بوجود رفيقٍ صالح وأدركه، يجب عليه أن يسعى لمعاشرته والاستفادة من وجوده في حياته. بناءً عليه، إذا أردتم أن تكونوا من الصالحين فكونوا مع الصالحين، وإذا إردتم أن لا تكونوا من الأشرار فاجتنبوهم! فإنّكم إن عاشرتم وصاحبتم الصالحين ستكونون منهم كما جاء في الحديث «قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُم»[3]، فذلك لأنّ عشرة أمثال هؤلاء تسوق الإنسان نحو الفضائل والحسنات، كما أنّ معاشرة السيّئين تصبغ الإنسان بصبغة السوء في النهاية. فلذلك لا بدّ للإنسان أن يجتنب معاشرة الأشرار إذا لم يرد أن يكون من الأشرار.

---

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي، **تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم**، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي (دار الحديث، الطبعة ١، لا تاريخ)، الصفحة ١٠٣، الحديث ٩٨١٦.

(٢) **تحف العقول**، مصدر سابق، الصفحة ٧٩.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٥٢.





طريق اختيار الصديق

يوجد في هذا المجال العديد من المسائل التي ينبغي التعرّض لها، لكنّنا نُشير إلى بعض هذه المسائل بحسب أهميّتها:

إنّ الحُسن والقبح مفهومان تشكيكيّان ولكلٍّ منهما مراتب عديدة، بناءً عليه، حين يُقال عاشروا الصالحين، فمن الممكن أن يكون المقصود على مستوى الأفق الرفيع هم المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ذلك لأنّ الحُسن المطلق يتجلّى في هؤلاء العظماء الذين طهّرهم الله من كلّ عيب. لكنّ المسافة التي تفصل بيننا وبينهم تبلغ آلاف الفراسخ، وحين ننظر إلى أي شخصٍ آخر فإنّه في النهاية سيكون متّصفًا بنقصٍ أو ضعف ما، فهل ينبغي أن نجتنب عشرة هذا الشخص لمجرّد وجود نقطة ضعفٍ فيه، ونسعى نحو ذلك الشخص الكامل الذي لا يوجد فيه أي عيب أو نقطة ضعف ويكون مثاليًا بالمطلق، بحيث إنّه إذا لم نصل إلى مثل هذا الشخص نجتنب أي نوع من الصحبة والرفقة؟ أو حين يُقال لا تصاحبوا الأشرار، فهل إنّ المقصود من هذا الكلام ذاك الذي يواظب على فعل الشرّ؟

إنّ المرتبة الأعلى للخير متحقّقة في الأولياء والمعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هؤلاء الذين وللأسف الشديد قصُرت أيدينا عن الوصول إليهم وحُرمنا من توفيق لقائهم ومجالستهم، فما بالك بمعاشرتهم والاستفادة من خدمتهم ومحضرهم، ولكن حيث إنّنا اليوم لا نستطيع أن نصل إلى المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ فما الذي ينبغي أن نقوم به؟ من الطبيعيّ أنّ الحُسن والقبح مفهومان نسبيّان، أي إنّ للحُسن مراتب ودرجات وكذلك للقبح والسوء. فمن الممكن أن يكون هناك في مدينةٍ ما شخصٌ معروفٌ ومشهور هو أفضل من غيره، فلو أراد الجميع أن يعرفوه ويعاشروه لما كان ذلك ممكنًا. فما أكثر ما يحدث أن تعرفوا في مدينتكم أشخاصًا من الأخيار وتتمنّون معاشرتهم، لكنّ هذا الأمر يكون غير ممكن وغير ميسّر. فحين يُقال عاشروا الصالحين وجالسوهم فما هو المقصود منهم؟

فإذا كان المقصود هو أن نختار المعصوم أو من هو قريبٌ منه، فإنّ مثل هذه العشرة لن تتحقّق. فالوصول إلى المعصوم بعيدٌ جدًّا وإدراك شخص غير معصوم يتمتّع بتلك الصفات هو أيضًا نادرًا ما يتحقّق على مستوى العشرة، ففي هذه الحالة يبقى الإنسان وحيدًا ولا ينبغي له أن يعاشر أحدًا؛ أي إنّه رغم اعتبار العشرة



أمرًا ضروريًّا، ولكن بما أنّ إيجاد مثل هذا الشخص المناسب هو أمرٌ صعب، فإنّ باب العشرة سيكون من الناحية العملية مغلقًا. فما هو المقصود عندئذٍ من الدعوة إلى عشرة الصالحين؟ من الطبيعي أنّ المقصود هو اختيار الأفضل من بين أولئك الذين تتيسّر عِشرتهم. ولكن ما هو معيار اختيار الأفضل؟ لقد قلنا سابقًا إنّ معيار القرين الصالح هو أن يقرّبنا من الله، وكذلك تلك الخصائص والمؤشّرات التي ذُكرت في حديث النبيّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

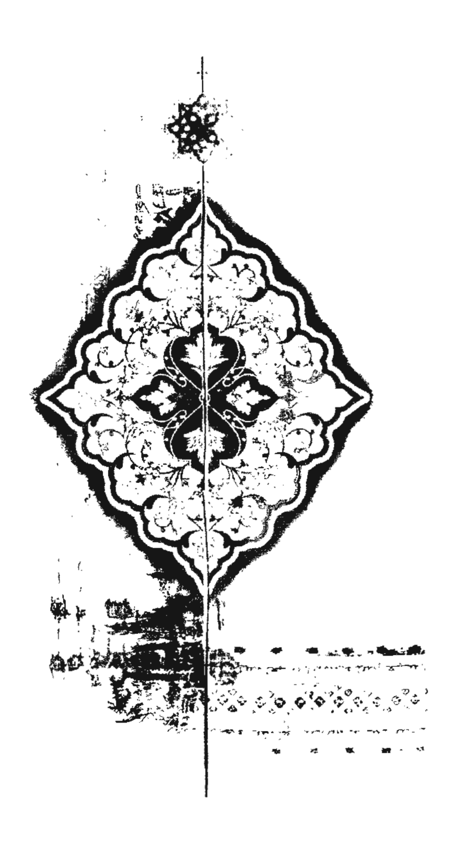
الأمر الآخر الذي ينبغي أن نهتمّ به هو كيفيّة معاشرتنا للصالحين وكيفيّة اختيارهم كجُلساء، فما هو الطريق الذي نفتح بواسطته باب العشرة؟ وما هو مقدار حدّ هذه العشرة؟ ومن الطبيعي أنّه في كل فئة يوجد شخصٌ صالح، ومن هنا فإنّ كيفية التواصل والارتباط بالصالحين في كل فئةٍ أو شريحة سيتناسب مع تلك الفئة ويندرج ضمن مسؤولياتها ونشاطاتها، أي إنّ الارتباط بأمثال هؤلاء سيكون ممكنًا بواسطة هذا المسار الخاص المتناسب معها. فأحيانًا يكون الفرد الصالح بين فئة العلماء والمعلّمين، وأحيانًا يكون بين التجّار والكسبة. على أيّ حال، فإنّ الشخص الصالح موجودٌ بين جميع الفئات والشرائح الاجتماعية، وللارتباط به هناك مسارٌ متعارف ويجب أن نسعى أن نلفت نظر مثل هذا الإنسان بواسطة الطريق التجاري أو التعليميّ أو غيرهما. كما يجب علينا أن نُظهر لأهل الخير رغبتنا وإرادتنا الحقيقية ونيّتنا الطاهرة وتعطّشنا النابع من اعتقادنا بضرورة تحسين وتطوير شخصيّتنا بما يتلازم مع خلوص النيّة على طريق اكتساب الفضائل، من أجل أن يتقبّلنا هؤلاء في محضرهم ويقبلوننا كأصدقاء ورفقاء، يجب أن تكون نيّتنا الحقيقيّة أن نستفيد من وجود هؤلاء ومكارم أخلاقهم على أحسن وجه؛ وبعدها وفي مقام الإثبات، يجب أن نتصرّف ونتعامل معهم بطريقة يعرفون فيها أنّه لا يوجد أغراض وأمراض فينا، وإنّما لا يهمّنا سوى إصلاح أنفسنا وأنّنا نريد الاستفادة من عشرتهم.

ولأنّ واقع أهل الخير يحكي عن رغبتهم بجذب أصحاب الدوافع السليمة، يجب أن نعرّفهم إلينا، ونُظهر لهم من الناحية العملية أنّنا طالبون للخير والسعادة، وأنّنا لسنا بصدد مضايقتهم وإزعاجهم، ونحن لا نريد أن نضيّع أوقاتهم وجهودهم؛ كلّ ذلك من أجل أن يقبلوا صحبتنا ويفيضوا علينا من نعمة صداقتهم ومجالستهم. ومن الجدير أن ندعو ونتوسّل في محضر أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إذا أردنا أن نهتدي إلى الشخص الصالح الذي نحن بصدد معاشرته والاستفادة من محضره، وعلينا



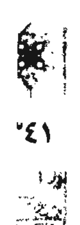
أن نسال الله المنّان لكي يعطف قلبه علينا، ويهيئ لنا تلك الظروف المناسبة لكي نتمكّن من الاستفادة من وجوده بأقصى حدّ، وبعدها إذا حصل التعارف والتواصل فلا ينبغي أن نضيع حقوقه. وسوف نتحدث عن هذه الحقوق في تتمّة الحديث عن هذه الوصية إن شاء الله.





الدرس الخامس والعشرون
آفة الروابط الاجتماعيّة

- مفهوم سوء الظّن
- مفهوم النهي عن الحالات النفسيّة
- الحدّ بين حسن الظّن وسوء الظّن
- ضرورة إحراز الأهليّة
- آفة الصداقة



«لا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ سُوءُ الظَّنِّ فَإِنَّهُ لا يَدَعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَدِيقٍ صلْحًا»[١].

يبيّن الإمام عليعَلَيهِالسَّلَامُ في هذا القسم من وصيته نقاطًا عديدة في قالب جملٍ مختصرة وكلماتٍ قصار. وتتضمّن هذه الجمل القصيرة معانٍ رفيعة، فما دام العالم عالمٌ، والإنسان إنسانٌ، فإنّها ستسطع على آفاق المعارف البشرية، وتشقّ الطريق الصحيح لمنهاج الحياة الإنسانية، والآن يصل الدور إلينا للتمسك والالتزام بها في الفكر والعمل والسعي الحثيث للدفاع عن هذه الوصايا الإلهية فكريًّا وعمليًا.

في هذا المقطع من كلام الإمامعَلَيهِالسَّلَامُ، يحذّرنا من إحدى آفات العشرة وهي آفة سوء الظنّ، بعد تعريفنا عليها وعلى آثارها السيّئة والمذمومة، ولعلّه يمكن القول إنّ سوء الظن هو أخطر آفات الصداقة، والجيرة، والأخوّة، والتعاون، وأيّ شكلٍ من أشكال العشرة. فلو تسللّ سوء الظن إلى المجتمع، فإنّه سوف يهدم أركانه ويُحرق جذوره، ولا شكّ بأنّ مواجهة مثل هذه الآفات داخل متن المجتمع تُعدّ من أكثر الأعمال الضروريّة التي ينبغي أن يتطلّع بها أبناء المجتمع ويتحمّلوا مسؤوليّتها من أجل أن يصونوا أنفسهم ويصونوا مجتمعهم.

مفهوم سوء الظّن

يقول الإمام في هذا المقطع من وصيّته النفيسة: «**لا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ سُوءُ الظَّن**». في

---

(١) في بعض النسخ استُخدام بدل كلمة «صلحًا»، كلمة «صفحًا».

البداية، يجب أن نتعرّف إلى المقصود من هذه العبارة، وهنا يرد احتمالان في تفسيرها:



١. إنّ مثل هذه العبارات تُستعمل عادةً في المكان التي تكون الصفة بالنسبة لأي فردٍ كصفةٍ ثابتة وراسخة حيث يُعبّر عنها بحسب المصطلح بالملكة، فحين يقول العرب: «غَلَبَ عَلَيْهِ الكَرَم» و«غَلَبَ عَلَيْهِ الجُود» و«غَلَبَ عَلَيْهِ الشُحّ والبُخل»، فهم يعنون أنّ الجود والكرم أو البخل واللؤم أصبح صفة وخاصيةً ثابتةً له. فغلب عليه كذا يعني أنّ الصفة الفلانية قد ثبتت له كصفةٍ راسخة، ولو كان معنى هذه العبارة هو هذا الأمر فيكون المقصود من كلام الإمام عليه السلام، لا تكن من أهل سوء الظن ولا تُسيئ الظّن بأي أحد أو أي شيء. فاحذر من أن يصبح سوء الظن نفسيّةً غالبةً عليك وخاصيةً راسخةً فيك.

٢. الاحتمال الآخر والذي يرد في تفسير هذه الجملة هو أنّ الإمام علي عليه السلام يمنعنا من ترتيب الأثر على سوء الظن، بمعنى أنّه قد يحصل للإنسان في بعض الأحيان سوء ظّنٍ تجاه شيء ما، أو شخص ما، لكنّه في مجال العمل لا يرتّب على هذا الظنّ السيّئ أي أثر، أي إنّ قلبه أو فكره يعيش حالة سوء الظن لكنّه مع ذلك لا يرتّب عليه أي أثر. ولكنه أحيانًا قد يصل تأثير سوء الظن في هذا الإنسان بحيث لا يمكنه أن يحول دون نفوذه وعواقبه السلبيّة، ومنها ردّة الفعل، بل إنّ هذا الأثر السلبيّ للظن السيئ قد يظهر في وجهه وحركاته وسكناته وكل أفعاله وتصرّفاته، وحتى إنّه يشمل أحكامه وحساباته. ولا شكّ بأن مثل هذا الإنسان يكون قد وقع تحت سوء الظن وغلب عليه، ووفق هذا الاحتمال فإنّ معنى كلام الإمام عليه السلام هو أنّه لو عرض عليك سوء الظن فلا ترتّب عليه أي أثر، ولا تجعل نفسك مغلوبةً لسوء ظنك بل تغلّب عليه لئلا يُصبح سوء الظّن الذهنيّ هذا مؤثرًا في جميع أعمالك وتصرّفاتك. فيمكن لهذين التفسيرين أن يردا على هذه الجملة فنأخذهما بعين الاعتبار. لكن بحسب الدارج في اللغة العربيّة فإنّ هذا التعبير يميل إلى التفسير الأوّل، ويُقصد به أنّ على الإنسان أن يجتنب سوء الظن الذي يتحوّل إلى صفةٍ نفسية وسلوكية وصفةٍ راسخةٍ فيه.

بناءً عليه، من بين التفسيرين المعروضين لهذه الجملة الشّريفة «**لا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ سُوءُ الظن**»، فإنّ المفهوم الأصحّ هو أن نقول: احذر من أن يغلب عليك



سوء الظن فيصبح صفةً ثابتة فيك، وتصبح سيئ الظن تجاه الجميع، وبالطبع إنّ هذا التفسير يصبح أنسب مع ما ورد في ذيل هذه الجملة حيث قال: «**فَإِنَّـهُ لا يَـدَعُ بَيْنَـكَ وَبَيْـنَ صَديـقٍ صَفْحًـا**»، فلو غلب عليك سوء الظن لما بقي بينك وبين أي صديق محلٌ للصفاء والحميمة، أو بحسب ما ورد في نسخة أخرى أنّه قال «صلحًا»، أي إنّه لا يبقي بينك وبين أحد مجالًا للصلح والسلام ويصبح ذلك سببًا لأن يتنازع الإنسان مع الجميع ويسيئ الظنّ بهم.

مفهوم النهي عن الحالات النفسيّة

يوجد أبحاثٌ أساسيّة كثيرة يمكن أن تُطرح تحت موضوع سوء الظن الوارد في الآيات والروايات، فقد عدّ القرآن الكريم سوء الظن أحد الصفات الأخلاقيّة المذمومة، ونهى عنه بشكلٍ صريح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1]. ففي هذه الآية المباركة، ذُكر سوء الظن تحت عنوان الإثم والمعصية الكبيرة، كما أنّه يوجد الكثير من الروايات التي تطرّقت إلى هذه القضيّة وأشارت ضمنًا إلى إنّ سوء الظن يُعتبر من المعاصي[2].

بناءً عليه، لا يبقى مجال للشكّ بأنّ سوء الظن هو من الصفات المذمومة وبأنّ الإسلام لا يمكن أن يتقبّل مثل هذه الحالة النفسيّة والصفة الأخلاقيّة. ولكن قد تبرز في هذه القضيّة بعض الأسئلة والتوهّمات مثلًا: قد يُتوهّم أنّ الحالات والصفات النفسيّة مثل الظن أو الوهم والشكّ وحتى اليقين، هي حالات نفسيّة، وأنّ هذه الحالات النفسيّة لا تكون بيد الإنسان واختياره حتى تقع مورد الأمر والنهي، فكيف يمكن أن يُنهى الإنسان عمّا لا يقع تحت اختياره؟! وبعبارةٍ أخرى، إنّ هذه الأمور هي حالة نفسيّة تظهر تلقائيًّا في بعض الظروف الخاصّة، أي إذا وُجدت أرضيّة اليقين وتوفّرت، فسوف يحصل لهذا الإنسان اليقين، ولا يمكنه أن لا يشعر به. وحين لا تكون هذه الفرصة أو الأرضيّة المناسبة لبروز اليقين متوفّرةً، فسوف يبرز الشكّ تلقائيًّا، ولا يمكن لهذا الإنسان حينها أن يُزيل شكّه أو أن لا يشكّ، ففي

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٢.

(٢) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، مادة الظن.

مورد الظنّ سواء كان حسنًا أو سيّئًا يكون الوضع على هذا المنوال؛ أي إنّ هناك مجموعة من العوامل التي تُعرض على الإنسان وتؤدّي إلى بروز الظن في نفسه، وحين توجد مثل هذه العوامل والمقدّمات، فمثل هذه الحالة النفسيّة ستعرض على الإنسان تلقائيًا ولا تكون تحت اختياره حتي يصحّ أن يُقال له عندئذٍ إنّ عليك أن تحسن الظن أو لا. فإذا توفّرت أسباب ووسائل الظنّ وأرضيّته سيحصل الظن سواء كان ظنًّا حسنًا أو سيئًا فلا فرق هنا، وهنا يُقال كيف يمكن أن نُؤمر بحسن الظن أو نُنهى عن سوء الظن في حين أنّ كلًّا من سوء الظن وحسنه ليسا باختيارنا، والتكليف بما هو خارجٌ عن القدرة والاختيار لا مورد له؟!

لقد قُدّمت أجوبة متعدّدة ومختلفة حول هذه الأسئلة، ومنها ما يمكن أن يُقال في الجواب: صحيحٌ أنّه إذا توفّرت أرضيّة مثل هذه الحالات النفسيّة، كالظنّ والشك والوهم، فإنّ هذه الحالات ستبرز تلقائيًا ولا يكون الإنسان حينها في حال اختيار، لكنّ الإنسان يقدم على تحقيق مقدّمات هذه الحالات باختياره ويمكنه التصرّف بها. وبعبارةٍ أخرى، لأنّ مقدمات هذه الأحوال والاحتمالات بيد الإنسان نفسه، يمكن أن يُقال إنّ هذه الحالات هي أمور اختيارية، وعليه يمكن أن نُكلّف بها. فعلى سبيل المثال، من المقدّمات المؤثّرة هو تلقين النفس. ففي العديد من الموارد، قد يكون الأمر في البداية مجرّد احتمال ذهنيّ يطرأ على بال الإنسان ويشغله، وربما يكون احتمالًا ضعيفًا جدًا، إلّا أنّ هذا الإنسان يقوم بتضخيمه في ذهنه ويلقّنه لنفسه، فيقوى هذا الاحتمال ويكبر إلى أن يتحوّل إلى ظنّ. وفي بعض الأحيان، قد يظهر له في حالةٍ من الجزم والقطع، وفي أحيانٍ أخرى قد يكون احتمال الإنسان قويًّا تجاه أمرٍ ما، لكنّه يشكّك به في ذهنه ويُسقطه من قوّته واستحكامه، كأن يقول مثلًا في نفسه: من الذي قال إنّ الأمر هو على هذا النحو؟ فلعلّه ليس كذلك وأنا مخطئ وغيرها من الأسئلة.

وبهذا النحو، يُضعف تلك الحالة النفسانيّة القويّة حتى يقضي عليها ويزيلها من ذهنه. بناءً عليه، إنّ وجود الظن والشكّ، وإن لم يكن بيد الإنسان تمامًا، لكنّه يصبح في اختيار الإنسان وتحت إرادته عن طريق مقدّماته. ويمكن لهذا الإنسان أن يُعمل اختياره وإرادته في مثل هذه الحالات بحيث يُوجد تلك الأحوال أو يُزيلها؛ فمن هذه الجهة، يمكن أن تُجعل محلًا للتكليف والأمر والنهي.

فعلى سبيل المثال، إذا قيل إيّاكم والظن، يكون المقصود عليكم أن تسعوا لمنع توفّر تلك الأسباب والعوامل في أذهانكم، التي تؤدي إلى بروز حالة الظن فيكم، وعليكم أن لا تسمحوا أبدًا في حالات بروز وظهور حالات الظنّ والتشكيك. قد نرى شخصًا أحيانًا في ظلمة الليل وهو يحمل شيئًا على كتفه، وهو يمرّ عبر الزقاق ويسير بهدوء، فقد يتبادر إلى أذهاننا في البداية أنّه لصّ، كونه يضع على عاتقه هذه الأشياء المسروقة مستغلًا ظلمة الليل الحالك ويمشي بتؤدة كي لا يلتفت إليه أحد، فمثل هذه الصور الذهنيّة تعرض في البداية على ذهن الإنسان، لكنّه بعد هذه الحالة الأوليّة قد يتعامل معها بحالتين: الأولى هي أن يشكك في هذه الصور الخياليّة الأوليّة ويضعفها فيقول في نفسه مثلًا، من أين، وكيف يمكن القول إنّ هذا الشخص لص؟! فلعلّه يضع الطعام واللباس على عاتقه ويحمله إلى بيوت المساكين والفقراء، وهو يمشي بهذه الطريقة لكي لا يتعرّف إليه أحد أو يعرف ما يقوم به. والاحتمال الثاني هو أن يقوم بتقوية تلك الحالة الذهنيّة الأوليّة ويقول في نفسه: عجيبٌ أنّه يمشي بهدوءٍ وروية كي لا يلتفت إليه أحد! وهذا يعني أنّه ولا شك سارقٌ ولص، فبهذا الشكل وبمعونة هذه المقدّمات يمكن أن يبرز سوء الظن أو حسنه.

فإذا قيل: لا تُسيئوا الظن فالمقصود هو أن لا تسمحوا منذ البداية لأي مجالٍ أو أرضيةٍ ومقدمة لمثل هذا الظن، وعليكم من خلال تلك التشكيكات التي تُعملونها في أذهانكم أن تقضوا على أي أرضيةٍ تؤدّي إلى بروز مثل ذلك الظن. والنقطة التي يجب الالتفات إليها ها هنا، هي أنّه كيف نتعامل مع مثل هذه الصور الذهنية الأولية بحيث تنتهي إلى الظن الحسن. وهذا المطلب قد فصّل وأبدع بصورةٍ جميلةٍ في روايات الأعاظم وكلماتهم ونحن سوف نتطرّق إليه في المستقبل.

الجواب الآخر الذي طُرح في الردّ على مثل هذا الإشكال أو التوهّم، هو على هذا النحو: إن كان نشوء الظن هو أمر غير اختياريّ، لكنّ إبقاءه في الإجمال أمرٌ اختياريّ ويمكن للإنسان أن يكون مؤثّرًا في بقائه أو زواله، أي يستطيع أن يمنع من بروزه وظهوره من خلال القضاء على أرضيّته ومقدّمات نشوئه، وكذلك يمكنه فيما لو نشأ سوء الظن في نفسه أن ينهض لمواجهته بمثل هذه التلقينات والأفكار، ويعمل على منع استمراره وبقائه فيقضي على سوء الظن الذي نشأ.

وقد أورد بعض الأعاظم والمفسّرين شروحات أخرى في الإجابة عن هذا الإشكال، ففي تفسير الميزان الشريف، الذي يُعدّ تفسيرًا لا بديل له، يشير إلى أنّ سوء الظن بذاته لا يقع مورد التكليف من حيث هو أحد الأحوال النفسية، فإذا تمّ النهي عن سوء الظن وكان مورد الحكم والتكليف، فالمقصود بذلك هو اجتناب سوء الظن في مجال العمل وترتيب الأثر، فقوله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾[1] يعني أن لا تجعلوا الظنون السيّئة منشأً للآثار والأفعال وعليكم أن لا تعملوا طبقها، ولا تسمحوا لها بأن تكون مؤثّرةً في أعمالكم. من الممكن أن يكون في قلوبكم ظنٌّ سيّئ ولكنّه ليس محلًا للتكليف. فإنّ الأحوال القلبيّة والنفسيّة لا تقع تحت عنوان التكليف، لأنّ التكليف مرتبطٌ بالأعمال. فلو أنّ ظنًا سيّئًا وصل إلى حدّ الحرمة أو الكراهة، فإنّ ترتيب الأثر عليه يكون حرامًا ومذمومًا.

وعلى أيّ حال، فإنّ ما يمكن أن يُقدَّم من أجوبةٍ على إشكالية خروج سوء الظن عن الاختيار وكونه أمرًا تلقائيًا، هي عبارةٌ عن أن نسعى في البداية لمنع تشكّل أرضيته ومنشئه، وفي الخطوة الثانية نسعى بواسطة التلقين واستعراض الأفكار المخالفة والعوامل الأخرى لإضعاف سوء الظن في ذهننا، وذلك من أجل أن لا يبقى هذا الظن في قلوبنا، وفي النهاية نتصرّف بطريقةٍ لا ترتّب أي أثر على ظنوننا السيئة من الناحية العمليّة.

الحدّ بين حسن الظن وسوء الظن

بالإضافة إلى السؤال والإشكال السابق، تُطرح قضيّة أهمّ فيما يتعلّق بسوء الظن على نحو الخصوص، وهذه المسألة المهمة هي أنّه لو أراد إنسانٌ أن لا يعمل دائمًا بظنونه السيّئة تجاه الأشخاص الآخرين أو أن يحمل تصرّفاتهم على الصحّة، مخالفًا بذلك ظنّه فيقوم بتبريرها وتفسيرها تفسيرًا إيجابيًّا ويتصرّف على أساس ذلك، فإنّه سوف يتضرّر في قضاياه الشخصيّة وفي أموره الاجتماعيّة. افرضوا أنّكم تريدون أن تُصادقوا شخصًا فلو أنّه تقرر أن تعرضوا عليه صداقتكم بمجرّد أن تروه يصلّي ويصوم ويعمل العمل الخيريّ الفلانيّ وغير ذلك، فتكتفون بمثل هذه الأعمال الحسنة التي يؤدّيها،

---

(١) راجع: محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن** (قم: مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليان، الطبعة ٢، ١٩٧٣ م)، الجزء ١٨، الصفحة ٣٢٢.



ولا تسمحوا لأي ظِن سيّئ أن ينشأ تجاهه، وتجعلوا صداقتكم له صداقةً حقيقيّة وتودعوه أموالكم وحيثيتكم، فلعلّكم تتضرّرون؛ وبعد مدّة يُعلم أنّه كان شخصًا غشاشًا ولم تكن صداقته وحميميّته لكم أمرًا واقعيًا، بل إنّه كان شخصًا فاسدًا بالكامل. والآن إذا أصابكم ذلك الضرر المادّيّ والمعنويّ الكبير جرّاء معاشرته، فمن هو الشخص الذي تلومونه غير أنفسكم؟! ألم يكن هذا الضرر الذي أصابكم سوى نتيجة الاعتماد على الأفكار السطحيّة وإزاحة الظن السيّئ من طريقكم؟

أو ذاك الذي يكون صاحب منصبٍ ومقام، فإنّه لو أراد أن يتصرّف مع الآخرين بحسن الظن فلا شك أنّ هذا الظن الحسن سيؤدّي إلى هزيمته وفشله، فما أكثر العاملين والأُجراء الذين يكون ظاهرهم سليمًا وصالحًا ويتمّ تشغيلهم، لكنّهم يخونون ربّ العمل أو المسؤول في ظلّ حُسن ظنّه ولا يفرّون من مسؤولية التقصير، فمن هو هذا الشخص أو العامل الذي أدّى إلى مثل هذه الخيانات والمخالفات سوى حُسن الظن وترك سوء الظن. على أيّ حال، لو أراد الإنسان أن يكون لديه حسن ظن ويعمل على أساس ظّنه، فإنّ هذا يؤدّي إلى خيانة المجتمع، فهو يُعيّن فلانًا في المنصب الفلانيّ ويودعه أموال الناس وأعراضهم فيخون هذه الأمانات. فمن المسلّم إنّ مثل هذه الجريمة ومسؤولية هذه الخسارة تقع على عاتق ذاك الذي استعمل هذا الشخص المجرم والسيّئ، فكيف يمكن للإنسان أن يحسن الظن بجميع الأشخاص، ويكون سلوكه مبنيًّا على حُسن الظن هذا. في حين أنّ حُسن الظن سيؤدّي إلى إيقاع الأضرار الفرديّة والاجتماعيّة ولن يكون عملًا عقلائيًا؟!

فلماذا تمّ التركيز على حُسن الظن على هذا النحو في الشريعة، بالرغم من مثل هذه التبعات السلبيّة، ولماذا تمّ حثّنا على أن نُحسن الظن تجاه الآخرين؟!

قبل بروز مثل هذا السؤال في أذهان الناس، فإنّ الائمّة الأطهار عليهم السلام قد التفتوا إلى مثل هذه الموارد في أحاديثهم ورواياتهم وأجابوا عنها، ففي كلام لأمير المؤمنين عليه السلام في **نهج البلاغة**: «إِذَا اسْتَوْلَى الصَّلاحُ عَلَى الزَّمانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُل لَهُ تَظْهَرْ مِنْهُ خَزْيَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ وَإِذا اسْتَوْلَى الفَسادُ عَلَى الزّمانِ وَأَهْلِهِ فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُل فَقَدْ غَرَّر»[1]، فلو كان في زمنٍ أو عصرٍ ما، حالُ

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٢٧، قصار الحكم.

أغلب الناس هو الصلاح، وكانت الأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع أو الزمان أشخاصًا طيّبين ففي مثل هذا الزمان لا يحقّ للإنسان أن يسيئ الظن بالأشخاص.

فلو ارتكب شخصٌ أو شخصان أو مجموعة قليلة من الناس معصيةٍ ما، لا ينبغي للإنسان أن يسيئ الظن بالآخرين، بل عليه أن يجتنب ذاك المكان الذي ظهر فيه هذا الفساد لأنّ الحاكم على الزّمان هو أجواء الصلاح والفضائل، وفي المقابل لو كان أكثر الناس في عصرٍ ما فاسدين أو كانت الأجواء والبيئة ملوّثة، فلا ينبغي حينها أن نُحسن الظن فلو فعلنا ذلك نكون قد خُدعنا... فإذا أُمرنا في الروايات الأخلاقية الكثيرة أن نُحسن الظن تجاه الجميع، فالمقصود هو ذلك المجتمع الذي تكون الأجواء الحاكمة عليه أجواء الصلاح والإصلاح، أي ذاك الزمان وتلك البيئة التي يكون أكثر الناس فيها صالحين، هناك ينبغي أن نكون ممّن يُحسن الظن. في المقابل، لو كان أكثر الناسِ فاسدين في زمانٍ أو بيئةٍ ما، فلا ينبغي أن نحسن الظن بل ينبغي أن نقدّم سوء الظن، اللهم إلاّ إذا وُجدت قرائن ومؤشّرات تُخالف ذلك. وبهذا البيان الوارد عن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، يتّضح القسم الأكبر من الأجوبة عن الأسئلة وترتفع الأوهام، والبعض الآخر من الأعاظم قالوا في مجال رفع هذا النوع من التوهّمات والإجابة عن الأسئلة: إنّ المقصود من حُسن الظن في الأمور هو أن نُحسن الظن تجاه أداء وظيفة وتكليف ذاك الشخص نفسه، أي إذا رأيتم سلوكًا بدر من شخصٍ ما، فقولوا إنّه قد قام به على نحوٍ صحيح وهو يعمل بتكليفه ووظيفته لأنّ إصدار الأحكام على أعمال الآخرين يمكن أن يكون بالحدّ الأدنى مبنيًّا على أساس زاويتين للنظر:

١ - أن ننظر من الناحية الشرعيّة والأخلاقيّة إلى عمله ونقبل به على أنّه صحيح؛ لأنّ العمل الصحيح قد كان هذا، ولو كان قد أخطأ فهو معذورٌ ولم يكن يدرك ذلك، وعلى أي حال لا ينبغي بسبب مثل هذه الأعمال التي صدرت منه أن نعتبره فاسقًا ومستحقًّا للتوبيخ والعقوبة. بناءً عليه، ما دام هناك مجالٌ للتبرير فيجب أن نُحسن الظن تجاه هذا الشخص في قلوبنا ونعتبر عمله صحيحًا، وإذا صدر منه خطأٌ ما، فعلينا أن نقول إنّه قد قام بالعمل على النحو الصحيح، وأنا الذي أخطأت. وإذا تيقنّا أنّه قد ارتكب هذا الفعل المخالف فلنقل إنّه لم يكن عامدًا متعمدًا.



وقد نُقل الكثير من الروايات في هذا المجال عن الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فعلى سبيل المثال، لقد تمّت الإشارة إلى مثل هذه الروايات في كتاب **وسائل الشيعة**[١]، وفي الكتب الأصولية في باب **أصالة الصحة**. والمضمون الكلّيّ لهذا الأصل، هو أنّه إذا شاهدنا عملًا يصدر من أخٍ مسلم فعلينا أن نفسّره على أحسن وجهٍ.

وقد ورد في بعض الروايات أنّه لو تكلّم شخصٌ بالسوء حول شخص آخر عندكم، بل حتى لو جاء بخمسين بيّنة وشاهد على أنّه قد ارتكب تلك المعصية الفلانيّة، لكنّه أنكر ذلك وقال إنّني لم أفعل ذلك فصدّقوه وقولوا له معك حقّ، فاقبلوا كلامه، وألقوا بتلك الشهادات. فماذا يعني مثل هذا التعامل؟ فهل المقصود أن نقول إنّ هؤلاء الشهود المئة يكذبون وإنّ هذا الشخص صادق؟ ألا يُعدّ اتّهام هؤلاء بالكذب معصيةً بحدّ ذاته؟ فهل يحقّ للإنسان أن يقول لشخصٍ ما إنّك تكذب؟ وهل إنّ المقصود عند التردّد والشك في اعتبار شخصٍ فاسقٍ، أن لا نجعل الكمية مِلاكًا؟ وفي الجواب وفي البيان المفهوم من هذه الروايات ينبغي القول إنّ معنى «صدّقه وكذّبهم» هو أن تتصرّفوا بنحوٍ عمليٍّ على أنّكم صدّقتم هذا الفرد وكذّبتم هؤلاء المئة، فلا يمكن أن يكون المقصود أن تقولوا لهؤلاء إنّكم تكذبون، لأنّ هذا التصرّف لا شك أنّه مرفوضٌ من الناحية الأخلاقية ويُعدّ معصيةً من الناحية الشرعيّة. فالمقصود إذًا من التصديق والتكذيب هو التصديق والتكذيب العمليّ، أي إنّ سلوكك يكون بأن تتصرّف وكأنّ ذاك الشخص لم يقم بهذا العمل، فحين تصدّقه في العمل ولا ترتّب أثرًا على شهادتهم، فكأنّك كذّبت الشاهدين وليس من الواجب أن ترتّب الأثر على كل ما يقولونه. فالمقصود من حسن الظنّ وسوء الظنّ في هذا المقام هو أنّك في العمل لا تتصرّف بما يقتضيه سوء ظنّك معه، ولكن ليس من الضروريّ أن تعمل على أساس حسن ظنّك، بل ينبغي أن يبقى حسن الظنّ في ذهنك لكن ليس من الضروريّ من الناحية العمليّة أن تتصرّف على أساس حسن ظنّك.

وهذا التفسير يتطابق مع ذاك الذي ذكره العلّامة في تفسير الميزان. يقول

---

(١) راجع: الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة** (لبنان - بيروت: دار إحياء التراث العربي)، الجزء ٨، الصفحة ٦١٤.

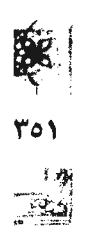
حضرة العلامة الطبطبائي رحمه الله في ذيل الآية المباركة: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾[1]: اجتنبوا في العمل لا أن تبدّلوا تلك الاحتمالات الذهنيّة التي لا تكون باختياركم؛ أي إنّها تكون قهريةً فالاحتمالات الذهنيّة متعدّدة وأحدها الظنّ. وعلى أيّ حال، فإنّ كل ما لا يكون باختيارنا لا يقع موردًا للتكليف.

٢ - النوع الآخر من الحكم هو أن نتعامل معه ونتصرّف على أساس حسن الظنّ هذا. وبشأن هذه الفرضية يجب أن نقول إنّ هذا الحكم ليس عقلانيًا كفاية ولا يمكن هنا الاستناد إلى القول: «فصدّقه وكذّبهم»، فنعدّه شخصًا صالحًا مقابل ما شهدت به تلك الجماعة من معصيته، فندخل بعدها بالتعامل معه ونقول: لأنّه قال إنّني لم ارتكب معصيةً فنحن نصدّقه ونضع عنده أموالنا وأعراضنا. وفي الواقع، إنّ هذا الحكم هو حكمٌ عمليّ على أساس حسن الظنّ، إلّا أنّ الحكم في النوع الأوّل هو حكمٌ فكريّ وذهنيّ على أساس حسن الظنّ وإن لم نعمل على أساس سوء الظنّ أيضًا. فلا يوجد عندنا أي رواية أو دليل يقولان لنا في مقام الحكم العمليّ: «صدّقه وكذّبهم»، أي على رغم تكذيب الآخرين له والطعن في أمانته عليكم أن تعقدوا معه عقد الأخوّة والتعاون وتبرزوا حسن ظنّكم تجاهه عمليًا.

فلو وُجدت مثل تلك الأدلّة والشواهد التي شهدت على معصيته ومخالفته فعلينا أن نقول أيضًا إن شاء الله هو شخصٌ جيّدٌ وصالحٌ ونكتفي بتصديق ما أعلنه ونقوم بإجراء المعاملات والتعاون والصداقة وغيرها من المعاملات معه فنخدع أنفسنا. فحتى لو كان لدينا مثل هذا التكليف، الذي ينبغي أن نقوم به، فإنّه لا يوجد مجالٌ للثقة هنا. فلو كنّا مكلّفين من الناحية الشرعيّة أن نؤدّي هذا العمل، فليس من الضروريّ أبدًا أن نطمئن لهذا الشخص المشبوه من الناحية العمليّة، مع وجود كل هذه القرائن على عدم إمكانية الثقة به والاعتماد عليه.

بالطبع، ينبغي أن نعتبره شخصًا صالحًا ومؤمنًا في أعماق قلوبنا وأذهاننا ونقول قد أخطأ الآخرون بحقّه، فلا يكون في قلوبنا أي نوعٍ من الكدورة والضغينة تجاهه. لكن لا ينبغي أبدًا الاعتماد عليه في الأعمال، فنخدع أنفسنا؛ خصوصًا إذا أردنا أن نوكل إليه منصبًا حكوميًا أو نأمنه على أموال الآخرين وحقوقهم فيتصرّف

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٢.



على أساس ذلك في أعراض الناس وأموالهم. لا شك أنّنا إذا أعطيناه مثل ذاك المنصب، بالرغم من وجود كل هذه الأدلّة والشواهد على عدم نزاهته ثمّ ارتكب المخالفات، فإنّنا سنكون شركاء في جرمه. ففي مثل هذه الموارد المهمّة، يجب أن ندقّق أكثر ونتفحّص حتى نطمئن أنّ هذا الشخص شخصٌ صالح، وإن كنّا في قلوبنا نحسن الظنّ به ونعتقد أنّه شخصٌ جيّد (حسن الظنّ العمليّ)، لكن علينا حتمًا أن نحقّق لكي نطمئن من عدم وجود فسادٍ فيه.

بناءً عليه، حين يُراد تنصيب شخصٍ ما في مقامٍ معيّن، فإنّ حسن الظن وأصالة الصحّة لا تكفيان، بل يجب التحقيق مهما أمكنً لكي نطمئن لعدم وجود خيانة في البين، وألّا يكون هناك أي مؤامرة محتملة تجاه أموال المسلمين وأعراضهم. لا يوجد في مقام العمل أيّ تكليفٍ علينا يقول لنا إنّ علينا أن نُحسن الظن بجميع الناس ونُؤيّدهم ونُزكّيهم، وأن نقول بأنّهم صالحون؛ أو إذا سُئلنا حول أي شخص نقول أشهد أنّه شخصٌ عادل. لماذا؟ لمجرّد أن قال إنّني لم أعصِ، فعليّ أن أصدّقه لأنّهم قالوا: «فصدّقه!!» لا يحقّ لنا أبدًا أن نشهد بحسن شخصٍ وصلاحه استنادًا إلى ما قاله، لأنّ شهادتنا ينبغي أن تقوم على أساس المبادئ الحسّيّة. فيجب علينا أن نعاشره ونتواصل معه مباشرةً ونشاهد عدالته وتقواه ورعايته للحلال والحرام في العمل لكي نتمكّن من الشهادة على صلاحه. الاستناد إلى «أصالة الصحّة» لا يكون مجوّزًا للشهادة مثلما أنّ أصالة الصحّة لا تجوّز لنا إيداع حقوق الآخرين عنده. فمن الناحية العقليّة، لا يُعدّ هذا العمل صحيحًا، أن يقوم الإنسان بإيداع أمواله عند مثل هذا الشخص وإن لم يكن ذلك حرامًا، ولكن لأنّكم تعلمون بوجود احتمالٍ على خيانته، فإنّكم إذا وضعتم أموالكم وأعراضكم عنده مع هذا الوصف، فإنّكم تكونون قد خدعتم أنفسكم. بناءً عليه، إنّ العمل بـ «أصالة الصحّة» يكون فقط حين يكون أكثر أهل الزمان صالحين أو حين نعيش في بيئةٍ يكون أكثر أهلها صالحين.

ضرورة إحراز الأهليّة

حتى الآن نكون قد شرحنا الأبعاد المختلفة والعديدة للمعارف الإلهيّة بشأن سوء الظنّ وحسنه، لكن بعض الزوايا المبهمة فيها تتطلّب مزيدًا من التفسير والتوضيح

وهنا سنتعرّص إلى تلك الأبعاد.



هل المقصود حقًّا من حسن الظنّ في العمل هو أن نقبل في الواقع كلام الشخص، الذي هو مورد النظر، في العمل ونتعامل معه كما نتعامل مع الأشخاص العاديّين الذين لم نحكم بشأنهم أبدًا؟ مثلًا حين نعتبر شخصًا بأنّه صالحٌ رغم شهادة خمسين شخصٍ على مخالفته وعصيانه ونحسن الظنّ به في قلوبنا وأذهاننا ونصدّق كلامه حين يقول: إنّني لم أرتكب ذلك العمل الفلاني (المعصية)، فهل نتصرّف عمليًا معه على أنّه يقول الصدق؟ وهل يمكننا بعد هذا التصديق الذهنيّ وحسن الظنّ القلبيّ الذي هو مفاد الروايات، أن نثق به في العمل ونودعه تلك المسؤوليات السياسيّة والماليّة وغيرها من المسؤوليّات الخطيرة؟ فهل إذا كان هناك مجموعة من الأشخاص يقولون إنّ فلانًا قد ارتكب المعصية، فهل نصدّقه لأنّه يقول إنّني لم أفعل ذلك ونضعه في تلك المناصب الخطيرة؟ وهل إنّ هذا التصديق العمليّ يعني أن نكون مرتاحين تجاه هذا الشخص ونعتمد عليه اعتمادًا كاملًا، ثمّ نوكل إليه تلك المسؤوليّة الشرعيّة أو نضع في يده أموال الناس وأعراضهم؟ فهل يمكننا أن نضعه في مسؤولية القضاء أو ممثّليّة الوليّ الفقيه أو غيرها من المناصب الخطرة والمهمّة؟ وهل المقصود من هذه المجموعة من الروايات التي تقول: إنّ عليكم أن تحسنوا الظنّ بمثل هذا الإنسان في مقام العمل، هو أن نتصرّف مع مثل هؤلاء الأشخاص على أساس أنّهم يتمتّعون بـ«سلامة الفطرة» وأنّهم «مسلّمو الطهارة»؟ هنا، ينبغي أن نبيّن هذه القضيّة التي هي مورد ابتلاء إلى حدٍّ ما، لكي لا نُبتلى بالانحراف في مجال العمل، وأيضًا في مجال النظريّة والفكر، لكي لا نُخطئ في فهم هذا النوع من الروايات.

كما مرّ سابقًا، إنّ المقصود من الروايات المذكورة هنا هو أن يكون لدينا قضاءٌ وحكمٌ جيّدٌ في أذهاننا تجاه هذا الشخص، خصوصًا إذا كان هناك عددٌ كبيرٌ يطعنون به في مثل هذا المورد أو حتى يشهدون أنّه ارتكب المعصية فلا ينبغي أن يتكدّر القلب بشأن هذا الشّخص ويحكم عليه بالسّوء، بل ينبغي أن نقول: إن شاء الله لم يخطئ. بالطبع، هذا في حال كان معروفًا في السابق كشخصٍ صالحٍ وجيّد. ولكن إذا لم نكن نعرفه، ومن جانبٍ آخر رأينا مجموعةً يقولون عنه إنّه قد ارتكب المعصية الفلانية، فها هنا لا يصحّ بعدها أن نُعارض شهادة هذه الجماعة ونصدّق مثل هذا الشخص في مقام العمل، خصوصًا حين تكون هذه الجماعة من الشهداء



العُدول.

هناك إذًا، نوعٌ من الأحكام والقضاء بشأن هذا الشخص الذي نقوم بفحص سلوكه في أذهاننا، فهل هو في الواقع قد ارتكب مثل هذا السلوك الخاطئ أم لا؟ وإذا صدر مثل هذا العمل منه هل كان عن خطإٍ واشتباه أو عن علم وعمد؟ هنا، يمكننا في الكثير من الموارد أن نلّقن أنفسنا ونصدّق في أعماقنا أنّه من الممكن أنّ هذا العمل الخاطئ لم يصدر منه، وأنّ الآخرين قد اشتبهوا في السماع أو الرؤية أو النقل.

ثانيًا، حتى لو كان من الممكن أنّه قد ارتكب هذه المعصية، لكن من الممكن أيضًا أنّ ذلك لم يكن عن عمدٍ؛ بل إنّ هذا الشخص كان جاهلًا أو أخطأ في المورد أو في تحديد المصداق واشتبه في التطبيق. وعلى أيّ حال، يمكننا أن نجعل أنفسنا معتقدين بأنّه لم يرتكب ما يوجب فِسقَه من خلال آلاف المبرّرات، ولهذا لن نكون في أعماق قلوبنا ظانّين به ونعتبره فاسقًا، إلّا أنّ هذا الكلام لا يعني أبدًا أن نثق بهذا الشخص في مجال العمل، كما أنّ الروايات لا تفيد هذا المعنى أبدًا. من هنا، إذا وُجد تكذيبٌ من جماعةٍ بشأن شخصٍ لم يكن لنا سابقة معرفةٍ به، وبالاعتماد على أنّ علينا أن نُحسن الظنّ بالناس، فإذا وضعناه في منصبٍ خطير وتعرّضنا لخسائر فيجب علينا أن نلوم أنفسنا.

وهناك روايات كثيرة تؤيّد هذا المطلب فلا يحقّ لنا أن نعتبر ذلك الشخص فاسقًا أو أن نعتقد في قلوبنا وأفكارنا أنّه شخصٌ عاصٍ وفاسق ومخالف، ولكن حسن الظنّ القلبيّ لا يوجب علينا أن نُحسن الظنّ عمليًّا به وأن نكلّفه بمسؤولياتٍ مهمّة. لهذا، ينبغي لنا أن نحرز الأهليّة الأخلاقيّة والعلميّة والاجتماعية والفردية وغيرها أثناء إيداع المسؤوليات عند الآخرين. إنّ حسن الظنّ القلبيّ والذهنيّ الذي تكفّلت به الروايات وأوصت به هو غير حسن الظنّ العمليّ والثقة العمليّة التي ينبغي إحرازها عند تكليف الآخرين بالمسؤوليّات. لهذا، فإنّ حسن الظن القلبيّ لا يجوّز لنا إيداع المسؤوليات عند الآخرين.

آفات الصداقة

هناك أشخاصٌ يُبتلون بسبب مجموعة من العوامل الخاصّة بسوء الظنّ الشديد

ويُصبح هذا الحال ملكةً راسخةً، فلا يثقون بعدها بأي إنسان. قد يصادف الإنسان أحيانًا حالات غير طبيعيّة، فقد يكون لديه صديق على سبيل المثال، وقد رافقه مدّة طويلة ووثق به لكنّه يخون ويتسبّب بأضرارٍ كثيرة بسبب اعوجاجٍ وانحرافٍ لديه، فيدوس على كلّ هذه الصداقة المديدة، ومثل هذا الحادث الخاصّ يؤدّي بهذا الإنسان الذي خانه صديقه إلى أن لا يثق بعدها بأي شخصٍ كان. على أيّ حال، فإنّ مثل هذا الضرر الخاصّ أو ذاك الضغط الروحيّ والنفسيّ والاقتصاديّ والاجتماعي أو ذاك الانزعاج والتألّم الشديد يؤدّي إلى أن يفقد الإنسان اتّزانه ولأن يُصبح سيّئ الظنّ تجاه الجميع، ويقول: الكلّ خونة ولا يوجد في هذه الدنيا أي شخص يمكن الاعتماد عليه. فمثل هذه الحالة، تفقد الإنسان القدرة على أن يعيش مع الناس ولا شك بأنّ هذا الأمر وهذه الحالة ليست روحيةً صحيحة.

ولعلّ هذا المقطع من كلام أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ ناظرٌ إلى هذه القضية: «لا يغلبنّ عليك سوء الظنّ»، فانتبه لكي لا يُصبح سوء الظنّ ملكةً راسخة في نفسك فلا ينبغي للإنسان أن يُسيئ الظنّ تجاه جميع الناس وتجاه كلّ شيء إذا ابتُلي بمثل هذه الحالة والروحيّة فلن يبقَ له أي رفيقٍ شفيقٍ وصديقٍ حميمٍ: «**فإنّه لا يدع بينك وبين صديقٍ صلح**».

فإذا سيطرت عليك حالة سوء الظنّ لا يمكنك بعدها أن تعيش أي حالةٍ من الصفاء والحميميّة وحسن الظنّ والصفح، لأنّك تُسيئ الظنّ بالجميع وفي كلّ الأمور، فلن يبقى لك مجال للعفو عن الآخرين وبناء الصداقات معهم. ففي مثل هذه الحالة، تُصبح الحياة بالنسبة له جحيمًا، ولا يمكنه أن يتابع أي شيءٍ من أمور الدنيا والآخرة. فالإنسان بحاجة إلى الأصدقاء الذين يعتمد عليهم في هذه الدنيا ويمكن أن يعينوه على حياته، وكذلك هو بحاجة في أموره الأخرويّة إلى النصيحة والموعظة والإرشاد.

فلو تقرّر أن لا يقبل الإنسان بأي شخصٍ ولا يثق بأي فردٍ، فإنّه يكون قد أضرّ بنفسه قبل الآخرين، فلأنّه يُسيئ الظنّ بالجميع لا يمكنه أن يتقرّب إلى أحد ويصادقه، وحين لا يكون قادرًا على مصادقة أحد فإنّه سيُحرم من أكثر النعم الدنيويّة أو جميعها. فلو دقّقنا جيّدًا سنجد أنّ الكثير من نعم الدنيا سواء الماديّ منها أو المعنويّ إنّما تحصل في ظلّ الصداقة. مثلًا هناك الزميل الدراسيّ،





والزميل الذي نعيش معه في السكن الجامعيّ والأستاذ وغيرهم الذين هم جميعًا مؤثّرون في النجاحات العلميّة. وهناك الشريك والمعاون والتجّار الآخرون الذين يؤثّرون كثيرًا في نجاحاتنا المهنيّة، وما لم نثق بهم تُصبح الحياة صعبةً جدًا وشاقّة. إنّ الحرمان من الصديق هو أكبر بلاءٍ.

وقد نقلنا رواية ضمن الأبحاث السابقة حيث يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا يوجد بعد معرفة الله نعمة أعذب وأشرف وأطهر من القرين الجيّد.

فلو أساء الإنسان الظنّ بالجميع لن يجد صديقًا أبدًا وسوف يبقى محرومًا من أفضل النعم الإلهيّة وأعظمها، وربما يأخذه مثل هذا الظنّ السيّئ إلى أماكن مظلمة ويصعّب عليه حياته. بالطبع، هناك مشكلةٌ أخرى تتعلّق بالصداقة في مقابل الفرار من الصداقة والحميمية، وهي أنّ بعض الناس يثقون بالجميع بسهولة فمثل هذا التساهل يؤدّي إلى الانخداع وربما يُبتلى هذا الشخص بأنواعٍ من المفاسد الأخلاقيّة والاجتماعيّة والاعتقاديّة وغيرها، وربما يُصاب بأضرارٍ فائقةٍ في قضاياه الماليّة أو في زواجه أو أنشطته الاجتماعيّة والاقتصاديّة وحتى الدينيّة والأخلاقيّة بسبب حسن الظن الزائد فيه، ولهذا ينبغي للإنسان أن يراعي حدّ الاعتدال بين حالتي الإفراط والتفريط، فلا يكون محسنًا للظنّ إلى الدرجة التي يثق بالجميع بسهولة، ولا ينبغي أن يكون سيّئ الظنّ إلى الدرجة التي لا يثق بأي شخصٍ؛ ينبغي أن يسعى بالحدّ المعقول للحصول على صديقٍ جيّد.

لهذا، ينبغي أن يُعمل الفحص الدقيق والمحسوم ولا يكتفي بالشواهد الاحتماليّة والضعيفة. لكن بعد أن يجد مثل هذا القرين الصالح ويجرّبه ويختبره في مختلف الحالات ويكتشف أنّه شخصٌ تقيٌ عاقلٌ وقابلٌ للصداقة فلا ينبغي أن يتساهل بشأن هذه الصداقة ويصدّق كل كلام يُقال بشأن صديقه، بل إنّ عليه هنا أن يُحسن الظنّ فيه ولو جاء مئة شخصٍ عادل وقالوا إنّه قد ارتكب الفعل السيّئ الفلاني فعليه أن يقول لهم: لقد صادقت هذا الشخص لسنوات طويلة وأنا أثق به ولعلّكم أخطأتم». وعلى أيّ حال، لا ينبغي أن يرفع اليد عن صداقته بهذه البساطة إلا إذا تيقّن بوجود مسألةٍ ما في البين. بالطبع، إنّ هذا اليقين يجب أن يستند إلى القرائن المحكمة والقطعيّة، وما لم نحقّق الاطمئنان، لا ينبغي أن نكتفي بهذه الظواهر والقرائن الضعيفة. وقد تعدّونه في ذهنكم شخصًا عاصيًا، لكن لا ينبغي

ألّا تثقوا به في العمل، بل يجب أن تُصادقوه عمليًا. وحين نقول إنّ على الإنسان أن يحسن الظن بالآخرين فالمقصود هو أن لا يحكم بشكلٍ سيّئ تجاه الآخرين في قلبه، وعليه بالتلقين وعرض الشواهد على ذهنه وأن يفكّر بشكلٍ جيد بشأن ذلك الشخص فيقول لنفسه مثلًا: ما أكثر أولئك الذين حكموا عليّ أو على الآخرين بشكلٍ سيّئ، ثمّ عُلم بعد ذلك خطؤهم، ولعل هذا المورد يُشبه هذه الموارد. فلهذا، لا ينبغي أن أحكم بغير الحقّ.

لا ينبغي للإنسان أن يتساهل في مقام اختيار الصديق. فلا ينبغي أن يختاره كصديقٍ لمجرّد الظاهر الحسن الذي يراه عليه، بل عليه أن يحتاط ويختبر لكي يطمئن. والمقصود من الاطمئنان هو الاطمئنان العقلائيّ والمتعارف. أمّا إذا كان يبحث عن شخصٍ مثل سلمان الفارسيّ (قدّس) حتّى يُصادقه، فعليه أن يبقى منتظرًا حتى يعود سلمان الفارسي (قدّس) إلى الحياة مجدّدًا. ولا شك بأنّ مثل هذا الشخص سيبقى بلا صديقٍ دائمًا وإذا أراد أن يدقّق بشأن هذا الصديق الذي يريد اختياره بما يفوق الحدّ ويسعى لاختيار من لا عيب فيه، ومن لا يصدر منه أيّ مكروه بسيط، فينبغي أن يعلم أنّه سيبقى بلا صديقٍ دائمًا. وبالطبع، لا ينبغي أن نكتفي بحسن الظنّ بل علينا أن نراعي تلك المعايير المرتبطة باختيار الصديق ونطبّقها، وبعد أن نختبر هذا الشخص ونطمئن إلى صلاحه نتّخذه صديقًا. لكنّنا إذا فعلنا ذلك علينا أن نبدأ بحسن الظنّ به ونجتنب سوء الظنّ ونرفض كلام الآخرين السيّئ بحقّه.

إنّ الشيطان لا يحبّ أبدًا أن يكون هناك صداقة بين شخصين مؤمنين، والقاعدة العامّة التي تُستفاد من كلام الله سبحانه تؤكد هذا المفهوم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾[١].

بالطبع، إنّ هذه الآية وإن كانت في مورد الخمر والقمار، لكنّه لا يوجد خصوصيّة لهذين الأمرين، وفي الواقع يمكن اعتبارهما من الأسباب التي تؤدّي إلى العداوة والبغضاء. ولهذا، فإنّ هذه الآية في مفهومها الكلّيّ تشمل بحثنا، أي إنّ الشيطان مثلما أنّه يستفيد من الخمر والقمار لإيقاع العداوة بينكم، فإنّه

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٩١.



سيسلك طرقًا أخرى لأجل تحقيق هدفه. فبالنسبة له، إنّ العداوة بينكم هدف، ويمكنه أن يحقّق هدفه عبر أساليب أخرى، فلا يمكن أن يكون الشيطان راضيًا إذا شاهد مؤمنين متحابّين. فعلى سبيل المثال، يحمل البعض على الطعن والغيبة والتعيير والاتّهام لكي يوقع الناس بسوء الظنّ تجاه بعضهم بعضًا، ويقضي بذلك على المحبّة والصداقة فيما بينهم. فهذه هي قرّة عين الشيطان. فيجب علينا لأجل خسء الشيطان وفقء عينه أن نسعى لاكتساب الأصدقاء الصالحين وتحقيق العلاقات الحميميّة بيننا وأن نحبّهم في الله ونسعى للاستفادة من هذا الحبّ للتقدّم المعنوي.

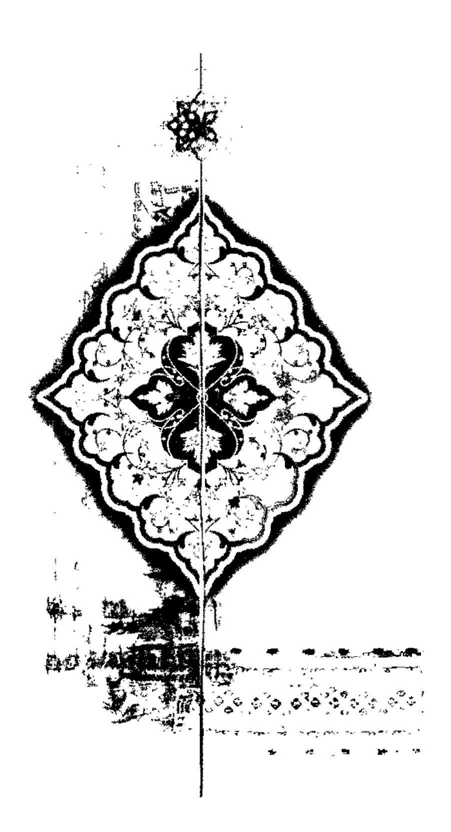
يوجد رواياتٌ كثيرة تحثّ على التحابّ في الله وتمدح ذلك ونُشير هنا إلى إحداها. ففي روايةٍ عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «المُتَحابُّونَ فِي اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى أَرْض زبَرْجَدَة خَضْراء فِي ظِلِّ عَرْشِهِ عَنْ يَمينِهِ وُجُوهُهُمْ أَشَدُّ بَياضًا وَأَضْوَءُ مِنَ الشَّمْسِ الطّالِعَةِ يُغْبِطُهُمْ بِمَنْزِلَتِهِمْ كُلُّ مَلَك مُقَرَّب وَكُلُّ نَبي مُرْسَل يَقُولُ النّاسُ مَنْ هؤُلاءِ فَيُقالُ: هؤُلاءِ المُتَحابُّونَ فِي اللهِ»[1].

إنّ الذي يوصل الإنسان إلى مثل هذا الكمال هو مقاومته لأنواع الشكّ والشبهة التي يلقيها الشيطان من أجل إيقاع العداوة بين الناس ومنع حصول المحبّة، ولأنّهم قاوموا رغبات الشيطان هذه، وصلوا إلى هذا المقام. إنّ من طرق المواجهة هو أن لا نقبل الطعن والتعيير والتشكيك الذي يصدر من الآخرين تجاه أصدقائنا ونعتبره منزّهًا عن هذه الأمور في أعماق قلوبنا.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ١٩٥، الرواية ٦٤.

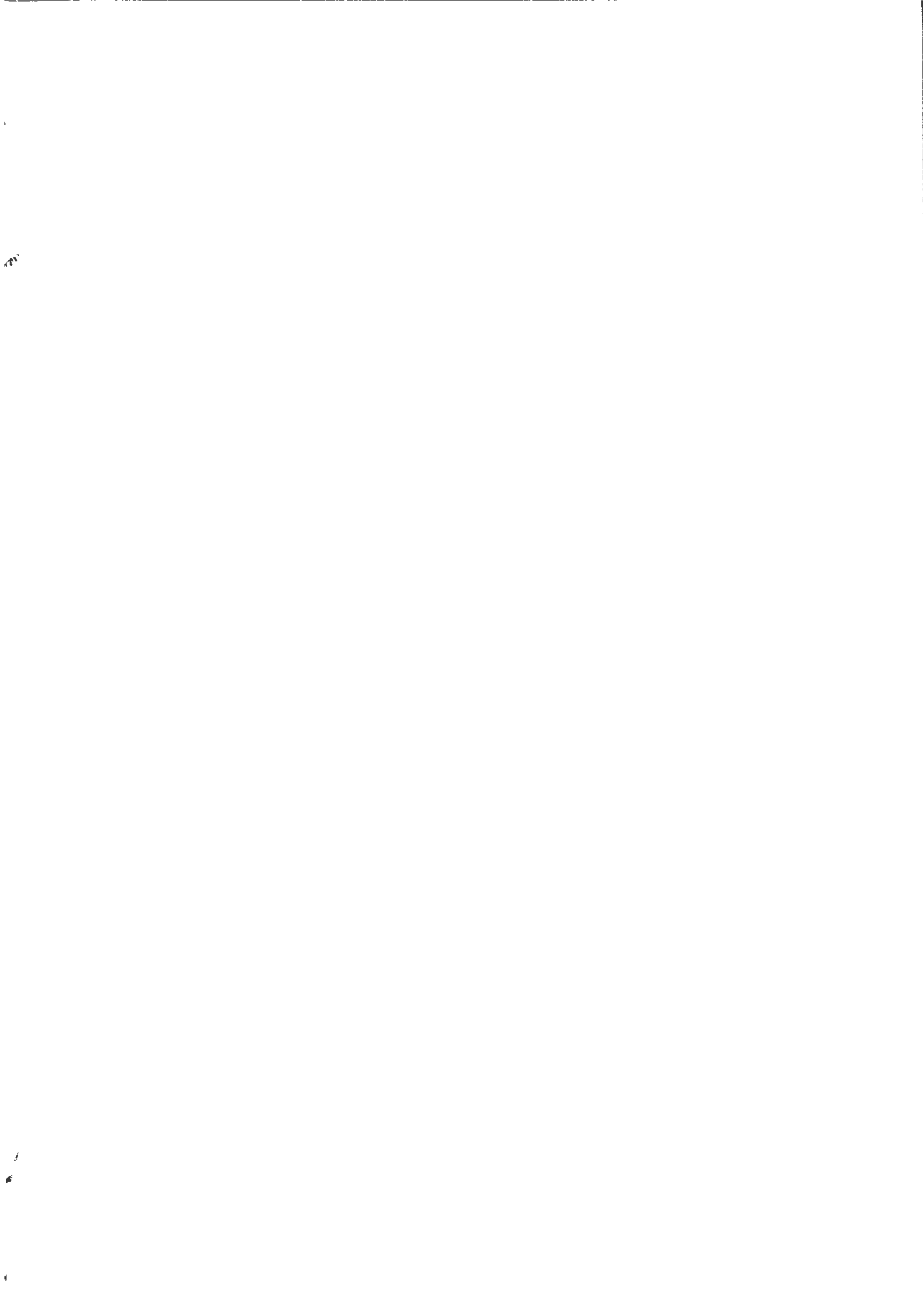


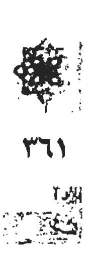


الدرس السادس والعشرون

اعتصام القلب

- معيار الاستفادة من متاع الدنيا
- أقبح الظلم
- زمام القلب







«بِئْسَ الطَّعامُ الْحَرامُ وَظُلْمُ الضَّعيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، وَالْفاحِشَةُ كَاسْمِها، وَالتَّصَبُّرُ عَلَى الْمَكْرُوهِ يَعْصِمُ الْقَلْبِ، وَإِنْ كانَ الرِّفْقُ خُرْقًا كانَ الْخُرْقُ رِفْقًا ورُبَّما كانَ الدّواءُ داءً والدّاءُ دواءً وَرُبَّما نَصَحَ غَيْرُ النّاصِحِ وغَشَّ الْمُسْتَنْصِحُ».

إنّ هذا القسم من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو جملٌ قصيرة قد جاءت بصورة مواعظ كليّة. ولهذا الحديث النفيس مصاديق في الحياة الدنيا وهو مفيدٌ أيضًا لسعادة الآخرة، وهنا نقدّم شرحًا توضيحيًا لهذه الجمل النورانية بمقدار ما نتال من توفيق من الله المتعال عسى أن يكون إن شاء الله مورد الاستفادة والنفع.

وكما مرّ، فإنّ النسخ التي نقلت هذه الوصيّة الشريفة تختلف فيما بينها من ناحية كمية العبارات وتقديمها وتأخيرها. لهذا، ومن أجل اجتناب هذا الاختلاف في النسخ نقرأ هذه الوصية من كتاب **بحار الأنوار**. ومع ذلك، فإنّ عبارة «**بِئْسَ الطَّعامُ الْحَرامُ وَظُلْمُ الضَّعيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ و...**» لم ترد في بعض الكتب من الأساس، وفي بعضها الآخر يوجد اختلاف في النسخ. والآن، وبالتوجّه إلى هذه النقطة نقوم بتبيان كلمات الإمام عليه السلام وتفسيرها.

معيار الاستفادة من متاع الدنيا

يقول إمام المتقين علي عليه السلام: «**بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرامُ وظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ وَ...**»؛ يمكن تفسير هذه الجملة على نحوين:

أ. ببيانٍ أوّل يمكن القول إنّ الإنسان في العادة يستخدم مِلاكًا لأجل تقييم

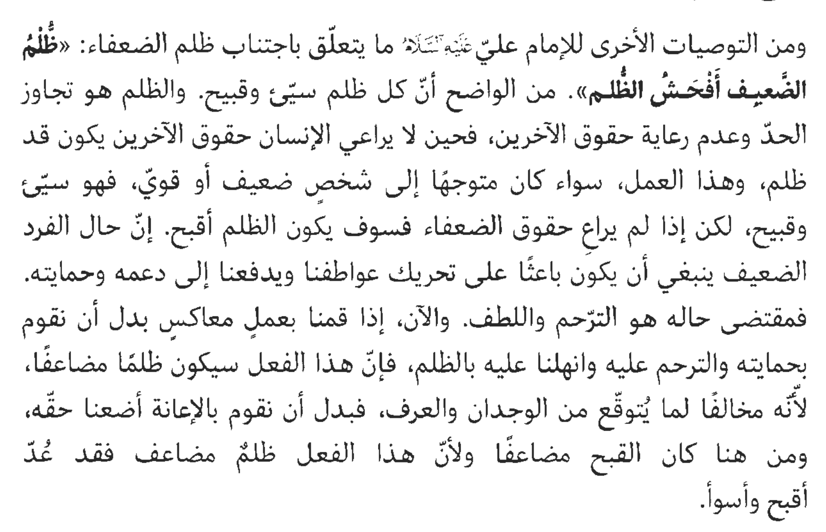
أمور الدنيا والاستفادة منها أو اجتنابها، وعلى أساس هذا الملاك فإنّه يقيّم الأمور ويحددّ مسؤليّته تجاهها. فلعلّه يقول مثلًا لنفسه إنّ كل ما ينسجم مع الطبع هو حسن، وكل ما لا ينسجم مع الطبع فهو سيّئ، فقد جعل هذا المعيار أساس نظرته إلى الأمور وكانت لذّته هي معيار الحُسن، وكان عدم التذاذه معيار السوء، وهو ينظّم جميع أموره الدنيوية على أساس هذا المعيار.

وبحسب رؤية عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنّ أي معيار من هذه الأمور المادّيّة الصرفة لا يُعدّ صحيحًا، بل يجب أن نأخد المعيار المعنويّ والروحانيّ بعين الاعتبار، لهذا لا يصحّ أن يُقال إنّ كل ما يستلذّه الإنسان من طعام سوف يكون طعامًا جيّدًا، وكل ما ينفر منه أو لا يرتضيه هو طعامٌ سيّئ. بل إنّه بالإضافة إلى اللّذة والألم أو الانسجام مع الطبع وعدمه يجب أن نأخذ المعيار المعنويّ بعين الاعتبار. فالطعام الحسن هو الطعام الحلال وإن لم يكن فيه لذّة، والطعام السيّئ هو الطعام الحرام شرعًا وإن استلذّ به الإنسان واستعذبه. بناءً على هذا التفسير، يجب الالتفات إلى القيم المعنويّة وعدم الاكتفاء بتلك المعايير الظاهرية. ولهذا، يمكن القول إنّ ما يقصدة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذكر هذا الكلام بأنّ «بئس الطعام الحرام» هو ذاك التوجّه والاهتمام والبعد المعنويّ للذائذ الدنيويّة.

ب. التفسير الآخر الذي يمكن تقديمه حول هذا الكلام هو أنّ ما يقصده الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هو مطلق الحرام أي إنّ كلام الإمام يُشير إلى أنّ ما نؤدّيه من أعمال يكون كلّه مؤثّرًا في بنية الروح. فالطعام الذي نأكله في هذه الدنيا سيؤثّر في بدننا، وإذا كان طعامًا نافعًا وسالمًا فسوف ينمو البدن، وتتحقّق سلامته وقوّته، وإذا كان طعامًا مسمومًا فسوف يُصاب البدن بالمرض ويُبتلى بأنواع الميكروبات، وقد يصل الأمر إلى الموت والهلاك، وعلى هذا المنوال فإنّ روح الإنسان أيضًا وعلى أثر الأعمال الحسنة أو السيّئة التي نواجهها في الدنيا سوف تُصاب بتلك الحالات من الصحّة والمرض أو الحياة والموت. فما نفوم به من أعمال يكون في الواقع أطعمةً نقدّمها لأرواحنا مثلما أنّ الطعام السيّئ كالأطعمة المسمومة تؤدّي إلى مرض أبداننا، فإنّ الأعمال المحرّمة والمعاصي هي أطعمة تمرض أرواحنا. إنّ أعمالنا وسلوكيّاتنا تؤثّر في الروح، مثلما أنّ تناول الطعام يؤثّر في البدن؛ وبحسب هذا التفسير فإنّ معنى كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أنّ العمل الحرام هو غذاءٌ سيّئ لروح الإنسان وهذا التفسير هو أوسع وأشمل من التفسير الأول.



أقبح الظلم



ومن التوصيات الأخرى للإمام عليّ عليه السلام ما يتعلّق باجتناب ظلم الضعفاء: «**ظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلم**». من الواضح أنّ كل ظلم سيّئ وقبيح. والظلم هو تجاوز الحدّ وعدم رعاية حقوق الآخرين، فحين لا يراعي الإنسان حقوق الآخرين يكون قد ظلم، وهذا العمل، سواء كان متوجهًا إلى شخصٍ ضعيف أو قويّ، فهو سيّئ وقبيح، لكن إذا لم يراعِ حقوق الضعفاء فسوف يكون الظلم أقبح. إنّ حال الفرد الضعيف ينبغي أن يكون باعثًا على تحريك عواطفنا ويدفعنا إلى دعمه وحمايته. فمقتضى حاله هو الترّحم واللطف. والآن، إذا قمنا بعملٍ معاكسٍ بدل أن نقوم بحمايته والترحم عليه وانهلنا عليه بالظلم، فإنّ هذا الفعل سيكون ظلمًا مضاعفًا، لأنّه مخالفًا لما يُتوقّع من الوجدان والعرف، فبدل أن نقوم بالإعانة أضعنا حقّه، ومن هنا كان القبح مضاعفًا ولأنّ هذا الفعل ظلمٌ مضاعف فقد عُدّ أقبح وأسوأ.

السبب الآخر لكون مثل هذا الفعل أقبح هو أنّ القويّ يمكنه أن يدافع عن حقّه، بخلاف الفرد الضعيف، كما أنّ إعمال الظلم تجاه الضعفاء يجري عادةً بسهولةً ويسر. ومن هنا، فإنّ ظلم الضعيف يُعدّ أظلم وأشدّ قسوة وأبعد عن الرحمة، ولهذا كان تجاوز حقّه وتضييعه أقبح بكثير.

وعلى أيّ حال، فإنّ كلام الإمام هذا يحذّرنا من التصرّف كما يحلو لنا حين نقابل شخصًا تكون قدرته أقلّ من قدرتنا. فعوضًا عن أن يدعونا ضعف الضعفاء إلى التعامل معهم بلطف، فإنّنا لا سمح الله لا نكتفي بعدم إعانتهم فحسب، بل ننتهك حقوقهم المسلَّم بها، ونستغلّ عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم لنتصرّف معهم بقسوة وننتهك حقوقهم.

وفي تتمّة هذا الكلام، يقول عليه السلام: «**الفاحشة كاسمها**» وهذا التعبير من التعابير المنحصرة التي قلّما يمكن أن نجد من استعملها، فكما تعلمون إنّ بعض الأمور التي نقوم بها تكون متّصفة بالحُسن ويمكن أن تتّصف بالسوء. وبعبارةٍ أدق، إنّ أعمالنا وتصرّفاتنا تنقسم من ناحية الحكم الأخلاقيّ إلى نوعين: أعمال مثل التكلّم وتناول الطعام والمشي التي يمكن أن تتصف بالحُسن أو السوء، فعنوان «التكلّم» قد يكون في محلٍ ما حسنًا وعملًا ممدوحًا، ولكن في بعض الأماكن

الأخرى قد يكون سيّئًا وقبيحًا. وكذلك بالنسبة لـ «الضحك» الذي يمكن أن يتّصف بالحسن في مكان وبالقبح في مكانٍ آخر. فعنوان الفعل في مثل هذه الأعمال لا يدّل على قبحها أو حُسنها. لكن هناك عنوانٌ لبعض الأفعال، يكفي من خلاله معرفة مدى حُسنها أو قبحها، وبذلك يكون العنوان بذاته حاكيًا عن القبح أو الحسن فيها لأنّ الفعل هنا لا يكون إلا على نحوٍ واحد. فلفظ الفحشاء بذاته يدلّ على القبح وهو لا يحتاج إلى دليلٍ ما للدلالة على قبحه، لأنّه بذاته قبيح. فوقوع الفحشاء يكفي لنقول إنّ هذا الفعل هو فعلٌ سيّئ وقبيح لأنّ الفحشاء هي القبح ولا يمكن أن تكون حسنةً، مثلما أنّ الإحسان لا يمكن أن يكون سيّئًا، وهنا لسنا بحاجةٍ إلى دليلٍ أو برهان لتحديد كون الفحشاء أمرًا قبيحًا وسيّئًا.

يقول الحقّ تعالى جلّ جلاله في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]، فالسبب الذي يحدّد عدم الاقتراب من الزنا هو كونه فاحشةً أي فعلٌ سيئ جدًّا، فكلمة الفحشاء تدلّ بذاتها على قبح الفعل وعبارة **«والفحشاء كاسمها»** أي إنّها فعلٌ سيّئ، ويتّضح ذلك من اسمها، وهي لا تحتاج إلى دليلٍ موجّه للدلالة على سوئها. والظلم أيضًا فاحشةٌ وقبيحٌ ولا يمكن أن يكون الشيء ظلمًا ويُعدّ حسنًا. وحين يُعدّ فعلٌ ما ظلمًا وقبيحًا فإنّه لا يترك المجال لوصفه بالحسن والجمال.

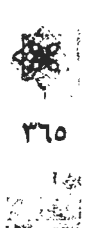
زمام القلب

لا شّك بأنّ الإنسان يُقدم على أداء أفعاله على أثر وجود محرّكات، وبالحدّ الأدنى على أثر الميول. وإنّ ما يكون مؤثّرًا جدًّا في إيجاد هذه المحرّكات، هو القلب الذي يجعل القدرة اللازمة بتصرّف البدن لأداء الأعمال؛ وبعبارةٍ أخرى، فهو يحرك البدن نحو هذا الشيء أو ذاك الشيء. ويبين الإمام في هذا المقطع أسلوب ضبط القلب وصيانته: **«وَالتَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ يَعْصِمُ الْقَلْبَ»**.

لا شّك بأنّ لقلب الإنسان بحسب طبيعته ميولٌ وأهوء. والأهواء النفسانية هي تلك التمنيات والرغبات التي تنشأ في القلب. وهذه الميول والطلبات هي

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٣٢.



في أغلب الحالات أمور عابرة وغير محمودة: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[١]. وحين يكون للقلب ميولٌ ورغبات، فإنّ كونها أمورٌ قلبية أو ناشئة من القلب لا يُعدّ دليلًا على أنّها أمور حسنة وممدوحة، ففي العديد من الموارد نجد أنّ القلب يريد أشياء تنتهي إلى ضرر الإنسان ومثل هذه الرغبات والميول تنشأ بشكل طبيعي في القلب. ولكن يمكن أن يقوم الإنسان بأمور تمنع من نشوء هذه الأهواء والهوس في القلب أو إذا نشأت فيه فإنّها لا تتفتّح ولا تتغلّب عليه، ويبقى للقلب القدرة على الاعتصام مُقابل هذه الميول والاندفاعات. ومن المهم أن نقوم بذاك العمل الذي يعصم القلب أو يورثه حالة الاعتصام ويكون زمام اختياره بيد الإنسان نفسه. فالحذر من أن نعلّق القلب بأيّ شيءٍ أو نجعله يميل إليه، لأنّ سلوكنا هو باختيارنا. فحين يتحرّك القلب نحو تلك الميول والرغبات، فإنّ أعضاء البدن سوف تتحرّك في الاتّجاه نفسه، وإذا أراد القلب شيئًا ستتبعه العين والأذن والجوارح الأخرى وسيتحرّك كل البدن بذاك الاتّجاه من أجل الوصول إليه.

فإذا استطعنا أن نضبط قلوبنا ونسيطر عليها فإنّ جميع مشاكلنا سوف تُحلّ من الأساس. ولكن ما العمل من أجل تحقيق هذه السيطرة والضبط؟ وكيف نمنع من تفلّت العنان ونحول دون التحرّك نحو أي جهةٍ كانت؟ وما الذي نفعله من أجل أن لا يتعلّق القلب بكل شيء؟ إنّ طريق الضبط والسيطرة على القلب هو بالتمرين، وذلك بأن نسوقه بالاتّجاه المقابل لميوله ورغباته، وبالطبع إنّ تلك الجهة المخالفة لن تكون مرغوبة لهذا القلب ولن يرضخ لها بسهولة، لهذا ينبغي أن نحقّق ذلك من خلال التمرين:

«أن أصنع خنجرًا حادًّا كالفولاذ هو أسهل من أن أجعل القلب حرًّا»

يريد القلب أن ينظر نظرة الحرام، فإذا أردنا حفظ قلوبنا والإمساك بزمامها، علينا أن نسيطر على العين ونمنعها من النظر إلى كل ما هو غير لائق. فيجب من خلال التمرين وبالتدريج أن نسلب القلب تلك الميول والرغبات غير اللائقة، وبالصبر والتروّي يصبح اجتناب مثل هذه الأمور ميسرًّا للقلب.

وبعبارةٍ أخرى، إذا أردنا أن نضبط القلب ونُمسك بزمامه، ينبغي أن نعوده

(١) سورة **يوسف**، الآية ٥٣.

على ترك تلك الأفعال والأحوال من خلال التمرين والصبر والتروّي، ونربّي هذا القلب بواسطة الرياضة على غضّ البصر عن النظر إلى الحرام الذي يُعدّ أمرًا سيّئًا له، فالرياضة في اللغة تعني التمرين، وإذا أردنا أن نُمسك بزمام القلب يجب أن نفرض عليه بواسطة التمرين والرياضة تلك الأعمال الصعبة والمخالفة لرغبته وميله، وبهذه الطريقة نربّيه. مثلما أنّ الإنسان حين يريد أن يصل إلى البطولة الفلانيّة يجب عليه أن يتمرّن ويرتاض بواسطة مجموعة من الحركات البدنيّة الصعبة، كرفع الأثقال والحركات المجهدة، هكذا هو الأمر في الأمور المعنويّة، فمن أراد أن يسيطر على ميوله القلبيّة ورغباته النفسانيّة ويمسك بزمام قلبه فعليه أن يرتاض ويتمرّن على هذا الطريق والتمرين في مثل هذا الميدان الرياضيّ هو أن يعوّد قلبه على الصبر والتحمّل، ويعوّده بواسطة التمرين والرياضة على ترك ما يرغب به ويريد من أجل أن يصل إلى البطولة في ميدان المواجهة المعنوية.

و«التّصبّر» هو فرض الصبر على النفس.

وبعبارةٍ أخرى، هو تفعّل وتكلّف أي قبول الشيء بمشقّة. فالصبر ليس عملًا سهلًا بل يتطلّب مشقةً وسعيًا كثيرًا حتّى يحمل نفسه على الصبر. فإذا أردنا أن لا ننظر إلى الحرام يجب علينا أن نتمرّن، وربما لا ننظر إلى بعض الأمور التي تُعدّ حلالًا أيضًا، فالإنسان ينظر إلى هذا الاتّجاه وذاك الاتّجاه بشكلٍ طبيعي، ولهذا إذا أراد أن يضبط نفسه ويسيطر عليها فإنّ هذا الأمر صعبٌ جدًّا وقد يكون مثل أن يحبس نفسه. فإذا أردنا ألّا نُبتلى بالحرام فعلينا أن نضبط النظر ونسيطر على أنفسنا سيطرةً تامة. فعلى سبيل المثال وكنوعٍ من التمرّين، نقوم بحفظ البصر إلى الأسفل عدّة دقائق، ونقوم بالتعقيبات والتسبيحات والأدعية، ومن خلال التمرين الصابر والمتحّمل يمكن للإنسان أن يُحقّق القدرة والسيطرة على النفس، وأن يُمسك بزمام قلبه. إنّ قلب الإنسان يشبه ذاك الفرس الجموح المتفلّت الذي يريد أن ينطلق في كل اتّجاه ولا يمكن ترويضه والسيطرة عليه إلّا من خلال الصبر، فإذا أردتم ترويض قلوبكم والإمساك بزمامها وعنانها، فعليكم أن تصبروا على المكاره. إذًا، عليكم أن تتمرّنوا وترتاضوا، وتحدّدوا رغبات القلب وميوله وأن تصبروا على ما تكرهونه.

وبالإضافة إلى هذه المكاره الطبيعية والعادية، التي تُعدّ من شوؤن الحياة



الدنيويّة، يجب على الإنسان أن يتحمّل تلك المصاعب التي يوجدها الآخرون. فأحيانًا، يصدر من بعض الناس تصرّفات على الإنسان أن يتّحملها، وبحسب التعبير الرائج عليه أن لا يجلبها على نفسه، وخصوصًا إذا كانت مثل هذه الأعمال تصدر من شخص مؤمن يُمكن أن يؤدّي عدم تحملّها إلى خجله وإحراجه، فهنا ينبغي الحفاظ على كرامته وماء وجهه من خلال الصبر. وفي بعض الأحيان، يمكن أن يكون للصبر على أعمال الآخرين ثوابٌ أعظم من عبادة سنواتٍ طوال، ويكون هذا الصبر أكثر تأثيرًا لتكامل الإنسان الروحيّ والمعنويّ. وعلى أيّ حال، فإنّ الصبر على الأمور المكروهة وتحمّل المشقّات والمصاعب والسيطرة عليها يؤدّي إلى أن يُسيطر الإنسان على قلبه بالتدريج ويضبط ميوله ورغباته فلا يُصبح قلبه مهووسًا.

«**وإنْ كانَ الرِّفْق خُرْقًا كانَ الْخُرْقُ رِفْقًا**»، وفي تتمّة هذا الكلام نجد الإمام عَلَيهِالسَّلَامُ يُشير بشكلٍ مختصرٍ وبسيط إلى بحثٍ مهم في فلسفة الأخلاق، وهو هل إنّ الأخلاق نسبية أو مطلقة؟ فأنتم تعلمون أنّ من القضايا المهمّة في فلسفة الأخلاق هو بحث نسبية الأخلاق أو إطلاقها، أي حين نقول إنّ ذاك الشيء حسنٌ فهل يُعدّ هكذا دائمًا وفي جميع الأحوال، وبالنسبة لكلّ الأشخاص أم أنّ حسنه أمرٌ نسبيٌ فينطبق على بعض الأمكنة والأزمنة والأفراد، ولا ينطبق على أمكنة وأزمنة وأفراد آخرين.

بالطبع، لا يوجد توافق في الرأي حول هذه النسبيّة بل يوجد مذاهب وآراء مختلفة بشأن نسبيّة الأخلاق. فالبعض يقول إنّ المقصود من النسبيّة هو أنّ كل شيءٍ يكون من ناحية الحُسن والقبح تابعًا للمكان والزمان والظروف، ولا يوجد حُسنٌ وقبحٌ مطلق. فما يكون عند البعض حسنًا وممدوحًا يكون عند آخرين سيّئًا وقبيحًا. والذين يعدّون هذا الشيء حسنًا فإنّ ذلك الشيء يكون حسنًا بالنسبة لهم، أمّا الذين يعتبرونه سيّئًا فإنّه يكون كذلك بالنسبة لهم. وبحسب هذا الكلام، لا يوجد أي معيار لتحديد وتمييز الحُسن من القبح. وهناك فئةٌ أخرى تقول بوجود معيارٍ مطلق. وبالطبع، إنّ الذين يقولون بهذا الإطلاق يواجهون في بعض الموارد مشاكل محدّدة. فعلى سبيل المثال، وطبق هذه النظرية إذا كان الصدق حسنًا ينبغي أن يكون كذلك في جميع الأحوال والأمكنة والأزمنة، في حين أنّ البعض يقولون يمكن أن ننقذ حياة شخصٍ مؤمن من أيدي الظالمين بواسطة الكذب، ويجب في مثل هذه الحالة أن ندع الصدق جانبًا ونكذب. وبحسب الرؤية



الإسلامية، يجب الكذب في مثل هذه الحالات من أجل إنقاذ حياة الإنسان من الظالم. ومثل هذه الموارد الاستثنائية، أدّت إلى اعتقاد البعض بنسبيّة الأخلاق الإسلامية، أي إنّ الكذب يكون حسنًا أحيانًا وسيئًا أخرى، وإنّ الصدق يكون حسنًا أحيانًا وسيئًا أحيانًا أخرى؛ في حين أنّ الأمر ليس كذلك أبدًا. بالطبع، إنّ التفسير العلميّ في مثل هذه الأبحاث يجب أن يتمّ في مكانٍ آخر حيث يخضع للمزيد من التدقيق والفحص لكنّنا في هذا المورد نكتفي بالتفسير والتوضيح الإجمالي.

وفي تبيان مثل هذا النوع من الأعمال، يجب القول: إنّ حُسن أو سوء الأعمال هو أمرٌ تابع لسلسلة من المعايير الكلّيّة. على سبيل المثال، إنّ حُسن الصدق أو قبحه أو الكذب تابعٌ للمصالح والمفاسد التي تترتب عليهما، فليس الأمر على هذا النحو بحيث يُعدّ الصدق أمرًا واجبًا وحسنًا دائمًا وفي جميع الموارد، أو يُعدّ الكذب حرامًا وسيّئًا على نحو مطلق وفي جميع الأماكن، بل هناك شروط وقيود يجب أن نعدّ هذا الشيء حسنًا أو سيّئًا بحسبها. وقد كان لبعض فلاسفة الأخلاق الكبار مثل هذا التوجّه حيث كان يظن أنّه حين نقول إنّ هذا الشيء حسنٌ فلا يوجد أي أستثناء، ومنها إذا قلنا إنّ الرفق والمداراة حسنة أو إذا لاحظنا في الروايات الكثيرة تحسين وتمجيد المداراة أو الرفق، فقد يُتوهّم أنّه لا يوجد لهذا الكلام أي أستثناء، وأنّ على الإنسان دومًا وفي جميع الحالات أن يتصرّف برفقٍ وأن لا يظهر منه أي ذرّةٍ من العنف. أو إذا ذُكر الحلم بصورةٍ جميلة وتمّ الحثّ عليه كثيرًا في الآيات والروايات، قد يُتصور أنّ الغضب هو أمرٌ سيّئ من الأساس ولا ينبغي للإنسان أن يغضب أبدًا! في حين أنّ لهذه القواعد موارد استثناء، وصحيحٌ أنّ موارد الاستثناء فيها محدودة جدًّا، ولكن يجب الالتفات إلى أنّ مثل هذه الموارد المخالفة للقاعدة وإن كانت قليلة، لكنّها موجودة. وكمثالٍ على ذلك، ففي السيرة العملية لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أو في الرسائل التي كان يكتبها لولاته وعمّاله في الحكومة نشاهد بعض العبارات الحادّة والعنيفة بشأن الذين يرتكبون الأخطاء، ونجد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يعاتب ويوآخد المسؤول المخطئ بشدّةٍ وعنف، فهنا يقال أين ذهب حُلم علي عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! ولماذا لم يتحدّث مع هؤلاء بليونةٍ وهدوء، ولم يقل لهم أبنائي وأعزائي لا تقوموا بهذه الأعمال، ولم يقل لهم أرجوكم يا أعزائي أن لا تأخذوا من بيت المال وراعوا حقوق الضعفاء والمساكين...؟! يجب الالتفات إلى أنّ كيفية التعامل تختلف بحسب اختلاف الموارد.



ففي الوقت الذي ينبغي أن نتعامل بليونةٍ ورفقٍ حين نعاشر الآخرين، لكن يجب التعامل بشدّةٍ وحدّة مع الأشخاص الذين يرتكبون الأخطاء والمعاصي. فحين يتمّ التعامل مع الإنسان بليونة فإنّه في الواقع يُعطى فرصةً ليفكّر حتّى يعمل بحسب ما يقتضيه العقل، ويكتشف خطأه ويُدافع عن ما قام به بواسطة استخدام البرهان العقليّ إذا كان في موقع الدفاع. وحين يتمّ التعامل مع إنسانٍ ما بشدّةٍ وعنفٍ وحدّة وُيقال له لقد أسأت وأنت لا تفهم، فإنّه بالإضافة إلى أنّ هذا السلوك مخالفٌ للأدب والأخلاق فإنّه لا يمنح فرصةً للتفكير الصحيح، وقد نسلبه التصرّف المطلوب. ولأجل أن لا يحدث مثل هذا الأمر يجب التكلّم بليونة لكي تسيطر على العلاقات بين أبناء المجتمع حالةٌ من التعامل العقلاني. لكن مثل هذا التعامل ليس صحيحًا في كل الموارد، فحين تكون أسسُ مصالح المجتمع في البين أو هناك من يخون المجتمع الإسلامي وبيت المال ويعتدي على أموال المسلمين ويسرق؛ ففي هذه الحالة لا ينبغي التحدّث معه بليونةٍ وهدوء، ولو أظهرنا الليونة في مثل هذه الحالات، لتجرّأ واستمرّ في فعله. فلو أنّ شخصًا اختلس الملايين من بيت المال، وتعاملنا معه بهدوء ودعوناه إلى التوبة وقلنا له: يا عزيزنا لا تفعل ذلك فإنّ عاقبته غير جيدة فإنّه سيقول: على عيني! لكنه حين يُترك ويتوهّم أنّه أصبح بعيدًا عن الأعين، فإنّه سوف يستمرّ بفعله بل قد يتجرأ على ما هو أدهى وأعظم. فلا شك أنّ هذه الليونة والرفق والملاطفة هي في غير محلّها، لأنّ مثل هذه التصرّفات الرفيقة والمتلازمة مع العطف إذا كانت مع بعض العصاة والمتجرّئين، فلن يكون لها أي أثرٍ سوى تشجيعهم على هذه الأفعال القبيحة، ففي بعض الموارد يجب إظهار العنف والشدّة.

يقول أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المجال: «**إذا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا، كَانَ الخُرْقُ رِفْقًا**»[1]. ففي بعض الأوقات، سيكون للشدّة والحدّة أثر الرفق والليونة، أي إنّ تلك النتيجة المتوقّعة من الرفق ستحصل ممّا هو ضدّه وهو الخرق والعنف، ففي مثل هذه الموارد يجب أن نعمل بالضدّ لأنّ الشدة والعنف هي هذا الرفق وينبغي أن تقوم به تحت هذا العنوان. فلا ينبغي أن نتصوّر أنّ مثل هذا التحسين والتمجيد المرتبط بالرفق والليونة والتواضع وتحمّل كلام الآخرين وغيرها لا استثناء

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٥٢.

له، بل يجب في بعض الحالات إظهار الغضب والشدّة من أجل تحقيق المطلوب.



والنموذج الآخر لهذا الكلام هي رواية واردة عن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «**تقرّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي والقوهم بوجوه مكفهرّة والتمسوا رضا الله بسخطهم، وتقرّبوا إلى الله بالتّباعد منهم**»[1]. وفي روايةٍ أخرى، يقول علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «**مَنْ تَرَكَ إِنْكارَ المُنْكَرِ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ ولِسانِهِ فَهُوَ مَيتٌ، بَيْنَ الأَحْيَاء**»[2]. فالذي لا يمكنه أن يحول دون المنكر بيده يجب أن يكون تعامله وتصرّفه وحالته بحيث يُفهم من وجهه وملامحه أنّه غير راضٍ عن ذاك الفعل، وأنّ هذا الفعل قبيحٌ، فلا ينبغي أن يكون الأمر بحيث نتصرّف بصورةٍ رفيقةٍ ولطيفةٍ مع الجميع، أي نتصرّف مع الصديق والعدوّ والعاصي والمطيع بليونةٍ وعطفٍ وتواضع، بل علينا في بعض الحالات أن نكون أشدّاء وعنيفين.

وبالطبع، لا ينبغي أن يكون مثل هذا الكلام مبرّرًا لنا للتصرّف بشدّةٍ وحدّة مع أي إنسان متحجّجين بمثل هذا الكلام. ففي بعض الحالات هناك حدّة وخرق، ولكن مثل هذه الحالات ينبغي أن نشخّصها ونحددّها بمنتهى الدقة والتفكير السليم وبعيدًا عن الحبّ والبغض. والمقصود هو أن نعلم أنّ هناك مواردًا للغضب والعنف في حياة الإنسان.

وبهذا الكلام، تتّضح موقعيّة بعض الآيات القرآنيّة والروايات أو بعض أفعال أمير المؤمنين عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وكلماته وكلمات الأئمّة الآخرين عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، ويتبيّن لنا ما هو المبنى والأساس الذي يحملهم على الدعوة أو التصرّف برفقٍ وليونة في موضعٍ وموردٍ ما، والتعامل بحدّة مع الشخص الخاطئ في موردٍ آخر: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ أَتَدْري مَا الاْسْتِغْفار؟ الاسْتِغْفَار دَرَجَةُ العِلِّيّين»[3]. فالشخص الحكيم المطّلع على دقائق الأمور يعلم متى ينبغي أن يتعامل بليونةٍ ورفق، ومتى ينبغي أن يتعامل بخرقٍ وشدّة.

---

(١) المتّقي الهندي، **كنز العمّال** (لبنان - بيروت: مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م)، الجزء ٣، الصفحة ٦٥.

(٢) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ١٩٥١.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٩٧، قصار الحكم، الرواية ٤١٧.



بناءً عليه، حين يقوم الأعاظم والأشخاص الواعون بالتعامل بشدّةٍ وخرقٍ في بعض الأحيان فهذا لا يُعدّ سلوكًا مخالفًا للأخلاق أو فاقدًا للاعتبار، لأنّ اللين والرفق إذا أدّيا إلى النتيجة المعاكسة فعليكم أنتم أيضًا أن تتعاملوا مع الأمر على العكس وبما يتناسب معه، فتعنّفوا بدل أن ترفقوا: «**وَربَّ كانَ الدَّاءُ دَوَاء**»، فقد يكون الدواء سببًا للمرض بدل أن يؤدّي إلى الشفاء. مثلما إذا تناول الإنسان غذاءً طيّبًا ومفيدًا وصحيًّا بصورةٍ مستمرّة لكن غير منتظمة على سبيل المثال فأدّى ذلك إلى مرض بدنه. ففي السلوكيّات الإنسانيّة تجري هذه القاعدة أيضًا، فكل شيءٍ ينبغي أن يكون في موضعه، وإذا خرج عن موضعه واستُعمل في غير محلّه فسوف يؤدّي إلى نتيجةٍ معاكسة.

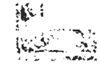
والمسألة الأخرى الذي يُذكّر الإمام بها هي أنّه إذا لم تعرفوا أي شخصٍ كإنسانٍ صالح، ولم تدركوا فيما إذا كان لمصلحتكم أو منفعتكم أو لا، أو كنتم تعلمون أنّه يحمل نوعًا من الضغينة تجاهكم، فلا تظنّوا أنّ كل ما سيقوله هو لضرركم، فمن الممكن أن يقدّم هذا الشخص الذي لا ينفعكم نصيحةً تكون لمصلحتكم. بناءً عليه، عليكم أن تتأمّلوا جيّدًا في كلام أي إنسانٍ وتبحثوا عمّا فيه من الصحّة والفساد. فإذا وجدتم في كلامه الأمر النافع والصحيح فاقبلوه، وإن كان الناطق به عدوًا لكم. ومن جانبٍ آخر، قد يعتمد الإنسان في بعض الأحيان على أشخاصٍ، ولأنّهم غير معصومين، من الممكن أن ينطقوا وفق أهوائهم، ممّا يؤدّي إلى الضلالة. فبمجرّد أن يحصل لكم نوع من الثقة تجاه شخصٍ تعتبروه مفيدًا لكم، لا ينبغي أن تعتبروا كل ما ينطق به صحيحًا فتتّبعوه. بالإضافة إلى أنّه قد يخطئ أحيانًا ولو كانت نيّته صافيةً.

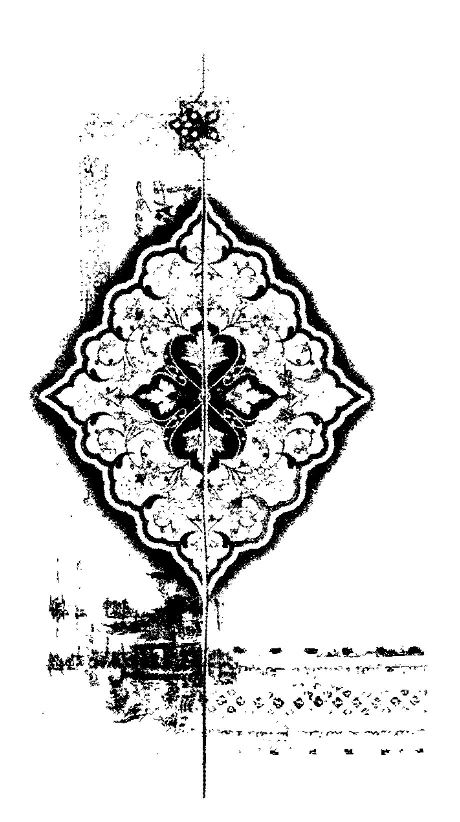
وبناءً عليه، لا ينبغي أن نكون سيّئي الظن إلى هذا الحدّ تجاه الناس فلا نجد لهم أي كلام موزون، لأنّ العدو قد ينطق أحيانًا بما هو حسن ومفيدٌ لنا. ومن جانبٍ آخر، إذا وثقتم بشخص ما لا ينبغي أن تعتمدوا عليه إلى الدرجة التي لا تحتملون معها صدور أي خطأ منه، فتقبلوا كل ما يقوله لكم وتعتبروه مفيدًا. وباختصار، هناك احتمال أن يصدر الصحّة والنفع من عدوّكم، وليس ببعيد أن يصدر الخطأ أو الخيانة من الشخص الصديق الذي هو مورد اعتمادكم وثقتكم.

«**رُبَّما نَصَحَ غَيرُ النّاصِحِ وَغَشَّ المُستَنْصِح**»، فربّما يقدّم الشخص الذي

ليس ناصحًا لنا نصيحةً مفيدةً لا يقدّمها الناصح الشفيق. ومن جانبٍ آخر، قد يغشّ ذلك الشخص الصديق الذي نراه خيرًا لنا ومفيدًا، وهو في موقع النصيحة المشفقة، فيخدعنا ذلك؛ لأنّه ليس بمعصوم. ومن الممكن أن يكون خاضعًا لهوى نفسه فاحذروا من أن تكون غلبة سوء الظن سببًا لتضييع النصائح المفيدة، وأن تكون غلبة حسن الظن سببًا للابتلاء بالضرر!!

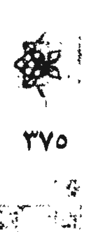






الدرس السابع والعشرون
الآمال الطويلة

- مقدّمة
- تلازم الهمّة والقدرة مع الآمال
- رواج سوق الخيال



«إِيّاكَ وَالاْتِّكالَ عَلَى الْمُنى فَإِنَّها بَضائِعُ النَّوكى وَمَطَلُ عَنِ الْآخِرَةِ وَالدُّنْيا»،



مقدّمة

كما مرّ، إنّ هذا القسم من وصيّة المولى أمير المؤمنين عليه‌السلام لولده الإمام الحسن المجتبى عليه‌السلام قد عُرض بصورة الكلمات القصار، والنصائح الكليّة من دون توضيح وتفسير. يقول الإمام عليه‌السلام في هذا القسم: «**إِيّـاكَ وَالاْتِّـكالَ عَلَى الْمُنـى فَإِنَّها بَضائِـعُ النُّوكـى**»، و«النّوكى» جمع نوك وهو الأحمق والغبيّ، ويجب أن ندقّق في مقصد الإمام عليه‌السلام من وراء هذا التعبير. فمعاني ألفاظ هذا الكلام متشابهة فيما بينها جدًّا، ولكن موارد استعمالها مختلفة. من هنا، فإنّ بعض الأشخاص قد وقعوا في اشتباه عند تفسير وفهم معناها، وبشكلٍ عام ربما أوردوا بعض الاستنباطات الخاطئة في مورد الألفاظ العامّة والمطلقة الواردة في الروايات والآيات، وذلك لأنّ القيود تبيّن بصورةٍ منفصلة ضمنيّة خفيّةً أو لبّيّة، وكذلك التخصيص والتقييد.

ولهذا، فإنّ الذين لا يلتفتون إلى مثل هذه الأمور يقعون في استنتاجات واستنباطات خاطئة، ولأجل ذلك يُعدّ الأنس بالروايات والآيات ومباني المعارف الإسلامية أمرًا ضروريًّا ولازمًا لفهم الآيات والروايات. وصحيحٌ أنّ جميع الآيات والروايات هي نورٌ ينبغي أن يستفيد منه كل إنسان، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ إدراك المعاني الدقيقة لبعض الآيات والروايات يتطلّب ممارسةً ودقةً عالية، وهذه العبارة الشريفة من ضمن هذه التعبيرات. ونحن أحيانًا نستعمل ألفاظًا هي من الناحية المفهوميّة متقاربة، ولكن ذلك يجري من دون الالتفات إلى محلّ





استعمالها، وربّما نقع في الخطأ أثناء تشخيص مصاديقها وأحكامها، ومن جملة هذه الألفاظ لفظ الأمل والرجاء، وكذلك ألفاظ أخرى كالأمنية والتمنّي والأمل، ومن هنا فإنّنا أثناء تفسير أي كلام يجب أن نلتفت بصورةٍ تامّة إلى حدود معاني الألفاظ وموقعيّة استعمالها وكل تخصيصٍ وتقييدٍ قد يُلحق بالكلام.

فأمير المؤمنين في هذه الوصية يحذّرنا من الآمال الطويلة، ومثل هذا الكلام ورد في العديد من الروايات وكمثالٍ على ذلك يقول الإمام عليعَلَيْهِالسَّلَامُ في **نهج البلاغة**: «إِنّما أَخافُ عَلَيْكُمْ اِثْنَتانِ: اتّباعُ الهَوى وَطُولُ الأَمَل»[١]. فالإمام علي عَلَيْهِالسَّلَامُ قد حددّ خطرين يهدّدان الناس أكثر من أي شيءٍ آخر، أحدهما السعي وراء رغبات القلب وأمان النفس والثاني وجود آمال طويلة. فطول الأمل إذًا ليس خطرًا عاديًا بل هو خطرٌ وجوديّ وجدّيّ فقد أنّ عدّهما أمير المؤمنين عليعَلَيْهِالسَّلَامُ أخطر ما يمكن وقال: إنّني أخاف عليكم من هذين الخطرين أكثر من أي شيءٍ آخر، ولهذا فإنّه أوصى ولده قائلًا «**إيّاكَ وَالاتّكالَ عَلَى المُنى**»!

وبالالتفات إلى هذه الوصايا التي تحذّرنا من الآمال الطويلة، كيف لنا أن نفسّر أو نبرّر ما ورد في الأبحاث الأساسيّة لعلم النفس والصحّة النفسيّة التي ترغّبنا بالأمل؟! وعلماء النفس يؤكّدون علينا كثيرًا أن نكون مؤمّلين، وأن يكون لدينا أمنيات كبيرة وأهداف عالية، ويعدّون ذلك علامةً على وجود حياةٍ مثالية وصحّةٍ نفسيّة. فكيف يمكن أن نجعل كلام عليعَلَيْهِالسَّلَامُ منسجمًا مع الأبحاث المطروحة في علم النفس والصحّة النفسيّة؟ وكيف يمكن أن نحقّق ذاك التعادل والتوازن بينهما، هذا في حين أنّه للوهلة الأولى قد نجد نوع من التباين والتضاد حتى فيما بين الروايات المنقولة عن الأئمّة أيضًا؟ فكيف توصينا بعض الروايات بالأمل وتذمّ اليأس والقنوط، وهذه الرواية تحذرنا من الأمل؟ ههنا يجب أن نحلّل لنرى هل أنّ امتلاك أمل بعيد المدى هو أمرٌ معيب وعملٌ مذموم؟ وهل إذا وضع الإنسان، على سبيل المثال، أهدافًا تتجاوز الثلاثين سنة، وبدأ من اليوم السعي للوصول إليها، يُعدّ هذا الأمر غير صحيح وكأنه يتّبع آمالًا جوفاء؟ وحقًا نسأل: ما هو السرّ وراء ذمّ هذه الآمال البعيدة؟ وحين ينهانا الإمامعَلَيْهِالسَّلَامُ عن الاتّكاء على الآمال الطويلة ما هو مقصوده؟

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٧٢، الخطبة ٢٨.



لأجل أن يتضّح هذا البحث بصورةٍ كاملة، يجب أن نلتفت إلى بعض المسائل: في البداية، يجب أن نعلم أنّ المقصود من امتلاك الأمل هو أنّ للإنسان مقصدٌ ومطلبٌ لم يصل إليه بعد، وهو شيء يحبّه وسيتحقّق في المستقبل. فالأمل يتعلّق بأمرٍ مطلوب ومرغوب ليس بمتناول اليد، ولا يمكن الوصول إليه ببساطةٍ وسهولة، بل يجب أن يتعب الإنسان ويسعى للأجل الوصول إليه وعليه أن يوفّر مقدّماته ويخطّط له وربما يجب عليه السعي لسنوات عديدة حتى يبلغه، هذا هو مفهوم الأمل. ولكن ما هو متعلَّق الأمل؟ يمكن للكثير من الأمور والأشياء المختلفة، كانت دنيويّة أو أخرويّة، أن تكون متعلّق الأمل، بدءًا من الأمر الدنيويّ المحض الذي لا يُؤمل منه إلّا اللذّة، وصولًا إلى المطالب الأخرويّة المحضة. فإذا كان الأمل متعلقًّا بالدنيا والوصول إلى لذّاتها والتمتّع بلذائذها الماديّة فهنا يوجد لدينا حالتان: قد يكون الأمل بشيء حرام كالوصول إلى ثروةٍ أو أموالٍ أو منصب لا يجوز له شرعًا، كأن يأمل بالحصول على مالٍ محرّم، فحكم هذا واضحٌ جدًا ولا يحتاج إلى بحث؛ والحالة الثانية هي أن يأمل بشيءٍ لا يوجد إشكال شرعيّ بشأنه، كأن يأمل بالحصول على منزلٍ وسيعٍ أو سيّارةٍ فارهةٍ أو ثروةٍ طائلةٍ أو بستانٍ جميلٍ أو قصرٍ فاخرٍ من خلال الحلال وكم سينفق من جهدٍ وسعيٍ وطاقةٍ ونشاطٍ (فردي أو اجتماعيّ) من أجل الوصول إلى هذه الآمال؟ لا شكّ أنّ مثل هذه الآمال الماديّة البعيدة، التي لا يوجد وراءها سوى اللذات الدنيويّة والتي تتطلّب بذل كلّ هذا الفكر والجهد، لا إنّها ليست ممدوحة في الأخلاق الإسلاميّة فحسب، بل هي مذمومة أيضًا.

فالذين يسعون وراء هذه الآمال الدنيويّة الطويلة والبعيدة شاؤوا أم أبوا، فإنّهم سوف يتعطّلون عن الوصول إلى الكمالات الأخلاقيّة والقيام بمسؤوليّاتهم الإسلاميّة، وذلك لأنّهم سيبذلون جهدًا على مدى سنواتٍ طويلة حتى يصلوا إلى ما يأملون. فافرضوا هذا العامل العادي الذي لا يمتلك الآن أيّ رأس مال وهو يأمل بتحصيل ثروةٍ طائلة، فعليه أن يسعى ليل نهار وهو خال الوفاض، بالإضافة إلى رعاية الأحكام الأخلاقيّة والشرعيّة، من أجل الوصول إلى مثل هذا الهدف؛ وسوف يسهر ليله ويبقى طوال الوقت ساعيًا من أجل الوصول إلى هذا الأمل وسوف يتخلّى عن كلّ راحةٍ وهناء حتى ينجح بالتدريج، ولا شك أنّه في مثل هذه الحالة لن يبقى له أي طاقةٍ ليبذلها من أجل تحصيل العلم والتقوى والعبادة

وخدمة المجتمع ومساعدة المحتاجين وغير ذلك. إنّ السعي نحو بلوغ مثل هذه الأمنية يمنع الإنسان عمليًا من القيام بالكثير من الواجبات وإن لم يلتفت لذلك.



لأجل ذلك، فإنّ امتلاك مثل هذه الآمال الدنيويّة البعيدة هو أمرٌ مذموم. أمّا إذا أراد أن يجعل هذا المال وذلك المنصب لأجل الأهداف الأخرويّة، كأن يقدّم خدمات جليلة للناس مثلًا، أو يساهم في إصلاح مجتمعه، أو نشر الإسلام وتبليغه عبر هذا المنصب الدنيويّ الرفيع كرئاسة الجمهوريّة أو رئاسة الوزراء أو غيرهما فإنّه في مثل هذه الحالة سيكون كل ما ينفقه ذا قيمةٍ. وبعبارةٍ أخرى، فإنّه بمقدار ما يبتعد هدفه النفيس ونيّته عن شوائب الهوس وعبادة الدنيا، فإنّ سعيه سيكون بهذه القيمة والأهميّة. فلو كان يريد الوصول إلى هذا المنصب من أجل أداء تكليفٍ ما، فإنّه لا عيب فيه بل يُعدّ أمرًا ممدوحًا ومستحسنًا جدًّا.

لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ لطلب الدنيا التي تكون على طريق الآخرة عدّة شروطٍ: الشرط الأوّل هو أن يدرس مدى إمكانية تحقّق ذلك الأمل، ويرى هل أنّ ما يأمل به ويريد الوصول إليه قابلٌ للتحقّق بحسب الظروف الموجودة والإمكانات المتاحة أم لا؟ فما هو مستوى احتمال الوصول إلى هذا الهدف والأمل؟ ينبغي أن يكون هذا الاحتمال قويًا جدًّا. فعلينا أوّلًا أن نحسب ونرى مدى احتمال حصول ذلك. والشرط الآخر هو أن نحسب درجة أهميّة هذا الأمل، أي إنّه إذا وصل إلى هذا الأمل وحقّق ذلك الهدف، فإلى أيّ مدى يمكنه أن يجعل من هذا الوصول ما ينفع آخرته ويخدم إسلامه ومجتمعه؟ فعليه أوّلًا أن يُحقّق هاتين المعرفتين، ثمّ بعد ذلك يعرف نتيجة ضرب مقدار الاحتمال بمقدار المحتمل، فإذا كانت نتيجة هذا الحساب إيجابيّة فلينهض بعدها من أجل تحقيقه. ولا شك بأنّ مستوى ودرجة الاحتمال والمحتمَل يجب أن تكون عاليةً كي لا يُعدّ سعيه نحو تحقيق أمله أمرًا غير عقلائي بل مذموم.

فإذا وصل بعد عشر سنواتٍ إلى ما كان يأمل به، لكنّه لن يتمكّن من الاستفادة منه إلا بمقدار واحدٍ بالمئة، فهنا رغم أنّ الاحتمال كان قويًّا، لكن بما أنّ المحتمَل صار ضعيفًا، فعليه أن يُقلع عن هذا الأمل ويجتنبه. وفي بعض الأحيان، يكون الأمر على عكس ذلك، حيث يكون الاحتمال ضعيفًا ولكن المحتمَل قويٌّ أي إنّ احتمال الوصول إلى المأمول ضعيفٌ جدًّا لكن إذا تحقّق فسوف يستفيد



منه، ففي هذه الحالة لا ينبغي أن ينفق عمره وثروته لأجل تحقيق ذلك. فإذا كان الأمل حائزًا على هذين الشرطين أي قابليّة وقيمة السعي، ولكن كلًّا من الاحتمال والمحتمَل لم يكن قويًا، فلا قيمة لأن يسعى الإنسان نحوه. والمقصود من قيمة الأمل هو أن نتمكّن من الاستفادة منه على طريق القيم الإلهيّة والأهداف السليمة: كأن نستفيد منه مثلًا من أجل آخرتنا.

ولكن يجب الالتفات إلى أنّه من أجل الإقدام على أي عمل لا يكفي حساب ميزان تحقّق الاحتمال والمحتمَل، بل يجب القيام بحسابٍ آخر، وهو دراسة قيمة الأعمال الميسورة؛ وبتحليل ودراسة ذلك نستطيع أن نختار من بين الأعمال والآمال التي هي محتمَلة عندنا، ما قيمته أعلى وأكثر. فمن الممكن أن يكون هناك أعمال أخرى ذات قيمةٍ أعلى، ولهذا يجب أن نقارن بين هذا الأمل وذاك من ناحية التأثير والقيمة.

يوجد هنا ثلاثة أنواعٍ من الحسابات: الحساب الأوّل هو حساب مدى تحقّق هذا الأمل ودرجة احتمالِ الوصول إليه. والثاني هو أن نحسب مدى قيمة ذلك الأمل، أي في حال تحقّقه كم يمكننا أن نستفيد منه على مستوى الآخرة وخدمة خلق الله، والثالث أن ندرس الآمال والأعمال الأخرى التي يمكن أن تكون أيضًا على طريق الخدمة والوصول إلى الثواب الأخرويّ؛ أي أن نحقّق فيما لو وُجد أملٌ أكثر نفعًا وقيمةً من هذا الأمل أو لا، فإذا لم يكن هناك أملٌ أفضل منه حينها يتعيّن علينا هذا العمل ويجب علينا القيام به. فإذا كان احتماله عاليًا والمحتمَل فيه قويًا، ولم يكن هناك شيءٌ أفضل منه ميسّرًا، يجب حتمًا أن نسعى نحو ذلك الأمل. فوجود مثل هذا الأمل في النفس ليس أمرًا سيّئًا البتّة. فإذا كان الإنسان مثلًا يأمل بالوصول إلى أداةٍ دنيويةٍ أعلى، يمكنه من خلالها أن يخدم الله وخلقه ودينه، فإنّ مثل هذا الأمل لا عيب فيه أبدًا، بل هو أمرٌ ممدوحٌ وحسن. أمّا إذا كان احتمال تحقّق ذاك الأمل ضعيفًا جدًا والمحتمل فيه ليس بتلك الأهمية والقيمة فإنّ السعي نحوه لا يكون سوى اختيال وصرف تمنّي، ومن المؤسف أن يُنفق الإنسان عمره من أجله.

عند تطبيق هذه الشروط على أمرٍ خارجيّ ملموس، يمكن أخذ هذه الواقعيّة بعين الاعتبار، لنفترض مثلًا أنّه في بلدٍ ما يبلغ عدد سكّانه المئة مليون نسمة،

يوجد مليونا شخص لديهم أمنية الوصول إلى رئاسة الجمهورية، من الطبيعيّ أنّ احتمال تحقيق هذا الأمل هو واحد في عشرة ملايين، وهو احتمالٌ ضعيفٌ جدًا. فرغم أنّ الاحتمال هنا ضعيفٌ إلّا أنّ محتمَله يُعدّ قويًا، لأنّه إذا أصبح أحدٌ رئيسٌ للجمهورية فإنّه يكون قد وصل إلى منصبٍ مهم على صعيد خدمة الإسلام والمسلمين وسيكون أمامه مجالٌ واسع للخدمة. والآن يصل الدور إلى حساب الشرط الثالث حيث ينبغي له أن يرى إذا ما كان هناك عملٌ قيمته أعلى من عمل رئاسة الجمهورية أم لا، فلا ينبغي أن يكون هناك أمرٌ، من جهة الاحتمال والمحتمَل، أعلى أو بالحدّ الأدنى بمستوى قيمة ذاك المنصب نفسه.

وهكذا، نصل إلى هذه النتيجة وهي أنّ على الإنسان أن يبدأ أولًا، وقبل عقد الآمال والسعي نحوها، بالتأمّل في الشيء الذي يأمل به، وبمتعلّق أمله (المأمول)، فهل هو أمرٌ دنيويٌّ صرف، أو يمكن أن يكون مفيدًا لآخرته أيضًا؟ فإذا كان أمرًا دنيويًا محضًا فهل إنّ بذل الجهد من أجله يُعدّ أمرًا ممدوحًا من الناحية الإلهية والإسلامية، أم سيبذل جهودًا كبيرة من أجل أمرٍ دنيويّ ولذةٍ ماديةٍ محضة؟ فإذا كان أمرًا دنيويًا صرفًا فإنّ السعي لأجل تحقيقه يُعدّ سعيًا غير عقلائي، أما لو كان ذا قيمةٍ معنوية فعليه أن يجري تلك الحسابات الثلاثة ليعلم تكليفه، وما إذا كان هذا الأمل حسنًا وعليه أن يسعى نحوه أم لا.

تلازم الهمّة والقدرة مع الآمال

الأمر الآخر الذي ينبغي بيانه هو ما يتعلق باختلاف همّة الأفراد وقدراتهم. فالناس مختلفون من حيث درجة امتلاكهم للهمّة بل في أصل الهمّة، وينبغي أن يجعلوا آمالهم منسجمةً مع مستوى هممهم وذلك لأنّ الآمال الكبيرة والسعي نحوها يحتاج إلى هممٍ عاليةٍ. فافرضوا أنّ شخصًا عاديًّا يريد أن يصبح نائبًا في المجلس فعليه أن يسعى بصورةٍ جدّيّة، وأن يتحرّك على هذا الطريق لكي يصل ذات يوم إلى هذا المنصب. ولا شك بأنّ وجود مثل هذه الأمنية الكبيرة في شخصٍ عاديّ يكشف عن أنّه شخصٌ عالي الهمّة لا ضعيف الهمّة. وإحدى الأمور التي تدّل على علوّ أو دنوّ همم الأشخاص هو كون آمالهم دنيويّة أو أخرويّة. فبعض الأشخاص يكونون على مستوًى من دنوّ الهمّة بحيث يسعون دائمًا نحو الأمور المتاحة والجاهزة، ويتوقّعون دومًا أن يقوموا بالعمل الذي تتحقّق نتيجته في اللحظة، ولا يسعون نحو



تلك الآمال التي تحتاج إلى وقتٍ طويل وجهودٍ كبيرة وتخطيطٍ دقيق وتعبٍ شديد. وفي مقابل هذه الفئة، هناك أفراد يفرطون في الخيال والشغب ويسعون دائمًا نحو تلك الآمال التي يُعدّ احتمال وقوعها ضعيفًا جدًا، فهذان النوعان من السلوك والتصرّف هما من الناحية الأخلاقية وبغض النظر عن القضايا الإسلامية غير لائقين ويعتبران من جملة الأمور غير السليمة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أنّه علينا مراعاة الاعتدال في جميع قضايانا ومنها هذه القضية، وبعبارةٍ أخرى فإنّ الاعتدال يُعدّ من المعايير التي تُستخدم لتقييم الأعمال، وينبغي أن نعتمد عليه في مثل هذا المورد، فلا ينبغي للإنسان أن يسعى دومًا وراء الآخرين ولا ينبغي أن يكون صاحب همّةٍ دنيئةٍ وروحية كسولةٍ وضعيفةٍ ويستسهل الأمور ويسعى دومًا نحو تلك الأشياء التي تكون نتيجتها سهلةً وسريعةً. وكذلك الأمر لا ينبغي أن يكون بصدد تحقيق الآمال الواهية والأماني غير القابلة للتحقّق. فمثلما أنّ الإنسان الدنيء الهمّة لا يمكن أن يحقّق نجاحات مميّزة في حياته، فإنّ الإنسان المختال أيضًا لن يحقّق أي تقدّمٍ أو رُقيّ، وذلك لأنّ مثل هذا الإنسان سواءٌ سعى على طريق الأهداف الدنيويةً أو خطا على صراط الآخرة، فإنّه يتحرك انطلاقًا من الآمال غير المعقولة، من دون أن يجري تلك الحسابات المذكورة؛ ولهذا فهو عادةً لا يصل إلى هدفه، وكأنّه بمجرّد عروض أيّ هوسٍ على ذهنه، فإنّه يدع كلّ ما بيده من أمور، من دون أدنى تفكيرٍ أو تأمّل؛ ففضلًا عن أنّه لا يعرف كيفيّة الوصول إلى هدفه، فإنّه يسعى نحوه بلا طائل.

لأجل ذلك يجب أن يكون الإنسان متوسّط الحال ومعتدلًا، فلا يكون كسولًا وضعيف الهمّة ومستسهلًا إلى هذا الحدّ الذي يريد دومًا أن تكون أموره معدّةً وجاهزةً وينتظر أحدًا غيره أن يلقّمه الأمور بالملعقة، ولا أن يكون بالمقابل مشاغبًا، ويسعى نحو أي شيء قليل القيمة وعديم النفع، ويتحرّك نحو الأشياء عن جهلٍ ومن دون أي ثمرة. فعليه أن يكون معتدلًا ويختار الطريق المعقول وفق حساباتٍ مدروسة، وأن يدفع الثمن والجهد اللازمين. الأشخاص الذين يتمتعون بهممٍ عاليةٍ، لكنهم لا يعرفون طريق الوصول إلى المقصود، أو إنّهم بالرغم من معرفتهم لهذا الطريق لا يبذلون الجهد المطلوب أو لا يمتلكون البرنامج الصحيح لأجل الوصول إلى ذلك الهدف، ليسوا بقلّة. إنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يحقّقون النجاحات في الحياة عادةً، لأنّهم من جهة يعتبرون الآمال الصغيرة دون شأنهم ولا يتحرّكون

نحوها، ومن جانبٍ آخر لأنّهم لا يعرفون كيف يحسبون الأشياء وكيف يخطّطون لها تخطيطًا صحيحًا، فإنّهم منسجمون مع خيالاتهم ولا يعتمدون إلا على أمنياتهم.





رواج سوق الخيال

بالالتفات إلى ما مرّ، نصل إلى هذه النتيجة وهي، أنّه في حال تمتّ رعاية الشروط المذكورة آنفًا يُصبح السعي نحو الهدف الرفيع مطلوبًا، والعمل على تحقيقه أمرًا ممدوحًا، أمّا في حال لم تُراعَ هذه الشروط، فإنّ السعي لتحقيق تلك الآمال، وإن كانت آمالًا عاديةً، فسوف تكون محل عتاب أمير المؤمنين عليعَلَيْهِالسَّلَامُ الذي حذّرنا من الاتّكال على الآمال. أمّا إذا كان لدى الإنسان أمل كبير وأدرك طريقه، وأجرى تلك الحسابات الصحيحة، فلو أنّه بعد التوكّل على الله تعالى، وبالاعتماد على سعيه وجهده، تحرّك نحو تحقيق ذلك الأمل، فلن يكون هذا النوع من الآمال مذمومًا. فهذه الآمال هي التي تُبقي الإنسان حيًا. وينبغي لهذا الإنسان أن يغسل يده من قذارة اليأس وبعد التّوكل على الله المنّان، يختار في البداية هدفه وأمنيته المعقولة والمحسوبة والقيّمة ومن ثمّ يكون بصدد تحقيقها عبر السعي اللازم والمتناسب معها؛ لأنّ هذا العالم هو عالم الأسباب والوسائل، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

وفي الواقع، إنّ الذين يرّبون في أذهانهم تلك الآمال الكبيرة وغير المعقولة هم الذين لا يبذلون السعي المطلوب لأجل الوصول إليها، وليس لديهم المعرفة الصحيحة، ولا يُراعون الأولويّات، فمثل هؤلاء لا شك أنّهم يُشبهون من يُتاجر برأس مال الخيال، وكأنّه يزرع خيالاته الساذجة في أرض الذهن عسى أن تؤتي ثمرةً!

لعلّكم سمعتم ما يرويه الشاعر سعدي عن قصّة ذلك التاجر الذي كان له في سوق خياله تجارةٍ رائجةٍ، وكان يداوم على البيع والشراء في ذهنه، ويقول: سوف أربح من هذه البضاعة هذا المقدار، وسوف أحقق من تلك السلعة هذا الربح، وغير ذلك من الكلام، وبعدها سوف أشتري عدّة غلمان وعبيد، وإذا عصاني أحدهم فسوف أرفع هذه العصا وأضربه على رأسه حتى لا ينطق بكلمة. وإذ به

---

(١) سورة **النجم**، الآية ٢٩.



يسمع صوت تكسّر وعاء السمن، فأدرك أنّ كل ما كان يبيعه ويشتريه لم يكن سوى في خياله، ولم يكن من بيعٍ أو شراء في الواقع سوى ما فعله من كسر وعاء السمن خاصّته. أولئك الذين يرّبون الآمال البعيدة في أذهانهم، ولكنّهم لا يعرفون الطريق الصحيح لتحقيقها أو لا يسعون أو لا يخطّطون بشكلٍ صحيح لأجل تحقيقها، هم في الواقع تجّار يبيعون ويشترون برأسمال الخيال.

وما أجمل الكيفيّة التي عرّف فيها أمير المؤمنين عليعَلَيهِالسَّلَامُ هؤلاء الأشخاص، حيث يقولعَلَيهِالسَّلَامُ إنّ هؤلاء هم حمقى وفاقدون للعقل، يريدون أن يتاجروا برأسمال الخيال والأمل. فالأمل والخيال هما رأسمال تجارة الحمقى. ومُخاطب كلام الإمام عليعَلَيهِالسَّلَامُ هو الشخص الذي يريد أن يعتمد على آماله الطويلة غير المدروسة وغير المعقولة. إنّ أصل قضيّة الأمل ليس مطروحًا هنا، ومقصود الروايات التي عرّفت الأمل بأنّه أحد أكبر المخاطر هو تلك الآمال الدنيويّة الطويلة والبعيدة. والمقصود في هذه الروايات هو أن لا يكون في ذهن الإنسان ذلك الهوس الكبير تجاه الدنيا، فيصرف كلّ سعيه وجهده لتحصيل هذا الهوس الدنيويّ، فهذه الآمال الطويلة تمثّل خطرًا يؤدي إلى نسيان الآخرة. إنّ الأمل المذموم هو الأمل الطويل تجاه الدنيا، والذي يُعدّ مذمومًا بنحوٍ مطلق، وقد اعتبره أمير المؤمنين عليعَلَيهِالسَّلَامُ أحد أكبر الأخطار.

إنّ ما كان محل نظر الإمام في هذه الوصية الإلهية هي تلك الآمال غير المعقولة التي لا يقوم الإنسان تجاهها بذلك التقييم الصحيح، والتخطيط السليم والسعي المناسب. يقول الإمامعَلَيهِالسَّلَامُ: احذروا من الاعتماد على هذه الآمال، لأنّها البضائع والسلع التي يعتمد عليها الحمقى: «**إيّاكَ والاِتّـكالَ عَلَى المُنى فَإنَّها بَضائِعُ النُّوكى**»، فالذي يتّكل على هذه الآمال، بالرغم من فقدان الشروط المذكورة سابقًا، سيبقى محرومًا في الدنيا والآخرة. فهذا الكلام هو نهج الحياة وفوائده لا تنحصر بالآخرة، لأنّ الذي يعيش على الأماني فقط، ولا يبذل الجهد المطلوب للوصول إلى أهدافه، سوف يهدم دنياه ويخرّبها، لأنّه لم يقيّم هدفه تقييمًا صحيحًا، ولم يُشخص طريقه أو يسعى سعيه، وفي النتيجة، فإنّه لن يصل إلى هدفه، وحين لا يصل إلى دنياه، فإنّه لن يصل إلى آخرته بطريقٍ أولى. فلو أنّه بذل ما هو مطلوبٌ من السعي والجهد على طريق ذلك الأمل ووصل إليه، فمن الممكن أن يؤّمن آخرته؛ أمّا إذا لم يسعَ وعاش على الأمل فقط فسوف يُحرم من





الدنيا والآخرة. ومثلُ هذا الحال ينطبق أيضًا على اكتساب المعلومات والأهداف الأخرويّة. فالذي يحبّ أن يصل إلى المقامات الأخرويّة وإلى درجات الأولياء، لكنه لا يكدح في هذا الطريق ويكتفي بـ «إن شاء الله» في هذا المجال، فإنّه شخصٌ قد تعلّق بحبل الخيالات والأوهام الذي لا يؤدي إلى شيء.

وينقل القرآن الكريم مصداقًا بارزًا وكاملًا لهذا النوع من الاختيال والتوّهم وذلك بما كان يحكيه أهل الكتاب: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾[١]. لقد وهب الله تعالى بني إسرائيل نعمًا وافرةً وأحاطهم بالكثير من ألطافه، وقد بيّن القرآن الكريم بعض نماذج هذه النعم الماديّة والمعنويّة للرب المنّان، وقد أصبح نزول النعم والألطاف الإلهية اللامتناهية عليهم، سببًا لاغترارهم وتصوّرهم بأنّهم أعزّاء عند الله حتى قالوا: «﴿نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[٢] ولا يمكن لله أن يعذب أبناءه في جهنم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾. فتوهموا أنّه لو ارتكب أي شخص من بني إسرائيل معصيةً كبرى، فإنّه لن يُعذّب في جهنم سوى أيامًا قليلة، لكنّه سوف ينجو في نهاية المطاف.

وهنا، يقول القرآن: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾[٣]، فما هو الدليل على هذا الكلام الذي ذكروه؟ وإلى أي درجة أنتم مطمئنون بأنّكم سوف تصلون في النهاية إلى السعادة وتنجون من العذاب؟ وما هو دليلكم على هذا الكلام وعلى ما أظهرتموه من اعتقادات؟ فإذا كان لديكم دليلٌ ما على هذا المدّعى، هنا تأتي الآية ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[٤]. فمثل هذا الادّعاء هو مجردّ أمنية وهي أمنيةٌ فاقدةٌ للأساس والدليل، فعلى أي أساسٍ حصل لكم الاعتقاد بأنّكم من أهل الجنّة ولن تدخلوا جهنّم؟! فعلى الإنسان أن يكون صاحب معرفةٍ بشأن أمنيته ويعلم أنّ مثل هذه الأمنية قابلةٌ للتحقّق، ويعرف الطريق الموصل إليها. إنّ وجود الجنّة وتحققّها أمرٌ صحيح وقطعيّ، ولكن ما هو الطريق للوصول إليها؟ فهل يكفي لتحققّ ذلك أن يكون الإنسان من بني إسرائيل؟ وهل إنّ مجرّد كون الإنسان من الشيعة

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٨٠.

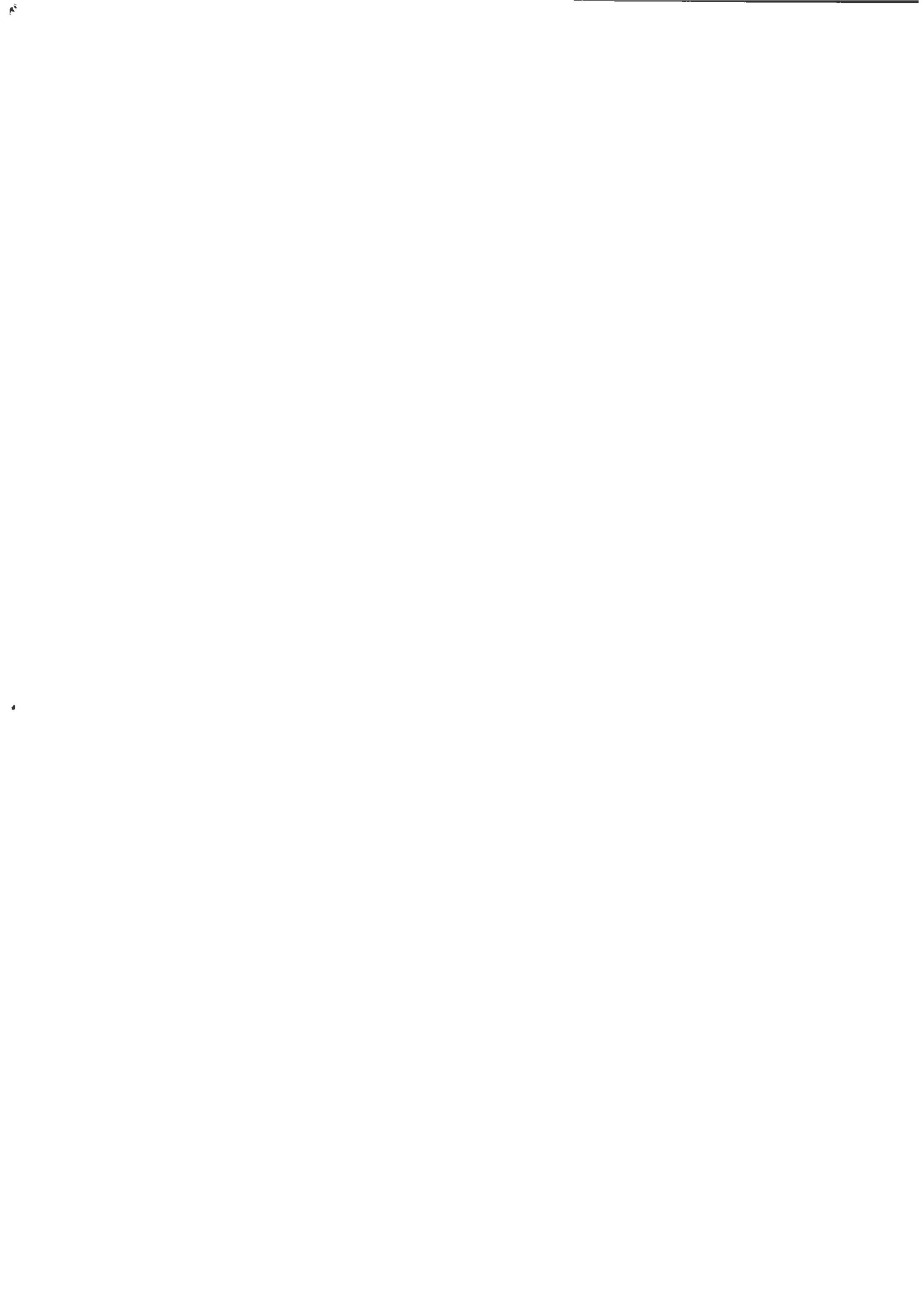
(٢) سورة **المائدة**، الآية ١٨.

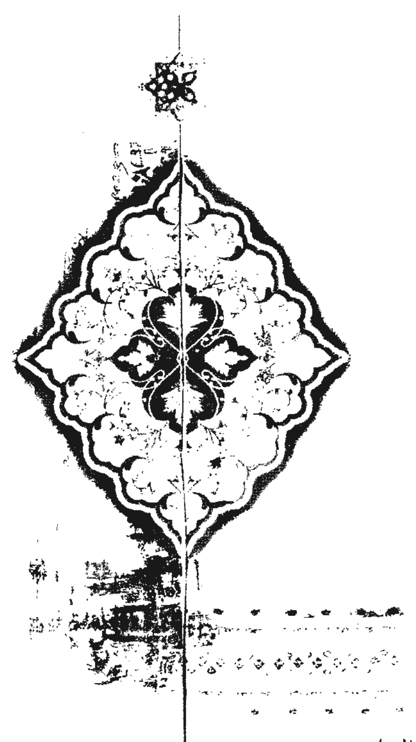
(٣) سورة **البقرة**، الآية ١١١.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ١١١.

كافٍ للوصول إلى الجنة؟ بالطبع، إنّ الشفاعة حقٌّ، لكن للشفاعة شروطٌ ينبغي للإنسان أن يحقّقها، فلا يوجد عقد صداقةٍ بين الله وأحد، بل إنّ من يطع الله سيكون محبوبًا عنده تعالى، وكل من يعصيه سيكون عدوًّا لله. إنّ أحباء الله الذين هم أهل طاعته قد يبتلون بالذلات وتصدر منهم معاصٍ، ولكن من الممكن أن ينجوا من العذاب الإلهيّ وفق شروطٍ خاصّة وبصورٍ مختلفة. وشرط الشفاعة هو أن يكون أوّلًا محبًا لله سبحانه وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وثانيًا أن يكون من أهل الطاعة، وثالثًا أن تكون ذلّته ومعصيته عمدًا، ويكون الأساس عنده رعاية الأحكام الإلهية لا مجرّد ادّعاء محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. لا يكون الإنسان بهذا الادّعاء من أهل الجنة. إنّ مثل هذه الأمنية هي أمرٌ ساذجٌ لا غير. وعلى أيّ حال، سواء كان الأمر متعلّقًا بشؤون الدنيا أو بشؤون الآخرة، فإنّ الاتّكال على الآمال الفاقدة للأساس ليس أمرًا عقلائيًا بل هو أمرٌ أحمق ويمنع صاحبه من الوصول إلى الأعمال الدنيويّة والأخرويّة.







الدرس الثامن والعشرون
القلب الصافي

- القلب ونشاطاته
- مصدر تغذية القلب
- يجب الاكتراع حتى تمتلئ الروح
- حكمة تكرار بعض الأعمال الأخلاقية والعبادية
- العلم مصباح الطريق
- عوامل الانحراف عن الهدف
- معرفة الحقّ
- لا يمكن الوصول إلى التكامل بواسطة الجهل







«ذَكِّ قَلْبَكَ بِالأدبِ كَما تُذَكِّي النّار بِالحَطَبِ، وَلا تَكُنْ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ وَغِثاءِ السّيل وَكُفْرُ النِّعْمَةِ لُؤْمٌ وَصُحْبَةُ الجاهِلِ شُؤْمٌ».

إنّ الحالات العارضة على القلب كالغمّ والفرح والاضطراب والاطمئنان وغيرها تؤثّر أكثر من أي شيءٍ آخر في أعمال الإنسان وسلوكه، بحيث إنّ أفضل وأقرب طريقٍ لتغيّر السلوك وإصلاحه هو إصلاح القلب. من هنا، لم ينحصر الأمر في علماء الأخلاق، بل إنّ الحكماء أيضًا يؤكدّون على تحصيل صفات خاصّة للقلب، ويعتبرون ذلك مقدّمةً وسبيلًا لنيل المعارف الإلهيّة، وفي هذا المقطع نجد الإمام عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يوصي بتصفية القلب من أجل تأمين المقدّمات الكاملة لطيّ مراحل الكمال والعلوّ.

القلب ونشاطاته

يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ذكِّ نفسك بالأدب**» كما يزيد الحطب من استيعار النار. وفي هذا الكلام، تمّ تشبيه قلب الإنسان بالنار، التي إذا تُركت فإنّها تخمد ولا تستعر، وإذا أضفنا إليها الحطب فإنّها تستعر. فمثلما أنّ النار تلتهب وتستعر وتحتاج إلى الحطب كي تستمرّ على هذه الحال، فإنّ قلب الإنسان من خلال الأدب يزداد توقّدًا ونورانيّة. فالنار تبقى مشتعلةً بالحطب والقلب بالأدب، فهنا وفي مقام التشبيه، إنّ الشيء الذي ينبغي عرضه على القلب لكي يقوى وتظهر آثاره، تمّ التعبير عنه بـ «الأدب». وبالطبع، إنّ للأدب معانٍ واستعمالات مختلفة وسوف نُشير إلى بعضها.

إنّ المقصود بالأدب هي تلك الأمور التي تبعث على حُسن السلوك عند

الإنسان، أي إنّ الأدب يُطلق على ما يدلّ الإنسان على جمال وحسن السلوك. و«التأديب» مشتقٌ من هذه المادة أيضًا، فإذا أردت أن تجعل قلبك مثل النار المشتعلة، وأن يكون مضيئًا ومنيرًا، ينبغي أن تغذّيه بحُسن السلوك والتعامل الحكيم وإلّا فقد نشاطه وحيويته.

مصدر تغذية القلب

ليس المقصود من القلب في الاصطلاح القرآني وفي الروايات ذاك العضو الصنوبريّ الذي يقع في الجهة اليسرى من الصدر، بل المقصود منه هو تلك القوى التي تُدرك، والتي هي مركز الأحاسيس والعواطف. فلو قمنا بتحليل موارد استعمال كلمة القلب في القرآن الكريم لوصلنا إلى خاصّيّتين بالحدّ الأدنى وهما: الأولى هو أنّه يُدرك الحقائق ويفهم الأشياء ويراها. والأخرى هو أنّ للقلب أحاسيس وعواطف وحالات كالرحمة والقسوة والعطف والشدّة والرأفة وغير ذلك.

وقد تُستعمل كلمة الفؤاد أيضًا بشأن حالات القلب.

وبالالتفات إلى كلام الإمام عليه السلام، فإنّ القلب هو قوةٌ تقع في باطن الإنسان، ذات استعداد للاشتعال والنورانيّة والدفء وبعث النور. لكن مثل هذه الأمور لا تحصل من تلقاء نفسها بل تحتاج إلى طاقةٍ وإلى تغذيةٍ. ومثلما أنّ البدن خصوصًا في مرحلة الطفولة والشباب لديه استعداد للنموّ، لكنّه لا ينمو من تلقاء نفسه بل يحتاج إلى الغذاء، فإنّ القلب لديه الاستعداد لإدراك الحقائق وإبراز الأحاسيس والعواطف ولكن ينبغي أن يُغذّى ولا بدّ من إيصال الغذاء السالم إليه. فقلب الإنسان يشبه المصباح الذي يحتاج إلى طاقةٍ محدّدة للإضاءة والنور، فإذا بعث المصباح نورًا فذلك لأنّه كان متّصلًا بمركزٍ للطاقة يتغذّى منه. إنّ قلب الإنسان أيضًا له مثل هذا الاستعداد لإدراك الحقائق والتعبير عن الأحاسيس والعواطف، ولكن ذلك إنّما يحدث حين يكون الغذاء سليمًا، ومن هنا يجب تأمين الطاقة المطلوبة للقلب لكي يؤدّي هذين النشاطين الأساسيين، وإلاّ فإنّه بدونها سوف يخمد.

النقطة الأخرى المستفادة من هذا الكلام النورانيّ للإمام علي عليه السلام، هي أنّه إذا أردنا أن تبقى نيران القلب مشتعلةً دائمًا، ويكون جاهزًا لتقبّل الحقائق



وإظهار العواطف، ينبغي تأمين طاقته بواسطة ذاك الشيء الذي لديه قابلية إعطاء الطاقة. فليس كل شيءٍ قادرًا على تأمين طاقة القلب، مثلما إذا وضعنا الماء أو الحجر في النار فإنّهما لا يؤثّران في اشتعالها، وكذلك الأمر إذا وضعنا شيئًا في القلب يؤدّي إلى خموده وانطفاء ناره بدل إشعاله. فلا ينبغي لنا أن نتوقّع منه أن يزداد فعاليّة؛ فليس كل ما يدخل القلب يكون نافعًا له، وليست كل معلومةٍ تدخل القلب تؤدّي إلى تقوية أحاسيسه وتبعث على رشده وكماله. فربّ غذاءٍ يُعدّ من المواد السامّة التي تؤدّي إلى فساد القلب وزواله، أو التقليل من نشاطه وحيويّته. لهذا، لا بدّ من تغذية القلب بالشيء الذي يتناسب مع كماله وارتقائه ويؤدّي إلى رشده.

من هنا، يجب تشخيص الغذاء والمواد المولّدة للطاقة القلبيّة أي لتلك الأغذية التي تؤدّي إلى ازدياد رشده وكماله بمجرّد الوصول إليه، وهذا الغذاء هو ذاك الشيء الذي أسماه الإمام عليه السلام الأدب. المقصود من الأدب هو تلك الأمور التي تؤدّي معرفتها إلى تحسين سلوك الإنسان ومعاشرته، وتوثّر في حسن تعامله، فعلى الإنسان أن يتعلّم أمورًا ويعرضها على قلبه ممّا يُوجب حُسن سلوكه ويساعده على أداء الأعمال الصالحة ويجنّبه الأفعال السيّئة، فلو عُرضت مثل هذه المواد والأغذية على قلب الإنسان بشكلٍ دائم يمكن أن نأمل لهذا القلب بأن يزداد اشتعالًا يومًا بعد يوم، ويقترب من كماله أكثر. أمّا إذا تُرك القلب ليتغذّى بأي شيء كان، وليستفيد من أيّ عاملٍ يبعث فيه الأحاسيس ويحرّك فيه العواطف، أو إذا تُرك على حاله، فلا يؤمل له الرشد والتكامل. ففي هذه الحالة، يُعدّ مثل هذا الأمل توهّمًا وسوف تزداد أسباب انحرافه وسقوطه يومًا بعد يوم. لهذا، يجب أن نثابر على تعليم القلب هذا الأدب ونعرض عليه المسائل الصحيحة والمفيدة والمُلهمة، كما أنّ علينا أن نؤمّن له تلك الأسباب التي تبعث فيه الأحاسيس المطلوبة والعواطف الإلهيّة بعيدًا عن الأحاسيس والعواطف الشيطانيّة.

يجب الاكتراع الدائم حتى امتلاء الروح

النقطة الأخرى التي تُستفاد من هذا المقطع من وصيّة الإمام علي عليه السلام هي أنّ القلب باعتباره مركز الإدراك والأحاسيس، يجب أن يتغذّى بصورةٍ مستديمة. فقد نتصوّر أحيانًا أنّنا فهمنا مسألةٍ ما وأصبحنا عالمين بها، سواءٌ حصل ذلك عن طريق

البرهان اليقينيّ أو النقل أو بواسطة الشهود فنتصوّر مثلًا أنّنا لو أدركنا لمرّةٍ واحدة أنّ الله موجود وآمنّا به وقلنا «أشهد أن لا إله إلّا الله»، فإنّ هذا يكفي إلى الأبد. في حين أنّ الأمر ليس على هذا النحو، فمثلما أنّنا بحاجة إلى المحروقات وإلى الطاقة لأجل الإضاءة والإشعال، فإنّنا نحتاج إليها أيضًا على نحو الدوام إذا أردنا لهذا الاشتعال والاحتراق أن يستمرّ. وقلب الإنسان هو على هذا النحو، فإنّه بحاجة مستديمة إلى الطاقة، فالمعرفة لمرّة واحدة وإقامة البرهان لا يكفيان، فالتوجه إلى مسألةٍ ما يمكن أن يكون مؤثّرًا إلى مدةٍ معينة، ولا شكّ بأنّ مدة تأثير تلك المسألة ترتبط بقوّة نفوذها أو بالعوامل الخارجية الإيجابية والسلبيّة التي تجعل الإنسان تحت تأثيرها. وعلى أيّ حال، حين يتعلّم الإنسان مسألة حقّانية فإنّ تأثيرها في سلوكه سيكون محدودًا، لهذا ينبغي أن يواظب عليها ويراقب ويمدّ قلبه بالغذاء، وإلّا فإنّه سينطفئ ويزول أثره، إنّ تحصيل العلم لمرّةٍ واحدة، والإيمان مرة واحدة، لن يكون كافيًا للإنسان حتى آخر عمره، يجب على الإنسان أن يغذّي عقائده وإيمانه ويسعى دائمًا لدراسة أدلّته وتلقين قلبه على نحوٍ دائم ويقوم بما يُبقي ذاك الاعتقاد حيًّا فيه.

حكمة تكرار بعض الأعمال الأخلاقيّة والعباديّة

إنّ السرّ في الشريعة الإسلامية وحتّى في جميع الأديان السماويّة من وراء تكرار الأعمال العبادية وغير العباديّة هي أنّ ذاك الاعتقاد القلبيّ يبقى حيًّا نتيجة هذا التكرار، ويتغذّى علم الإنسان وإيمانه ويقوى لحظةً بعد لحظة. فعلى سبيل المثال، يجب أن يكرّر الانسان قول»الله أكبر» في أركان الصلاة، فحين يركع يجب أن يقول «الله كبر»، وحين يسجد يجب أن يقول «الله أكبر»، وحين يُنهي قراءته يجب أن يكبّر، وإذا أتمّ صلاته فإنّه من المستحبّ أن يكبّر ثلاث مرات، كما أنّه ورد في تسبيح السيّدة الزهراء عَلَيهاالسَّلامُ تكرار الله أكبر ٣٤ مرة. فكل هذا التكرار إنّما يرتبط بقضيّة احتياج الإنسان إلى التغذية الروحيّة والإيمانيّة المستمرّة. وكما أنّ التنفّس مرةً واحدة لا يكفي لمدّ الرئتين بالهواء، بل على الإنسان أن يستمرّ بالتنفّس ليوصل الأوكسجين إلى بدنه، فإنّ روحه أيضًا تحتاج إلى تغذيةٍ مستديمة. وكما أنّ تناول الطعام مرةً واحدةً لا يكفي لبقاء الإنسان حيًّا إلى آخر عمره، بل عليه أن يتناول هذا الطعام عدّة مرّاتٍ في اليوم، فإنّ روحه وقلبه بحاجة إلى التغذية المستمرّة.

فإذا لم يذّكر قلبه باستمرار، بهذه المعارف الحقّة والاعتقادات الحنيفة، فإنّ هذه المعارف والعقائد سوف تبهت شيئًا فشيئًا وتفقد أثرها على مدى الزمان، وفي النتيجة حين يواجه الشبهات والاعوجاج الفكري، فسوف تغلبه ويحصل له الشك والترديد في أفكاره ومعارفه وعقائده. وإذا شاهدنا بعض الناس الذين كانوا يؤمنون بمعارف الإسلام وأحكامه ويعتقدون بها، لكنّهم بعد مدّةٍ ابتُلوا بالشك والترديد فيها، فذلك لأنّهم لم يكونوا بحالةٍ من الذكر والتعلم والعمل المستمر. إذا ابتُلي الإنسان بالمعصية والغفلة، فإنّ عقائده تضعف وسوف يشكّ في كلّ شيء. على سبيل المثال، حين يشاهد كرامة الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في شفاء مريضٍ يقول إنّ هذه الحادثة تصادفيّة ولا شكّ أنّ هذا الكلام يدلّ على ضعف إيمانه ومعرفته، وهذا الضعف قد برز على أثر الغفلة عن الحقّ وتأثير العوامل المضادة للإيمان وهي المعصية.



فإذا أردنا لقلوبنا أن تبقى نابضةً حيّةً مشتعلةً، وتنمو وتقترب من الحقائق أكثر ينبغي تغذيتها دومًا والمحافظة على سلامتها وعرض الأفكار الصحيحة عليها وإبعادها عن الأفكار المسمّة، وفي هذا المجال فإنّ ما هو منبع حياة القلب والحفاظ على حيّويّته والمؤدّي إلى رشده والإبقاء على نوره وزيادته هو الأدب. إنّ الأدب هو الذي يبعث المعارف الصحيحة والأحاسيس الإلهيّة النقيّة، وهو الذي يبعث على صيانة القلب من الآفات كالغفلة والمعصية وضعف المعرفة، وهو الذي يُبعد القلب عن الأفكار الخاطئة والأوهام والشبهات. ومثلما أنّ الأغذية السليمة تؤدّي إلى نموّ البدن، وفي المقابل تكون الأغذية السامّة المضرّة سببًا لضعفه، وأحيانًا تؤدّي إلى موته، فإنّ القلب إذا تغذّى بالأغذية السليمة والعلوم والمعارف الحقّة، فسوف يستفيد وينمو ويقوى. وإذا حُرم منها أو تغذّى بالشبهات والأوهام والأفكار المغلوطة فسوف يفقد إيمانه ويفسد بعد مدّة. فعلينا أن نُغذّي قلوبنا بواسطة الأدب والتعاليم الصحيحة المؤثّرة في تحسين السلوك، مثلما أنّنا نغذّي النار بواسطة الحطب.

العلم مصباح الطريق

إذا جرى الحديث في هذا الكلام النورانيّ عن الحطب وعن أشياء أخرى مشابهة، فذلك لأنّه في ذلك الزمان لم يكن هناك كهرباء حتى يتمّ التشبيه بها وبأمثالها. إنّ

فصاحة المتكلّم وبلاغته يقتضيان أن يشبّه المسائل بتلك الأمور التي يعرفها الناس ويأنسون بها. فلأنّ النار والحطب كانا مستعملين في تلك الأزمنة، استخدمهما الإمام كمثال. وأولئك الذين يعملون على تأمين الحطب يختلفون فيما بينهم، وفي بعض الأحيان هناك من يسعى مع بصيرةٍ ووعيٍ، ولهذا فإنّه يستفيد من ضياء النهار، فيجمع الحطب أو يحصل عليه من مصادره المناسبة فيشتريه ويُشعل النار به. وهناك أفرادٌ جاهلون يسعون لجمع الحطب في الليل المظلم، ومن الواضح أنّه لا يمكن أن يجمع الإنسان حطبًا جيّدًا في ظلمة الليل الحالك؛ يقول العرب في تشبيه فلانٌ كحاطب الليل، أي هو لا يستطيع أن يجمع حطبًا قابلًا للاشتعال، بالإضافة إلى أنّه قد يُبتلى أحيانًا بحوادث أسوأ من ذلك وأشدّ وخامة، كأن يُصاب بلسعة عقربٍ أو عضّة حيّة أثناء مدّ يده إلى الأرض للحصول على الحطب، ومن هنا فإنّه بدل أن يجمع الحطب سيجمع ما لن يكون مفيدًا له، بل قد يعرّض حياته للخطر ويضرب العرب المثل بمثل هذا الشخص الذي يسعى وراء أمرٍ من دون تفكيرٍ وتدبيرٍ مسبق، وبدل أن يصل إلى مقصوده فإنّه يخسر ما لديه.

إنّ الشخص المدبّر والبصير قبل أن يقوم بأي عمل فإنّه يحدّد الهدف من ورائه، ثمّ يعيّن طريق الوصول إلى ذلك الهدف، وبعدها يبدأ بالسعي والعمل. وهذا بخلاف الشخص الذي يُطأطئ رأسه إلى الأرض ويتحرّك من دون أن يشخّص الهدف الذي ينبغي أن يسعى إليه، أو قد يحددّ الهدف لكنّه يقوم بعملٍ لا يُعلم فيما إذا كان يُوصل إلى المقصد، وربما يبعده عن هدفه. ومن المسلّم به أنّ مجرّد التحرّك لا تكون دائمًا لمصلحة الإنسان؛ فلو وقف الإنسان في محلّه، وثبت فيه لكان أفضل له من أن يتحرّك على الطريق الذي يبعده عن هدفه ومقصده. إنّ التحرك والسعي إنّما يكون مفيدًا إذا أدّى إلى المقصد. فلا بدّ أوّلًا من تشخيص الهدف والمقصد، ومن ثمّ تحديد طريق الوصول إليه، ليأتي بعدها دور التحرّك والسعي. إنّ الذي يسعى وهو مُغمض العينين ولا يدقّق فيما إذا كان هذا التحرّك مفيدًا له أو مضرًّا، ويتساهل في تشخيص المصالح، يُعدّ كحاطب الليل لأنّه من دون المعرفة والبصيرة، سوف يجمع كل ما تصل إليه يده، وربما يجمع شيئًا يؤدّي إلى هلاكه.

إنّ الذي يريد أن يحقّق اشتعال القلب عليه أن يسعى عن معرفةٍ، وراء الشيء الذي يزيد من حياة قلبه، فيجب أن يميّز بين الحقّ والباطل ويتعرّف على



الحقّ ويبتعد عن كلّ باطل وينزّه نفسه عنه. يجب عليه أن يسعى لتعريف قلبه على الحقائق والأُنس بها بحيث إذا واجه باطلًا سوف يميزّه بسرعة ويعرف أنّه ليس من سنخ الحقائق.

وبهذا البيان، عرفنا أنّ الإنسان بحاجة إلى الغذاء المناسب لإبقاء شعلة القلب، وهذا الغذاء السليم والمفيد هو تلك الأفكار الصحيحة والمعارف الموثوقة الباعثة على الطمأنينة والملهمة والمؤثّرة، فلا يُطالع كل ما يصل إلى يده، ولا يكتسب أي علم يُعرض عليه، ولا يستمع إلى أي حديثٍ يُقال له. يجب أن يميّز الحقّ من الباطل في كل هذه الأمور، ولا يُنفق وقته عبثًا في تحصيل الأمور المشتبهة والملوّثة والباطلة والمضرّة.

عوامل الانحراف عن الهدف

ويُشير الإمام في بيانه هذا إلى نوعين من الانحراف: أحدهما هو انحراف في الموضع الذي يعرف الإنسان فيه هدفه ويحدّده جيّدًا لكنه لا يعرف طريق الوصول إليه، ففي هذا المجال سيكون كحاطب الليل في اختيار مسيره، وسيشتبه عليه الأمر. إنّ حاطب الليل يعلم جيّدًا أنّه بحاجةٍ إلى الحطب لإشعال ناره، فهو يعرف هدفه جيدًا والهدف واضحٌ تمامًا بالنسبة له، لكنّه يُخطئ في تحديد الطريق الذي يُؤدّي إلى الحطب، أو أنّه يختار وقتًا لتحقيق هدفه ويكون هذا الوقت غير مناسبٍ للهدف.

إنّ القسم الأوّل من هذه الجملة ناظرٌ إلى انحراف لا يعلم الإنسان فيه طريق الوصول إلى الهدف، ولكن القسم الآخر من الانحراف هو الأشدّ حيث لا يعرف الإنسان هدفه من الأساس وقد أخطأ في اختياره. فهذا الانحراف أشدّ وخامةً لأنّه لا يمتلك هدفًا من الأساس، وقد رمى بنفسه في لُجّة الأحداث وهو لا يعلم إلى أين تأخذه تيّاراتها وما هي ضالّته، مثل هذا الشخص يشبّهه الإمام عليه السلام بغُثاء السيل، أي تلك الأشواك والبقايا التي تحملها أمواج السيل الجارف وتسوقها في كل اتّجاه، وهي لا تعلم من أين جاءت، وإلى أين تسير، فقد رمى بنفسه وسط هذه الأمواج العاتية وأوقعها بيد سيول الأحداث المختلفة، فهو في تحرّكٍ دائم، لكنّه لا يعرف إلى أين سيكون مصيره. أولئك الذين لا هدف لهم في الحياة ولا يفكّرون

في سبب وجودهم وإلى أين ينبغي أن يصلوا وما الذي ينبغي أن يقوموا به، فإنّهم بمجرد أن يشاهدوا الناس يقومون بأمرٍ ما، فإنّهم يتّبعونهم ويفعلون مثلهم، لكنّهم لا يميّزون ولا يعرفون إلى أين يُسار بهم وما هو الهدف من ذلك. فبالنسبة لأمثال هؤلاء لا يوجد هدفٌ محدّد أو مقصدٌ تمّ تحديده مسبقًا.





اسعوا ألّا تكونوا أمثال هذه المخلوقات التي تتحرّك من دون هدف، وتلقي بنفسها في أيدي الحوادث، بل فكرّوا في أنفسكم واختاروا هدفًا واحصلوا على الاستقلاليّة واعملوا ببصيرةٍ ووعيٍ ونشاط ولا تكونوا منفعلين بحيث يقرّر الآخرون عنكم ويسوقونكم كما يحلو لهم؛ فأنتم تمتلكون قدرة التحديد والتمييز.

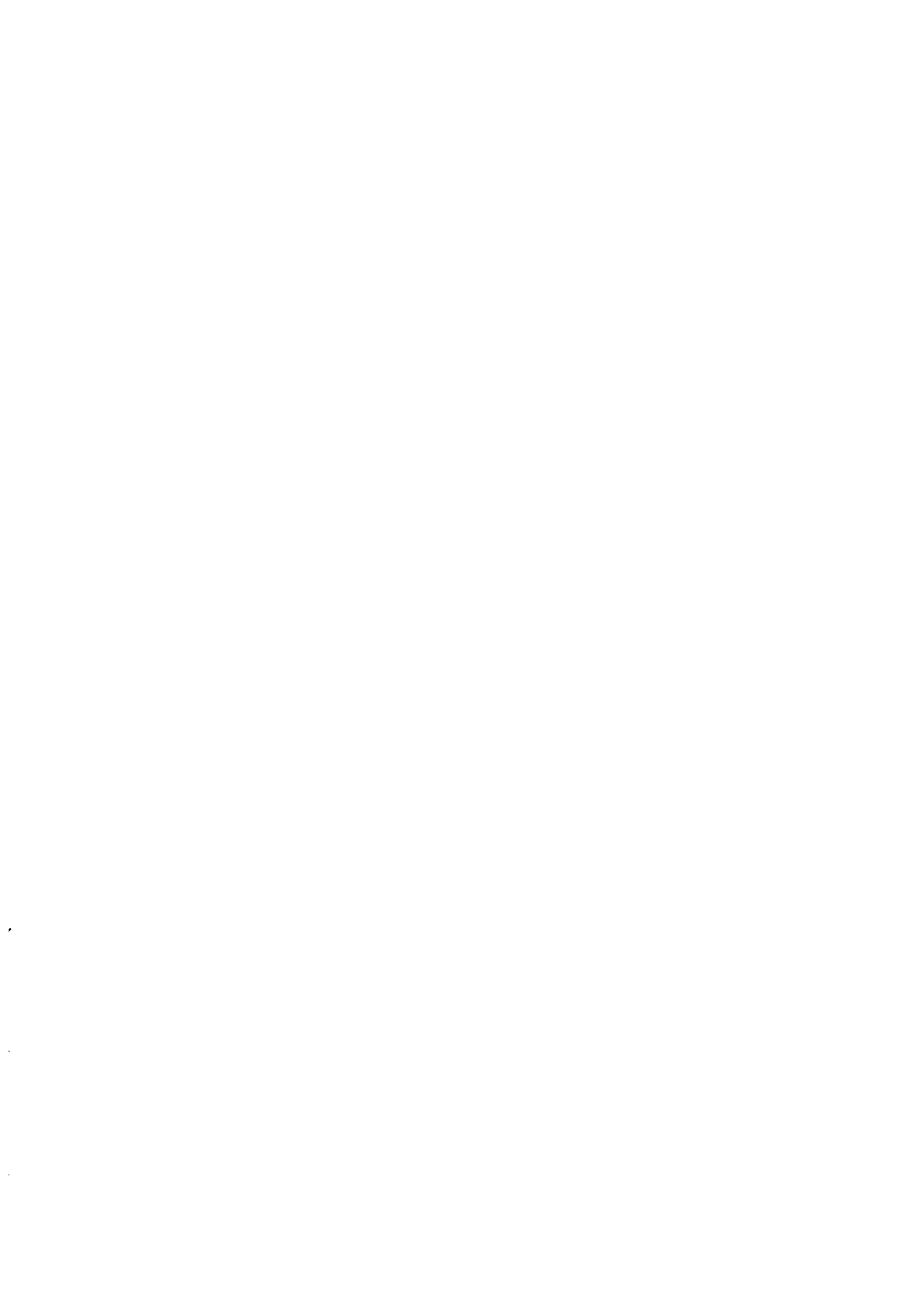
معرفة الحقّ

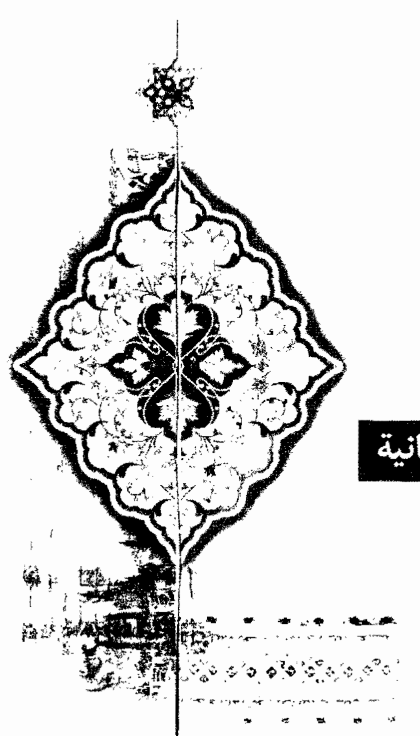
ومن الكلمات القصار التي ذكرها الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بتبع الكلام السابق هذه االجملة الشريفة حيث يقول: «**كُفْرُ النِّعْمَةِ لُؤْم**»، فالإنسان يميل فطريًّا وتلقائيًّا لتقدير وليّ نعمته، فهذا الميل الطبيعيّ والفطريّ موجودٌ في كل إنسانٍ خلقه الله سبحانه. فحين يتشكّر الإنسان من ينعم عليه أو يعينه ويقدّر له ذلك فإنّه في الواقع يُرضي وجدانه ويحقّق لنفسه الطمأنينة الباطنية، وكأنّه يُرضي ذاك الميل الباطني والإلهيّ الموجود فيه. أمّا إذا انحرفت هذه الميول، وحُرم الإنسان بسبب ذلك من هذه الهداية الفطريّة الإلهيّة بحيث يسلب هذه الكرامات وهذه القيم ويفقد هذه الأمور الفطرية الإلهية بسبب سوء اختياره واتّباعه لأهوائه وهوسه النفسانيّ وتمسّكه باللذائذ الدنيويّة الآنيّة والزائلة. حتى إنّ هذا الانحراف عن الفطرة قد يصل إلى حدٍّ لو قدّم له أحدٌ خدمةً ما، فإنّه لا يعتبرها خدمة ولهذا فإنه ينساها ولا يقدّر من عملها. من الواضح أنّ من لا يمتلك روحية تقدير الحقّ ومعرفته فإنّه لن يكون شاكرًا لنعم الله، ومثل هذه الحالة النفسية هي صفةٌ قبيحةٌ تؤدّي بالإنسان إلى خسارة كرامته الذاتيّة المودعة فيه. إنّ جوهر وجود الإنسان يحوز على هذه الكرامة الإلهيّة المودعة فيه، وقد امتزج هذا الجوهر بمعرفة الحقّ وشكر النعمة. فإذا فقد الإنسان مثل هذه الروحيّة الفطريّة فإنّه يكون قد فقد ذلك الشرف والكرامة والمجد الإلهيّ، وسوف يتحوّل إلى إنسانٍ لئيم ودنيئ: «**كُفْرُ النِّعْمَةِ لُؤْم**». وهذا هو منتهى الدناءة والرذالة حين يحصل الإنسانُ على خدمةٍ ما، ومع ذلك فإنّه يتناساها أو إنّه يقابلها بما هو ضدّ الشكر والإحسان.

لا يمكن الوصول إلى التكامل بواسطة الجهل



لقد خُلق الناس بحيث يستفيدون من نعمة وجود بعضهم إلى جنب بعض، فهم يعينون ويستعينون ويخدمون ويستمدّون من بعضهم من أجل التكامل والترقّي، لكن لا شكّ أنّ طريق التكامل سوف يكون مسدودًا أمام ذاك الذي لأيّ سببٍ كان، هو محرومٌ من نعمة العقل. وإنّ مجالسة مثل هذا الشخص لن تكون ثمرتها سوى الضرر والخسران والبؤس. بالطبع، إنّ أسباب الحرمان من العقل مختلفة: فالبعض يُبتلى بضعف العقل نتيجة سوء اختياره، والبعض يُحرم من هذه النعمة منذ بدء الخلقة، والبعض الآخر يُبتلى بذلك بسبب أمراضٍ معيّنة، وهناك من يكون صاحب قوّةٍ عاقلةٍ، ولكنّه بسبب عدم استعمالها وبسبب تجنّبها، فإنّه يفقدها شيئًا فشيئًا، لأنّ كل قوةٍ إذا لم يستفد الإنسان منها وقام بتعطليها فسوف تضعف إلى أن تزول. فإذا أغلق الإنسان عينه لمدّةٍ ما فإنّها ستفقد ذاك الضياء، وإذا أغلق يده مثلًا لمدّةٍ طويلة فسوف تُصاب باليباس وتفقد طاقتها. إنّ القوّة العاقلة إذا لم تُستعمل وإن كانت فطريةً فإنّ نورها سوف يضعف حتّى تزول. إنّ عدم استعمال القوّة العاقلة يتجلّى في استغراق الإنسان في الشهوات واتّباعه للهوى والهوس، وفي هذه الحالة نجد هذا الإنسان قد ابتعد عن الاستماع إلى أوامر العقل، ولهذا فإنّه سوف يفقده على مدى الأيام ويصبح فاقدًا للعقل. لذلك، فإنّ مجالسة وصحبة أمثال هؤلاء الذين لا يتمتّعون بالقدرة العقلية، لأي سببٍ كان، لن تكون مفيدةً للإنسان فحسب، بل سوف تجعله عرضةً للأثر السيّئ لسلوك هؤلاء، وتؤدي إلى نكبته وشؤمه: «**صُحْبَةُ الْجاهِلِ شُؤْمٌ**».

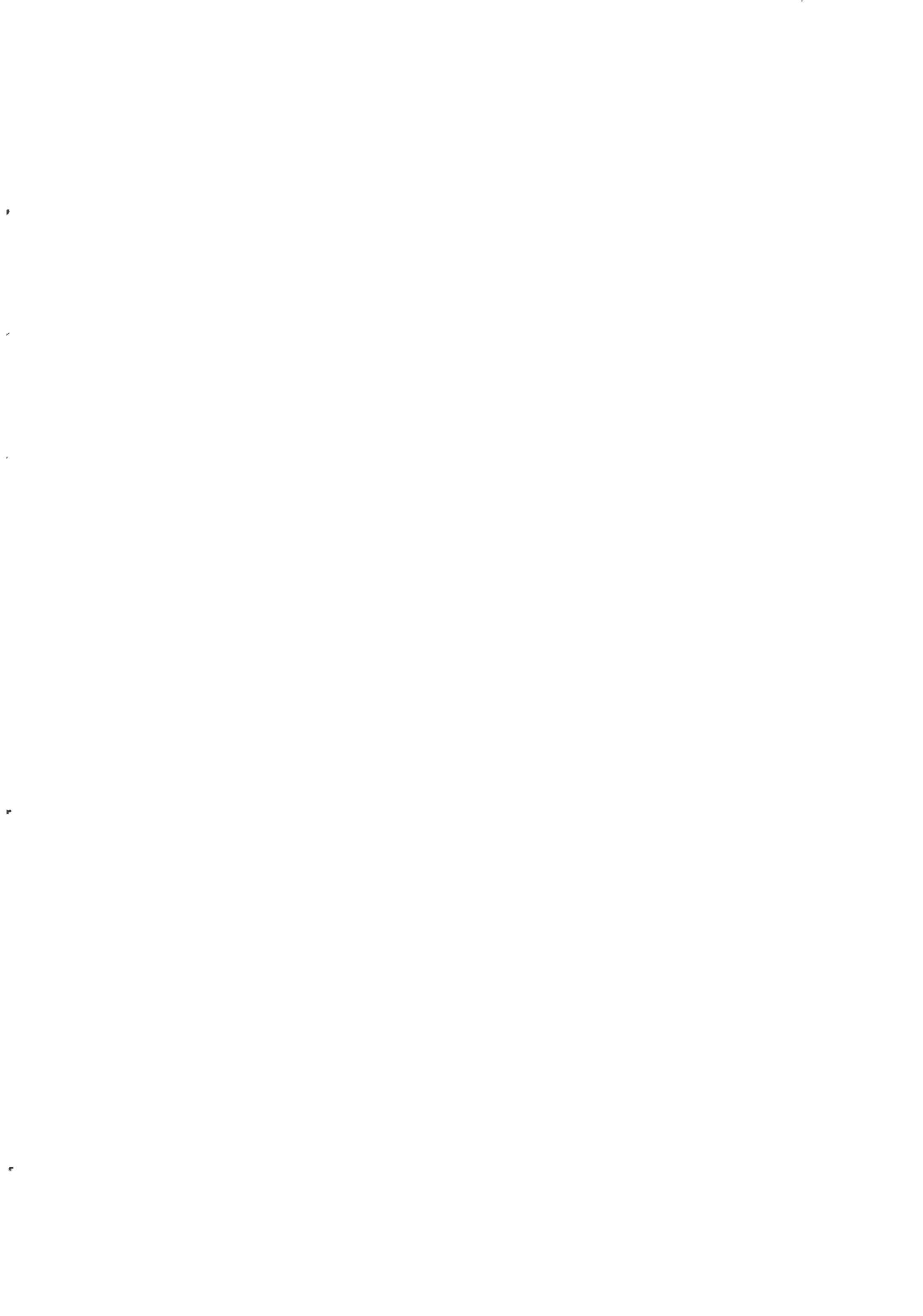


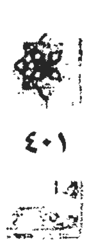


الدرس التاسع والعشرون

مكانة التجربة في الحياة الإنسانية

- علامة العقل
- دور التجربة في الحياة
- مرارة الصداقة وحلاوتها
- التسويف آفة النجاح





«وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجارُبِ، وَخَيْرُ ما جَرَّبْتَ ما وَعَظَكَ، ومِنَ الْكَرَمِ لِينُ الشِّيمِ. بادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

إنّ هذا القسم الأخير من هذه الوصية، والذي يشكّل القسم الأساسي من الكلام النفيس، هو عبارة عن توصيات مختصرة للإمام، وردت في قالب كلماتٍ قصار، تبيّن لنا درس الحياة الدنيا وترشدنا إلى طريق سعادة الآخرة. ولئن كان يظهر لنا أنّه لا يوجد ارتباطٌ واضحٌ بين هذه الكلمات، لكنّنا مع قليلٍ من التأمّل، وبالاستعانة بالرؤية الإلهيّة والإسلاميّة، وبمعرفة مدرسة أهل البيت عَلَيهِمُالسَّلَامُ يمكن أن نُدرك الارتباط فيما بينها والاستفادة بقدر الوسع والطاقة من هذا العمق اللامتناهي لبحر المعارف والحكم هذا. وفي المقطع الذي نُقل، يعرّفنا الإمام على منبعٍ آخر للمعارف وهو الاستفادة من تجارب الآخرين.

علامة العقل

من الأمور، التي تمّ التأكيد عليها في هذه الرسالة، هو الاستفادة من تجارب الماضي. على الإنسان أن يسعى للاستفادة من تجاربه بصورةٍ مناسبة ومفيدة، لأنّه إذا نسي تجارب الحياة ولم يستفد منها، فهذا دليلٌ على منتهى فقدان عقله. حين يرد الإنسان إلى الحياة الدنيا، يكون بحسب تعبير القرآن الكريم فاقدًا للمعلومات والذخيرة العلمية: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا...﴾[1]

(١) سورة **النحل**، الآية ٧٨.

(وبالطبع يمتلك الإنسان نوعًا من العلم غير الواعي والفطريّ فيما يرتبط بالله تعالى أو بعض الحقائق الأخرى والتي تُعدّ ذخيرةً كامنةً يمكنه الاستفادة منها في الوقت المناسب). وعلى أساس هذه الآية، فإنّ الإنسان حين الولادة لا يكون لديه أي معلومات بصورةٍ واعية، وإنّما ينال قدرة التفكير وفهم الحقائق بالتدريج. ونجد أنّ القدرة العقليّة في الإنسان تزداد بالتدريج، وعلى أثر التفاعل مع القضايا المختلفة يخزّن المزيد من المعلومات. فالكثير من الأمور يمكن أن تُعين الإنسان على نيل المزيد من المعارف وأن يستفيد منها على طريق تكامله. فيجب على الإنسان، بالإضافة إلى الأمور الخارجة عن ذاته، والأمور التي جرّبها الآخرون وحصلوا عليها، أن يستعمل طاقته الفكريّة الباطنيّة ويزيد من رأس ماله العلميّ، وعلى رأس جميع العلوم هو ذاك العلم الذي يُوحي الله تعالى به لأنبيائه ويلهمه لأوليائه، وهذا الطريق هو سبيلٌ مستقلٌّ مختلفٌ يُمكن للإنسان من خلاله أن يزيد معارفه ومعلوماته ويتقدّم بواسطته على طريق الإنسانيّة والكمال.

بناءً عليه، فإنّه من منتهى الحماقة والغباء أن لا يستعمل الإنسان طاقته العقليّة ولا يستفيد من العلوم المختلفة، سواءٌ تلك العلوم التي وفّرها الله سبحانه في الخارج، أو تلك العلوم التي أوحى بها إلى أنبيائه، أو تلك العلوم التي كانت نتيجة أبحاث وتحقيقات العلماء الماضين وقُدمت له ووضعت بين يديه، أو تلك العلوم التي يقدّمها له أساتذته، أو تلك التجارب التي يختزنها الإنسان في حياته. فمثل هذا الإنسان كالذي يمتلك كنزًا مجّانيًا ويمكنه أن يتنّعم به بصورةٍ كبيرة، ولكنّه يغفل عنه ويمدّ يد الحاجة والسؤال لهذا وذاك. وللأسف فنحن تقريبًا لدينا قصورٌ أو تقصير فيما يتعلّق بكل هذه الحالات، فلا نُعمل طاقتنا الفكريّة بشكلٍ صحيح، ونُشغل أنفسنا بشؤون الدنيا التافهة إلى الدرجة التي لا نجد معها فرصةً للتفكّر بشأن الأمور الأهمّ. وفي الوقت نفسه، لا نستفيد من العلوم التي ادّخرها لنا الآخرون، حتى إنّنا لا نمتلك الهمّة لفتح كتابٍ ومطالعته، فنشتغل بآلاف الأمور الباطلة، لكنّنا لا نطالع كتابًا وضعناه على الرف. ففي هذا المجال، يُعتبر وضعنا نحن المسلمين أكثر وخامةً من الآخرين، ولذلك نتحمّل المزيد من الخسران لأنّنا نضيّع المزيد من الذخائر ونُهدر الكثير من الثروات المعنويّة.

يجب أن نستفيد من علوم القرآن الكريم، ومن بحر معارف أهل البيت عليهم السلام اللامتناهي، لكنّنا لا نعرف قيمة هذه العلوم وقدرها، وقلّما نستفيد



منها. فنحن جميعنا نعتقد أنّ أفضل وأكمل وأشرف العلوم موجودةٌ في القرآن، وفي كلمات أهل البيت عليهم السلام ومع ذلك لا نستفيد منها. فهذا الكنز الفريد، وهذه الثروة اللامتناهية، قد وُضعا بين أيدينا دائمًا، لكنّنا لا نتمتّع بهما ولا نرتشف من كوثر الآيات والروايات المطلق جرعةً واحدة من أجل أن نشبع عطشنا بواسطة التفكّر والمطالعة والتأمّل في علومهم. وللأسف، رغم الإمكانات الكثيرة الموجودة بين أيدينا، بما في ذلك الأساتذة والتجارب الخاصّة وتجارب الآخرين ومطالعة كتب العلماء والمفكّرين الماضين، فإننا قلّما نستفيد منها، فيجب علينا أن نُزيل مثل هذا النقص مهما أمكن.

دور التجربة في الحياة

ما هو ميسورٌ للجميع ويمكن أن يستفيدوا منه في حياتهم هو التجربة. يُعدّ كلٌّ من التجارب الشخصيّة والتجارب المدّخرة من قبل الآخرين مصباح طريق الحياة، ويمكن أن يُنير دروب مستقبلنا. في الدرجة الأولى، تأتي التجارب الشخصيّة، والتي يُمكن الاستفادة منها أكثر من أي شيءٍ آخر، ولكن وللأسف الشديد فإنّ الإنسان يهدر عمره وهو يعيش التجارب في الظروف الحادّة والأحداث المجهدة، ولكنّه لا يستفيد منها في الوقت المناسب. وما أكثر ما يحصل له أن ينساها، فهل يمكن أن نُطلق على هذه الحالة من التعامل مع منابع المعرفة سوى كلمة الحماقة؟! لا شك أنّ لكل إنسانٍ بحسب سنّه وظروف حياته تجارب على مستوى قضاياه الفرديّة والعائليّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وحتى في نحو المطالعة والدراسة والعشرة والسفر وبكل مسألةٍ دقيقةٍ أو كبيرة، يجب عليه أن يستفيد منها ولكن «واأسفاه وألف ألف آه» فإنّ عددًا كبيرًا منّا ورغم حيازته على هذه التجارب الشخصيّة القيّمة ينسى معظمها أو لا يستفيد منها أو يستعملها.

لعلّه حدث لكم أن امتلكتم تجربةً في قضيةٍ ما، وقدّمتم هذه التجربة إلى الآخرين، لكنّكم نسيتم تلك التجربة الشخصيّة حين جاء وقت التطبيق والاستفادة منها، أو إنّكم لم تعملوا بها فاستفاد منها الآخرون في حين أنّكم أنتم لم تستفيدوا، كأن يستفيد الآخرون من أدواتنا ويتقدّمون، أمّا نحن فنبقى متخلّفين ومحرومين منها ألا يُعدّ مثل هذا الوضع جهلًا؟!

فلكي لا نضيّع هذه الذخيرة عبثًا يجب أن نطّلع على ما لدينا في هذا المجال وعلى تأثيره في هدايتنا وتقدّمنا ويجب أن نعلم أنّ لكل واحدٍ منّا أنواع من التجارب التي تمثّل مصباح طريق الحياة، وهي تنفع للهداية ولاكتشاف الطريق الصحيح في الحياة. بالطبع، إذا استطعنا أن نضمّ تجارب الآخرين إلى تجاربنا فلا ينبغي أن نغفل عن ذلك. وفي بداية هذه الوصية، يقول الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ لديّ من الاطّلاع على أخبار الماضين كأنّني عشت معهم، فكأنّه عمرٌ عمر من كان قبله. أمّا نحن فإنّنا لا نستفيد من تجارب الآخرين فحسب، بل ننسى تجاربنا الشخصيّة ونغفل عنها، وهذا هو منتهى الغباء والحماقة! إنّ العاقل يحفظ تجاربه ويضمّها إلى تجارب الآخرين ويستفيد منها جميعًا ويُضيئ بها دروب حياته. وكما مرّ فإنّ الذي يتمتّع بموهبة المعرفة الدينية، يستفيد من العلوم الدينيّة ومعارف الأنبياء والأولياء التي هي أعلى قيمة من جميع التجارب المهمّة، بالإضافة إلى تجارب الآخرين وتجاربه الشخصيّة فعليه أن يعرف قيمة هذه المعارف ويعمل على تطبيقها.

إنّ النقطة التي يجدر الاعتناء بها هي أنّ هذه المعارف والعلوم والمواعظ والنصائح، قد عُرضت بطريقةٍ تجعل نفعها عامًّا، يستطيع الجميع أن يستفيد منها. فالقرآن والسنّة مفيدان للجميع في كلّ الحالات والموارد. فإذا تمّ التأكيد في هذا المورد على هذه القضيّة مثلًا، وهي الاستفادة من تجاربنا وتجارب الآخرين واستعمالها لإضاءة طريق حياتنا، فإنّ كل إنسانٍ عاقل يستطيع أن يقوم بهذا الأمر وأن ينتفع منها في جميع مراحل حياته ذلك لأنّ قاعدة: «**وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجارُبِ**» هي قاعدة كليّة وعامّة.

من الممكن أن يتداعى إلى ذهن الذين يستأنسون بالقضايا الفلسفيّة ونظريّة المعرفة في عصرنا الحالي، من وراء هذه العبارة الواردة عن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتي تُشير إلى أنّ منبع المعلومات والمعقولات هو تجربة الإنسان، من الممكن أن يتداعى إلى ذهنهم النزعة التجريبيّة والأمبريقيّة، في حين أنّ هذه الجملة ليست في مقام الإشارة إلى هذه القضية. وحين يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجارُبِ**»، فلا يكون المقصود حصر العلوم في هذا النوع من العلم وفي هذا النوع من المفاهيم، بل المقصود هو أنّ مقتضى العقل هو هذا الشيء. فلم يقل الإمام أبدًا إنّ منبع جميع المعقولات والمعلومات البشريّة هو التّجربة، حتّى يقودنا



ذلك إلى المذهب التجريبيّ والأمبريقيّ ونظنّ أنّه يؤيدّ هذا المذهب، فالإمام عليه السلام يقول: العقل هو أن يحفظ الإنسان تجاربه ويستفيد منها طوال مسير حياته، أي إنّ مُقتضى العقل أو علامة كون الإنسان عاقلًا، هي أن يحفظ تجاربه وتجارب الآخرين ويجعلها في مستودع خياله وذهنه كي يستفيد منها في محطّات الحياة المناسبة.

بالطبع، إنّ إيداعها وحفظها وتدوينها وتذكّرها ليس هو المقصود وليس كافيًا بحدّ ذاته. هناك الكثير من الناس الذين يدوّنون ويحفظون جميع شؤون حياتهم، وما لم ينجرّ هذا العمل إلى الإفراط وإلى أن يكون مانعًا أمام القيام بالأعمال الأساسية، وتمّ ذكر الأحداث المفيدة والمؤثّرة فيه بحيث يكون بمنزلة المصباح المضيئ لمسيره ومسير الآخرين، فإنّه يُعدّ عملًا مهمًا جدًا؛ ولكن لا شكّ بأنّ مجرّد تدوين وحفظ وتذكّر هذه الأمور ليس كافيًا، فالهدف الأساس هو أن يستفيد الإنسان من هذه التجارب في مقام العمل، بحيث يجعل ذلك مؤثّرًا في سلوكه ويوجد فيه الدافع للقيام بالأعمال الحسنة والمطلوبة، ويكون بمنزلة المثل الأعلى الذي يصونه من الأعمال القبيحة والعبثية. ويُطلق على هذه الحالة التي يتمكّن فيها الإنسان من الاستفادة من تجاربه وتجارب الآخرين والالتزام بها على مستوى العمل، تقبّل الموعظة والنصيحة. فإذا كانت تجارب الإنسان واعظةً له واستطاع أن يستلهم منها النصيحة والإرشاد ويعمل بها حيث ينبغي، فإنّه يكون قد استفاد أفضل استفادة من التجربة. لذا، رغم أنّ مقتضى العقل أن يحفظ الإنسان تجاربه ولا يودعها في وادي النسيان، إلّا أنّ أفضل التجارب هي تلك التي تكون مؤثرةً في أعماله وسلوكه وتكون أفضل واعظٍ ومرشدٍ له في مقام العمل: «**وَخَيْرُ ما جَرَّبْتَ ما وَعَظَك**».

أمّا الألفاظ التالية مثل العبرة والاعتبار، فقد وردت في **القرآن الكريم** وفي الروايات وفي **نهج البلاغة** كثيرًا وتكررّ استعمالها، يُمكن للكثير من الأمور أن تكون أساسًا لعبرة الإنسان منها والاعتبار من تجاربه وتجارب الآخرين. يقول الإمام عليه السلام: اعتبر من تجاربك واتّعظ، ولعلّ هذه الوصية بسبب أنّ تجارب الإنسان نفسه، لأنّها حصلت معه شخصيًّا واختبرها عمليًا فسوف يكون لها تأثيرٌ ونفوذٌ أكبر في الحياة، وفي العادة فإنّ الأمر يكون على هذا النحو حيث تكون تجارب الشخص نفسه أكثر تأثيرًا وشدةً من تجارب الآخرين.

مرارة الصداقة وحلاوتها



لا يخلو إنسانٌ أبدًا من الحاجة لعشرة الآخرين والارتباط بهم. إنّ هذا التفاعل الاجتماعي يُعدّ أحد ضرورات الحياة الإنسانيّة، ويُمكن لهذه العشرة والتعامل أن يكون سببًا لرقيّ الإنسان وتكامله حين يرفع من مستوى تحمّله. يجب على الإنسان أن يمتلك قدرة تحمّل الآخرين فيما لو أراد معاشرتهم لكي يتمكّن من الاستفادة من حسناتهم. ولا شكّ بأنّ السلائق والأفكار والسلوكيات والتصرّفات الإنسانية تختلف فيما بينها. فيمكن للبعض أن يتصرّفوا بطريقةٍ لا تُعجبنا بسبب اختلاف وجهات النظر، ومن الممكن للبعض أن لا يراعوا حقوق الآخرين في معاشرتهم بسبب القُصور في العمل، لا الاختلاف في الرأي والفكر، فنجدهم لا يراعون حقّ الأدب ويتصرفون بقلّة احترام وبشدّة وحدّة وظلم. ومن هنا، فإنّ ذلك قد لا يُعجبنا. ولا يوجد إنسانٌ في هذه الحياة الاجتماعيّة مصونًا من التصرّفات غير اللائقة ومن عدم احترام الآخرين. بالطبع، نحن لا نرى عادةً عيوبنا ونتألّم أكثر ونتكدّر من تصرّفات الآخرين غير اللائقة، وقلّما نجد شخصًا غير راضٍ عن سلوكه ويتألّم بسببه، فعادةً نرى العيوب في أعمال الآخرين وتصرّفاتهم أكثر ممّا نراها في أعمالنا وتصرّفاتنا، فحين يظلمنا الآخرون مثلًا، فإنّنا نلتفت كم أنّ الظلم قبيحٌ ومذموم، أمّا لو سكبنا أضعاف هذا الظلم على الآخرين، فإنّنا لا نلتفت إلى مدى قبحه وسوئه. وحين يواجهنا شخصٌ بحدّةٍ أو بعدم احترام، فإنّنا ننزعج ونتألّم كثيرًا إلّا أنّنا لا نلتفت إلى مدى تأثير حدّتنا وقلّة احترامنا في أرواح الآخرين وكم يؤلمهم ويزعجهم ذلك. وعلى أيّ حال، إنّ مثل هذه التقلّبات والسلوكيّات غير المضبوطة والحدّة في حياتنا كبشر تحدث كثيرًا لأنّنا لسنا بمعصومين ولنا هفوتنا وزلّاتنا.

فلو كان من المقرّر أن ينزعج الإنسان ويتألم من أدنى خطأ يصدر من الآخرين في نطاق حياته الاجتماعيّة، فإنّه لن يتمكّن أبدًا من الاستفادة من محاسنهم. ولكلّ إنسانٍ حسنات ونقاط ضعفٍ ومساوئ، فلو كان الإنسان ينزعج بسرعة من نقاط ضعف الآخرين أثناء معاشرتهم، ويعجل إلى قطيعتهم، ويترك الساحة من أجل ما شاهده من قلّة احترام وقسوةٍ وقلّة أدبٍ وظلم، فسوف يبقى محرومًا من الكثير من حسنات الآخرين ونعمهم. فلو أراد الإنسانُ أن يستفيد في حياته الاجتماعيّة من نعمة وجود الآخرين الذين منّ الله تعالى بهم عليه، وأن يُفيدهم، فلا ينبغي أن يحصر تفكيره في الاستفادة منهم فحسب، بل عليه أن يتقبّل الأمور المزعجة التي

تنشأ من تعامل الآخرين معه. فبالإضافة إلى الاستفادة من حسناتهم، نحن جميعًا عبيد الله ويجب أن نتواصل في إطار تبادل النعم الإلهية المادّيّة منها أو المعنويّة وعلينا أن نتحمّل كل أمرٍ مزعجٍ على هذا الطريق.

بالطبع، ينبغي أن يسعى كلّ إنسانٍ لإقامة علاقاتٍ سليمةٍ مع الآخرين، من أجل أن يتمكّن من إيصال كلمته إليهم. فإذا أردنا أن نتصرّف بصورةٍ حادّةٍ وعنيفةٍ مع عباد الله، فإنّنا لن نتمكّن من الاستفادة منهم ولا إفادتهم، وهكذا نُحرم من النعمة التي جعلها الله تعالى في الحياة الاجتماعيّة لكلّ الناس، ونجعل الآخرين أيضًا محرومين منها. إنّ الرفعة والعظمة تقتضي أن يكون الإنسان ليّنًا في طبعه: «**مِنَ الْكَرَمِ لِينُ الشِّيَم**»، والشيّم جمع شيمة وهي الخُلُق والطبع. و«لين الشيَم» يعني ليونة الأخلاق وحُسنها، وكل إنسانٍ عاقلٍ يريد أن يستفيد من وجود الآخرين وإعانتهم في ظلّ الحياة الاجتماعيّة، عليه أن يكون حسن الخُلق حتى يرغب الآخرون بعشرته والتعامل معه. والأمر كذلك في مقام الإفادة وإيصال النفع إلى الآخرين، فإنّ حُسن الخُلق واللسان الحلو والعذب والسلوك الرفيق مع الآخرين يهيّئ أرضية استفادتهم وهدايتهم وإرشادهم، فيتمكّن بذلك من إيصال كلمته إليهم والإمساك بأيديهم وإبعادهم عن الأخطاء والمذّلات.

التسويف آفة النجاح

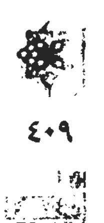
من المواضيع التي تمّ التأكيد عليها في كلمات أهل البيت عليهم السلام وتمّ الترغيب بها أيضًا هي قضيّة أغتنام الفرص. فللإنسان مقاصدُ لا يتمكّن من تحقيقها في أيّ ظرفٍ، أي ينبغي أن يبحث عن الفرصة المناسبة لكلّ عملٍ يريده، ويجب أن تتهيأ الظروف الخاصّة والمناسبة للإقدام عليه. وفي الواقع، إنّ كل مقطع من مقاطع الحياة المختلفة، وكل لحظةٍ من لحظات العمر، تُعدّ أمرًا مناسبًا لنوعٍ خاصّ من العمل وتحقيق هدفٍ محدّد. ففي مرحلة الشباب، تكون الحالة الجسمانيّة والنفسيّة للإنسان بحيث تتناسب مع نوعٍ خاصّ من الأعمال. وكلّ مرحلةٍ لاحقةٍ من الكهولة والعجز لها ظروفها الجسميّة والروحيّة الخاصّة. فلكلٍ من هذه المراحل مقتضيات خاصّة بها، والعمل الذي يمكن للعجوز أن يقوم به قد لا يقدر عليه الحَدِث الشاب، وعلى العكس فإنّ ما يمكن أن يقوم به الشاب ويحقّقه قد لا يقدر عليه الرجل العجوز. فتلك المرحلة لها نوعٌ من الأعمال، وهذه المرحلة تتطلّب نوعًا

آخرًا من الأعمال؛ وذلك لأنّ الحالة الجسمانيّة والمزاجيّة والأحوال الروحيّة والظروف النفسيّة والمكانة الاجتماعيّة لكلّ مرحلة من مراحل الحياة أنشطة تتناسب معها. حتى المكان يكون مؤثّرًا، فلا يستطيع الإنسان القيام بأي عمل في كلّ مكان، فعلى سبيل المثال حين يجتمع عددٌ من الناس في مدينةٍ ما، لأجل تحصيل العلم ويأتون من مدنٍ مختلفة، فذلك لأنّ ظروف التعلّم في مدينتهم ومناطقهم غير متوفّرة.

بناءً عليه، يجب أن تتضافر الظروف المتفاوتة والعوامل المختلفة حتى تتشكّل الأرضيّة المناسبة للقيام بأي عملٍ بصورة كاملةٍ ومناسبة. فإذا لم تتضافر هذه العوامل وتجتمع، فسوف تجري الأمور بصورةٍ شاقّة، ومثل هذا الانسجام والتوافق بين العوامل المؤثّرة في أي نشاطٍ وتحقّق الظروف الزمانيّة والمكانيّة والروحيّة والجسميّة اللازمة، وانسجام هذه الأمور فيما بينها، كلّ هذا يُسمّى بالفرصة. فتلك الحالة التي تُصبح فيها العوامل المختلفة مجتمعةً ومتحقّقة للقيام بعملٍ ما، في مقطعٍ زمنيّ خاص ومناسب، هي الفرصة.

لذا، يجب على الإنسان أن يفكّر هل يستطيع أن يصل إلى هدفه في مثل هذه المرحلة العمريّة وفي مثل هذه الظروف الزمانيّة والمكانيّة والأوضاع العائليّة؟ وكيف يمكنه الاستفادة من مجموع هذه الظروف المتوفّرة اليوم بأفضل صورة، من أجل الوصول إلى سعادته وسعادة الآخرين؟ فالاستفادة من العوامل والظروف المتاحة على مستوى الأهداف الخاصّة، يمكن أن تُسمّى اغتنامًا للفرصة، الأمر الذي تمّ التأكيد عليه كثيرًا، وذلك لأنّ مثل هذه الحالة المناسبة الواضحة لا تستمرّ ولا تتوفّر دائمًا، وكلّ هذا التركيز إنّما كان لأجل أن لا ينسى الإنسان أو يغفل. فكلّنا يعلم أنّ الشباب لا يبقى دائمًا لكنّنا نتصرّف أحيانًا وكأنّنا سنبقى شبابًا مدى الحياة، فلا نلتفت إلى أنّنا سنهرم يومًا وسنخسر هذه القوى ولن نقدر بعدها على أداء ما نريده وقد نغفل إلى درجةٍ لا نسمع معها ما يقوله لنا الآخرون ولا نتأثّر بكلامهم فنضيّع الفرصة تلو الأخرى.

والواقع أنّنا غافلون عن وجود هذه النعم اللامتناهية التي أتيحت لنا، ولا نمتلك التوجّه الكافي إلى الزمان والمكان والظروف الحاليّة لكي نُدرك ما لدينا من ذخائر وإمكانات وكنوز ونِعم إلهيّة حتى نستفيد منها، وحين نلتفت إليها نكون قد خسرناها وأضعناها. فعلى سبيل المثال، حين نكون في الحوزة أو الجامعة



ويتوفّر لدينا أساتذةٌ كبار وأصحاب خبرة ومفكّرون ومربّون لامعون وإمكانيات مهمّة لتحصيل العلم وتهذيب النفس، فإنّنا لا نلتفت إلى توفّرها وعظمة ذلك، أو نتخيّل أنّ هذه الفرصة ستبقى لنا دائمًا فنؤجّل كل ذلك إلى الأوقات اللاحقة، لكنّنا نلتفت فجأةً إلى أنّنا قد أضعنا تلك الفرصة. إنّ الأهمية الكبيرة لهذا الأمر وشدّة اهتمام دين الإسلام المقدّس به أدّى إلى التأكيد الكبير على قضيّة اغتنام الفرص في الروايات الشريفة وبعباراتٍ مختلفة ومنها: «اَلْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب، فانتهزوا فرص الخير»[1]. أو ما ذكره رسول الله وهو يخاطب أبا ذرّ قائلًا: «اِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْس: شَبابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَغِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَياتَكَ قَبْلَ مَوْتك»[2].

ففي هذا المجال، نجد أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول في جملةٍ مختصرةٍ عميقة المعنى: «**بادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُوْنَ غُصَّة**»، فسوف تتبدّل الفرصة إلى غمٍ وحزن ما لم يستفد منها الإنسان في وقتها، وعلى الإنسان أن يغتنم الفرصة قبل ذهابها وإلا ابتُلي بالحسرات.

ونجد الشيطان في الأغلب يخدع الإنسان بواسطة إلقاء الأفكار الباطلة التي تتظاهر بظاهر الحكمة، ولأنّ علم الشيطان ليس أقلّ من علمنا بل إنّنا لو جمعنا علوم مئات الأشخاص ووضعناها فوق بعضها البعض لما بلغت درجة علم جناب إبليس. فقد كان الشيطان يعيش في هذه الدنيا قبل آدم بستة آلاف سنة، وكان بالإضافة إلى ذلك يستفيد من تجاربه وتجارب الآخرين، لهذا فإنّ الشيطان أعلم منّا جميعًا، ويعلم جيّدًا سبل وطرق إغواء الآخرين، فلا تظن أنّنا أكثر حنكةٍ منه ويمكننا أن نقاومه ولا ننخدع بخدعه، فهو أكثر منّا خبرةً وأحيانًا يخدع الناس بواسطة كلماته التي تكون حكيمةً بالظاهر. فعلى سبيل المثال، يرغّبنا بالتسويف في قالب الدعوة إلى عدم العجلة وكأنّه يُلقي علينا حكمةً عظيمة ليسلبنا بذلك الفرص الذهبيّة، ونحن ننخدع ونقول: «اَلْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطان»، ويقول أحدنا مثلًا لماذا تعجل أو تستعجل بالدراسة، فقد تبلغ درجة الاجتهاد بعد يوم إضافيّ؛ أو على سبيل المثال ينهض لخداعنا فيما يتعلق بالأعمال العباديّة وأداء المستحبّات

---

(١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٣٩٨.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٨، الصفحة ٧٥، الرواية ٣.

ويُلقي في أذهاننا أنّ شهر رجب ما زال في بدايته وهناك ثلاثين يومًا حتى ينتهي، ولديك الشهر كلّه لتصوم، فقد تصوم في يوم آخر، فلِمَ تعجل الآن؟ أو يُلقي علينا أمورًا أخرى من هذا القبيل فتضيع علينا الفرص. وهكذا، يمنع الشيطان الإنسان بواسطة مختلف الكلمات والأعذار عن القيام بأعمال الخير مثل الدعوة إلى عدم العجلة أو الصبر أو التحمل أو إنّك ما زلت شابًا ولديك الوقت الكافي للعبادة والدراسة، والآن عليك أن تدرس لتُصبح أعقل وأكثر نضجًا وأكمل فتنال المزيد من الثواب في عبادتك.

ومن طرق نفود الشيطان لخداع الإنسان هو هذا التعبير: إنّ بُعد النظر يقتضي أن لا يعجل الإنسان في أمره ولأجل إحباط هذه االمؤامرة الشيطانيّة يقول أمير المؤمنين علي ﷺ: «**مِنَ الحَـزْمِ العَزْمِ**» فبُعد النظر يقتضي أن يُقرّر الإنسان بسرعة ويعمل، فإذا توفّرت الفرصة للعبادة وتحصيل العلم وخدمة الناس وغيرها، فعلى الإنسان أن يعمل بما تقتضيه هذه الفرصة. فإذا كان تحصيل العلم لله وبقصد القربى فهو عبادة، بل من أفضل العبادات. وإذا سنحت الفرصة والوقت قبل شهر رجب وشهر رمضان كي نقوم في الأسحار للعبادة فيجب أن نغتنم هذه الفرصة وننهض في هذه الأيّام للعبادة والمناجاة والدعاء.

إنّ بُعد النظر يقتضي أن يغتنم الإنسان الفرصة، ويأخذ القرار في اللحظة المناسبة ويعمل ما هو متناسبٌ معها، ذلك لأنّ هذه الفرصة لا تتكرّر ولا تحصل كلّ مرة، فاحذروا من إهمال القيام بالعمل المناسب ومن التساهل لأنّه: «**مِنْ سَبَبِ الحِرْمانِ التَّوانـي**». ولا يمكن أن نُطلق على مثل هذه الأمور عنوان الصبر والتحمّل وبُعد النظر، بل هي مصداقٌ تام وكامل للتساهل والتسويف والانخداع بخُدع الشيطان، وذلك لأنّ الإنسان يمكنه أن يؤدّي عمل الخير هذا لكنّه بالاشتغال في هذا وذاك يضيّع الفرصة ويُحرم من أدائه. بالطبع، يجب مراعاة الأولويّات في أعمال الخير واغتنام الفرص، ذلك لأنّ عدد موارد عمل الخير كبير، حتى بين الواجبات علينا أن نختار الواجب الأهمّ. ففي بعض الأحيان، تتزاحم عدّة تكاليف واجبة وفي هذه الحالة يجب علينا أن نشخّص ونؤدّي ذاك التكليف الذي يتمتّع بالأولويّة المطلقة، ففكّروا وانظروا ما هو العمل الأهمّ وما هو الشيء الذي تكون قيمته أعلى. فحين تشخّصون تكليفكم ومسؤوليّتكم، لا يعود من المناسب الصبر والتمهّل والتحمّل وذلك لأنّ «**مِنَ الْحَزْمِ الْعَـزْمِ**»؛ «**ومـن سـبب الحرمان التوانـي**».



الدرس الثلاثون

الفرص الذهبيّة

- ليس كل طالبٍ بواجد
- كيف نغتنم الفرصة؟
- المسافر بلا تقوى في الدنيا لا يصل إلى المقصد
- يجب أن يكون الاعتذار فوريًّا
- الاعتدال بالاستفادة من إمكانات الدهر



«وَمِنَ الْحَزْمِ الْعَزْمُ، وَمِنْ سَبَبِ الْحِرْمانِ اَلتَّواني، لَيْسَ كُلُّ طالِب يُصِيبُ وَلا كُلُّ راكِب يَؤُوبُ وَمِنَ الْفَسادِ إِضاعَةُ الزّادِ، وَلِكُلِّ امْرِئ عاقِبَةٌ، رُبَّ يَسير أَنْمى مِنْ كَثير، وَلا خَيْرَ فِي مُعِين مَهِين، وَلا تَبيتَنَّ مِنْ أَمْر عَلى غُدْر، مَنْ حَلِمَ سادَ وَمَنْ تَفَهَّمَ اِزْدادَ، ولِقاءُ أَهْلِ الْخَيْرِ عِمارَةُ الْقَلْبِ، ساهِلِ الدَّهْرَ ما ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ»،

قد يضيّع الإنسان الفرص أحيانًا حين يظن أنّه سيحوز في المستقبل على وقتٍ أكثر وفرصةٍ أفضل لإنجاز الأعمال وتحقيق مقاصده؛ وفي هذا المورد غالبًا ما يؤدّي التسويف وعدم التدبير الدقيق إلى أن يُحرم الإنسان من النعمة أو الخير الذي قدّره الله تعالى له. فالشيطان يوسوس دائمًا بأنّ الوقت لم يفت وسوف تتوفّر إمكانات أكثر في المستقبل، وأنّه يمكن إنجاز هذا العمل بصورةٍ أفضل. ولكي لا يسقط الإنسان في فخّ هذه الوساوس الشيطانيّة يحذّر أمير المؤمنين علي عليه السلام ويقول إنّ الاحتياط لا يكون دائمًا في تأخير العمل أو في الصبر بل إنّ الاحتياط قد يقتضي أحيانًا أن يُنجز الإنسان أعماله بسرعة، لأنّه قد يضيّع هذه الفرصة في المستقبل: «**من الحزم العزم**». إنّ الحزم وبُعد النظر والاحتياط، لا يقتضوا دومًا تأخير العمل، بل قد يتطلّب الأمر أن ننجز العمل بسرعةٍ مهما أمكن. إلا أنّ الأمر لا يكون دومًا على هذا النحو بحيث إذا أخّر الإنسان العمل فسيكون لمصلحته؛ ربما عليه أن يؤخّر العمل في حال كان مطمئنًا أنّه سيحصل على المزيد من الإمكانات بالتأخير وسوف يُنجز عمله بصورةٍ أفضل.

ليس كلّ طالب بواجدٍ

لقد عرضنا لحدّ الآن تفسيرًا واحدًا لهذا المقطع من كلام الإمام علي ، ولكن بالالتفات إلى المقدّمات السابقة قد يظهر احتمالٌ لتفسيرِ آخر نقدّمه هنا.

ففي الجملة اللاحقة، يقول : «**لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ وَلا كُلُّ رَاكِبٍ يَؤُوبُ**»، والترجمة الميسّرة والمدوّية لهذا الكلام هو أنّه ليس كل من يسعى إلى هدفٍ أو مقصدٍ ما سيصل إلى هدفه حتمًا: فليس كل طالب بواجدٍ، وليس كل غائبٍ في سفرٍ ما سيرجع حتمًا، فمن الممكن للمسافر أن لا يرجع، لكن لهذا الكلام مفهومٌ آخر كامنٌ فيه، ولأجل أن نُدرك ذاك المفهوم والمعنى يجب أن يتّضح عدّة نقاط: النقطة الأولى ما يرتبط بالمقام والمورد الذي ذُكرت فيه هذه العبارات. فمن الواضح أنّ المسافر قد يرجع وقد لا يرجع وكذلك حين يسعى أي إنسانٍ نحو هدفٍ ما فقد يصل إليه وقد لا يصل، فلماذا ذُكر هذا الأمر في هذا المقام وما هو الهدف من بيانه وعرضه؟ فما الذي يريد الإمام أن يُفهمنا إيّاه وما هي الحكمة التي يُريد أن يعلّمنا إيّاها؟

لقد ذكر بعض المفسّرين والشرّاح في توضيح هذا الكلام أنّ الإنسان أحيانًا وبسبب سذاجته أو قلّة خبرته قد يتخيّل أنّه سيوفّق حتمًا في أي طريقٍ يسلكه أو عملٍ يقدم عليه، ولأنّه يدخل إلى ساحة العمل وميدانه بهذا التوقّع فإذا لم ينجح فسوف يُصاب باليأس والقنوت، ومثل هذه الحالة ستؤدّي إلى سلبه الجرأة على الإقدام على أي عملٍ آخر، لأنّه سيقول في نفسه: لقد أقدمت على هذا العمل في المورد الفلاني ولم أصل إلى نتيجة، فمن الواضح أنّني لن أنجح أبدًا وبحسب تعبير عامّة الناس لا حظّ لي، وأي باب أطرق سيُغلق بوجهي. ففي هذا المقام ولأجل الحؤول دون اليأس والإحباط الذي يمكن أن يظلّل حياة الإنسان بسبب مثل هذا الإخفاق يقول: ليس الأمر بحيث كل من أقدم على أمر سيصل إلى هدفه حتمًا وإذا لم يصل فسوف نتعجّب ونعدّه عاجزًا. إنّ طبيعة أمور الدنيا تقتضي أن يصل الإنسان في بعض الأحيان، وأن يحقّق أي نتيجة من وراء سعيه وإقدامه. وفي أحيانٍ أخرى، لا ينبغي أن يتعلّق بالنتيجة إلى الحدّ الذي يُصاب فيه باليأس والقنوت إذا لم ينجح، فعليه أن يقدم ويكون مؤمّلًا بالوصول إلى النتيجة؛ ولكن في الوقت نفسه عليه أن يلتفت إلى أنّه قد لا يحقّق النتيجة المرجوّة.



إنّ وعد النفس بالنجاح يؤدّي إلى اليأس والقنوت في حال عدم تحقّق النجاح، مثلما إذا اختار الإنسان مسارًا ما، وكان مطمئنًّا تمامًا وواثقًا من أنّه سيسير على طريقٍ معبّدٍ واضحٍ لا عَقَبة فيه، فإذا صادف أدنى مشكلة أثناء سيره أو واجه مطبًّا فمن الممكن أن يقع على الأرض ويكسر قدمه بسبب مثل هذا العائق الصغير، أو إن كان هذا الأمر مخالفًا لتوقّعه ولم يكن قد خطّط له. أمّا إذا كان يتصوّر في ذهنه أنّ الطريق مليئٌ بالمطبّات والحفر فإنّه إذا سقط في حفرةٍ أو واجه مطبًّا ما فسوف يتمكّن من السيطرة على نفسه وحفظ توازنه، لأنّه كان يتوقّع مواجهة مثل هذه الحوادث وقد تصوّرها في ذهنه وعدّ نفسه وهيأها لمثل هذا الأمر.

ويمكن تصوّر الأمر على هذا المنوال نفسه في شؤون الحياة. فلو تصوّر الإنسان أنّه لا بدّ له أن ينجح عند كل إقدام وعمل، فإذا لم ينجح في إحدى المرّات فسوف يُصاب باليأس والقنوت ويُبتلىٰ بالإحباط ولعلّه يفقد الأمل بالحياة من أساسها. إنّ الكثير من الناس الذين ابتُلوا بهذا النوع من العبثيّة والأفكار الباطلة إنّما حصل لهم ذلك بسبب هذه الطريقة من التفكير الباطل، حيث كانوا يتوقّعون النجاح في جميع حالاتهم وأُمورهم؛ ولأنّهم لم يحقّقوا أمنياتهم الساذجة التي تعلّقوا بها أشدّ التعلّق، فقد أُحبطوا وأُصيبوا بحالةٍ من الأزمات الروحيّة والنفسيّة. أمّا إذا التفت الإنسان وأدرك أنّه لن يصل إلى نتيجة في كلّ ما يقوم به، فإنّه لن يُصاب باليأس أو الانزعاج عند الإقدام على الأعمال المختلفة، لأنّه كان ملتفتًا مسبقًا إلى أنّ الأسباب لا توصلنا دائمًا إلى النتيجة. فالالتفات إلى هذا الأمر يبعث حالةً من المناعة تجاه اليأس والإحباط في النفس فيما لو لم يُوفّق الإنسان أو ينجح في عمله، وذلك لأنّه «**لَيْسَ كُلُّ طالِبٍ يُصيبُ وَلا كُلُّ راكِبٍ يَؤُوبُ**»، فالوصول والإصابة والنجاح ليس أمرًا حتميًا في كل شيء ويجب أن نضع احتمال العكس في أذهاننا.

كيف نغتنم الفرصة؟

ما تقدّم كان عبارة عن أحد الاحتمالات أو الأوجه لتفسير هذا الكلام الإلهيّ، ولكن يوجد تفسيرٌ آخر أيضًا، بالأخصّ بالالتفات إلى المسائل الآنفة. فحين يقول عليه‌السلام إنّ تأخير العمل قد يؤدّي إلى الحرمان من الوصول إلى الهدف فالمقصود هو أنّه

ينبغي أن تكون بصدد القيام بالعمل عند أوّل فرصة، لأنّه إذا أوكلتم الأمر إلى زمنٍ آخر فمن الممكن أن لا يتحقّق العمل، وذلك لأنهّ «**ليس كلّ طالبٍ يُصيب**»، فمقتضى كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يقول «اغتنموا الفرصة» فمعنى ذلك أنّه لأجل دفع الوساوس الشيطانيّة ومواجهة الكسل عليكم أن تقدّروا أوّل فرصةٍ تسنح لكم، وأن تلتفتوا إلى أنّه قد لا تصلوا في الفرص اللاحقة إلى الهدف المطلوب والنتيجة النهائية. وكمثالٍ على ذلك ذاك العامل الذي يقول لنفسه: «إذا لم أقم اليوم بالعمل فليس مهمًا، فاليوم أستفيد من حاصل الأمس وغدًا سوف أتابع عملي». أو إذا قال الطالب لنفسه : «إذا لم أدرس اليوم وأطالع فليس الأمر بذي بال ولا عيبٌ في ذلك فسوف أجبر النقص غدًا فعليه أن يعلم أنّه قد لا يتمكّن من إنجاز العمل في الغد، فقد تعرض عليه مشاكل أكثر من مشاكل اليوم. لهذا، يريد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقول إنّ تأخير الأعمال والتساهل بشأنها والتأجيل والتسويف ليس أمرًا صحيحًا، لأنّ الغد قد لا يحمل معه فرصة الإنجاز. فليس الأمر كما تتصوّرون وأنّ كل وقتٍ سيكون ميسّرًا، فاغتنموا في الحال. ولأنّ الأمر ميسّرٌ لكم اليوم فقوموا بالعمل ولا تأخروه.

وبعبارةٍ أخرى، نجد الإمام عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يرغّب ويحثّ الإنسان على النشاط وعلى مواجهة الكسل ويعلّمه أنّه إذا قال لك الشيطان إذا لم تقم اليوم بالعمل فغدًا يمكنك القيام به، فقل له: لعلّ الغد يأتي بمشاكل وموانع تمنعني من تحقيق ما أريد لأنّ الغد لا يعني أنّني سأتمكّن حتمًا من القيام بالأعمال المطلوبة، فلعلّ الغد لا يكون ممكنًا. فإذا سعيت اليوم قد أصل إلى قسم من أهدافي، ولكنني إذا سعيت في الغد قد أواجه موانع تحول دون تحقيق هذا المقدار من النتائج. وعلى أيّ حال، فإنّ هذا المعنى قد يُستنبط من هذا الكلام الإلهيّ للإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أنّ الإنسان ينبغي أن يكون واقعيًا، ويغتنم الفرص ولا يكسل في أداء الأعمال، وفي الوقت نفسه لا ينبغي أن يتعلّق بنتائج العمل الدنيويّة بحيث إذا لم تتحقّق فإنّه يُصاب باليأس والقنوت.

المسافر بلا تقوى في الدنيا لا يصل إلى المقصد

ويكمل أمير الكلام حديثه قائلًا «**مِنَ الْفَسادِ إِضاعَةُ الزّاد**». فلو أبعد الإنسان زاده الذي يستطيع أن يستفيد منه أثناء مسيره وقال: سوف أعدّه لاحقًا، فإنّه يكون كمن



ألقى بنفسه في قعر البئر وأهلكها. فإضاعة الزاد يُعدّ بمنزلة إلقاء النفس في التهلكة والوقوع في العاقبة السيّئة. والآن، ومع الالتفات إلى أنّ زاد أهل الإيمان بحسب لسان القرآن وعُرف أولياء الدين هو التقوى التي يحتاج إليها في مسير الحياة، فلعلّه يريد أن يوصل لنا هذا المعنى بواسطة هذا الكلام ويقول لنا لا تضيّعوا التقوى لأنّ من يضيّع التقوى يكون كالمسافر الذي أضاع زاده أثناء السفر فلا شكّ بأنّ مثل هذا الفعل سيؤدي إلى هلاكه.

«**رُبَّ يَسِيرٍ أَنْمى مِنْ كَثِيرٍ**»، ربما يكون نفعٌ قليل أفضل من كثير، ففي بعض الحالات يكون السبب وراء عدم استفادة الإنسان من الفرص المتاحة ونكوصه عن أداء بعض الأعمال أو تأخيرها هو أن يقول إنّني إذا قمت الآن بهذا العمل فسوف أحصل على نتيجةٍ قليلةٍ، أمّا إذا أوكلت الأمر إلى الغد وقمت بالعمل بعد تأمين المزيد من المقدّمات والتمهيدات فسوف أحصل على نتيجةٍ أفضل. ومثل هذا التحليل الذهنيّ يؤدّي إلى صرف النظر عن هذا العمل بزعم الوصول إلى نفعٍ أكبر وأكثر من هذا النفع القليل. فهو يتصوّر أنّه لو أنجز هذا العمل مع المزيد من المقدّمات والإعداد فسوف ينال المزيد من المنافع، في حين أنّ مثل هذا التفكير ليس صحيحًا ولا عموم له.

بالطبع، لو تيقّنّا بأنّنا سنحصل في الغد على ظروفٍ أفضل تؤدّي بنا إلى نتائج أفضل، وبذل الجهد والطاقة اليوم سيمنعنا من القيام بالعمل في الغد، ينبغي علينا تأخير العمل والقيام به في اليوم التالي. افرضوا أنّ لديكم رأسمال وأنّكم إذا أنفقتموه اليوم في إحدى المعاملات التجاريّة سيعطيكم ربحًا بنسبة عشرة بالمئة، لكن إذا ادّخرتموه يمكنكم أن تشغلّوه في معاملةٍ أخرى في الغد ويكون ربحه بنسبة عشرين بالمئة، في هذه الحالة ينبغي أن تعدلوا عن معاملة اليوم إلى معاملة الغد، فإذا كانت الظروف بحيث يؤدّي إنفاق هذه الميزانية ورأس المال والوقت في اليوم إلى أن لا يبقى لكم لتجارة الغد أي رأسمال أو طاقة، وكنتم من جانبٍ آخر على يقين من أنّ معاملة الغد ستكون ميسرةً وذات ربحٍ أكبر ففي هذا المجال يكون العمل المعقول هو أن تؤخّروا المعاملة وتنجزوها في اليوم التالي بربحٍ أكثر.

فالإنسان العاقل هنا سيقول في نفسه: لماذا أنفق هذا الرأسمال الذي ليس فيه سوى عشرة بالمئة من الربح، فلأدّخره الآن وأستعمله في الغد لأنال ربح

عشرين بالمئة. فحين يكون الاختيار متعلّقًا بأحد هذين الوقتين، علينا أن نختار ما هو أكثر ربحًا. أمّا إذا كان القيام بهذا العمل مُتاحًا في الوقتين، فعلينا أن نقوم بالعملين في كل زمان، فنُنجز معاملة اليوم ونحصل على عشرة في المئة، وننجز معاملة الغد ونحصل على ربح أكبر، ففي هذه الحالة نكون قد حصلنا على ربحين وأنجزنا العمل المطلوب. افرضوا مثلًا أنّ اليوم هو الثاني عشر من شهر رجب فيقول الإنسان في نفسه لن أصوم اليوم فسوف أصوم غدًا لأنّه من الأيام البيض وثوابها أكثر، فهنا عليه أن يرى إمكانية الصيام في كلا اليومين فإذا كان يقدر على صيام اليوم والغدّ فلا شكّ أنّه من الأفضل أن يصوم في كلا اليومين، فليس من العقل أن نقلع عن العمل لأنّ ثوابه أقلّ على أمل القيام بعملٍ آخر لأنّ ثوابه أكثر.

أمّا إذا كان الاختيار بين هذين العملين ولم نكن قادرين إلا على عملٍ واحد وحصل لنا الاطمئنان بأنّنا إذا لم نقم بهذا العمل فسوف نقدر على القيام بما هو أهمّ وأكثر ثوابًا ونفعًا، فلا إشكال عندها بأن ندّخر طاقتنا للقيام بالعمل الأهمّ. ومثل هذا التوضيح يجري على جميع النشاطات الماديّة والمعنويّة والأعمال الدنيويّة والآخرويّة. ولهذا، ينبغي أن نكتفي في بعض الموارد بالربح الأقلّ «**رُبَّ يَسِير أَنْمى مِنْ كَثِير**»، فربما يكون النفع القليل أكثر ربحًا من النفع الكثير الذي نتوقّع الوصول إليه.

يجب أن يكون الاعتذار فوريًّا

من المواعظ فائقة الأهميّة التي تمّ التأكيد عليها في هذه الكلمات القصار، هي أن لا يؤخّر الإنسان جبران خطئه في أيّ عملٍ يقوم به. فالكثير من الناس مبتلون بهذا المرض وهو أنّهم لا يجبرون خطأهم أو أنّهم يؤخرون ذلك. فإذا صدر خطأ ما منّا وأمكننا أن نعتذر من الذي أخطأنا أو قصرّنا بحقّه أو تجاوزنا الأدب تجاهه فلا ينبغي أن نؤخّر ذلك. أو على سبيل المثال، إذا صدر منّا عملٌ غير لائق بسبب الغفلة وأدّى ذلك إلى الإضرار بالآخرين، فإذا كنّا قادرين على جبران هذا الضرر فلا ينبغي أن نؤخر ذلك: «**لا تَبيتَنَّ مِنْ أَمْر عَلى عُذْر**»، ويعني ذلك أنّه لا ينبغي أن تمضي عليك الليلة فتنام فيها وتبيت إذا كنت قادرًا على معالجة أمرك قبل الليل. فإذا كنت مدينًا باعتذارٍ لأحدٍ فأدِّ ما عليك ثمّ نم على وسادةٍ ناعمة! إذا أردت أن تجبر غفلتك وتتدارك النفع الذي فاتك، فلا تؤجل ذلك إلى الغد وأجبره لأنّه من



الممكن أولًا أن لا توفّق في الغد، وثانيًا حين يمرّ وقت على هذا العمل غير اللائق فإنّه يزيد الأمور كدورةً؛ وثالثًا يصبح رفع هذه الكدورة أكثر صعوبةً.

افرضوا أنّه قد صدر منكم كلامٌ غير مناسب، فلو اعتذرتم بسرعة لما أدى ذلك إلى انزعاج وتألّم المستمع. أمّا إذا مرّ على ذلك عدّة أيّام ثمّ أردتم بعدها أن تعتذروا، فهذا يعني أنّ هذا الشخص وطيلة هذه المدّة كان كل ما تذكّر ما سمع يتألّم وكان هذا يشكّل طبقات من الكدورة على قلبه، وهذا الأمر يمكنكم أن تخبروه بأنفسكم. فإذا شاهدتم أو سمعتم كلامًا أو سلوكًا غير مناسبٍ من شخصٍ ما، ومضى على ذلك عدّة أيام ولم يعتذر منكم فقد يكون هذا الأمر بالنسبة لكم وكأنّه كان يكرّر ذلك طيلة هذهً المدّة ممّا يؤدي إلى أن يزيد من تألّمكم وانزعاجكم وكدورة قلبكم، أمّا لو اعتذر في اللحظة التي صدر منه ذلك الفعل وسعى إلى جبران ما حصل فإنّ علاج الأمر سيكون أسهل. فلا تدعوا اعتذاركم يبيتُ ليلةً واحدة واسعوا إلى جبران الأعمال القبيحة والسلوكيات غير اللائقة والذلات التي تصدر منكم.

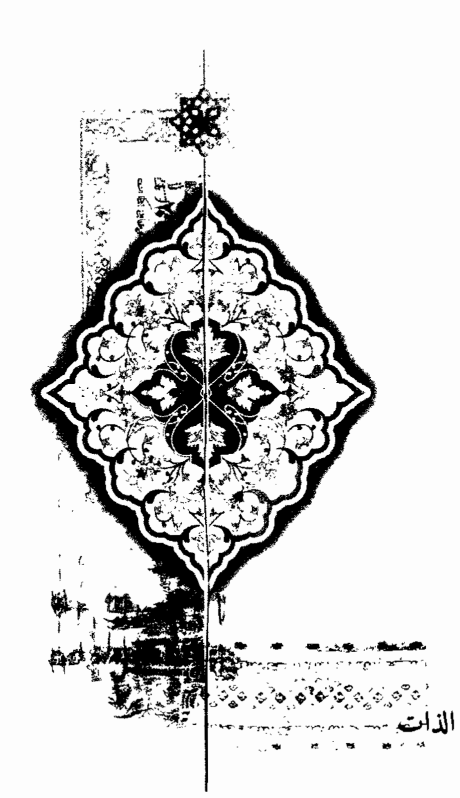
ولنلتفت إلى أنّ ما ذُكر بشأن الأخطاء والمعاصي إذا كان في مسير العبودية لله فسوف تكون أهميّته أكبر. وبالطبع، إنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام قد تناول هذه القضيّة في الجمل اللاحقة وهو يقول «**عجّل في التّوبة ولا تؤخّرها**»، وطبق كلام الإمام فإنّ هذه الجمل هي كلماتٌ قصار يستفيد منها أهل الدنيا وكذلك أهل الآخرة. وحين يقول «لا تؤخّر الاعتذار» فهو يشمل أيضًا الاعتذار لدى عباد الله الذي يكون نافعًا في الحياة الدنيا ويكون أيضًا نافعًا بين يديّ الله تعالى الذي له تأثير في غفران الذنوب. ومقتضى المقامين أن يسارع الإنسان في الاعتذار. فإذا زللتم اجبروا ذلك بسرعة، ولا تسمحوا ببقائه لأنّه سيزيد من كدورة القلوب أو يزيد من ثقل العقاب الأخرويّ.

الاعتدال في الاستفادة من إمكانات الدهر

يقول الإمام في تتمّة هذا الكلام وضمن تشبيهٍ بديعٍ وجميل: «**ساهِلِ الدَّهْرَ ما ذَلَّ لَكَ قُعُودُه**» أي إنّه ما دام مركب الدنيا مروّضًا لك فصانعه، وفي هذه الجملة السماويّة والفريدة يشبّه الإمام هذه الدنيا بمطيّةٍ يركبها الإنسان ويمكنه أن يسوقها بهدوءٍ وسلاسة، ويصل إلى مقصده. ولكن من المحتمل أن يجمح هذا الحيوان

ويمنعنا من الوصول إلى مقصدنا، من هنا، ينبغي أن نستفيد منه قبل أن يجمح ويضطرب. بالطبع، لو أردنا أن نضرب مثالًا أو نشبّه القضيّة بمراكب هذا الزمان المعدنيّة، نقول إنّه من الممكن أحيانًا أن تتعرّض سيّارتنا أو الطائرة أو القطار الذي نستقلّه أثناء مسيرنا لحادثٍ أو نواجه مشاكل معيّنة ويُصبح الاستمرار في المسير غير ممكنٍ. فما دامت هذه الحالة غير حاصلة أسرعوا في التحرّك، فهذا المركب ميسّرٌ الآن، لكنّه إذا جمح واضطرب فلا يمكن أن نستفيد منه بعد ذلك. فالاستفادة تكون إلى الوقت الذي يكون فيه هذا المركب مذلّلا لنا وميسّرًا، ولا ينبغي لنا أن نقوم بما يؤدّي إلى جموحه، بل علينا أن نُداريه وأن نستفيد منه إلى الحدّ الأقصى.

قد يبدو هذا الكلام للوهلة الأولى أمرًا سهلًا جدًّا، لكنّه في عمقه يُخفي نكاتًا كثيرة، فكلّ واحدٍ منّا قد واجه في حياته نماذج من هذا الأمر، فأبداننا تُشبه هذا المركب ونحن نستفيد منها لكنّنا في معظم الأحيان لا نلتفت إلى أنّ لهذا البدن قدرة محدودة، وقلّما نراعي قدرته على مستوى الغذاء والاستراحة ورعاية الشؤون الصحيّة وغيرها. فلا ينبغي أن تنسوا هذه النقطة وهي أنّ قدرة هذا المركب محدودة، فاعرفوها واستفيدوا منها. وينطبق هذا أيضًا على الأوضاع الاجتماعيّة والفرص الاقتصاديّة التي لا ينبغي أن نغفل عنها بل نستفيد منها إلى الحدّ المطلوب، فمثل هذه القدرة ومثل هذه الإمكانات لا تبقى دائمًا للإنسان. لهذا، ما دمتم قادرين على الاستفادة من هذه الإمكانات على طريق السير إلى الله وخدمة الناس، فاجتنبوا الإفراط والتفريط، والأمر كذلك ينطبق على الصفوف الدراسية والأساتذة والمدرسة والرفيق والجار الحسن فكلّها نعمٌ جعلها الله سبحانه بين أيدينا ووفرّها لنا ويجب أن نستفيد منها على أفضل صورةٍ وأمثلها، وذلك لأنّه من المحتمل جدًّا أن نفقدها ذات يوم، ولعلّ عدم الاستفادة منها سيكون سببًا لوقوع أضرارٍ وخسائر، مثل المركب أو المطيّة التي إذا جمحت وخرجت من العنان فإنّها لا توصل الإنسان إلى المنزل والمقصد، لا بل توقعه أرضًا وتعرّض حياته للخطر، فعلينا أن نستفيد من هذه النعم في الحدّ المُجاز قبل أن تتسبّب بضررنا.



الدرس الواحد والثلاثون
جذور الاستعلاء

- الاعتدال في إشباع الغرائز
- التأثير التربويّ لإشباع الغرائز
- عاقبة الإفراط في إشباع غريزة حبّ الذات
- معالجة اللجاج
- منشأ اللجاج وعاقبته





«وإيّاكَ أنْ تُطيحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجاجِ وَإنْ قارَفْتَ سَيِّئَةً فَعَجِّلْ محوَها بِالتَّوبَة».

وإلى هنا، نكون قد عرضنا لشرح وتفسير بعض مقاطع وصية المولى علي عليه السلام لولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

ويلفت الإمام عليه السلام بهذه الجملة الشريفة المذكورة توجّهنا إلى خطر اللجاج، وخطورة تأخير التوبة. وهي مخاطر نغفل عنها كثيرًا غالبًا ما نشاهد اللجاج في الأطفال، وهم يصرّون على أمرٍ ما إصرارًا شديدًا ويلجّون بما يفوق القدرة، وحين يُقال لهم لا تفعلوا هذا فإنّهم يخالفون. وكلّما أصرّينا عليهم يزداد أمرهم سوءًا ويتصرّفون بحدّةٍ أكبر ويصرّون على ذاك العمل أو التصرّف الذي اختاروه. بالطبع، إنّ هذه الصفة إذا استحكمت في النفس وأصبحت ملكةً راسخةً فيها، فإنّها لا تنحصر في إطار الأعمال الطفوليّة بل سوف تتعدّى ذلك إلى جميع مراحل العمر وتؤثّر على حياة الإنسان في شبابه وكهولته وحتى في شيخوخته وعجزه وهرمه بل ستستمرّ معه إلى حافّة القبر، وقد يُبتلى الإنسان بهذه الصفة الدنيئة من دون أن يلتفت إليها.

الاعتدال في إشباع الغرائز

النقطة التي ينبغي أن نحلّلها وندرسها هي سبب هذه الحالة ومنشأ هذه الروحيّة التي أدّت إلى ابتلاء الإنسان بهذه الصفة الرذيلة. فما الذي يحدث حتى يُصر الإنسان على العمل الخاطئ الذي ارتكبه، ولا يحبّ أن ينصرف عنه أو يتركه؟ ولماذا يصبح الاعتراف بالخطأ بالنسبة لهذا الإنسان أمرًا صعبًا وشاقًا؟

لمن لديه أطفال أو يتعامل مع الأطفال إلى حدٍّ ما يعلم أنّه ليس بالأمر

الصعب عند الأطفال أن يعتذروا ويعترفوا بخطئهم، وعلى العكس فإنّ الكبار لديهم الإصرار الكبير على المضيّ في سلوكهم وهم أقلّ استعدادًا لتصحيح أفعالهم والاعتراف بأخطائهم، بل إنّهم يسعون بكل همّتهم للمضيّ في عملهم هذا، بحجّة أنّه صحيحًا.



إنّ منشأ هذا السلوك هو تلك الغريزة الذاتيّة الطبيعيّة لحبّ الذات، والتي توجد في جميع الناس. وهذه الغريزة تشبه سائر الغرائز في وجود أحوالٍ من الإفراط والتفريط والاعتدال فيها. إنّ حبّ الذات لا يُعدّ بنفسه أمرًا سيئًا بل يكون مطلوبًا، ولا شكّ بأنّ الإنسان إذا لم يحبّ نفسه فلا يمكن أن يخطو خطوةً على طريق التكامل وحتى إنّه لا يُقدم على حفظ نفسه وصيانتها من الأخطار، فحبّ الذات والرغبة في الاستمرار في الحياة لا يُعدّان أمرًا سيئًا بذاتهما، بل هما عاملان جعلهما الله سبحانه ليؤمّن كلّ مخلوقٍ حيّ بواسطتهما حياته ويكتسب كمالاته الوجوديّة. فلو لم يوجد هذان العاملان، لما سعى أي موجودٍ حيّ نحو التكامل في حياته الماديّة والمعنويّة.

بعد وضوح ضرورة أصل وجود مثل هذه الغريزة، ما هو مهمّ هو مدى إشباعها الذي كما هو الحال في جميع الأمور الغريزيّة لا ينبغي أن يخرج عن حدّ الاعتدال، ولا أن يميل إلى الإفراط والتفريط حتّى تتمكّن هذه الغريزة من سوق الإنسان نحو الكمال الذي تقتضيه.

وما هو مهمٌ بعد مستوى إشباع هذه الغريزة هو تشخيص مصداق الكمال الذي يكون فيه الإنسان عارفًا للشيء الذي يحدّده ككمالٍ لذاته. ولا شكّ أنّ الإنسان يحبّ ذاته ويريد أن يكون أكمل. فلا عيب ولا نقص في هذا الحدّ بل هو عاملٌ إيجابيّ لكن عليه أن يُحدّد ما هو الكمال. ففي المحل الذي لا يعرف الإنسان كماله يجب أن يضمّ العامل المعرفيّ والإدراك العقليّ. وبعبارةٍ أخرى، صحيحٌ أنّ الإنسان يحبّ ذاته ويطلب كمالها، لكنّه إذا أراد أن يشخّص مصداق الكمال، فإنّه يحتاج إلى عاملٍ آخر يُسمّى العلم والمعرفة، اللذان إذا وُضعا إلى جانب غريزة طلب الكمال سوف يُحقّقان سعادة الإنسان.

هناك مجموعة من الدوافع والميول التي تبرز تلقائيًا في الإنسان وتؤثّر في تحرّكه وسعيه في هذه الحياة، مثل العوامل الطبيعيّة والوراثيّة والاجتماعيّة والبيئيّة

التي تؤثّر في أعمال وسلوك وتوجّهات حياة الإنسان، حتّى إنّه في بعض حالات الإنسان ومن دون الالتفات وبنحوٍ غير واعٍ ومن دون إعمال العقل أو الأمر والتعليم، تظهر هذه الميول فيه بشكلٍ تلقائيّ وتغيّر مسار حياته، لهذا يجب أن يُستعان بقوّة المعرفة والتفكّر إلى جانب عنصر غريزة البحث عن الكمال حتى يتميّز الطريق الصائب الذي ينتهي إلى الكمال الحقيقيّ للإنسان من بين الطرق المختلفة والعوائق المتعدّدة.



التأثير التربويّ لإشباع الغرائز

تُعدّ غريزة النزعة الاستقلاليّة قوّةً أخرى وهبها الله تعالى للإنسان، وكنموذجٍ بسيط، نجد أنّ الطفل في سنواته الأولى لو استطاع أن يقف على قدميه بنفسه ومن دون إعانة من الاخرين فإنّه لا يسمح لأحد أن يمسك بيده. لعلّكم شاهدتم كيف أنّ الطفل ما دام لا يقدر على السير فإنّه يكون مستعدًا ليضع يده بيد أبيه أو أمه أو من هو أكبر منه سنًّا لإعانته على السير، لكنّه بمجرّد أن يشعر بالقدرة على المشي فإنّه يسحب يده ولا يسمح لأحدٍ أن يعينه؛ وكلّما حاول أحدٌ أن يساعده من أجل أن لا يقع أو حتّى لا تقع له حادثة أثناء عبور الشارع فإنّه لا يكون مستعدًّا بسهولة ليدع أحدٌ آخر يمسك بيده ويعينه على المشي، لأنّه يريد الاعتماد على نفسه. هذه الروحيّة هي ما نعبّر عنه بنزعة الاستقلاليّة التي أُودعت بصورة وهبيّة في وجود الإنسان.

إنّ هذه القدرة الغريزيّة مثلها مثل أي قوّة أخرى، يمكن أن تكون على حالةٍ مطلوبة أو غير مطلوبة، فنموّها المناسب هي أن لا يكون الطفل في حياته عالةً على غيره، فيقوم بتأمين احتياجاته حيث يكون لمثل هذه الحالة أثرٌ حسنٌ جدًا. أمّا إذا انتهت هذه الحالة إلى التفريط، فإنّها تبعث على أن يكون الولد عالةً دومًا على الآخرين ويتوقّع أن يحصل على مساعدة الأبّ وتدخّل الأم أو غيرهما، فإذا واجه مثل هذا الشخص مشكلة ما فإنّه لا يسعى إلى حلّها بنفسه بل يمدّ عينيه طالبًا مساعدة هذا أو ذاك ومتوقّعًا لتدخّل الآخرين لإعانته. لا شكّ أنّ مثل هذا الشخص لن يكون له سعيٌ حثيث في المسائل المعنويّة لأنّه لم يتعلّم السعي بنفسه، بل اعتاد على السعي دومًا في ظلّ مساعدة الآخرين. إنّ هذا الأمر وهذه الروحيّة ليسا أمرًا حسنًا لأنّهما يربّيان ذاك الإنسان على الطفيليّة.

أمّا إذا نظرنا من جانبٍ آخر إلى الإفراط في هذه الغريزة فسوف نجده مضرًّا، لأنّه يؤدّي إلى رؤية الإنسان نفسه مقتدرًا في جميع أموره ويظنّ نفسه مستغنيًا عن الآخرين، ولعلّ ذلك يؤدّي به إلى حدود الربوبيّة والاستعلاء على جميع الخلائق. بالطبع، إنّ هذه الروحيّة تنبع من جهالة الإنسان، ومثل هذا الإنسان يشبه ذاك الطفل الذي لا يُدرك أنّه إذا أراد أن يعبر الشارع بمفرده سيكون تحت تهديد اصطدام سيّارةٍ به، فمثل هذا الولد لا يكون مستعدًّا لوضع يده بيد أمه وأبيه وهو يريد أن يعبر الشارع بنفسه لانّه يعيش الإفراط في نزعة الاستقلال ولا يُدرك أنّه يحتاج إلى إعانة الآخرين في مثل هذا الموضع، وأنّه من دون هذا المدد والإعانة فإنّ حياته ستكون في خطر. وعلى أيّ حال، فإنّ كلًّ من الإفراط والتفريط في مثل هذه الغريزة مضرٌّ، فالاعتماد على النفس والاستقلاليّة، وإن كانت أمرًا حسنًا لكنّ الإفراط فيها يمتزج بمخاطر كثيرة، فلو سمح الوالدان بنموّ مثل هذه النزعة والروحيّة على مثل هذه الحالة في ولدهما، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى أن تكون هناك الكثير من الأخطار التي تهدّد حياته.

ومن الأبعاد الأخرى لغريزة طلب الاستقلاليّة أن يرى الإنسان لنفسه شخصيّةً خاصّة، فإذا تكلّم فإنّه يسعى لأن يثبّت كلامه، وإذا تصرّف أو قام بفعلٍ ما فإنّه يريد أن يجعل هذا التصرّف أو الفعل مقبولًا عند الآخرين، فالميل الطبيعيّ والفطريّ في الإنسان هو أن يجعل نفسه وتصرّفه وسلوكه مورد قبول الآخرين من دون قيدٍ أو شرط. فإذا تقرّر أن يُعتبر كلامه على أنّه خاطئ، والسلوك الذي يقوم به على أنّه أمرٌ سيّئٌ وغير لائق، والشيء الذي يحبّه على أنّه بلا معنى وعبثيّ، يلزم من ذلك أن لا يكون مقبولًا في المجتمع ويصبح منبوذًا، الأمر الذي يُعدّ خلاف الميل الطبيعيّ للإنسان. يريد الإنسان أن يكون محبوبًا ومقبولًا عند الآخرين فيحترمونه ويتقبّلونه، وينبغي أن يُستعمل هذا الميل الطبيعي على طريق التربية والكمال.

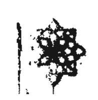
ففي المرحلة الأولى، يحبّ الإنسان أن يكون مقبولًا لدى والديه وأقرانه. وفي المرحلة اللاحقة، يحب أن يكون مقبولًا في مجتمعه، ولكنّه بعد ذلك يُدرك شيئًا فشيئًا أنّ الذي يكون قبوله حسنًا وقيمًّا ومهمًا ليس كل هؤلاء؛ فالذي ينبغي أن يقبل الإنسان هو الله والله فقط. إنّ الميل للمحبوبيّة من قبل الآخرين هو أمرٌ حسنٌ ومقبول، ويُعدّ من العناصر الفطريّة المساعدة على تكامل الإنسان، لكن



ذلك بشرط أن ينضّم إليه ذلك العنصر الدينيّ والعقلانيّ فتتهيأ الأرضيّة المناسبة لتربيته ويدرك الإنسان بواسطة القوّة الناشئة من هذه الغريزة وبواسطة التوجيه الذي تقوم به العوامل الدينيّة والعقلانيّة أنّ ما هو أعلى وأسمى من المقبوليّة عند الناس هو المقبوليّة والمحبوبيّة عند إله العالم. فينبغي أن تكون جميع مساعي الإنسان وثمرتها على طريق تحصيل المقبوليّة والمحبوبيّة عند الله الذي هو منتهى الكمال الإنسانيّ. لهذا، على الآباء والأمّهات والمربّين أن يسعوا لتوجيه هذا الميل الفطريّ بالتدريج، ويقتضي هذا الميل في مرحلة الطفولة أوّلًا أن يكون هذا الطفل كما يريد أقرانه، وفي المرحلة اللاحقة كما تريد جماعته، فيسعى لأن ينصبغ بصبغة الجماعة لأنّه يتخيّل أنّه أفضل، وعليه أن يعمل ليكون مورد قبول الأفضل. ولكن على الآباء والأمّهات والمربّين أن يُفهموه بالتدريج أنّه لا يتقبّل الكلّ نوعًا واحدًا من السلوك.

فالأطفال يقبلون شيئًا والكبار يقبلون شيئًا آخر. فعليهم أن يفهموه أنّه إذا حصل على الشخصيّة والمكانة والمحبوبيّة عند الكبار فإنّ هذا أعلى وأسمى من أن يكون محبوبًا ومقبولًا عند أقرانه من الأطفال. فإذا برز هذا الإدراك في نفسه فعليه هنا أن يحسب ويبحث عن ذاك الذي تكون المقبوليّة والمحبوبيّة عنده أعلى وأسمى. هناك سيسعى لاكتشاف المحبوب الأصليّ حيث يجعل كلّ شيء في سبيل رضاه.

بناءً عليه، فإنّ هذا الميل الفطريّ إذا نما ونضج فإنّه يؤدّي إلى هذه النتيجة المثاليّة، لكنّه إذا لم يخضع للتربية السليمة وبقي في حالةٍ من الكمون فإنّه لا يُنتج سوى إنسان مقلّد يستصغر ذاته، ومن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان سوف يبقى ناظرًا إلى الآخرين ليرى ما يفعلون حتى يقلّدهم ويفعل مثلهم، لأنّه يريد أن يكون مقبولًا عند الآخرين. مثلما نرى في الأطفال حين يقلّدون أقرانهم ويفعلون ما يكون مرغوبًا عندهم لأجل أن يكونوا محبوبين عند سائر شرائح المجتمع. أمّا إذا تمّت تربية هذا الميل الفطريّ تربيةً صحيحةً فإنّ الإنسان يُدرك أنّ عليه أن يختار محبوبه بنفسه لا أن يحبّ ما يحبّه الآخرون، ولا أن يسعى لنيل حبّ من لا يعرفهم. وهنا، يبرز هذا السؤال: محبوبيّة أي شخص تكون أهمّ من الجميع؟ يمكننا أن نُجيب عن هذا السؤال من خلال التفكّر الصحيح والعميق بأنّ المحبوبيّة عند الله هي أهمّ وأعلى والأكثر مطلوبيّة بالنسبة له من أي محبوبيّةٍ عند أي إنسان.



هنا، ستظهر فيه هذه الحالة حيث لن يكون له أي طلبٍ سوى كسب رضى الله، وقد وردت عبارات عديدة من هذا القبيل كما في الآية الشريفة: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1] وقوله «وجه الله» في الآية التالية: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[2]، وقوله «مرضاة الله» في الآية الشريفة: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[3]، وغيرها من العبارات القريبة من هذا المعنى، على أساس أن يُربّي الإنسان هذه الميول الفطريّة فيه تربيةً صحيحة ولا يجعل المحبوبيّة عند الآخرين ملاكًا ولا يطلب سوى رضى الله والمحبوبيّة عنده.

إنّ مثل هذه الحالة موجودة في الميل نحو الكمال وينبغي أن نقوم بتربية هذا الحسّ والميل أيضًا. فعلى سبيل المثال، إنّ هذه الروحيّة التي يكون فيها الإنسان طالبًا للبروز ويعتبر ذلك كمالًا لنفسه هو ميلٌ فطريّ وإلهيّ ولكن ينبغي إفهامه ما هي الكمالات الحقيقيّة وكيفيّة الوصول إليها من أجل أن يقوم بنفسه بعمليّة تشخيص الكمال الواقعيّ. فينبغي أن يتربّى ويعلم أنّه ليس كلّ طريقٍ يسلكه يُعدّ كمالًا، وأنّ البقاء فيه والإصرار عليه لا يكون صحيحًا؛ أي ينبغي أن يفهم أنّ الإنسان قد يخطئ أحيانًا، والكمال هنا هو أن يتراجع عن خطئه وعن المعصية التي ارتكبها فيتوب بسرعة، وإذا أخطأ بحقّ أحدٍ أو أهانه يسارع إلى الاعتذار، وإذا صدر منه فعلٌ خاطئ، وإن لم يضرّ بأحد، فعليه أن يتراجع عن هذا الفعل ولا يصرّ عليه.

فلو ضممنا الميل الفطريّ والاندفاع الذاتيّ نحو حبّ الذات مع الميل إلى الكمال يمكن أن نكتشف الجهة الصحيحة لسلوكنا ونتراجع عن السلوك الخاطئ فنبدّل اللجاج بالليونة والمرونة وطلب الحقّ والتسليم له. بالطبع، لهذه الحالة آثار كثيرة لا مجال الآن للتفصيل فيها.

---

(١) سورة **الليل**، الآيتان ١٩ و٢٠.

(٢) سورة **الإنسان**، الآية ٩.

(٣) سورة **النساء**، الآية ١١٤.

عاقبة الإفراط في إشباع غريزة حبّ الذات

ومن خلال البيان المذكور يتشخّص كيفيّة وسبب نشوء اللجاجة في شخصيّة الإنسان ولماذا يستمرّ هذا الإنسان على المسار الخاطئ الذي يسلكه. وفي الواقع، إن منشأ هذه الروحيّة هو أمرٌ فطريّ في الإنسان الذي يريد أن يحقّق كماله بنحوٍ ما، ويثبت شخصيّته. فهو يظنّ أنّه إذا اعترف بخطئه فسوف تتعرّض شخصيّته للاهتزاز، ولهذا فإنّه يسعى مهما أمكن للدفاع عن سلوكه وقوله لكي لا يفكّر الآخرون مثل ذلك التفكير بشأنه ومن الضروريّ هنا أن نتعرّض قليلًا لعواقب مثل هذه الروحيّة.

افرضوا أنّكم تتباحثون مع صديقٍ لكم وأنتم تشرحون إحدى عبارات كتابٍ ما، يعترض صديقكم ويقول إنّ المعنى ليس هكذا بل هو شيءٌ آخر. فتردّون عليه: إنّ معنى العبارة هو ما أقوله أنا وتبيّنون له أنّك قد قرأت العبارة بشكلٍ خاطئ وفسّرتها بصورةٍ خاطئة. وعلى أيّ حال، فمن الممكن أن يكون للإنسان ردود فعل مختلفة مقابل هذا النوع من الكلام. فأحد ردود الفعل هو أن يُصرّ على كلامه ويكمل حديثه حتى يكون كلامه آخر الكلام، أي رغم أنّه يعلم ويفهم أنّه أخطأ، لكنّه يصرّ على كلامه؛ ومثل هذه الحالة تُعدّ نوعًا من اللجاج وليست حالةً بعيدةً عن حياتنا لكنّنا لا نلتفت إليها. وقد يصل تأثير هذه الروحيّة إلى درجةٍ تؤدّي إلى عواقب وخيمة جدًّا. فإذا ترسّخت مثل هذه الحالة في نفس الإنسان وأصبحت ملكةً فيه، فسوف يعقبها مفاسد كثيرة.

فعلى سبيل المثال، إذا اعتبر أنّ كل ما يقوله هو كلامٌ صحيح ولا يكون مستعدًّا للاعتراف بخطئه، وهذا الإصرار من دون دليل يستتبع مفاسد فرديّة واجتماعيّة كثيرة، ولهذا فإنّ مثل هذا الشخص إذا وصل إلى منصبٍ اجتماعيّ مهمّ أو أصبح مسؤولًا عن مجموعةٍ من الأفراد فسوف يكون سببًا لضلالتهم ولبروز مفاسد اجتماعيّة لا يمكن جبرانها. وإذا ترسّخت هذه الملكة ولم يعد صاحبها مستعدًّا للاعتراف بخطئه بأي شكلٍ، فلا شكّ بأنّها ستؤدّي إلى إضلال الناس وإيقاعهم في الخطأ وبروز الكثير من المفاسد الاجتماعيّة. وهذه الروحيّة تنبع من ذلك الخُلق الطفوليّ الذي يُسمّى «اللجاج» ويمكن أن تبقى إلى زمن الشيخوخة حتى لو أصبح مرجعًا للتقليد أو مسؤولًا على البلاد أو مديرًا لعائلةٍ وأسرة.

وطالما أنّنا في مرحلة الشباب ولم نفقد الفرصة بعد ولم تستحكم فينا هذه الخصلة القبيحة، فمن المهم أن نجنّب أنفسنا مخاطرها. فإذا وُجد فيكم أدنى دافع يمنعكم من الاعتراف بخطئكم وتقبّله والسعي لجبرانه فاعلموا أنّكم تسلكون طريقًا خطرًا وسوف ينتهي بكم إلى مكانٍ وخيم. فعليكم أن تعرفوا أنّه كلّما ارتقيتم في المناصب والمقامات الاجتماعيّة فإنّ مدى الأثر السلبيّ لهذا الخطر سيكون أبعد ويحمل معه من المفاسد ما هو أخطر وأخطر. فعلينا أن نسبر أغوار وجودنا وندقّق فيه، حتى نرى مدى رسوخ هذه الصفة فينا وثباتها وأين تظهر حتى نسارع مهما أمكن إلى اجتنابها وعلاجها وإلّا فعلينا أن ننتظر عواقب وخيمة جدًا.

علاج اللجاج

لا بأس هنا أن نتحدّث قليلًا عن علاج مرض اللجاجة. لأجل بيان العلاج بشكلٍ صحيح تصوّروا في البداية الحالة النفسيّة للطفل اللجوج وماذا تفعلون إذا كنتم تتعاملون معه؟ فإذا كان لجوجًا أو أصرّ على شيءٍ ما، ماذا تفعلون؟ افرضوا أنّ هذا الطفل مريضٌ، وأنّ هذا النوع من الأكل غير مفيدٍ بالنسبة له، لكنّه مع ذلك يصرّ على تناوله أو أنّه يصّر على أي أمرٍ آخر من الأشياء التي يصرّ عليها الأطفال. فإذا واجهتكم مثل هذه الحالات مع الطفل وأصرّيتم على رأيكم فسوف ينشأ النزاع، وليس معلومًا أيّ ضررٍ وخسارةٍ ستحصل. أمّا إذا أردتم أن تتعاملوا معه بصورةٍ عقلانيّة حتى تصرفوه عمّا يريد، فعليكم أن تسعوا أن تعدّوا له الشيء الذي يحبّه وتقدّموه له من أجل أن تصرفوا اهتمامه نحو هذا الشيء الذي يرغب به أكثر. افرضوا أنّه يحبّ كثيرًا لعبةً ما، أو أنّه يحب الذهاب إلى الحديقة وأماكن من هذا القبيل، فإذا كان في حالةٍ من اللجاجة حاولوا أن تصرفوا اهتمامه نحو تلك اللعبة الخاصّة أو أن تأخذوه إلى ذاك المكان الذي يحبّه لكي يخرج من حالته هذه.

أمّا إذا قال لكم إنّني أريد أن آكل هذا الطعام وأصرّ على ذلك، وأنتم قلتم في المقابل أنّه لا، لن تأكل هذا الطعام، فإنّ هذا التعامل سيؤدّي إلى ترسيخ حالة اللجاجة فيه، وفي بعض الأحيان سيستتبع ذلك أضرارًا كثيرة، وأوّل ضررٍ وأثرٍ لهذا التعامل الممتزج بالنزاع هو أنّ هذا الطفل سيتربّى بصورةٍ سيّئة. فبدل أن تستعملوا هذا الأسلوب الخاطئ لصرفه عمّا يريد، يجب أن تحاولوا عرض ما يحبّ عليه. وفي الأساس، إنّ تلك الأشياء التي يرغب بها الإنسان ويسعى نحوها



سواء كانت حسنة أو سيّئة، إذا وضعنا معها ما هو أكثر مرغوبيةً فإنّها سوف تفقد حرارتها. وبالطبع، إنّ هذه القاعدة لا تنحصر بقضية اللجاج بل تشمل سائر الدوافع الحيوانيّة والإنسانيّة. فكلّ غريزةٍ إنسانيّة إذا طغت لا يصحّ الوقوف بوجهها إلّا إذا وضعنا إلى جانبها ما هو أكثر مطلوبيةٍ ومرغوبيةٍ.

فالشهوة والغضب وحبّ الذات وغيرها من الحالات النفسيّة كلّها مطايا إذا جمحت لا يمكن حينها الوقوف بوجهها بسهولة، ففي الخطوة الأولى يجب أن نسعى كي لا تتبدّل إلى حالة الطغيان. ففي مورد الشهوة مثلًا يجب أن نسعى ألّا تشتدّ وتصبح مسيطرة، لأنّه في هذه الحالة يصبح الوقوف بوجهها صعبًا جدًا وبقول أحد العظماء: «عليكم أن تسعوا لئلّا تغلي نار الشهوة لأنّكم لن تتمكّنوا بعدها من إطفائها بسهولة». وفي مورد الغضب أيضًا، بمجرّد أن يشعر الإنسان أنّه دخل في مرحلة الغضب، عليه أن يسعى لإخراج نفسه بمقدارٍ ما من المعركة والأزمة لكي يحول دون طغيانه، أمّا إذا طغى الغضب فإنّه لن يكون من السهل عندها الوقوف بوجهه. والأمر ينطبق أيضًا على اللجاج، ففي المرحلة الأولى يجب أن نسعى للسيطرة عليه وترويضه، فإذا تلفّظنا بأمرٍ خاطئ أوّل مرّة، فإنّ التراجع عنه سيكون سهلًا نسبيًا، أمّا إذا كرّرنا هذا الكلام الخاطئ عشر مرّات وقلنا إنّ ما أقوله هو الصحيح ولا غير، وإنّ كل ما قاله الآخرون هو خطأ، فإنّ التراجع في مثل هذه الحالة يصبح أمرًا صعبًا جدًا. لهذا، ينبغي أن نضبط أنفسنا قبل أن تصل حالة اللجاجة إلى طغيانها، وعلينا أن نجتنب الإسراع في إصدار الأحكام على وجه الخصوص.

حين ينطق الإنسان بكلام ما، فإنّ التراجع عنه يكون صعبًا، فعلينا أن نسعى إذًا أن نتأنّى ونتدبّر ونتفحّص قبل أن ننطق، وأن لا نستعجل في إصدار الأحكام والكلام. فمن طرق منع ظهور صفة اللجاجة وطغيانها أنّه إذا سُئلنا شيئًا لا نُجيب بسرعة ونتأمّل قليلًا ونصبر حتى يقلّ خطؤنا واشتباهنا، لأنّنا إذا أسرعنا في الإجابة فإنّ احتمال ظهور الخطأ سيكون أكثر، وحين يقع هذا الخطأ فإنّ الاعتراف به سيكون صعبًا جدًا أمّا إذا تأنّينا وأجبنا بعد التفكّر والتأمّل فإنّ أرضية ظهور اللجاجة ستكون أضعف. فيجب أن نتأنّى ونتأمّل في جميع أفعالنا الجوارحيّة والجوانحيّة وفي كلامنا لنختار أفضل الأنواع والأشكال فيها، ومن هنا فإنّه حين يتمّ اقتراح أمرٍ ما من المستحسن أن نأخذ وقتًا ونتفكّر لمدّة ساعة مثلًا إذا كان هناك من فرصة ليومٍ كامل فيكون أفضل وبعد ذلك نتّخذ القرار المناسب.

جذور اللجاج وعاقبته



إذا طلب أحدٌ منك رأيًا في قضيّة مهمّة، فلا تستعجل الإجابة وإظهار الرأي. وإذا كان لديك مهلة يومين أو ثلاثة أيام فأمهله ولا تعطي رأيك إلا بعد وقتٍ من الصبر والتأمّل. ولا تعجل بالكلام، لأنّ الرجوع عنه بعد ذلك سيكون صعبًا؛ وبالطبع إذا أخطأت بعد ذلك بعد التفكر والتأمّل، فعليك أن تتقبّل ذلك لأنّ التراجع عن الخطأ هو أنفع من الإصرار عليه، ويحفظ شأنيّتك وكرامتك. فحين يعرف الناس أنّك أخطات ومع ذلك فأنت مستمرٌّ على خطئك ومصرٌّ عليه، فإنّهم ينفرون منك. فالناس لا يحبّون الإنسان اللجوج، ونحن هكذا أيضًا.

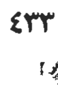
فلماذا نصرّ على اللجاجة رغم أنّها تؤدي إلى نفور الآخرين؟! نتصوّر أنّنا بذلك نحفظ كرامتنا في حين أنّنا بمثل هذا الفعل القبيح نذلّها ونصغّر أنفسنا، ولعلّنا نخدع غيرنا لمدةٍ قصيرة، ونصرّ على صوابيّة رأينا، إلّا أنّ الأمور ستّتضح في النهاية، وإذ بشأنيّتنا وحيثيّتنا تُصبح تحت التراب، ويتبيّن للجميع مدى لجاجتنا. كلّ واحدٍ منّا قد خبُر مثل هذه الحالة في حياته اليوميّة مرارًا أو هناك من ابتُلي بهذا بشدّة أو واجه أشخاصًا مبتلين بهذه الروحيّة، فعلينا أن نعلم أنّه، وإن أمكن إقناع الطرف الآخر مرّة أو مرّتين أو خداعه ولم يرد بشيء، لكنّه سيأتي اليوم الذي سيتبيّن خطؤنا وتُعرف القضيّة على حقيقتها ونُفتضح. فحين ندرك أنّنا قلنا كلامًا خاطئًا أو ارتكبنا فعلًا في غير محلّه، فعلينا أن نتراجع عنه بسرعة. فإذا تسببّ تصرّفنا بإهانة شخص فلنعتذر بأسرع وقتٍ، لأنّه كلّما مرّ الوقت ستترسّخ الكدورة وتزداد وسيكون علاجها أشدّ. فإذا ارتكبنا معصيةً ما، يجب علينا أن نتوب منها بسرعة لأنّ الإصرار على المعصية يُعدّ من اللجاج الذي يجب أن نجتنبه. إنّ اللّجاجة توصل صاحبها إلى حيث يتنكّر لفعله رغم أنّه يدرك الحقّ ولا يكون مستعدًّا لأن يتقبّل ذلك حتى في ذهنه.

ولعلّه من الصعب أن يتقبّل البعض وجود إنسان يعلم ما هو حقّ ويقطع به، فيصرّون على أنّه ليس بحقّ. إنّ تصور مثل هذه الروحيّة صعبٌ، فما بالك بالتصديق بها الذي يُعدّ أكثر صعوبةً؛ لهذا يُقال إنّه لا يصحّ أن تظهر مثل هذه الروحيّة في الإنسان. أمّا القرآن فيقول: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1]،

---

(١) سورة **النمل**، الآية ١٤.





فحين رأى الفراعنة آيات الله تيقّنوا أنّها حقٌ، لكنّهم أنكروا ذلك، لماذا؟ ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾؛ فإنّ استعلاءهم كان مستحكمًا إلى درجةٍ أنّهم لو تقبّلوا ما قاله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتنازلوا شيئًا ما عن رأيهم، لما أمكنهم بعدها من التسلّط على الناس بشكلٍ كامل.

إنّ روحية الاستعلاء والتسلّط هي روحيّة خطرة جدًا، ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[١]، فالذين تسيطر عليهم مثل هذه النزعة لن يكونوا من أهل الجنّة، فمثل هذه الروحيّة تسوق الإنسان وسلوكه نحو المصير المشؤوم.

يبدأ الاستعلاء من درجاتٍ متدنّية؛ لهذا يجب على الإنسان فيما إذا أراد اقتلاع جذور هذا المرض أن يبدأ أوّلًا بالالتفات إليه. يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل أخيه»[٢]؛ ومثل هذا الأمر هو درجة من الاستكبار والاستعلاء التي يمكن أن تؤدّي إلى تلك الدرجة المذمومة. يجب على الإنسان أن يحدّد مصلحته، وما الذي يريده الله منه، فيؤدّيه ولا يجعل استعلاءه محرّكًا له. إنّ هذه الروحيّة التي تجعل الإنسان في حالة من المقارنة الدائمة بينه وبين الآخرين ويطلب بذلك أن يستعلي عليهم، ستكون عاقبته الحسد، وسينتهي إلى الظلم وتضييع حقوق الآخرين. وفي النهاية، ستكون عاقبة هذا الطريق، أن يُختم بالجحود والكفر. «الجحود» هو أحد مراتب الكفر الذي ينبع من العناد، أي رغم إدراكه للحقّ، فإنّه يرفضه عمدًا؛ ولا شك بأنّ هذا من أخطر الحالات ويمهدّ للكثير من الانحرافات اللاحقة. فعلينا أن نلتفت جيّدًا لئلّا تتجذّر فينا حالة الاستعلاء على الآخرين وتظهر تجلّياته العمليّة، أي اللجاج، في ذهننا وعملنا. إنّ روحيّة أن يكون الحقّ «ما أقول» وأنّ كلمتي هي الكلمة النهائيّة، ليست سوى اعتبار النفس أفضل وأعلى. فإذا كان الكلام حقًّا، فعلينا أن نتمسّك به لأنّه حقّ، لا لأنّني أنا الذي قلته.

بالطبع، إنّ الليونة ليست حسنةً في جميع الأحوال. فلا ينبغي أن يتنازل

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٨٣.

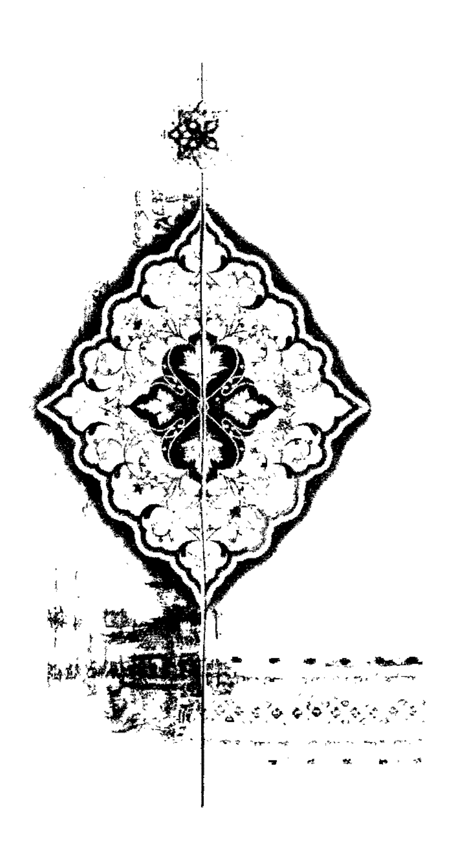
(٢) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٦.

الإنسان في كلّ الأحوال ويتقبّل كلام أي شخصٍ ويعتبره صحيحًا. إنّ روحية التسامح التي يروّج لها الغربيّون ليست أمرًا صحيحًا. فعلى الإنسان أن يعرف الحقّ ويستقيم عليه ولا يتنازل عنه أبدًا ولا يتساهل بشأنه. أمّا إذا أدرك أنّه ليس بحقّ وأنّه أخطأ، فلا ينبغي بعدها أن يصرّ ويلحّ عليه. يجب أن يرسّخ في نفسه هذه الروحيّة التي تجعله يعمل بما يُدركه من حقّ، ويتمسّك به تمامًا. وفي الوقت نفسه، إذا أدرك أنّه أخطأ وأنّ الحقّ في موضعٍ آخر، فعليه أن يعترف بخطئه ويتجنّب حالة محوريّة الذات والعجب والتباهي، لأنّ مثل هذه الروحيّات تكون مانعةً من تصحيح الإنسان لسلوكه. يجب أن يكون الإنسان تابعًا للحقّ ويضع اللجاج جانبًا. إنّ اللجاج مطيّةٌ جامحةٌ إذا ركبها الإنسان ستوقعه أرضًا وتضيّع حيثيّته ووجوده، وهي شبيهة بمطيّة الشهوة والغضب إذا طغيا فإنّهما يُحرقان الأخضر واليابس. لكن للأسف، فرغم اطّلاعنا على الآثار المشؤومة للشهوة والغضب واللجاج، فإنّنا نغفل عنها. إنّ اللجاج مركبٌ مضطربٌ شموسٌ لا تكون عاقبته سوى الهلاك. يقول أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام: «**إيّاكَ أَنْ تُطيحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجاج**»[1] أي إنّ هذه الإطاحة ستؤدّي إلى الهلاك وبحسب بعض النسخ الأخرى: «**إيّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مطِيَّةُ اللَّجاج**».

وبحسب كلا النقلين، فإنّ الإمام عليه السلام يشبّه اللجاج بالمطيّة الجامحة التي إذا لم يروّضها صاحبها ولم يمسك بعنانها فسوف تُطيح به وتوقعه في حفرة الهلاك. وبما أنّ أحد أكثر موارد اللجاج يرتبط بالمعاصي فإنّ الاستمرار فيه يُعدّ في الواقع نوعًا من الإصرار على المعصية. لهذا، فإنّ الإمام عليه السلام وبعد أن ينهى عن اللجاج يقول: «**وَإِنْ قارَفْتَ سَيِّئَةً فَعَجِّلْ مَحْوَها بِالتَّوْبَة**». إنّ الإصرار على المعصية هو من أنواع اللجاج لأنّه يجعل صاحبه يكرّر ذلك الفعل الخاطئ الذي قام به سابقًا.

---

(١) طبق نسخة **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٢٠٨.



الدرس الثاني والثلاثون
الخطر والحظر

- الأمانة
- الأمانة حسنة دومًا
- الوفاء بالعهد
- الطمع عملٌ غير عقلائي
- حتميّة سنّة الامتحان في عالم الخلقة
- السعي والتوكّل طريق الاعتدال
- المخاطرة المعقولة







«ولا تَخُنْ مَنِ ائْتَمَنَكَ وإِنْ خانَكَ، وَلا تَذَعْ سِرَّهُ وإِنْ أذاعَ سِرَّكَ، وَلا تُخاطِرْ بِشَيء رَجاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَاطْلُبْ فَإِنَّهُ يَأْتيكَ ما قُسِمَ لَكَ، والتاجِرُ مُخاطِرٌ».

في هذا المقطع من شرح وتفسير وصية الإمام عليّ عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام يتناول الإمام عليه السلام أحد أعمّ القيم الأخلاقيّة في نظام القيم الإسلاميّة، بمعنى أنّ للكثير من الأعمال الحسنة والقيّمة شروطًا حين لا تتوفّر لا تبقى لهذه الأعمال قيمة. فرغم أنّ الكثير من الأعمال الحسنة تُطرح بصورة مطلقة في الظاهر، ولها قيمة عامّة وكلّية، إلّا أنّ لها موارد استثنائيّة. فعلى سبيل المثال، نحن نعلم أنّ قول الصدق هو أمرٌ حسنٌ جدًا في الرؤية الإسلاميّة، ولكن قد يكون هناك موارد لا ينبغي فيها قول الصدق، بل يجب الكذب. فإذا كانت نفس المؤمن في خطر ويمكن أن تنجو بواسطة الكذب فإنّ الكذب هنا يُعدّ واجبًا.

لهذا، بالرغم من أنّ قول الصدق هو قيمة عامّة في نظام القيم الإسلاميّة، ولكن يبدو أنّ له موارد استثنائيّة. وقد يكون الأمر على العكس، حيث يكون هناك عملٌ منهيٌّ عنه ويُعدّ القيام به أمرًا قبيحًا على نحوٍ مطلق ويُعتبر أمرًا قبيحًا لكنّه قد يصبح في بعض الموارد جائزًا مثل التصرّف السيئ، أو الضرب، فإنّه لا يجوز لأحد القيام به، ويُعدّ أمرًا سيّئًا جدًا وقبيحًا، إلّا أنّ هذا السلوك نفسه لو كان تحت عنوان القصاص أو بعنوان المقابلة بالمثل، فإنّه لن يبقى على قبحه وسوئه، وفي الأشهر الحُرُم لا ينبغي البدء بالحرب والقتال، لكن إذا قام العدوّ بمحاربتنا فلا يبقى هناك إشكالٌ في القتال، أو كما أنّه لا ينبغي القتال في المسجد الحرام، ولكن إذا بادر العدوّ للقتال، فلا يبقى هناك أي مانعٍ أو إشكال في القتال والحرب.



الأمانة

هناك بعض القيم سواء الإيجابيّة منها أو السلبيّة ليس لها موارد استثنائيّة، وينبغي رعايتها بالنسبة لكلّ أحد وفي كلّ مكانٍ وزمان، ومن هذه القيم المطلقة نذكر الأمانة. فإحدى أهمّ القيم العامّة والكلّيّة التي لم يُذكر لها أي استثناء هي الأمانة. ولهذا، لو أودع أحد عندك شيء كأمانةٍ وقبلتها، يجب عليك أن تحافظ عليها في كلّ الظروف والحالات حتى تعيدها إلى صاحبها. ومهما كان الذي يأتمنك، ومهما كانت تلك الأمانة، فلا ينبغي أن يؤثّر ذلك في تعهدّ الشخص الأمين. فلا يوجد أي شرطٍ حول الأمانة. ولهذا، لا يوجد أي خصوصيّة للزمان والمكان والشيء المؤتمَن عليه والأمين والمؤتمِن. فأينما كنّا وفي أي زمانٍ يجب أن نؤدّي الأمانة من دون أي قيدٍ أو شرط. لهذا، لو وضع أي إنسانٍ، سواء كان كافرًا أو مسلمًا، وفي أيّ زمانٍ ومكانٍ، أي شيءٍ عندكم بعنوان أمانة، وتعهّدتم أنتم بحفظها، يجب عليكم أداءها؛ حتى لو كانت هذه الأمانة لعدوّكم.

وفي روايةٍ مدهشةٍ يقول الإمام السجاد عليه السلام: «لو أنّ قاتل الحسين عليه السلام ائتمنني على السيف الذي قتل به الحسين عليه السلام لرددته إليه»[1]. فلنلتفت جيّدًا إلى أنّ قائل هذا الكلام النفيس هو الإمام السجّاد عليه السلام، والشيء الذي هو مورد الأمانة هو السيف الذي قُطع به رأس سيّد الشهداء، ومن جانبٍ آخر فإنّ الذي يضع الأمانة هنا ليس سوى قاتل سيد الشهداء عليه السلام، الآن وبالرغم من كل هذا، فإنّ الإمام السجاد عليه السلام يقول: «لو أنّني تقبلت هذا السيف كأمانة، فإنّني سوف أردّ هذه الأمانة»، ولو كان هناك مورد استثنائيّ لهذا الحكم القيميّ، لكان هذا المورد، أحد موارده. لكنّ الإمام لا يستثني هنا إنّما علينا أن نؤدّي هذه الأمانة بدقّة.

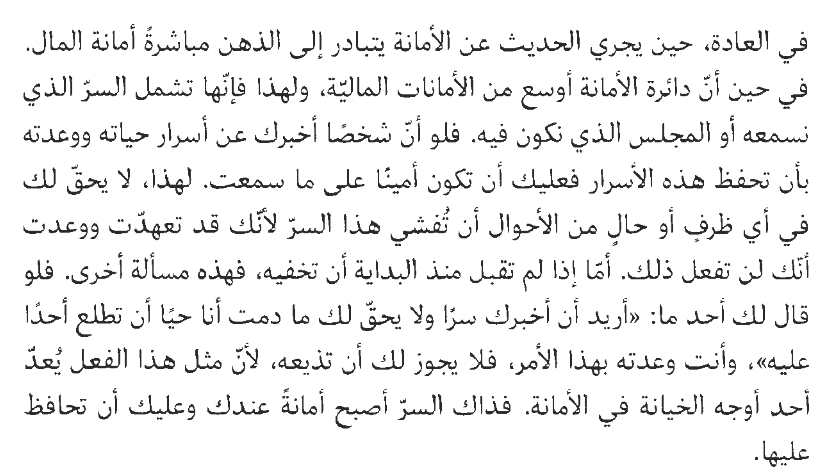
من الواضح أنّ الإنسان إذا لم يقبل الأمانة منذ البداية، أو كان الشيء الذي يُراد أن يؤتمن عليه ممّا لا ينبغي أن يقبله، فإنّها ستكون قضيّةً أخرى يمكن أن نبحث بشأنها في محله. لكن طالما قبلنا الأمر بعنوان الأمانة فإنّ أداءها وحفظها يُعدّ واجبًا ولا شك في وجوب الوفاء وعدم الخيانة في الأمانة.

---

(١) الأحسائي، **عوالي اللئالي**، تحقيق: الحاج آقا مجتبى العراقي (قم: مطبعة سيد الشهداء، الطبعة ١، ١٤٠٤/ ١٩٨٤م)، الجزء ٣، الصفحة ٢٥١.



الأمانة حسنة دومًا



في العادة، حين يجري الحديث عن الأمانة يتبادر إلى الذهن مباشرةً أمانة المال. في حين أنّ دائرة الأمانة أوسع من الأمانات الماليّة، ولهذا فإنّها تشمل السرّ الذي نسمعه أو المجلس الذي نكون فيه. فلو أنّ شخصًا أخبرك عن أسرار حياته ووعدته بأن تحفظ هذه الأسرار فعليك أن تكون أمينًا على ما سمعت. لهذا، لا يحقّ لك في أي ظرفٍ أو حالٍ من الأحوال أن تُفشي هذا السرّ لأنّك قد تعهدّت ووعدت أنّك لن تفعل ذلك. أمّا إذا لم تقبل منذ البداية أن تخفيه، فهذه مسألة أخرى. فلو قال لك أحد ما: «أريد أن أخبرك سرًا ولا يحقّ لك ما دمت أنا حيًا أن تطلع أحدًا عليه»، وأنت وعدته بهذا الأمر، فلا يجوز لك أن تذيعه، لأنّ مثل هذا الفعل يُعدّ أحد أوجه الخيانة في الأمانة. فذاك السرّ أصبح أمانةً عندك وعليك أن تحافظ عليها.

وبناءً عليه، إنّ بعض الأعمال كحفظ الأمانة تتمتّع بالقيمة الأخلاقيّة الثابتة ولا يمكن أن تنفصل عنها ولا يمكن لأيّ عاملٍ أن يزحزحها من موقعيّتها القيميّة الخاصّة. لكن هناك بعض الأعمال والسلوكيّات التي قد تختلف مكانتها بحسب الظروف؛ وكمثال على ذلك، أن يكون شيءٌ ما سيّئًا وقبيحًا، ولكن بسبب اتّصافه بعناوين مختلفة كعنوان «المقابلة بالمثل»، يُصبح جائزًا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1]. فبحسب أصل «المقابلة بالمثل» الذي هو أحد الأصول الذي تمّ الاعتناء به في **القرآن الكريم** والروايات، فإنّ بعض الأعمال القبيحة تُصبح جائزةً مثل الحرب. وبالطبع، فقد ذُكرت موارد التمسّك بذلك الأصل في محلّها. أمّا في مورد أداء الأمانة، فلا يجري هذا الأصل، بحيث نعدل بالأمانة عن موقعها القيميّ انطلاقًا من أصل «المقابلة بالمثل» ونجعل الخيانة في الأمانة جائزة.

فلو ائتمنتم شخصًا وأودعتموه أمانة ما، لكنّه خان أمانتكم فهذا لا يبرّر أن تخونوا هذا الشخص فيما لو أودعكم أمانةً ما بعد مدة، وقبلتموها بعنوان الأمانة. فإنّ حرمة الخيانة في الأمانة لا يمكن أن تزول بمقتضى أصل «المعاملة بالمثل»، حتى يُقال لأنّ ذلك الشخص قد خانني فيحقّ لي أن أخونه. لا يحقّ لكم بأي وجه

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٢٦.



من الوجوه أن تخونوا الأمانة. ولو أنّكم أودعتم شخصًا ما سرًا فأفشاه، وبعد مدةٍ من الزمن أودعكم سرًا، فلا يحقّ لكم أن تُفشوا سرّه تحت حجّة أنّه قد فعل ذلك بكم فتعاملوه بالمثل. المعاملة بالمثل لا تجوز في هذا المورد. إنّ أداء الأمانة وحرمة الخيانة في الأمانة من أعمّ القيم الأخلاقيّة التي لا استثناء فيها. إنّ بعض القيم الأخلاقية كالصدق في القول تكون من الموارد التي يوجد فيها استثناءات حيث يمكن الكذب في بعض الموارد لسببٍ ما، أمّا الأمانة فلا استثناء فيها.

الوفاء بالعهد

أحد الأصول القيميّة والأخلاقيّة العامّة هو الوفاء بالعهد، الذي يُعدّ من أعمّ القيم. من هنا، لو عاهدتم شخصًا ما أو وعدتموه، وتعاهدتم بشيء ما، فعليكم أن تفوا بعهدكم. يقول الله سبحانه في القرآن الكريم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وبالطبع، إنّ لأصل الوفاء بالعهد استثناء وهو حين ينقض الطرف الآخر عهده معكم، يمكنكم في هذه الحالة أن تنقضوا العهد في المقابل. بالطبع، إنّ هذا لن يُعدّ نقضًا للعهد لأنّ العهود تتبع الطرفين، وإذا نقض أحد الطرفين العهد الممضيّ فلا يبقَ هناك تعهّد حتّى يكون الطرف الآخر ملزمًا برعايته. أمّا في مورد الأمانة فلا وجود لمثل هذا المورد، بحيث إذا أفشى من ائتمنكم سرّكم فيحقّ لكم عندها أن تفشوا سرّه، أو إذا خان أمانتكم فيحقّ لكم عندها أن تخونوا الأمانة، كلا. بناءً عليه، إذا قلنا إنّ أداء الأمانة يُعدّ أعمّ القيم في نظام القيم الإسلاميّ، فلا يكون الكلام جُزافًا، «**ولا تخن من ائتمنك وإن خانك، ولا تذع سرّه وإن أذاع سرّك**»، فأصل «المعاملة بالمثل» لا يجري هنا.

الطمع عمل غير عقلاني

من التعاليم الأخلاقيّة الأخرى التي يجب رعايتها في حياة جميع الناس من

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤.



المؤمنين وغيرهم هو اجتناب الطمع، الذي يُعدّ من الأحكام الأخلاقيّة المفيدة والتربويّة. ففي كثيرٍ من الموارد، نجد أنّ الإنسان قد يتخلّى عن مصالحه القطعيّة، على أمل الوصول إلى مصالح مشكوكة أو محتملة انطلاقًا من الحرص والطمع، في حين أنّ هذا العمل لا يتمتّع بأيّ وجهٍ عقلائي. وللأسف، لا أنّنا نشاهد الكثير من هذه النماذج في أيّامنا هذه فحسب، بل نحن أيضًا مبتلين بذلك كثيرًا. فعلى سبيل المثال، إنّ الكثير من الناس وبمجرّد أن يسمعوا أنّ البضاعة الفلانية سوف ترتفع أسعارها فإنّهم يبيعون كل ما يملكون وما لا يملكون لكي يحصلوا على تلك البضاعة ويكدّوسها، على أمل أن يبيعوها وقت غلائها. ولا شك بأنّ هذا العمل قبيحٌ ومذموم ويتضاعف قبحه بالنسبة لأهل الإيمان. إنّه عملٌ سيّئٌ جدًا، وهو في الواقع علامة على عدم الاتّكال على الله، ولا يمكن أن نُطلق عليه سوى الحرص والطمع. إنّ هذا التصرّف، بالإضافة إلى قبحه الأخلاقيّ وحرمته الفقهيّة أحيانًا، فهو عملٌ قبيحٌ بنظر العقلاء ولا مجوّز عقلائي له.

وبعبارة أخرى، قد يُقدم الإنسان أحيانًا على عملٍ ما، على أساس قواعد عقلائيّة أو حسابات صحيحة فيبيع متاعًا لأجل الحصول على منفعةٍ أكبر، ففي مثل هذه الحالة لا يوجد أي عيبٍ أو إشكال، لأنّه قام بعملٍ يقوم به الجميع من أجل تحسين معيشتهم والحياة السليمة ليست سوى هذا النوع من الأعمال؛ فالمزارع ينثر الحبوب التي بيده في التربة كي ينال محصولًا أكبر. فهو يتخلّى عن شيءٍ ذي قيمة ماليّة، وينثره في الأرض على أمل أن يعود عليه بالمحصول. من الواضح، أنّ مثل هذا العمل هو عملٌ عقلائيّ وصحيح وطريق الحصول على هذه الثمار والمحاصيل لا يمكن أن يتحقّق إلّا من خلال الزراعة. الناس يتعبون أنفسهم على أمل أن ينالوا أجرًا، فهم في العادة يضحّون بالمتاع الموجود على طريق كسب معاشهم ومنافعهم؛ أمّا البعض فقد يعطون بعض المتاع القيّم من باب الحرص والطمع، على أمل أن يحصلوا على مقدارٍ أكبر بعد عشر سنوات وأن يكسبوا منافع أزيد. من الواضح أنّ مثل هذا العمل ليس عقلائيًا بل هو بنظر الشرع مذمومٌ. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المقطع من وصيّته: «**وَلا تُخاطِرْ بِشَيءٍ رَجاءَ أَكْثَرَ مِنْه**»، فلا ينبغي أن يعرّض الإنسان متاعه الموجود للخطر لاحتمال الحصول على ما هو أزيد منه فقط. فاغتنم ما لديك الآن وما يمكنك أن تحفظه ويكون ميسّرًا، ولا تتخلّص منه انطلاقًا من ذلك الأمل الواهي بالوصول إلى نفعٍ أكبر. اللّهم إلّا إذا



استطعت أن تراعي هذين الشرطين:

١ - أن يكون الوصول إلى تلك الأمنية ممكنًا بحسب حكم العقل، أي حين تكون المنافع المشروعة والصحيحة مضمونةً، ويكون الوصول إلى ذلك النفع الأكبر صحيحًا ومقبولًا طبق منطقٍ عقلائي.

٢ - أن يكون طريق الوصول إلى تلك المنفعة صحيحًا وسليمًا.

إنّ هذه نصيحة من الإمام علي عليه السلام هي في الواقع نهيٌ عن السلوك الحريص والطامع، ذلك السلوك الذي يجعل الإنسان يُضيّع المنافع الموجودة بتوهّم الوصول إلى المزيد من المنافع انطلاقًا من الحرص والطمع. ولا شك بأنّ هذا العمل، من ناحية نظر العقلاء والعقل، غير صحيح، ووفق الرؤية الإسلاميّة أيضًا هو سلوكٌ مذموم، لأنّه نابع من عدم الاتّكال على الله سبحانه.

حتميّة سنّة الامتحان في عالم الخلقة

يجب على الإنسان أن يسعى نحو الرزق. فالسنّة الإلهيّة اقتضت أن ينال الإنسان رزقه في هذا العالم بسعيه. فلم يرد الله سبحانه لهذا الإنسان أن يبقى في هذا العالم عاطلًا عن العمل حتّى ينزل رزقه إليه من السماء. بالطبع، هناك أوقاتٌ أنزل الله تعالى مائدة خاصّة من السماء بصورة استثنائيّة، إلا أنّ ذلك كان مطابقًا لمصالح منظورة على أساس الحكمة.

لكن لماذا كان قانون الخلقة والإرادة الإلهيّة قائمًا على أساس أن ينال الإنسان رزقه بواسطة سعيه في هذا العالم؟ وفي الإجابة ينبغي القول إنّ لهذا العمل بحدّ ذاته حِكَمٌ. فوجود المصالح الكثيرة يُوجب فتح هذا المسير أمام الإنسان. إنّ الإنسان يكدح حين يكون في معرض الامتحان وحين يتحرّك على طريق اكتساب الفضائل. إنّه أثناء السعي يقع الإنسان مورد الاختبار؛ ويقف على مفترق طريقين حيث ينبغي عليه أن يحدّد الطريق الصحيح من الطريق الخاطئ، العمل الصحيح من العمل الخاطئ، النهج الصائب من النهج غير الصائب؛ فيختار ما هو مورد رضا الله ويجتنب ما ليس مرضيًا عنده تعالى. فما لم يدخل الإنسان إلى عالم الكدح في الحياة، فإنّه لن يصادف تلك الأحداث والأمور التي ترسم له مصيره. يجب على الإنسان أن يبحث عن مجالات تكامله بالسعي والتحرّك.



بعبارةٍ أخرى، إنّ هذا العالم بكل مصاعبه ومساعيه قد خُلق لأجل أن يكون الإنسان على مفترق طريقين، وباختيار الطريق الصحيح، يحقّق كماله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾[1].

أمّا إذا لم يدخل إلى معترك الحياة فلن تتوفّر له مجالات الامتحان ولن يواجه مثل هذه القضايا، وفي النتيجة لن يتهيّأ له المجال للتكامل. فكلّما اعتزل الإنسان المجتمع وقلّ احتكاكه بالمجالات الصعبة والتكاليف الشاقّة فسوف يكون محرومًا من ثمارها الجميلة والمثاليّة.

على الإنسان أن يسعى نحو رزقه كي يختار بين ما هو جيّد وسيّئ وجميل وقبيح في هذه الحياة، وبتبع ذلك يحدّد سعادته أو شقاوة. بالطبع، لا ينحصر الرزق بالطعام والشراب، فكلّ ما يريده الإنسان في هذا العالم من العلوّ والمعرفة والمنصب والأولاد والزوج وغيرهم يُعدّ من جملة الأرزاق الإلهيّة التي عليه أن يسعى من أجل الوصول إليها. هذا وإن كان هناك من الأشخاص حصلوا على العلم اللدنيّ من جانب الحقّ سبحانه، إلّا أنّ سنّة الله قد اقتضت أن ينال الإنسان علمه عن طريق التعب والدراسة والسعي، وهكذا بالنسبة للمقامات والموقعيّة والأولاد ومتاع الدنيا والزوج وغيرها.

السعي والتوكّل طريق الاعتدال

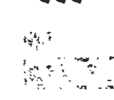
لا ينبغي أن ننسى أنّ الناس قد يُبتلون أثناء طيّ طريق الحياة في الإفراط والتفريط بشكلٍ كبير. فالبعض يسعون في هذا المسير إلى درجةٍ وكأنّ يد الله المنّان مغلولة، فتجد أمثال هؤلاء يبذلون كلّ همٍّ وغمٍّ من أجل لقمة العيش، ولهذا بمجرّد أن يحصلوا على اللقمة، يسعون للحصول على اللقمة الأخرى والازدياد منها. وفي المقابل، هناك أشخاصٌ يقولون انطلاقًا من الكسل والدعة وأحيانًا سوء الاستفادة من المعارف الإلهيّة أو سوء فهمها: «إنّ كلّ شيء مقدّر ولا يتحقّق إلّا ما قُدر وقُسم»، وتحت هذه الحجّة لا يسعون ولا يبذلون أيّ جهدٍ. من الواضح أنّ كلا النهجين والأسلوبين خطأ. فعلى الإنسان أن يعلم أنّ رزقه يأتيه من الله وينبغي أن

---

(١) سورة **هود**، الآية ٧.

يطلبه منه، وعلى هذا الأساس يتقبّل هذا السعي وما فيه من مشقّات وصعوبات كتكليفٍ مُلقى على عاتقه.





بالطبع، إنّ تشخيص الدرجة ومقدار هذا السعي وإلى أي مدى ينبغي أن يكل الأمور إلى الله المتعال أمرٌ صعبٌ، ولكن يوجد في هذا المجال الحدّ الوسط بين الإفرط والتفريط وهو الأمر المثاليّ والمطلوب، فلا يُبتلى بإفراط الحريص ولا بالكسل والدعة وحبّ الراحة.

وفي هذا الكلام الفريد، يقول إمام المتّقين عليّ عَلَيهِالسَّلَامُ: «**واْطلُبْ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ ما قُسِّمَ لَكَ**»، فاسعَ نحو الرزق ولكن اعلم أنّ ما قُدّر لك سوف يصلك. فالكثير من الناس ولأجل كسب المال الوفير، يبذلون جهدًا إضافيًّا، لكنّهم يخسرون ممتلكاتهم أو ما هو أكثر، أو ينالون ما هو أقلّ، وربما في النهاية يموتون جوعًا. فربّ ثريٍّ مات في آخر عمره جوعًا، وحدثت أمورٌ وظروفٌ منعته من أن يأكل لقمةً واحدةً ممّا جنته يداه. والوجه الآخر للعملة هم أولئك الذين كانوا خالين الوَفاض، ولم يكونوا يملكون عمل أي شيء، ولكن توفّرت لهم الظروف ونالوا زرقًا جمّا. إنّ هذه الوقائع والتجارب تعلّمنا أنّه لا يوجد شيء في اختيارنا، بحيث كلّما أردنا عمِلنا ووصلنا إلى الهدف؛ بل إنّ هناك من هو المدبّر والمقرّر الأساسيّ.

من هنا، لا ينبغي أن نعتمد على سعينا فقط، ونكتفي ونكون معتقدين أنّنا نصل إلى الهدف بمقدار ومستوى سعينا، وأنّنا بالمقدار الذي نقصّر فيه سوف نبتعد عن الهدف ونبقى محرومين، بل ينبغي أن نعمل بحسب تكليفنا ونسعى بحسب وظيفتنا ونكل النتائج إلى الله تعالى ليفعل ما يريده. إنّ هذا الأصل المسلّم في جميع الأرزاق الماديّة في الطعام واللباس والمسكن وغيرها يسري ويجري على جميع الأرزاق المعنويّة كالعلم والمعرفة والكمالات الروحيّة والقلبيّة. على الإنسان أن يسعى ويتحرّك ويبذل أقصى جهده، لكن مقسّم الأرزاق هو الله سبحانه لا غير. وقد يُفيض الله على البعض رزقًا كثيرًا من دون سعيٍ، أو يُنعم عليهم بحالة روحيّة مثاليّة لا تخطر على قلب بشر، يقول الرسول الخاتم صَلَّىٰاللهُعَلَيهِوَآلِه: « إنَّ لِرَبِّكُم فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحاتٌ، ألا فتعرّضوا لها»[1]، وهي هذه الفرص التي

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٨، الصفحة ٢٢١.



تحصل وينال فيها الإنسان الكثير من الفوائد المعنويّة المثاليّة التي لم يسعَ إليها، لا بل لم تخطر على باله. وكنموذج على هذا، قد يحصل لبعض الأفراد حالات روحيّة وجذبات لم يكونوا قد أتعبوا أنفسهم أو جاهدوا لأجل الوصول إليها. وعلى عكس ذلك، هناك من يجاهد ويتعب ويسعى ويقوم الليالي ويدعو عسى أن يجد حلًّا، لكنّه لا يصل إلى أي نتيجة.

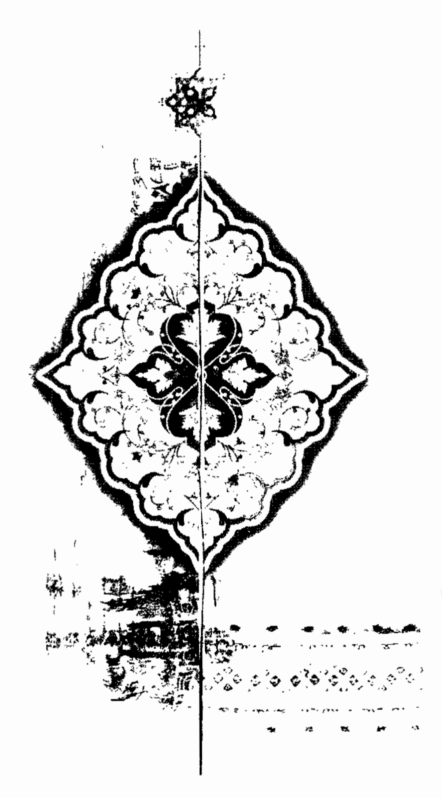
بالطبع، إنّ عدم الوصول إلى النتيجة المطلوبة في الأرزاق الماديّة أو الأرزاق المعنويّة لا ينبغي أن يؤدّي بنا إلى ترك تحمّل المسؤوليّة والقيام بالتكليف. فعلى سبيل المثال، لا ينبغي أن أترك العبادة وقيام الليل بسبب أنّني لم أصل إلى حالة معنويّة فأداء هذه الأعمال وبذل الهمّة يُعدّ وظيفة وتكليف لا بدّ منه، أمّا الوصول إلى الأحوال المعنويّة والجذبات الربّانيّة وإلى تلك الأرزاق المطلوبة تكون بيد القادر المتعال فقط.

المخاطرة المعقولة

في المقطع اللاحق من هذه الوصية، يبيّن أمير المؤمنين علي عليه السلام عبارتين هما بحسب الظاهر غير منسجمتين فمن جانبٍ يقول الإمام عليه السلام: «**لا تُخاطِرْ بِشَيء رَجاء أَكْثَرَ مِنْه**»، فهو ينهى ها هنا عن المخاطرة بشيءٍ متاح وباليد رجاء الحصول على ما هو أكثر منه، ولكنه من جانب آخر يقول «**اَلتّاجِرُ مُخاطِر**»، وذلك لأنّه من الممكن أن يخسر رأسماله في التجارة ويكون في الواقع، على أمل كسب ربح أكبر، قد خسر رأسماله الأوّليّ.

وفي مقام حلّ شبهة التعارض هذه، ينبغي أن نلتفت إلى ما ذكره شرّاح ومفسّرو كلمات الإمام عليه السلام. فالكلام الأوّل للإمام ناظرٌ إلى كلام أو موضع محدّد، والكلام الثاني ناظرٌ إلى وضعيّة أخرى. في الجملة الأولى يقول: لا تخاطر بشيء... فإنّ المقصود هو الحذر من خسارة ما هو باليد اعتمادًا على حسابات غير عقلائية وآمال واهية وأماني ساذجة، رغبةً بالمزيد من الربح. وفي هذا المقام، يحذّرنا الإمام من الاعتماد على الأمل والأمنية الباطلة والاعتباطيّة لئلّا يأخذنا حرصنا وطمعنا نحو الاعتماد على حسابات غير مدروسة فنضيّع ما بأيدينا رجاء الوصول إلى ربح أكبر.

أمّا في الجملة الثانية، فيقول «**التاجر مخاطر**»؛ هو بالدرجة الأولى يدفع توهّمًا، فحين نقول لا تخاطر بنفسك، لا ينبغي أن يكون هذا الأمر مانعًا من قبول المخاطرات المعقولة. على الإنسان أن يتقبّل المخاطرة المعقولة، مثلما يفعل التاجر في تجارته. وفي المرحلة الثانية، يبين أنّ طبيعة التجارة وسائر الأعمال الدنيويّة هي بمستوًى تحتّم على الإنسان تقبّل المخاطر والتنازل عن مقدارٍ من مصالحه. فالمزارع الذي يزرع ويدفن تلك الحبوب في التراب على أمل نيل المزيد من المحصول، هو في الواقع بحالة المخاطرة وهو يتخلّى عن مصلحةٍ موجودة وشيءٍ حاصلٍ في اليد، في الوقت الذي يحتمل أن لا تُنتج الحبوب ولا تتفتّح، مع ذلك عليه أن يسعى ويعمل وإلّا لم تتحقّق الزراعة. وهذه الحالة نفسها موجودة في التجارة أيضًا، فالذي يقدم على التجارة يحتمل أن يضيّع رأسماله، لكنّه مع ذلك لا يهرب من التجارة، فإذا لم يكن هناك تجارة ولم يحصل تبادل السلع والبضائع سيبقى الناس محرومين من المنافع الموجودة في هذا العمل. فالمخاطرة هنا مطلوبة لأنّ احتمال هذا الخطر هو جزءٌ من طبيعة هذا العمل الذي ينبغي القيام به وفق حسابات دقيقة؛ أمّا إذا حصل من دون هذه الحسابات وتمّ الاكتفاء بالآمال الساذجة الممتزجة بالحرص والطمع، فإنّ هذه المخاطرة تكون مذمومة، ذلك لأنّها لا تحقّق الربح الزائد فحسب، بل تؤدّي إلى فقدان ما هو موجود في اليد وخسرانه. بناءً عليه، فإنّ التحرّك العقلاني لمواجهة الخطر هو أمرٌ حسن، وإذا لم يكن عقلانيًا فإنّ المخاطرة هنا تكون مذمومة.



الدرس الثالث والثلاثون
العلاقات الاجتماعيّة

- دور العلاقات الاجتماعيّة في التكامل
- معيار تنظيم العلاقات الاجتماعيّة
- علامة البخل
- منهج الإحسان
- آفات العلاقات الاجتماعيّة السليمة







«وَأَحْسِنِ الْبَذْلَ، وقُلْ لِلنَّاسِ حُسْنًا. وأيّ كَلِمةِ حِكَمٍ جَامِعَة أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا. إِنَّكَ قَلَّ مَا تَسْلَمُ مِمَّنْ تَسَرَّعْتَ إِلَيْهِ، أَوْ تَنْدَمُ إِنْ تَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْكَرَمِ[١] الوَفَاءُ بِالذِّمَمِ، وَالصُّدُودُ آيَةُ الْمَقْتِ وَكَثْرَةُ الْعِلَلِ آيَةُ الْبُخْلِ، وَلَبَعْضُ إِمْسَاكِكَ عَلَى أَخِيكَ مَعَ لُطْف خَيْرٌ مِنْ بَذْل مَعَ جَنَف، وَمِنَ الْكَرَم صِلَةُ الرَّحِمِ وَمَنْ يَثِقُ بِكَ أَوْ يَرْجُو صِلَتَكَ إِذَا قَطَعْتَ قَرَابَتَكَ؟ اَلتَّجَرُّمُ وَجْهُ الْقَطِيعة[٢]، احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ إِيَّاكَ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو النِّعْمَةِ عَلَيْكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ».

إنّ الحياة الاجتماعيّة هي أمرٌ ضروريّ وحتميّ وقطعيّ بحكم العقل ولا يمكن للإنسان أن يفرّ منها. فتلك القوّة التي تدعو الإنسان إلى الحياة الجمعيّة، وتلك الأهداف والدوافع التي تسهّل عليه قبول هذه الحياة، تدعوه للتخطيط للعلاقات بين أعضاء المجتمع وتشكيلها، من أجل أن يُصبح الوصول إلى تلك الأهداف ممكنًا وميسّرًا؛ وإلّا فإنّ الحياة الاجتماعيّة، الخالية من القانون والعلاقات الاجتماعيّة المقنّنة، لا يمكن أن تكون مستحسنة أبدًا. فلا يوجد عقلٌ يستحسن مثل هذه الحياة الاجتماعيّة وهو يُوصي الناس باجتناب مثل هذا المجتمع من أجل صيانته

(١) في بعض النسخ جاءت «من التكرّم».

(٢) في نسخة أخرى جاءت هذه العبارة: «التحريم وجه القطيعة».

من تبعاته السلبيّة. لهذا، يجب القول إنّ الحياة الاجتماعيّة، التي تتمتّع بالعلاقات السليمة والمبنيّة على الأصول والقوانين المحكمة التي تؤمّن أهداف الإنسان، هي التي تكون مورد الاستحسان؛ كما أنّ العقل يوصي بها أيضًا. فإلى جانب الضرورة العقليّة، فإنّ السنّة العمليّة للزمان تحملنا على حياةٍ اجتماعيّة معيّنة؛ لهذا ينبغي أن نقوم بتحليل بعض الأصول المهمّة لهذا النوع من الحياة من عدّة جهات، ودراسة سبل تنظيمها وترسيخها.

دور العلاقات الاجتماعيّة في التكامل

إنّ محور هذا القسم من وصايا أمير المؤمنين للإمام الحسن المجتبى هو الأخلاق الاجتماعيّة وعلاقات الناس فيما بينهم. وبحسب اعتقادنا، فإنّ كل ما خلقه الله تعالى في هذا العالم هو لا شك ممّا يُعتبر نعمةً لجميع البشر. بالطبع، نحن لا نستطيع أن نُدرك الارتباط بين مظاهر العالم إدراكًا صحيحًا وكاملًا، ولكن مع التقدّم العلميّ، فإنّ معارف الناس تزداد يومًا بعد يوم، ويتمّ إدراك الارتباط بين الظواهر بصورةٍ أكبر وأفضل، وإدراك مدى ضرورتها وأهميّتها. فنحن مثلًا لا نعلم ما هي الرابطة بين المجرّة الفلانيّة والمنظومة الشمسيّة، لكنّ تقدّم العلم يُثبت وجود نظامٍ مترابطٍ بين جميع أجزاء هذا العالم.

وبالنظرة الأولى، يتصوّر الإنسان أنّ موجودات هذا العالم هي أشياء متفرّقة ومنفصلة عن بعضها، لكنّ تقدّم العلم وازدياد المعطيات والمعارف البشريّة يثبت هذا الارتباط بين هذه الأجزاء والمكوّنات والتأثير المتبادل فيما بينها بصورةٍ أفضل وأكبر. فقد ثبت اليوم أنّ للظواهر الجوّيّة، من قبيل ضياء الشمس وحركة الكواكب وطلوع النجوم وغروبها وسقوط الشهب وانبعاث الرياح وغيرها تأثير مهمٌّ على حياة الكائنات على وجه الأرض. إنّ الظواهر الأرضيّة والسماويّة ونموّ النباتات والحيوانات وحركة الأجرام السماويّة تتفاعل فيما بينها وتتأثّر، إلّا أنّ الإنسان لحدّ الآن لا يمتلك المعرفة التامّة حول الكثير من هذه الظواهر ولا يعلم ما هي فوائدها وآثارها.

ومع تقدّم العلم، اكتشف الإنسان أنّ الكائنات، التي كان يظنّ أنّها لا تفعل شيئًا سوى الضرر وكان يعمل للقضاء عليها، اكتشف أنّها مفيدة لحياته الاجتماعيّة والفرديّة وأنّه قد يستفيد منها في بعض الحالات من أجل حفظ صحّته وسلامته.

فقد اكتُشف اليوم وجود بعض أنواع الحيّات والعقارب التي لها فوائد جمّة في حفظ صحّة الإنسان وسلامته، وفي بعض الحالات تحتاج تهيئتها إلى تكاليفٍ باهظة؛ أي لقد تبيّن أنّ هذه الكائنات، التي كان الإنسان إلى وقتٍ قريب يعتبرها مضرّةً بشكلٍ كامل ويبتعد عنها، أنّها مفيدة ويمكن استعمالها لمعالجة بعض الأمراض المستعصية في البشر. وعلى أيّ حال، لقد تبيّن مع تقدّم العلم أنّ الحيونات التي كانت معروفةً على أنّها مضرّة لحياة الإنسان، أنّها مفيدة في الواقع واليوم يُعتقد بأنّها قد خُلقت لتكون مفيدةً لا مزعجةً أو منغّصة لحياتنا. ومن هنا، يُقال إنّ هناك نظامًا مترابطًا ومُتقنًا حاكمٌ على كلّ العالم، وأنّ كلّ موجود من موجودات عالم الوجود يقع تحت مظلة هذا النظام المحكم والذي يكمّل بعضه بعضًا. لهذا، ليس البشر فقط يقومون بدور تكميل بعضهم بعضًا، بل جميع موجودات عالم الوجود تكمّل بعضها بعضًا.

بالطبع، ضمن هذه المجموعة، إنّ الإنسان يختلف عن غيره من الكائنات بأمرٍ أساسي وهو أنّ تأثير البشر وتأثّرهم ونفعهم وضررهم تجاه بعضهم بعضًا، يتبع إلى حدٍّ كبير إرادتهم واختيارهم؛ أمّا نفع وضرر سائر الكائنات الأخرى تجاه بعضها بعضًا، هو أمرٌ تكوينيّ وطبيعيّ. فمثلما أنّ رشد الإنسان وتكامله، وخصوصًا في الأبعاد المعنويّة والروحيّة، يتبع ميله وإرادته؛ فإنّ كونه نافعًا لغيره من الناس يرتبط أيضًا وإلى حدٍّ كبير بإرادته واختياره. لهذا، يمكن أن يعيش الناس بطريقةٍ تجعلهم مفيدين لبعضهم البعض، ويكون وجودهم هذا نعمةٍ؛ كما يمكنهم أن يعيشوا بطريقةٍ يجلبوا فيها الإزعاج والنقمة والشقاء لبعضهم بعضًا. فهذا الإنسان، من خلال اختياره، يمكنه أن يغيّر في كلّ لحظة شكل وطبيعة هذا الارتباط والتفاعل، كما يمكنه أن يبدّل سائر النعم الإلهيّة إلى نقمةٍ وبلاء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[1].

يتمتّع الإنسان من بين سائر كائنات هذا العالم بخاصيةٍ فريدةٍ وهي أنّ نفعه أو ضرره المتوجّه إلى سائر الناس، بل حتى إلى سائر الكائنات يرتبط بميله واختياره، وذلك لأنّ الله سبحانه خلق الإنسان مختارًا وبالطبع فقد أمره أن يتصرّف

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ٢٨.

وفق أنموذج يكون مفيدًا ونافعًا للآخرين. فمثلما أنّ الإنسان مأمورٌ بعبادة الله لكي يحقّق للتكامل والرقيّ، عليه أن يتصرّف في الحياة الاجتماعيّة أيضًا بنحوٍ يؤدّي إلى إيصال المنافع والفوائد للآخرين. بعبارةٍ أفضل، إنّ الهدف الأساسيّ والنهائيّ للتعاليم الاجتماعيّة في الإسلام هو أن يكون الناس مفيدين لبعضهم بعضًا، ففي هذه الحالة يمكنهم أن يستفيدوا أكثر من النعم الماديّة والمعنويّة المُفاضة عليهم من جانب الله وأن يتقدّموا على طريق التكامل والتقرّب إلى الله.

إذا تواجد الإنسان في بيئةٍ سالمة، يمكنه أن يتفاعل بفكره مع التكامل وأن يتحرّك على هذا الطريق بصورة أسرع وأفضل؛ أمّا حين يتواجد في بيئةٍ ملوّثة بالمشحانات والتوتّر، يتنازع فيها أفراد العائلة الواحدة ويتشاجرون، ويكون فيها الجيران في حال نزاع وتخاصم، وتتناحر فيها هذه المدينة مع تلك، فإنّه لن يتوفّر للإنسان أرضية التكامل والنموّ أبدًا. ففي مثل هذه البيئة، ستُصرف جميع القوى والطاقات الإنسانيّة في حلّ النزاعات، ولن يبقى هناك فرصة للنهوض والسعي نحو الأهداف الحياتيّة والمثاليّة. وربّما يُبتلى الإنسان هنا بذلك السير الرجعيّ والتخلّف. لهذا، يجب أن تكون الحياة الاجتماعيّة ممترجة بالهدوء والعدالة والنظام والاحترام المتبادل لكي يتمكّن الناس في ظلّها من التحرّك نحو التكامل والرقيّ.

بالطبع، لقد خلق الله تعالى الإنسان بحيث يمكنه أن يقرّر ويختار حتى في أكثر الأوضاع الاجتماعيّة اضطرابًا وتشنّجًا، لكن مثل هذه الفرصة والإمكانات لا تتوفّر للجميع. إنّ الإنسان، في أيّ ظروفٍ وُجد، يمكنه التوجّه إلى الله وتأدية تلك الوظيفة والمسؤوليّة المُلقاة على عاتقه؛ لكن ليس الجميع يمتلكون هذه القدرة التي تخوّلهم السيطرة على أنفسهم في ظلّ مثل هذه الظروف؛ كأولئك الذين يعملون في الظروف العادية، أمّا الذين يتقدّمون على الطريق التكامل المعنويّ في الحرب والسلم وفي العسر واليسر من دون أن يتأثّروا ببيئتهم ومجتمعهم، فهم قلّة، لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد.

معيار تنظيم العلاقات الاجتماعيّة

لو أراد جميع الناس أن يؤمّنوا الظروف المساعدة للتقدّم، فعليهم أن يسعوا ويحقّقوا العلاقات السليمة. وإنّما يتمكّن أبناء المجتمع من الوصول إلى هذه

العلاقات السليمة حين تقوم أسس الحياة على المحبّة والصفاء والمودّة، فلو قامت الحياة على الحقد والعداوة والتظاهر والمكر والحيلة، فإنّ مثل هذا المجتمع لن يرى وجه السعادة أبدًا، ولن يتمكّن من التقدّم على طريق التكامل. فكلّما حققّ أفراد المجتمع المزيد من المحبّة والمودّة فيما بينهم، سيصبح هذا المجتمع أسلم، وستتوفّر فيه أرضية الرقيّ والتكامل. وكلّما ازدادت حالات العداء والحقد والأنانيّة في المجتمع، فإنّ أسواق التوتّر والخراب ستغلي فيه أكثر، ومثل هذا المجتمع سيبتعد عن الأمن والسلم، وسيكون أبعد عن الخير والصلاح أيضًا، وسيكون سلوك سبيل التقدّم فيه أصعب.

إذًا، الحياة الاجتماعيّة محلًّا للسعادة وساحة للتقدّم إذا أقيمت على أساس الإلفة والمودّة، لهذا، فإنّ محور جميع التعاليم الأخلاقيّة الاجتماعيّة في الإسلام هو إقامة العلاقات الودّيّة بين أبنائه.

لقد تبيّن لنا في طيّات الدروس السابقة قاعدةٌ عامّة في هذا المجال، واعتبرها الإمام عليه السلام أفضل كلمة حق: «**أي كَلِمَةِ حِكَم جَامِعَة**» فلا يمكن لحكمة أن تأتي على لسان أحد وتكون أشمل من هذا الكلام المُدهش الحكيم والجامع لاستحكام المجتمع وإصلاحه، حيث قال: «**أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا**». فعليك أن تنظر إلى الناس كما تنظر إلى نفسك وتضع نفسك مكان الآخرين. فلا يوجد في أيّ مستوى من العشرة سوى معيارٍ واحد لأجل تحقيق العلاقة المثاليّة والحسنة، وهو أن نأخذ هذه الرابطة بشكلٍ معكوس فنجعل من نعاشر في مكاننا ونجعل أنفسنا مكانه، وعندها سنفهم جميع آداب العشرة من دون أي نقصٍ أو خلل وسنتمكّن من معرفة كيفيّة تطبيقها وينفتح باب الروابط والعشرة السليمة أمامنا.

يجب علينا جميعًا أن ننظر إلى هذه القاعدة وهذا الحكم العام وأن نستعمله في كل أبواب العشرة ومجالاتها ونراعيها في حياتنا الأسريّة وفي العلاقات مع الأبناء والزوج والجيران وغيرهم.

فإذا أردتم أن تعرفوا كيف ينبغي أن تتصرّفوا في نطاق الأسرة، مع الزوج والأبناء والآباء والأمّهات فعليكم أن تأخذوا بعين الاعتبار أنّكم لو كنتم في مكانهم وكانوا هم مكانكم فكيف تحبّون أن يعاملوكم. وبمجرّد أن تضعوا أنفسكم مكانهم

سوف تكتشفون بسهولة كيف ينبغي أن تتعاملوا معهم. فإذا أردنا أن نحصل على المعيار المحكم والشامل والصحيح للعشرة المثاليّة وأن نعلم كيف ينبغي أن نتصرّف ونتعامل مع الآخرين، فعلينا أن نضع أنفسنا مكانهم، عندها سنحصل على النهج الصحيح للسلوك والمعيار الذي نستطيع من خلاله أن نعرف حسن التصرّف أو سوءه.

وكما مرّ، فإنّ هذا المعيار يُمكن استعماله، وهو موثّر في جميع مستويات العشرة والعلاقات، بما يشمل العلاقات الأبويّة والزوجيّة والأخويّة والجيرة وغيرها على سبيل المثال. في مجال العلاقة بين الأب والابن، إذا لم يعرف الأب كيف ينبغي له أن يتعامل مع ابنه يمكنه أن يفترض لو كان هو الابن وابنه الأب، ويسأله نفسه: ما هو نوع السلوك الذي أرغبه منه، وهكذا سيعرف كيف يجب أن يتعامل مع ابنه. كذلك الأمر لو كان لديكم جيران وأردتم أن تعرفوا الأسلوب الصحيح للتعامل معهم وعشرتهم، عليكم أن تتخيّلوا أنفسكم مكانهم وتفكّروا فيما تريدونه منهم، فتعرفوا كيف ينبغي أن تتعاملوا معهم. بناءً عليه، إذا أراد الإنسان أن يشخّص مسؤوليّته وتكليفه إزاء معاشرة الآخرين ويختبر كيفيّة سلوكه معهم، لا يوجد سوى معيار واحد وهو أن يجعل نفسه مكانهم ويتصرّف معهم كما يُحبّ أن يتصرّفوا معه، ومن خلال هذا الحُكم العام والشامل يعرف الإنسان كيف ينبغي أن يتعامل مع جميع الناس من كل مستوى أو شريحة اجتماعيّة. فاتّضح إذًا لماذا لا يمكن أن يُقال أفضل من هذا الكلام على سبيل تنظيم العلاقات الاجتماعيّة.

لقد عدّت بعض الروايات هذا النوع من السلوك والتعامل مع الآخرين من جملة حقوق المسلم وحقوق أهل الإيمان تجاه بعضهم بعضًا، وهنا أيضًا عُرضت معايير مختلفة في بيان شرح هذه القاعدة الأخلاقيّة. يقول الإمام الصادق في رواية: «حقّ المسلم على المسلم أن لا يشبع ويجوع أخوه ولا يروى ويعطش [...] أحبّ لأخيك المسلم ما تحبّ لنفسك»[1]. وفي موضع آخر، «حق المؤمن على المؤمن [...] أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك»[2]، والشكل الأجمع لهذا الحديث هو أنّ على كلّ إنسان أن يكون له مثل هذا الوضع مع الإنسان الآخر، لأنّ للعلاقات

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٧٠.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧١، الصفحة ٢٢٤.

الإنسانيّة مراتب ودرجات عديدة. فهناك علاقات المؤمنين ببعضهم بعضًا، والتي تُوجب درجةً خاصّة من المودّة والمحبّة، وهناك علاقات المسلمين فيما بينهم التي تقتضي درجةً أخرى. إنّ دائرة ارتباط المسلمين فيما بينهم هي أشمل وأوسع من ارتباط المؤمنين، إلى أن يصل الأمر إلى ارتباط الجميع بعضهم البعض. وعلى أيّ حال، فإنّ المِلاك هو ما ذُكر سابقًا أي أن نضع أنفسنا موضع الشخص الآخر.

بعد أن افترضنا أنفسنا مكان الطرف المقابل، يبقى أن نحدّد إلى أي مدى نشعر معه ونظهر المواساة والمودّة تجاهه؟ لا شك أنّ قدر المودّة والمحبّة والمواساة ليس واحدًا بين جميع أطراف العشرة. وبعبارةٍ أخرى، ما هو المبنى والمِلاك الذي على أساسه نحبّ للطرف الآخر ما نحبّه لأنفسنا؟

إنّ قدر هذه المواساة والمحبّة يرتبط بمستوى ارتباطنا بذلك الشخص، فمستوى المحبة والارتباط بين طرفي العشرة يرتبط بعمق العلاقة بينهما، فكلّما أصبحت هذه العلاقة أعمق يصبح مستوى المحبّة والمودّة أوسع وأعمق؛ فحين يكون أحد طرفي العشرة مسلمًا فإنّ حقّه على غير المسلم يتضاعف، وحين يكون أحد طرفي العشرة مؤمنًا فإنّ هذا المستوى يصبح أعلى وأقوى، مثلما أنّه إذا كان نوع العلاقة هو الجيرة فإنّ مسألة الحقّ والمودّة تُصبح أعلى درجة؛ وإذا كان هناك أم وأب في البيت فيرتقي الأمر كثيرًا ويصبح أكثر دقّة ويتعمّق شكل إظهار المحبّة ورعاية الحقوق ويصبح أكثر دقّة. والملاك ليس سوى هذه النقطة لكن مراتبه متعدّدة.

وفي تتمّة كلامه، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**إِنَّكَ قَلَّ مَا تسلَمُ مِمَّنْ تَسَرَّعْتَ إِلَيْه**»[1]، ففي هذا الموضع يُلفت الإمام نظرنا إلى أنّ هناك حالات في الحياة الاجتماعيّة وفي التعامل مع الآخرين لا تكون بالنسبة للإنسان مرضية وقد لا تعجبه. ولا شك بأنّ تحديد ما إذا كان للإنسان الحقّ في أن يرضى عن الطرف المقابل أو ليس له هذا الحقّ تحتاج إلى فرصةٍ أخرى لا مجال لها ها هنا. فما نودّ أخذه بعين الاعتبار هنا هو أنّ الذي يتصرّف بحدّةٍ وشدّةٍ واعتباطٍ، بمجرّد أن يشعر بعدم الرضا من تصرّف الطرف المقابل، فإنّه بلا شك يكون قد خرق تلك القاعدة العامّة ولم يراعها. لأنّ المقرر هو أن يُحبّ لغيره ما يُحبّ لنفسه، فلو كنتم مكان الطرف

(١) **بحار الأنوار**. مصدر سابق. الجزء ٧٤. الصفحة ٢٠٨.

المقابل هل تحبّون أن يتعامل معكم بهذه الطريقة المتسرّعة؟ أم إنّكم تتوقّعون منه أن يصبر ويتأنّى ويرى من له الحقّ، ومن ثمّ بعد ذلك يتصرّف بشكل مناسب مع القضيّة؟ فقد يكون من الواجب أن يتصرّف بليونةٍ أكثر ويختار الموقف الأهدأ، فإذا تصرّفتم خلاف هذه القاعدة وتعاملتم مع الآخرين بشدّةٍ وعنف واتّخذتم موقفًا غير مدروسٍ قبل التأمّل واعتماد الأسلوب الصحيح والسلوك السليم، فهل تظنون أنّ هذا العمل غير المدروس أو هذا العمل المتسرّع سيؤدّي إلى نتيجةٍ حسنة؟ من النادر أن يحصل أن يتصرّف الإنسان هكذا وتنتهي القضيّة بهدوء وتؤدّي إلى عاقبةٍ حسنة. فغالبًا ما تؤدّي مثل هذه التصرّفات إلى مشاكل تخلق الأرضيّة لتصرّفات غير مناسبة فيما بعد.

أمّا إذا لم يحصل مثل هذا التسرّع والعنف والشدّة بمجرّد رؤية ذلك التعامل غير اللائق والقبيح، وتمّ التعامل بنجابة وتسامح، وتمّ غضّ النظر عن الخطأ، ربما يؤدّي ذلك إلى ندم الطرف الآخر وامتناعه عن القيام بتلك التصرّفات القبيحة والسيّئة. في العادة، في مثل هذه الموارد، إنّ «المعاملة بالمثل» قلّما تؤثّر أو تحفّز الشخص المخطئ لينتهي عن فعله. ولربما أدّى التسرّع واتّخاذ القرار السريع والتعامل غير المناسب مع التصرّف غير اللائق، إلى دفع الشخص إلى العناد واللجاج. فلا شك بأنّ التعامل الاعتباطيّ مع العمل غير اللائق لا يجعل الشخص يندم على فعله، أمّا إذا كان ردّ فعلنا على العمل القبيح الصادر عن شخصٍ ما، لائقًا ومحترمًا، فإنّه سيندم على شعوره غير اللائق.

علامة البخل

يحصل الكثير من الحالات التي يتعهّد فيها الإنسان بشيءٍ ما أو يجعل ذلك ضمن اتّفاق، وبحسب المصطلح الفقهيّ يتعهّد في عقدٍ ما أن يؤدّي عملًا، أي يكون الأطراف ملتزمين تجاه بعضهم البعض. ولا شكّ أنّه في مثل هذا النوع من الموارد يجب على الإنسان أن يلتزم بعهده: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[1]. لكن في بعض الأحيان، يكون هذا التعهّد من جانبٍ واحد حيث يجعل الإنسان نفسه ملتزمًا ومتعهدًا القيام بعملٍ ما مثل الضمان الذي هو أحد أنواع هذه العهود حيث يُطلب من

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١.



شخصٍ ما أن يوقّع على ضمانٍ ما أو ورقة مصرفيّة ويقبل عهد الضمان، أي يُصبح بحسب التعبير ضامنًا فمثل هذا العمل هو تعهّد من جانبٍ واحد، ولا يوجد في هذا العقد طرفان وهو لا يحتاج إلى إيجاب وقبولٍ من جهتين. وبعبارةٍ أخرى، فإنّكم في مثل هذه الحالة تعبّرون عن نوع من الصفح والترفّع وتتنازلون إلى حدّ التعهّد من جانبٍ واحد، لتحملوا على عاتقكم تبعاته اللاحقة وتتعهّدوا الالتزام به. ففي مثل هذه الموارد، تقتضي كرامة النفس الإنسانيّة وشأنها الالتزام والعمل بهذا العهد وعدم الدوس على هذا الالتزام بل العمل به.

يوجد مثل هذه الموارد في العلاقات الاجتماعيّة والروابط الودّية، حيث يتنازل الإنسان عن بعض رغباته لصديقه، ويتوقّع أن يفعل الطرف المقابل مثل هذا. ولا شك أنّه إذا كانت العلاقة في الواقع هي علاقة مودّة ومحبّة فإنّه سيقبل هذا الطلب بكل سرور وطيب خاطر. أمّا إذا شاهدتم هذا الشخص يمتنع عن قبول هذا الطلب أو يتملّص بمختلف الأعذار، فإنّ مثل هذا الامتناع وهذا التذرّع بذاته لا يدلّ على وجود رابطة ودّية وأخويّة، وهو مؤشّرٌ واضحٌ على أنّ هذه الرابطة لا تقوم على المحبّة، وربما كانت هذه الحادثة فرصةً لإظهار ما تخفيه النفوس من حقدٍ وبخلٍ. وها هي قد أظهرت واقع هذه الرابطة بين الطرفين حيث «**اَلصُّدُودُ آيَةُ المَقْتِ، وَكَثْرَةُ الْعِلَلِ آيَةُ الْبُخْلِ**».

فحين يعرض أحد حاجته عندكم ويطلب منكم بلسان الحال والقال شيئًا، فلا تتركوه من دون إجابة لأنّ الإنسان إذا كان من أهل السخاء والكرم، لا ينزعج من الآخرين. وحتى إذا لم تكونوا من أهل السخاء والصفح، فإنّ العلاقات الإنسانيّة والودّيّة تقتضي أن تؤمّنوا حاجته ولا تحرموه من لطفكم ومحبّتكم. لذا، إذا قابل الشخص طلب رفيقه بتقديم التبريرات والأعذار فإنه يكون قد خرج عن العلاقات الودّيّة.

وعلى أيّ حال، فإنّ التذرّع يدلّ على البخل وهو يقول عمليًا: «لا أريد أن أجيب حاجتك وأؤمن طلبك». لعلّكم سمعتم هذا المثل حيث إنّ شخصًا بخيلًا بعيدًا عن ساحة العلاقات الودّيّة يجيب جاره الذي يطلب منه أن يعيره الحبل لكي ينشر عليه لباسه فيقول: لقد نشرنا حبوب الدخن على الحبل!! فمن الواضح جدًا أنّه لا يوجد من ينشر حبوب الدخن على الحبل، وإنّما هذا نوع من التذرّع والتهرّب لا أكثر. فحين لا يريد الإنسان أن يقوم بعمل ما فسوف يختلق الأعذار

من كلّ مكان، فإذا شاهدتم شخصًا يقوم دائمًا بتقديم الأعذار لعدم قدرته على تلبية الطلب أو القيام بعمل، فهذا دليلٌ على بخله وأنّه لا يريد القيام بهذا العمل، فلو لم يكن بخيلًا فلن يتهرّب ويختلق الأعذار ولن يحرص على تصعيب الأمور من دون مبرّر، بل إنّه سيرحّب بتقديم الخدمات للآخرين بمنتهى الكرم وسعة الصدر والترحاب ويساعد على تأمين حاجات المحتاجين.

منهج الإحسان

من الأمور الضروريّة والحتميّة للحياة الاجتماعيّة هي تلك الأنشطة الاقتصاديّة الخيّرة والوديّة، لا سيّما تلك التي تكون في قالب البذل والعطاء والصلة. ففي هذا القسم من الوصيّة، يذكر الإمام عليّ عليه السلام قاعدة كليّة وجامعة في هذا المورد وهي «تخليص كل نشاط اقتصاديّ ودّي من المنّة والظلم»؛ إنّ رعاية هذا الحكم الأخلاقي في هذا البعد الاجتماعيّ للحياة يكون كافيًا لترسيخ الروابط والحالات الإنسانيّة والأنشطة الاقتصاديّة وإقامتها على أساس المحبّة والرفق.

بالطبع، إذا تجاوزنا هذا البعد الاجتماعيّ للعلاقات، ونظرنا من زاوية أخرى إلى هذا الكلام النفيس، يبدو أنّ الإمام عليه السلام يبيّن لنا منهج أداء الأعمال الاقتصاديّة الخيّرة بمعزل عن العلاقات الاجتماعيّة، حيث يقول: «**لَبَعْضُ إِمْسَاكِكَ عَلَى أَخِيكَ مَعَ لُطْف خَيْرٌ مِنْ بَذْل مَعَ جَنَف**». فقد يكون الإمساك وعدم العطاء المتلازم مع اللطف والعطف، أفضل من العطاء والبذل مع الانقباض والجنف تجاه الأخ.

إنّ البذل والعطاء وإن كانا عملًا شديد الحسن وهو مفيدٌ جدًّا لترسيخ العلاقات الاجتماعيّة وترسيخها، إلّا أنّ عدم القيام به هو أفضل من القيام به مصاحبًا بالمنّ والأذى. هناك الكثير من الأشخاص الذين يريدون الخدمة ويحبّون البذل والعطاء، لكنّهم يعرضون ذلك في قالب المنّة والظلم والأذى. وهكذا، يسقط هذا العمل الخيريّ والجميل من قيمته وحسنه، في حين أنّ الله سبحانه يقول: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٤.



فإذا لم يبذل الإنسان ويعطي وأمسك عن العطاء بوجهٍ لطيفٍ، فهذا أفضل من أن يُعطي ويبذل مع المنّة. من الواضح جدًّا أنّه من أجل حفظ وترسيخ العلاقات الإنسانية، وخصوصًا علاقات أهل الإيمان، يجب على الناس أن يعينوا بعضهم بعضًا؛ لكن ذلك بشرط أن تكون هذه الإعانة والمساعدة غير ملوّثةٍ بالمنّ ولا تؤدّي إلى الخجل والإحراج. فإنّ عدم العطاء مع الاحترام واللسان اللطيف والإمساك المتلازم مع اللطف والعطف هو أفضل من البذل والعطاء المتلازم مع عدم الاحترام ومع المنّ.

لا شك أنّ ما هو مهمٌّ جدًّا في العلاقات الاجتماعيّة، وخصوصًا في الروابط الماليّة وتقديم المساعدات الاقتصاديّة، هو تقديم الأرحام والأقارب على الآخرين في العطاء. إنّ صلة الرحم والعلاقة مع الأقارب هي من التوصيات الإسلاميّة المؤكّدة، التي تحوز على أهميّة خاصّة في دائرة العلاقات الاجتماعيّة؛ وأحد طرق ترسيخ هذه الروابط الرحميّة هو من خلال العلاقات الماليّة وتقديم المساعدات الاقتصاديّة لهم. ولكن للأسف، لا يتمّ الالتفات والاهتمام اليوم بهذا الأمر كما هو لازمٌ ولأئق؛ وأكثرنا نحن المسلمون قد نسينا مثل هذه الوظيفة الشرعيّة والحكم الأخلاقي؛ في حين أنّ صلة الرحم وحفظ العلاقات مع الأقارب هي قاعدةٌ كليّة وضرورية في العلاقات الاجتماعيّة.

بالطبع، إنّ مستوى وكيفيّة الارتباط بكل واحدٍ من أنواع الأقارب والأرحام يختلف. وهذه المسألة هي من جملة المطالب التي ينبغي أن تكون مورد البحث، ومن الجدير أن يتمّ الاهتمام بها من الناحية العلميّة والعمليّة أكثر ممّا هي عليه الآن. كما وينبغي ترغيب الناس وحثّهم على صلة الرحم ورعايتها، وتحذيرهم من التبعات السلبيّة لعدم رعاية هذا الحكم الأخلاقيّ ولفتهم إلى الآثار الإيجابيّة للتمسّك به، وقد عُدّ حفظ الارتباط بالأرحام في بعض الموارد من الواجبات.

من الواضح إذًا، أنّ الأقارب ليسوا على درجة واحدة من حيث الارتباط. فمن كان أقرب كان له حقٌّ أكبر. ومن هو أكثر احتياجًا يُقدّم على غيره ويستحقّ المزيد من التواصل والارتباط. ومن هنا، نجد التوصية للمقتدرين من الناس أن لا يقطعوا ارتباطهم بأقاربهم الفقراء، مثلما أنّ على الفقير أن لا يقطع صلته بغيره فيقول: «إنّ قريبي الغنيّ ليس بحاجة إليّ، فإذا تردّدت إليه قد يسيئ الظنّ بي ويتصوّر بأنني

أزوره وأتردّد إليه من أجل ماله وثروته». لا يجوز للإنسان أن يقطع رحمه تحت أي ظرف من الظروف.





على أيّ حال، عليه أن يتمسّك ويلتزم بهذه الصلّة بقدر الضرورة، حتى وإن كان ذلك بمقدار السؤال عن الحال. بالطبع، من دون أن يكون في ذلك ضياعٌ للشأنيّة وعزّة النفس. إنّ صلة الرحم لا تتلازم أبدًا مع التخلّي عن العزّة والاحترام؛ فيمكن أن يتعامل الإنسان بمنتهى الاحترام، ويُقدّم هديّة بقدر سعته، لكن لا ينبغي أن يترك صلة الرحم. لا شك أنّه ليس المقصود من صلة الرحم فقط مساعدة الفقراء، فإنّ إعانة الآخرين هو موضوعٌ آخر وله ضوابطه الخاصّة. لهذا، لا ينبغي للفقير أن يقطع ارتباطه بأقاربه الأثرياء، بل عليه أن يحفظ هذه العلاقة والصلة بشكلها المطلوب ويسعى لترسيخها، لأنّ هذه الرابطة تبيّن بشكلٍ طبيعيّ الروابط الموجودة بين الناس وتنظّمها وتحلّ المشاكل الناشئة من العلاقات الاجتماعيّة غير السليمة، وربما لا تسمح لفرصة ظهورها وبرزوها: «**مِنَ الْكَرَمِ صِلَةُ الرَّحِم**».

وفي تتمّة كلامه، يشير الإمام عليّ عليه السلام إلى عاقبة قطع صلة الرحم، ويقول: «**وَمَنْ يَثِقُ بِكَ أَوْ يَرْجُو صِلَتَكَ إِذَا قَطَعْتَ قَرَابَتَكَ؟**» ولأنّ الناس سيقولون في أنفسهم إنّ هذا الشخص يتصرّف مع أرحامه وأقاربه بهذا الشكل ويبعدهم عن نفسه ويقطع الاتّصال بهم ولا يعينهم، فكيف بنا نحن الذين لسنا من أرحامه وأقاربه؟! فحين يشاهدون شخصًا يتصرّف مع ابن عمّه وابن خاله وأقاربه بهذا النحو، فما الذي يمكن أن يتوقّعوه منه؟! إنّ حسن ارتباط المؤمنين ببعضهم بعضًا، يقتضي أن يتصرّفوا بنحوٍ يجعل من له حاجة، يطلب حاجته براحة وطيب خاطر أمامهم ويطلب منهم المعونة.

بالطبع، إنّ الإنسان يجب أن يتمتّع بالاستغناء وعزّة النفس، أمّا مسألة حفظ حرمة نفسه فهو موضوعٌ آخر، يختلف اختلافًا كاملًا عن التعاون بين المؤمنين. إنّ الاستغناء وعزّة النفس يقتضيان ألّا يفصح الإنسان عن حاجته للآخرين وأن يكتفي بما عنده، لكن هذا لا يعني أبدًا أن لا يقوم من لديهم إمكانات ماليّة بدعم المحتاجين بقدر سعتهم، وبتهيئة أرضيّة حلّ مشكلات أصحاب الحاجة. لهذا، لا يوجد أي تعارض بين الأمرين في هاتين الوصيّتين الإلهيّتين؛ بل إنّ هذه التوصية وهذا الحكم الأخلاقيّ في الحياة الاجتماعيّة مكمّلٌ للحكم الأخلاقيّ والتوصية الأخرى ويفتح الباب أمام حلّ المشاكل الاجتماعيّة.



بالإضافة إلى ذلك، هناك سلوكٌ حسنٌ آخر يشكّل الرابط بين هاتين الوصيّتين. ففي هذه الوصيّة، يتوجّه إلى المتمكّنين لإنشاء الأرضية المناسبة لمراجعات المحتاجين وإخراجهم من المضيقة الاقتصاديّة ورفع الموانع أمام العلاقات وعرض الحاجات، وذلك بأن يقوموا بالطلب في بعض الأحيان من المحتاجين أن يعينوهم بمقدار استطاعتهم لكي يشعروا بنوعٍ من المودّة والانبساط ولا يخجلوا من الإفصاح عن حاجاتهم الأساسيّة أمامهم. فإلى جانب هذا البيان، لا ينبغي نسيان بأنّ الله تعالى يُحبّ المتوكّلين عليه أن يؤمّنوا احتياجاتهم عبر الأسباب التي حدّدها سبحانه، ومن هذه الأسباب الاستعانة بالآخرين، مع رعاية شروط حفظ النفس والاتّكال على الله سبحانه.

في الواقع، إنّ الروابط الاجتماعيّة هي طريقٌ جعلها الله تعالى لأجل بناء الروابط السليمة وتأمين الحاجات الإنسانيّة المشروعة، ولهذا أُكدّ عليها كثيرًا. ولهذه العلاقات أشكالٌ وكيفيّات ومراتب خاصّة يجب مراعاتها مراعاةً تامّة لحفظ سلامة المجتمع وجعل الحياة السليمة ممكنة. من النماذج البارزة للروابط غير السليمة في أيّ مجتمع هو عدم رغبة أفراده بالرجوع إلى بعضهم بعضًا لتأمين حاجاتهم؛ ويصبح الرجوع إلى الغرباء بالنسبة لهم، أسهل من الرجوع إلى المقرّبين. ولا شّك أنّ هذا الشكل والكيفيّة من الارتباط ليس صحيحًا ومحمودًا. إنّ سلوك الناس في المجتمع الإسلاميّ السليم، ينبغي أن يكون بحيث يعملوا على تأمين احتياجات بعضهم بعضًا، وأن يؤازروا ويساعدوا ويواسوا بعضهم بعضًا، في الأوقات الحسّاسة والخطرة، التي شاؤوا أم بوا، سيواجهونها في هذه الحياة. بعبارةٍ أخرى، إنّ إعانة الجيران لبعضهم بعضًا، ليس أنّه غير مخالف للأخلاق والشرع المقدّس فحسب، بل إنّ الروابط الإسلاميّة السليمة تقتضي مثل هذه الحالة والروحيّة؛ فالعلاقات السليمة والوديّة بين الناس لا تحتاج إلى غير ذلك.

بناءً عليه، فإنّ العلاقات الاجتماعيّة يجب أن تكون بنحوٍ يؤازر الناس بعضهم بعضًا بدافع الرغبة، ويندفعون لمساعدة بعضهم بعضًا بدافع المودّة والإلفة. فإذا لم تبتنِ السلوكيّات على أساس المحبّة والمودّة، ولم تقم العلاقات الاجتماعيّة على قاعدة الصفاء والصراحة، فلن يرغب الإنسان عندها أن يرجع إلى أقاربه ويطلب معونتهم، وهم بدورهم سيكونون فاقدين لمثل هذه الروحيّة. على أيّ حال، لا ينبغي الامتناع عن الاستمداد بالآخرين مع حفظ عزّة النفس والاستغناء

الذي يدعونا إليها الإسلام. ومن جانبٍ آخر، فإنّنا مع حفظ هذا الاستغناء والاقتدار يجب أن نسارع إلى مساعدة الآخرين وأن نتصرّف بنحوٍ يجعل الآخرين يرغبون باقتفاء أثرنا ومؤازرتنا أكثر من أي شيء آخر. بالطبع، لا شك أنّ هذا الأمر المهمّ يرتبط بمستوى المودّة والمحبة الحاكمة على العلاقات.

ينبغي أن نكون قد التفتنا إلى أنّ للأرحام والأقارب الحصّة الأكبر من هذه المؤازرة والمواساة وهم مقدَّمون على غيرهم. لهذا، سنكون محل مؤاخذة وعتاب أكبر فيما لو أهملنا أقاربنا. كذلك، من الواضح جدًا أنّه إذا لم نسارع إلى مساعدة أقاربنا، فإنّ الآخرون لن يأملوا أبدًا بخيرنا ومؤازرتنا لهم، ولهذا فإنّهم لن يعتمدوا علينا ولو قيد ذرّة حتى يأتوا إلينا ويعرضوا حاجتهم، ذلك لأنّ الذي انقطع عن أقاربه وأرحامه لن يكون للآخرين أي رغبة أو أملٍ بالرجوع إليه.

آفات العلاقات الاجتماعيّة السليمة

وفي هذا المقطع هناك اختلاف لفظيّ طفيف في العبارات المنقولة من نصّ وصية مولى الموحّدين علي عليه السلام. ففي كتاب **بحار الأنوار** وردت عبارة **اَلتَّجَـرُّمُ وَجْـهَ القَطِيعَـة**، في حين أنّه في بعض النسخ الأخرى وردت عبارة «**اَلتَّحرِيـمُ وَجْـهُ القَطِيعَـة**». لهذا، نجد نوعًا من الإبهام في تفسير هذه الكلمات. فـ «التحرّيم» يعني المانع والحؤول، أمّا لفظ «التجرّم» فيشير إلى سلوك غير مناسب يتمّ تكراره. وبالالتفات إلى هذا الاختلاف في العبارات، يصبح معنى كلام الإمام عليه السلام أنّ «التحريم» أو «التجرّم» يؤديان إلى قطع الارتباط بالآخرين. فإذا سأل أحدٌ ما هو السبب وراء قطع العلاقات بين الناس، وما هي آفة حفظ العلاقات السليمة فيما بينهم؟ فسوف يأتي هذا الكلام لمولى المؤمنين ليجيبهم: «**التحريـم [التّجـرّم] وجه القطيعـة**». أي إذا طلب أحدٌ منك شيئًا ولم تعطه إيّاه وردّيت طلبه [أو إذا قمت بارتكاب فعل غير لائقٍ وغير مناسب عدّة مرات] فإنّ علاقتك بالآخرين سوف تُقطع وهذه العلاقات سوف تخمد وتُصاب بالفتور بعد مدّة.

من الضروري أن نلتفت إلى أنّ معنى هذه الجملة ليس واضحًا بصورة قطعيّة، لهذا فإنّنا قمنا بتفسيرها على نحو الاحتمال. ولعلّ النسخة الأصليّة والحقيقيّة لهذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام هو نصٌّ آخر غير ما ورد في هاتين



النسختين. وعلى أيّ حال، يمكن القول بشأن هذين التعبيرين اللذين هما بين أيدينا، وبالاستناد إلى القرينة اللفظية، وبمقابلة فقرات الوصيّة، حيث ورد في الفقرة السابقة لفظ «التكرّم»، فيُحتمل أن يكون اللفظ الصحيح هنا «التّجرّم». وعلى أيّ حال، وبالالتفات إلى اختلاف النسخ، فإنّ معنى العبارة يكون إنّ من آفات العلاقات السليمة تحريم العطاء أو تكرار السلوك الخاطئ وغير اللائق.

ولعلّ الآفة الأخرى للعلاقات السليمة هي التصرّفات العدائيّة والسلوكيات الهدّامة التي حذّرنا الإمام عليه السلام منها. ففي تتمّة حديثه، يعدّد عدّة نماذج من تلك السلوكيّات، فيقول: «**احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ إِيَّاكَ عَلَى الصِّلَةِ**»، فإذا كنتم بصدد ترسيخ العلاقة وتحكيمها وحفظ الصحبة مع الآخرين فلا ينبغي أن تتصرّفوا بطريقة بعيدة عن اللباقة والشهامة وفاقدة لروح الصحبة، ولا ينبغي أن تقابلوهم بسلوكيّات خالية من مودّة الرفيق. فإذا تصرّف هذا الرفيق بصورة غير لائقة ونسي معنى الصحبة فلا ينبغي لك أن تتراجع عن فعل الخير تجاهه. وإذا قطع هذه الصلة والرابطة، فعليك أن تسعى لصلته والارتباط به: «احْمِلْ نَفْسَكَ عَلَى الصِّلَةِ»، فعليك أن تعلّق حلقة المحبّة والعشق على حبل الصحبة والصداقة. فإذا لم يأتِ هذا الصديق إليك مدّة من الزمن، ولم يسأل عنك، فعليك حتمًا أن تسأل عن أحواله. وإيّاك أن تقول طالما أنّه لم يأتِ فإنّني لن آتي. وإذا رأيته قد أحجم عن إيصال الخير إليك، فكن أنت في المقابل عطوفًا ولطيفًا تجاهه، ولا تطالبه بشيء، و«**عند صدوده على اللطف والمقاربة**». فإذا يبست يده أو جفّت وانقبضت عن العطاء والبذل، فكن أنت في المقابل سخيًّا معطاءً، «**وعند جموده على البذل**». وإذا ابتعد عنك واعتزلك فتقرّب إليه واحمل نفسك على هذا التقرّب، «**وعند تباعده على الدنوّ**». وإذا احتدّ وغضب فكن ليّنًا لطيفًا معه، «**وعند شدّته على اللين**». وإذا تكرّر منه التصرّف غير المناسب وأصبح يرتكب الأعمال غير اللائقة دائمًا ويكررها، فاسعَ لأن تجد له عذرًا على ذلك وبرّر أعماله القبيحة المتكرّرة، وقل في نفسك مثلًا: «إنّه كان مجبورًا على ذلك أو لم يكن ملتفتًا أو مدركًا»، وجد له أعذارًا مبرّرة وأسبابًا مقبولة.

وفي تتمّة هذه الوصايا، يوصينا الإمام عليه السلام بعملٍ ليس من السهل القيام به فيقول عليه السلام: **حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو النِّعْمَةِ عَلَيْكَ**. فكن كأنّك عبده وهو سيّدك ووليّ نعمتك. ومثل هذا الكلام الصادر عن الإمام عليه السلام يرسم عمق

العلاقات الإنسانيّة السليمة في الإسلام. إنّ حفظ العلاقات الاجتماعيّة وخصوصًا العلاقات الودّية هو أمرٌ ضروريّ ولازم في المجتمع الإسلاميّ بحيث يجب على المسلمين أن يكونوا متعاطفين فيما بينهم إلى الدرجة التي يعدّ أحدهم فيها نفسه عبدًا لصاحبه؛ أي إنّ ارتباط الصديقين يجب أن يرتكز على هذه القاعدة، التي يعتبر الطرف فيها نفسه عبدًا لصديقه ولا يتوقّع منه أي خدمةٍ، بل لأنّه السيّد ووليّ النعمة يجب خدمته. لهذا، إذا تكرّر منه سلوكٌ غير لائق فلا يمكنك أن تسمح لنفسك بأن تسخط أو تنزعج.

إنّ وجود مثل هذا التصوّر في الذهن يؤدّي إلى أن تكون مستعدًّا للتعامل معه منذ الوهلة الأولى على أنّه صديق. وحين يشاهد الطرف المقابل مثل هذا السلوك الرائع منكم، فإنّه يصلح سلوكه. أمّا إذا قابلتم تقصيره في حفظ الروابط الاجتماعيّة، بسلوكٍ مشابه وتصرّفٍ غير لائق فلن يبقى في المجتمع أي رابطة سوى الخصومة والضغينة؛ ذلك لأنّ الناس دائمًا يُبتلون بالغفلة والخطأ. ولو أردنا أن نردّ بالمثل على كلّ هذه السلوكيّات الخاطئة، فلن يبقى هناك أي علاقة مودّة، لا بل إنّ هذه العلاقات الاجتماعيّة ستتسافل وتتهاوى. ولأجل حفظ الصحبة وصيانة حرمة المسلم وعلاقة المودّة يجب على كلّ واحدٍ من أعضاء المجتمع أن يقول لنفسه إنّ وظيفتي ومسؤوليّتي هي خدمة الصديق وخدمة الآخرين. لهذا، مهما كان سلوك هذا الآخر، فأنا لديّ وظيفة واحدة فقط وهي أن أكون له عبدًا وأن أراه بمنزلة المولى والسيد.

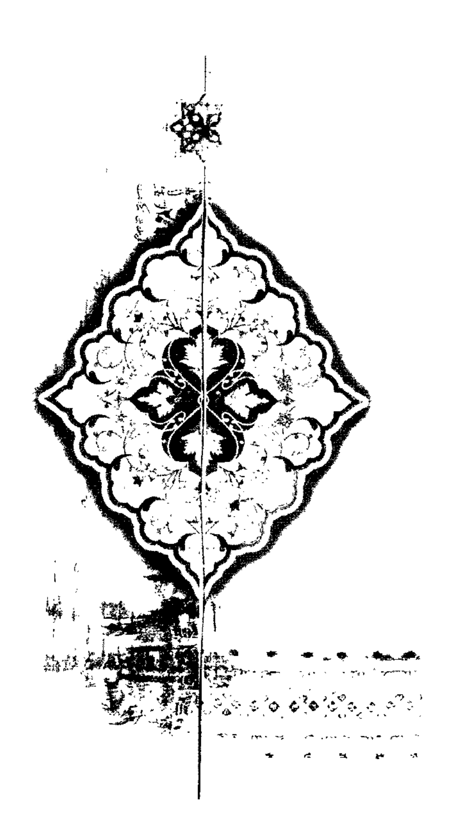
وفي تتمّة هذا الدّر النفيس ولأجل الحؤول دون حصول المفاسد والتبعات السلبيّة لهذا الكلام (لأنّه قد يحمل البعض على الاستنتاج السيئ ويبرّر للبعض الاستغلال)، يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إنّ لهذا الكلام موارد استثنائيّة. فإنّ البعض يكون خبثهم ودناءتهم وفسادهم بحيث لا يبقى فيهم نورٌ للفطرة، وكأنّ فطرتهم قد تبدّلت بالكامل، لهذا إذا تعاملتم معه من موقع العبوديّة له واعتباره مولى وسيّد فسوف يستغلّ هذا الأمر ولن تكون هناك سوى نتائج عكسيّة على المجتمع الإسلاميّ. بالطبع، إنّ هذه الحالات الاستثنائيّة لا ينبغي أن تؤدّي بنا إلى أن نقول عند كلّ مورد إنّ هذا المورد هو استثنائيّ، وهذا الشخص لا يليق بتلك الأعمال، بل إنّ المسار الطبيعيّ للعلاقات الإنسانيّة هو هذه القاعدة التي تعتبر أنّ الجميع لائقون. بالطبع، ينبغي أن نقول بمنتهى الأسف بما أنّ حُسن الخُلُق مع الآخرين



أمرٌ صعبٌ جدًا وشاق، فإنّنا نتسرّع إلى الاستنتاج ونقول إنّ هذا الشخص هو من أولئك الذين استثناهم الإمام ومن غير اللائقين لهذه المحبة حتّى أعتبر نفسي عبدًا له وأعتبره سيدًا لي، وأقول إنّ هذا الشخص ليس إنسانًا في الأصل! رغم أنّ موارد هذا الاستثناء نادرة جدًّا، ولعلّك لن تجد من بين آلاف الأشخاص سوى شخصًا واحدًا مشمولًا بهذه الاستثناء.

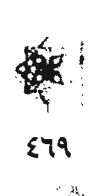
إنّ أساس العلاقات الاجتماعيّة مبنيٌّ على لياقة الجميع. وفي العادة، يجب أن نعتبر الناس لائقين ومستحقّين لمحبّتنا. وعلى أيّ حال، إذا واجهتم بعض الحالات الاستثنائيّة وقابلتم أُناسًا أشرارًا وبؤساء يقابلون الخدمة بالقبح والسلوك السيّئ، والتواضع بالتكبّر، ففي مثل هذه الحالة لا ينبغي أن تتعاملوا معهم وفق ذلك السلوك الودّيّ. بالطبع، وكما مرّ يجب أن نتعرّف على الطرف المقابل بدقّة وعناية، فإذا لم يكن مستحقًّا لمحبّتنا وشخّصنا بأنّه شخصٌ لئيم وشرّير حينها سنتصرّف معه بنحوٍ آخر. لهذا، أوصانا الإمام عَلَيْهِ‌السَّلَامُ بالتطبيق الدقيق لهذا الحكم: «**إِيَّـاكَ أَنْ تَضَـعَ ذَلِكَ فِي غَيْـرِ مَوْضِعِـهِ أَوْ تَفْعَلَـهُ فِي غَيْـرِ أَهْلِـه**». ويمكن القول إنّ الإمام عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في نهاية إرشاداته الاجتماعيّة وتوصياته الأخلاقيّة قد استثنى هذا المورد والذي هو استثناءٌ نادرٌ جدًّا، فالأصل هو أنّ أكثر الناس يستحقّون السلوك الودّيّ والحسن.





الدرس الرابع والثلاثون
آداب الصحبة ١

- طرق ترسيخ الصداقة
  - أ . المودّة
  - ب. إرادة الخير والمواساة
  - ج . استمراريّة الصحبة والصداقة
  - د . تجنب الانتقام
- طرق الصيانة من آفات الحياة الاجتماعيّة
  - أ . اجتناب الغضب
  - ب. اجتناب قطع الصداقة





«وَلاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَلاَ تَعْمَلْ بِالْخَدِيعَةِ فَإِنَّهُ خُلُقُ لَئِيمٍ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَسَاعِدْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَزُلْ مَعَهُ حَيْثُ زَالَ، وَلاَ تَطْلُبَنَّ مُجَازَاةَ أَخِيكَ وَإِنْ حَثَا التُّرَابَ بِفِيكَ وَخُذْ(١) عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْرَى لِلظَّفَرِ، وَتَسْلَمْ مِنَ الدُّنْيَا [النَّاس] بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلاَ أَلَذَّ مِنْهَا مَغَبَّةً وَلاَ تَصْرِمْ أَخَاكَ عَلَى ارْتِيَابٍ وَلاَ تَقْطَعْهُ دُونَ اسْتِعْتَابٍ ولِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشَكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ».

كما مرّ فإنّ القسم الأخير من وصيّة الإمام عليّ عليه السلام يختصّ بأبحاث وقضايا الحياة الاجتماعيّة وآداب العشرة، ويتناول العلاقات الإنسانيّة في الحياة الاجتماعيّة. لقد خلق الله تعالى جميع الكائنات لأجل الإنسان، وكان على الإنسان أن يستفيد من جميع مواهب الوجود ومنها وجود غيره، كلّ ذلك من أجل الوصول إلى الأهداف الإلهيّة والاستفادة من ذخائر النعم الإلهيّة على طريق الوصول إلى المقاصد العُليا. ولكن، وأسفاه، إنّ بعض الناس يبدّلون نعمة الله إلى نقمة، فبدل أن يستفيدوا منها، يتعاملون معها بطريقةٍ سيّئة وعبثيّة؛ ومثل هؤلاء إنّما يظلمون أنفسهم قبل أي شيء ويعرّضون سعادتهم للخطر ويُضرّون غيرهم الذين يعاشرونهم. وفي الواقع، إنّ مثل هؤلاء مضرّون لأنفسهم ولغيرهم، وقد لا يحصلون إلا على الضرر والخسران؛ في حين أنّ عليهم أن يسعوا للاستفادة من نعمة وجود بعضهم بعضًا، ووجود الكائنات ومواهب الوجود لأجل بلوغ الأهداف الإنسانيّة

---

(١) في بعض النسخ جاءت العبارة على هذا النحو: «خذ على عدوّك بالفصل، فإنّه أحلى الظفرين».

والإلهيّة العُليا، وخصوصًا أهداف الإسلام الكبرى، وأن يمهّدوا لتكامل ورقيّ كافّة أبناء المجتمع الإسلاميّ.

طرق ترسيخ الصداقة

لا شك بأنّ من لوازم الحياة الاجتماعيّة المثاليّة هي أن يكون للناس علاقات ودّية فيما بينهم، وأن يسعى الجميع من أجل حفظ العلاقات وترسيخها، وأن يشخّصوا العوامل التي تهدّد هذه المودّة والصداقة ويزيلونها من ساحة العلاقات الاجتماعيّة، والسلوكيّات والاتّصالات الجماعيّة، وأن يطبّقوا جميع القواعد اللازمة والمؤثّرة في إيجاد العلاقات الودّيّة ويراعوها من دون أي حرج.

بالطبع، لو أردنا أن نتحدّث بصورةٍ شاملة حول آداب العشرة والأخوّة ونهج الحياة الاجتماعيّة، يجب علينا أن نخصّص لها فصولًا عديدة نطرح فيها العديد من المسائل المرتبطة بهذه القضيّة. وبالحدّ الأدنى، علينا أن نتناول هذه القضايا: كمعيار اختيار الصديق، ومعيار تحديد من هو لائقٌ للصداقة ومن هو غير لائقٍ، وشروط اختيار الصديق، وكيفيّة الصداقة، وحتّى شكل بداية الصداقة وعوامل استمرارها، وكيفيّة التعامل مع الصديق في الظروف المختلفة وغيرها من القضايا.

ولكن بما أنّ التعرّض لجميع هذه القضايا المذكورة يفوق قدرة بحثنا الحاليّ ويتطلّب بحثًا مستقلًّا وفرصة أخرى، ومن جانبٍ آخر لأنّ المقرّر أن يكون بحثنا مستندًا لكلمات أمير المؤمنين [illegible] في هذه الوصيّة، لهذا فإنّنا نحصر الكلام في إطار المسائل المطروحة في هذه الوصية الإلهيّة.

كذلك، ينبغي الالتفات إلى أنّه حين نتحدّث ها هنا عن الصداقة والعداوة، أو الصديق والعدوّ، فذلك بغضّ النظر عن تلك الشروط التي يجب الالتفات إليها حين اتّخاذ الصديق. من الطبيعيّ أنّ اتّخاذ بعض الناس كأصدقاء يتفاوت من حيث معايير الاختيار؛ فمثلًا إذا كان الإيمان ملاكًا للاختيار، سيتفاوت اختيار الأشخاص للصديق، بحسب اختلاف مراتب الايمان. فالذي يتمتّع بمستوى أعلى من الإيمان ولديه درجة أعلى من المعرفة، فإنّ وجهته في هذه الحياة ستكون إلى رضوان الله، ولن يطلب سوى رضا الله سبحانه؛ فمن الطبيعيّ عند اختياره للصديق، أن يأخذ هذا المعيار بعين الاعتبار، وسيختار الصديق الذي عشرته تقرّبه



دائمًا من الله تعالى أكثر فأكثر. وأولئك الذين يكون إيمانهم أضعف فإنّهم في مقام الصحبة سيعرضون الصداقة على من لا يضرّ باعتقادهم ودينهم؛ فمثل هؤلاء وإن كان اهتمامهم بالتكامل المعنويّ قليلًا، لكنّهم لا يرضون بأن يُصابوا بالضرر. وفي النهاية، هناك من يعيش الضعف الحادّ في الإيمان فيكون متساهلًا أكثر في رعاية شروط الأخوّة والصحبة.

إنّ الإمام علي عليه السلام في هذا المقام ليس بصدد بيان شروط اتّخاذ الصديق، بل كلامه عليه السلام يفترض مسبقًا أنّ الصحبة ينبغي أن تكون على أساس الموازين الإسلاميّة والصحيحة. ولهذا، فإنّه يبيّن في هذا المجال تلك الأصول التي تُعدّ رعايتها أمرًا ضروريًا لحفظ الصحبة الحسنة والمثاليّة واستمرارها.

أ. المودّة

من الأمور التي يجب رعايتها في مقام حفظ الصحبة المودّة في الصداقة. ومن لوازم هذه المودّة أنّه حين يصبح الشخص صديقكم، لا تتّخذوا أعداءه أصدقاء لكم. فلا شك بأنّ كلّ إنسان لديه في حياته أصدقاء وأعداء. أمّا الإنسان المؤمن الذي ليس له مِلاك في صداقته سوى رضا الله فإنّه لا يمكن أن يتعاطف مع أعداء الله وأعداء دينه، ولا يمكن أن يُصادق أصدقاء أعداء الله وأصدقاء أعداء أهل الإيمان، بل هو على خلاف وتصدام معهم. أمّا أولئك الذين ليسوا على هذا الحدّ المثاليّ من الإيمان، يمكن أن نفترضَ لهم أعداء من نوعٍ آخر، وذلك لأنّه ليست كل صداقاتهم وعداواتهم قائمةٍ على أساس الإيمان بالله. وقد يكون لبعض المؤمنين والمصلّين عداوات وصداقات فيما بينهم، فيختلفون حول متاع الدنيا. لهذا، من المهم في هذا المجال هو كيفيّة إزالة هذه الكدورات وآداب حفظ الصديق والصداقات.

فلو كان لكم صديق، وكان لهذا الصديق عدوّ، فإذا أردتم أن تحافظوا على هذه الصداقة والرفقة، فلا ينبغي لكم أن تصادقوا عدوّ هذا الصديق فيما لو أردتم لهذه الصداقة الثبات والاستمرار. فلا يمكن أن تكونوا أصدقاء مع عدوّ صديقكم، في الوقت الذي تريدون فيه حفظ هذه الصحبة، لأنّه إذا شاهدكم تقيمون مثل هذه العلاقة والصداقة مع عدوّه فلن يبقى في قلبه تلك المودّة القلبيّة تجاهكم.

بناءً عليه، إذا كنتم ترغبون بحفظ صحبتكم فلا ينبغي أن تصادقوا عدوّ صديقكم: «**لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِي صَدِيقَكَ**». فلو أنّ الإنسان صادق ورافق عدوّ أحد فهذا يعني أنّه يعادي هذا الشخص. وبعبارةٍ أخرى، إنّ كلام الإمام يشير إلى هذه النكتة وهي أنّ الجمع بين الصديق وعدوّ الصديق يجعل الصحبة الخالصة والواقعيّة غير ممكنة. فلو أردتم أن تكونوا أصدقاء لهذا الشخص يجب أن تدعوا عدوّه ولا تصاحبوه أو تصادقوه. بالطبع، علينا أن نلتفت إلى أنّ هذا الكلام لا يستلزم أن نعادي عدوّ صديقنا، بل المقصود هو أن لا نقيم علاقة صداقة ومودّة مع هذا الشخص، لأنّ هذا الأمر يؤدّي إلى المخاطرة بتلك الصداقة الأولى.

من الممكن أن يكون لبعض الناس في علاقاتهم الاجتماعيّة سلوكيّات مزدوجة، فيدّعون صداقة شخصٍ ما من دون أن يكون في قلوبهم أي محبّة تجاهه ولا يتعاملون معه على أساس الصحبة، مثل هذا الإنسان في الواقع يحتال ويتصرّف على أساس الخدعة. وبالالتفات إلى كلام الإمام ينبغي للمؤمن أن يجتنب مثل هذا النوع من السلوك غير اللائق وغير المطلوب، لأنّ المؤمن هو من أهل الصفاء وصداقته في الواقع هي صداقة حقيقيّة وعداوته هي عداوة حقيقية. فليست المسألة أنّه يعرض الصداقة على شخصٍ ويظهرها له، ولكن في الواقع وفي عمق قلبه يعاديه. إذا أظهر الإنسان المؤمن صداقةً لشخصٍ ما، فإنّه يكون في قلبه وفي عمق وجوده محبًا له ويريد أن يصادقه. وما أجمل ما قاله الإمام عليه السلام في هذا المقام: **وَلاَ تَعْمَلْ بِالْخَدِيعَةِ**. لهذا، يجب أن تكون من أهل الصفاء والصراحة وأن يكون ظاهرك وفق باطنك، فإذا أظهرت الصداقة لأحد، فكن مريدًا لخيره واعلم أنّ الخداع والمكر لا يليق بك بل **فَإِنَّهُ خُلُقٌ لَئِيمٌ**[1].

ب. إرادة الخير والمواساة

الشرط الآخر لاستحكام الصداقة واستمرارها هو إرادة الخير والمواساة والتعاطف. فإذا عقدت عهد الصداقة مع أحدٍ من الجدير أن تكون مريدًا لخيره بصورةٍ كاملة. ففي الواقع، إنّ هذا الكلام تأكيدٌ على ذلك الصفاء. فبعد رعاية موازين وملاكات اختيار الرفيق الصالح، فإذا اخترت الصديق اللائق وأدركت يقينًا انطباق مصادقته

---

(١) في بعض النسخ وردت بهذا التعبير أيضًا «خلق اللئيم».



وصحبته مع موازين الأخلاق الإسلامية للصداقة والصحبة، فعليك بالإضافة إلى اغتنام مثل هذه الصحبة أن تتعامل معه بمنتهى المودّة وأن تعمل بما تقتضيه إرادة الخير والتعاطف معه. فينبغي لك أن تكون مثلًا عونًا وسندًا له في المشاكل، وأن تغضّ النظر عن زلّاته، وأن تمنعه من ارتكاب الأخطاء. ومن هنا، فإنّك حين تتّخذ شخصًا صديقًا لا ينبغي لك أن تقصّر بحقّ هذه الصداقة، بل أن تكون مريدًا لخيره وداعمًا له مئة بالمئة.

وإذا شاهدت زلّةً تصدر منه، فذكّره واسعَ لإزالة هذه الزلّة بصورةٍ صحيحةٍ، فإذا قام بعملٍ حسنٍ اثنِ عليه من أعماق قلبك، وكن له عونًا وسندًا مهما استطعت لكي يسعى نحو تحصيل الكمالات، وسانده للتقدّم على طريقِ أعمال الخير. فإذا كان هناك طالبان للعلم قد أصبحا صديقين، يجب على كلٍّ منهما أن يكون مريدًا لخير وصلاح صاحبه، فيساعده على التقدّم العلميّ ولا يكون مهتمًا بتقدّم نفسه مستخدمًا تلك السلوكيّات الملتوية. وقد يكون أحد الأطراف، رغم وجود المودّة، منشغلًا أكثر بتقدّم ذاته ولا يوجد لديه سوى دافعٌ واحد وهو أن يسبق الآخرين، حتى ولو كانوا أصدقاءه، لهذا يقضي معظم وقته في أعماله الخاصّة وبحسب المثل المعروف: «يضرب حجره بصدره».

فكل هذه التصرّفات، فضلًا عن أنّها غير لائقةٍ وفي غير محلها، فإنّها لا تتطابق مع الصفاء والمودّة اللذان تقتضيهما الصداقة، بل قد تُعدّ نوعًا من الخيانة للصداقة. فما تقتضيه الرفقة التي يهتمّ بها الإسلام هو أن يكون الإنسان بكلّ وجوده مريدًا لخير صديقه، بعد أن ينشئ معه علاقة صداقةً، فلا يقصّر بأي شيء يمكن أن يقوم به تجاهه، حتى لو كان هذا الصديق غير راضٍ عن هذا السلوك، كأن ينزعج ويتأذّى إذا نصحته، لكن عليك أن تتصرّف وفق ما تقتضيه الصداقة الحقيقيّة وأن لا تحتجب عن نصيحته وطلب الخير له. على أيّ حال، عليك أن تسعى مهما أمكن لمنعه من ارتكاب العمل القبيح، كما أنّك إذا شاهدته يقوم بعملٍ صالح فعليك أن تعينه عليه بكلّ وجودك لكي يتقدّم على هذا الطريق الصحيح: **«وامحض أخاك النصيحة حسنةً كانت أو قبيحة»**. فاطلب له الخير على الدوام، لا أن تطلب له الخير مرةً، وتقصّر بحقّه مرّة، وتكون منشغلًا فقط بتقدّمك الشخصيّ. وإيّاك أن تقدّم مصلحتك الشخصيّة على مصلحة صديقك: **«وساعده على كلّ حال»**، فإذا كنت صديقًا لأحد فتعاطف معه واطلب له الخير بكلّ إخلاص وكن له عونًا وسندًا في جميع الأحوال.

ج. استمراريّة الصحبة والصداقة



لا شك بأنّ أحوال الإنسان في الحياة مختلفةٌ. فقد يكون فقيرًا حينًا، ويصبح غنيًّا حينًا آخر، وتارة يكون سليمًا وأخرى يكون سقيمًا. وفي كلّ الظروف والحالات هناك مشاكل وابتلاءات تعترض الحياة وفيها يحتاج إلى العون والمساعدة من أجل حلّها وإصلاحها. لهذا، فإنّكم إذا صادقتكم أحدًا عليكم أن تُعينوه وتُساندوه في كل حال، فلا تكون صديقًا له وقت اليسر، وتتخلّى عنه وقت العسر؛ أو أن تصاحبه حين يكون له منزلةٌ اجتماعيّةٌ مرموقة، وتنساه إذا عرضت عليه حادثةٌ وخسر بسببها تلك الموقعيّة الاجتماعيّة. فاحفظ صداقتك له في كلّ حال، وفي كلّ مكانٍ، وساند رفيقك في كل الأحوال «**وزلّ معه حيث زال**»، فحيث كان، كن معه كظّله.

فكما مرّ، إنّ الفرض في كلام الإمام أنّ هذه الصداقة قائمةٌ على أساس صحيح ومطلوب وهي تقع ضمن توصية الإسلام وإمضائه. لهذا، من غير المتوقّع هنا أن تكون هذه الوصايا النفيسة لأمير المؤمنين بشأن تلك الصداقات الاعتباطيّة والمخالفة للشرع. فلو صادقتم شخصًا فاسدًا وفاسقًا لا يمكنكم حينها أن تصاحبوه وفق هذه الوصية، فتذهبون أينما يذهب هذا الفاسق، وتكونون كظّله أينما كان، أو تعينوه على ما يُبتلى به من مشاكل تقع على طريق هذه الحياة الملوثة والشيطانية بل ما يقصده الإمام هو أنّكم إذا اتّخذتم صديقًا صالحًا فلا تتركوه، وإذا صدر منه خطأٌ في مكانٍ ما فاسعوا إلى إصلاحه، وإذا احتاج إلى مساعدة ماليّة فلا تنزعجوا من تقديم العون له، حتى في هذا الطريق يجب أن تضحّوا بمنافعكم الماديّة وأحيانًا المعنويّة في سبيل حفظ رابطة الصداقة. عليكم أن تضحّوا وتبذلوا من أنفسكم ولا تتركوا هذا الصديق وحيدًا. وهذا الكلام إنّما يدلّ على مدى اهتمام الإسلام بحفظ الصداقة والمودّة، وعلى هذا الأساس نحن نقول إنّ وجود الناس بالنسبة لبعضهم البعض نعمة وعليهم أن يستفيدوا من نعمة العلاقات الوديّة والصداقات من أجل تحقيق مصالح الإسلام والناس. ولا شك في أنّ هذه العلاقات كلّما ازدادت المودّة فيها ستكون أكثر نفعًا للطرفين وستكون أكثر حُسنا. بناءً عليه، يجب أن نسعى من أجل حفظ هذه العلاقات واجتناب كلّ ما يمكن أن يضعفها ويسبقها بالكدورة.

د. تجنّب الانتقام

هناك ضرورتان تظلّلان حياة الإنسان الاجتماعيّة: الأولى هي ضرورة معاشرة

الآخرين؛ والثانية هي أنّ الإنسان غير مصون من الخطأ. والآن مع الالتفات إلى هذا الكلام، لو أنّ أحد الأصدقاء زلّ وأخطأ فإنّ تأثير هذا لن ينحصر في إطار حياته الشخصيّة بل سيؤثّر على معاشرته وعلاقاته.

حين يعاملكم الصديق معاملةً سيّئة ويدوس على آداب وموازين الأخوّة والصداقة فإنّه يكون قد سلك الطريق المخالف للصداقة، وكنموذجٍ على هذا هو تقصيره في الوقت الذي يجب أن يعينكم فيه، ولربما تسبّب بضررکم، فما العمل تجاه مثل هذا الشخص؟ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام هو: « **لا تطلبنّ مجازاة أخيك**» فلو أنّ خطأً ما صدر من صديقك أو قصّر تجاهك أو ارتكب فعلًا قبيحًا وسيّئًا بحقّك، فلا تبادر إلى الانتقام منه على الفور ولا تعامله بالمثل؛ فلا تفعلنّ مثل هذا الأمر أبدًا وإن حثا التراب بوجهك وبفمك وعلى رأسك، مرّةً أخرى لا ينبغي لك أن تبادر للانتقام منه، بل أرشده كي يدرك خطأه ويسعى إلى جبرانه ويعتذر. ولا تكوننّ بصدد ارتكاب خطأ آخر مقابل خطئه، «**ولا تطلبنّ مجازاة أخيك**» فلا تقابل الشر بالشر، «**وإن حثا التراب بفيك**». فإذا وضع التراب في فمك أو استغضبك بأي وسيلةً كانت وجعلك تسيئ الظنّ به، فعليك أن تضبط نفسك ها هنا ولا تسمح لشعور الانتقام والغضب أن يسيطر عليك، واسعَ أن تطلعه على خطئه لكي يصلح نفسه، وساعده على جبران ذلك الخطأ.

وبهذا البيان، تتّضح كيفيّة السلوك مع الصديق المخطئ وغير اللائق، ويتّضح أنّه لا ينبغي تخطّي موازين الصداقة، فنكون بصدد مقابلة أخطاء الصديق ومواجهتها بالمثل. بالطبع، وإن كان هذا الكلام ناظرٌ إلى أنّنا نعيش في مجتمعٍ إسلاميّ تُقام فيه العلاقات والصداقات على أساس ما يريده الإسلام، ولا يكون فيه تلك الأخطاء المتعمّدة بين الأصدقاء، ولكن مع ذلك فإنّ احتمال وجود الزلّات واردٌ. لذا، في حال بروز الأخطاء لا ينبغي مقابلتها بالمثل.

حتى إنّكم إذا صادقتم كافرًا، فعليكم أن تراعوا موازين الصداقة وعليكم أن تؤدّوا حدود هذه الصداقة بشأنه[1].

---

(١) من الضروري أن نوضح أنّ إقامة علاقة الصداقة مع الكافر ليست ممنوعةً وخصوصًا إذا كان يعيش في كنف الحكومة الإسلامية. فيمكن للمسلم أن يقيم علاقات معه وأن يستعين به ويعينه ولعلّه يهديه على أثر هذه العلاقة ويرشده إلى الإسلام بالتدريج. كذلك إذا ورد في بعض الكتب الفقهيّة أنّ عليكم =



وبكلام جازم، يجب أن يكون الإنسان في عالم الصداقة من أهل الفتوّة والنخوة. فلو أنّ صديقك عاداك، سواء كان مسلمًا أو كافرًا يعيش في الوسط الإسلاميّ، فلا ينبغي لكم أن تدوسوا على هذه الصداقة وتنتقموا منه، لأنّ هذه الأخطاء هي حول قضايا الدنيا، فلا ينبغي لكم أن تكونوا بصدد تهديم الصداقة والدوس عليها من أجل الدنيا. فلنسعَ لأن نحيط هذا الصديق بمحبّتنا، وإن كان غير مسلم، فنعينه ونحسن إليه ونهب له جودنا وعطائنا. ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]. وباليقين، إنّ هذا النوع من السلوك والتعامل يؤدّي إلى تبديل العداوة إلى صداقة والخصام إلى وئام: يبيّن القرآن الشريف بصريح العبارة أنّ علينا أن نواجه عداء الآخرين بسلوكٍ ودّيّ وحسن لكي نقف بوجه عدواتهم، فتحلّ بهذه الصورة تلك العلاقات الودّيّة مكان العلاقات العدائيّة.

لو كان لأحدٍ عداء تجاهكم فقابلوه بالسلوك الحسن والجميل: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، لأنّكم إذا فعلتم ذلك، فإنّ ذلك الخصام الذي بينكم وتلك العدواة سيتبدّلان إلى صداقةٍ وحميميّة بواسطة هذا السّلوك الجميل والحسن: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، فإنّ سلوكم الحسن سيؤدّي إلى تبديل العداء إلى صداقة، ولن تكون هذه الصداقة صداقة عادية بل صداقة صادقة وحميميّة ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. وبهذا التصرّف العقلاني، يمكن للإنسان أن يبدّل أعدائه إلى أصدقاء. لهذا، لا ينبغي لكم بمجرد أن تروا عداوةً أو تصرّفًا سيّئًا من أحد، أن تعادوه وتعرضوا عنه أو أن تعاملوه بالمثل، بل ربما يمكنكم أن تزيلوا العداء من قلبه بواسطة تصرّفكم العاقل وأن تشجّعوه على السلوك الودّيّ.

بالطبع، لا يعني هذا الكلام أنّ على الانسان أن يعطّل جميع نشاطاته وينشغل بالبحث والفحص عن أيّ شخص يعاديه ليصرف كلّ جهده ووقته في خدمته من أجل إقلاعه عن العداء. فالتعامل الودّيّ مع الذي يعادينا، وإن كان يُعدّ من القيم

= أن لا تصادقوا أعداء أهل البيت عليهم السلام ولا تعاملوهم بمثل هذا وذاك فالمقصود هنا أولئك الذين يُعادون الإسلام وأهل الحقّ عن علمٍ وعناد.

(١) سورة **فُصّلت**، الآية ٣٤.

النبيلة، لكنّه يخضع لشروطٍ خاصّة؛ وقيمة ذلك هي أنّ على الإنسان عند تقابله مع عدوّه أن يسعى لتبديل عداوته إلى صداقة ومودّة، أمّا شروط تطبيق هذا الأصل القيميّ وسُبل العمل به هي من الأمور التي يجب مراعاتها بأخذ الموارد الخاصّة والظروف المختلفة بعين الاعتبار.






فعلى سبيل المثال، يكون هناك طريقٌ لإيصال الخير إليه، وطريقٌ آخر للإحسان أو البذل والعطاء والمحبة وذلك من أجل التأثير فيه وتغيير نظرته إليكم. ومن الجدير ذكره أنّ هذه القضية قد حازت على أهميةٍ خاصّة في مدرسة القرآن وورد بشأنها العديد من الآيات كقوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾[1]، أو قوله عزّ وجل: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[2].

فقد تمّ التأكيد في هذه الوصيّة الإلهيّة، كما في **القرآن الكريم**، على التعامل الحسن مع الأعداء الشخصيّين لكي تتبدّل عداوتهم إلى صداقة: «**وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْرَى لِلظَّفَر**»، فلو أحسنت إلى عدوّك سيكون ذلك لك أفضل للوصول إلى المقصد، ذلك لأنّ الهدف والمقصد هو أن يُسدّ على العدوّ ويُمنع من إيصال الأضرار إلى مصالح المسلمين، وأن يبقى الناس آمنين من خصومته وعداوته. وقد تتحقّق هذه الأهداف أحيانًا من خلال الإحسان وربما تتمكّن بهذه الوسيلة أن نستفيد منه على طريق تحقيق الأهداف النبيلة، فلا ندفع بالإحسان خطر الشخص فحسب، بل نحقّق مصالح المسلمين أيضًا. فمن طرق دفع الضرر والعداوة هو أن نقابل عداوة الأشخاص بالصداقة؛ أي أن نقابل آذاهم بالإحسان والفضل؛ لأنّنا بمقابلة هذا النوع من الأشخاص بالإحسان، نصل إلى الهدف بنحوٍ أفضل وأسرع.

ولا يعني هذا الكلام الشريف وهذه القاعدة الأخلاقيّة أن نتعامل بالإحسان والعفو مع كلّ الذين لديهم تصرّفات عدائيّة. فلا يمكن تطبيق هذا الكلام في التعاطي مع جميع الناس، وليس له عموميّة، ولا ينبغي أن نعامل بعض الناس طبق

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٩٦.

(٢) سورة **فصّلت**، الآية ٢٤.

هذه القاعدة. وكما مرّ، فإنّ الكثير من القواعد الأخلاقيّة والأحكام الشرعيّة والفقهيّة ليست ذات صبغة كلّيّة، بل إنّ بعض الموارد تخرج وتُستثنى من شموليّتها وعموميّتها. ومن موارد الاستثناء وقوع تعارض بين مِلاك حكمين أخلاقيّين، ففي مثل هذا النوع من الحالات يتمّ تقديم الحكم الذي يتمتّع بالأهميّة الكبرى، وفي التعاليم الأخلاقيّة أيضًا قد يحوز سلوكٌ خاصّ على الأهمية أو يكون هناك ضرورة لنوعٍ خاصّ من السلوك تجاه فردٍ محدّد. ففي هذه القاعدة التي نتحدّث عنها، قد يواجه الإنسان عدوًّا معاندًا وشقيًا إلى درجة أنّه مهما أحسن إليه، فإنّه لا يؤثّر فيه، بل قد يشجّعه ذلك على عدائه وعناده. لا شك بأنّ مثل هؤلاء الأشخاص نادرون، ولكن يجب الالتفات جيّدًا إلى أنّه يوجد بين الناس مثل هؤلاء الأشخاص ولا ينبغي اعتبارهم من مصاديق هذا الإرشاد الأخلاقيّ فنتصرّف معهم وفق هذا الحكم الأخلاقي.

بناءً عليه، لا يعني كلام مولى الموحّدين عليّ أن نُحسن إلى كلّ عدوّ ونطلب له الخير حتى ولو كان عدوًّا معاندًا للإسلام. في الواقع، إنّ إيصال الخير لأمثال هؤلاء يكون بمحاربتهم واقتلاعهم من هذه الأرض حتى يقلّ عذابهم في الآخرة. فمحاربة أعداء الدين وقتلهم يُعدّ نوعًا من الرحمة بحقّهم، ذلك لأنّه كلّما قلّت ذنوبهم كان ابتلاؤهم بالعذاب الأخرويّ أقلّ في النهاية. على أيّ حال، إنّ هذه القاعدة الأخلاقيّة تجري بشأن أولئك الذين لديهم سلوكيّات ودّيّة ويبتعدون عن العداوات اللدودة والمعاندة.

وخلاصة الكلام، إنّ على الإنسان أن يتصرّف بودّ وإحسان تجاه العداوات والخصومات التي تحدث بشكل طبيعيّ في الحياة الاجتماعيّة، من أجل أن يبدّل العداوة إلى صداقة، ويسوق المجتمع نحو السلامة والأمن والرقي. إنّ السلوكيّات الهدّامة لا تنسجم مع روح الحياة الإنسانيّة والإسلاميّة بل توفّر أجواء من الاضطراب والفوضى والنزاعات العائليّة وتسلب الاستقرار والرفاه والأمن. ومن الواضح، أنّه لن يكون هناك أي ثمرة للعيش في مثل هذه البيئة سوى الاضطرابات والإجهاد والتشويش الذي يهدر طاقات المجتمع.

طرق الصيانة من آفات الحياة الاجتماعيّة



أ. اجتناب الغضب

يبيّن الإمام عليه‌السلام في تتمّة هذه الدرر النفيسة طرق وأساليب صيانة النفس من البلاءات والآفات الاجتماعيّة «**وتسلم من الدنيا بحسن الخلق وتجرّع الغيظ**»، فإذا أردت أن تبقى سالمًا من آفات الحياة الاجتماعيّة وتصون نفسك من الأضرار والشرور التي يمكن أن تصلك من الآخرين فأصلح أخلاقك وكن صاحب خُلقٍ حسن وتجرّع الغيظ والغضب.

وباليقين، إنّ حُسن الخلق مع الآخرين لم يتمّ التأكيد عليه والتوصية به كقاعدةٍ أخلاقيّة في التعامل مع الأشخاص الذين يتميّزون بحُسن الخُلُق، بل إنّ أهمّيته وقيمته، وربما مكانة هذه التوصية، ترتبط ببيان أسلوب التعامل مع سيّئي الخُلُق وأولئك الذين لديهم شكاسة في خُلُقهم وسلوكهم. وهذا الكلام يشبه ما قاله الإمام سابقًا: «حتى لو حثا التراب بفيك فلا تنتقم منه». فهذا النوع من التصرّفات من الطبيعيّ أن يُثير الغضب والغيظ. وقد تغضب أحيانًا لأنّ صديقك قد استخفّ بك في كلامه، وكما يُقال إنّه يجعل حياتك صعبة، أو لم يحترمك كما تتوقّع، وجعل أوقاتك مرّة، فماذا لو حثا التراب في فمك!! من الطبيعيّ أنّ ضبط النفس والسيطرة عليها سيكون عملًا صعبًا جدًّا في مقابل هذا النوع من التصرّفات، فماذا لو هدأ الإنسان في مثل هذه الحالة وأحسن وتودّد لصديقه بدل الانتقام والغضب منه.

إنّ إخماد ثورة الغضب ليس بالأمر السهل، لكنّه بنّاءٌ جدًا. فإذا أراد الإنسان أن يصون نفسه من آفات الحياة الاجتماعيّة والمخاطر والأضرار التي قد تناله من الآخرين، يجب عليه أن يخمد ثورة غضبه بواسطة التمرين والكثير من التدريب ويهدأ ولا يقابل التصرّفات السيّئة للآخرين بالمثل: «**وَتَسْلِمْ مِنَ الدُّنيَا بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَتَجَرُّع الْغَيْظ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلاَ أَلَذَّ مِنهَا مَغَبَّة**».

إنّ لأنواع المشروبات آثارٌ مختلفة في ذائقة الإنسان، فالبعض يكون مثل شرب الماء البارد العذب، والبعض الآخر مثل شراب العصير، والبعض مثل الدواء المرّ، والبعض يلذع اللسان، لكنّ تجرّع الغيظ عند الذين تخرّجوا من مدرسة

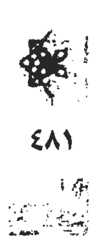
الإمامعَلَيهِالسَّلَامُ يُعدّ ألذّ وأحلى شراب، فحيث يقول مُقتدى الأتقياء: «أنا حين أتجرّع غيظي أشعر بلذّةٍ لا أشعر بها في أيّ شراب». ومن الجدير لأولئك الذين يحبّون أن يكونوا من شيعة عليّعَلَيهِالسَّلَامُ أن يجرّبوا نصيحة مُقتداهم وأن يتمرّنوا عليها بالتدريج لكي يصلوا إلى امتلاك هذه الخصلة وترسيخها في أنفسهم. فلو أنّنا سعينا لإخماد غيظنا في قبال السلوك غير اللائق والغضب الذي يظهر من الآخرين تجاهنا، فإنّنا سننال من البهجة والسرور ما لا يمكن أن يحصل فيما لو عاملناهم بالمثل.



من جانبٍ آخر، لو دققنا قليلًا لوجدنا أنّ الردّ على السلوك غير اللائق بغير الهدوء وضبط النفس سوف يتبعه آفات كثيرة وقد يتلازم ذلك مع بلاءات ومصائب. وفي المقابل، إنّ ضبط النفس والسيطرة على السلوك وإخماد الغيظ، وإن كان بحسب الظاهر أمرًا صعبًا جدًا، لكنّه يستتبع لذّة لا توصف وتبعات تختلف تمامًا عن تبعات الردّ بإظهار الغضب، بحيث لا يمكن المقارنة بينهما أبدًا. فلو تمكّن الإنسان من السيطرة على نفسه وإخماد غضبه وتجرّع غيظه لكان لذلك حلاوة كبيرة، في حين أنّه لو أظهر غضبه، وإن كان مقابل غضبٍ آخر، لا يكون له مثل تلك اللذّة. وكأنّ الإمامعَلَيهِالسَّلَامُ في هذه الجملة يريد أن يبيّن لنا هذه القضيّة وهي أن لا نظن أنّ هذا الكلام هو مجرّد نصيحة أو موعظة أخلاقيّة جافّة، بل يقول إنّه قد جرّب هذه القضيّة ويعرض لنا نتيجة تجربته الشخصيّة. فلو قلت اخمد نار غضبك فذلك لأنّني أدركت بالتجربة أنّه لا يوجد جرعةٌ أحلى وألذّ من تجرّع الغيظ: «**فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلاَ أَلَذَّ مِنْهَا مَغَبَّةً**»، وبهذا الأسلوب من الكلام، يرغّب مخاطبه ويشجّعه على أن يجرّب هذا الأمر ليرى أيّ لذةٍ ستحصل له.

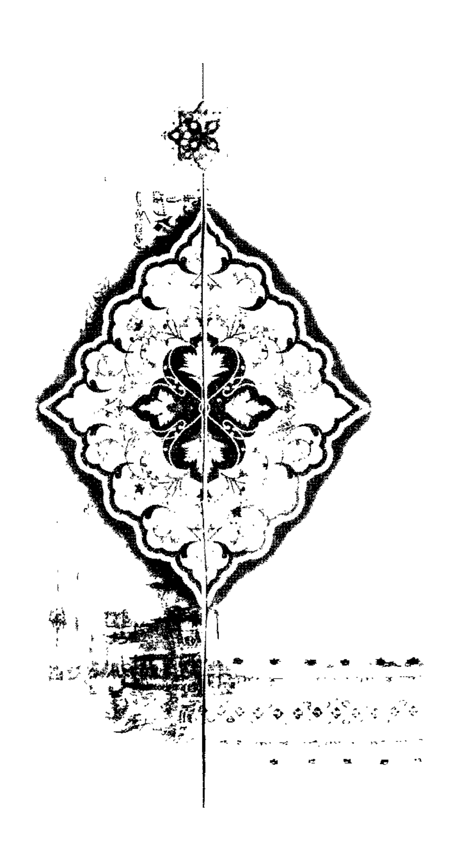
ب. اجتناب قطع الصداقة

إنّ حصول سوء التفاهم في الحياة الاجتماعيّة هو أمرٌ عاديّ، وبعبارةٍ أفضل إنّ من لوازم الحياة الاجتماعيّة هي أنّ الإنسان يشاهد أحيانًا تصرّفات تصدر من الآخرين أو حتى من صديقه تثير الشكّ. فلو نظر الشخص إلى كل سلوك أو تصرّف مثير للشكّ أو مجهول الدوافع والأسباب بسوء الظنّ وابتُلي بسوء فهمه، وأظهر ردّة فعلٍ متسرعةٍ تجاهه، فلن يبقى هناك أي عقدٍ للصداقة، ولن نرى أي أثرٍ للصداقة



والصحبة، ذلك لأنّ مثل هذه التصرّفات ستصادف الإنسان دومًا، وسيكون هناك خلفيّات مختلفة لسوء فهمه لها. في حين أنّ الأصل في العلاقات الاجتماعيّة وعشرة الآخرين، لا سيّما علاقة الصداقة هي أن نحمل كلّ ذلك على أساس السلوك الصحيح وحسن النيّة. لهذا، حتّى لو شاهدنا منهم سلوكًا مشبوهًا ووقعنا في الحيرة والشكّ فيما إذا كان هذا الفعل والتصرّف صحيحًا أو لا، فعلينا أن نعتبره صحيحًا وندمغه بختم الصحّة ونعتبر جميع أعمال أفراد المجتمع حسنة ومقبولة. فلا ينبغي أن نقطع صداقتنا بالآخرين بمجرّد أن نتردّد، ولا ينبغي أن نُسيئ الظنّ بهم، بل يجب علينا، ضمن إطار استمرار الصداقة، أن نحقّق أكثر حتى نصل إلى الواقع. وحتى لو تيقنّا من أنّ سلوكه هذا كان خاطئًا أو أنّه قام به بدافعٍ سيّئ، فلا ينبغي لنا أن نكون بصدد الانتقام منه ومعاملته بالمثل، بل علينا أنْ نتحرّك على طريق إصلاحه.

فبمجرّد مشاهدة سلوكٍ مشبوه صادرٍ من صديق، لا ينبغي أن تتصوّروا بأنّه لم يعد يرغب بصداقتكم أو أنّه يقصد خيانتكم ويجب قطعه وتركه فلا ينبغي أبدًا أن تقطعوا صداقتكم بالاعتماد على هذا الشك والشبهة، وحتى لو حصل لكم اليقين بأنّه كان يتعمّد قطع صداقتكم أو كان يفكّر بارتكاب عمل غير لائق ونسبته إليكم، وقد كان بذلك يريد خيانتكم، فلا ينبغي أن تسرعوا إلى قطيعته؛ بل عليكم أن تسعوا وتمهّدوا لصرفه عن قراره، والسعي لإطلاعه على خطئه وحثّه بالكلام والنصيحة وأي أسلوبٍ ترونه مناسبًا على الاستمرار بالصداقة الودّيّة. فقد يكون تصرّفكم هذا سببًا لندمه وإصلاحه وقيامه بجبران ما فات. أمّا إذا لم تنفع مثل هذه التدابير ورأيتم منه العناد والإصرار والعداوة فهذا يعني أنّ هناك مجال لقطع هذه الصداقة.



الدرس الخامس والثلاثون

آداب الصحبة ٢

- أقبح من القبيح
- حدود الصداقة وميزان المودّة
- اجتناب مواضع التهمة
- وجوب حفظ حرمة الذات
- آفة الصداقة
- الاعتدال في المسؤوليات

«مَا أَقْبَحَ الْقَطِيعَةَ بَعْدَ الصِّلَةِ، وَالْجَفَاءَ بَعْدَ الإِخَاءِ، وَالْعَدَاوَةَ بَعْدَ الْمَوَدَّةِ، وَالْخِيَانَةَ لِمَنِ ائْتَمَنَكَ، وَالْغَدْرَ بِمَنِ اسْتَأْمَنَ إِلَيْكَ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ وَلَكَ يَوْمًا مَا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلاَ تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ، وَلاَ يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى النَّاسِ بِكَ».

يتناول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في هذا المقطع من الكلام موضوع الأخلاق الاجتماعيّة وآداب المعاشرة. وكما مرّ، فإنّ الإمام عليه السلام لا يخصّص كلامه لشخص محدّد كالإمام الحسن عليه السلام الذي يتمتّع بالخصائص الأخلاقيّة الرفيعة، بل إنّه يوجّه هذا الكلام لكل من يريد النجاح في الحياة الاجتماعيّة ورعاية القيم الإنسانيّة. لهذا، فإنّ القضايا التي ذُكرت سابقًا ليست مختصّةً بالمؤمنين والمعتقدين بالله والقيامة، ولهذا فإنّ فائدتها عامّة وشاملة وكل إنسان يمكنه أن يحقّق بتطبيقها الكثير من الفوائد والتبعات الحسنة، سواء كان هذا الشخص مؤمنًا أو غير مؤمن. بالطبع، إنّ أهل الإيمان والذين يطبّقون هذه المواعظ والنصائح بقصد القربى، يصبغون كل حياتهم بصبغة العبادة ويتحرّكون نحو ذلك المقصد الأعلى والهدف الأسمى ويتقرّبون إلى الله تعالى بكل عملٍ يقومون به. أمّا أولئك الذين لا يتمتّعون بهذه المعرفة وهذا الإيمان، فإنّ استفادتهم من هذه المواعظ ستنحصر في هذه الحياة الدنيا. ومثل هذه الفئة، وإن لم تحقّق تلك الأهداف والنتائج الرفيعة التي يحقّقها المؤمنون، لكنّهم يحقّقون في هذه الحياة الدنيا تلك الحياة المثاليّة. وعلى أيّ حال، فإنّ وضوح الكلام في هذا المقطع والمقاطع اللاحقة يرتبط بآداب العشرة وأسلوب الحياة في المجتمع والتعامل مع الآخرين.

أقبح من القبيح



لقد تمّ في المقاطع السابقة، عرض المواعظ والحكم العمليّة الرفيعة والعظيمة المرتبطة بالعشرة، ومنها ما يرتبط بكيفيّة التعامل مع الآخرين، وطريقة اختيار الصديق، وكيفيّة التعامل مع الأصدقاء، وتحقيق المودّة وميزانها، وكذلك لقد تمّ عرض مجموعة من الوصايا والقواعد بخصوص مسؤوليّة الأصدقاء تجاه بعضهم البعض، وهنا سيتصدّى هذا الإمام عليه السلام لبيان هذا المنهج بالشرح والتفصيل.

حين يخطو الإنسان خطواته الأولى في الحياة الاجتماعيّة ويبتدئ مسيرة حياته في المجتمع، يجب عليه أن يتمسّك بمجموعة من القيم ويسعى لاختيار أصدقاء جيّدين ويكون عطوفًا تجاه الآخرين ومُريدًا لخيرهم، لكنّه بعد الدخول في الحياة الاجتماعيّة واختيار صديق وتحصيل المنزلة الاجتماعيّة واكتساب ثقة الناس فلن يكفي ذلك المستوى من المسؤوليّات والعلاقات السابقة وسوف يُلقي على عاتقه مسؤوليّات أثقل.

ففي الأيّام الأولى لدخوله المجتمع، يُنصح بأن دقّق في اختيار الصديق، وكن حذرًا في تحديد الجيّد من المخادع؛ اختر أشخاصًا بعنوان شركاء وأصحاب لك في حياتك الاجتماعية يكونون مفيدين لك في تحقيق أهدافك، ويساعدونك على الوصول إلى مقاصدك. ولكن في المرحلة الثانية، حيث يُفترض أنّه قد انغمس في الحياة الاجتماعيّة وأصبح مدركًا لقوانينها وقواعدها، فقد اختار صديقه وثبّت علاقات اجتماعيّة وثقافيّة مع الكثير من الأشخاص، وفي المقابل، يعتبره الآخرون شخصًا أمينًا، وبلا شك أنّ مثل هذا الشخص سيكون عليه مسؤوليّات أثقل في هذه المرحلة.

فإذا لم يكن الإنسان في المرحلة الأولى من دخوله إلى المجتمع بصدد اختيار الصديق الجيّد واللائق والمناسب، فلا شك أنّه سيُلام ويُذمّ. ومن جانبٍ آخر، قد يُصاب بالكثير من الأضرار والخسائر التي لا يمكن جبرانها. أمّا إذا أعرض عن الصديق المناسب واللائق بعد اختياره له، فإنّه سوف يُلام ويُعاتب أكثر وقد يُوبّخ على عدم قيامه بالعمل الإيجابيّ، وعلى تضييعه لحصيلة مساعيه وإهدارها. من البديهيّ أنّ التصرّف الثاني يقع مورد المزيد من التوبيخ والملامة.

إنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا القسم ناظرٌ إلى مثل هذه الحالة التي يكون فيها الإنسان قد اختار أصدقاء جيّدين ومناسبين، ولكن لأنّه لم يعرف قدرهم



فقد قطع علاقته بهم وضيّعهم، أو إنّه خان أولئك الذين عدّوه شخصًا أمينًا ولم يؤدِّ حقوقهم. لا شك أنّ مثل هذه الأفعال هي أقبح بكثير من لو لم يختر منذ البداية صديقًا «**ما أَقْبَحَ الْقَطِيعَةَ بَعْدَ الصِّلَة**». إنّ الحياة من دون صديقٍ ودعامةٍ اجتماعيّة هو أمرٌ خاطئ ومضرّ، ولكن ما هو أسوأ أن يقطع الإنسان رابطة الصداقة وعقد الأخوّة بعد إقامتها، فيقطع بعد الوصل ويهدم بعد البناء.

«**وَالْجَفَاءَ بَعْدَ الإِخَاء**": فلو أنّ هذا الإنسان جافى صديقه بعد اختياره وبعد عقد رابطة الأخوّة بينهما، ولم يؤدِّ حقوق هذه الأخوّة فإنّه سيكون ملامًا أكثر بكثير من ذاك الذي لم يختر صديقًا من الأساس. يجب تقدير وحفظ ذخيرة الصداقة مثلما نحفظ الذخائر الأخرى، وينبغي الحفاظ على حرمتها؛ فإنّ عدم الحصول على هذه الذخيرة سيّئ وتضييعها أكثر سوءًا، مثلما أنّ العداوة بعد المودّة والصداقة أقبح من العداوة من دون مقدّمة.

«**وَالْخيانَةَ لِمَنِ ائتَمَنَك**»: لا شك بأنّ خيانة أي إنسان هو أمرٌ سيّئ، لكن ما هو أسوأ وأقبح هو أن يخون الإنسان من ائتمنه. بالطبع، للخيانة أشكال عديدة، فتارة تكون خيانة لحقوق الآخرين، وأخرى تكون غصبًا لأموال الناس. وأحيانًا ينال الإنسان منزلةً اجتماعيّةً ويثق الناس به ويرجعون إليه في بعض شؤونهم ويودعونه أموالهم وأعراضهم، فإنّه إذا خان في مثل هذه الحالات ستكون خيانته أسوأ بكثير من ذاك الذي لم يكتسب بعد تلك المنزلة والموقعيّة الاجتماعيّة أو لم يعتبره الناس أمينًا ويثقون به.

وكما أشير في بداية البحث، نجد أنّ كلام الإمام عليه السلام هذا هو عبارة عن نصائح كلّيّة وعامّة يستفيد منها أيّ إنسانٍ في الحياة؛ وبالطبع، مع هذا الاختلاف وهو أنّ الشخص المؤمن إذا طبّق هذه الوصايا الصادرة عن الإمام المعصوم بقصد القرب الإلهيّ، فبالإضافة إلى التأثير الدنيويّ، فإنّه سينال الثواب الأخرويّ. وبالإضافة إلى ارتقاء وتقدّم حياته الدنيويّة، فإنّه سينال السعادة الأخروية والمعنوية. أمّا ذاك الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل بهذه النصائح تحت عنوان أنّها إرشاداتٌ للحياة فقط، فإنّه سوف يحقّق مصالحه في الحياة الاجتماعيّة والدنيويّة.

حدود الصحبة وميزان المودّة

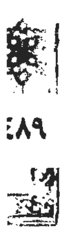
إنّ أحد الدوافع والأسباب وراء عرض هذه المواعظ والنصائح هو أن نستيقظ من

غفلتنا وسُباتنا، ذلك لأنّ هذه المطالب مورد غفلة، رغم أنّ الكثير من الأشخاص يعرفونها. فأغلب هذه النصائح والحكم هي على نحو لو تصوّر الإنسان موضوعها ومحمولها (طرفي القضية) سوف يدرك أنّ القضية هي ما قاله أمير المومنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لذا فإنّ الأمر لا يحتاج إلى مزيد أدلّة تعبّديّة وبيانات نقليّة. فالإنسان يفهم جيّدًا أنّه إذا أودعه شخصًا أمانة لا ينبغي أن يخونها، فخيانة الأمانة أمرٌ قبيح، وهذه القضيّة مفهومة عنده جيّدًا.

بناءً عليه، فمثل هذه النصائح هي لأولئك الذين يغفلون أو يُبتلون بالإفراط والتفريط. فعلى سبيل المثال، يوصي الإمام بضرورة وجود صديقٍ للإنسان وأهميّة أن يختار الأصدقاء في الحياة ويستفيد منهم في أمور الدين والدنيا ويكون ودودًا ومحبًا لهم. ففي هذا المجال، قد يسقط البعض في وادي الإفراط والبعض الآخر في مستنقع التفريط، فلا يعرفون في صداقاتهم وصحباتهم أي حدٍّ، فتجدهم يذيعون كلّ شيء ولا يبقى عندهم سرٌّ مستور. لهذا، بمجرّد أن تضعف صداقتهم وتضمحل، يشعروا بالخوف وعدم الأمن.

وما أكثر تلك الأحداث التي تقع في الحياة وتقضي على تلك الصداقات، بل تبدّلها إلى عداوات. ففي هذه الأثناء، ستصبح تلك الأسرار التي كانت أمانات عند الشخص موردًا للاستغلال السيّئ؛ لأنّه كان منذ البداية يتصوّر أنّ هذه الصداقة ستُحافظ على هذا المستوى من المودّة والحميميّة، وهو غافلٌ عن أنّه سيأتي يومٌ تزول فيه هذه الصداقة وتتبدّل إلى عداوة، ففي هذه الأثناء سيستغلّ ذاك الشخص تلك الأسرار التي أودعته إيّاها وأطلعته عليها. لهذا، ففي الوقت الذي يُوصى باختيار الصديق الجيّد والتعامل الودّيّ والصافي معه، يتمّ التوصية أيضًا بإخفاء بعض أسرار الحياة عن الجميع، وإن كانوا من الأصدقاء. فعلى الإنسان أن يحتاط دائمًا ولا يضع صندوق أسراره وكنز قلبه عند أي شخصٍ أو أحد. فبعد مرور سنوات طوال على هذه الصحبة واختبار الصداقة في مختلف ظروف الحياة، والاطمئنان إلى وفاء الشخص وكتمانه، يمكن عندها فقط وضع بعض أسرارنا عنده، وإلا فلا ينبغي أن نضع أسرارنا عند من كانت صداقتنا به حديثة ولم نصل إلى الاطمئنان اللازم بشأنه بعد، ولم نطّلع على مستوى مودّته لنا حتّى الآن.

إنّ هذا الكلام يمثّل قضيّة دقيقة ومسألة عُقلائيّة في الحياة، ولكن وللأسف،



نحن نغفل عنه في بعض الحالات، ولا نستقيظ أو نندم إلّا بعد مواجهة التبعات السلبيّة. إنّ الذي يُصادق أحدًا لا ينبغي أن يدوس على جميع الحجب والموانع العقلائيّة في الحياة، بسبب عذوبة الصداقة والمودّة ويتصوّر أنّ من لوازم الصداقة والصحبة أن يطّلع كلٌّ من الأصدقاء على أسرار الآخر بشكلٍ كامل. مثل هذا التصوّر مخالفٌ للعقل السليم وبعد النظر. كما أنّ على الإنسان أن يمتلك ملاكًا ومعيارًا صحيحًا في إظهار الصداقة والعواطف والأحاسيس، وعلى أساس ذلك المعيار يظهر محبّته وصداقته. بناءً عليه، إنّ إبراز المحبّة نفسها، والتي تُعدّ قضيةً مختلفةً عن إفشاء الأسرار، لها حدود وضوابط، فما بالك ببيان أسرار الحياة الذي يؤدّي في بعض الحالات إلى انهدام بنيان هذه الحياة.

من الواضح أنّ رعاية هذه القاعدة في حال العداوة هو أيضًا أمرٌ ضروريّ. فبمجرد إعلان العداوة والخصومة من قبل شخصٍ ما، لا ينبغي أن نخرج كل ما احتبسته صدورنا، بحيث إذا اشتدّت عداوة الطرف الآخر، لا يكون قد بقي معنا أيّ سهم نطلقه، أو إذا استعادت الصداقة رونقها، لا يعود من الممكن جبران الماضي. وبكلمةٍ واحدة، لا ينبغي إطلاقًا إبراز جميع مراتب الصداقة والعواطف للصديق، ولا إظهار كل درجات العداء للعدوّ، بل ينبغي إبقاء مقدار من المحبّة والمقت داخل الصدور لكي لا نُبتلى في الحالات غير المتوقّعة بكساد الذخيرة والرأسمال العاطفيّ. لهذا، إذا حصل سوء فهم أو خلافٌ مع أحد ولأي سببٍ كان - حقًا أو باطلًا - فلا ينبغي أن نُفرط في عداوته بحيث لا يبقى أيّ مجالٍ للصلح معه، فيجب العمل باحتياط في كلّ حال. عاملوا أصدقاءكم بنحوٍ، بحيث إذا زالت هذه الصداقة يوما ما «لا سمح الله» لا يصيبكم من جانبهم ضررٌ، وكذلك تصرّفوا مع أعدائكم بنحوٍ، بحيث إذا جاء اليوم لبناء عمارة الصداقة معهم، لا تكون قد نفدت جميع مواد البناء. بعبارةٍ أخرى، لا تملأوا جميع الأوعية بمادة الخصومة، بحيث إذا أردتم ذات يوم أن تثيروا موضوع الصداقة، أن تتمكّنوا من أن تنظروا في وجوه بعضكم بعضًا. فإذا امتلأت النفوس بالعداء، لن يبقى هناك محلٌّ لنظرة المحبّة، وحينها لن تتمكّن العيون أن تتواجه. لهذا، يجب الاحتياط في هذا المقام أيضًا ورعاية الحدود.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا**».

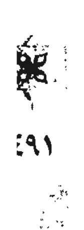
افرضوا أنّكم صاحبتم شخصًا لمدّةٍ طويلة، لكنّكم الآن تشاهدونه قد خرج عن مسار التقوى والنزاهة وسلك طريقًا مخالفًا، ولأنّكم لا تريدون الارتباط بمثل هذا الشخص، تقومون بقطع صداقته وإنهائها وتغسلون اليد من الصحبة السابقة. أو افرضوا أنّ هناك صداقة وصحبة بين اثنين محصورة بشؤون الدنيا، لهذا بمجرّد أن يحصل نوع من التهديد للمصالح الدنيويّة ولا تُراعى الحقوق الماليّة من قبل أحد الطرفين، فإنّ هذه الصداقة تضعف وتسير باتّجاه الأفول والزوال. وعلى أيّ حال، يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا أردت قطيعة أخيك، فلا تقطع هذه العلاقة بحيث إذا أردت تجديدها يصبح ذلك غير ممكنٍ، بل اترك مجالًا لإحيائها وللمصالحة ولا تقطع جميع الجسور والطرق. فلعلّك تجد نفسك بصدد استعادة صداقته بعد زوال الموانع السابقة. فعليكم أن تتركوا مجالًا للصلح: «**فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا**». فلا بدّ من إبقاء مساحة معيّنة لتجديد الصداقة والمودّة، فربما يأتي يومٌ تسنح فيه الفرصة لتجديد هذه المودّة القديمة، فلا تتصرّفوا بنحوٍ لا يبقى معه طريق للتراجع والعودة. احذروا من سدّ طرق تجديد الصداقة والمحبّة.

اجتناب موضع التّهمة

من الأبحاث المهمّة في الحياة الاجتماعيّة وفي آداب العشرة والأخلاق الجمعيّة هو اجتناب مواضع التهمة. يجب على الإنسان أن يتصرّف في حياته الاجتماعيّة وفي علاقاته مع الآخرين بنحوٍ لا يؤدّي إلى سوء ظنّهم به. بعبارةٍ أفضل، لا ينبغي أن يضع أعماله غير المدروسة وتصرّفاته العابثة في موضع الاتّهام وتهيئة أسباب سوء ظن الآخرين به؛ أي في الوقت الذي لا ينبغي للإنسان أن يولي نظر الآخرين وأحكامهم أهميةً فوق الحدّ، ويجعل أعماله وسلوكه متطابقين مع الملاك الأساسيّ وهو رضا الله، لكن في الوقت نفسه لا ينبغي أن يتصرّف بطرق تهيّئ المجال لسوء ظنّ الآخرين به.

يجب الالتفات إلى وجود تباينٍ كبير وواضح بين حكم الناس، الذي يُعدّ سوء الظن منه، وبين تحصيل رضا الناس. فلا ينبغي للإنسان أن يستجلب الأحكام المتهوّرة للناس عليه، وأن يضع نفسه موضع سوء الظنّ.

ومن جانبٍ آخر، لا ينبغي أن يكون ساعيًا لتحصيل رضا الناس، بل الواجب



عليه هو أن يكون بصدد تحقيق رضا الله فقط. وبعبارةٍ أخرى، قد يطلب الناس منّا شيئًا ما والله لا يريده ولا يحبّه، وقد يسرع الناس لإصدار أحكام متهوّرة، فيذمّون الشخص أو يمدحونه. والآن مع الالتفات إلى هاتين القضيّتين فإنّ المسألة هي أنّه لا ينبغي للإنسان أن يجعل الضابطة في أعماله وتصرّفاته جلب أنظار الناس إليه، ولكن في الوقت نفسه عليه أن يكون ملتفتًا لئلّا يصدر منه عملٌ يؤدّي إلى إساءة ظنّهم به.

بعبارة أخرى، في الوقت الذي لا ينبغي له أن يكون عند القيام بأعماله بصدد تحصيل رضا الناس، فإنّ اجتناب التسبّب بسوء الظنّ هو أمرٌ ضروري. وبكلمة واحدة إنّ تحصيل رضا الله تعالى هو أمرٌ لازمٌ في كلّ حال، ويجب على الإنسان أن يكون ناظرًا دومًا إلى رضى الله تعالى. ويوجد رواياتٌ مفصّلةٌ وعميقةٌ في هذا المورد تعرّضنا لها في الدروس السابقة من هذا الكتاب، ولعلّ أكثر هذه الروايات لفتًا للنظر ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في حديثه مع جابر بن يزيد الجعفيّ والتي مرّ التفصيل فيها وشرحها[1]. فإنّ ملاك كل تقييم هو كلام الله تعالى وحكمه لا كلام الناس، ولا ينبغي للإنسان أن يجعل كلام الناس ميزانًا لتقويم نفسه وأعماله، بل يجب عليه الرجوع إلى المعيار الواقعيّ للتقويم وهو الله تعالى، وبعده كلام النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين فيحاكم أعماله على أساس ذلك.

إنّ تحصيل رضا قلوب الناس وثنائهم ليس أمرًا ضروريًّا، بل لا ينبغي للإنسان أن يكون بصدد تحقيق رضا الآخرين لأنّ هذا العمل هو نوعٌ من الشرك. فما تمّت التوصية به وما هو مطلوبٌ هو اجتناب إيجاد سوء الظنّ في أذهان الناس. لا يجوز للإنسان أن يعمل بدافع أن يُثني عليه الناس ويمدحوه. المؤمن الموحّد هو الذي يجعل ربّه المتعال أمام عينيه في كلّ عمل وعلى الدوام، والذي يكون مع الله فإنّ الله تعالى سيعطف قلوب الناس عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[2]. فلا ينبغي للمؤمن أن يتصرّف بنحوٍ ويكون كل همّه واهتمامه جلب رضا الناسِ وثنائهم، فيسعى دومًا ليحبّه الناس، بل يجب عليه أن يكون في سعيٍ لكسب رضا الله المتعال. فحين يرى الله المصلحة يعطف قلوب

(١) راجع الدرسين ٧ و٢٧ من الكتاب نفسه.

(٢) سورة **مريم**، الآية ٩٦.



الناس عليه، ومن جانبٍ آخر لا ينبغي للمؤمن أيضًا أن يتصرّف بطريقة تجلب سوء ظنّ الناس به ويجعل نفسه موضع تهمة وسوء ظن.

إنّ الغفلة عن دقّة هذا الكلام المبين وعن هذا البيان الإلهيّ قد أدّى ببعض الأفراد وبعض طوائف أهل التصوّف أن يزلّوا وينحرفوا. فقد تصوّر هؤلاء أنّ إماتة النفس ومجاهدتها تستلزم القيام بأعمال وتصرّفات تؤدّي إلى إساءة ظن الناس بهم وذمّهم. وحيث إنّ هذه الفئة تعتبر مجاهدة النفس في تحمّل لوم الآخرين فقد عُرفوا (بالملامتية) وهذه الفئة التي تعيش في بعض المجتمعات السنّيّة تتصوّر أنّ طريق مجاهدة النفس هي في أن يكون الإنسان سيّئًا بنظر الناس حتى يسيئوا الظنّ به فيكون هذا النظر وهذا الحكم الصادر من الناس سببًا لتقرّبه الى الله. ولا شك أنّ هذا الطريق لإصلاح النفس هو بدعةٌ. فلا يمكن أن يحبّ الله لعبده أن يكون مورد تهمةٍ في المجتمع. إنّ مصالح الحياة الاجتماعيّة وشؤون المسلم تقتضي أن يحسن الناس الظنّ تجاه بعضهم بعضًا. وإنّ التعاليم الإلهيّة والإرشادات السماويّة لا تُجيز للمؤمن أن يهين نفسه بيده ويسقط سمعته بنفسه وأن يهيّئ مقدّمات سوء ظن الآخرين به.

وجوب حفظ حرمة الذات

إنّ الله تعالى لا يُجيز للمؤمن أن يريق ماء وجهه أو أن يتعدّى على حرمات الآخرين. فسمعة المؤمن محترمةٌ، لهذا فكما أنّه لا يجوز للآخرين أن يتعدّوا على هذه الحرمة الإلهيّة، لا يجوز له هو أيضًا أن يتصرّف بطريقةٍ تجعل الناس يسيؤون الظنّ به أو بأيّ مؤمنٍ آخر، ويصدرون الأحكام الخاطئة بشأنه، أو يجعلونه مورد تهمة. فلا يجوز للمؤمن أن يجعل نفسه عرضةً للاتّهام وسوء الظنّ. فكما أنّه لا يجوز له أن يتّهم الآخرين. بالطبع، إنّ الالتزام بهذين السلوكين في مقام التطبيق أمرٌ صعب جدًا. وكما قلنا لا ينبغي أن يهتمّ الإنسان بأحكام الناس ورغباتهم. ومن جانبٍ آخر، عليه أن يلتفت إلى ضرورة عدم إيجاد أرضيّة سوء الظنّ به، فيقع مورد التّهمة. ومن هنا، فإنّ رعاية هذه الحدود الدقيقة صعبةٌ جدًّا. فعلى الإنسان أن يستر عيوب نفسه وأخطاءها، فإذا وُجد نقصٌ في عمله وعيبٌ في سلوكه وبقي هذا مخفيًا على الناس لا يجوز له أن يفشيه، فإذا راعى هذا الأصل وأصبح سلوكه في الحياة الاجتماعيّة سببًا لحسن ظنّ الناس به فهذه نعمةٌ إلهيّة عليه أن يعرف قدرها،

ويمكنه أن يستفيد من هذه النعمة الاجتماعيّة والثقة الشعبيّة في المجالات الماديّة والمعنويّة، وأن يستعمل نعمة وجود الأصدقاء والناس الطيّبين من أجل الوصول إلى الأهداف العليا ونيل مراتب الكمال.



وقد يؤدّي هذا الدعم الاجتماعيّ وذاك الظنّ الحسن في الناس تجاهكم إلى أن تسعوا لتبديله إلى حسن ظنّ واقعيّ وفعليّ. فإذا لم تكن تلك الأبعاد من الحسن والكمال، وتلك الأوصاف الجميلة فيكم، فاسعوا إلى الاتّصاف بها. وإذا كان الناس يتصوّرون لحسن ظنّهم بكم أنّكم من أهل صلاة الليل والنزاهة فكونوا كذلك في الواقع. فإذا اعتبركم الناس لحسن ظنّهم بكم، أشخاصًا طاهرين وصادقين ومتخلّقين بالأخلاق الحسنة فلا تكذبوا أبدًا والتفتوا إلى لسانكم لكي لا يصدر منه أي كلام مذموم أو سيّئ. وبكلمةٍ واحدة، لا تضيّعوا هذا الرأسمال الذي لا يُقّدر لحسن ظنّ الناس بكم، وخصوصًا بالنسبة لأولئك الذين يتمتّعون بمكانةٍ اجتماعيّة ومسؤوليّة خاصّة، فرأس المال هذا مهمّ جدًا ومصيريّ، لهذا يجب أن يسعوا للحفاظ على حسن ظنّ الناس بهم وأن يتصرّفوا على النحو الذي يجعل الناس يحسنون الظنّ بهم ويكون ذلك موردًا لرضى الله تعالى.

بالطبع، لا شك بأنّه بالنسبة للمؤمن والموحّد الذي يتمتّع بالإيمان الكامل – كالإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو مصداق بارز له – لا مكان لمثل هذه التوصيات ولا معنى لأن يُقال لمثل هذا الإنسان بما أنّ الناس يُحسنون الظن بك فتصرّف وفق حسن ظنّهم، لأنّ مثل هذا الإنسان قد طهّر نفسه من كل الأرجاس لأجل الله. وبعبارةٍ أخرى، فقد حقّق مسبقًا ما يؤدّي إلى حسن ظنّ الناس به. وكذلك لقد قلنا سابقًا إنّ ذكر مثل هذه التوصيات لأجل أنّ المخاطب فيها هم في الواقع عموم الناس. يقع الناس العاديّون عادة في الزلّات والأخطاء، وتكون هذه الأخطاء مستورةً عن الآخرين، ومن هنا فإنّ الناس يحسنون الظنّ ببعضهم بعضًا، وينظر كلّ واحدٍ منهم إلى الآخر نظرةً حسنة.

آفة الصداقة

إنّ من النقاط الدقيقة في عالم الصداقة هي رعاية حقوق الصديق في جميع المراحل وفي كل الأوضاع والظروف الحياتيّة. وحين يتّخذ الإنسان صديقًا وينفتح

باب المودة والمحبة قد تكون هذه المودة والحميمية سببًا لغفلته عن أداء حقوق صديقه. ومن حقوق الصديق المؤمن أن يحترمه في محضر الآخرين وأن يقدّمه على غيره في موضع الإحسان والبذل، وأن يقضي حاجته بسرعة، ولكن للأسف قد تصل المودّة والقربة إلى حدٍّ لا يكفي أنّ الإنسان ينسى حقوق صديقه ويهمل مسؤوليّة الصداقة فحسب، بل ينسى صديقه نفسه أيضًا!



بالطبع، إنّ هذه الحالة تنشأ من تلك العُلقة الشديدة بين الطرفين، والتي ترتفع فيها الكلفة. وحين نجد شخصين متحابّين جدًّا فيقلّ التعبير عن الاحترام بينهما، وقد ينسى كلّ واحد منهما حقوق الآخر. فعلى سبيل المثال، فطالما أنّهما يشعران بعمق المودّة والصداقة، يخاطب كلّ واحدٍ منهم الآخر باستخدام الضمير «أنت» في حياتهم الخاصّة، وبسبب ذلك وعلى أثر هذه العادة فإنهما يتحدّثان بين الناس وأمامهم بتلك الطريقة ويخاطبان بمثل تلك الألفاظ والكلمات. يجب الالتفات إلى أنّ هذا النوع من التصرّف والتعامل يؤدّي إلى ضعف الصداقة شيئًا فشيئًا. ومن الواضح، أنّ رفع الكلفة والصفاء والمودّة لا ينبغي أن يكون سببًا لعدم رعاية حقّ الصديق أمام أعين الآخرين والتقليل من احترامه، بل يجب أن نعظّمه ونراعي الحدود. فلا ينبغي للمودّة أن تؤدّي إلى عدم الاحترام وإهمال الحقوق الاجتماعيّة، فلكلّ شخصٍ في الحياة الاجتماعيّة موقعيّته وحقوقه الخاصّة ويجب رعاية هذه الحقوق وتلك المنزلة الاجتماعيّة.

إنّ هذه القاعدة والنقطة الأخلاقيّة المهمّة ينبغي أن تُراعى حتى في الحياة الأسريّة أيضًا. صحيح أنّ الزوجين ينبغي أن يكونا في حالةٍ من المودّة والخصوصيّة ويتعاملان فيما بينهما من دون حجابٍ أو مانعٍ للمحبّة، لكن هذه المودّة والخصوصيّة لا تعني أبدًا أن يتصرّفا بهذا الشكل أمام أعين الآخرين وأمام الأنظار. إنّ الاحترام الاجتماعي يقتضي أن يحترم الزوج زوجه أمام أعين الآخرين ويتحدّث معه باحترام، أمّا إذا كانا يتخاطبان في البيت وفي الغرفة الخاصّة باستعمال بعض الألفاظ الخاصّة أو بكلماتٍ فاقدةٍ للاحترام وبصورةٍ غير متعارفة فإنّ هذا الشكل من التصرّف في الخلوة لا ينبغي أن يسري إلى الحياة الاجتماعيّة ولا ينبغي أن يتصرّفا أمام أخوتهما وأقاربهما على ذلك النحو؛ بل يجب أن يحترما بعضهما بعضًا ويكون هذا الاحترام أيضًا في التخاطب.

وعلى أيّ حال، يوجد في كلّ موقعٍ حدود وضوابط يجب حفظها وعدم



اختراقها بين الصديقين بحجّة وجود هذه الحالة الحميميّة بينهما. فمثل هذا التعدّي والتجاوز يجعل أصل الصداقة في موقع الخطر. فلو تقرّر عدم أداء حقّ الصديق بحجّة هذه الصداقة فلن يبقى بعدها أي صداقةٍ: «**لاَ تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَه**». وباليقين، إنّ لصديقك عليك حقوقًا في المجتمع يجب أن تراعيها. وينبغي للمودّة أن تبقى محفوظة في محلها؛ وكذلك حقوق الآخرين ورعايتها، ينبغي أيضًا أن تبقى محترمةً ومحفوظةً في محلها. فإذا لم تؤدِّ حقوق رفيقك، لن يبقى هناك رفقة ولا صداقة حتى تتمكّن من القول بما أنّنا صديقان فليس علينا أن نراعي الحقوق. إذا أردت أن تكون صديقًا له عليك مراعاة حقوقه: «**فَإِنَّه لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّه**».

الاعتدال في المسؤوليات

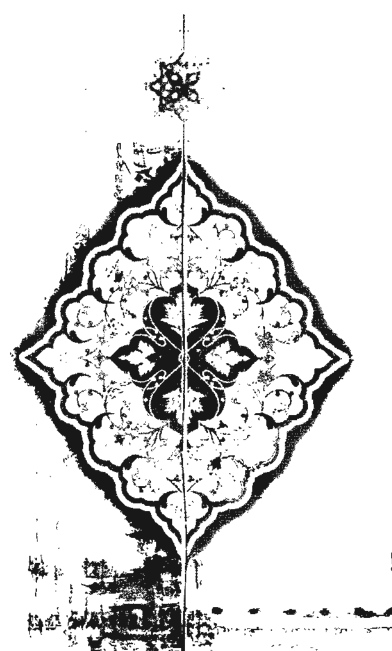
هناك قضيةٌ أخرى دقيقة ذات أهميّة خاصّة في هذا المقام يجب تناولها وهي رعاية التوازن والاعتدال في أداء الحقوق بين الأفراد وتحمّل المسؤوليّة في العلاقات. إنّ عدم رعاية هذه النقطة الخطيرة بالنسبة لأولئك الذين تحمّلوا مسؤوليّات كبيرة بعد الثورة، قد أدّت إلى خلق مشاكل كثيرة. فالعديد من الذين تحمّلوا المسؤوليّات الكبيرة في المجتمع كانوا أحيانًا يقصّرون تجاه أقاربهم وتجاه الزوجة والأولاد وغفلوا أو عجزوا عن رعاية الاعتدال والتوازن في أداء هذه الحقوق، كالكثير من العاملين الذين يخرجون بسبب كثرة مشاغلهم من البيت في الصباح الباكر بينما يكون أطفالهم ما زالوا نائمين، ويرجعون آخر الليل إلى المنزل حيث يكون أطفالهم قد ناموا أيضًا. أتذكّر تلك الأيام التي كان أحد شهدائنا المضحّين والعظام يقول: «إنّني بسبب الإشراف والمراقبة على الأعمال، أرجع آخر الليل إلى المنزل وحين أصل إلى بيتي يكون أبنائي نائمين، ثمّ أخرج في اليوم التالي هكذا والأولاد نيام، وقد يمرّ عليّ الشهر بطوله على هذا المنوال». وعلى أيّ حال، إنّ كثرة المشاغل والأنشطة قد تؤدّي إلى أن يغفل الإنسان عن مسؤوليّته تجاه زوجته وأبنائه فلا يُراعي حقوقهم أو تصبح رعايتها أمرًا صعبًا جدًا بالنسبة إليه. فلا شك أنّه يوجد على الإنسان من ناحية مسؤوليّات وأعباء اجتماعيّة، ومن ناحيّة أخرى عليه مسؤوليّات ووظائف تجاه زوجته وأطفاله ووالديه تدعوه إلى القيام بأعمالٍ أخرى، وعليه أن يختار الاعتدال بين هاتين الساحتين.

بالطبع، يغفل الإنسان عادةً عن القيام بالمسؤوليّة الثانية أو أنّه إذا لم يغفل فإنّه قد يكون مُحاطًا بتلك القضايا الاجتماعيّة التي تمنعه من أداء مسؤوليّاته العائليّة. إنّ هذه المشكلة الأساسية والعامّة تحتاج إلى تحذيرٍ كبير. ولهذا، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَلاَ يَكُنْ اَهْلُكَ أَشْقَى النَّاسِ بِكَ**»، فأنت تتحمّل مسؤوليّات تجاه أسرتك ولهم حقوقٌ عليك، فاحذر أن يؤدّي عدم رعاية حقوقهم إلى شقائهم. فلهم حقوقهم وعليك رعايتها وفي الحدّ الأدنى فليكن لأبنائك من الاهتمام ما يكون لغيرهم، فهم أناسٌ وأنت تتحمّل مسؤوليّة تجاههم. فاحذر من أن يجعلك الاهتمام بالأعمال الأخرى غافلًا عن مسؤوليّاتك تجاه الزوجة والأبناء. هذه المسألة بالنسبة لبعض الشرائح الاجتماعيّة كالطلبة والجامعيّين والتلامذة، يمكن أن تتّخذ بالنسبة لهم شكلًا أهمًّا، ذلك لأنّ الشعور بالمسؤوليّة تجاه المجتمع يتبلور أكثر في وجود هذه الشرائح ونجد ذلك الشعور بمستوى أعلى من غيرهم. فهؤلاء يقولون إنّ الدراسة مثل الدفاع العسكريّ ومثل أي قضيّةٍ اجتماعيّةٍ أخرى هي واجبة، ولو أنّنا قضينا كل ساعات الليل والنهار بالدراسة لكان قليلًا، وأعمالنا تبقى على الأرض، والمتابعات تتطلّب وقتًا أكثر من أربع وعشرين ساعة كلّ يوم. وعلى أساس هذا التصوّر يستغرقون في الدراسة والبحث والتحقيق، ويخصّصون مقدارًا من الوقت الضروريّ للطعام والنوم، ويصرفون كلّ وقتهم في الدرس والبحث والمطالعات. إنّ هذا الانشغال المضغوط وتراكم هذه الأعمال يؤدّي إلى نسيان، أو في الواقع، إلى تضييع حقوق الوالدين والزوجة والأبناء. ومثل هذا التضييع مشهودٌ تمامًا خصوصًا في حقّ الوالدين والزوجة.

أولئك الذين يسافرون إلى المدن البعيدة من أجل التعلّم يواجهون مثل هذه الظاهرة أكثر من غيرهم، لأنّهم يبتعدون عن الوالدين وتكون الزوجة في ديار الغربة، فلا تكون الزوجات مستأنسات بأحد وتبقين في المنزل لوحدهن وهنّ يرقبن رجوع أزواجهنّ أو الولد، ويأملن بانتهاء أيّام الغمّ والوحدة. ففي حياة هؤلاء الأشخاص، لا يترك الدرس والبحث مجالًا لأداء المسؤوليّات العائليّة. حتى إنّ بعضهم لا يسألون عن أحوال الزوجة والوالدين وكأنّهم لا يعرفون سوى الدفتر والكتاب والقلم. لهذا، فإنّهم حين يرجعون إلى المنزل يسألون عن أحوال الكتب والمدوّنات وقد يغفلون عن السؤال عن أحوال الوالدين العجوزين أو حتى ولدهم المريض، وحتى لو لم يغفلوا فإنّهم لا يجدون الفرصة لمتابعتها.



من الواضح أنّ اكتساب العلم في هذا الزمان مثل الدفاع وغيره من الأنشطة الاجتماعيّة الأخرى، وهو واجبٌ علينا، لكن علينا أن نعلم أنّنا إذا لم نتابع شؤون الزوجة والأبناء والوالدين فإنّ كسب العلم لا يمكن أن يستمرّ ولا يقع موقع التأثير والفائدة. إنّ عدم متابعة أمور الزوجة والأبناء والوالدين من الممكن أن يؤدّي إلى مشاكل نفسيّة وجسمانيّة وروحيّة تصيبهم بحيث يتطلّب علاجها أوقاتًا طويلة. والنتيجة الخطرة الأخرى هي أن يتربّى أبناؤنا في غربةٍ عن الإسلام وحين يخرجون إلى المجتمع سيكون ذلك بلاءً عليكم وآفةً لهذا المجتمع: «**وَلاَ يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى النَّاسِ بِكَ**». من الممكن أن يؤدي سلوككم غير الصائب إلى ابتلاء هؤلاء بالشقاء والتعاسة، فلا تكون أنفسكم سببًا لهلاكهم وانحرافهم. ولا شك بأنّ هذا النوع من التصرّف مخالف لوصية إمام المتقين علي عليه السلام.



الدرس السادس والثلاثون

آداب الصحبة ٣

- كم هو جميل أن تكون المودّة من الطرفين!
- الصداقة لا تنفصم
- الدوافع المتضادّة
- بذل المحبّة أو البخل من المودّة؟
- أين العفو وأين الانتقام؟
- ظلم النفس



«وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِي مَنْ زَهِدَ فِيكَ، وَلاَ يَكُونَنَّ[1] أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلاَ يَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ، وَلاَ عَلَى الْبُخْلِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْبَذْلِ، وَلاَ عَلَى التَّقْصِيرِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْفَضْلِ، وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفعِكَ، ولَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ».

إنّ من أكبر المسؤوليّات الأخلاقيّة للمسلم وخصوصًا الشيعة وأتباع مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، والتي تمّ التأكيد عليها كثيرًا في الروايات، هي رعاية حقوق الأصدقاء والإخوان. لا تُطلق كلمة «الإخوان» في اللغة العربية ولا في التراث الإسلاميّ على أشخاصٍ محدّدين بل هي تعبيرٌ عام. وقد شاع بعد الثورة في ثقافتنا الاجتماعيّة وأصبح المؤمنون ينادون بعضهم بعنوان الأخوة (الأخ). فالمقصود من حقوق الإخوان حقوق الأصدقاء والأشخاص الذين نعاشرهم.

وفي الإسلام، وخصوصًا مدرسة التشيّع، تمّ تعيين حقوق كثيرة للأصدقاء والإخوان ويجب علينا أن نتعرّف إلى هذه الحقوق ورعايتها فنعبّر بهذه الطريقة عن وفائنا لأصدقائنا. ويُعدّ هذا العمل بحدّ ذاته قيمةً إنسانيّة تمّ التأكيد عليها في الإسلام، وخصوصًا في مدرسة التشيّع. وفي هذا المقطع من وصيّة أمير

---

(١) جاء في بعض النسخ في هذا المقطع كلمة لا تكوننّ بدل كلمة لا يكوننّ وإذا كانت الكلمة لا تكوننّ فسوف تكون العبارة أو الجملة على هذا الشكل: لا يكونن توجّهك إلى السوء أقوى من توجّهك إلى الخير ولا يكوننّ توجّهك إلى البخل أشدّ من توجّهك إلى البذل ولا يكوننّ توجهَك إلى التقصير أقوى من توجّهك إلى الخدمة.

المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ أشار إلى المسائل المرتبطة بالعشرة وحقوق الإخوان وكيفيّة اختيار الصديق وغيرها من المسائل المشابهة.

كم هو جميل أن تكون المودّة من الطرفين!

كما مرّ، فإنّ دوافع الصداقة والمودّة تختلف كثيرًا بين الأشخاص. فقد يسعى أحدٌ إلى فتح باب الصداقة مع شخصٍ بسبب تقواه أو علمه الكثير أو كمالاتٍ أخرى موجودة فيه، ولكن قد يكون هناك ميلٌ عند أحد الطرفين إلى صداقة بخلاف الطرف الآخر، ففي مثل هذه الحالة لا تصرّ على إقامة مثل هذه الصداقة. فإذ لم يظهر الطرف المقابل أي ميلٍ إلى هذه الصداقة بالرغم من كلّ سعيك للتقرب إليه فلا تصرّ. ويشير أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من كلامه إلى هذه النقطة ويقول: إذا لم يكن ذلك الشخص الذي ترغب بصداقته مائلًا إلى صداقتك فلا تصرّ، لأنّ مثل هذا الأمر يؤدّي إلى مذلّتك وخفّتك. ولا شك أنّ هناك أشخاصٌ آخرون يمكنك أن تقيم معهم علاقة طيبّة، فإذا كنت تُصرّ وهو لا يرغب، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى إضاعة وقتك وهدر طاقتك ولن تكسب من هذه الصحبة شيئًا.

بناءً عليه، اسعَ عند اختيار الصديق أن يكون هناك رغبة مقابلة لفتح باب الصداقة، وذلك لأنّ الصداقة لا يمكن أن تكون من جهةٍ واحدة. هي كحكمٍ يرتبط بالعشرة والسلوك الاجتماعيّ تُبنى على رغبة الطرفين وجهدهما. بالطّبع، فإنّ معيار اختيار الصديق بالنسبة للمؤمنين الذين يتّمتعون بدرجاتٍ عالية من الإيمان هو الإيمان نفسه فقط، فحين يكون الطرفان من أهل الإيمان وتحصل المودّة بينهما فإنّهما لا يعتنيا بالملاكات الأخرى للصداقة.

على أيّ حال، إذا كنت ترى عدم الرغبة في الطرف الآخر في مجال علاقات الصداقة ضمن دائرة الحياة، فلا تصرّ عليها لأنّها لن تكون مثمرةً. ولا شك أنّ عدم رغبة الطرف المقابل في الصداقة ترجع لأسبابٍ عدّة، فلعلّه حصل سوء تفاهم ما، وربّما كان سوء الظنّ غير المبرر مانعًا من الصداقة، حيث ينبغي السعي لإزالة هذا المانع؛ ولكن في حال سعيت لإزالة تلك الموانع وبقي الحال على ما هو عليه، ولم يحصل أي رغبةٍ أو ميل عند الطرف الآخر لهذه الصداقة، فإنّ إصرارك لن يؤدّي إلّا إلى إهدار وقتك وندمك وتضييع شأنك وقيمتك؛ يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَلاَ تَرْغَبَنّ فِـي مَنْ زَهِدَ فِيكَ**».

الصداقة لا تنفصم



يبيّن هذا الكلام الخطوات الأولى في عملية بناء الصداقة، ثمّ يذكر المراحل الأخرى لتبلور هذه الصداقة، حيث يكون عرضها تارةً مورد قبول، وتارة أخرى لا يكون لدى الطرف الآخر ميل أو رغبة في الصداقة. ففي حال عدم الرغبة، وكما كنّا قد ذكرنا، لا ينبغي للإنسان أن يفرض على الطرف المقابل الصداقة بالقوّة، أما إذا قبل هذا العرض فلا شك أنّه ينبغي التصرّف بطريقةٍ أخرى أي بعد أن اختار الإنسان صديقًا وحصلت المودّة بين الطرفين، واتّجها نحو تعميق هذه العلاقة يُصبح الكلام مختلفًا ها هنا. فما العمل إذا أظهر أحد الطرفين بعد مدةٍ ولأسبابٍ مختلفة عدم الرغبة في الاستمرار بالصداقة واتّجه نحو قطع هذه العلاقة؟

فهل ينبغي أن نقول مثلما قلنا سابقًا، إنّه طالما لا يرغب بك فلا تصرّ عليه، أو لأنّه لا يؤدّي حقوق الأخوّة فلا تؤدّي حقوقه؟ والجواب هنا كلا، فإنّ هناك حكمًا آخر فما يتعلّق بالعشرة يجب تطبيقه. فإذا أقيمت الصداقة على أساس الأصول الدينيّة وبالشكل الصحيح، فلا ينبغي إهمالها وقطعها. فلو اخترنا لحياتنا الدينيّة والدنيويّة صديقًا، وأُقيمت تلك العلاقة الطيّبة للصداقة، فلا ينبغي أن نميل نحو قطعها لمجرّد ميل الطرف المقابل لذلك. بل على العكس، يجب أن نسعى إلى حماية هذه العلاقة وتقويتها فلا ينبغي أن نُضيّع أخانا لأدنى مبرّر.

صحيحٌ أنّه للوهلة الأولى، لا ينبغي للإنسان أن يفرض نفسه على الآخرين، ولكن إذا ثبتت علقة الصداقة فلا يمكنه بعدها ولأسبابٍ واهية وقليلة الأهميّة أن يقطعها. فقد وصلتنا كلماتٌ عديدة في هذا المجال عن الأئمّة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ذكرنا بعضها في الأبحاث السابقة وتناولناها بالشرح. نجد الإمام عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ها هنا يطرح كلامًا آخرًا ويقول: لا ينبغي أن تقطع صديقك لمجرّد أنّه يريد قطيعتك، بل عليك أن تحافظ على هذه الصداقة. واحذر أن تخضع لهذه القطيعة، بل عليك أن تصرّ على الفوز ها هنا، مثلما أن يكون هناك متصارعان يسعى كلّ واحدٍ منهما للتغلّب على صاحبه، وتكون غلبتك مقابل سعيه لقطيعتك بإيقاظه وحفظ هذه الصداقة. يجب أن تبذل كلّ جهدك على طريق ترسيخ هذه الرابطة الإلهيّة، وبالتغلب عليه ستحول دون ضياع هذه الصداقة القديمة. لهذا، يقول: احذر أن يغلبك أخوك ويقضي على صداقتكما فاسعَ إلى أن تغلبه، ولا تنزل إلى هذا الميدان بصورةٍ

أضعف منه، فإذا أراد أن يفصم عهد الصداقة والأخوّة يجب عليك أن تبذل الجهد الكافي ولا تسمح أن ينفّذ ما يريد.



إنّ كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقام هو في إطار تشجيع الإنسان على مقاومة زوال هذه الرابطة بكل ما أوتي من قوّة: «**وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ**»، فإذا قطع هذا العهد فاعلم انّك أضعف منه في حين أنّه طبق هذه الوصية يجب عليك أن تكون أقوى ولا تسمح له أن يقطع هذه العلاقة. بناءً عليه، إذا كانت علاقتكم مرضية عند الله تعالى فيجب حتمًا أن تحفظوا عهد الصداقة ولا تسمحوا لها بالضياع لأسبابٍ واهيةٍ وضعيفةٍ لأنّ وجود الصديق الجيّد أمرٌ ضروريٌ ومهمٌ جدًا للحياة الدنيويّة والأخرويّة.

الدوافع المتضادّة

إنّ الدوافع الداخلية بين القطبين المتعارضين والنزاع المستمرّ والدائم في الإنسان مع هذين النوعين من الدوافع يجعله دومًا على مفترق طريقين ويصعّب عليه المهمّة كثيرًا. وفي هذا المقطع، يتناول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا النزاع والتعارض ومسؤوليّة الصديقين ويقول: «**وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ**»، ففي مثل هذا النزاع الذي سيدور حول قطع العلاقة لا تسمح للطرف المقابل بردّة الفعل، واسعَ لأن تكون المنتصر في هذه المعركة. فإذا أراد صديقك أن يقضي على هذه العلاقة انطلاقًا من دوافع وميول لا مبرّر لها، فعليك أنت أن تنطلق من الدوافع المقابلة وتبذل جهدًا كبيرًا لحفظ هذه العلاقة وألّا تسمح له بقطعها.

وكما مرّ في بداية بحثنا هذا، ذكرنا أنّه في بعض النسخ وردت كلمة «لا تكوننّ» بدل «لا يكوننّ». فإذا كانت «لا يكوننّ»، فإنّ في كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ نوع من المقارنة بين نوعين من الميول والتوجّهات؛ لأنّ للإنسان القدرة على القيام بأعمالٍ وأنشطةٍ متنوّعة. وحيث إنّ مجال هذا التنوّع كبير، فكما يمكن تطبيق إرشادات الإمام في مقام الصداقة، يمكن أن تكون مؤثّرة أيضًا في المقامات والعلاقات الأخرى. فمثلًا يوجد في مقام الصداقة نوعان مختلفان من الدوافع في وجود الإنسان، فهناك الدافع نحو الإحسان والخير والمواساة والخدمة والعطف؛ وفي المقابل، هناك دوافع أخرى وهي عدم الوفاء وخيانة الصديق والقسوة



وغيرها. فهذان الدافعان أو كما يمكن أن يُقال هاتان القوّتان هما تحت اختيار الإنسان ويمنحانه إمكانيّة التصرّف على نحوين مع الآخرين. فهنا ولأجل بيان طريق الحقّ وتحرير الإنسان من هذه الدوافع المتعارضة يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إنّه لا ينبغي أن تكون قدرتك على الإحسان والخير أقلّ من قدرتك على الإساءة. يجب أن يكون سعيك متوجّهًا أكثر نحو الخير والمواساة والعطف تجاه الآخرين، وخصوصًا أصدقائك وإخوانك، لا أن تتوجّه إلى الخيانة والشدّة والسوء وعدم الوفاء.

ففي داخلك عاملان وقوّتان متعارضتان في حال تنازع، القوة الأولى تقول لك: اغسل يديك من أصدقائك وإذا رأيت منهم عدم الوفاء وقلّة العطف فافعل ذلك أيضًا وإذا شاهدت منهم الخيانة والقسوة وعدم المواساة ورأيتهم يتركونك حين الحاجة فاتركهم وردّ عليهم بالمثل؛ وفي مقابل هذا الدافع هناك دافعٌ آخر يقول: احفظ صداقتك وكن وفيًا في عهدك ولا تسمح أبدًا بخسارة صديقك وضياعه وردّ على خيانته وقسوته وعدم شكره بالمحبة والإحسان، فلا تنسَ المحبّة والإحسان أبدًا، حتى إذا أساء إليك ولم يكن صديقًا وفيًا لك، فلا تكن غير وفيٍّ له، وابقَ وفيًا لعهدك ولا تضيّع صداقتك الصحيحة والإلهيّة بأيّ ثمن وعلى أيّ حال. فإنّ هذان العاملان وهذان التوجّهان سيكونان في حالة من الحرب دائمًا، وعليك أن تتحرّك باتّجاه الدوافع الإيجابيّة.

ولنلتفت أنّ الكلام السابق للإمام ورد في مقام المقارنة بين سلوك صديقين وهو يبيّن كيفيّة سلوكهما تجاه بعضهما. ولكن في هذا القسم، نجد أنّ كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ناظرٌ إلى دافعين متضادّين موجودين داخل الإنسان أحدهما يجرّه نحو الإساءة وعدم الشكر وقطع العلاقة، والآخر يدعوه إلى الإحسان والوفاء والصداقة التي لا تنتظر شيئًا في المقابل. ويوصي الإمام باتّباع الدافع الثاني، ويقول اسعَ لتقوية الدافع الثاني، أي طبّق واعمل بالعامل الذي يدعوك للإحسان والوفاء وخدمة الآخرين، فلا تسمح أبدًا للعامل والدافع المقابل أن يتغلّب عليك ويؤدّي إلى أن تكون غير وفيٍّ مع الآخرين وخصوصًا صديقك: «**وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ**»، فاسعَ لأن تتغلّب قدرتك على الإحسان على ميلك على الإساءة، وكن دائمًا طالبًا لخير الآخرين في العمل، وأحسن إليهم.

«**ولا على البخل أقوى منك على البذل**»، فيجب أن تكون قدرتك على البذل



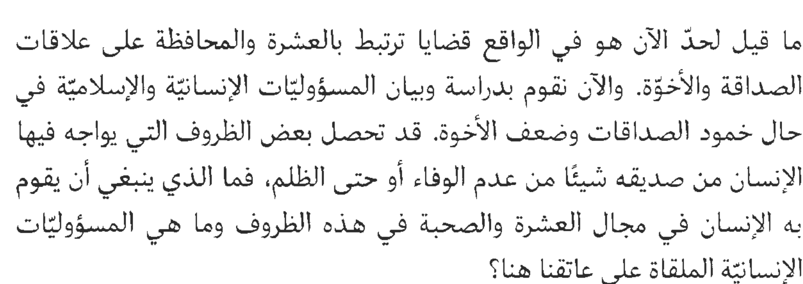
والعطاء أقوى من قدرتك على الإمساك والبخل. فلو سنحت لك فرصة تقديم خدمات ماليّة للأصدقاء والمحتاجين فلا ينبغي أن تبخل بذلك، ويوجد عاملٌ داخليّ في الإنسان يدفعه إلى الإنفاق وإلى خدمة الآخرين، وفي المقابل هناك عاملٌ آخر يمنعه من هذه الخدمة. فالقوّة الأولى التي تدعو الإنسان إلى تقديم الخدمات الماليّة للآخرين لها عنوانٌ كليّ وعامّ تحت عنوان البذل والعطاء. وفي المقابل، إنّ ذلك الدافع نحو البخل يؤدّي إلى أن يقبض الإنسان يده ويمسك. يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقام: «**وَلاَ عَلَى الْبُخْلِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْبَذْلِ**»، أي مع أنّ هناك عاملان في وجود الإنسان لكن عليك أن تسعى لينتصر دافع البذل وعامل الإحسان على عامل البخل والإمساك. فتسعى وتبذل كل همّتك من أجل حلّ المشاكل الماليّة للآخرين بدل البخل.

بذل المحبّة أو البخل من المودّة؟

لا شك بأنّ الخدمات التي يمكن تقديمها لا تنحصر في الإطار المالي، كما أنّ العديد من المشاكل التي تقع لا تنشأ من النقص والاحتياج الماديّ والماليّ. فلعلّ بعض المشكلات يمكن حلّها من خلال المحادثة، الأمر الذي لا يتمّ حتمًا بواسطة المال. فافرضوا أنّ المودة بين صديقين قد خبت بسبب بعض العوامل الروحيّة والنفسيّة، وأصبحت هذه المحبّة بينهما قليلة التأثير، فهنا قد يكون اعتذار أحد الطرفين وإظهاره للمحبّة وصداقته لصديقه تأثير في تقوية هذه الرابطة وإرجاع تلك المودة والحميميّة السابقة إلى مركز الصداقة وقلبها. لا شك بأنّ أثر هذا العمل هو أكبر بكيثر من إعانته الماليّة. وعلى أيّ حال، هناك موارد مختلفة وكثيرة لا يمكن حلّها ومعالجتها بواسطة المال، بل يكون هناك تدابير أخرى مساعدة. على سبيل المثال، لا يمكن أبدًا مقارنة إظهار المودّة والإحسان تجاه الصديق بالخدمات الماليّة. وفي الواقع، إنّ هذه الأعمال تُعتبر من باب الفضل والإحسان، وفي المقابل يُعدّ الإحجام عن مثل هذه الأمور نوعًا من الكسل والتقصير. ويقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المجال: «**وَلاَ عَلَى التَّقْصِيرِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْفَضْلِ**».

أين العفو وأين الانتقام؟





ما قيل لحدّ الآن هو في الواقع قضايا ترتبط بالعشرة والمحافظة على علاقات الصداقة والأخوّة. والآن نقوم بدراسة وبيان المسؤوليّات الإنسانيّة والإسلاميّة في حال خمود الصداقات وضعف الأخوة. قد تحصل بعض الظروف التي يواجه فيها الإنسان من صديقه شيئًا من عدم الوفاء أو حتى الظلم، فما الذي ينبغي أن يقوم به الإنسان في مجال العشرة والصحبة في هذه الظروف وما هي المسؤوليّات الإنسانيّة الملقاة على عاتقنا هنا؟

في الحالة الطبيعيّة، يكون الإنسان حسّاسًا تجاه من يريد تجاوز حقّه وسحقه. إنّ وجود هذه الروحيّة في الإنسان لا إشكال فيها بل هي مفيدةٌ أيضًا. فلو كان الإنسان عديم الاعتناء والمبالاة تجاه الظلم الذي يُمارس ضدّه، ويسمح للآخرين أن يظلموه ويرتكبوا الظلم بحقّه فلن يكون في الحياة الدنيا وفي الأمور الأخرويّة أي نجاح وتوفيق. لا شكّ بأنّ الإنسان لا ينبغي أن يقبل بالظلم، لكن قبول الظلم أو عدمه في مجال الصداقة له شكلٌ آخر. فلو ظلمك شخصٌ غريب يجب أن تردّ عليه بطريقةٍ مناسبة، ولكن إذا ظلمك الصديق فإنّ الردّ ينبغي أن يكون مختلفًا. فحين يظلمك صديقك لا ينبغي أن تسارع إلى ردّ الفعل من دون تأمّل وتفكّر، فربما يكون تحمّل الظلم الوارد من الصديق ذا آثارٍ إيجابيّة في بعض الحالات ولهذا يُوصى بذلك.

بشكلٍ عام، إنّ من القضايا المطروحة في الأخلاق الاجتماعيّة الردّ على الاعتداء والظلم الذي يقع في دائرة الصداقة، فهل يجب مواجهة هذا النوع من التصرّفات بالمثل؟ وهل ينبغي التشدّد والعبوس والانتقام؟ أم أنّه ينبغي الغضّ والتجاوز والصفح وعدم المبالاة؟! وفي أحكام الشرع المقدّس يُطرح نوعان من السلوك، ولكن لكلٍّ منهما موقعيّته ومقامه الخاصّ. ففي أجواء الصداقة ومقام الأخوّة يتمّ التوصية والعفو والتجاوز والصفح: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]، ألا تحبّون أن يغفر الله لكم؟ فمثلما أنّكم تتوقّعون أن يصفح الله عنكم فاصفحوا واعفوا عن الآخرين. هذه الآية تبيّن بوضوح أهمية العفو والصفح،

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١٣.





ولكن هناك موارد يجوز فيها بل يُوصى فيها بالمعاملة بالمثل[١]، لا سيّما إذا كان الاعتداء من جانب أعداء الدين، فلا ينبغي الخضوع ها هنا.

على أيّ حال، يوجد في هذا المقام الكثير من النقاش حول: أين يكون العفو أفضل، وأين يكون الانتقام والمعاملة بالمثل أفضل؟ وهل أنّه بمجرّد أن يظلمنا شخصٌ ما، علينا أن نقتصّ منه ونسترجع حقوقنا؟ وهل أنّ مسؤوليّتنا والعمل الأفضل، حين يرتكب شخصٌ ظلمًا ما ويعتدى على أموال وأعراض الآخرين، هو أن نغفل عمله القبيح هذا ونغضّ الطرف عنه، أم أنّ علينا أن نُقابله بالمثل وننتقم منه ونأخذ حقّنا في كلّ الأحوال؟ لعلّنا نصل إلى هذه النتيجة من خلال تحليل الآيات والروايات الواردة في هذا المجال وهي أنّ القاعدة الكليّة من الناحية الحقوقيّة والقانونيّة تفيد في أنّه إذا ارتكب أحدٌ ظلمًا ما، فإنّ للمظلوم حقّ المعاملة والمقابلة بالمثل، لكن هذا الكلام يرتبط بالقضيّة القانونية، أمّا في المسائل الأخلاقية فلا وجود لمثل هذا الحكم بل إنّه من الناحية الأخلاقيّة وبحسب الموارد تتغيّر وظيفتنا.

هناك بعض الحالات التي ينبغي فيها الغضّ عن الشخص الذي يرتكب ظلمًا ولا ينبغي السعي لإحقاق الحقّ، فلربما بهذا الفعل نجرّئ الطرف المقابل على تكرار ظلمه تجاه هذا الشخص نفسه، وكذلك على ظلم الآخرين.

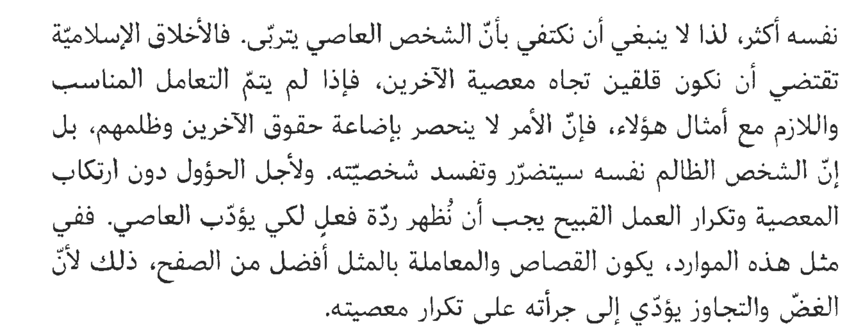
ومن جانبٍ آخر، قد يكون الصفح أحيانًا سببًا لجُرأة الطرف الآخر، فإذا لم نواجه ظلمه بالمثل سيتجرّأ ويُعيد ارتكاب هذا الفعل. وهنا، يجب على الإنسان وتحت عنوان النهي عن المنكر أو التأديب أن يُظهر ردّة فعل. صحيحٌ أنّكم تستطيعون أن تكونوا من أهل الصفح ومن أهل العفو وأن تتجاوزوا عن حقّكم، لكن مثل هذا الفعل هنا لن يكون صحيحًا لأنّه سيجرّئ مَن ظلم على تكرار المعصية، فينبغي أن نُظهر ردة فعل مناسبة لكي لا يكرّر هذا الفعل ولا يسمح لنفسه أن يتصرّف مع الآخرين بالطريقة نفسها.

ومن جانبٍ آخر، يجب الالتفات إلى أنّه حين يضيع الحقّ فمعنى ذلك أنّ حقًا لله تعالى قد استُبيح؛ أي إنّ هذا الشخص العاصي في الحقيقة قد ظلم

---

(١) كقوله تعالى: ﴿واعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا عليكم﴾.





نفسه أكثر، لذا لا ينبغي أن نكتفي بأنّ الشخص العاصي يتربّى. فالأخلاق الإسلاميّة تقتضي أن نكون قلقين تجاه معصية الآخرين، فإذا لم يتمّ التعامل المناسب واللازم مع أمثال هؤلاء، فإنّ الأمر لا ينحصر بإضاعة حقوق الآخرين وظلمهم، بل إنّ الشخص الظالم نفسه سيتضرّر وتفسد شخصيّته. ولأجل الحؤول دون ارتكاب المعصية وتكرار العمل القبيح يجب أن نُظهر ردّة فعلٍ لكي يؤدّب العاصي. ففي مثل هذه الموارد، يكون القصاص والمعاملة بالمثل أفضل من الصفح، ذلك لأنّ الغضّ والتجاوز يؤدّي إلى جرأته على تكرار معصيته.

أمّا إذا قابلناه بالمثل، وخصوصًا إذا وقفنا بوجه عمله القبيح في بداياته، فإنّه لن يتجرّأ وسيستيقظ. وربما يعتبر الآخرون حين مشاهدة ردّة الفعل هذه، فلا يعودوا يسمحون لأنفسهم بالاعتداء على حقوق الآخرين.

وهناك حالاتٌ أيضًا، لا تصلح المعاملة بالمثل والانتقام الشخص فحسب، بل تؤدّي به إلى الإصرار على فعله السيّئ والقبيح وإلى ازدياده كمًّا وكيفًا، كما يزداد عنفه ويتضاعف سوء ظنّه وعداوته. لهذا، فإن الغضّ هنا يكون أفضل، لأنّه لن يصلح على أيّ حال، لذا من الأفضل ألّا نزيد من عدائه وخصومته. وفي النتيجة، إنّ على الإنسان في بعض الحالات والموارد أن يغضّ النظر عن حقّه من أجل أن يقف أمام مفسدةٍ ويمنع من نماء الفساد وانتشاره. وقد يكون استيفاء الحقّ سببًا لتأديبه ويعلّمه الأسلوب الصحيح للتعامل مع الآخرين.

كما أنّ العفو في بعض الحالات سوف يُصلح الطرف المقابل، وذلك حين يطّلع على قبح فعله ويخجل. فلو قابلتم فعله السيّئ الذي ارتكبه بالإحسان فسوف يتنبّه ويستيقظ. وقد تمّ التأكيد في **القرآن الكريم** على الأسلوبين. يقول تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]؛ وهي دعوة إلى مقابلة الفعل السيّئ بالعمل الحسن، حتّى تخمد عداوة الطرف المقابل وخصومته على أثر هذا العمل الجميل فتزول. وقد يؤدّي مثل هذا التصرّف إلى تبديله إلى صديقٍ حميم. وقد يُصبح تعاملكم سببًا أو عاملًا مؤثّرًا جدًّا في إصلاح الفرد والمجتمع إذا غضّيتم عن الظلم الذي لحق بكم أو حتى وجدتم

---

(١) سورة **فصّلت**، الآية ٣٤.

لهذا الظالم عذرًا وسعيتم إلى خيره وصلاحه. فعلى سبيل المثال، إذا كنتم بصدد إيجاد مبرّرات وأعذار له، فإنّكم تظهرون الأمر على هذا النحو: «إنّني أعلم أنّك قد أجبرت على القيام بهذا العمل تحت وطأة ظروفٍ خاصّة، وإلّا فأنت لست براضٍ عن فعلك». أو إذا قلتم حين يُعلن أنّه ارتكب عملًا سيّئًا: «ليست القضيّة بشيء، ولم يحدث أمر مهمّ، إنّنا نعلم أنّك واقع تحت ظروفٍ خاصّة وقد أُجبرت على فعل هذا الأمر، وهذا العمل هو مجرّد حادثة عابرة، وإلا فإنّ مثل هذه الأفعال لا تصدر من شخصٍ مثلك». وعلى أيّ حال، فبتصرّفكم الحسن وحُسن تعاملكم وتدبيركم ومعاشرتكم من الممكن أن يندم الطرف المقابل عن فعله القبيح والسيّئ. فلا شكّ أنّ العفو في مثل هذه الحالات أفضل.

ظلم النفس

لا شك بأنّ العفو أفضل من الانتقام والمعاملة بالمثل. بالطبع، هناك مسؤوليّات أثقل فيما يتعلّق بالأصدقاء، فإنّ رؤية الظلم يصدر من صديق هو أمرٌ أكثر مرارة من جفاء الآخرين؛ كما إنّ حساسية الإنسان تجاه رفيقه هي أكثر، ولهذا يُقال إنّ الطين الذي يأتي من جانب الصديق هو أكثر إيلامًا من الحجر الذي يرميه العدوّ. والآن إذا أردت أن أردّ بشكلٍ إيجابي على سلوك صديقي غير اللائق، ومن جانبٍ آخر أقنع نفسي وأطمئنها ما هو السلوك المناسب؟ وكيف ينبغي العمل؟ في هذا المجال، يقول علي عليه السلام: «فكّر في نفسك هل أنّ الذي يظلمك، يقصد أن يضرّك أو يضرّ نفسه أكثر؟» فهو بهذا العمل، يكون قد عصى، وبهذه المعصية تؤدّي إلى عدم رضا الله عنه، وسيكون مستحقًا للعذاب الإلهيّ. وعلى أيّ حال، هناك عوارض وتبعات عديدة تترتّب على عمله، ومنها إنّ الله تعالى لا يهمل هذا الفعل، وإنّه قد أعدّ الجزاء للذين يظلمون الآخرين في هذه الدنيا نفسها، بالاضافة إلى أنّ هذه المعصية ستكون سببًا لعذابه في الآخرة.

وبالنظر الدقيق، نُدرك أنّه في الوقت الذي ارتكب فيه ظلمًا قليلًا بحقّك، يكون قد ارتكب ظلمًا كبيرًا بحقّ نفسه. وقد ظلم نفسه أكثر بكثير ممّا أضرّك. فلعلّه سلب منك رأسمالًا أو ثروة معيّنة أو أنّه قلّل من احترامك نوعًا ما، لكن كل هذه الأشياء هي أمور جزئيّة وعابرة وقد تتناساها بعد مدّة، في حين أنّه بسبب هذا الفعل يكون قد عصى وسيبقى أثر معصيته هذه إلى يوم القيامة. وما لم تعفو

عنه، فإنّ الله تعالى لن يرضى عنه ولن يعفو عنه. بناءً عليه، فإنّه في الواقع يكون قد أضرّ نفسه أكثر من الإضرار بك، ومن جانبٍ آخر فقد تهيّأت الأرضيّة لتنال ثوابًا عظيمًا فيما إذا تجاوزت عنه وصفحت، لأنّك بسبب هذا العفو الذي ستمنحه إيّاه تُدرك الثواب.

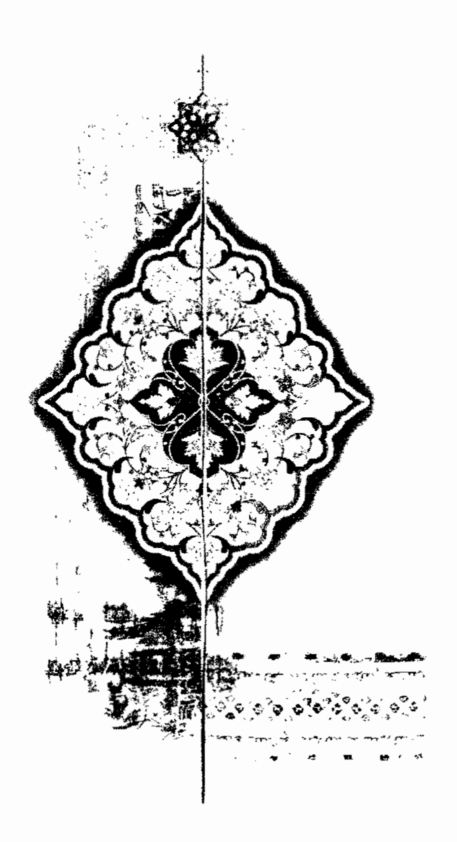
بناءً عليه، لقد هُيئ لك أرضيةً للربح بفعله ذلك وأضرّ نفسه حتمًا. فلو كنت تتصوّر الأمور بشكلٍ صحيح ستلتفت إلى أنّ الإنسان حين يظلم فهو في الواقع يضرّ نفسه أكثر ويهيّئ لكم المجال للاندفاع وبهذه الحسابات البسيطة، فإنّ العفو عن مثل هذا الشخص سيكون أسهل. أمّا لو كان الأمر معاكسًا وتصوّرت أنّ هذا الشخص خسيسٌ، وقلت كيف يُقابل خدماتي رغم كل سنوات الصحبة بهذه الطريقة، واعتبرت في ذهنك أنّ فعله هو عداءُ وخصومة كبيرة، وكبرّت الأمور وضخّمتها فلن تصل أبدًا إلى أي ثمرة، ولعلّك بذلك ستخطئ أيضًا. فقبل هذه التصوّرات الواهية والطفوليّة يجب أن تفكّر أنّه بفعله هذا قد ظلم نفسه ظلمًا كبيرًا وارتكب معصيةً وأوقع آخرته بالخطر؛ وثانيًا، قد هيّأ لك فرصةً مهمّة لتستفيد منها وتعفو وتنال بذلك ثوابًا عظيمًا لأنّك بعفوك وصفحك تُؤجر.

بالطبع، لا يُفهم من هذا الكلام أنّ على الإنسان أن يكون ممّن يقبل الظلم. فحين يكون الظلم ظلمًا اجتماعيًا لا ينبغي المرور عليه مرور الكرام، وعلى الإنسان أن يواجه الظلم ويتعامل بشدّة مع الظالمين وأولئك الذين يظلمون المجتمع الإسلاميّ، وبالأخص الدين. أمّا فيما يتعلّق بالقضايا الشخصيّة، فإذا أنا أو أنت قد ظُلمنا بشكلٍ شخصيّ ولم يكن في العفو والتجاوز مفسدة، فعلينا أن نتعامل مع هذا الموقف بالعفو والتسامح. ولأنّ المجال النفسيّ للعفو والتجاوز قد تهيّأ، أشرنا أنّه ينبغي أن نفكّر بهذه الطريقة: «**ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك**»، فلا تجعل هذا العمل كبيرًا في نفسك، بل اعمل على تصغير مثل هذا العمل القبيح الذي صدر منه والتقليل من أهمّيته ولكن كيف ذلك؟ كيف ينبغي العمل حتى يظهر ظلم الآخرين صغيرًا في نظرنا؟ يقول الإمام علي عليه السلام: «**إنّما يسعى في مضرّته ونفعك**»؛ فحين تفكّر بهذه الطريقة وتنظر من هذه الزاوية إلى القضيّة، فسوف تبقى في أمانٍ من تبعات أفعال الآخرين، ويمكنك أن تصفح عن ظلمهم وأفعالهم القبيحة بسهولة. فاحذر من أن يتضخّم فعله في ذهنك ويظهر لك كبيرًا جدًّا، لأنّه في هذه الحالة سيؤدّي إلى العداوة والكثير من المشاكل اللاحقة.

وفي نهاية هذا القسم، يذكّرنا الإمامعليه‌السلام بحكم أخلاقيّ واجتماعيّ آخر ويقول: «**ليس جزاء من سرّك أن تسوءه**». يجب علينا أن نقدّم الجزاء المناسب لأولئك الذين يخدموننا وعلينا أن نحذر من إغفال خدمات أصدقائنا فنردّ على حسناتهم بشكلٍ سيّئ ولا نقابل أفعالهم الجميلة بالجزاء المناسب فما أكثر ما يصدر منّا من تقصير.







الدرس السابع والثلاثون

أنواع الرزق

- التقدير والقضاء الإلهيّ
- التّأثير التربويّ للقضاء والقدر
- التقديرات والتكليف الشرعيّ
- التوازن الروحيّ في تحوّلات الدهر



«وَالرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الدَّهْرَ ذُو صُرُوف فَلاَ تَكُنْ مِمَّنْ يَشْتَدُّ لاَئِمَتُهُ وَيَقِلُّ عِنْدَ النَّاسِ عُذْرُهُ، مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءُ عِنْدَ الْغِنَى».

وصلنا في شرح وتبيان رسالة أمير المؤمنين علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام إلى هذا المقطع حيث يقول: «**وَالرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ**». يتأسس هذا القسم من الوصية على أحد الأبحاث الاعتقاديّة التي تمّ التأكيد عليها كثيرًا في **القرآن الكريم** وفي روايات أهل البيت عليهم السلام. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ هذا المقطع من الوصية هو من النتائج العمليّة لهذا البحث الاعتقاديّ الذي يقول: إنّ الله تعالى قد قسّم لكلّ واحدٍ من عباده رزقًا خاصًّا، لهذا سنبدأ أوّلًا بشرحٍ موجز لهذا الأصل الاعتقاديّ، ثمّ نحللّ النقاط العمليّة لهذا الأصل الاعتقاديّ.

التقدير والقضاء الإلهيّ

إنّ من التعاليم الدينيّة المسلّمة عندنا هي أنّ الله تعالى قد قدّر لكلّ موجودٍ رزقه، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1]. وفي الواقع، إنّ هذه النقطة الاعتقاديّة هي الأثر المباشر للحكمة الإلهيّة. ومن لوزام الحكمة الإلهيّة هي أنّ الله يخلق كائنًا ما ويهيّئ له ظروف الحياة وشروط البقاء. وإذا كان المقرّر أن يخلق الله بعض الكائنات ولا يهيّئ لها ظروف الحياة، فإنّ خلقه لعباده سيكون لهوًا

(١) سورة **هود**، الآية ٦.

وعبثًا، وهذا ما لا ينسجم مع الحكمة الإلهيّة. فمقتضى الحكمة الإلهيّة أنّه إذا خلق الله كائنًا ما، فإنّه في البداية يُعدّ له حاجاته الأساسيّة في الحياة. فكلّ موجودٍ خلقه الله في أي بقعة كانت في العالم، سيهيّئ له شروط حياته في ذلك المكان. ومن جملة ذلك، حاجات الناس الذين يعيشون في مختلف أنحاء العالم، والتي تكون على شكل نبات وحيوان وجماد. فالذي يُخلق في المنطقة الاستوائيّة لن يكون طعامه في القطب الشماليّ ذلك لأنّ مثل هذا الفعل لغوٌ وعبث ولا ينسجم مع حكمة الله. فكلّ إنسانٍ أو حيوانٍ في أيّ منطقةٍ وُجد، ينبغي أن تتوفّر له إمكانات بقائه وحياته في تلك المنطقة. والاعتقاد بمثل هذا الأصل يُعدّ من لوازم الاعتقاد بحكمة الله.

إنّ الله قد قسّم رزق جميع الموجودات ضمن تقديرٍ كليّ، بما يشمل الإنسان والحيوان. وفي الواقع، إنّ الله تعالى قد خلق الأرض بشكلٍ تتمكّن فيه الكائنات المختلفة من الاستمرار في الحياة، وأعدّ لكلّ مخلوقٍ رزقًا خاصًّا به في مكان عيشه. فجميع هذه الأمور هي من مقتضيات الحكمة الإلهيّة، حتى لو احتاج كلّ واحدٍ منهم نوعًا محدّدًا من الرزق، فإنّ الله يوفّر له هذا الرزق الخاصّ. وقد يبرز في الذهن ها هنا سؤالٌ وهو: إذا كان الله تعالى قد قدّر لكلّ واحدٍ من الناس والكائنات الأخرى رزقًا خاصًّا به، فلماذا يجب على كلٍّ منهم أن يسعى للحصول على رزقه الخاص من بين كلّ هذه الأرزاق؟ وإذا كان الله قد قدّر رزقًا خاصًا لكل فردٍ، فإنّ سعينا إذًا سيكون غير مطلوبٍ بل عبثيّ، لأنّنا سنسعى لكسب رزقٍ مقدّر لنا وسيصلنا؟ والسؤال الأساسيّ هو: هل إنّ القضاء الإلهيّ الحتميّ يتنافى مع اختيار الإنسان؟

الجواب الإجمالي عن هذا السؤال هو أنّ اختيار الإنسان هو أحد أسباب ذلك التقدير الإلهيّ. فالله سبحانه قد قدّر الأمور بنحو سعي هذا الشخص إلى ذلك الرّزق الخاصّ من خلال هذه القناة الخاصّة فيصل، وما لم يبلغ أجله فسوف يكون هذا المقدار المعيّن من نصيبه. فالتقدير الإلهي لا يتنافى مع السعي والجهد الذي يبذله الفرد، لا بل يتحدّد بواسطة سعيه وسلوكه. وفي الواقع، إنّ التقدير هو أن ينال هذا المقدار المعيّن من الرزق بواسطة هذا النوع الخاصّ من السعي. وهذا الكلام هو جوابٌ كليّ يمكن تطبيقه على جميع موارد التقدير والقضاء الإلهيّين.



هناك موردٌ آخر من مصاديق القضاء والقدر والتقدير الإلهيّ، هو الأعمال التي نقوم بها. فعلى سبيل المثال، لو قام شخصٌ بدهس شخصٍ آخر بسيّارته، وأدّى هذا الحادث إلى بتر عضوٍ من أعضائه أو مات لا سمح الله، فهل يمكن أن نقول إنّه لا يوجد هنا من مقصرٌ وأنّ هذه كانت قسمته وقُدّر له أن يصطدم بسيّارةٍ ويرتحل عن هذه الدنيا؟ أجل، لا شك بأنّ مثل هذه التبعات كانت مقدّرة، لكنّ هذا الحادث قد وقع بواسطتكم، فمخالفتكم لإرشادات السير وقوانين القيادة هي التي أدّت إلى وقوعه. لقد أخطأتم وقدتم السيّارة من دون انتباهٍ كافٍ فتسبّبتم بموته. فمن ناحية هو تقديرٌ، ومن ناحية هو بسبب اختياركم، ولا تنافي بين هذين الأمرين. ففي معرض الإجابة أيضًا نقول إنّ هذا الكلام الكلّيّ ينطبق على التقدير الإلهي كما ينطبق على سعي الأشخاص، ولا يتنافى مع الاختيار. إنّ سعي الأفراد واختيارهم يُعدّ من التقدير، وهو من مصاديق تلك القاعدة الكلّيّة للرزق المقدّر، الذي تمّ التأكيد عليه كثيرًا في الروايات.

من جملة التقديرات أيضًا، الأجل وتحديد الحياة. فلكلّ إنسان مدّة معيّنة من الحياة على هذه الأرض قد قُدّرت وقُسمت. ومن التقديرات الأخرى، الصحّة والمرض، والتي ذُكر بشأنها روايات عديدة. كنموذج نشير إلى كلام إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في جوابه على سؤال نمرود: «من ربّك؟ فأجاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[1]. فقد استخدم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه العبارات في مقام تعريف الله، وقال إنّ الله هو الذي يبثّ الحياة ويميت، وهو الذي يشفي من المرض ورزقي بيده. على أيّ حال، فقد ذُكرت هذه الموارد على وجه الخصوص في الروايات وعُدّت من التقديرات، ولكن ينبغي أن نلتفت إلى أنّ تعداد هذه التقديرات لا يعني أبدًا إجبار الإنسان وسلبه الاختيار والمسؤوليّة. ولأجل الدخول في الأبحاث المطلوبة، يكفي هذا المستوى من الشرح والتفسير. ولأجل المزيد من التعمّق والاطّلاع في هذا المجال يمكن مراجعة الكتب الاعتقاديّة والكلاميّة والفلسفيّة والتفاسير القرآنيّة والكتب التي أُلّفت في شرح وتفسير روايات التقدير، وكذلك كلمات الأعاظم في شرح معضلات الأخبار.

---

(١) سورة **الشعراء**، الآيات ٧٩-٨١.

التأثير التربويّ للقضاء والقدر





ما هو مهمٌ بعد هذه التوضيحات الموجزة هو علّة هذه البيانات، أي لماذا تمّ بيان هذه التقديرات في القرآن والروايات والتأكيد عليها؟ مثلًا لماذا قال الله سبحانه إنّ كل مصيبةٍ تنزل بكم هي تقدير إلهي: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1]. فلماذا يتّم التأكيد كثيرًا في هذه المسائل والموضوعات الأخرى على أنّ هذه الأمور هي من جانب الله تعالى من حيث التعيين والقضاء، وأنّ القضاء والقدر الإلهيّين شاملان لها؟ فأيّ سرٍّ في التأكيد على بعض الأمور فقط، في حين أنّ كلّ الأشياء هي تحت قلم التقدير الإلهيّ؟

والجواب هو أنّ هذا النوع من الآيات والروايات هو بصدد إيجاد وترسيخ المعرفة التوحيديّة في الإنسان. وكمال الإنسان يقتضي أن يعرَف الله بصورةٍ أفضل. وحين نعرف التوحيد الذاتيّ والتوحيد في العبادة والتوحيد الأفعاليّ، فإنّ توجّهنا إلى الله سيزداد. ومن مصاديق التوحيد الأفعالي هو أن نعتبر أنّ تدبير أمور المخلوقات بيد الله تعالى. وكلّما كان اطّلاعنا على هذه الأمور أكثر وأفضل، وعلمنا أنّ يد الله حاضرةٌ وموجدةٌ في كلّ هذه الأشياء، فإنّ توجّهنا إلى الله سيزداد في جميع مراحل الحياة. فإذا علمنا أنّ حياتنا في كلّ آناتها ولحظاتها بيد الله، وأنّ رزقنا بكلّ تفاصيله تحت تدبيره، وأنّ كلّ مقدراتنا قد عيّنها سبحانه، فإنّ هذا سيؤدّي إلى أن نتوجّه إلى الله المنّان بشكلٍ دائم. وبمقدار ما تتكامل معرفتنا به، يزداد رشدنا وكمالنا المعنويّ، لأنّ كمال الإنسان مرتبط بمعرفة بالله وصفاته وأفعاله.

إنّ معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله، بالإضافة إلى كونها كمالًا علميًّا ومطلوبةٍ على وجه الخصوص، فإنّ لها آثارًا عمليّة أيضًا. فما ذُكر في الآيات والروايات هو في الأغلب لأجل ترسيخ مثل هذه المعرفة، التي تمّ التأكيد عليها كثيرًا في بعض الموارد. ومثل هذه التأكيدات تتضاعف في تلك الروايات التي تكون في مقام الوعظ. ففي هذه الوصيّة أيضًا، وبعد بيان تلك المواعظ العمليّة، يقول

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٢.



أمير المؤمنين عليه السلام: افعل كذا ولا تفعل كذا وعامل أصدقائك هكذا وعائلتك وغيرها من التوصيات، والآن يقول «الرزق رزقان». وهنا، يُطرح سؤالٌ مهم هو أنّه لماذا انتقل الإمام عليه السلام من ذكر تلك الأحكام العمليّة والمواعظ، إلى بيان هذا الموضوع الذي يرتبط بكون الرزق على نحوين «**رزقٌ تطلبه ورزقٌ يطلبك**» حتى «**فإن لم تأته أتاك**».

لإدراك الإجابة عن السؤال المذكور، ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّنا في حياتنا نواجه بنحوٍ أو بآخر، مجموعة من الحاجات الماسّة التي تصاحبها مشكلات جمّة، وفي هذه الحالة التي نواجه فيها هذه المشاكل ولا نتمكّن من الخلاص منها ولا نجد الإمكانات والوسائل اللازمة لحلّها، نجد أنّ الله قد هيّأ وسيلةً من حيث لا ندري وإذ بتلك المشكلة تُحلّ. لا شكّ أنّ كلّ واحدٍ منّا قد خبُر نماذج كثيرة من هذه الحالات في حياته حيث سارعت يد العناية الإلهيّة إلى نجدته من تلك الظروف الصعبة والمجهدة وأوصلت إليه رزقه عن طريق لا يخطر على باله. وهذه الوقائع توجّهنا إلى نقطةٍ أساسيّة، وهي أنّه لا تظنّوا بأنّ العامل الوحيد المؤثّر في تحصيل الرزق هو سعيكم الفرديّ وأنّ الإنسان إذا أراد أن يستفيد أكثر في حياته فعليه حتمًا أن يكون شديد الحرص على السعي، وبحسب القول المعروف يدقّ باب هذا وذاك، بل إنّه بالإضافة إلى سعيكم هناك عنصرٌ آخر مؤثّر في كسب الرزق، وهو الذي يقول الكلمة الفصل. أنتم تتصوّرون أنّه كل من كان سعيه أكثر، كان تنعّمه بالحياة أكبر! فلا تتصوّروا بأنّ الوصول إلى الرزق وإلى متاع الدنيا منحصرٌ بسعيكم، فتحرصون على السعي وتفرطون في بذل الجهد، اعتمادًا على هذه الفكرة الباطلة. هذه هي روحيّة عبّاد الدنيا والمبتلين بها، فإنّ كل همّ هؤلاء هو تأمين حياة مادّيّة أفضل، وتحصيل رفاهيّة البدن. فمثل هؤلاء البشر ليسوا سوى موجودات حريصة لا تشبع، قد غسلت أيديها من أداء التكاليف الشرعيّة الواجبة من أجل تأمين الحياة الدنيا وأعرضت عن الآداب الأخلاقيّة والعشرة الإنسانيّة ولا يهمّها سوى الركض وراء المزيد من المال.

ومن الواضح أنّ هذه الروحيّة والذهنيّة مضرّتان جدًّا لجميع الناس، وخصوصًا للمسلمين، وبالأخصّ لمسؤولي الدولة الإسلاميّة. فبوجود مثل هذا النمط من التفكير، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى أهداف الحياة الكبرى. فلو ابتليّ طالب العلم بهذه الأفكار مثلًا فإنّه لن يجد فرصةً للدراسة.

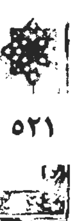


فلعلّ سبب التوجيه إلى أنّ الرزق لا يكون دائمًا على أثر السعي الشخصيّ وأنّ الله هو الذي يوصل الرزق، هو من باب ألّا يعيش الإنسان حياة الحرص. ففي الواقع، إنّ هذه التوصية هي لأجل منع مثل هذه الحياة الممتزجة بالطمع، ولأجل إيجاد روحيّة التوكّل وتقويتها في الإنسان. فإذا أردنا أن نذكر في هذا المجال نماذج واقعيّة، فإنّنا سنجد الكثير من النماذج الجميلة، ولعلّكم جميعًا جرّبتم هذه الأمور أو سمعتم قصصًا في هذا المجال وقرأتم أنّ هناك أشخاصًا، ومن دون أدنى سعي، قد وصلوا إلى امتيازات في الحياة الدنيا لا يمكن الوصول إليها مع آلاف السنين من السعي.

بالطبع، لا حاجة للتذكير بأنّ اكتساب الرزق لا ينحصر في تأمين حاجات البطن، بل إنّ كل ما يدور حول الحياة في هذه الدنيا، ويكون مورد احتياج الإنسان، يُسمّى رزقًا؛ مع الالتفات إلى أنّ رزق كلّ إنسان لا يتأمّن دائمًا وأبدًا في ظلّ سعيه، وهذا ما يؤدّي إلى أن يكون للإنسان حياةٌ متوازنةٌ، في علاقته مع الآخرين وفي الحياة، فلا يعمل بحرصٍ لأنّه يعلم أنّ سعيه ليس علّةً تامّة لكسب الرزق وتحصيل المعاش. فقد يسعى، لكنّه لا يصل إلى نتيجة. وفي بعض الأحيان، لا يسعى، فيأتيه رزقه من حيث لا يحتسب؛ وفي أحيانٍ أخرى قد يسعى كثيرًا لكنّه لا يصل إلّا إلى شيء قليل من متاع الدنيا.

ومن جانبٍ، فإنّ تأثير الوسائل هو عاملٌ آخر. فقد يتمّ تهيئة أنواع الوسائل والخطط والمشاريع، وتحصل التوصية هنا وهناك، ولكنّه في النهاية وبدل أن ينال نفعًا يخسر ما لديه. فلو نزل الإنسان إلى الميدان واعتمد على حساباته فقط ولم يتوكّل على الله، فإنّه في حال الفشل والخسارة سيُصاب بالإحباط الشديد؛ ومثل هذه الحالة ستكون سببًا لضرره من الناحية الروحيّة والنفسيّة، وقد تؤدّي إلى موته من الناحية الجسميّة. أولئك الذين يعملون اعتمادًا على سعيهم الشخصيّ ووفق حساباتهم الشخصيّة وتقديراتهم فحسب، فإنّهم إذا لم يصلوا إلى نتيجة بعد السعي يفقدون توازنهم الروحيّ والنفسيّ.

خذوا بعين الاعتبار شخصًا يسعى ويتعب لسنوات، معتمدًا على حساباته الشخصيّة دون التوكل على الله، من أجل الزواج بشخصٍ ما، وقد هيّأ مقدّمات هذا العمل، فإذا تلقّى جوابًا سلبيًّا بعد سعي كل هذه السنوات سيُحبط ويُبتلى بمشاكل روحيّة وأزمات نفسيّة وجسميّة، حتى من الممكن أن تعرض عليه حالات



نفسيّة غير متوازنة. أمّا إذا التفت إلى أنّ رزق كل إنسانٍ مقدّر وأقدم على هذا العمل وفق هذا الاعتقاد، فإنّه لن يُبتلى أبدًا بالأزمات والحالات غير الطبيعيّة ولن يُصاب بالإحباط. فحين يتقبّل الإنسان أنّ ما حصل عليه من قسمة، إنّما كان وفق تقدير حكيم، وإنّه يحدث بعيدًا عن تصرّف الآخرين وتدخّلهم، وهو منحصر بيد التدبير الإلهيّ وأنّه لا شك بوجود حكمةٍ في هذا العمل، فإنّه لن يُصاب بتلك العوامل السلبيّة. فهذا الإنسان يعتقد أنّ الله المنّان لم يقدّر هذا الأمر بلا سبب، فلعلّ جبران الضعف أو تكفير الذنوب والمعاصي أدّى إلى أن يكون هذا الحرمان من نصيبه. فلعلّ التكفير عن معصيةٍ ما يؤدّي إلى أن يتحمّل الإنسان خسارات اقتصاديّة في هذه الدنيا، بدل أن يُبتلى بالعذاب في عالم البرزخ ويوم القيامة، فتكون هذه الخسارة أيضًا وفق الحكمة، وناشئة من رحمة الله لعبده.

على أيّ حال، فإنّ الله هو الذي أمّن مثل هذه الظروف من أجل التكفير عن المعاصي، فتصبح بعض هذه الخسائر والإحباطات أرضيّة مناسبة للمزيد من التكامل المعنويّ؛ حتى يصبر الإنسان في ظلّ هذه الظروف، ويزداد توجّهه إلى الله ويظهر من خلال العمل أنّه عبد الله ويرضى لرضاه؛ وإن كان رضاه في الحرمان من الرزق والمطالب الدنيوية. وفي الواقع، إنّ الحرمان من المطالب والرغبات يؤدّي إلى إيجاد حالات قيّمة جدًّا في الإنسان ونيل مقامات روحيّة عالية. ولعلّ عدد الذين وصلوا إلى المقامات العليا على أثر الصبر على المصائب لا يقلّ عن أولئك الذين وصلوا إليها على أثر العبادات. وجميع هذه الوقائع، التي منها ما هو حلو ومنها ما هو مرّ، تجري وفق حكمة، والله سبحانه يقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[1]. فكل مصيبة تنزل بكم كانت مرتبطة بكم مباشرةً أو بالمحيطين بكم، كلّها مقدّرة وفق التقدير الإلهيّ. ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ كانت سيلًا، أو طوفانًا أو زلزالًا، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أو مرتبطة بشخصكم، كالأمرض والموت وفقدان الأعزّاء، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، فهي من قبل أن تتنزل وتظهر في هذا العالم، موجودةٌ في كتابٍ وحساب، ولكن لماذا؟ فهل أنّ الله يريد أن يؤذي بعض عباده من دون سبب؟

لهذه الأمور نفسها أسبابٌ وحكم وإن كان من الممكن أن لا نعرف عنها شيئًا،

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٢.



لكنّ جهلنا بالعلل التي تقف وراء هذه الظواهر لا يعني أبدًا أنّها فاقدةٌ للسببيّة والحكمة. إنّ الالتفات إلى كون جميع هذه الأمور بيد التدبير والتقدير الإلهيّين، يؤدّي إلى طمأنينة الإنسان وهدوء باله وعدم اضطرابه وشكايته وفقدانه للإيمان. الكثير من الناس يفقدون إيمانهم عند الابتلاء بالمصائب وعدم التوجّه إلى هذه السنّة الإلهيّة؛ فيقول هؤلاء في أنفسهم لو أنّ لهذا العالم ربٌّ حكيم لما خلق مثل هذه الحوادث ومثل هذه المفاسد والأشياء المحبطة وكل هذا الحرمان. فهم يتصوّرون أنّ وجود مثل هذه الأمور المزعجة والأحداث المخالفة للطبع والتي تكون بحسب الظاهر مفسدة، هو دليل على كون الإله غير عالم وعلى عدم تدبيره جلّ جلاله، لكنّنا إذا التفتنا سنُدرك أنّ جميع هذه الأمور، القَبيح منها والجميل، ذات عللٍ وحكم، وإن كان البعض منّا لا يفهم أسبابها ولا يطلّع عليها. حتى لو لم نُدرك من هذه الأسباب ذرّةً واحدة، ولكنّنا كنّا نعتقد بأنّ الله الحكيم يدبّر كلّ هذه الأمور، فإنّ هذا الاعتقاد نفسه سيحفظ إيماننا، بل وسيزيد منه. من هنا، يشير الله تعالى في ذيل هذه الأمور إلى نتيجتين عمليّتين لهذا الاعتقاد ويقول: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1]. فلقد بيّنا لكم هذه التقديرات ونبهناكم على أنّ كل هذه الأمور تجري وفق التقدير الإلهي وذلك حتى لا تفقدوا إيمانكم فيما لو ابتليتم يومًا ما ولا تتألّموا أكثر من اللازم. ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، ولكي تعلموا أنّ الله العليم هو الذي رأى هذه المصلحة.

التقديرات والتكليف الشرعيّ

فلنلتفت إلى أنّ القضايا العاطفيّة والتكاليف الشرعيّة هي موضوعٌ آخر إلى جانب التقديرات الإلهيّة. فإذا شاهدتم مثلًا جاركم يُبتلى بمصيبةٍ ذات ليلة، فعليكم أن تُسرعوا إلى إعانته انطلاقًا من مسؤوليّتكم ومشاعركم الإنسانيّة، التي تُعدّ من جملة المسؤوليّات الأخلاقيّة. فلا تقولوا في أنفسكم لقد كان التقدير هكذا وليس من الضروريّ أن نساعده ونواسيه! إنّ حلّ مشكلات الآخرين هو تكليفٌ، ومسؤوليّاتنا هي شيءٌ غير العلم بالتقدير الإلهيّ الحكيم. فإذا وقعت هزّة أرضيّة في مكانٍ ما،

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.



وأصيب المئات من الأشخاص، فإنّ مواساة هؤلاء وإعانتهم هو موضوعٌ، وأنّه لماذا قدّر الله وقوع مثل هذه الهزّة الأرضيّة التي أدّت إلى موت وتشريد الآلاف هو موضوعٌ آخر، ينبغي الإجابة عنه في ساحة الذهن، لكي لا يعرض على بنيان الإيمان أي ضررٍ.

وكذلك الأمر على صعيد الأحداث الشخصيّة، حين يُبتلى بعض الأشخاص، الذين لا يمتلكون الطاقة والقدرة على التحمّل، بالمصائب؛ يبدأ لسانهم يلهج بالشكوى من الله، وأنّه قد أنزل علينا نحن الضعفاء كلّ ما يختزنه من مصائب وبلاءات. أمّا لو استحكم هذا الاعتقاد فيهم مسبقًا وهو أنّ كلّ ظاهرة تجري على أساس التدبير الإلهيّ الحكيم، وأنّ لكلّ شيء حسابٌ وكتابٌ، وإنّه قد تمّ التخطيط له مسبقًا، فإنّهم لن ينطقوا بتلك الشكايات: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1]. فبالنسبة لله يكون التقدير والتدبير أمرًا سهلًا، فلا تظنّوا أنّ تدبير العالم وتقدير أموره لأنّه قد جرى قبل آلاف السنين ومنذ الأزل وهو صعبٌ بالنسبة لي ولكم ويكون كذلك بالنسبة لله. كلا، فلا يوجد من شيء صعبٌ على الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

على أيّ حال، إنّ الالتفات إلى حكمة وتقدير الله العليم القدير يسهّل على الإنسان تحمّل كلّ صعبٍ ويزيل القلق والاضطراب من البال. كذلك من جانبٍ آخر، لو أصباتكم نعمة، فلا تغترّوا وتُصابوا بالسكر والغفلة؛ ذلك لأنّ جميع خيرات الدنيا هي وسيلةٌ للامتحان، تمامًا مثل شرورها ومساوئها: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[3]. فإذا كانت الأفراح والنعم كما الأتراح وسيلة للامتحان في دائرة الحكمة الإلهيّة، فلا ينبغي أن نضيّع أنفسنا، فإذا وصلتنا نعمةٌ ما أو حصلنا ذات يوم على ثروةٍ كبيرةٍ، فلا ينبغي أن نغترّ وننسى الله؛ وإذا ابتلينا بالمصائب فلا ينبغي أن تذهب أنفسنا عليها حسرات: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[4]. فلا تعتبروا تلك النعم التي يهبكم الله الكريم إيّاها ثروةً، وتفرحوا

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٢.

(٢) سورة **يس**، الآية ٨٢.

(٣) سورة **الأنبياء**، الآية ٣٥.

(٤) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.



وتغترّوا وتضيّعوا أنفسكم، فوجودها وعدمه لا ينبغي أن يشكّل فارقًا كبيرًا لديكم، وينبغي أن تصلوا في سيركم المعنويّ إلى ذلك المقام حيث يكون وجود النعم الدنيويّة وعدمه سيّان عندكم، فلا يترك أي أثر؛ كما يجب أن تنظروا إلى النعم والنقم كوسيلةٍ للامتحان والاختبار. فالنظر إلى النعم والأرزاق على أنّها مقدّرة من جانب الله تعالى، يبعث في الإنسان الثبات وعدم الاغترار فيما لو نال رزقًا من دون حساب؛ وكذلك لو ابتُليَ بالمصائب والبلاءات فلن يسقط في وادي الكفر، وليكن ملتفتًا إلى أنّ هذه الأمور ليست سوى وسائل للاختبار.

إنّ من فوائد مثل هذا النوع من التفكير أن لا يبالغ الإنسان في تحصيل متاع الدنيا: «اَلْإِجْمَالُ فِي الطَّلَبِ».

بالطبع، إنّ الثمرة الأخلاقيّة لمثل هذا الاعتقاد هي أن يتصرّف الإنسان بنحوٍ حسنٍ ومدروس في طلب الرزق، فلا يطرق باب هذا وذاك لأدنى متاعٍ دنيويّ. وإذا كان يريد من أحدٍ شيئًا فلا يتشددّ في طلبه بل يتصرّف بالتسامح والإغماض والتجاوز ولا يكون متشددًا في كسب مال الدنيا، ولا يبالغ في سعيه. والثمرة الأخرى لمثل هذه الفكرة، هي أنّه لا يتوقّف عن إصلاح سلوكه واكتساب الفضائل الأخلاقيّة وأداء التكاليف الشرعيّة، لأنّه لن يُنفق كلّ وقته وجهده وهمّته في تحصيل المال والأمور المادّيّة. فحين يلتفت الإنسان إلى أنّ رزقه لا يحصل بواسطة الجهد والسعي فقط، وأنّ بعض الأرزاق تأتي إليه من دون سعي، حينها لن يسعى أكثر من اللازم. إنّ مثل هذه النظرة تؤدّي إلى تعديل سلوك الإنسان وتمنع من تحوّله إلى إنسانٍ حريص.

التوازن الروحيّ مع تحوّلات الدهر

إنّ روح الإنسان مثل جسده لا تبقى دائمًا على حالةٍ واحدة بل يعرض عليها تغيّرات وتبدّلات. إنّ وجود التحوّلات في روحيّة الإنسان وبعده الجسمانيّ هي حقيقة مسلّمة ومقبولة. أمّا ما هو مذمومٌ في هذا المجال فهو تلوّن روحيّة الإنسان عند أدنى عذر. ولو كان لهذا التلوّن مسوّغٌ أساسيّ وعقلائيّ فهو حسن، أمّا إذا كان بلا مسوّغٍ وحجّة فهو قبيحٌ ومذموم. كبعض الناس الذين هم كالأطفال، يتبدّل حالهم من لحظةٍ إلى لحظة، وكما يُقال إنّ أدنى شيء يجعلهم يبكون، وأدنى شيء يجعلهم يضحكون. فإذا وصلوا إلى مطلوبهم يفرحون ويضحكون ملء أفواههم؛ وإذا



واجهوا صعوبة ما سرعان ما يتألّمون ويحزنون ويغوصون في بحر الهموم. فإذا قدّم أحدٌ خدمةً بسيطةً لهم تجدهم يعبدونه، وفي حال امتنع عن تقديم العون لهم فإنّه يصبح عدوًّا لدودًا لهم ويتعرّض لأشدّ أنواع الانتقادات اللاذعة منهم. فمثل هؤلاء لا ثبات ولا طمأنينة لهم في الحياة. في حين أنّ المؤمن يجب أن يكون صاحب ثباتٍ واستقرارٍ نسبيّ. وكما مرّ لا ينبغي للإنسان ولا يمكنه أن يكون صاحب روحيّة مستقرّة في جميع ظروف الحياة، لكن من غير الصحيح أيضًا أن يكون في حالة من التذبذب الروحيّ الدائم، وأن يكون مزاجه مضطربًا في كلّ حال. إنّ البعض يعيشون هذه الحالة، فإذا سألتهم اليوم عن فلان أي إنسان هو فسوف يجيبون قائلين إنّه من الملائكة لأنّني شاهدت منه فعلًا جميلًا، أمّا إذا سألته في اليوم التالي عنه فسوف يقولون إنّه أسوأ من إبليس، لأنّه صدرت منه الزلّة الفلانيّة. إنّ مثل هذه الأحكام المتسرّعة والعجولة ليست من شأن المؤمن.

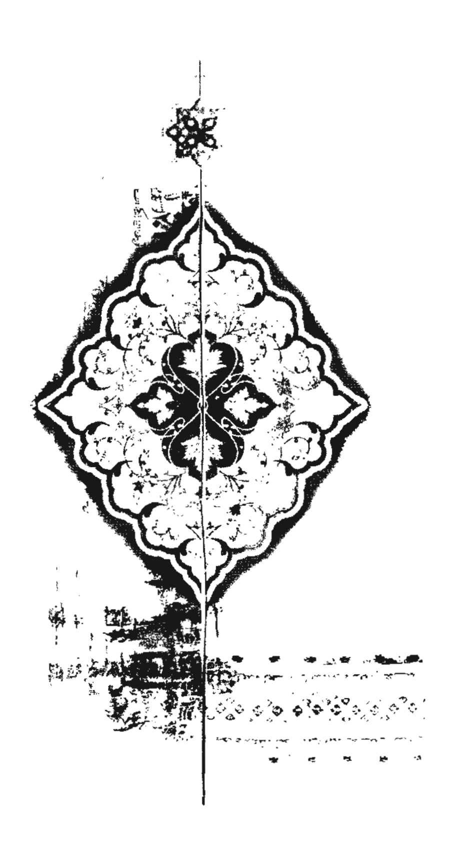
ولكي لا يكون الإنسان مبتلًى بمثل هذه الروحيّة المتقلّبة يجب أن يطّلع على مجموعة من المعارف ويعتني بها قلبيًا. وفي الخطوة الأولى، ينبغي أن يُدرك الوقائع ويتعرّف على الحياة والدنيا والناس ونفسه بصورةٍ أفضل؛ وأن يعلم أنّ طروء الأحوال المختلفة هو أمرٌ ضروريٌ في الحياة بالنسبة لأيّ إنسان: فقد تتأجّج الرغبة في العبادة والتقوى في الإنسان أحيانًا وتضعف أخرى؛ وقد يكون اليوم راغبًا في العشرة، وأحيانًا أخرى غير راغب فيها. فمثل هذه الرغبات والروحيات تتبدّل بحسب الظروف والمراحل العمريّة فتكون رغباته ودوافعة في مرحلة الشباب على نحوٍ، ثم تصبح في مرحلة الشيخوخة والكهولة على نحوٍ آخر. وعلى أيّ حال، إنّ تقلّب الأحوال أمرٌ يحدث مع كلّ إنسان حين تتبدل ظروف الحياة. ففي وقتٍ ما يكون الإنسان سليمًا، وفي وقت آخر يصبح مريضًا، وفي زمن ما يكون فقيرًا وفي زمن آخر يصبح غنيًا.

وكذلك هي أحوال الناس الذين نواجههم ونتعامل معهم فإنّها في حال من التبدّل، فهم في يوم فرحون وفي آخر حزينون، وفي يوم مبتلون وفي آخر سالمون. بالطبع، إنّ هذه الأحوال ستؤثّر في سلوكهم أيضًا: «**إنَّ الدَّهرَ ذُو صُرُوف**»، فالدهر يتبدّل ويتغيّر بالنسبة لي ولكم، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يكون في أحكامه وفي نمط عيشه تابعًا لهذه الأحوال، بل ينبغي أن يتمتّع بالسلوك الثابت انطلاقًا من مجموعة من الصفات الثابتة.

بناءً عليه، وبسبب كون «الدهر ذو صروفٍ» لا ينبغي للإنسان أن يكتفي في معرفة الأشخاص بنحوٍ واحد من السلوك والتعامل، بل عليه أن يدرس ماضيهم ويمتحنهم في مختلف الظروف لكي يتمكّن من الحكم عليهم. فعليه أن يأخذ بعين الاعتبار كل المدّة التي قضاها في العشرة والصداقة، وليحذر من الحكم الاعتباطيّ بسبب عدم تأمين ما يرغب به. فلعلّه كان معذورًا لعدم قيامه بما تتوقّعون. فلا ينبغي أن تكون أحكامنا سطحيةً وتابعةً للظروف بل علينا أن نسعى لتحقيق ثباتٍ نسبيّ في سلوكنا بحيث إذا شاهدنا شخصًا يقوم بعملٍ سيّئ نتمكّن من ألّا نسعى في توبيخه ولومه، فلنداره ونصبر عليه قليلًا: «**فَلاَ تَكُنْ مِمَّنْ يَشْتَدُّ لاَئِمَتُهُ وَيَقِلُّ عِنْدَ النَّاسِ عُذْرُه**».

فلعلّنا ظننّا أنّه قد قام بعملٍ قبيح، لكنّ الأمر في الواقع مجرّد سوء تفاهم. وحتى على فرض أنّه ارتكب ذاك العمل السيّئ فلا ينبغي أن نقذفه بكل كلامٍ شديدٍ وفاحش وغير لائقٍ بسبب فعلٍ واحد، فعلينا أن نحفظ الوقار ونصبر ونتفحّص، وربما ينبغي الإغماض عن ذلك وغضّ البصر. ولنحذر من أن نغيّر سلوكنا فجأةً بسبب عملٍ واحدٍ، بل علينا أن نأخذ الحالات المختلفة بعين الاعتبار وأن نسعى لئلا نقوم بأي تصرّف في حال الاضطراب والغضب، والأهمّ من ذلك هو أنّ حالاتنا الروحيّة والنفسيّة لا ينبغي أن تكون تابعةً للتحوّلات الماديّة.

فمع وجود التحوّلات الكثيرة في العالم يجب على الإنسان أن يتمتّع بالثبات الروحيّ النسبيّ. وعلى الإنسان المؤمن أن يسعى لاكتساب تلك الحالة النفسيّة والروحيّة الثابتة وأن يوجد في نفسه ذلك الوقار المطلوب. فلو أودع نفسه بيد الأحداث وتبدّلت أحواله مع تبدّل الأحوال، فسوف يتنزّل من مقام أهل الإيمان. إنّ لحياة الإنسان الكثير من الصعود والهبوط، فقد يُبتلى أحيانًا بالفقر والضيق الشديد ولا يبقى له سوى الآهات، ففي مثل هذه الظروف يكون تأمين الحاجات الأوليّة للحياة أمرًا صعبًا جدًا أيضًا، فإذا ابتسم الحظ له فجأةً وهو على هذه الحال ونال ثروةً طائلةً، فعليه أن ينتبه جيّدًا لئلّا يُصاب بالغرور والعجب وينسى أصدقاءه الماضين أو يتفاخر عليهم. إنّ جمالية الحياة هي في أن يتواضع الإنسان في حال الغنى والثراء، أمّا إذا تواضع أثناء الفقر والحرمان، فإنّه بالإضافة إلى عدم كونه أمرًا جميلًا فهو قبيح جدًا وغير مطلوب. إنّ الخشوع أثناء الحاجة والجفاء وقت الغنى من أقبح الأمور: «**مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعُ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءُ عِنْدَ الْغِنَى**».



الدرس الثامن والثلاثون
الدنيا المثاليّة

- نمط العيش
- حقيقة الحياة الدنيا في ثقافة الأنبياء
- عاقبة الحياة غير الإلهيّة
- التجارة القرآنيّة
- شراء رضا الله ورضوانه
- لا يحزنك أمر على الدنيا

«إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ فَأَنْفِقْ فِي حَقٍّ وَلاَ تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ وَإِنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ».

يصرّح مولى الموحّدين عليعَلَيْهِالسَّلَامُ في هذه الرسالة، وفي العديد من الموارد، عن ماهيّة كون الدنيا مجازًا، وعن الحياة فيها وعن ضعتها وعدم أهميّتها. ويبيّن هذه الوقائع بعباراتٍ مختلفة منها أنّ لذائذ الدنيا ينبغي أن تكون على طريق كسب سعادة الآخرة وتحصيلها، وإلا فإنّها لن تدوم ولا قيمة لها. إنّ تكرار هذه الحقيقة في خطب الإمام ورسائله، حيث يكرّرها في الخطبة الواحدة أو الرسالة الواحدة عدّة مرّات أحيانًا، يدلّ على مدى أهميّتها. ولو تكرّرت أكثر من ذلك لكان ذلك مفيدًا، لأنّ الإنسان قد يُبتلى بالغفلة في هذا المجال ولو ذُكّر كل يومٍ وليلة بهذا الموضوع، فمن المحتمل أن ينساه ويُبتلى بالانحراف عند اختيار مسارِ الحياة وعند الاستفادة من لذّات الدنيا. لهذا، فإنّ بيان المنهج الصحيح للحياة والاستفادة والتمتّع بالدنيا لأجل السعادة هو أمرٌ مهمٌّ جدًّا.

نمط العيش

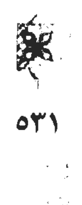
إنّ التصوّر الأوّليّ للإنسان حول نمط العيش الصحيح، هو أن يفكّر في تأمين حاجاته الدنيويّة وأن يلتذّ بالدنيا. لهذا، فإنّه يجب أن يفكّر أوّلًا في تأمين حاجاته الضروريّة كالطعام واللباس، وفي المرحلة اللاحقة يسعى وراء الحاجات الأخرى كالزواج والسكن ولوازم الحياة. في حين أنّ الإنسان المسلم المعتقد بالله وبيوم الجزاء يقول في نفسه إنّ عليه أيضًا أن يفكّر بالحياة الآخرة، وبالإضافة إلى أمر

المعاش، عليه أن يسعى لأجل الآخرة، كي يتمتّع بنتائجها وثمارها. وأدنى حدّ لهذا السعي هو أن نخصّص قسمًا من مساعينا لأجل الآخرة، فإلى جانب كسب المعاش والتمتع بلذّات الدنيا ونعيمها، نصرف جزءًا من مساعينا لأجل الآخرة، ونسجّل الصلاة والصوم في كتاب أعمالنا. هناك نسبة كبيرة من أبناء مجتمعنا تتّبع هذا النهج. وهناك ثلّة قليلة من أهل الإيمان، الذين ترسّخ الإيمان في وجودهم، يسعون بالإضافة إلى تنظيم شؤون دنياهم لتكون في إطار رعاية الواجبات والمحرّمات الإلهيّة. لا شكّ بأنّ هذه الفئة الثانية هم من الطيّبين والصالحين الذين يتحرّكون على طريق الله والنبيّ والأئمّة عليهم السلام. لكن يجب أن نعلم أنّ التربية في مدرسة الأنبياء والأئمّة والقرآن الكريم لا تنحصر بهذه الحدود النازلة. فهناك آفاقٌ أعلى بكثير وأوسع مفتوحة أمام الإنسان وقد دعانا الأنبياء والأئمة عليهم السلام إليها. ومن هنا، يُعدّ أداء التكاليف الشرعيّة ورعاية الأحكام الأخلاقيّة من مراتب الكمال المتدنيّة جدًّا.

وفي الواقع، إنّ أداء الواجبات وترك المحرّمات هو الخطوة الأولى، وينبغي أن تكون همّة الإنسان أعلى من ذلك بكثير وأرفع من هذا الحدّ. ولأجل عبور هذا الحدّ والدخول في المراتب الأعلى، فإنّ الخطوة الأولى هي أن يُصلح الإنسان نظرته إلى الحياة الدنيا، فينبغي أن يعلم موقعيّته ومنزلة ربّه في الوجود ويُدرك الهدف من خلقه.

لكن يجب أن نعترف أنّنا غالبًا ما نُعاني من نقصٍ شديد على مستوى معرفة هذه القضايا وقد نرتكب أخطاءً كبيرةً بسبب نقص معرفتنا، الأمر الذي يجرّ خسائر لا يمكن تعويضها؛ لدرجة أنّ بعض الناس قد يتنزّلون في سقوطهم فيقولون: ما هي فائدة التكاليف الشرعيّة من الأساس؟ ولماذا وُضعت؟ وإنّ زمان تحديد التكليف كان يرتبط بعصر العبيد والمجتمعات المتخلّفة، وها هو قد مضى. فالإنسان، بحسب قول هؤلاء، في هذا العصر ليس بصدد التكليف بل إنّه يسعى لاستيفاء حقوقه والمطالبة بها؛ تلك الحقوق التي حُرم منها على مدى مئات وآلاف السنين، وقد تمّ إغفالها. إنّ التكليف بالنسبة لإنسان اليوم هو مصطلح غريب ومستهجن. ففي يومنا هذا، الأمر ليس أنّنا بصدد تحديد تكاليفنا مقابل الله فحسب، بل نحن بصدد مطالبة الله بحقوقنا الإنسانيّة !

ولا يخفى أنّ هذا النمط من التفكير يعود إلى الرؤية الخاصّة للثقافة الغربيّة



حول الوجود، والله والإنسان. ومن خلال المقارنة بين هاتين الرؤيتين، يُمكن الاطلاع على الاختلاف العميق بين ثقافة الأنبياء والثقافة التي يلقيها الغرب. وعلى أيّ حال، فإنّ الثقافة المادّيّة الإلحاديّة كانت وما زالت موجودة، وستبقى موجودة ما دام هناك شيطان، وسوف يستمرّ هذا النزاع بين ثقافة الأنبياء الإلهيّة وثقافة الشيطان التي تتجلّى اليوم في الثقافة الغربيّة. من هنا، لو اتّصلنا ليلًا نهارًا بثقافة الأنبياء لكان ذلك قليلًا، لأن إلقاءات الثقافة الشيطانيّة الغربيّة لن تتوقّف.

حقيقة الحياة الدنيا في ثقافة الأنبياء

يقوم بنيان الاختلاف بين هاتين الثقافتين على نظرة كلّ منهما إلى العالم، فالأولى ترى أنّ بداية الحياة ونهايتها هي في هذه الدنيا، إلّا أنّ نظرة القرآن تؤكّد على أنّ حياة الإنسان في هذه الدنيا هي في الواقع مثل حياة الجنين داخل الرحم. فلأجل أن يصل الإنسان إلى ذلك العالم عليه أن يعيش لمدّة معيّنة في هذا العالم، كالجنين، حتى يحين زمان دخوله إلى العالم الآخر. فالجنين يبقى مدةً في بطن الأم حتى يصل إلى مرحلة الاستعداد للخروج والولادة والدخول إلى عالم آخر. بالطبع، إنّ اختلافنا في هذا العالم عن الجنين داخل الرحم، هو أنّ الجنين فاقدٌ للاختيار وتأتي الظروف الطبيعيّة والقوانين التكوينيّة لتعدّه للدخول إلى عالم آخر، أمّا في رحم الدنيا فعلينا أن نسعى ونتكامل كي نكتسب الاستعداد المطلّوب، وهناك سنتوّلد في عالم الرحمة الإلهيّة، وفي الواقع إنّ حياتنا تبدأ من هنا. لهذا فإنّ الذين يتصوّرون أنّ الحياة محدودةٌ بهذه الحياة الدنيا فإنّهم حين يطؤون ساحة الآخرة سيقولون: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[1]. النقطة الملفتة هي أنّ الله لا يقول في هذه الآية المباركة: «يا ليتني قدّمت لحياتي الآخرة، بل يقول يا ليتني قدمت لحياتي»، أي إنّ الحياة الدنيا لم تكن حياةً، بل إنّ الحياة الحقيقيّة هي في عالم الآخرة فقط. لهذا، ففي الآية الشريفة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾[2]، من خلال التأكيد والحصر، باستعمال حرف (إنّ) الذي هو من حروف التوكيد، ولام التأكيد والضمير المنفصل «هي» والألف واللام في لفظ الحيوان، الذي ورد بعد

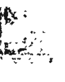
---

(١) سورة **النجم**، الآية ٢٦.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٤.

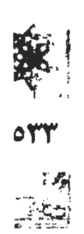
الضمير المنفصل «هي»، فكل ذلك يؤكّد على أنّ الحياة هي هناك فقط ولا غير.





بناءً عليه، إنّ إطلاقنا لفظ «الحياة» على الحياة الدنيا غير صائب. فالحياة هنا ليست بالحياة بل هي «دار الغرور»، فالحياة الحقيقيّة هي هناك. إنّ اختلاف عقيدتنا ورؤيتنا مع الرؤية الإلهيّة ورؤية النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأئمّة الهدى عَلَيْهِ السَّلَامُ تكمن في هذه النقطة، فهم يقولون إنّ الحياة الحقيقيّة هي الآخرة؛ أمّا نحن فنقول كلّا! الحياة هي هنا! فنحن نفكّر بأنّ هناك هو الموت والعدم، ولكن كلام الله سبحانه وكلام النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأئمّة الهدى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يفيد أنّ الأصل هو هناك. فدورة الحياة الدنيا هي عبارة عن مرحلةٌ قصيرة جدًّا، كطرفة عين، نأمل أن نتكامل ونرتقي فيها؛ في حين أنّ تلك الحياة هي الحياة الأصيلة والباقية؛ وإذا كان بالإمكان إطلاق لفظ «الحياة» على الحياة الدنيا، فمن باب أنّها فرع ومقدّمة الدخول إلى الحياة الأخرويّة الأصيلة.

فلو أدركنا هذه الحقيقة وآمنّا بها فسوف يتبدّل سلوكنا كثيرًا، لأنّه حين يتغيّر تصوّرنا حول الوجود والعالم والإنسان والمجتمع وغيرها سوف تتغيّر بتبعه توجّهاتنا ورغباتنا ومطالبنا، وسوف تتبدّل آمالنا من أساسها، بناءً عليه سوف يتبدّل سلوكنا وأعمالنا. حتى إنّ كمّيّة وكيفيّة تلك الآمال والرغبات والتوجّهات سوف تتبدّل. أمّا ما دمنا لا نحمل تلك الرؤية الكونيّة والنظرة إلى الإنسان والعالم التي تتطابق مع ما ذكره الله سبحانه والأئمّة الأطهار عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا شكّ أنّنا سنتصرّف ونسلك بطريقةٍ أخرى، وسنطابق جميع آمالنا ورغباتنا ومطالبنا وأعمالنا مع تلك الرؤية التي نحملها حول الوجود والعالم والإنسان. وبسبب تأثير هذا النوع من الرؤى، لقد اهتمّت التوصية كثيرًا بألّا تنسوا موقعيّة وارتباط الحياة الدنيا بالآخرة؛ وافهموا حقيقة الدنيا والآخرة، واسعوا لكلّ واحدةٍ منهما بحسب قيمة كل واحدة. إلّا أنّ حال أكثر الناس هو على تلك الشاكلة التي نحن عليها. فأكثرنا وبعد الاستدلال على الواقع وفهم حقيقة الحياة الدنيا والآخرة، حين يحين دور العمل ننسى كل هذه المدركات والتصوّرات والعقائد، وإذا استيقظنا في الصباح من نومنا لا يكون تفكيرنا منصبًّا سوى على هذه الدنيا. ورغم أنّنا ننهض على ذكر الله تعالى، ونبدأ يومنا بالصلاة بفضل لطف الله وببركة التربية الإسلاميّة ومتابعة الوالدين لنا، لكنّنا نكون في هذه اللحظات القصيرة فقط في ذكر الحياة الآخرة وعمارة الحياة في ذلك العالم، وما إن تنتهي ركعتا الصبح حتّى ينصرف كلّ تفكيرنا واهتمامنا إلى هذه الدنيا، ونبقى



على هذه الحال إلى أن يصل وقت الصلاة اللاحقة وهكذا. بناءً عليه، لا نحتاج بعدها إلى توصيف حال أولئك البعيدين عن هذه التربية، فأحوالهم وأوضاعهم معروفة.

وعلى أيّ حال، لو أنّنا تأمّلنا قليلًا فسوف نصدّق أنّنا نستطيع أن نكون أفضل وأكمل وأكثر استعدادًا. ويمكننا أن نصرف مساعينا التي نبذلها في هذه الحياة على الحياة الآخرة بكيفيةٍ أفضل وجديّةٍ أعلى بكثير. فإذا كنّا ندرس نكون أكثر جديةٍ ويدفعنا الوصول إلى رضا الله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[١]. وإذا كنّا من أهل العمل والحركة الجسمانيّة فسوف نحوّل كل هذا نحو طاعة الله سبحانه: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. فهذه الأمور ممكنة ولا تؤثّر سلبًا على نشاطاتنا الماديّة، بل إنّها عامل مهمٌّ في تقويتها، لأنّه لا يوجد اختلاف من حيث الظاهر بين العملين، فالاختلاف بين العمل الدنيويّ والعمل الأخرويّ ينحصر في إطار الدافع والنيّة، فحين تتبدّل رؤيتنا حول الدنيا يتغيّر هدفنا، وبتبع ذلك تتغيّر دوافع أعمالنا، ويُصبح بإمكاننا أن نؤدّي تلك الأعمال اعتمادًا على تلك الرؤية والدافع في سبيل الله ولأجل سعادة آخرتنا.

فعلينا إذًا أن نسعى في البداية لإصلاح معرفتنا بالعالم والإنسان. وفي المرحلة اللاحقة، علينا أن نؤمن ونصدّق أنّ هذه الحياة هي مقدّمة الوصول إلى الحياة الحقيقيّة اللامتناهية. فهذا العالم هو رحمٌ يُوصل إلى عالمٍ واسعٍ جدًّا: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[٣].

وهكذا، يتّضح السبب وراء التأكيد على معرفة الدنيا والآخرة وتكرار هذا المطلب بعبارات وبيانات مختلفة؛ وبناءً عليه يمكنكم أن تروا أنّ هذه التأكيدات ليست زائدةً عن الحدّ أبدًا، ومهما تكرّرت يكون الأمر ضروريًّا. وبسبب هذه الدائرة الواسعة لتأثير هذه الرؤية وعمق نفوذها وسريانها في جميع الأبعاد الوجوديّة والسلوكيّة والشعوريّة والاعتقاديّة للناس، فإنّها تتطلّب كل هذا التأكيد والمزيد من التكرار. لذلك، قد خصّص أمير المؤمنين عَلَيهِ السَّلَامُ فصلًا كاملًا في بداية هذه

---

(١) سورة **الليل**، الآية ٢١.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١١٤.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٤.

الوصية حول هذا الموضوع، وقد تمّ شرح هذه الحقيقة الخطيرة، كجميع الرسائل والخطب الأخرى، وتمّ التفصيل حولها فيما يتعلّق بماهية الحياة الدنيا، ولماذا خُلق الإنسان فيها وما هو هدفه وأين هو. وها هو التأكيد مرّة أخرى في هذا المقطع على هذه الحقيقة حيث يقول: «**إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ**»، إنّ ما ينفعك من متاع هذه الدنيا هو ما تستعمله لإصلاح مقرّ إقامتك وهو عالم الآخرة. فكل ما استعملته في هذه الدنيا لأجل عمارة آخرتك يبقى لك ويكون لمصلحتك، أمّا إذا استعملت كل ذلك لأجل عمارة هذه الدنيا ولذّاتها واكتفيت بهذا المقدار، فإنّ كل ذلك سيزول وينتهي مع هذا التفاوت والاختلاف، وهو أنّ هذه اللذات إذا حصلت عن طريق الحلال وبرعاية أحكام الشرع فلا يوجد عليها عقاب أخرويّ، أما إذا تجاوز الإنسان تلك الأحكام وداس عليها من أجل عمارة هذه الدنيا والوصول إلى لذّاتها الزائلة فإنّه سوف يتعرّض للمؤاخذة والعقاب بسبب هذه اللذات الدنيويّة السريعة الانقضاء.

عاقبة الحياة غير الإلهيّة

إنّ مجرّد الالتزام بالأحكام الشرعيّة ورعايتها وكسب الرزق الحلال واجتناب الأعمال الحرام لا يمكن أن يُعتبر وصولًا إلى المقامات العالية، بل إنّ البنية التحتيّة لهذه الأعمال هي التطابق والانسجام مع الله والأئمّة الأطهار عليهم السلام في الرؤية والدافع تجاه الدنيا والآخرة. أمّا الاكتفاء برعاية الأحكام الشرعيّة واجتناب المحرّمات وكسب الرزق الحلال، فهو مثل ذلك الإنسان الذي يمتلك تلك الجوهرة النفيسة ثمّ يعطيها لأحد ويأخذ بدل ذلك وعدًا بالطعام الدسم؛ أي إنّه في الوقت الذي يستطيع بواسطة هذه الجوهرة النفيسة أن يهيّئ القصر والبستان الجميل، فإنّه يستبدلها بحفنة من الطعام، فهل تُعدّ هذه المقايضة مقايضة عقلانيّة! لا شكّ بأنّ العقلاء هنا سيوبّخونه ويعتبرون مثل هذا العمل عملًا أحمقًا، حتى لو كان الطعام هو الكباب الطيّب الذي يُشبع بطن الإنسان، لكن إذا ما قورن بشراء القصر والبساتين العامرة لا يكون له أي قيمة.

إنّ أداءنا في الدنيا ليس بأفضل، فنحن نستطيع بهذه اللحظات القصيرة من أعمارنا أن نهيّئ وننال القصور الأبديّة في عالم الآخرة، في حين أنّ منتهى مهارتنا في الدنيا هي أن لا نعصي وأن لا نهيّئ أسباب عذابنا. في الواقع، نحن بأدائنا



هذا وسلوكنا في هذه الدنيا لا ننال أيّ نفع في حياتنا الآخرة، ومهارتنا الوحيدة هي أن لا نوفّر أسباب عذابنا، أمّا ذلك النفع الذي كان بإمكاننا الحصول عليه، لم يحصل، وإنّما أقنعنا أنفسنا بهذا المقدار وهو أنّه لن تحلّ بنا أي خسارة. من الواضح أنّ هذا الأداء الذي هو الاكتفاء بدفع الضرر واجتناب الخسارة مع وجود إمكانيّة الحصول على ربحٍ وفير، لا يُعدّ أمرًا عقلانيًا أبدًا. وببيانٍ صريح لا يمكن تسميته سوى بالعمل الأحمق، لأنّنا حين نُقنع أنفسنا برعاية الأحكام الشرعيّة فقط فإنّنا لا نحصل في المقابل على ثمرة سوى انتفاء العذاب ونحن في الواقع قد ابتُلينا بخسارةٍ لا يتقبّلها أي عاقل.

إنّ الربح الواقعيّ يقضي أن نبذل كلّ أوقاتنا وإمكاناتنا على طريق الوصول إلى الحياة الأخرويّة الأبديّة، وإلى رضوان الله، لأنّ ما يبقى ولا يفنى ولا يزول هو سعادة الآخرة ورضا الله سبحانه. أمّا سائر الأمور، فمهما كانت حلالًا وطيبة، لكنّها تزول: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾[1]. فالباقيات هي تلك الأمور التي تستمرّ وتكون عند الله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾[2]. فلذّات الدنيا هذه ليست سوى زخارف، وهي تُستعمل لأجل نظم هذه الحياة وهي زينة منزل الدنيا، وفي نهاية هذه الحياة سوف تزول وتنتهي: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[3].

ولا بأس أن نُشير في هذا المجال إلى عاقبة قارون كما جاءت في **القرآن الكريم**.

التجارة القرآنيّة

لقد كانت ثروة قارون من الضخامة بحيث أنّ عددًا من الرجال الأقوياء لم يكونوا يستطيعون أن يحرّكوا مفاتيح خزائنها: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾[4].

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٩٦.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٤٦.

(٣) سورة **الكهف**، الآية ٤٥.

(٤) سورة **القصص**، الآية ٧٦.

ففي ذلك الزمان، لم يكن هناك بنوك لكي يودع الناس أموالهم فيها، فكان الناس يضعون أموالهم وثرواتهم داخل خزائن مخفيّة ويحكمون أبوابها بأقفالٍ ثقيلةٍ لها مفاتيح قويّة، وبهذه الطريقة كانوا يصونون أموالهم وثرواتهم من أيدي السارقين. بالطبع، كلّما كبرت الخزانة يكبر قفلها ويصبح أثقل، وكلّما ازدادت الثروة تطلّبت المزيد من الخزائن واحتاجت إلى مفاتيح أكثر وأصبح وزن هذه المفاتيح أكبر، بحيث لا يستطيع الشخص نقلها من مكانٍ إلى آخر. لقد كان قارون أكبر رأسماليّ في ذلك الزمان ومفاتح خزائنه كان يتطلّب عُصبةً من الرجال الأقوياء، وقد نصح المؤمنون قارون وقالوا له: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۞ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1] فهذه النصائح كانت عبارة عن:

١. لا تغترّ وتسكر من الفرح، ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾. فأولئك الذين يسكرون ويغترّون بمال الدنيا ينسون كل شيء، ولهذا فإنّ الله لا يحّبهم. وليس المقصود بقولهم ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أن لا يكون مسرورًا بل المقصود تلك الأفراح المذمومة. وبعبارةٍ أخرى، إنّ المقصود من ذلك ثقل الغرور والانحراف النابع من ذلك الإحساس بالعظمة الناشئة من الثراء. من الواضح جدًا أنّ الغرور النابع من الثراء ومن مال الدنيا ليس له نتيجة سوى الانحراف عن الحقّ والإعراض عن أحكامه وأوامره والله لا يحبّ أمثال هؤلاء.

٢. النصيحة الثانية كانت: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ﴾، فاجعل يا قارون النعم التي أعطاك الله إياها وسيلةً للوصول إلى الآخرة واستعنْ بها لأجل عمارة آخرتك. فـ «لابتغاء» هنا بمعنى البحث والسعي نحو شيءٍ ما، ﴿وَٱبْتَغِ﴾ يعني كنّ باحثًا وساعيًا نحو آخرتك واجعلها هدفك.

٣. كانت وصيّتهم الأخرى هي: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، وقد قيل بشأن هذه الجملة عدّة أمور: فبعض المفسّرين قالوا إنّ المؤمنين حين كانوا ينصحون قارون نصحوه في البداية أن يفكّر في آخرته، وفيما بعد وخوفًا من

(١) سورة **القصص**، الآيتان ٧٦ و٧٧.



الإفراط في العمل بهذه الوصيّة والاشتغال المفرط بشؤون الآخرة وعدم الاعتناء بالدنيا، ذكّروه قائلين: ﴿لَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾. وهكذا، كان مقصدهم من هذا الكلام وهو أنّنا إذا قلنا اشتغل واهتمّ بآخرتك فلا يعني ذلك أن تترك الدنيا وتغسل يدك منها، كلّا، بل استفد منها وتمتّع ولكن إيّاك مع هذه الحالة أن تنسى الآخرة. وقد فسّرت جماعةٌ أخرى من المفسّرين هذا المقطع من الآية الشريفة على هذا النحو: إنّ المقصود من عبارة ﴿لَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾، هو احذر أن تنسى هذه الدنيا بشكلٍ كامل ولا تتمتّع بأي لذّة منها. كلّا، فلا تنسَ الدنيا لكن اجعل الأساس والهدف هو الآخرة.

٤. وتقول جماعةٌ أخرى من المفسّرين إنّ هذا القسم من الآية هو في الواقع متمّم للقسم الأوّل منها حيث يقول: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي لا تنسَ أنّ استفادتك من الدنيا هي في كسب الآخرة، فيجب أن تجعل استفادتك من النعم الدنيويّة لمصلحة آخرتك، لهذا لا تنسَ نصيبك منها، لأنّ هذا النصيب هو الذي يعمّر آخرتك ويمكنك بواسطة هذا المعبر الدنيويّ أن تصل إلى مقرّ الرحمة الخالدة، وإلا لن يبقى لك أي شيء سوى محض اللذائذ الدنيويّة. ولعلّ التفسير الأخير هو الأنسب من بين التفاسير التي قُدّمت حول هذا المقطع من الآية الشريفة، لأنّ قارون لم ينسَ أبدًا التمتّع بالدنيا حتى يُقال له: ﴿لَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وتمتّع بها. فقد كان كلّ همّه وغمّه هو الوصول إلى لذّات الدنيا ومتاعها، وما نسيه قارون في الواقع هو الاستفادة من الدنيا لأجل عمارة الآخرة؛ لهذا، كان لا بد أن يُقال له فكّر بآخرتك ولا تنسَ أنّ ما يبقى لك من لذائذ هذه الدنيا ونعمها هو ذاك الشيء الذي يمكنك بواسطته أن تعمّر آخرتك. فذاك النصيب الذي لا ينبغي أن تنساه من الدنيا هو الذي تُنفقه وتستعمله من هذه النعم الدنيويّة على طريق الآخرة. فاستعمل نِعم الدنيا وتمتّع بها ولكن بحيث يكون هذا التمتّع مفيدًا لسعادتك الأخرويّة، فإذا كان التمتّع بحسنات الدنيا المشروعة على طريق عبادة الله وعلى طريق اكتساب القوّة لأجل أداء الوظائف الإلهيّة فهو نافعٌ ومفيدٌ للآخر.

وبالالتفات إلى المسائل التي ذكرناها يبدو أنّ عبارة «**إنّما لكَ من دُنياكَ ما أصلحتَ بهِ مثواكَ**»، من وصية الإمام عليه السلام يؤيّد هذا التفسير الأخير فمفهوم «لك» في الجملة السابقة هي أنّ النصيب من الدنيا، وكلمة «إنّما» هي أداة حصر

وتعطي مفهوم الانحصار، أي إنّ نصيبك من الدنيا ليس سوى ما عمرّت به آخرتك. كما أنّ الله يقول في الآية الكريمة: ﴿لَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، فذاك النصيب الذي نسيه قارون كان لا بدّ من تذكيره به وهو نصيبه من الدنيا الذي يجعله وسيلةً للآخرة.

بالطبع، وكما مرّ إنّ هذا هو نحو من التفسير للآية وقد أشرنا إلى أنّ هناك تفاسير أخرى، لكن الأصحّ من بينها هو هذا، لأنّه مؤيّد بكلام الإمام علي عليه السلام. ومقصود الآية الشريفة والإمام علي عليه السلام هو أنّ منفعة الإنسان من الدنيا، هو ما يكون نافعًا منها لآخرته؛ وإلّا إذا لم تكن الدنيا على هذا المسير واستُعملت في غير هذا المورد، فلن تجلب لصاحبها سوى الخسران. فإذا أنفق الإنسان دنياه واستعملها لأجل الدنيا يكون قد ضيّع تلك المنافع التي لا تُحصى من يديه. وفي الواقع، فإنّ هذا الرأسمال الذي لا يُستخدم في تجارة الآخرة ليس رابحًا، ولا يُمكن أن يُعبّر عنه بالربح، وإنّما يكون مفيدًا إذا استُعملت هذه الثروات والنعم على طريق اكتساب ثروةٍ أكبر وثروة باقية وهي ثروة الآخرة.

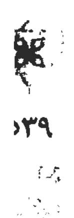
شراء رضى الله ورضوانه

بعد بيان هذه القاعدة والحكم الكلّيّ لكسب الحياة الآخرة، يتناول الإمام عليّ عليه السلام أحد المصاديق المهمّة لهذه القاعدة، وقبل أن نتطرّق إلى هذه العبارة النفيسة والجوهرة الثمينة من المناسب أن نعرض هذه المقدّمة.

نحن حين نراجع سلوكيّاتنا وأحوالنا نلتفت إلى أنّنا لا نتخلّى ببساطة عن أيّ رأسمالٍ حصلنا عليه. مثلًا، إذا كنّا نمتلك بعض المال في جعبتنا، فإنّنا لا ننفقه بمجرّد أن يكون هناك مورد معيّن، لأنّنا قد حصلنا عليه بمشقّةٍ وتعب ولا نريد أن يذهب هدرًا مقابل بضاعةٍ غير مهمّة، وإنّما ندّخره لوقت الضرورة أو لحين يكون هناك منفعة أكبر أو لحلّ مشكلةٍ أساسيةٍ. والآن نسأل هل أنّنا إذا أنفقناه في سبيل الله سيكون سببًا للخسارة ؟

لا شّك بأنّ إنفاق المال في سبيل الله لا يُوجب الضرر والخسران، بل إنّه الطريق الوحيد الذي يكون الربح فيه مضمونًا.

هنا نسأل أيضًا بعد أن التفتنا إلى هذا الضمان الإلهيّ، فما هو الشيء الذي



يمنعنا من إنفاق هذا المال في سبيل الله؟ أليس هو ذاك الشّيء الذي يجعلنا نتصوّر أنّنا إذا أنفقناه لأجل الدنيا فسوف يكون أفضل لنا وأنفع؟! أو نظنّ أنّه من الأفضل أن لا ننفقه الآن، ونتركه ليوم الفاقة فننفقه حينها؟ ومثل هذه الموانع ليست سوى ذاك التعلّق بلذّات الدنيا الذي يجعل الإنسان يمتنع عن الإنفاق. لهذا، إذا أردنا أن ننجو من هذا البخل والإمساك، يجب أن نفهم أنّ مصلحتنا هي فيما ننفقه للآخرة لا فيما ننفقه في سبيل الحياة الدنيا أو ما ندّخره ليوم الفاقة. فما هو نافعٌ وباقٍ هو الإنفاق في سبيل الله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقد ورد مثل هذا التعبير في عدّة مواضع في **القرآن الكريم**، حيث يقول الله سبحانه: إنّ المفلحين هم الذين ينجون ويخلّصون أنفسهم من البخل والإمساك. لهذا، فإنّ المبتلين بالبخل والادّخار وتكديس الثروات، لا يمكن أن يصلوا إلى الفلاح، فالفلاح هو من نصيب من تخلّص من البخل والإمساك.

إنّ تعبير «الشحّ» قريبٌ من معنى الإمساك، ومعناه قريبٌ جدًّا من معنى «بُحّ»، فإذا انقبض صوت أحدٍ ما يُقال إنّه أصيب بالبُحّة، وحين تنقبض يد الإنسان ولا يعطي ولا ينفق يُسمّى شحًّا. فانقباض اليد كناية عن شدّة التمسّك بالدنيا وعدم تركها، وهذا التمسّك الشديد بالدنيا يؤدّي إلى شقاء الإنسان؛ لهذا إنّ من يريد السعادة يجب أن يسعى للتخلّص من هذا الشحّ، ولكن المهم هو أن نعلم ما هو الوقت الذي يمكن للإنسان فيه أن يتخلّص من هذا المانع من السعادة؟ وبالالتفات إلى المطالب المذكورة، يتّضح الجواب على هذا السؤال الحسّاس والمصيريّ. فالإنسان إنّما يستطيع أن يتخلّص من التعلّق بالدنيا حين يفهم من أعماق روحه أنّ البذل والعطاء في هذه الدنيا هو من أجل مصلحته، وأنّه إذا أنفق أمواله وثروته لأجل هذه الحياة الدنيا فإنّ لذّاتها محدودة وزائلة، لأنّ الدنيا فانية. أمّا إذا أنفق الإنسان في سبيل الله ولأجل الله، فإنّه بالإضافة إلى التذاذه في هذه الدنيا، فإنّ الله تعالى سيمنحه ذلك النشاط الروحيّ الذي هو أمرٌ دائمٌ ومستمرّ. فحين يخدم الإنسان غيره من أجل رضى الله، فبالإضافة إلى الأثر الطيّب في الدنيا، فإنّه سيكون لعمله أثرٌ باقٍ وثمرات حسنة يحبّها الله في الآخرة. من

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ٩.



في حال الصلاة، وينشغل ذهننا بالبحث عمّا فقدناه. وقد يكون اضطرابنا هذا سببًا لإزعاج أنفسنا وغيرنا. وقد يصدر منّا أعمالٌ مخالفةٌ للأدب والأخلاق. إنّ هذا هو حالنا حين نفقد قيمةً نقدية ما، فكيف إذا غرق رأس مال تجارة الإنسان في البحر، فماذا يفعل؟ وماذا لو أنّ زلزالًا أو سيلًا قضى على منزل شخصٍ ما ورأسماله، فما الذي سيجلبه هذا الأمر على يومه ويوم الآخرين؟

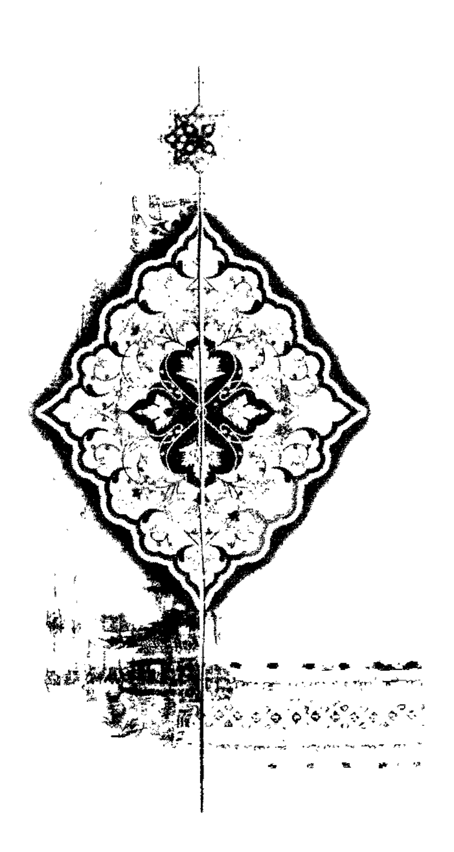
وعلى أيّ حال، فقد يؤدّي فقدان خاتمٍ أو سبحةٍ ثمينة إلى تألّم الإنسان لبضعة أيّام، وقد يمرض أو لا يقدر على متابعةٍ أعماله المهمّة ويبقى ذهنه وفكره مشغولًا ومشتتًا ويبذل كلّ همه، الذي كان يُفترض أن يبذله في العبادة والعمل، تحسّرًا على فقدان متاع الدنيا. إنّ هذا القلق والغصّة وانشغال القلب قد يؤدّي إلى شلل الإنسان وجعل حلاوة الدنيا كطعم السم في حلقه. فإذا كنّا نعلم جميعًا أنّ الحياة الدنيا لا يمكن أن تخلو من الآفات والابتلاءات وحتّى من فقدان الأعزّة، وأنّ الإنسان سيُبتلى حتمًا بهذه الأمور، لذا فما هو مهمّ هو كيفيّة التعامل مع هذه الحوادث والظواهر الحتميّة. ولو كان مقرّرًا أن يقيم الإنسان مأتمًا على فقدان أدنى شيء من متاع الدنيا، فإنّه لن يرى وجه السعادة في هذه الحياة أبدًا، فمثل هذا الشخص سيتوقّف عن أداء وظائفه العباديّة والدينيّة ولن يتمكّن من متابعة أعماله ودراسته وأشغاله وسوف يفقد قدرته على التركيز أثناء الصلاة وسيعامل الآخرين بمرارة، وسوف يتبدّل سلوكه وأخلاقه في الحياة مع زوجته وأبنائه...

إنّ هذه الروحيّة والتصرّف بهذا الشكل يدلّ على نوعٍ من الأمراض وعلى هذا الأساس يقول الإمام في مجال العلاج: فكّر في نفسك ما هي قيمة كلّ ما تملكه من هذه الدنيا، وما هي الأشياء التي لا تملكها. فلا شك بأنّ هناك الكثير من الأشياء التي لا نملكها في الدنيا، وهناك الكثير من الأموال في أيدي الآخرين لا نمتلكها أيضًا، وهناك آلاف الكنوز الكامنة تحت الأرض والتي لا نملكها، وهناك ما لا يُحصى من الجواهر والذهب والفضة والألماس التي لا نمتلك منها حبةٍ واحدةٍ، فهل يوجد عاقلٌ يتجرّع الغصص لأنّه لا يمتلك هذه المناجم والجواهر؟! لا شّك بأنّه لا يوجد. ففي حال فقدت شيئًا، تصوّر أنّ هذا الشيء هو من تلك الأمور التي لم تكن تمتلكها منذ البداية، ومثلما أنّك لا تتألم ولا تحزن على الأموال التي لا تمتلكها فافعل ذلك بشأن الأموال التي فقدتها، فلا تحزن عليها، ولا تؤذي الآخرين بسببها، ولا تضيّع نفسك؛ بل كن شاكرًا لله لأنّك استطعت أن تستفيد



منها وتتنعّم بها في وقتٍ من الأوقات، وها هي منذ اللحظة التي فقدتها أصبحت كغيرها من الأشياء التي لا تمتلكها. هناك الكثير من الأشياء التي ليست بيدك فهل ينبغي أن تتألّم وتحزن على كلّ شيء لا تمتلكه؟! يجب أن نشكر الله المنّان لأنّنا استفدنا من هذه النعمة لبعض الوقت، وها هي قد انتهت مدّتها وزالت وأصبحت بيد شخصٍ آخر يستفيد منها، فوجودها وعدمه لا علاقة له بنا كي نفكّر به. ولو عادت إلى أيدينا فهي نعمةٌ مستحدثةٌ وهبنا الله العطوف إياها وعلينا أن نؤدّي شكرها.

لهذا، فإنّ أفضل وسيلةٍ للتخلّص من غصّة فقدان الأموال هي أن نعتبرها مثل تلك الأشياء الكثيرة التي لم تكن بأيدينا، فهل نحزن على عدم امتلاكها بحيث نحزن الآن على فقدانها؟! «**إِنْ كُنْتَ جَازِعًا عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِن بَيْنِ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَم يَصِلْ إِلَيْكَ**». فإذا كان من المقرّر أن تجزع على ما فقدته فعليك أن تجزع وتقيم مأتمًا على ما لم يصل إلى يديك، فهذه الأشياء متشابهة لأنّها ليست بيدك الآن وأنت لا تملك أيًّا منها؛ ومثلما أنّك لا تجزع على ما لا تمتلك، فلا تجزع على تلك النعمة التي كنت تتمتّع بها وتستفيد منها والآن لم تعد بيدك، فهي مثل تلك الأشياء التي لم تكن تملكها أصلًا.

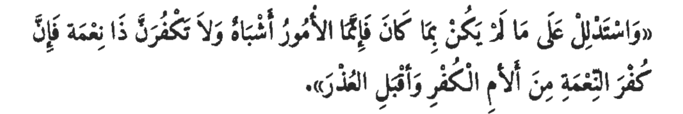


الدرس التاسع والثلاثون

دروس التاريخ |١|

- الماضي مصباح طريق المستقبل
- منطق الاعتبار
- العبرة بلا منطق
- أنموذج ونكتة
- صفحة من التاريخ
- جزاء كفران النعمة





«وَاسْتَدْلِلْ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا كَانَ فَإِنَّمَا الأُمُورُ أَشْبَاهٌ وَلاَ تَكْفُرَنَّ ذَا نِعْمَة فَإِنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ مِنَ أَلأَمِ الْكُفْرِ وَأَقْبَلِ الْعُذْرَ».

الماضي مصباح طريق المستقبل

لقد وصلنا عند شرح رسالة أمير المؤمنين عليعَلَيهِ‌السَّلَامُ للإمام الحسنعَلَيهِ‌السَّلَامُ إلى هذا المقطع حيث يقول الإمام استدلّ على ما لم يقع بما وقع؛ أي إنّ أحداث الماضي ووقائعه هي بمنزلة المصباح الذي يضيء طريق المستقبل وفي مقام التعليل، وبعد الاستناد إلى هذا الكلام، يقول: لأنّ الحوادث متشابهة ويمكن الاستدلال على شبيهٍ بشبيهٍ آخر.

لهذه الجملة من بين كلمات وخُطب الإمامعَلَيهِ‌السَّلَامُ جانبٌ وعظيٌ ونصيحة وهو ليس بحثًا علميًا وفلسفيًا[1]. بل هو يعظ الغافلين بالاستناد إلى حقيقة مسلّمة ويريد أن يوقظهم من سبات الغفلة وذلك لأنّ الإنسان حين يُحللّ أحداث الزمان يُدرك أنّ هناك أحداثًا عجيبة غريبة قد مرّت على حياة البشر، وأنّ الإنسان قد عبر تاريخًا مليئًا بالأحداث والتقلّبات حتى وصل إلى هنا.

وباليقين، إنّ تلك الأحداث لم تنتهِ بعد، وهي في حالٍ من الجريان وترتدي دومًا لباس التحقق. إنّ إحدى أعمّ ظواهر هذا العالم هي أنّ جميع الناس الذين

---

(١) يوجد في الفلسفة قاعدةٌ تقول «حكم الأمثال في ما يجوز وفي ما لا يجوز»، وتقع هذه القاعدة محل بحثٍ عند الفلاسفة. على أيّ حال، فالمقصود أنّ هذه العبارة للإمام (واستدلل...) لا علاقة لها بتلك القاعدة الفلسفيّة.

يعيشون في هذا العالم قد حزموا متاعهم هنا وأودعوا بيوتهم وأموالهم لغيرهم، والآن يجب أن نفهم من هذا القانون الحتميّ أنّه سيأتي علينا زمانٌ نرتحل فيه عن هذا المنزل الخرِب ونودع أموالنا وبيوتنا ومتاعنا لغيرنا. لهذا، لا ينبغي أن نُعلّق القلب بهذا الزمن العابر ومتاعه البخس، لأنّ مثل هذا التعلّق يؤدّي إلى عدم التفريق بين الحرام والحلال، فنمدّ يدنا إلى الحرام لأجل تحقيق آمالنا وهوسنا. فنحن نتعلّق بالدنيا ومالها وبالأبناء إلى الدرجة التي تبعدنا عن أداء وظائفنا الشرعيّة وتكاليفنا الإلهيّة، بينما لا ينبغي للإنسان الباحث عن الكمال أن يترك المستحبّات والوظائف الأخلاقيّة لأجل هوى الدنيا وثرواتها. فإنّ الحدّ الأدنى من الضرر والخسران، الناشئ عن تعلّق القلب بشؤون الدنيا، هو أن يقلّ توجّه الإنسان نحو الأمور والقيم المعنويّة. في حين أنّ التوجّه الذهنيّ والميل القلبيّ للإنسان ينبغي أن ينحصر بالأمور المعنويّة السامية. من الواضح، أنّ الصلاة بلا حضور قلب والعبادة، العارية من التوجّه القلبيّ تزيد من قسوة قلب الإنسان، مثلما أنّ المطالعة من دون تركيز الحواس تكون خالية من الفهم والإدراك. فتعلّق القلب بالدنيا والبيت والزوج والأبناء ليس أمرًا عقلانيًّا، لأنّ جميع هذه التعلّقات ولو تحقّقت عن طريق الحلال والشرع فإنّها مع ذلك مضرةٌ برقيّ الإنسان وتقدّمه وهو ضررٌ لا يُمكن جبرانه.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ تسوية الحساب يوم القيامة بشأن هذه الأموال الحلال ستؤخّر الإنسان مدةً طويلة في المحشر وهذا هو الحدّ الأدنى من الضرر الذي يُمكن أن يلحق بالإنسان نتيجة تعلّق القلب بشؤون الدنيا. وفي هذا المقام ولأجل بيان هذا الواقع، يقول الإمام علي عليه السلام: اعتبر من الماضي للمستقبل، واعلم أنّ هذه الدنيا لم تكن وفيّةً لأحد لأنّ مصير أولئك الذين أحبّوا هذه الدنيا وعملوا على جمع ثرواتها كان قبيحًا ووخيمًا. وهناك عاقبة حسنة بانتظار أولئك الذين يكون توجّههم وتوكّلهم على الله. لذا، اعتبر في جميع سلوكيّاتك وأعمالك، من الماضين، واعلم أنّ في المستقبل المشابه، سيجري علينا ما جرى عليهم.

منطق الاعتبار

يجب الالتفات إلى أنّ الناس يختلفون فيما بينهم من ناحية الاستفادة من أحداث الماضي والاعتبار من التاريخ. فالبعض يكتفون بالقليل وليس لديهم ذاك التوجّه



والاهتمام بحوادث الماضي والاعتبار منها. فهؤلاء في الأغلب يتّبعون هوسهم الآني والعابر وهم عالقون في اتّباع رغباتهم وأمنياتهم وكأنّهم ينتظرون الأوامر منها لكي يسارعوا إلى تلبيتها، لذلك لا يهمّ هؤلاء من أين تنشأ هذه الرغبات وهم يتّبعونها لأي سبب كان، سواءٌ كان طبيعيًا كالجوع والعطش والحاجة الجنسيّة أو بسبب تأثير البيئة والمجتمع. فهؤلاء لا يفكّرون أبدًا بما سيؤول إليه هذا العمل وما هي نتائجه. من الواضح أنّ هذه الفئة من الناس قد التحقوا بالبهائم وهم يُعدّون منها: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وفي المقابل، هناك فئة تعمل دائمًا على الاستفادة والاعتبار من قضايا التاريخ وأحداثه، وقد جعلت تلك الحوادث الماضية مصباحًا يُضيء دروب حياتها في المستقبل، لكن بعض هؤلاء قد يُبتلون أحيانًا بنوعٍ من المغالطة أو الإفراط في هذا المجال ويتصوّرون أنّه يمكن لهم أن يبنوا جسرًا من أي حادثةٍ إلى أي حادثةٍ والاعتبار منها. ويتصوّرون أنّ أي شيء هو دليلٌ على أيّ شيء. للأسف، إنّ هؤلاء قد يفرطون في هذا المجال إلى درجةٍ ينسون حكم القضايا والمسؤوليّات الاجتماعيّة الواضحة ويتوقّفون عن أداء تكاليفهم الشرعيّة. ولأجل إيضاح هذه المسألة أكثر من المناسب أن نُشير إلى أنموذجٍ واقعيّ.

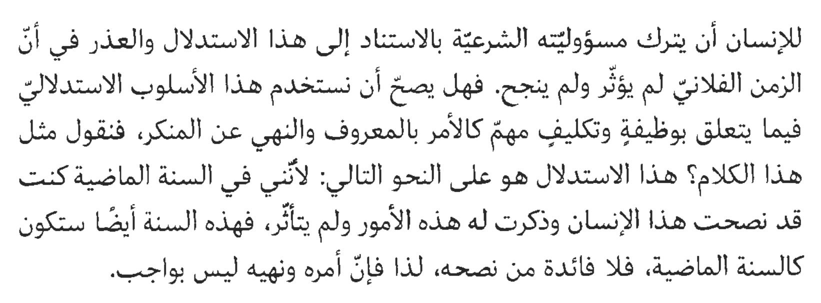
العبرة بلا منطق

حين كان الإمام الخميني (رحمه الله) يواجه الطاغوت قبل انتصار الثورة الإسلاميّة، كان البعض يقول إنّ هذا النضال والكفاح لن يصل إلى أيّ مكان، لذلك لم يشاركوا في أنشطة الثورة. وحين كانوا يُسألون ما هو دليلكم على ما تزعمون ولماذا تقتنعون بهذه النتيجة كانوا يُجيبون قائلين: لقد قام العلماء على النظام الطاغوتيّ عدّة مرّات لحدّ الآن، ولكنّ قيامهم لم يصل إلى أي مكان. ففي زمن الطاغوت الأبّ، قام العلماء وقُتل بعضهم في الأحداث، والبعض الآخر قد أودع السجن، لكنّهم لم يصلوا إلى نتيجة. فهذه الحركة الثوريّة محكومة بالهزيمة كسابقتها!

لا شك بأنّ مثل هذا الكلام هو استدلالٌ إفراطيّ ممتزج بالمغالطة، ولا يمكن

---

(١) سورة **الحجر**، الآية ٣.



للإنسان أن يترك مسؤوليّته الشرعيّة بالاستناد إلى هذا الاستدلال والعذر في أنّ الزمن الفلانيّ لم يؤثّر ولم ينجح. فهل يصحّ أن نستخدم هذا الأسلوب الاستدلاليّ فيما يتعلق بوظيفةٍ وتكليفٍ مهمّ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنقول مثل هذا الكلام؟ هذا الاستدلال هو على النحو التالي: لأنّني في السنة الماضية كنت قد نصحت هذا الإنسان وذكرت له هذه الأمور ولم يتأثّر، فهذه السنة أيضًا ستكون كالسنة الماضية، فلا فائدة من نصحه، لذا فإنّ أمره ونهيه ليس بواجب.

فمن الواضح أنّ مثل هذا الاستدلال لا يمكن أن يكون موجبًا لعدم وجوب تكليفٍ مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّه من الممكن أن يكون مؤثّرًا في هذا الزمان، وفي هذا الشخص. فلو كان من المقرّر أن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب أنّ فلانًا مثلًا لم يستمع إلى كلامي سابقًا، فأيّ زمانٍ وأيّ وقت سيكون مناسبًا لأداء هذا التكليف؟ فهل يصحّ أن نترك هذه المسؤوليّة الإلهيّة الثقيلة إلى الأبد بحجّة أنّني قلت ذات مرّة ولم يؤثر؟

النموذج الآخر لهذا النوع من الاستدلالات هو أنّه كلّما جرى الحديث عن التدخّل في القضايا والمسؤوليّات الاجتماعيّة يُقال إنّ الإنكليز يدعمون هذه القضيّة، ولا شكّ أنّ لهم دخالة فيها، لهذا فإنّ هذه القضيّة لن تصل إلى أي مكان؛ أي باستخدام عبارة «هذه سياسة الإنكليز» كانوا يحكمون على تلك الحركة الثوريّة بالبطلان. وقد كانت هذه العبارة مستندًا يستعمله الكثير من الأفراد العجّز ويستنتجون منه أنّ هذا العمل لن يكون مجديًا، ولا ينبغي الإقدام عليه. بالطبع، كان هناك في هذه الفئة أشخاصٌ متديّنون وجيّدون يبحثون عن تكليفهم والقيام به، لكنّهم كانوا يتصوّرون أنّ هذا الاستدلال هو استدلالٌ صحيح وهو أنّه إذا كان للإنكليز يدٌ في مكانٍ ما، فلن يكون هناك مجال للتحرّك، لأنّ الإنكليز يستطيعون أن يفعلوا ما يحلو لهم، ونحن سنكون محكومين بالهزيمة. وفي هذه النهضة الأخيرة، كان هناك أشخاصٌ يقولون لا يمكن مواجهة الطاغوت لأنّ هذه المواجهة هي كمقاومة العين للمخرز ومن المعلوم ما ستكون نتيجتها.

فهل يمكن للعين أن تقاوم المخرز؟! هؤلاء يمتلكون الأسلحة ولا يمكن أن نذهب لمواجهة عدوّ مسلّح بأيدٍ خالية، لهذا لن تكون عاقبة أي تحرّك سوى الهزيمة والزوال، وإذا تحرّكنا فسوف يبيدوننا. ولكن من جانبٍ آخر، إذا لم يكن

الاستدلال بالأمور الشبيهة صحيحًا، فلماذا يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: استدلّ من الماضي على المستقبل، واجعل الماضي مصباح طريق المستقبل؟! قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فإنّما الأمور أشباه**». بناءً على هذا الكلام، حين تكون الأحداث متشابهةً يمكن الاستدلال بشبيهٍ على شبيهٍ آخر. لذا، فإنّ استدلال العلماء والمفكّرين والسياسيّين على هزيمة الثورة، هو استدلالٌ منطقيّ وصحيحٌ بدليل مقارنته بهزيمة العلماء في المواجهة السابقة مع الطاغوت، فكيف يمكن حلّ مثل هذا التعارض؟

يجب أن نقول في الجواب إنّ أفضل دليلٍ على عدم صحّة هذا الاستدلال هو انتصار الثورة وتغيير وضع البلاد. وببيانٍ علميّ، إنّ أفضل دليل على إمكان تحقّق أي شيء هو وقوعه. وفي الواقع، إنّ تغيير الأوضاع يدلّ على أنّ الحالتين والعصرين لم يكونا متشابهين حتى ينطبق عليهما كلام الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد أبطل انتصار الثورة هنا استدلال العلماء عمليًا.

أنموذج ونكتة

من الجيّد هنا أن نشير إلى أنموذج ملفت لإثبات وبيان تغيير الأوضاع: من المعروف أنّ من بين مدن إيران، تُعدّ مدينة «يزد» من أكثر المدن تديّنًا، لهذا سُمّيت بدار العبادة. وهناك الكثير من المدارس الدينيّة الموجودة في هذه المدينة. وقد كان اهتمام أبنائها بالقضايا الدينيّة معروفًا منذ القدم وما زال. في السابق، لم يكن في هذه المدينة من بين المعلّمين المسلمين من كان يجيد قراءة القرآن قراءة صحيحة للمراحل الخامسة والسادسة من التعليم، وإذا واجه أحدٌ صعوبةً في قراءة القرآن، كان عليه أن يسأل معلّمًا زردشتيًا. يجب أن نذكّر أنّ هذا الكلام يبيّن إحدى الوقائع المسلّمة والتاريخيّة في مدينة يزد، فلم يكن الأمر مجرّد أسطورة، فقد كان الواقع الموجود في بلدٍ إسلاميٍّ شيعيّ وفي مدينة دار العبادة وهي مدينة «يزد» أنّه حين كان يبرز سؤال حول قراءة القرآن، كانوا يسألون معلمًا زردشتيًا؛ ولكن لماذا؟!

فقبل خمسين سنة، صرّح السياسيّون الإنكليز أنّه ما دام القرآن رائجًا بين الناس، لا يمكننا أن نتحكّم ونسيطر عليهم، لهذا استطاعوا أن يسحبوا القرآن من أيدي المسلمين وفق خطةٍ مدروسةٍ إلى الدرجة التي أصبح معلّمو المدارس

عاجزين عن قراءته عن ظهر قلب. وفي هذا المجال، يُنقل قصّةٌ طريفة بهذا الخصوص وهي أنّهم فتحوا القرآن أمام أحد المعلّمين ذات يوم وجاؤوا بسورة «**يس**» وطلبوا منه أن يقرأها، فقرأ ذاك المعلّم: بسم الله الرحمن الرحيم، يس (yes) وإن كانت هذه نكتة لكنّها تحكي عن واقعٍ مرير. في زماننا أيضًا، وصلت الدول الاستعماريّة، وخصوصًا الشيطان الأكبر، إلى هذه النتيجة وهي أنّه ما دامت ولاية الفقيه حاكمة في إيران فإنّ تلك الدول وعملاءها لا يمكنهم أن يحكموا هذا البلد، لهذا يقولون أنّه ينبغي أن نسلب ولاية الفقيه من الناس، وأن نبعدهم عن محور الولاية لكي نصل إلى أهدافنا.

صفحة من التاريخ

يجب أن نلتفت إلى أنّ فصل الناس عن ولاية الفقيه ليس بأصعب من حذف القرآن من بينهم، فلم يكن فصل هذا الشعب عن القرآن عملًا سهلًا ولم يكن أحدٌ ليجترّأ على أن يقول للناس لا تقرأوا القرآن، لكن أولئك وضعوا الخطط وعلى مدى مدّةٍ طويلة وبعد سنوات نجحوا في ذلك. بالطبع، تشاهدون اليوم وببركة الثورة الإسلاميّة أطفالًا بعمر الخمس سنوات يحفظون **القرآن الكريم** كلّه. في حين أنّه في ذلك الزمان لم يكن المعلّمون الذين تبلغ أعمارهم ثلاثين وأربعين سنة يعرفون قراءة القرآن. لقد وضعوا الخطط حتى تمكّنوا شيئًا فشيئًا من حذف القرآن من البرامج، وقد وضعوا للطّلاب ذلك القدر من الدروس الجانبيّة حتى يجعلوا فرصة الاهتمام بالقرآن معدومةً.

فهل تظنّون اليوم أنّ عزل الناس عن ولاية الفقيه هو أصعب من عزلهم عن القرآن الكريم؟ لقد وضعوا الخطط الطويلة الأمد التي يمكن تحقيقها بعد عشرين سنة من أجل أن يستقصوا ولاية الفقيه من المجتمع الإسلاميّ. وللأسف، فقد نجحوا إلى حدٍّ ما، وفي الحدّ الأدنى تجدونهم الآن يتجرّؤون على طرح ذلك في الجامعات، حتى قالوا لطّلاب الجامعات إنّ ولاية الفقيه لا دليل عليها سوى أنّها قد وردت في الدستور من الناحية القانونيّة وبما أنّ الدستور هو حصيلة جهودٍ بشرية فهناك احتمالٌ لوقوع الخطأ فيه ولا بدّ من تغيير القانون إذا أردنا أن نصون أنفسنا من الأخطاء. فنحن يمكن أن نقبل بولاية الفقيه لأنّها في الدستور، أمّا إذا لم يقل الدستور بولاية الفقيه فسوف نضعها جانبًا، ذلك لأنّ اعتبار ولاية الفقيه مرتبطٌ

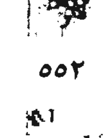


باعتبار الدستور. وبعبارةٍ أخرى، إنّ مشروعيّة ولاية الفقيه بحسب زعمهم ناشئةٌ من الدستور وبتغيير هذا الدستور ستفقد ولاية الفقيه اعتبارها.

فهؤلاء يوعزون للآخرين بأنّ الدستور وحيٌ منزل وهو الذي يمثّل الدعامة والاعتبار لولاية الفقيه، في حين أنّ ولاية الفقيه هي من عقائدنا الدينيّة نحن الشيعة، وإنّ الوليّ الفقيه هو الذي يعطي الاعتبار للدستور. فلو لم يكن للوليّ الفقيه إمضاءٌ، فلا يكون للدستور والقوانين العرفيّة اعتبارٌ. إنّ ما يُلزمنا لنتحرّك على طريق التضحية في سبيل الدين وبذل أنفسنا وأعمالنا وأعمارنا هو حكم الوليّ الفقيه، لأنّ حكمه هو حكم الدين وأمر الله. وإذا كان الناس ينزلون إلى الشوارع أيام الطاغوت ويستقبلون الطلقات الناريّة بصدورهم العارية، فذلك لأنّه كان هناك حكمٌ لنائب إمام الزمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليوم أيضًا هم مستعدّون للدفاع عن الإسلام والنظام الإسلاميّ بأيّ شكل ارتكازًا على حكم الوليّ الفقيه. فشعبنا يعتبر طاعة الوليّ الفقيه واجبةً بالاستناد إلى أنّ الولي الفقيه هو نائب إمام الزمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنّ حكمه هو حكم الله ورسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وإلا استنادًا لأي دليلٍ يضع الإنسان نفسه في المخاطر ويتقبّل الأضرار والأذى الماليّ والجسمانيّ ويقدّم الروح؟

لقد أدرك أعداء الإسلام قبل المسلمين أهميّة وموقعيّة ولاية الفقيه، ولأجل التقليل من شأنها وضعوا خططًا وبرامج من أجل أن يقصوها عن المجتمع الإسلامي، وهم يسعون للطعن بضرورة ولاية الفقيه في أذهان الناس ولتفريغ قلب الإنسان المؤمن وفكره من طاعة الوليّ. وللأسف، فقد نجحوا في العديد من الموارد. لذا، يجب علينا نحن المسلمين اليوم أن نكون أكثر وعيٍ من الماضي، وأن نواجه هذه الألاعيب السياسيّة والمؤامرات الثقافيّة لكي لا نستحقّ العقاب الإلهيّ ولا نحرم أنفسنا من نعمة الولاية الكبرى.

ولأجل إدراك جانبٍ من أهميّة هذه النعمة يكفي أن نُلقيّ نظرةً سريعةً على أوضاع البلد المجاور لنا «أفغانستان». لقد ضحّى الشعب الأفغاني المسلم بنفسه من أجل إخراج قوى الكفر ومواجهة حكومة الطاغوت ليحقّق النصر في هذه المواجهة. ولم تكن المصاعب التي واجهها هذا الشعب المسلم في مواجهته ومحاربته لطاغوت زمانه لتقلّ عن تلك المصاعب التي تحمّلناها في إيران، ولكن إلى أين وصلت كلّ تلك التضحيات العظيمة والدماء التي أُريقت؟ لقد مرّ عقدان



من الزمن وهم غارقون في النزاعات فيما بينهم، وتحت عنوان أنّهم مسلمون كانوا يتوضّؤون بدماء بعضهم بعضًا، لأنّه لم يكن بينهم موقعيّة للوليّ الفقيه الذي يمثلّ المحور والموجّه لجميع الجهود.

في إيران وببركة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وثقافة التشيّع الخاصّة. أصبحت قضيّة ولاية الفقيه موضوعًا مقبولًا. وفي دولة أفغانستان، لأنّ أغلب الشعب على المذهب السنّي، فليس لديهم أي معرفة فكرية أصلًا عن ولاية الفقيه، وحتى لو فرضنا أنهم سيقبلون هذا الموضوع من الناحية القانونيّة فلا يوجد بينهم من يتمتّع بالصلاحيّة والأهليّة اللازمة لقد منّ الله تعالى على دولة إيران والشيعة بنعمةٍ هي وجود هذا الرجل الإلهيّ الذي يُضيئ محفلنا كالكوكب الدريّ.

فحتى لو لم نكن معتقدين بالإسلام، فالإنصاف هو أن نعترف بأنّ ولاية الفقيه هي هديّة إلهيّة وضامنة لسعادة المجتمع، ولو لم نتمتّع بهذه النعمة الإلهيّة لكان لدينا أفغانستان أخرى هنا، لأنّ الاختلافات القوميّة في إيران لا تقلّ عن أفغانستان، وعدد القوميّات المتواجدة في إيران هي أكثر من القوميّات الأفغانيّة والشاهد على هذا الادّعاء هي تلك الاختلافات التي حصلت في بداية انتصار الثورة، فلم تكن الاختلافات الفئويّة مثل الكرد والتركمان والعرب والبلوش وغيرهم بأقلّ من الاختلافات الفئويّة الموجودة في أفغانستان، لكن الذي جمع كل هذا الشعب تحت رايةٍ واحدة هو تلك القيادة الإلهيّة التي نُطلق عليها ولاية الفقيه. ولو لم تكن تلك القدرة الإلهيّة فأيّ قدرةٍ حزبية وتنظيميّة كانت تستطيع أن تحقّق مثل هذه الوحدة؟ فنجد اليوم بعض مدّعي الثقافة في البلاد يعشقون البلد المتعدّد الأحزاب ويسعون نحو الكردستانيّة والتركمانستانيّة والعربستانيّة. أمّا عقيدتنا في المقابل، فهي تقوية المبادئ الفكريّة والعمليّة لولاية الفقيه.

إنّه لمن الجحود والكفران أن نضعف بكلامنا الاعتباطيّ وعملنا غير الصائب أركان ولاية الفقيه الفكريّة والاعتقاديّة والعمليّة. إنّ أكبر كفرانٍ هو أن نجعل الديمقراطيّة لا سمح الله مكان ولاية الفقيه. وفي أجواء هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر المشابهة، يقول أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَلاَ تَكْفُرَنَّ ذَا نِعْمَة فَإِنَّ كُفْرَ النِّعمَةِ مِنْ أَلأَمِ الْكُفْر**». إنّ عدم شكر وليّ النعمة هو من أحطّ وأدنى الكفر. فأسوأ الكفر كفران النعمة. فكم ينبغي أن يكون الإنسان كافرًا بالنعمة حتى يضيّع

من دون أي تأسفٍ مثل هذه النعمة العظيمة التي أهداها الله المنّان له؟ إنّها لمنتهى الحماقة أن يردّ الإنسان بمثل هذه الجرأة تلك النعمة التي كانت أساس افتخاره وعزّته في الدنيا وسعادته في الآخرة. فكيف يسكت ببعض المفكّرين في مقابل هذه الذهنيّة الجاهلة؟ وهل إنّ عدم المبالاة في مقابل بعض مدّعي التنوّر المتغرّبين الذين يسخرون من هذه النعمة صحيحٌ؟ وهل من الصحيح أن نجلس ساكتين مقابل الطعن بولاية الفقيه والتشكيك بها؟

جزاء كفران النعمة

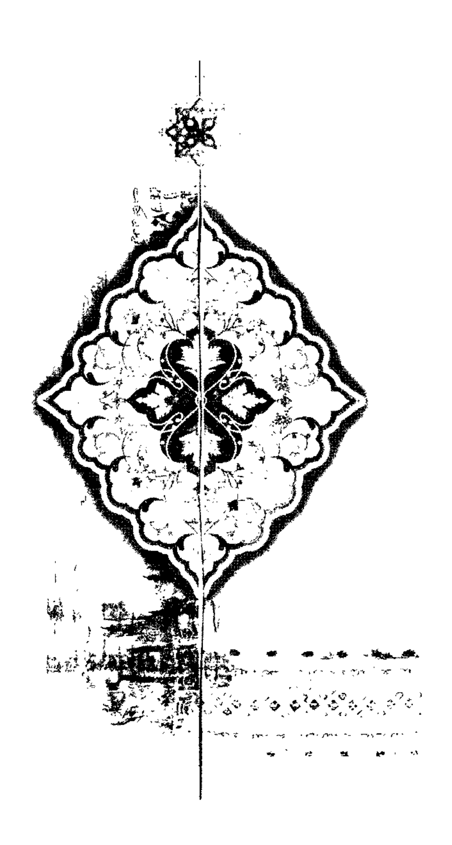
من المناسب هنا أن ندرس تلك الموارد من شكر النعمة وكفرانها وعواقب ذلك بالتأمّل المختصر في القرآن. فالله تعالى يحذّر في **القرآن الكريم** وفي العديد من الموارد من كفران النعمة، ويبيّن آثار كفران النعمة أو شكرها. ومن تلك الموارد قوله تعالى في الآية المباركة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1]. وفي اللغة العربية، يُستعمل الوزن تفعّل، من أجل التشديد على المفهوم. ففي هذا المورد، نجد أنّ الله جلّ جلاله يُعلن أمرًا مهمًا جدًا بلهجةٍ شديدةٍ وحادة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. فلام القسم، التي تأتي مع تأكيد اللفظ، تدلّ على الإصرار في هذه الحقيقة وفي تتمّة الآية، يقول: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وهذه هي السنّة الإلهيّة الحتميّة في أنّ الذين يقدّرون النعمة فإنّ الله سوف يزيدهم منها، والذين لا يقدّرونها فإنّهم عاجلًا أو آجلًا سيخسرونها. لقد وجدنا طوال التاريخ الكثير من النماذج حيث كان لكفران النعمة بحسب السنّة الإلهيّة الأثر في الحرمان، وكان شكر النعمة سببًا لازديادها حيث يطول الكلام هنا ويخرج عن استيعاب هذه الصفحات. ولكن من اللازم أن نؤكّد ونعتمد على هاتين النعمتين الإلهيّتين الكبيرتين: أحدهما، نعمة الثورة الإسلاميّة العظيمة، والثانية هي نعمة ولاية الفقيه. فهتان النعمتان من أكبر النعم الإلهيّة التي وهبنا الله تعالى إيّاها في هذا الزمان.

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ٧.

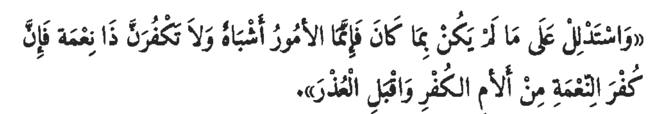
فلو لم تكن هذه الثورة الإسلاميّة، ولو لم تكن ولاية الفقيه، لما كان لنا مثل هذه العزّة والانتصار والشموخ. إنّ كلّ عزّة إيران والإيرانيّين هي حصيلة الثورة الإسلاميّة ووجود ولاية الفقيه. وإنّ كلّ التطوّر الماديّ والمعنويّ في هذا البلد، مرهونٌ بهاتين النعمتين الكبيرتين الفريدتين. وببركة هاتين النعمتين النازلتين من الله تعالى فُتح علينا طريق آلاف التطوّرات والإنجازات الراقية. ولا ننسى أنّ هاتين النعمتين كانتا مقابل آلاف السنوات من سعي المجاهدين والعلماء وتضحياتهم. وإنّ هذا المشعل الوضّاء قد اشتعل من مداد أرواح هؤلاء وحياتهم. ونذكر ذلك الحكم المعروف للميرزا الشيرازي في حكم التنباك حين حكم بحرمة استخدام التبغ والتنباك، واعتبر ذلك مخالفةً لإمام الزمان عليه السلام. حينها توقّف الشعب الإيراني بأكمله، بشبابه وشيوخه، عن استخدام التنباك ونفّذوا ذلك الحكم من دون أي تردّد، وقد كان هذا بسبب أنّ الناس اعتقدوا أنّه كان نائب إمام الزمان عليه السلام وحكمه واجب الطاعة. فقد أدرك الأعداء منذ ذلك الوقت هذه القدرة العظيمة للولاية فخطّطوا منذ ذلك الوقت لإبعاد الناس عن ولاية الفقيه وغسل أذهانهم وأفكارهم من فكرة ولاية الفقيه عسى أن يسلبوا منّا هذه النعمة الإلهيّة. لقد ظنّ هؤلاء الأعداء أنّه بعد عصر البهلويّة وطيلة الخمسين سنة من حكم الشاهنشاهيّة، فإنّ حاكمية هذه القوّة الإلهيّة العظيمة ستضعف في قلوب الناس، لكنّهم لم يعلموا أنّ عشق ولاية الفقيه ومحبّة إمام الزمان عليه السلام ونائبه قد تجذّرت في قلوب أبناء هذا الشعب إلى الدرجة التي لا يمكن لها أن تيبس أبدًا وأنّ هذه النعمة وهذه الثقافة ستتفتّح يومًا بعد يوم وسوف تعمّ آثارها وبركاتها كل هذا العالم وتظلّله إن شاء الله.



الدرس الأربعون
دروس التاريخ |٢|

- تكرار أو تشابه الأحداث
- المستقبل يختلف عن الماضي
- قانونيّة الحوادث الاجتماعيّة
- الخلاصة والنتيجة





«وَاسْتَدْلِلْ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا كَانَ فَإِنَّمَا الأُمُورُ أَشْبَاهٌ وَلاَ تَكْفُرَنَّ ذَا نِعْمَة فَإِنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ مِنْ أَلأَمِ الكُفْرِ وَاقْبَلِ الْعُذْرَ».

كما مرّ في البحث السابق، لقد قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يعظ ابنه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أن اجعل الماضي مصباح طريق المستقبل وعليك بالاستدلال من مسار الماضين على المستقبل، لأنّ أحداث العالم متشابهة وحين تقع حادثة في الماضي فسوف يحدث ما يشبهها في المستقبل فلو دقّقت في الماضي استطعت أن تأخد العبرة منه.

تكرار أو تشابه الأحداث

يقول الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضمن وصاياه إنّ عليك جعل أحداث الماضي دليلًا لطريق المستقبل، فالأمور والحوادث تتشابه. وهنا، يبرز هذا السؤال، وهو هل أنّ قضية «**إنّما الأمور أشباه**» هي قضيةٌ عامّة وكليّة أم لا؟ وهل إنّ الأمور والأحداث تتشابه بحيث إذا وقعت حادثةٌ في الماضي فسوف يقع ما يشابهها تمامًا في المستقبل؟ من الواضح جدًّا أنّ الأحداث لا تتشابه تشابهًا دقيقًا، وأنّ هذا الكلام ليس كلّيًا ولا عموم له. فقد تتشابه الأحداث والوقائع أحيانًا وقد لا تتشابه أحيانًا أخرى، فإذا لم يكن لهذه القاعدة عموم وكليّة فكيف يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنّما الأمور أشباه**»؟ فباستعمال لفظ «إنّما» الذي يفيد الحصر مع التأكيد يقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إنّه علينا أن نلتفت إلى الماضي لنعرف على أساسه المستقبل، لأنّ الأحداث تتشابه. لكن حين يصبح هذا الاستدلال تامًّا، تصبح هذه القاعدة كلّيّة.

في حين أنّنا نعلم أنّ أحداث الماضي تتفاوت في الكثير من الحالات مع الحاضر والمستقبل، لهذا يبرز هذا السؤال وهو أنّه إذا لم يكن لهذه القاعدة كليّة وعموم فما معنى كلام الإمام؟ ولماذا كان كلامه بظاهره يُشير إلى الكليّة؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال والإشكال على نحوين: **الجواب الأوّل** هو أنّ كلام الإمام عليه السلام هو بيانٌ خطابيّ، وفي مقام البحث يُمكن عرض عدّة أنواع من الاستدلالات التي هي عبارة عن البرهان والجدل والخطابة والشعر والمغالطة التي تُذكر في المنطق تحت عنوان الصناعات الخمسة، وتؤدي كلّ واحدة من هذه الصناعات دورًا مختلفًا في الاستدلال. فخصوصيّة الاستدلالات الخطابيّة هي أن يُستفاد فيها من الأدلة الظنّيّة وهدف البيان الخطابيّ هو تحريك المخاطَب للقيام بعملٍ ما أو نحو هدفٍ ما يكون فيه خيره وصلاحه.

والمواعظ هي في الأغلب من هذا القبيل، لأن الذي يعظ وينصح لا يكون أبدًا في مقام الاستدلال والبرهان ولا يستخدم الأسلوب الفلسفيّ وهو يتحدث بأسلوبٍ يستفيد منه المخاطَبون في ميدان العمل، لهذا من الممكن أن لا يكون لبيانه كليّة وعموم، ولكنّه يجري في أغلب الموارد. فيكفي أن يلقي الخطيب والمتكلّم مثل هذا البيان على أسماع المخاطَبين حتّى يستعملود ويستفيدوا منه عند الحاجة وفي الوقت المناسب، فيحتفظ المخاطَب بهذ البيان ويستفيد منه في الموقع المناسب القابل للتطبيق. ففي الخطابة، لا يكون البيان كليًّا وتكون مقدّمته مجموعة من المقدّمات الظنّيّة ويعتمد الكلام فيها على الظنّيات والهدف منها هو حمل المخاطَب على القيام بعملٍ والوصول إلى هدف. وهدف الإمام علي عليه السلام هنا هو أن يُطلع المستمع على عدم ثبات أحداث المستقبل من خلال ذكر أحداث الماضي، ليعلم أنّ هذا العالم ليس باقيًا وإذا كانت أحداث الماضي مقترنةٍ بالألم والمشقّة، فسوف يكون المستقبل كذلك. لقد جرّبنا جميعًا أنّ النجاح يتلازم دومًا مع الصعوبة، وتتقارن الأفراح مع الأتراح، لذلك يجب أن نعلم أنّ المستقبل سيكون كذلك ولا ينبغي أن نتوقّع أن جميع الأمور ستكون وفق المراد أو أنّ ما سيحصل سيكون باقيًا دائمًا ولا يفنى. فهدف الإمام هو أن يعتبر المخاطَب من أحداث الدنيا حتى لا يعلق قلبه بها لهذا يقول انظر إلى الماضي. صحيحٌ أنّ الماضي والمستقبل ليسا متشابهين دائمًا وأنّ هذا الكلام ليس قاعدةً كليّة ولكن مقصود الإمام يُختصر في هذه الموارد حيث يتشابه الماضي والمستقبل.



وحصيلة الجواب الأوّل هو أنّ بيان الإمام عليه السلام هنا بيانٌ خطابيّ وقد ورد في مقام الوعظ، وبحسب القاعدة فالبيانات الخطابيّة لا تفيد ما هو أبعد من الظنّ؛ أي إنّ البيانات الخطابيةّ لا تقدّم سوى مضمون ظنّي يمكن أن ينطبق في أكثر الموارد ويكون قابلًا للتطبيق، ويمكن أن يُستثنى ولا يصدق في موارد أخرى، فهو ليس بيانًا يقينيًا لا استثناء فيه.

الجواب الآخر الذي يمكن عرضه هو أنّ الإمام علي عليه السلام حين يقول «**إنّما الأمور أشباه**»، فالمقصود هو أنّه يوجد تشابهٌ بين الأحداث إلى حدٍّ ما. وبعبارةٍ أخرى، تتشابه الأحداث من جهات، وليس المقصود أبدًا أنّ كل ما وقع في الماضي سيقع في المستقبل بالصورة والحالة نفسها، فالكل يعلمون أنّ الذين كانوا يعيشون قبل ألف سنة لا يمكن أن يرجعوا إلى هذا العالم مرّةً أخرى، فنحن لا نقول إنّ أحداث المستقبل ستكون مثل الماضي، وإنّها ستتكرّر بتلك الخصوصيّات عينها، بل المقصود هو أن نفهم أنّ الأحداث التاريخيّة تتشابه من جهات، فإذا استطعنا أن نكتشف وجه الشبه يمكننا أن نقول إنّ الماضي يشبه المستقبل من هذه الجهة.

فأحداث الزمان ووقائعه تتشابه، لكن هذا التشابه ليس من جميع الجهات، بل من جهاتٍ معيّنة. يجب علينا أن نكتشف وجه الشبه المشترك هذا، كي نتمكّن من الاستفادة منه للمستقبل وأحداثه. بالطبع، يجب الالتفات إلى أنّ المشابهة هي غير المطابقة، ففي المطابقة يكون التشابه والانسجام التامّ ضروريًا في حين أنّه يكفي في التشابه أن تتطابق الظاهرتان من جهةٍ خاصّة، فتتحقّق وحدة الحكم على أساس تلك النقطة من التشابه. على سبيل المثال، إنّ جميع الأحداث التي وقعت في الماضي ليست دائميّةً، كما أنّ أفراح الزمان وأتراحه عابرةٌ وزائلةٌ. والآن يمكننا أن نفهم من وجه الاشتراك في عدم الدوام هذا، أنّ الأحداث المستقبلية في العالم هي أحداث مؤقتة ولا تدوم. فكل ما يحدث في هذا العالم يتشابه من هذه الجهة ويكون فانيًا ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾[1]، وهذه الجهة من التشابه موجودة في جميع الأمور. أو إذا كشفنا عن بعض السنن الإلهيّة المشتركة في جميع الأحداث والظواهر، فسوف نحصل على السرّ والجهة الأساسيّة لأحداث

(١) سورة **النحل**، الآية ٩٦.

المستقبل وسوف يُفتح باب التدبّر الصحيح أمام الإنسان.

لقد بينّ القرآن الكريم الكثير من السنن الإلهيّة المرتبطة بالأحداث والظواهر والتدبيرات الإلهيّة التي تحدث في كلّ المجتمعات والعصور على نحوٍ واحد. وعلى هذا الأساس، فإنّنا إذا نظرنا إلى الماضي يمكننا أن نكتشف أنّ مثل هذه الظاهرة سوف تحدث في المستقبل أيضًا. فعلى سبيل المثال، ندرك من عاقبة القوم الجاحدين الذين حاربوا الحقّ وظلموا من دون أي تردّد أنّ الظلم والكفران سيستتبعان عاقبةً سيّئة، وسوف يكون مصير الذين كفروا بالنعمة وجحدوا بها وخيمًا، والذين يكفرون بالنعمة هم قومٌ هالكون. فقد اكتشفنا أنّ السنّة الإلهية قائمةٌ على أنّ الله تعالى قد أراد سلب النعمة، كلّ جاحدٍ بها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1] إن هذا الكلام الحقيقي مسلّمٌ وهو قاعدةٌ كلّيّة.

بناءً عليه، يمكننا أن نقارن كل حادثةٍ مع الماضي بشرط كشف جهة الشّبه فيها، ومن خلال ما جرى في الماضي نرسم طريق المستقبل.

المستقبل يختلف عن الماضي

هنا، من الضروريّ أن نقوم بدراسة تلك الموارد التي طُرحت تحت عنوان إشكال. في المسائل السابقة، تعرّضنا لهذا الموضوع، وقد اعتبر البعض أنّ النهضة العلمائيّة هي من مصاديق ذاك الكلام ورفضوها بالتوجّه إلى الماضي والتجربة السابقة، وذلك بهذا البيان وهو أنّ هذه النهضة العلمائية وقيامها على الطاغوت، التي انتهت بهزيمة الطاغوت، كان البعض يعتقد بما أنّ الثورات السابقة فشلت إذن هذه الثورة محكومةٌ بالفشل أيضًا. ولهذا، لم يكونوا يشاركون في النضال والجهاد، لأنّهم كانوا يقولون إنّ المستقبل مثل الماضي، وبما أنّ العلماء في الماضي قد هُزموا فسوف يُهزمون في المستقبل. فقد جعلت هذه الفئة من هذا الاستدلال مبرّرًا لها لعدم القيام بهذه المسؤوليّات الاجتماعيّة والشرعيّة الملقاة على عاتقها. لكن ينبغي أن نقول إنّهم قارنوا بين أحداث الماضي والمستقبل من

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ٧.



جهة التشابه، ولم يلتفتوا إلى وجود جهات افتراق وتباين بين هذه الأحداث. ففي ذلك الزمان مثلًا، لم يكن الناس واعين بالمقدار الكافي، ولم يكن هناك إمكانيّة لعرض التعليم الصحيح على الناس وتنوير أذهانهم أو كان هذا الأمر ضعيفًا جدًا. أمّا في النهضة الأخيرة، فقد اعتبر الناس ممّا مضى وتوفّرت إمكانات التعليم وتنوير الأذهان والتبليغ والإعلام كثيرًا، لهذا لا يمكن أن نُقارن هاتين المرحلتين، فنستنتج بما أنّنا مُنينا بالهزيمة في السابق، فاليوم أيضًا إنّ هذه النهضة محكومة بالهزيمة.

ففي ذلك الزمان، استطاعت جماعة بواسطة إعلامها المضلّل أن تخدع الناس وتبعدهم عن الساحة.

والآن في زماننا هذا، لو عملوا على هذا المنوال وظهرت كلّ تلك الظروف لحصلت تلك النتائج حتمًا. ولكن وضع اليوم مختلفٌ جدًّا عن الماضي، فالناس اليوم يلتفتون بسرعة إلى الحقائق، ويمكن صيانتهم من الإعلام المضلّل للعدوّ. ففي الظروف الحالية، إنّ اليأس والانفعال نتيجة هزائم الماضي هي أمور غير صحيحة البتّة، فلا يوجد وجه شبه بين الماضي والحاضر أبدًا من هذه الجهة. يجب أوّلًا اكتشاف وجه الشبه بين أحداث الحاضر والماضي، وحينها وبالالتفات إلى الجهات المشتركة في جميع تلك المقاطع نجلس لنستشرف المستقبل، ونحكم بشأنه.

ومن هنا، يقول الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ: «**إِنَّمَا الأُمُورُ أَشْبَاه**»، ففي مورد نهضة العلماء يمكن الاستناد أيضًا إلى الوقائع المتشابهة حيث استطاع جماعةٌ من العلماء أن ينوّروا أذهان الناس بواسطة المعلومات التي وضعوها بين أيديهم وبيّنوا لهم تلك الوقائع، ووصلوا إلى نجاحات نسبيّة في مجالات عديدة، وإن كانت ضيّقة ومحدودة، في حركاتهم ونهضاتهم الإسلاميّة التي قاموا بها. والآن يمكننا أن نستعمل هذه الأساليب نفسها على نطاقٍ أوسع لكي نحقّق نجاحاتٍ أكبر. ويمكننا أن نقول هنا أيضًا «**إِنَّمَا الأُمُورُ أَشْبَاه**» فحين نقوم بالعمل بصورةٍ صحيحة، وحين نقوم بأخذ الإمكانات بعين الاعتبار واستخدام الطاقات، فإنّنا سوف ننجح بذاك المقدار. واليوم، حيث إنّ الكثير من الإمكانات متاحة بين أيدينا، ويوجد إمكانيّة لتنظيم الطاقات واستعمالها بصورةٍ أفضل، سنتمكّن من تحقيق نجاحات أكبر.

وبعبارةٍ أخرى، يمكن القول إنّ كلام الإمام عَلَيهِ السَّلَامُ هو قاعدةٌ عامّة وكليّة، لكن

بشرط أن نُضيف إلى هذه القاعدة كلمة » أشباه»، وبوجود هذا الشرط أي التشابه بين ظواهر الماضي والمستقبل نحرز هذه القاعدة ونكتشفها. ومن خلال اكتشاف هذا التشابه يمكننا استشراف وقائع المستقبل وتحديد مسؤوليّتنا. فالإمام عليه السلام لم يقل أبدًا إنّ جميع الأمور تتشابه، ويمكن الاطّلاع على المستقبل من خلال أي ظاهرةٍ حدثت في الماضي. من الواضح أنّ الشجرة حين تكون من بيئةٍ حارّة لا يمكن أن تنمو في البيئة الباردة، ولا تُعطي الثمر المطلوب ولا يمكن أن يُقال إنّ التراب تراب والشجرة شجرة، بل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار كلّ شجرةٍ بحسب بيئتها ونقارنها مع الشجرة التي تكون من البيئة نفسها مع تلك الخصوصيّات، ففي هذه المقارنة يجب أن تتشابه الشجرتان من ناحية ظروف الريّ والعناية وغيرها من الأمور لنرى هل أنّها ستعطي النتيجة نفسها أم لا؟

فإذا كنّا نرى أنّ بعض الأحداث الماضية تختلف عن المستقبل فذلك من جهة أنّنا لم نلاحظ الاشتراك والامتياز بينهما. يجب أن نلتفت جيّدًا إلى جهات الافتراق والتمايز بين الأحداث، لأنّنا إذا لم نلاحظ جهة الافتراق وجهة الامتياز فيها سنتصوّر أنّه بمجرّد وجود وجه شبهٍ واشتراك فإنّها تشترك في جميع الأمور وتتشابه فيما بينها. وربما تحدث كلّ الظروف في مكانٍ وزمانٍ آخر، لكنّها لا تستتبع النتيجة نفسها. فعلينا أن ندقّق هل إنّ ما كان علّةً لوقوع تلك الحادثة سوف يتحقّق هو نفسه في المستقبل لكي يكون له النتيجة نفسها أم لا؟

يجب الالتفات إلى أنّه قد تتغير الأسباب والعلل والظروف. بناءً عليه، فإنّ كلام الإمام عليه السلام في القضية المذكورة صحيحٌ وكلّيٌّ، لكن بشرطٍ واحد، وبحسب التعبير المنطقيّ في مثل هذه المورد التي تكون فيها القضيّة كلّيّة مع «شرط خفيّ»؛ أي إنّ القضية التي تكون بالظاهر ظنّيّة، بإحراز شرطٍ واحد، تصبح يقينيّة. ففي بحث القضايا يُقال إنّ بعض القضايا الظنّيّة صادقةٌ بهذا المعنى، وإن كانت ظنّيّةً من جهة، لكنّها من جهةٍ أخرى صادقة، ويمكن الاستفادة منها في البرهان، وذلك حين تُلاحظ فيها جهة الصدق.

لهذا، في مجال توضيح كلام الإمام عليه السلام يمكن عرض أحد هذين التفسيرين: أحدها أن نعتبره قضيةً ظنيّة ونقول إنّ الإمام كان في مقام الوعظ وفي مقام الوعظ ليس المطلوب أكثر من هذا، حتى نكون بصدد ملاحقة اليقينيّات

وبمشاهدة بعض موارد الاستثناء نضطرب، بل إنّ صدقه في أكثر الموارد يكفي لكي نقدّمه للمخاطَب ويتوجّه إليه المستمع في تلك الموارد ويأخذ به. لقد ذكر الإمام عليه السلام هذا الكلام في مقام الوعظة، والموعظة لا تستلزم أكثر من ذلك. والتفسير الثاني هو أن نقول رغم أنّ هذا البيان هو بيانٌ خطابيّ، وفي البيانات الخطابيّة تتمّ الاستفادة من المقدّمات الظنّيّة، لكن المقدّمات الظنيّة الصادقة تصبح كليةً مع إحراز ذلك الشرط الخفيّ، وهذا الشرط هو أن يكون وجه الشبه موجودًا في الأمور المستقبليّة بشكلٍ دقيق، فإذا تحقّقت تلك الشروط بنحوٍ كامل في الحوادث المستقبليّة حينها سوف يستتبعها تلك النتائج السابقة.

قانونيّة الحوادث الاجتماعيّة

وحيث وصل الكلام إلى هنا فمن المناسب أن نتناول هذا البحث وهو: هل إنّ الأحداث الاجتماعيّة قابلةٌ للتكرار مثلما يحدث في الطبيعة أم أنّ الأحداث الاجتماعيّة تختلف عن الأحداث الطبيعيّة من هذه الجهة ؟

نصادف هذا القانون في القوانين الطبيعيّة وهو أنّ الشيء القابل للاشتعال يشتعل حين يتّصل بالنار ولا يوجد مانعٌ. والآن على أساس هذا القانون، فإنّنا نستطيع أن نتوقّع حصول هذا الأمر في المستقبل أو على سبيل المثال أنّ السماء تمطر في الربيع وتخضرّ الأشجار فيمكننا أن نتوقّع وضع كلّ ربيع؛ فهل يوجد في القضايا الاجتماعيّة مثل هذا القانون أو لا؟ يكتسب هذا السؤال أهميّةً مضاعفةً إذا نظرنا إليه من زاوية بحثٍ في علم الاجتماع وتوضيح ذلك أنّ المقاربة التي تجري في علم الاجتماع تقول: إنّ الأحداث الاجتماعيّة هي أحداثٌ فريدة وغير قابلة للتكرار، ولهذا فلا يوجد في مثل هذه الأمور قاعدةٌ أو أصلٌ اجتماعيّ، ولا يمكن أن نبيّن لها قانونًا ثابتًا، فالأمور الاجتماعيّة هي حصيلة أفعال الناس، وإنّ الظروف الاجتماعيّة متغيّرة بحسب الزمان، ومتغيّرة في كلّ يوم، فلا يمكن إذًا أن نأخذ بعين الاعتبار قانونًا ثابتًا ومستقرًا للأمور الاجتماعيّة، فنستشرف على أساسه حدوث هذه الأمور في المستقبل. والآن وبالالتفات إلى وجهة نظرة علم الاجتماع هذه، كيف يمكن أن نبيّن كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «اجعلوا الماضي دليلًا على المستقبل لأنّ الأمور أشباه»؟

والجواب هو أنّه يوجد اختلافات برأينا بين القوانين المرتبطة بالظواهر الاجتماعيّة والقوانين المرتبطة بالحوادث الطبيعيّة من حيث المجموع. فخلافًا للظواهر الطبيعيّة لا يمكن أن نضع اليد على ظواهر اجتماعيّة متشابهة ومتساوية من جميع الجهات، ومع ذلك فإنّ مطالب العلم الاجتماعيّة السابقة ليست صحيحة ولا يُمكن القول إنّه لا يوجد أي وجه تشابه بين الظواهر الاجتماعيّة، وإنّ كلّ حادثةٍ اجتماعيّة تختلف بنحوٍ كليّ عن غيرها من الأحداث والوقائع، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الشواهد التاريخيّة تنقض مثل هذه المقاربة كما في: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾[١].

أتحسبون أنفسكم شيئًا خارجًا عن النسيج أو استثناءً لا شبيه له؟ لقد امتُحن الماضون ومرّت عليهم الصعاب ونزلت عليهم البلاءات، وأولئك الذين خرجوا من الامتحان مرفوعي الرأس ووجوه بيضاء سيدخلون الجنّة وأولئك الذين سقطوا في الامتحان سيدخلون جهنّم خائبين، لقد امتُحن السابقون فهل تظنّون أنّكم لن تُمتحنوا؟! بلى سوف تُمتحنون.

فحين يقول: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾[٢]، فالمقصود هو ألا تتصّورون أنّكم طالما لم تُمتحنوا مثل الماضين، وإنّ ما حدث في الماضي لن يحدث لكم، وأنّكم سوف تذهبون إلى الجنّة. فما الذي امتُحن به الماضون؟ يقول: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾. لقد ابتُلي الماضون بالمصاعب والبلاءات وصبروا على ذلك وخرجوا ناجحين، وهناك دخلوا الجنّة. أمّا الذين لم يخرجوا من الامتحان بيض الوجوه فلم يذهبوا إلى الجنّة. والآن سوف يجري عليكم هذا القانون نفسه. ففي ذيل هذه الآية الشريفة، أحاديثُ كثيرة وردت في كتب التفاسير وفي المجامع الروائيّة تؤيّد هذا المطلب أيضًا.

ثمّ يضيف قائلًا : «**وَحَتَّى لَوْ دَخَلَ أَحَدُهُمْ فِي جِحِرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوه**»[٣]. ومعنى هذا الكلام هو أنّ أحداث التاريخ يمكن أن تتكرّر حتّى بجزئيّاتها، أي إنّها مع رعاية جهة الاشتراك تتكرّر، لا إنّها ستكون متشابهة من جميع الجهات وهي عين بعضها

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢١٤.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٥٣، الصفحة ١٢٧.



البعض، فهناك جهات اشتراك فيما بينها وإذا أدركنا تلك الجهات يمكننا أن نقارن تلك الجهات بالماضي ونستشرف المستقبل عن طريق الماضي. فإذا أدركنا جهة الاشتراك في الوقائع الاجتماعيّة وجرى تحليلها تحليلًا كاملًا، فمع وجود ذلك الوجه الكامل المشترك يمكن أن نتوقّع حدوثها مجدّدًا. فالأحداث الاجتماعيّة ليست على نحوٍ تكون فيه عوامل منحصرة بها ولا يمكن أن تتكرّر، ولا يمكن أن تكون ذات قاعدة كليّة. فلهذه الظواهر قواعد، لكن كشفها ووضعها ضمن معادلة واضحة أمرٌ صعب. فعلى سبيل المثال من الصعب أن نتعرّف على العلل الدقيقة لهذه الحادثة الاجتماعيّة الخاصّة وفي أي ظروفٍ وقعت، وما هي موانع تحقّقها. صحيحٌ أنّ تجربة واختبار وتكرار الأحداث الطبيعية أسهل، ويمكن اكتشاف ظروف حصولها بصورةٍ أفضل، ومعرفة عواملها، ولكن لا يمكن القول إنّه لا يوجد جهات متشابهة بين الحوادث الاجتماعيّة وإنّه لا يمكن وضع اليد على قانونٍ واضحٍ للمستقبل انطلاقًا من أحداث الماضي. فلو اكتشفنا وتعرّفنا إلى جهات الاشتراك في الظواهر التي حدثت في الماضي يمكننا بالاستفادة منها أن نستشرف المستقبل.

بالطبع، إنّ تكرّر وقوع الأحداث لا يعني أنّها تكون متشابهةً من جميع الجهات. فعلى سبيل المثال، فيما يتعلّق بكلام النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بشأن تشابه أمّته مع بني إسرائيل، من الواضح أنّنا مسلمون ومن أمّة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ولسنا من بني إسرائيل؛ وبسبب وجود جهة اشتراك، فإنّ كل ما نزل ببني إسرائيل فإنّه سوف ينزل بنا. فنحن لدينا خصوصيّاتنا وهم لديهم خصوصيّاتهم، ونحن مسلمون وهم من بني إسرائيل، ونبيّهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ونبيّنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. ويوجد جهات اشتراكٍ في هذا المجال تؤدّي إلى أن ينزل بنا كل ما نزل بهم. بالنسبة لنا، نرى أنّ بني إسرائيل بعد مرور أربعين يومًا على غيبة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد عبدوا العجل ولم يستمعوا إلى خليفة موسى ونائبه بكلّ ما دعاهم إليه من التوحيد وعبادة الله. وفي عالم الإسلام أيضًا حدثت مثل هذه الظاهرة فلم يمرّ على وفاة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أربعين أو سبعين يومًا حتى تركوا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يستمعوا إلى أوامره، وأعرضوا عن ذاك الذي كان بالنسبة للنبيّ، بمنزلة هارون من موسى، ولم يستمعوا إليه ورموا ما قاله النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وراء ظهورهم.

لقد سكت هارون حتّى يحول دون وقوع النزاع بين الناس، ومن أجل أن يحفظ الانسجام فيما بينهم، ولكي لا يشيع الفساد في بني إسرائيل، وكما يُقال

حفظ الوحدة الظاهريّة. والقرآن الكريم يقول إنّه حين سأل موسى هارون: ألم أقل لك أن تراقب بني إسرائيل ولا تسمح لهم أن ينحرفوا؟ أجاب هارون: لقد خفت أن تقول إنّني فرّقت بين بني إسرائيل، فلكي لا يحصل الاختلاف والنزاع تركت دعوتهم إلى الحقّ وإتمام الحجّة عليهم: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[1].

وقد حدثت مثل هذه الحالة في الإسلام لكي لا يقع النزاع والخلاف بين المسلمين، أتمّ أمير المؤمنين عليه السلام الحجّة عليهم واختار طريق السكوت وصبر طيلة خمس وعشرين سنة حتى عاد الناس والتفتوا إلى خطئهم.

على أيّ حال، فقد تناولت الروايات العديدة هذه الحقيقة وهي أنّ تلك الحادثة التي وقعت مع بني إسرائيل سوف تحدث مع المسلمين، ولعلّ السبب في تكرار قصّة بني إسرائيل في القرآن هي وجود وجه الشبه هذا. فهناك نكاتٌ كثيرة مليئة بالعبر في ماضي هؤلاء القوم يمكن أن يستفيد منها المسلمون، مثلما حدث في قصّة السامريّ وعبادة العجل فعلى المسلمين أن يتفكّروا ويعتبروا ممّا جرى على بني إسرائيل لكيلا يُبتلوا بهذه الحوادث المرّة في المستقبل.

الخلاصة والنتيجة

وباختصار، إنّ ما ذكرناه في توضيح هذا المقطع من وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام أنّه لو قال أحدٌ إنّه لا يوجد بين الماضي والمستقبل أي جهة اشتراك، وكل حادثة هي حادثة فريدة ومنحصرة بصاحبها، فلا يمكن عندها مقارنة أي حادثةٍ بغيرها، ولا يمكن للحكم أن يسري من واحدة إلى الأخرى. أمّا إذا وُجد وجه الاشتراك، فإنّ هذا الوجه سيؤدّي إلى إثبات الحكم في مورد كلٍّ من الظّاهرتين، فلو أدركنا جهة الاشتراك سيكون هذا الحكم حكمًا كلّيًا ويجري في مورد كلّ ظاهرةٍ مشابهة. لهذا، إذا أدركنا هذه الجهة من كل ظاهرةٍ مشابهةٍ أخرى يمكننا أن نجري هذا الحكم في ذلك المورد أيضًا وعلى هذا الأساس يقول الإمام علي عليه السلام أيضًا: استعن بالأمور التي جرت للاعتبار للمستقبل: «**فَإِنَّمَا الأمُورُ أَشْبَاهٌ**». فالظواهر تتشابه،

---

(١) سورة **طه**، الآية ٩٤.

والحوادث تتشابه، وبالاستعانة بجهة الشبه فيها يمكنكم أن تستشرفوا المستقبل. ثمّ يقول: «**وَلاَ تَكْفُرَنَّ ذَا نِعْمَة فَإِنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ مِنْ أَلأمِ الكُفْر**».

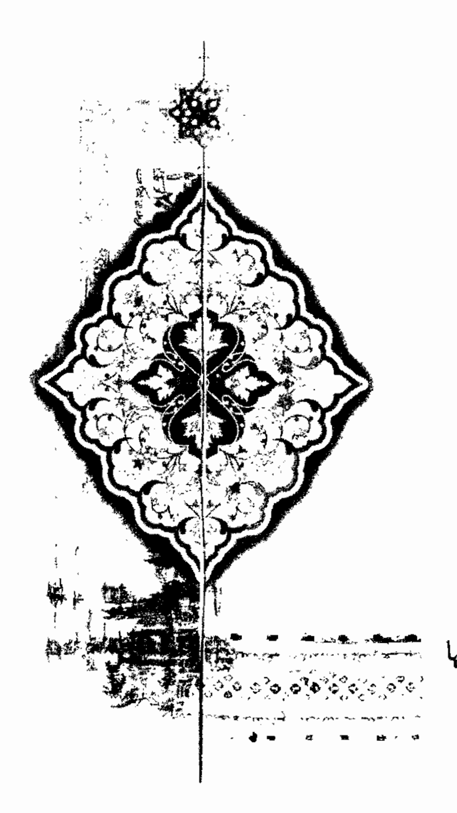
وكما ذكرنا سابقًا، فإنّ كفران النعمة وعواقبه هو من مصاديق وجود وجه اشتراك بين أحداث الماضي وظواهر المستقبل. فإذا كان هناك قومٌ في الماضي قد كفروا النعمة وابتُلوا بالشقاء، فإنّ مثل هذا المستقبل يمكن توقّعه برعاية جهة الاشتراك. فإذا كفرنا بالنّعمة فسوف نُبتلى بمثل تلك المصائب، وليس المقصود بالنّعمة ما ينحصر بالنعمة الماديّة كالطعام واللباس والرفاهية و... بل ما أكثر أهميّة هي تلك النعم المعنويّة التي لا ينبغي الغفلة عنها وعدم شكرها. وكما مرّ مثلًا فإنّه لا ينبغي أن نغفل عن حراسة نعمة النظام الإسلامي وعلى رأسه ولاية الفقيه، التي تُعدّ من أعظم النّعم الإلهيّة، لأنّ هذه النّعمة لا يمكن أن تُقارن بغيرها من النّعم. فإنّ هذه العطيّة الإلهيّة هي حصيلة الدماء الطاهرة للمجاهدين والعلماء الذين رووا شجرة الإسلام الطيّبة عبر التاريخ.

يجب أن نكون حرّاسًا لولاية الفقيه بالقلب والروح، وهذه مسؤولية علماء الدين بالأخص، الذين يجب أن يبيّنوا هذه القضية بشكلٍ علميٍ ودقيق لكي تقع في أذهان الناس بموضعها اللائق. كما إنّ من النعم والبركاتِ الكبيرة في هذه الثورة هي الإقبال على الدين والقرآن والشرع المقدّس. يجب أن نعرف قدر هذه النعمة وأن نعظمّها. بالطبع، هناك نقائص ونحن لا نتوقّع أن لا يوجد في الثّورة الإسلاميّة أي أثرٍ من المعصية والخطأ، فمثل هذا الطلب غير ممكن التّحقق، لأنّ الناس ليسوا معصومين بل علينا أن نسعى مهما أمكن على طريق إصلاح المجتمع وأن نؤدّي شكر تلك النعم التي تحقّقت ببركة الإسلام والثورة حتى تستمر وتزداد تألّقًا يومًا بعد يوم. فلو، لا سمح الله، نسينا النعم الإلهيّة وغفلنا عن نعمة القيادة الدينيّة وولاية الفقيه فسوف نُبتلى بقيادة شخصٍ لن يبقي أي مجالٍ للتمسّك بالشرع والأئمّة الأطهار عليهم السلام، ولو حدث هذا الأمر سوف ينسدل الستار على جميع القيم الإسلامية والإنسانية والعقائد الدينية والحقائق والأحكام الإسلامية في هذا المجتمع ولن يكون أحدٌ مسؤول غيرنا: ﴿مَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[١].

---

(١) سورة **الشورى**، الآية ٤٠.





الدرس الواحد والأربعون
من الإنسانيّة حتى...

- دور الميول والدوافع في السلوك
- العوامل المؤثّرة في نشوء الدوافع وقوّتها
- تعارض الدوافع وتزاحمها
- الحدّ الفاصل بين الإنسانيّة والحيوانيّة



«وَلاَ تَكُونَنَّ مِمَّنْ لاَ يَنْتَفِعُ مِنَ الْعِظَةِ إِلاَّ بِمَا لَزِمَهُ[1] فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالأَدَبِ، وَالبَهَايِمُ لا تَتَّعِظُ إِلّا بِالضَّرْبِ».

دور الميول والدوافع في السلوك

لعلّ هذه الجملة هي بالنسبة للكثيرين سؤالٌ لا جواب له، وهو أنّه لماذا قلّما يعمل الإنسان ويطبّق النصائح والإرشادات من الروايات والآيات، بالرغم من معرفته الصحيحة بها؟ فما العمل حتى يختار الإنسان الطريق الصحيح ويسير عليه من دون نصيحة الآخرين والوعظ المتكرّر ونُصح الناصحين؟ حقًا إنّ هذا السؤال هو حقيقة مسلّمة ومحسوسة في حياتنا، والإجابة عنه تتمتّع بأهميّة خاصّة.

لا شك بأنّ الأعمال التي يؤدّيها الإنسان والسلوك الذي يصدر منه هي أمورٌ تنبع من إدراك معيّن وميولٍ محدّدة مثل أي حيوان. وإذا كان بصدد القيام بأي عمل فإنّه يفعل ذلك من أجل الوصول إلى نتيجة وهدف. فالحيوان، إذا تناول العلف، فهو يفعل ذلك لأجل الشبع وكذلك هو الإنسان فإنّه يتغذّى بسبب الجوع، فمن هذه الجهة يشترك كلٌّ من الإنسان والحيوان في العمل من أجل الوصول إلى النتائج والمطالب. وبعبارةٍ أخرى، إنّ أعمال الإنسان ذات علّة غائيّة، فإذا لم يكن هناك غاية فسوف لن يقدم على أي عمل، فكل ما يقوم به ينشأ من ميلٍ يرتبط بنتيجته وهو يفعل ذلك لأجل تحقيق تلك النتيجة.

---

(١) في بعض النسخ ورد قوله: «ولا تكونن ممن لا ينتفع من العظة إلا إذا بالغت في إيلامه».



إنّ هذا الهدف الغائيّ المشترك يظهر بأشكالٍ عديدة ومستوياتٍ مختلفة. فأحيانًا يكون الدافع للعمل هو إشباع غريزةٍ لمدّةٍ قصيرة. فقد تكون الأهداف أعلى، لكن على أيّ حال فإنّه لا يقوم بأي عمل من دون هدف حتى لو أنّه مشى في الصحراء أو الشارع فإنّ هذا المشي لا يخلو من الهدف. فلعلّه يقول إنّه لا يهدف إلى شيء ولكن تحقيق الهدوء وإزالة التعب الروحيّ والتقليل من مستوى الاضطراب والقلق تكون عللًا غائيّة لمشيه.

بناءً عليه، فإنّنا إذا لم نمتلك ذاك الميل والدافع تجاه العمل، فإنّنا لا نقوم به أبدًا. وقد أودع الله هذا الميل والدافع في عمق كيان كلّ إنسان وحيوان؛ أي إنّ الله قد خلق الإنسان والحيوان بنحوٍ يلتذّ مثلًا بالطعام والأكل. بالطبع، إنّ نوع الغذاء يختلف، لكنّ هذا الدافع واللذّة هو غاية موجودة عند كلّ كائنٍ حيّ. لذا، فإنّ الميل والدافع موجودان في الإنسان، واللذان يدفعانه للقيام بالأعمال، فهو لا يتردّد أبدًا للقيام بما هو مقتضى ميله ودافعه الفطريّ، ولا يتأخّر لحظةً عن القيام بذلك، اللّهم إلّا إذا تزاحمت رغباته وميوله مع بعضها بعضًا، حيث تبرز مجموعة من الميول والدوافع في الوقت نفسه، فيعجز عن الاستجابة لبعضها عند تقديم البعض الآخر؛ كأن يميل إلى القيام بعملٍ يبعث فيه اللذّة وفي الوقت نفسه يريد الاستراحة، ولكن لأنّ ذاك العمل اللذيذ يؤدّي إلى تعبه ويتطلّب منه طاقة فإنّه يختار الاستراحة ويرجّح التوجه إليها. فالكثير من الذين يتوجّهون إلى الراحة والرفاهيّة يتحرّكون في الواقع بهذا الدافع. أمّا أولئك المشاغبون أو المتحفّزون والنشيطون فإنّهم يضعون الاستراحة وراء ظهورهم ويتحرّكون نحو تلك الميول اللذيذة.

العوامل المؤثّرة في نشوء الدوافع وقوّتها

تشترك الميول والدوافع نسبيًّا بين الإنسان والحيوان، ولنشوئها عوامل متعدّدة. فقد يؤدّي ترشّح هرمونات خاصّة إلى سلوكيّات جنسيّة محدّدة في الإنسان تجرّه نحو هذا النوع من الأعمال، مثلما يشاهَد وكما تثبت التجربة أنّ هذا الميل هو حصيلة عاملٍ عضويّ، وينشأ بسببٍ فيزيولوجيّ، لكنّ بعض الميول ليست ذات منشأ عضويّ، وإذا كان هناك منشأٌ عضويًّا في البين، فإنّه لا يكون ذا دورٍ مميّز، بل إنّ الكلام الأساسي هنا يكون للقوّة النفسيّة كالميل والاندفاع لتحقيق الاحترام بين



الناس، فمثل هذا الدافع لا ينشأ في عضوٍ خاصّ في البدن ولا يكون للعين والأذن أو لغدّة محدّدة دورًا مباشرًا في نشوء هذا الدافع، بل إنّ هناك حالة نفسيّة خاصّة هي التي تجعل الإنسان يشعر بالرضا حين يكون مورد احترام الآخرين، ولا يكون هناك عضوٌ خاصّ يحمله على هذا الاندفاع. فهنا يكون العامل الأساسيّ هو روح الإنسان، ويكون ارتباط هذا التابع بالبدن أو بعضوٍ خاص فيه قليلًا وأحيانًا لا شيء.

إنّ الميل إلى الأنس مع الله ومناجاة ربّ الأرباب هو أيضًا من جملة الدوافع الأخرى غير العضويّة التي لا يمكن تحديد منشإٍ عضويٍّ لها. فالميل إلى الأنس مع الله هو دافعٌ قويّ وأعلى، حيث يكون الإنسان مستعدًّا لتحمّل كلّ أنواع الصعاب والمشقّات من أجل تلبيته، ويتحمّل لأجل ذلك البرد والحرّ والجوع والسهر لكي يذوق حلاوة المناجاة مع الله والأنس مع الحبيب[1]. بناءً عليه، مثلما أنّ منشأ هذه الدوافع والاستعدادات يمكن أن يكون عاملًا عضويًّا أو روحيًّا فإنّ موانع تفتّح هذه الميول والدوافع وبروزها قد يكون أيضًا عاملًا بدنيًّا وعضويًّا وقد يكون بسبب حالة روحيّة ونفسيّة خاصّة.

تعارض الدوافع وتزاحمها

إنّ البحث حول مستوى ودرجة تبعيّة الإنسان لهذه الميول الطبيعيّة والغريزيّة يتطلّب مجالًا أوسع يخرج عن مجال هذا الكتاب، ولسنا الآن بصدد تحليله ودراسته، لكن هناك نقطة مسلّمة وهي أنّ الإنسان نفسه هو صاحب الدور الأساسي في تأمين المقدّمات لإشباع هذه الدوافع وإرضائها ورفع موانعها. من هنا، يمكنه أن يسيطر عليها ويضبطها ويؤمّن أساليب إعداد المقدّمات وطُرق التعامل مع موانعها. على سبيل المثال، إنّ الاستماع إلى الموعظة والتعليم والتهذيب والخضوع لبرنامج تربويّ في محفل أصحاب النفوس القدسيّة وقراءة الأدعية وغيرها هي من الأمور التي تبعث تلك الميول العُليا من كمونها. وإلى

---

(١) حسنًا، هنا نتذكّر هذه النكتة وهي أنّ الحرمان من لذّة مناجاة الله والأنس به هو أحد العقوبات الإلهيّة؛ أي إنّ الأشخاص المبتلين بالمعصية والقذارات الأخلاقيّة والاعتقاديّة والسلوكيّة، مع وجود العلم والتعلّم، محرومون من هذه اللذّة، وتقف هذه الموانع أمام تفتّح استعداداتهم وميولهم الفطريّة.



جانب هذه الطرق، فإنّ الالتزام بالأحكام الأخلاقيّة لمعلّمي الأخلاق والالتزام بأوامر الشارع المقدّس ونواهيه يؤثّر كثيرًا في تفتّح هذه الدوافع ورفع الموانع.

وفي المناجاة الشعبانيّة، يوجد تعبير ملهمٌ جدًّا في هذا المجال، حيث يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إلَهي لَمْ يَكُنْ لِي حَوْلٌ فَأَنْتَقِلَ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إلَّا فِي وَقْتِ أَيْقَظْتَنِي لِمَحَبَّتِكَ»، ففي هذا التعبير تمّ إظهار قوّتين متعارضتين في وجود الإنسان تقوم الأولى بجرّ الإنسان نحو المعصية والتسافل، وتقوم الثانية بسوقه نحو الكمال والطهر. وهنا، يقول الإمام عليه السلام في هذه المناجاة فيما يتعلق بهذا التزاحم والتعارض: إلهي ليس لي قدرة الفرار من معصيتك فأنا المرتهن ببليّتي، ولا يمكنني أن أغسل يدي منها إلّا إذا جاءت قوّة محبّتك وأنقذتني من هذا الهلاك.

وقد عرض **القرآن الكريم** مثل هذا النزاع وصوّره. كأنّ هناك قوّتان جاذبتان تسوقان الإنسان من جهتين مختلفتين، فإحداهما تسوقه نحو الله والأخرى نحو مخالفته. فإحدى الدوافع تسوق الإنسان نحو الله ونحو أولئك الذين يفيض حبّ الله من وجودهم، ومن جانبٍ آخر هناك الجاذبيّات الشيطانيّة التي تجرّ الإنسان نحو أهواء النفس وأنواع الحبّ الاجتماعيّ الكاذب والوصول إلى المناصب وطلب الدنيا وزخارفها. فهذا المقطع من المناجاة الشعبانيّة يبيّن أنّ حبّ الله هو أعظم قوّةٍ يُمكن أن تُبعّد الإنسان عن الشيطان وهوى النفس وتسوقه نحو الله فلو قوي هذا العامل بالإنسان، لاستطاع بسهولة أن يخلّصه من قبضة القوّة غير الإلهيّة.

ووفق الأبحاث العلميّة أيضًا، فإنّ الإنسان يكون في معرض نزاع قوى متعدّدة، تجرّه كلّ واحدةٍ باتّجاهٍ وتدفعه نحو نشاطٍ خاصّ. وفي هذا المجال، هناك أشخاص جذبتهم المحبّة الإلهيّة ولا يُمكن أن ينهزموا أمام الشيطان وعوامله، كما إنّ الشياطين لا تستطيع أن تنفذ فيهم. إنّ الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو تربية الناس وتعديل هذه الميول وتصحيحها. فما دامت الميول الإلهيّة حيّة فيهم والجاذبيّات المعنويّة قوّية يمكن تعديل تلك الميول وتصحيحها لأجل أن يُصان الإنسان من هجوم العوامل غير الإلهيّة.

ومن العوامل التي تساعد الإنسان أثناء تصارع هذه القوى المتعارضة، هو توجّهه إلى مبدأ الوجود. فلو آمن الإنسان بأنّ الله هو مُوجد العالم، وهو الذي يدير جميع الأمور صغيرها وكبيرها في عالم الوجود، وتوكّل عليه، يمكنه أن يشقّ



طريق الهداية إلى الله. بالطبع، أحيانًا وبالرغم من وجود هذا التصديق، يغفل الإنسان في ساحة العمل وينسى تلك الاعتقادات، فهنا تُسارع المواعظ وكلمات معلّمي الأخلاق لنجدته عن طريق تخليصه من هذه الدوافع المتعارضة. بناءً عليه، إنّ دور الموعظة هو تثبيت التصديقات في الذهن وإحياء قلب الإنسان وإرواء وجوده دائمًا من خلال تذكيره بها، وعدم السماح له بالابتلاء بالسهو والنسيان.

الحدّ الفاصل بين الإنسانيّة والحيوانيّة

إنّ الاختلاف الأساسي بين الإنسان والحيوان من ناحية التمتّع بهذه الدوافع والميول الإلهيّة يكمن في هذه النقطة، وهي أنّ الميول الأساسيّة والروحيّة في الإنسان تقبل القوّة والضعف والتعديل حيث يوفّر الإنسان لنفسه مقدّمات هذه التغييرات، أمّا الحيوانات والبهائم فلا تتمتّع بهذه القابليّات بأيّ شكل. وفي الواقع، إنّ إنسانيّة الإنسان تكمن في هذا الاختلاف وهو أنّه بالإضافة إلى وجود الميول الحيوانيّة المشتركة، فإنّه يتمتّع ببعض الميول الخاصّة.

يستطيع الإنسان ترجيح الميول الإلهيّة والمعنويّة وتقديمها على الميول الماديّة والدنيويّة عند تزاحمها، فيقدّم تلك الميول الأكثر تأثيرًا والأكثر أهميّةً وهي الميول الإلهيّة والمعنويّة. ومن جانبٍ آخر، يمكنه أن يعدّل أو يقوّي أو يُضعف ميوله ورغباته بالاستفادة من أساليب عديدة كالموعظة والدراسة والتعليم والتربية وغيرها. في حين أنّ سائر الحيوانات محرومة من جميع هذه المواهب، فالحيوان محكومٌ لهذه الميول وليس لديه من نفسه أي إرادةٍ سوى الخضوع لميوله الغريزيّة والفطريّة، فإذا شعر بالجوع مثلًا فإنّه يخفض رأسه من دون أن يعلم أين غذاءه ومن أين جاء، فيتناول الطعام ما دام جائعًا، ولو كان الإنسان هكذا أيضًا، لما كان بينه وبين الحيوان والبهيمة أي اختلاف.

فلا نعجب إذا قرأنا القرآن حيث يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1]. إنّ الذين يخلون من العقيدة والفكر، كالكفار الذين يعتبروا أبرز مصداقٍ لهم، يُشبهون البهائم في أكلهم وشربهم وغير

---

(١) سورة **محمد**، الآية ١٢.

ذلك. بالطبع، إنّ المؤمنين يأكلون ويتمتّعون بلذائذ الدنيا، لكنّ تمتّع الكفّار بالدنيا يكون على نحوٍ يدوسون بسببه على الميول الإلهيّة ويضرّون بلذائذهم الإنسانيّة الرفيعة، ويجعلهم يخسرون سعادتهم الأبديّة وهدايتهم الإلهيّة. وفي الواقع، مع وجود التمتّع بنعمةٍ فريدة منحصرة بالإنسان، وليست بمتناول البهائم، لكنّهم يعيشون كالبهائم من دون أن يتمتّعوا باللذات المعنويّة والإلهية. ومن الواضح أنّ مثل هذه الكائنات هي أضلّ وأدنى من البهائم بسبب هذه الدرجة من الحرمان: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[١].

لكي نُدرك مستوى إنسانيّتنا يجب أن نتفحّص لنرى أنّه حين يقع التعارض بين رغباتنا الحيوانيّة وميولنا الإنسانيّة ماذا نختار؟! وهل نتّبع عقلنا وإيماننا وعقائدنا أو أنّنا نتّبع تلك الميول المادّيّة العابرة والرغبات الحيوانيّة؟! هل يمكننا أن نخلّص أنفسنا من قبضة الميول الغريزيّة والحيوانيّة المقتدرة؟ إنّ الحدّ الفاصل بين البهيميّة والإنسانيّة يمرّ من هنا، وهنا بالذات يتجلّى التمايز. فقد يكون هناك بعض الحيوانات التي تتخلّى عن ميولها الحيوانيّة والدنيويّة بخلاف هؤلاء البشر، فبعض الحيوانات تفرّ حين تدخل إلى مزرعة غريبٍ ومجرّد أن ترى أنّ صاحب المزرعة يريد أن يضربها بالعصا، لا تعود إلى هذه المزرعة أبدًا، وتكون هذه التجربة تربيةً دائمة لها. ولكن بعض الناس، وبالرغم من آلاف التجارب المرّة، فإنّهم لا يعتبرون ولا يتربّون ويستمرّون على خطئهم. فبعض البهائم تتقبّل التربية عبر بعض الوسائل، ولكن بعض الناس لا يتربّون رغم احتكاكهم المباشر بالأنبياء الإلهيّة وتواصلهم معهم لسنواتٍ طويلة.

وفي الواقع، تكون هذه الحيونات أكثر تربيةً من أولئك البشر. ألا يُعتبر مثل هذا الحيوان أفضل من ذاك الإنسان، وذاك الإنسان أسوأ وأحطّ من ذلك الحيوان؟! ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٢]. يجب الالتفات إلى أنّ الإنسان إذا تربّى بعد التجربة وتحرّك نحو الدوافع الإلهيّة لا يكون أفضل وأعلى من الحيوان. فإذا كان ابن الإنسان على نحوٍ، بحيث يسحب يده من المعصية والمخالفة بعد الابتلاء

---

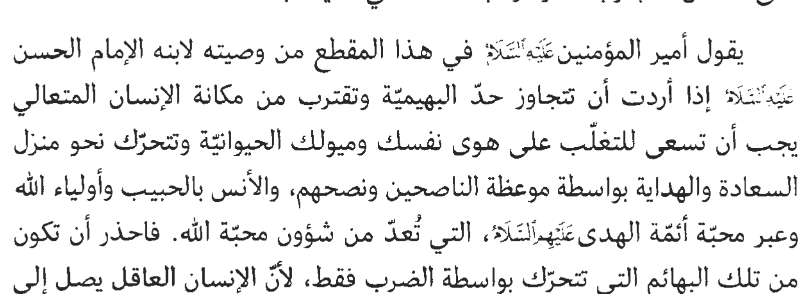
(١) سورة **الفرقان**، الآية ٤٤.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٤٤.



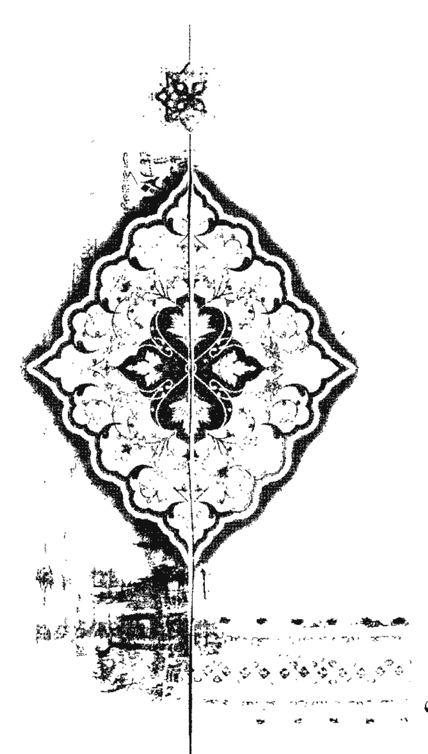


بالألم والبلاء، فلا يكون أفضل من الحيوان، لأنّ البهيمة إذا مرّت ذات يوم من مكان فعلقت قوائمها في مستنقع موحل، فإنّها لا تمرّ مرةً أخرى من ذاك المحل، والإنسان هو الموجود الذي يشكّل سلوكه على أساس محبّة الله والأنس به، لا على أساس التجارب المرّة والابتلاءات التي تُحيط به.



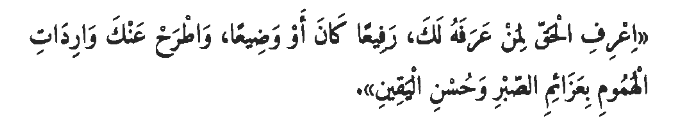
يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من وصيته لابنه الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا أردت أن تتجاوز حدّ البهيميّة وتقترب من مكانة الإنسان المتعالي يجب أن تسعى للتغلّب على هوى نفسك وميولك الحيوانيّة وتتحرّك نحو منزل السعادة والهداية بواسطة موعظة الناصحين ونصحهم، والأنس بالحبيب وأولياء الله وعبر محبّة أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، التي تُعدّ من شؤون محبّة الله. فاحذر أن تكون من تلك البهائم التي تتحرّك بواسطة الضرب فقط، لأنّ الإنسان العاقل يصل إلى هدفه عبر قوّة العقل والتربية.





الدرس الثاني والأربعون
الاعتراف بالحقّ

- الاعتراف بالحقّ لمن عرفه
- المفهوم الحقوقيّ للحقّ
- المعيار الأخلاقيّ لرعاية حقوق الآخرين
- المشكلات تصاحب الإنسان
- طرق مواجهة المشكلات
  - أ . الصبر
  - ب . حُسن اليقين


«اِعْرِفِ الْحَقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لَكَ، رَفِيعًا كَانَ أَوْ وَضِيعًا، وَاطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ».

الاعتراف بالحقّ لمن عرفه

إلى هذا الفصل، نكون قد بيّنّا توضيحات موجزة بشأن مختارات من هذه الرسالة الشريفة، بالتوكّل على عناية الله وتوفيق حضرة الحقّ جلّ جلاله. يتناول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا القسم موضوع معرفة الحقّ ورعاية حقوق الآخرين ويقول إنّ على الإنسان أن يعترف بالحقّ ويعرفه، سواء كان هذا الحقّ حقّ شخصٍ صاحب موقعيّة اجتماعيّة رفيعة أو في منزلة اجتماعيّة متدنّية. وفي كلّ الأحوال، لا ينبغي للموقعيّة أن تؤثّر في اعترافك بحقّهم. بعبارةٍ أخرى، فإنّه لا يوجد ملاك سوى رعاية حقّ الآخرين عند أداء الوظائف الاجتماعيّة ورعاية حقوق الناس. فلا تلتفتوا إلى درجة ثراء صاحب الحقّ وشأنيّته الاجتماعيّة ومنزلته ومنصبه، سواء كان صاحب الحقّ فقيرًا أو غنيًّا، مشهورًا أو مغمورًا، ذو شأنيّة اجتماعيّة أو لا شأنيّة له ومجهول الهويّة وغير ذلك فينبغي أن نراعي صاحب الحقّ ومن عرفه ونؤديّه له. ينبغي أن يكون الحقّ الملاك والمعيار الوحيد، وينبغي أداء حقّ أي إنسان مهما كان. بالطبع، لقد استُعمل في هذه العبارة النفيسة لفظٌ يمكن أن يوجد بعض التوهّمات، حيث يقول عليه السلام: عليك أن تعرف الحقّ لمن عرفه، فمن الممكن أن نقول إنّ ما يلزم من هذا الكلام هو أنّ الذي لا يعرف الحقّ لا ينبغي أن نكون عارفين بحقّه ومعترفين له به، فهل الأمر على هذا النحو؟ إنّ هذا السؤال يتمتّع بأهميةٍ خاصّة ويتطلّب إجابة مفصّلة نبيّنها بحسب ما يسع له هذا المقال.

المفهوم الحقوقيّ للحقّ



لأجل إيضاح الإجابة عن السؤال المذكور ينبغي أن نرى أوّلًا ما هو الحقّ؟ فالحقّ يُشير دائمًا إلى طرفين. وبالالتفات إلى أنّه يمكن لكلٍّ من طرفي الحقّ أن يكون حينًا شخصًا حقيقيًّا وأخرى شخصًا حقوقيًّا (الشخصيّة) وتارة يكون شيئًا آخر غير هذين الأمرين، فقد عُرضت تقسيمات متعدّدة للحقّ. فإنّ فئة من الحقوق هي الحقوق الإلهيّة التي تكون بين الله ومخلوقاته، وبعض الحقوق تكون حقوقًا اجتماعيّة أي تكون قائمة بين الناس تجاه بعضهم بعضًا. وعلى أيّ حال، فإنّ لفظ الحقّ في تحقّقه يحتاج إلى وجود طرفين بالحدّ الأدنى أي إنّ الطرفين (سواءٌ كان فردًا أو جماعة) موجودان ولكلٍّ منهما حقٌّ على الآخر.

فمثلًا خذوا حقّ الجار بعين الاعتبار، فحين يكون لهذا الجار حقّ على جاره فسوف يكون للجار الآخر حقٌّ على الأوّل لأنّ الحقّ مفهومٌ تقابليّ وبهذا المعنى لا فرق بين أن يكون الحقّ بين أخوين أو أختين أو زميلين في الدراسة أو رفيقين أو حتى زوجين. فحين يكون للزوج حقٌّ على زوجته فسوف يكون لها حقٌّ وأولويّة أيضًا، وفي بعض الموارد يظهر الحقّ وكأنّه لا يوجد أكثر من طرفٍ واحد. بعبارة أخرى، يكون الحقّ من جانبٍ واحد مثلما أن يكون لأحد أفراد الأسرة أو المجتمع حقّ على الآخر من دون أن يكون للطرف المقابل أي حقّ. فالأب من حيث كونه أبًا له حقوق على ابنه (ممّا يشمل الحقوق الماديّة وغير الماديّة) تكون في بعض الموارد محفوظة، حتى لو غادر الأب هذه الدنيا مثل تلك الحقوق التي قرّرها الشرع المقدّس للأب تجاه ولده البكر، فثبوت هذه الحقوق ليس متوقّفًا على أن يكون للابن حقّ على والده أو أن نعتبر مثل تلك الحقوق للولد.

ففي هذه الموارد، إذا غادر الأب هذه الدنيا ولم يعُد بإمكانه أن يؤدّي أي عمل لمصلحة ابنه، فإنّ له الحقّ على ولده أي إنّ الابن يكون متعهّدًا بوظائف تجاه والده ينبغي أن يؤدّيها له، مثلًا يجب أن يؤديّ تلك الصلوات التي لم يقضها الوالد. وهناك حقوقٌ أخلاقيّة واستحبابيّة أخرى، تقع على عاتق الابن ينبغي أن يقوم بها كأن يقوم ببعض الأعمال الخيريّة لأبيه، فمثل هذه الحقوق هي حقوقٌ من طرفٍ واحد. لهذا، حتّى في حال موت الأب وعدم وجوده على قيد الحياة تبقى هذه الحقوق قائمة. فالأمر لا يكون على نحوٍ بأنّ حقّ الأب يكون ثابتًا في حال كان



للابن حقّ على الأب، وكان الأب يراعي تلك الحقوق؛ بل إنّ الأب إذا كان كافرًا مشركًا أو حتّى فاسقًا فإنّ له حقوقًا على أبنائه يجب أن يقوموا بها. فإذا كان الأب مشركًا ودعا ابنه للشرك لا ينبغي لهذا الابن أن يُطيع والده في قبول الشرك، لكن عليه وظيفة البنوّة ويجب أن يقوم بها فلا يقلّل من احترامه مثلًا. يقول **القرآن الكريم**: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[1]. وفي موضع آخر يقول: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[2]. لهذا، إذا كان للابن المؤمن والدٌ كافر ولم يكن هذا الأب يراعي حقّ ابنه أبدًا، فعلى الابن أن يُراعي احترام والده. فهذا الحقّ بحسب الظاهر حقٌ من طرفٍ واحد بغض النظر عن مراعاة الأب لحقّ ابنه.

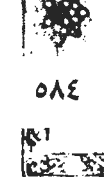
المعيار الأخلاقيّ لرعاية حقوق الآخرين

على أيّ حال، وبغضّ النظر عن بعض الحقوق مثل حقّ الوالد والأب والأم، فإنّ ضرورة رعاية الآخرين في العديد من الموارد وخصوصًا الحقوق الأخلاقيّة منوطة بأن يكون الطرف المقابل ممّن يراعي الحقّ إلى حدٍّ ما، بحيث إنّه لو لم يراعِ أحد الطرفين حقوق الطرف الآخر فلا يلزم على الثاني ولا يجب أن يؤدّي حقّه. فلو فرضنا مثلًا أنّ أحد الرفيقين أخطأ وتصرّف بطريقةٍ غير لائقةٍ ولم يُراعِ حقّ رفيقه، ففي هذه الحالة ليس من الضروريّ أن يقوم الطرف الآخر برعاية حقّه. فقد تؤدّي رعاية الحقوق من أحد الطرفين وسلوكه الحسن معه إلى تجرّؤ الشخص المخطئ أكثر، وفي بعض الحالات تكون رعاية حقّ الآخرين مشروطةً بأن يراعوا حقوق الطرف المقابل. وبالطبع، وكما أشرنا، فإنّ رعاية بعض الحقوق لا تكون مشروطةً بالرعاية المقابلة، لهذا إذا لم يراعِ أحد الطرفين الحقّ فلا يستوجب ذلك أن يدوس الطرف المقابل على حقّه، بل يجب عليه أن يراعي حقّ الطرف المقابل، مثل بعض الحقوق التي تندرج تحت موارد الصديق أو الأب والأم.

ونجد في العديد من الحالات أنّه تُراعى حقوق من يحوذ على مكانةٍ اجتماعيّةٍ

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٨.

(٢) سورة **لقمان**، الآية ١٥.



وماليّة، ولكن ما إن يسقط من موقعيّته هذه ويفقد ثروته، حتّى يجافيه الأصدقاء وينسون حقوق الصحبة، وكأنّه لم يكن هناك أي صداقةٍ فيما بينهم؛ ففي مثل هذه الحالة يعتبر الإمام عَلَيهِ السَّلَامُ أنّ رعاية حقوق الآخرين يُشترط فيها أن يراعي الطرف الآخر الحقّ لا لأنّ صاحب الحقّ يتمتّع بمكانةٍ اجتماعيّة ومنزلةٍ رفيعة، بل حتى لو تنزّل من مكانته تلك يجب رعاية حقّه لأنّه ممّن يراعون الحقوق ويؤدّونها إلى أهلها: «**اعْرِفِ الْحَقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لَكَ رَفِيعًا كَانَ أَوْ وَضِيعًا**». وكلام الإمام عَلَيهِ السَّلَامُ هذا تحذيرٌ لمن يتورّط في الغفلة التي تعرض على الإنسان بشكلٍ طبيعيّ. نجد بعض الأفراد ينشؤون على نحوٍ يتناسون فيه صديقهم الذي يفقد مكانته الاجتماعيّة، في حين أنّ المؤمن لا ينبغي أن يتصرّف كذلك، فعلى المؤمن أن يكون عارفًا بالحقّ وأن يؤدّي حقوق الآخرين في جميع الأحوال، وإن لم يكن صاحب الحقّ شخصٌ يتمتّع بهذه المنزلة الاجتماعيّة. فالمعيار الوحيد لرعاية حقوق الآخرين هو أن يكون الطرف المقابل ممّن يراعي حقّكم ولا يضيّعه.

المشكلات تصاحب الإنسان

يواجه الإنسان شاء أم أبى العديد من المشاكل والمصائب الروحيّة والنفسيّة في حياته، فقد تتعقّد أموره وأعماله، وقد يفقد عزيزًا وقد تتسبّب حادثةٌ بتهديد مستقبله وغير ذلك. وعلى أيّ حال، فإنّ الإنسان ليس مأمونًا من أنواع المشاكل في حياته وسوف يواجه هذه الصعاب شاء أم أبى. بالطبع، يختلف الأمر بين شخصٍ وآخر. ولكلّ واحدٍ همومه وغمومه بحسب قابليّاته وأوضاعه. فالذي يتمتّع بالموقعيّة الاجتماعيّة الأعلى ويتحمّل مسؤوليّات كبيرة فإنّ همومه وغمومه ستكون أكثر ممّن لا يتحمّل هذه المسؤوليّات، كما أنّ طلّاب الدنيا يكونون أكثر همّهم وغمّهم بسبب الدنيا. أولئك الذين يعيشون هموم المسؤوليّات الإلهيّة والاجتماعيّة، فإنّ أكثر ما يقلقهم هو العجز عن تحمّل هذه المسؤوليّات وأدائها، وإذا عرضت عليهم موانع وعقبات فإنّهم يقلقون ويضطربون، وقد يشتدّ هذا الهمّ والغمّ إلى درجةٍ تمنع الإنسان من الاستمرار بالعطاء والعمل. وقد يُبتلى الإنسان بضعف الأعصاب أو ضعف القلب وحتّى لو استمرّ فإنّه قد يُصاب بنوعٍ من الغمّ الشديد.

وعلى أي حال، فإنّ هناك مجموعة كبيرة من الأمراض الجسميّة والآلام



الروحيّة التي تهدّد وجوده وقد تسلبه قدرة العمل والسعي بسبب ما يصاحبها من غمٍّ شديد تحولّه إلى عنصرٍ مشلولٍ وسط هذه البنية الاجتماعيّة، ولا شكّ بأنّ مثل هذا الوضع ليس بمرغوبٍ عند أحد. فمثل هذا المُبتلى لن يتمكّن من متابعة أمور دنياه أو أمور آخرته، فسوف يعيش وسط بحر الغموم والغصص والقلق الشديد، وقد يُسلب حضور القلب في الصلاة ويفقد قدرة العبادة، وبكلامٍ مختصر يتحوّل إلى عنصرٍ مشلولٍ بالكامل.

طرق مواجهة المشكلات

وكما مرّ في السابق، فإنّ حياة الإنسان لا تخلو أبدًا من المشاكل والحوادث المرّة وقد يصل تأثير هذه الأحداث إلى حدّ يُهيمن على جميع نشاطاته الدنيويّة والأخرويّة والفرديّة والاجتماعيّة. والمهم هو أن نعرف ما العمل لكي نصون أنفسنا من هجمة الآفات ونضع سدًّا منيعًا أمام هذه المشكلات.

لا حاجة لأن نذكر أنّ الحياة الدنيا تتواءم مع المصائب والمصاعب المختلفة، ولا تخلو من الألم والغمّ والحزن وما يهمّنا هنا أن نجد الخلاص من أجل أن لا تتحكّم بنا تلك المصاعب والهموم وتمنعنا من القيام بوظائفنا وتكاليفنا، فينبغي للإنسان أن يتسلّط على هذه الصعاب والمشاكل لا أن تتسلّط المشكلات عليه وتمنعه من تحمّل مسؤوليّاته، فما هو طريق علاج هذا الأمر المهمّ يا تُرى؟

قبل عرض طريق العلاج المناسب، من المهمّ أن نلتفت إلى هذه النقطة وهي أنّ الذين يُعانون من حساسيّةٍ مفرطة من الطبيعي أن يكونوا عرضةً للكثير من الآفات، وبعض الناس يتعاملون ببرودة أعصابٍ عند مواجهة تلك المصاعب ولا يعيشون الكثير من القلق. وفي المقابل، هناك من يتأثّر بسرعة بحيث يصبح كلّ وجوده بنحوٍ سريع وعميق تحت تأثير هذه الأمور، ويبقى هذا التأثّر لمدّةٍ طويلة ولا يستطيعون أن يخلّصوا أنفسهم من مخالبها. إنّ هذه الفئة تكون عرضةً أكثر من غيرها لمثل هذه المخاطر والأزمات النفسيّة، مثل الشعور باليأس والعجز والإحباط والاضطراب؛ أو الأمراض الجسمانيّة كالشلل والفالج الذي يزيد بدوره من تعقيد المشاكل وإهمال الأعمال، فالمهمّ هنا هو كيف يستطيع هؤلاء الأفراد أن يصونوا أنفسهم من هذه الآفات. يقول إمام المتقين عَلَيهِ السَّلَامُ في هذا المجال: لأجل أن

تبقى في أمان من هذه الغموم يجب أن توجد في نفسك قوّتين أساسيّتين: الأولى هي الصبر، والثانية هي اليقين.

أ- الصبر

إنّ الصبر من المقولات الأخلاقيّة المهمّة ويمكن للإنسان أن يحصّل هذه القوّة عبر وسائل مختلفة ويمكن لصاحب ملكة الصبر أن يقاوم تلك الأحداث الصعبة والمؤلمة ولا يقع تحت تأثيرها بسرعة. بالطبع، إنّ موقع هذا البحث وبيان أساليب اكتساب الصبر هو في الكتب الأخلاقيّة ونحن لا نريد الآن أن ندخل في هذه الأمور، لكن على أيّ حال إذا استطاع الإنسان أن يقوّي ملكة الصبر في نفسه فسوف يصونها من جميع هموم الدنيا وغمومها وآفاتها. إنّ المصاعب والآلام والغموم تبعث القلق وتُحبط الإنسان وتجمّده. أمّا الإنسان الصبور فيستطيع أن يزيد من مقاومته الداخليّة بالاستعانة بملكة الصبر ويستطيع بذلك أن يواجه تلك الصعاب والآلام باعتماد أساليب متنوّعة جدًّا، ومهما كانت العوامل قويةً فسوف تعمل تلك القوّة الباطنية للمقاومة بصورة أقوى.

ب - حسن اليقين

والمراد من حسن اليقين هو أن يعتمد الإنسان على حُسن تدبير الله. لقد تناولنا هذا الموضوع في الأبحاث السابقة.إنّ من التعاليم التي وقعت مورد اهتمام الأديان الإلهيّة وتناولها الإسلام في العديد من الآيات والروايات هي قضيّة القضاء والقدر الإلهيّين. بالطبع، بذاك المعنى المطروح في المعارف الإلهيّة لا بذاك الاستنتاج الخاطئ والجبريّ الذي يوجد بين الناس. وباختصار، يمكن القول إنّ الاعتقاد بالقضاء والقدر الإلهيّين يعني الاعتقاد بأنّ العالم يُدار بواسطة تدبيرٍ أبعد من تدبيراتنا الجزئيّة.

فنحن نفكّر ضمن إطارٍ محدودٍ وضيّق ونخطّط ونستعمل قدراتنا المحدودة من أجل القيام بالأعمال، ونواجه في هذه الحالات مشاكل وصعاب ونُمنع من الوصول إلى المقصد، وهذا الأمر يدلّ على أنّ هناك تدبيرًا أبعد ممّا وصلت إليه أفكارنا. لقد جرّبنا جميعًا وفي حالاتٍ عديدة، أنّه رغم توجّهنا إلى هدفٍ خاصّ وتحرّكنا من أجل الوصول إليه، أنّنا قد وصلنا إلى نتيجةٍ أهمّ بكثير ممّا كنّا نتوقّع.



وفي بعض الحالات، يكون الأمر على العكس، فالبرغم إعمال الدقّة اللامتناهية والسعي المجهد، لم نصل إلى الهدف أبدًا. وقد يتحرّك الإنسان باتّجاه عملٍ خيريّ ولكن بدل الخير يتسبّب بمصيبة. هذه نماذج بسيطة تدلّ بالإجمال على وجود مدبّرٍ أعلى من الإنسان. فحين تقع الزلازل والسيول والآفات والبلاءات رغمًا عن إرادتنا ورغبتنا وتؤدّي إلى موت البعض وحصول اضطرابات ومشاكل، فهذا يثبت أنّ جميع الأمور لا تتحقّق وفق إرادة الإنسان ورغبته. وقد تمّ التأكيد على هذه المسألة في التعاليم الدينيّة، وهي أنّه ينبغي على الإنسان أن يعلم أنّ هناك تدبيرٌ إلهيّ كليّ حاكمٌ على نظام الوجود وعلى جميع الأحداث الحلوة والمرّة التي تقع في هذا العالم.

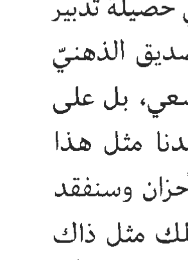
صحيحٌ أنّنا في هذه الموارد نواجه حالاتٍ مخيفة ومحزنة ونتصوّر أنّ حدوث هذه الأمور ناشئٌ من النقص في تدبير العالم، لكنّنا نُدرك من وجود النظام والتدبير في كلّ نظام الوجود أنّ هناك قضايا أكثر عمومًا وإحاطةً نحن عنها غافلون. وفي الواقع، لا ينبغي أن نطّلع عليها لأنّها وسيلةٌ لاختبارنا، ولو أدركها الإنسان لما حصل ذلك الامتحان كما هو مطلوب. إنّ المؤمن الذي يحمل الإيمان وحسن الظنّ بتدبير الله يعلم أنّ هذه الأحداث ليست عبثيّة، ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ اختيار الأحداث خارجٌ عن إرادة الله القادر المتعال، وأنّ هذه الأحداث تقع بعيدًا عن التدبير الإلهيّ. كما أنّه لا ينبغي أن نتصوّر بأنّ الله سبحانه يريد أن يوقع الناس بالأذى والشقاء. الله رحيمٌ ورؤوفٌ ولكن هذه الحوادث المرّة والصعبة هي أمور ضروريّة في مجموع نظام الوجود وينبغي أن تحصل؛ ولأنّنا لا نستطيع أن ندرك المصلحة فيها، يصبح تقبّلها صعبًا علينا فلو أدركنا القضايا الكلّيّة في عالم الوجود لأدركنا أنّ هذه الظواهر هي أمورٌ ضرورية؛ وأنّه من لوازم التدبير العقلانيّ والحكيم أن تقع مثل هذه الأحداث.

وعلى أيّ حال، إنّ الاعتقاد بحكمة الله، وكون الأفعال الإلهيّة قائمة على حسن التدبير، وإنّ نظام الخلقة مبنيٌّ على أحكم نظام، يؤدّي إلى أن لا يفقد الإنسان هدوءه وسكينته حين يواجه الأحداث المؤلمة والمحزنة، والتي لا تُعدّ؛ وسوف نحصل على السكينة والاطمئنان بمقدار ما لدينا من حسن يقين واعتماد على تدبير الله. افرضوا أنّ طفلًا ابتُلي بمرضٍ وأمّه تمنعه من تناول بعض الأطعمة اللذيذة، هنا نجد أنّ هذا الطفل يبكي لأنّه يتصوّر بأنّ أمّه لا تريد له الخير، وأنّها

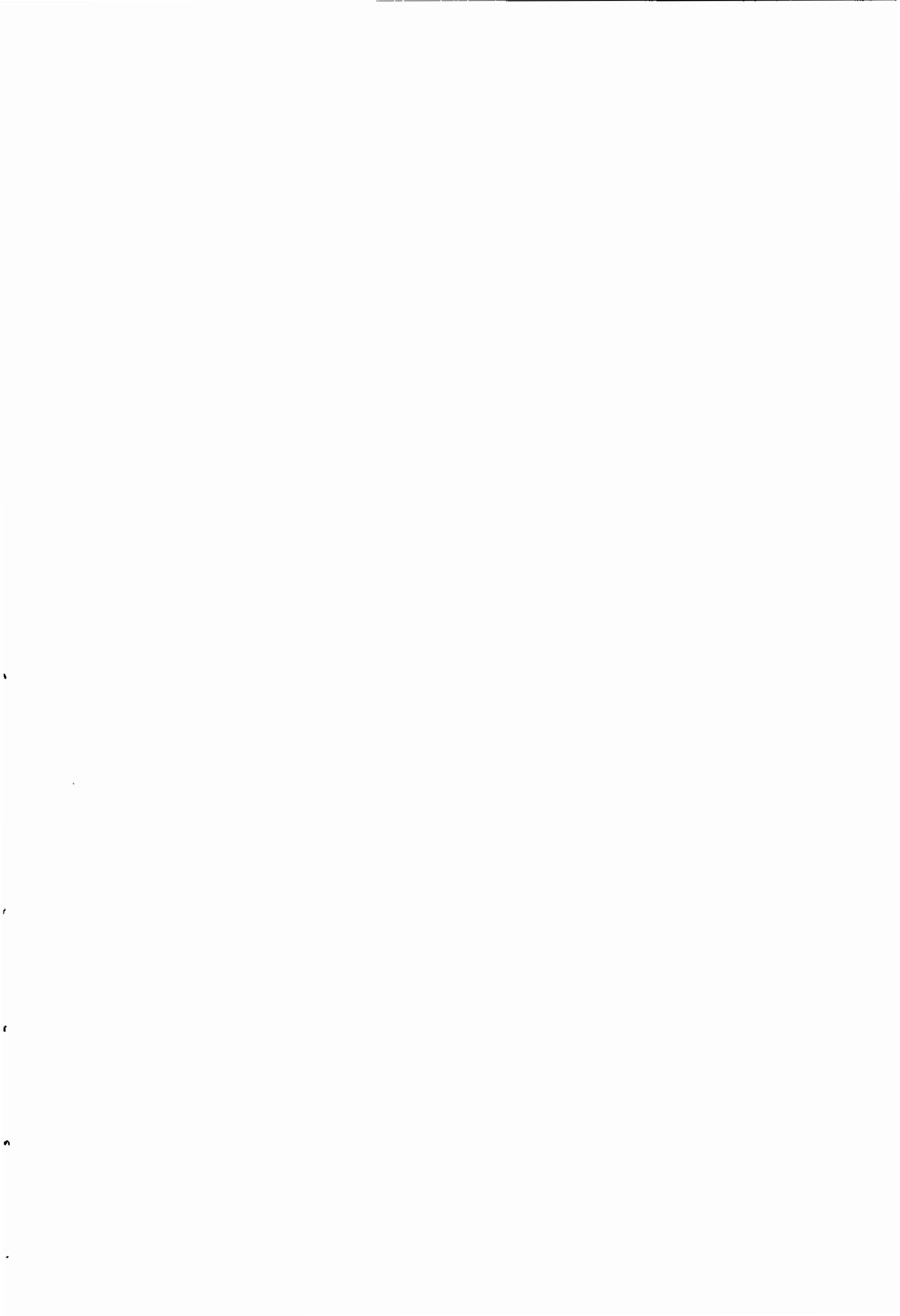
تعانده في منعها، أو حين تناوله الدواء المرّ فإنّه يتصوّر أنّ أمه تُعاديه، فليس لديه اعتماد على تدبير أمّه وحسن يقين به؛ لأنّه كلّما كبر وأدرك أن تناول هذا الدواء المرّ أمرٌ ضروريّ لشفائه أو أنّ التقليل من الطعام يعوّض عن هذا الدواء المرّ، وأن هذا الفعل الذي تقوم به الأمّ ناشئٌ من محبّتها وحسن نظرها فسوف يتيّقن بتدبير الأم ويستحسن فعلها ولا يمتنع عن تناول أكثر الأدوية مرارةً. لهذا، نشاهد أنّ الطفل كلّما كبر تقلّ مقاومته لتناول الدواء، فيتناول الأدوية بسهولة. وهكذا سوف يأخذ دواءه بمجرّد أن توصيه أمّه لأنّه لم يعد يتصوّر أنّ أمه وأبوه يعاديانه.

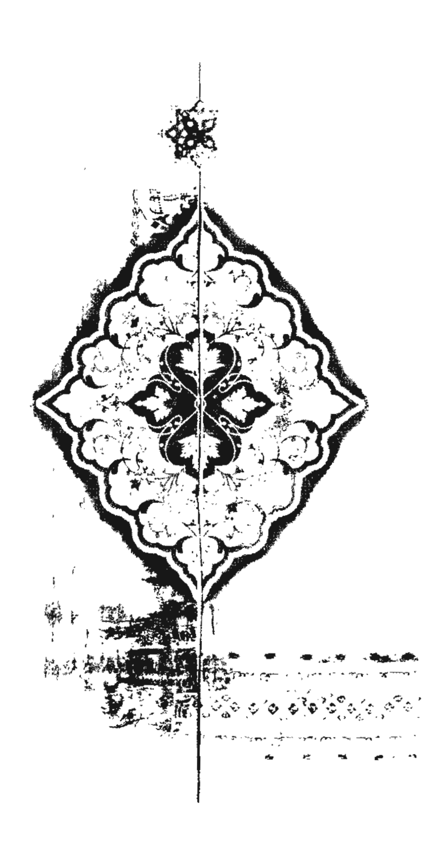
ومثل هذا التصوّر والذهنيّة يجري في التصرّفات التربويّة والتعليميّة للوالدين أيضًا؛ أي إنّ الطفل الذي يُذعن لمعاقبة والديه ويُراعي بعض الآداب الخاصّة حين يصل إلى الرشد المطلوب، فإنّه لا ينزعج من هذا التأديب أو التوبيخ لأنّه عادةً يعلم أنّه ضروريٌّ لتأديبه وتعليمه؛ كما أنّه حين يُعطي المعلم وظائف كثيرة للتلاميذ، فإنّ بعض هؤلاء يتصوّرون أنّ المعلّم قد دخل معهم في معركةٍ وحربٍ وأنّه يصعّب عليهم الأمر من دون سبب، لكنّهم إذا نجحوا في الامتحان وحصلوا على بعض الجوائز والتنويهات يدركون أنّ تشدّد المعلم كان لأجل تربيتهم وتعليمهم وسوف يحسنون الظنّ بهذا التدبير ولن ينزعجوا بعدها من وظائف المعلّم وتشدّده.

فالمؤمن حين يؤمن ويثق بمدبّر عالم الوجود ويعلم أنّ جميع تدابيره قائمةُ على الحُسن، ونابعةٌ من الحكمة المطلقة، لا يمكن عندها أن يُظهر سخطه وانزعاجه بمجرّد أن يواجه حادثة مؤلمة، وإنّما سيعتبرها قضيّةُ ناشئةٌ من حسابات دقيقة. فبحسن يقينه وثقته يعتقد أنّ جميع هذه الأعمال والأحداث إنّما تقع في محلّها وبشكلٍ صحيح، وإنّنا نحن بسبب عدم إحاطتنا بالمصالح الكلّيّة لعالم الوجود لا نستطيع أن نُدرك المصلحة من وقوع هذه الحادثة أو تلك. بناءً عليه، إذا رفعنا من مستوى معرفتنا بالله تعالى وصحّحنا تصوّراتنا الذهنيّة ورؤيتنا لحضرة الحقّ تعالى فسوف نستقبل جميع الأحداث المرّة والوقائع الصعبة بكامل الهدوء والسكينة والاطمئنان، بل إنّ هذه الأحداث لن تتجلّى لنا كأحداثٍ مُرّة، بل سيكون أكثر همّنا هو تحديد مسؤوليّتنا فيها. فإذا وقع زلزالٌ ما سنسارع إلى مساعدة المصابين ونجاتهم. وعلى هذا النحو، فإنّنا سنؤدّي ما علينا في ميدان العمل ولن نقع في أيّ اضطرابٍ وتزلزلٍ في عالم الذهن جرّاء تلك الحادثة التي وقعت في العالم.



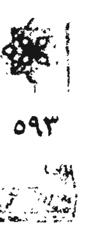
ومن خلال التعليل العقليّ واليقينيّ، نعلم أنّ هذه الحادثة هي حصيلة تدبير إلهيّ وأنّ كل ما يريده الله هو عين الصلاح. إنّ هذه النظرة والتصديق الذهنيّ يؤدّيان إلى عجز غموم الدنيا وغُصصها عن إيقافنا عن النشاط والسعي، بل على العكس ستُحثنا على خدمة الآخرين والقيام بالتكليف. أمّا إذا فقدنا مثل هذا اليقين تجاه التدبير الإلهيّ فسوف نعاني من الكثير من الغموم والأحزان وسنفقد القدرة على التحرّك ومتابعة الأعمال. فإذا استطاع الإنسان أن يمتلك مثل ذاك اليقين بأنّ كلّ الأمور الحادثة في العالم هي حصيلة تدبيرٍ إلهيّ حكيم فإنّه سيتمكّن بسهولة من مواجهة كلّ هذه المشاكل والغموم والغُصص ولن يقع تحت تأثيرها. ففي هذه الحالة، لن يتسلّط عليه أيّ غمٍّ أو همٍّ أو اضطراب، لا بل سوف يتبدّل كلّ ذلك إلى سلّمٍ يعرج بواسطته نحو المزيد من التكامل.





الدرس الثالث والأربعون
من الفضيلة حتى الرذيلة

- الاعتدال معيار الفضيلة
- مفهوم حدّ الاعتدال
- أهميّة الاعتدال في القرآن والحديث
- القصد مقابل الجور
- الاعتدال في الآمال والأماني





«مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جارَ، ونِعْمَ حَظُّ الْمَرْءِ الْقَنُوعُ، وَمِن شَرِّ مَا صَحِبَ المَرْءَ الْحَسَدُ، وَفِي الْقُنُوطِ التَّفْرِيطُ، وَالشُّحُ يَجْلِبُ».

إنّ كلام أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو نور العين وقوّة القلب وباعث اقتدار أهل الهمّة، ولحدّ الآن تناولنا بمقدار التوفيق الإلهي وبالاستنارة من نور فيض الكلام القدسيّ لإمام المتّقين عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ وطفقنا نستفيد بقدر وعاء وجودنا لأجل تقوية قلوبنا ودينِنا، وجنينا من مواعظ ذلك البحر اللامتناهي وحكمه فوائد جمّة والآن نقوم بشرح ودراسة ما بقي من كلام أمير العالَمين بلطف عناية حضرته.

في هذا المقطع من الكلام، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**مَنْ تَـرَكَ الْقَصْدَ جَار**»، فالذي يخرج عن حدّ الاعتدال والوسطيّة يظلم. وبعد هذه الجملة القصيرة، يورد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ عدّة جمل أخرى تُعدّ من ناحية المعنى من مصاديق هذه الجملة الوجيزة. بالطبع، إنّ هذه الجمل لم ترد في **نهج البلاغة** لأنّ المرحوم السيد الرضيّ جمع كلمات أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بصورة منتقاة. على أيّ حال، فقد نُقل في كتاب **بحار الأنوار** بعد جملة «**مَنْ تَـرَكَ الْقَصْدَ جَار**»، عدّة جُمل أخرى، وقبل أن نتناول تلك الجمل نشرح ونفسّر أصل الاعتدال والوسطيّة.

الاعتدال معيار الفضيلة

هناك قاعدةٌ معروفةٌ بين الناس تقول خير الأمور أوسطها وفي كلّ أمرٍ يكون الحدّ الوسط مطلوبًا ومرغوبًا. وقد نُقل في فلسفة الأخلاق قاعدةٌ عن قدماء اليونان

وتقبّلها حكماء الإسلام وهذه القاعدة تقول إنّ كلّ فضيلة أخلاقيّة تكون مُحاطة برذيلتين: إحداهما الإفراط والأخرى التفريط. وقد جُعلت هذه القاعدة معيارًا للأفعال الأخلاقيّة في كتبنا الأخلاقيّة أيضًا. وقد تناول كتاب **جامع السعادات**[١] هذا *الأصل كغيره من الكتب الأخلاقيّة*، وهو *أن كلّ فضيلةٍ وسلوكٍ حسن يقع بين* رذيلتين في الإفراط والتفريط.

فالإفراط والتفريط يؤدّيان إلى رذائل الأخلاق، ورعاية الاعتدال تؤدّي إلى الفضيلة. وقد طُرح هذا الكلام في الأغلب كقاعدة أخلاقيّة في كتاب فلسفة الأخلاق، لكن السؤال: هل أنّ هذا الكلام كليّ وعامّ؟ وهل إنّ كل إفراطٍ وتفريط في كلّ عملٍ مذموم والاعتدال ممدوح؟ فما هو الدليل المنطقيّ على هذا الكلام الذي يقول بأنّ الحدّ الوسط هو المطلوب فقط وأنّ الإفراط والتفريط مذمومان دائمًا وغير مطلوبين؟ وما هو الدليل الذي اعتُمد عليه للتسليم بهذا المعيار، فهل هذه القاعدة ناتجة عن الاستقراء أو يوجد دليلٌ منطقيّ عليها؟

بالطبع، يوجد أبحاثٌ كثيرة هنا في هذه القضيّة لا مجال لتناولها الآن، لكن على أيّ حال فإنّ هذه القاعدة هي من المسلّمات والمشهورات. لهذا، فإنّ أولئك الذين اعتبروا بأنّ جميع الأبحاث الأخلاقيّة هي من قبيل المشهورات، فقد اعتبروا أنّ البحث بشأن هذه القاعدة لا طائل وراءه، وهم يعتقدون بأنّ جميع القواعد الأخلاقيّة هي في حدّ المشهورات، ويمكن تبيان الأبحاث الأخلاقيّة على هذا النحو. مع مثل هذه الفرضيّة المتقدّمة، تكون هذه القضيّة أيضًا من القضايا المشهورة ولا تعود تحتاج إلى إقامة البرهان والدليل عليها لإثباتها. ذلك لأنّ الجميع قد أقرّوا أنّه يُمكن الاستفادة من المقدّمات المشهورة في الأخلاق، ولأنّ مبناهم قائمٌ على أنّ الأبحاث الأخلاقيّة هي من المشهورات، وهذه القاعدة هي أيضًا من المشهورات فلا حاجة بعدها للبحث.

وعلى أيّ حال، فإنّ الذين يقبلون بهذا المبنى لا يبحثون حول هذه القاعدة. أمّا على مبنى أولئك الذين يعتقدون بأنّ المسائل الأخلاقيّة كغيرها من القضايا

---

(١) راجع: محمّد مهدي النراقي، **جامع السعادات**، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر (النجف الأشرف: دار النعمان، لا تاريخ)، الجزء ١.

تحتاج إلى إقامة البرهان ويجب أن تنتهي مقدّماتها إلى البديهيّات فإنّ البحث يُصبح أكثر صعوبةً لأنّه ينبغي إثبات أنّ الاعتدال ملاك للفضيلة وأن الإفراط والتفريط معياران للرذيلة بواسطة البرهان العقليّ اليقينيّ.

وقد طُرحت هذه القضيّة في اليونان قبل الميلاد بعدّة قرون وهو: هل إنّ الحدّ الوسط والاعتدال هو فضيلةٌ، وإنّ الإفراط والتفريط مطلوبان؟ وهل الحدّ الوسط في تحصيل العلم، والإفراط أو التفريط فيه مذموم؟ أم أنّ الإنسان كلّما تعلّم أكثر سيكون هذا أفضل؟ فالبعض لم يقبل هذه القاعدة واعتبروا أنّ مطلوبيّة العلم تنقضها، ويقولون إنّه لا يوجد شخصٌ يعتبر الإفراط في تحصيل العلم مذمومٌ، ومثل هذا الكلام ليس أمرًا جديدًا، وقد أجيب على هذا بعدّة أجوبة لا مجال الآن لتناولها. ولكن على أيّ حال، فإنّ هذه القاعدة يمكن أن يكون لها تفسيرٌ صحيح يصل إلى حدّ الاعتبار البرهانيّ وهذا التفسير يحتاج إلى بيان مقدّمات نتناولها الآن: يوجد في الإنسان قوى مختلفة وهذه القوى تتعارض وتتزاحم فيما بينها في مقام العمل، وكل إنسانٍ يدرك هذه الواقعيّة ويمكن له أن يتعرّف إليها في نفسه حيث يُلاحظ وجود دوافع مختلفة فيها، وهو لا يستطيع أن يجمع بينها في مقام العمل. فقد يحبّ الإنسان العبادة في الوقت الذي يرغب فيه بتحصيل العلم والتحقيق والمطالعة.

ومن جانبٍ آخر، فإنّه يلتذّ بمجالسة عائلته وأبنائه. ومن الواضح، أنّ جميع هذه الأعمال مطلوبة نسبيًّا ولكن في مقام العمل لا يمكن للإنسان الجمع بينها وتأديتها جميعًا في الوقت نفسه. فحين ينشغل الإنسان بالصلاة، لا يمكنه أن يطالع، وحين يدرس ويقرأ لا يمكنه التدريس، وحيث يشتغل بالمطالعة لا يمكنه أن يباحث أو يتابع شؤون عائلته أو غيرها من القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة. فهذه الأمور تتزاحم وتتعارض ولا يمكن للإنسان أن يجمع بينها؛ إلّا إذا حدّد لكلٍّ من هذه الأنشطة زمانًا خاصًّا به أو انشغل طوال عمره بأمرٍ واحدٍ وترك ما بقي من أمور وأعمال؛ كأولئك الذين كانوا يعتزلون في بعض الأديرة أو الصوامع أو المعابد ليتفرّغوا للعبادة، تاركين جميع الأنشطة والأعمال الأخرى. لقد كان هؤلاء يتصوّرون أنّ الفضيلة هي فقط في العبادة ولا يوجد ما هو مهمّ غيرها، وعلى أيّ حال ما العمل؟ فهل ينبغي الاهتمام بعملٍ واحدٍ فقط أم على الإنسان أن يتحمّل العديد من المسؤوليّات وفق تخطيطٍ وبرمجة صحيحة؟

تشير سيرة النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُالسَّلَامُ إلى أنّ حياتهم لم تكن ذات بعدٍ واحد، كما أنّ الآيات والروايات لا تعتبر الفضيلة بالنسبة للإنسان تنحصر في نوعٍ واحدٍ من الأنشطة والأعمال، بل تعدّد للإنسان أعمالًا مختلفة وفضائل متنوعةً وتكاليف واجبة ومستحبّة عديدة كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعليم والتعلّم والأنشطة السياسيّة والاجتماعيّة والأسرّية وتربية الأبناء وغيرها. وطبقًا لتعاليم الإسلام لا يمكننا ولا يجوز لنا أن نجعل أنفسنا وقفًا لعملٍ واحد. كأن ننشغل بالعبادة فقط أو بتحصيل العلم وننسى سائر الأنشطة. فالإسلام لا يقبل أبدًا النظر إلى أمرٍ واحد أو أن يكون أحديّ الأبعاد.

فالمشاركة في الأنشطة المتنوّعة تُعدّ أمرًا ضروريًّا لحياة الإنسان ويجب على الإنسان أن يشارك في المجالات العباديّة والسياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة والفرديّة المختلفة. غاية الأمر أنّ لكلٍ من هذه الأنشطة والأعمال حدٌّ خاص وهذا الحدّ هو البعد عن الإفراط والتفريط، الذي لا ينبغي أن ينتهي إلى ما هو مذموم. فكلّ عملٍ كالصلاة له حدٌّ وإذا كان أكثر أو أقلّ من ذلك المستوى فسيؤدّي إلى ترك الأنشطة الواجبة الأخرى ويصبح مذمومًا. لهذا، فإنّ القيام بالصلاة المستحبّة أكثر من الحدّ يُعدّ مذمومًا. فلا بدّ من رعاية الحدّ الوسط حيث يكون ما هو أكثر غير مطلوب، وما هو أقلّ غير مستحسن.

بناءً عليه، فإنّ رعاية الاعتدال دائمًا يمكن أن تكون معيارًا للفضيلة لأنّ الإنسان لا يتحمّل مسؤوليةً واحدةً. ولأجل توضيح هذا الأمر أكثر، فإنّه من المفيد أن نذكر مثالًا: إنّ الجهاد هو أحد أكثر التكاليف الإلهيّة أهميّةً وفضيلةً، حيث يبدو أنّه مُستثنى من حدّ الاعتدال. فعند وجوب الجهاد يجب أن نغضّ النظر عن كلّ الأنشطة الأخرى، كتحصيل العلم والأنشطة الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة، وننهض إلى الجهاد فقط. فقد يكون الجهاد أمرًا ملحًّا جدًّا وتكون الحرب شديدةٍ إلى درجةٍ ينبغي معها أن ندع جانبًا كلّ الأنشطة الأخرى. ففي هذه الحالة، لا يكون في الأولويّة سوى الجهاد ولا غير، لأنّه من دونه لن يكون من الممكن إنجاز الأعمال الأخرى، هذا في حين أنّه في الظروف العاديّة ينبغي أن نراعي حدّ الاعتدال فيما يتعلّق بكلّ الأنشطة الأخرى غير الحرب والقتال.

بناءً عليه، فإنّ الجهاد يحتاج إلى رعاية حدّ الاعتدال، وهذا الحدّ يمكن أن



يكون حدًّا زمانيًّا أو حدًّا يرتبط بالقدرة. فعلى سبيل المثال، ما هو ميزان القدرة التي ينبغي أن نبذلها في الجهاد أو ما هي المدّة الزمنيّة التي ينبغي أن نخصّصها للجهاد؟ لهذا، فإنّ للجهاد حدّه الخاص به.

وبشكلٍ عام، حين يواجه الإنسان أعمالًا وتكاليف متزاحمة ومتعدّدة، ولا يمكنه أن يؤدّي هذه الأنشطة في الوقت نفسه، فإنّه شاء أم أبى يحتاج إلى أن يغضّ النظر عن البعض إلى حدٍّ ما ليقوم بالبعض الآخر. والمقصود من هذا أنّ لكلّ عملٍ حدٌّ مطلوب، لا يكون الزيادة فيه أو النقصان صحيحًا. وفي النتيجة، يمكن أن نقبل بالإجمال أنّه يوجد في الأفعال القيميّة والأخلاقيّة والصفات الممدوحة حدٌّ وسط وشيءٌ مطلوب وهو معيارٌ لاجتناب الرذيلة وكسب الفضيلة.

مفهوم حدّ الاعتدال

هنا، ينبغي أن نتناول تعيين حدّ المطلوبيّة، فإذا كان لا بدّ من رعاية الحدّ الوسط في الأعمال والسلوك والتكاليف فما هو هذا الحدّ الوسط؟ ما هو مستواه ودرجته من حيث الكميّة والمقدار؟ من الواضح، أنّ تعددّ الأنشطة والتكاليف وتنوّع استعدادات الناس المختلفة وكذلك قدراتهم لا تسمح لنا بتحديد عملٍ ثابتٍ فنقول إنّ هذا هو الميزان والمقدار والحدّ الوسط والمطلوب في هذه الأنشطة والأعمال. لهذا، إنّ تعيين الحدّ الوسط أمرٌ صعبٌ ويحتاج إلى بحثٍ ولا يمكن أن نقول بسهولة ما هو الحدّ الوسط والمطلوب. فمثلًا، يُقال إنّ الحدّ الوسط والمطلوب في الأكل هو أن لا تأكل بحيث يخرج الطعام من فمك، ولا أن يؤدّي ذلك إلى ضعف نفسك، لكن هذا الكلام لا يعني أنّه طبق العمليّات الإحصائيّة نكون قد حدّدنا المعدّل الوسطيّ لطعام الإنسان وغذائه، فيُقال مثلًا إنّ هذا يبلغ خمسة كيلوغرامات في اليوم بالنسبة لأيّ إنسان. لا شكّ بأنّ تعيين مثل هذا المعدّل ليس في محلّه وكذلك هو غير ممكن، لأنّ الحالات الغذائيّة والأنسجة وأنواع الأنشطة التي يقوم بها الناس هي من العوامل المؤثّرة في تحديد معدّل استهلاك الطعام ومثل هذه العوامل هي في الأغلب غير ثابتةٍ حتى في الشخص الواحد، فما بالك بجميع الناس! لذلك، ينبغي أن نقول إنّ لكلّ شخصٍ حدٌّ وسط متناسب مع نفسه.

والحدّ الوسط في هذا المقام ليس ظاهرةً كميّةً ثابتةً حتى نقول إنّ هذا هو المقدار المناسب من الطعام لجميع الناس، وإنّ ما يزيد أو ينقص عنه سيكون مذمومًا. إنّ الحدّ الوسط هو حدّ بين قلّة الطعام والبطنة، ولكن لا يمكن القول إنّ للحدّ الوسط كمّية خاصّة ومحدّدة. حتى أولئك الذين يتحدّثون عن قاعدة حدّ الوسط في الأخلاق والفضيلة ليس لديهم مثل هذا التصوّر عن هذه القاعدة، ويعتبرون مثل هذه الاستنتاجات خاطئة. المقصود من الحدّ الوسط ليس كميّةً خاصّة، بل المقصود هو أن نقوم بكلّ عملٍ حسن ومطلوب إلى الدرجة التي لا تمنعنا من القيام بالأنشطة الأخرى. ومن جانبٍ آخر، ينبغي أن يكون الحدّ الأقلّ فيه بمقدارٍ مؤثّرٍ عند أدائه، فلا يكون قليلًا وضئيلًا إلى الدرجة التي لا يوجد معها أي تأثير.

بناءً عليه، إنّ قاعدة الحدّ الوسط هي مورد تسليم بنحوٍ إجماليّ وتُعدّ ملاكًا للفضائل والقيم الأخلاقيّة، لكنّها تكون مفيدةً حين يتمّ تعيين مقدارها ومستواها؛ إلّا أنّ تعيين هذا الحدّ والمقدار أمرٌ صعبٌ جدًا ويمكن تحديده بحسب المورد باستعمال أدواتٍ خاصّة. ففي بعض الموارد، يتعيّن هذا المستوى بالاعتماد على الدليل العقليّ، وفي موارد أخرى يمكن تشخيص هذا المعدّل والحدّ الوسط بالتجربة العلميّة، وفي موارد أخرى أيضًا يجب الاستمداد من الأدلة النقليّة والتعبّدية، وربما يستلزم ذلك تضافر الأدلّة لأجل التعيين الدقيق له. فعلى سبيل المثال، بالنسبة لبعض المراحل العمريّة يمكن بالاستفادة من الاختبارات الطبّيّة والصحّيّة أن نحدّد معدّل وكيفيّة الغذاء الذي يحتاج إليه الطفل لكي لا يتضرّر، ففي هذا النوع من الموارد يمكن للعلم التجريبيّ أن يساعدنا، ولكن في الكثير من الموارد لا يفيدنا هذا العلم ويجب علينا أن نبحث عن طرقٍ عقليّة ونقليّة. فعلى سبيل المثال، لا يمكن تحديد معدّل العبادة اللازمة للإنسان عن طريق المعطيات والاستدلالات التجريبيّة العلميّة. ففي مثل هذه الموارد، يجب تحديد معيار المطلوبيّة من خلال الوحي والشرع المقدّس ويكون الشارع المقدّس هو المقام الوحيد الذي يليق بتعيين الحدّ الوسط.

بناءً عليه، يمكن للحدّ الوسط أن يكون معيارًا للفضيلة، لكنّ تعيين هذا الحدّ ليس أمرًا سهلًا، وفي الأغلب لا يمكن تشخيص هذا الحدّ بالاستناد إلى الكمّيّات الإحصائيّة وغيرها من الأمور المشابهة. وخلاصة الكلام هي: إنّ قاعدة الحدّ الوسط




هي قانونًا عامًّا له استثناءات من جانبٍ آخر. إنّ تعيين الحدّ والمعدّل المطلوب على أساس هذه القاعدة أمرٌ صعبٌ جدًا.

أهميّة الاعتدال في القرآن والحديث

من بين الروايات المنقولة عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام نصل إلى روايات توصينا بالاعتدال في العمل وأمور المعاش والعبادة. ففي رواية يوصي الإمام علي عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام قائلًا: «اقْتَصِدْ يَا بُنَيَّ فِي مَعِيشَتِكَ وَاقْتَصِدْ فِي عِبَادَتِكَ»[١]، وفي رواية أخرى، يعدّ الإمام عليه السلام الاعتدال من أخلاق أهل الإيمان ويقول: «اَلْمُؤْمِنُ سِيرَتُهُ الْقَصْدُ»[٢]. وقد ورد في **القرآن الكريم** عبارات مثل القصد تحكي عن الاعتدال ففي صورة لقمان وضمن نصائح هذا الحكيم لابنه يقول: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ...﴾[٣].

إنّ ألفاظ القصد والاقتصاد التي ترجع إلى جذرٍ لغويّ واحد، تعني في لغة العرب الاعتدال. وبالطبع، يوجد للقصد معانٍ أخرى مثل الإرادة والتصميم ولكن من بين هذه المعاني، فإنّ المعنى الأصليّ لهذه المادّة هو الوسطيّة والاعتدال. وعلى أيّ حال، فإنّ لقمان الحكيم عليه السلام وضمن نصائحه لابنه يوصيه بالقصد في مشيه. وبالطبع، ينبغي أن نرى ما هو المقصود من المشي؟ فهل هو المشي الفيزيائيّ الذي هو ضرب الأرجل بالأرض أم يشمل كلّ سلوكيّات الإنسان؟ وعلى أيّ حال، إنّ القدر المتيقّن من هذه الموعظة هو أن نقول إنّ حضرة لقمان عليه السلام كان يوصي ابنه بالاعتدال في المشي، فلا يمشي بسرعة شديدة، ولا يتباطأ في مشيه بحيث يشغله ذلك عن الأنشطة والأعمال الأخرى. لهذا، يجب رعاية حدّ الاعتدال حتّى في المشي.

وكذلك، نُقل في هذه السورة عن حضرة لقمان ما يرتبط بالتكلّم حيث قال: «لا ترفع صوتك كثيرًا فتزعج الآخرين ولا تخفضه كثيرًا فلا يسمع الطرف الآخر ما

---

(١) **بحار الأنوار**. مصدر سابق، الجزء ٦٨، الصفحة ٢١٤.

(٢) **ميزان الحكمة**. مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٥٥٧.

(٣) سورة **لقمان**، الآية ١٩.

تقول»، بالنظر إلى وضع المخاطب والمسافة التي تفصله والهدف من الكلام يمكن أن نحدّد مستوى الصوت في الرفع والخفض. ففي هذا المجال، يمكننا أن نحدّد معدّل ارتفاع الصوت وانخفاضه بالاستفادة من معيارٍ عقلائيّ، وهو الاكتفاء بتحصيل الغرض، أي لا نرفع أصواتنا إلى الدرجة التي يلومنا العقلاء عليها، ولا نخفضه إلى الدرجة التي لا يمكننا معها أن نوصل مبتغانا إلى المخاطَب، ولا يفهم العقلاء عندها شيئًا ممّا نقول. فالمعدّل الوسط ومقتضى قاعدة الحدّ الوسط هو هذا المقدار. ومثل هذا التشخيص لا يحتاج إلى أجهزةٍ خاصّة بقياس الصوت.

ومن الألفاظ الأخرى، التي اشتُقّت من مادّة قصد واستُعملت في القرآن أيضًا لفظ «المقتصد». وتُطلق كلمة «المقتصد» بأحد المعاني على الفضيلة أو على جميع الفضائل كما في الآية التي تقول: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[1]، فهي تشير إلى تلك الفئة المتوسّطة من بين أهل الكتاب. وفي موضع آخر، يخاطب الله رسوله المكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ويقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[2]. فكلا النوعين من السلوك في العطاء والبذل مذمومٌ، فلا ينبغي أن يبسط الإنسان يده بحيث لا يبقى له شيء ولا ينبغي أن يقبضها بحيث لا يصل إلى أحد منه حتى المال الأسود.

وباختصار، يمكن بالاستناد إلى الآيات القرآنيّة أن نقول إنّ التوسّط هو أصل وقانون في الفضائل الأخلاقيّة وهو يقدّم لنا ميزانًا لتشخيص السلوكيّات الحسنة من السلوكيّات السيّئة وهذه الحقيقة هي أمرٌ مقبول في المجموع.

القصد مقابل الجور

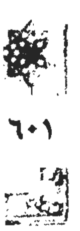
يذكر **القرآن الكريم** في الآيات الأولى من سورة **النحل** المباركة تلك النعم الإلهيّة ويقول: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً...﴾[3]. يستعمل القرآن الكريم أسلوب الانتقال في بيان بعض المطالب وقد استعمله هنا في هذه الآيات. ففي

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٦٦.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٢٩.

(٣) سورة **النحل**، الآية ٨.



هذا الأسلوب، ينتقل المستمع نتيجة المناسبة بين المعنى والمطلب إلى معنًى أعلى وأهمّ. فهنا، نجد أنّ الله تعالى يقول في البداية إنّنا قد جعلنا لكم وسائل لتقطعوا المسافات الطويلة في الأرض وسخّرنا لكم البهائم والحيوانات لتركبوها وتنتقلوا من مدينة إلى مدينه وتقطعوا المسافات الطويلة، ثمّ يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾[1]. فهذا يعني أنّ على الله أن يعرّف لكم الطريق الصحيح وهو ذاك الطريق الوسط والمستقيم وهو الطريق الذي يوصلكم إلى المقصد.

ففي البداية، يجري الحديث عن السير وقطع المسافات الطويلة بواسطة المركب، تلك المراكب والأنعام القويّة؛ لكنّه لا يلبث أن يوجّه الإنسان إلى هذه النقطة بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، وهي أنّ كلّ الحياة سفرٌ وأنّ الله يعرّفكم على الطريق الوسط والقاصد في سفر الحياة هذا. فمن الواضح، إنّ الله لا يريد أن يُظهر لنا مسير تحرّك من هذه المدينة إلى تلك المدينة، وطريق الوصول إلى المكان الفلانيّ، لهذا، لو قال ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾، فالمقصود مسير حركة الحياة والذي يكون على عهدة الله من أجل أن يُدرك الناس طريق الهداية بقطعه والسير عليه فيصلوا إلى السعادة. أمّا للأسف، إنّ البعض قد اختاروا الطريق المقابل لهذا المسير القاصد والمتوسط: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾. وقد استُعمل مفهوم الجور هنا مقابل مفهوم القصد، أي إمّا أن يتّخذ الإنسان مسير القصد والتوسّط والاعتدال، وإمّا أن يضع نفسه على طريق الجور والتجاوز والظلم والانحراف، لأنّ الطرق المنحرفة تقف مقابل الطريق المستقيم والمعتدل. وكما أنّ في قطع المسافة بين مدينتين ينبغي مراقبة الطريق وعدم الخروج من مسير الاعتدال، ففي مسير الحياة أيضًا يجب عليكم أن تختاروا ذاك الطريق الذي عرّفكم الله سبحانه عليه، وإلّا فإنّكم تسلكون طريق الجور.

بناءً عليه، نجد أنّ مفهوم الجور يقف مقابل مفهوم القصد، وكما جاء في كلمات الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**مَنْ تَـرَكَ الْقَصْدَ جَار**». فبين هذين المفهومين الواردين في القرآن وفي كلام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يوجد تقابل، والذي يترك الطريق الوسط

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٩.

القاصد ينحرف ويُبتلى بالجور والظلم ويخرج عن مسير الحقّ.



وفي تتمّة هذا الكلام، نجد الإمام عليّ عليه السلام وكأنّه يعدّد بعض مصاديق الانحراف عن طريق الاعتدال ويقول إنّ الإنسان السعيد هو الذي يقنع بما عنده. فالقناعة هي حدٌّ معتدل بين التبذير والخسّة والحسد. وبعبارةٍ أفضل، إنّ الإنسان القنوع هو الذي يجتنب الإفراط والتبذير والتفريط والخسّة في سلوكه. وفي الواقع، إنّ قناعته تستلزم رعاية الاعتدال والحدّ الوسط بين الإفراط والتفريط، والقناعة هي من مصاديق الاعتدال والوسطيّة. فمثل هذا الإنسان بحسب كلام عليّ عليه السلام هو إنسانٌ سعيد يتمتّع بالفضيلة. ومن الواضح، أنّ الاعتدال هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط. وبعبارةٍ أخرى، للاعتدال طرفان: أحدهما الإفراط والآخر هو التفريط. لهذا، يقول إنّ من أقبح جلساء الإنسان وقرنائه الحسد، والحسد هو خروجٌ وتجاوزٌ عن طريق الاعتدال وقد جعل الله لكلّ إنسان نصيبًا خاصًا من نعمه وقسّم لكلّ واحد رزقًا معيّنًا. لكنّ الحسود لا يقبل هذا الرزق المعيّن ولو كان بيده شيء فإنّه يتمنّى أن لا يمتلكه الآخرون، وهو لا يستطيع أن يتحمّل امتلاكهم له، فهو في الواقع فقد ابتُلي بنوعٍ من التفريط في الحقّ. ولا شكّ بأنّ هذا الطريق ليس مسير القصد والتوسّط بل هو يقينًا مصير الجور والظلم.

الاعتدال في الآمال والأماني

للإنسان فيما يتعلّق بمستقبله ثلاث روحيّات وحالات ذهنيّة: فأحيانًا يُبتلى بالاختيال المفرط ويعيش طوال الوقت في عالم الخيال والوهم؛ فهو يبني في ذهنه مثلًا عمارةً، ثمّ يقوم بتزيينها ويحصل على المنصب الفلانيّ ويدرك الثروة الفلانيّة في حين أنّ كلّ هذه الأشياء ليست موجودة في الخارج. من الواضح جدًا أنّ الشخص العاقل لا يجتنب مثل هذه الأفكار فحسب، بل حين يشاهد مثل هذه الأفكار والسلوكيّات في الآخرين يتعجّب كثيرًا ويقول في نفسه إنّ هذا الشخص ليس سالمًا ولا معتدلًا. وفي مقابل هذه الفئة، هناك أشخاصٌ لا يجرؤون أبدًا على اتّخاذ أي قرار حتى لا يخطر على بالهم أي فكرةٍ تظهر لهم قرارًا أو عزمًا جديدًا، فلا يوجد فيهم ذرّةٍ من الأمل بالانتظار والنجاح لكي يسعوا بسببها نحو أعمالٍ يوميّة خاصّة. فهؤلاء في الواقع، أمواتٌ؛ لأنّهم يعيشون على هامش الحياة،



وهم يتحرّكون غصبًا عنهم، وينتقلون من مكانٍ إلى مكان عبر تحريك الآخرين لهم ولقرارتهم ولا يقومون بأي نشاط.

فهاتان الفئتان بين إفراطٍ وتفريط وقد وقعوا بين مشكلة الإفراط والتفريط بشدّة.

أمّا حدّ الاعتدال فهو أن يكون للإنسان آمال وأماني معقولة مع رعاية الشروط وعلى أساس الوقائع الملموسة وبالتوكّل على الله المنّان والتوجّه إلى الوقائع الحاكمة على الوجود التي يشهدونها في جميع أرجاء العالم يتّخدون القررات. مثل هذا الإنسان ليس مختالًا إلى ذلك الحدّ الذي يخرجه عن الطريق إلى المقصد أو يبعده عن الوقائع وليس يائسًا من كلّ شيءٍ بحيث لا يجرؤ على أيّ إقدامٍ وفعلٍ بل يتحرّك على طريق الاعتدال.

■ سلسلة الأعمال الكاملة ■

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

صدر منها:

١- العروج إلى اللامتناهي

إعداد: السيد محمد رضا غياثي كرماني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
١٤٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٢- ذكر الله

إعداد وتقرير: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
١٠٠ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٣- زاد المسير

تدوين وتحقيق: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٦١٦ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٤- الموعظة الخالدة

تدوين وتحقيق: السيد علي زينتي.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٦٠٦ صفحات، ٢١/١٤ سم.